الألف كتاب
الثاني
٢٧٩

نويل مالكوم

البوسنة

ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٢

الشيخ/ عبد العزيز توفيق جاويد
شيخ المترجمين- القاهرة


البوسنة

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

محسنة عطية

مكتبة

شيخ المترجمين

عبد العزيز توفيق جاويد



تأليف

نويل مالكوم

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

هذه هى الترجمة العربية الكاملة للكتاب :

BOSNIA

A SHORT HISTORY
by

Noel Malcolm

فهـــــرس

« تقع البوســنة في قلب الحضارات التاريخية العظمى ومن العسير كتابة تاريخها ، لأنه يحتاج الى عدة لغات ومعرفة حوادث غاية في التعقيد • وبالنظر الى كارثة البوسنة اليوم ، فانه يحتاج أيضا لفهم لعالم ما بعد الحرب الباردة • وان تجميع كل هذه المواصفات في كتاب يمكن قراءته لهو مجهــود عظيم لايقــدر عليــه الا صنديد مثل نويل مالكوم فهو يتفوق على نفســه هنا ، ولا توجد صفحة من هذا الكتاب في غير موضعها . بدءا من بينــات الحفائــر وحتى الحكم الأخــلاقي في النهاية » •

نورمان ستون

المؤلـف

ولد نويـل مالكوم فى ١٩٥٦ ، وتلقى تعليمـه فى مدرسة ايتون وجامعـة كمبريدج ، حيث حصـــل على مرتبة الشرف ودرجـة الدكتوراه فى التاريخ • وهو زميل كليتى جونفيل وكايوس فى جامعة كمبريدج من عام ١٩٨١ حتى ١٩٨٨ ، ثم أصبح بعد ذلك محـرر الشئون الخارجية بجريدة السبكتاتور The Spectator وحاليا يحرر عموده السياسى فى جريدة الديلى تلجراف • وهو يعيش فى لندن ، ويعكف حاليا على كتابة تاريخ حياة توماس هوبز Thomas Hobbes .

المترجـــم

ولد بالقاهرة وتخرج فى كلية المعلمين العليا الأدبية عام ١٩٢٩ • اشتغل بالتدريس حتى رقى وكيلا لمدرسة مصر الجديدة الثـانوية عـــام ١٩٥١ ، فمديرا للمركز الرئيسى للتدريب بمنشية البكرى عام ١٩٦٣ • شغف بآداب العربيـة والانجليزية والفرنسية منذ حداثتـه وانضم لعضوية لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ • حاز جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة عام ١٩٨١ ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى • عنى بنقل أمهات الكتب الانجليزية وبعض الفرنسية : فى التاريخ ، معالم تاريخ الانسانيـة لولز وصنوه موجز تاريخ العالم ، وفى تاريخ الحضارات ، حضارة الاسلام (جرونيباوم) ، الحضارة البيزنطية (رانسيمان) ، الحضارة الهللينستية (تارن) ، ميلاد العصور الوسطى (موص) ، اضمحلال العصور الوسطى (هويزنجا) ،

فى علم النفس والتربية ، مدخل الى علم النفس الحديث (زانجويل) ، ثلاثية أرنولد جزل فى تربية الأطفال : الحضين والطفل ـ الطفل من الخامسة الى العاشرة ـ الشباب ، الطفولة وما بعدها (ســـوزان أيزاكس) ، سلوك الأطفال (فرنسيس ايلج) ، فى الســـياسة ومتفرقات أخرى ، آسيا والسيطرة الغربية (بانيكار). حول منع الحرب (جون استراتشى) ، أعلام وأفكار (هويزنجا) ، التاريخ وكيف يفسرونه (ويدجرى) ، التربية عن طريق الفن (هربرت ريد) ، وللأطفال . أليس فى أرض العجائب •

كلمة المترجم

هذا الكتاب يؤرخ لأمة عقدت نفسيتها بالقتال والحرب ، وعاشت تاريخها الطويل مدى ستة قرون أو تزيد في مضيعة لجهودها البشرية وتبديد لها ، في أتون الحديد والنار ، تريد حق قومية لها ، والقومية عصبية ، ولكن عصبية هؤلاء القوم كانت من النوع الدامي المدمر ، من النوع الذى يريد أن يستأصل شأفة كل من اعترضه ولو أتفه اعتراض وأن يجتثه من الأرض اجتثاثا ٠

عندما اشتراه حفيدى الدكتور حاتم توفيق أثنـــاء رحلة له ببلاد الانجليز ، سرنى أنه وقع على كتاب مشكلة الساعة ، فأقبلت على الاطلاع عليه بطريقة الهوينى ، والأحداث التى تحدث ببلاد البلقان دامية شائكة ٠ وتذكرت ما قاله المؤرخ الانجليزى هـ ٠ ج ٠ ولز فى كتابه المعالم(*) عن البلقان وأنها عويصة المشكلات لا قبل لأحد بحلها ٠٠ لم أعر ذلك الكلام كثيرا من الاهتمام حتى عام ١٩٩١ عندما بدا البلقـان على حقيقته : نار وشرر ولهيب وعداء بين اخوة فى العرق والدم ، ولكن الاحن (الأحقاد) تثور بينهــم لسبب لا يدريه الا الراســخون فى العلم والباحثون وراء أسباب الأمور ٠ وأول سبب ظهر لى أن هذه الأمم ذات الأصـل الواحد القادمة من شمال أوربا اختلف عند حلولهـا بديار البلقـان مزاجها : فاتجه بعضها الى مسيحية مصطبغة بالصباغ المانوى ، فهى تنكر الصلب ولا تعترف بالصليب والأيقونات ٠٠ وأبنـــاء عمومتهم الآخرون تأثروا ببيزنطة وعقيدتها فكان الصرب الأرثوذكس ، والفرقة الثالثـة المدعوة بالكروات كانت أقرب الى روما موقعا فاتخذت مذهبها الكاثوليكى سنة ومنهاجا ٠

ومن هنا بدأت الشحناء وبدأ التاريخ المعقد ٠ وزاد فى أوار الجحيم تباعد الشقة ووعورة البـلاد وكثرة ما فيهـــا من آكام وتلال وجبال ٠

(*) انظر هـ ٠ ج ٠ ولز معـالم تاريخ الانسانية للمترجم ، طبعـة هيئة الكتـاب ١٩٩٤ ٠

وكلما تقادم الزمن تعمقت العداوات والحزازات وزادت شقة الخلاف والتباعد ·

وفي العصر الحديث ، لم يفهم الأوربيون حقيقة الوضع ، أو أنهم لغاية في نفس يعقوب ، تظاهروا بالغباء · مثال ذلك أن جون ميجور ، رئيس وزراء بريطانيا ، كتب الى وزير خارجيته دوجلاس هيرد في مايو ١٩٩٣ موضحا أسباب احجام الحكومة البريطانية عن نصرة المظلومين في البوسنة والهرسك وكوسوفو ، وهي تشهد مصارع مئات الألوف منهم وتهجير المئات الآخرين ، ودمار مدنهم ومقدساتهم ، وانتهاك أعراض عشرات الآلاف من نسائهم وافناءهم بقذائف الصرب والكروات الذين تنهال عليهم أسلحة الغرب جزافاً :

١ ــ لا نوافق الآن كما أننا لن نوافق في المستقبل على تزويد مسلمي البوسنة والهرسك بالسلاح أو تدريبهم على استخدامه ·

٢ ــ اننا سنواصل دعمنا الحازم لابقاء حظر بيع السلاح المفروض من قبل الأمم المتحدة رغم معلوماتنا الموثقة الواردة عن دعم دول اليونان وروسيا وبلغاريا للجيش الصربي ، وقيامهم بتدريبه وتزويده بالسلاح والمعلومات ، فضلا عن قيام ألمانيا والنمسا وسلوفينيا وحتى الفاتيكان بالدور المماثل لدعم كرواتيا والقوات الكرواتية في البوسنة ·

٣ ــ يتعين علينا اتباع هذه السياسة حتى لحظة الوصول الى الهدف النهائي وهو تقسيم جمهورية البوسنة والهرسك ، ومنع قيام الدولة الاسلامية في أوربا ·

٤ ــ يجب أن نؤكد ضرورة اخفاء حقيقة التحركات السياسية الغربية وبأي ثمن عن كل الدول التي يمكن أن نسميها بالاسلامية ، بالذات عن تركيا فيما يتعلق بهذه المنطقة ، الى أن تهدأ الأمور في يوغوسلافيا السابقة ، ومن أجل هذا السبب نفسه يتعين علينا الاستمرار في الخدعة التي سميناها بخطة فانس ــ أوين لاحلال السلام بهدف عرقلة كل التحركات الى أن نقضي على دولة البوسنة والهرسك ويتم تهجير المسلمين منها » (*) ·

(★) انظر كتاب « قضية البوسنة ، دروس وعبر » · تأليف أشرف المهداوي - طبع دار الشواف بالرياض ، ص ١٤ ·

ولا شك في أن منطقة البلقان تختلف ـ في بعض جوانبها الاجتماعية وخلفيتها التاريخية ـ عن كثير من مناطق العالم التى وصلتها الرسالة الاسلامية ونشطت بهـــا قرونا مـن الزمن ·· ان جـذور هذه الخلفية التاريخية ترتد فى لبها الى تأثير الأديان المنتشرة فى المنطقة كما أسلفنا ، وخير دليل على ما ذهبنا اليه وجود صراع مرير بين قبائل البلقان ـ رغم انحدارها في الجملة ـ من أصل صقلبى (سلافى) واحد ·

واليكم ملخصــا لما ورد بعنوان « البوسنة والهرسك » فى دائرة معارف ايفريمان Everyman : هى ولاية من ولايات يوغوســـلافيا · ومساحتها الكلية ١٩٫٧٦٨ ميلا مربعا ، كما أن الشطر الأعظم منها يدخل فى حوض الدانوب · تكاد كلهــا أن تكون جبلية وعرة ، والألب الدينارية المطلة على الأدرياتى هى سلسلة الجبال الرئيسـية فيهـــا · والأنهـار الرئيسية بها هى نهر سافا فى البوسنة ونهر ناريتفا فى الهرسك · وفى البوسنة تعطى الغابات على منحـدرات الألب الدينـارية قدرا وفيرا من الأخشاب ، كما أن كلأ المراعى من نوع طيب جدا ، كمـا يزرع القمح ، والشعير ، والذرة بمقادير كافية للاستهلاك المحلى ، بينما يزرع التبغ والكروم فى أقصى الجنوب · وتزرع الفاكهة أيضا الى حد كبير ، كما أن البرقوق هو أعظم صادرات الفاكهة · وهناك تجارة ضـخمة بين تركيا وبين هاتين الولايتين · وفى عهـــد الادارة النمســاوية السابقـة أنشئت خطوط السكك الحديدية لتتصل بخطوط سكك حديد المجر ، كما أنشئت المواصلات البريدية والبرقية · ولم يبذل النمساويون الا أقل الجهد فى حل الصعوبات الزراعية بالبوسنة ، بيد أن كثيرا من الفلاحين أصبحوا الآن يملكون أراضيهم بحكم حقوق الارث ، بينما وضعت الترتيبات لنظام تعويضات لصالح الملاك السابقين · ويقوم بالبوسنة أيضا بعض مصانع الحديد ، ومناجم الفحم · والتعليم اجبارى فى البوسنة والهرسك وذلك ضمن النظام الجارى فى سائر أرجاء يوغوسلافيا ·

« **التاريخ** : ان تاريـخ هاتين الولايتين انما هو تاريـخ الليريا على شاطىء الأدرياتى · ومع هذا فالذى حـــدث بالتدريج بعـد الهجـرات السلافونية ، أن الضغط الخارجى وبخاصـة من قبـل المجر دفعهم الى الاتحاد تحت حاكم واحد ، ولكن تاريخ ذلك الجنس الى زمن متقدم من الفترة الوسطى يمكن اعتباره تاريخ جنس بشرى معتمد على الامبراطورية البيزنطية أو على المجر · وأخيرا فى القـرن الثالث عشر ، وقعت وقوعا

تها تحت هيمنة المجر وأصبحت أرضا مجـرية بقضها وقضيضها .
ولكنها ما لبثت في القـرن الرابع عشر أن أصبحت مملكة مستقلة .
ولم تلبث حتى وقعت في النهاية في القرن الخامس عشر في قبضة
الاتراك . وأصبح تاريخها تاريخ جنس مقهور . وسرعان ما استولى
المسلمون في البـلاد على السلطة كاملة وترك السكان المسيحيون تحت
رحمتهم الى حـد كبير . وفي ١٨٧٥ حدث فوران مسيحي وانضـم الى
المسيحيين في السنة التالية كل من الصرب والجبل الأسود ، وأخيرا في
١٨٧٧ أعلنت الروسيا الحرب على تركيـا . وبمقتضى معاهدة برلين في
١٨٤٨ ، سلمت الولايتان الى الاحتلال العسكري النمسوي ، وتم الاحتلال
في ظل ظروف صعبة أقصى صعوبة ، ولكن حدث في ظـل الاحتـلال
النمسوي تحسين عظيم في مركز البوسنية (البوشـناق) . كانت
الولايتان في ١٩٠٣ قد بلغتا درجة أكثر رغدا مما كان منذ أول عهدهما
بالاحتلال التركي قبل ذلك بأربعمئة عام ، وذكرت حركة « تركيا الفتاة »
النمسا أن الاصلاح الجاري حدوثه بتركيا ربما أدى الى تقوية شـديدة
لميراثها العسكري ، بحيث تستطيع المطالبـة باخلاء المقاطعتين ، وبذلك
يصبح حقا للترك شرعيا ، التقدم وجميع الاصلاحات التي تمت تحت ظل
الادارة النمسوية . وانتهزت النمسـا فرصة ضعف الروسيا والاعلان
الملزم لاستقلال بلغاريا . فأعلنت ضم البوسنة والهرسك اليها في الثامن
من أكتوبر ١٩٠٨ ، وهناك نتيجة لذلك الضم النمسوي هي اثارة خلاف
بين الكروات والصرب ، فأما الأولون فقد ساندوا النمسا على أساس من
رابطة الدين، بينما راح الصرب يعتقدون أنه على أسـاس انحدار قوة
الترك ، قد كان ينبغي أن تلحق البوسنة بهم لأسباب تاريخية وعرقية ،
وفي اليوم الثامن والعشرين من يونيو ١٩١٤ اغتيل ولي العهد الهابسبرجي
بمدينة سراييفو على يد شابين بوسنيين من رعايا النمسا ، وتبع ذلك قيام
الحرب العالمية الأولى ، وفيها لقيت البوسنة آلام ما شهدته من انفجار نار
الحرب بين النمسا والصرب . وبانهيار الامبرطورية النمسـاوية تحقق
الحلم في قيـام اتحاد صربو كرواتي ، وبمقتضى دسـتور يونيو ١٩٢١
اندمجت خطوط البوسـنة بخط المملكة الجديدة للصرب والكروات
والسلوفين » (*) .

فما أشقى هؤلاء القوم الذين يعذبون بعضهم بعضا .. والتسامح
أكرم وأصلح ! ..

(*) انظر Everyman's Encyclopaedia ، مادة Bosnia .

وظلت أوربا تتقاعس وتتلكأ بقيادة انجلترا وفرنسا وأمريكا تحثهم على وضع حد للمذابح البشعة ، فلا تحركان ساكنا ، حتى دفعت بعض الدوافع بالرئيس كلينتون ، فتدخل في الأمر وجمع الجميع في دايتون حيث أتم ضربا من المعاهدة التى تضع حدا لسفك الدماء ، وتجر الجميع الى احقاق الحق ورفع الاجرام البشع عن مسلمى البوسنة • حتى بدأت الظلمات تتقشع اليوم ، ولكن على بطء شديد وتمنع عنيف من صربيا التي يريد أهلها بالقوة والبهتان والعدوان أن يشيدوا صربيا العظمى ، ويستولوا على ما ليس لهم من بقاع •

وقد شرعت في قراءة هذ الكتاب ونقله الى العربية بوصفه موضوع الساعة الماثل أمام كل رأى وكل فكر ، بجميع أركان المعمورة ، وأنا متوجس شرا من المؤلف ، خوفا من أن يعمد على طريقة بعض المؤرخين الأوربيين الى قصر موضوعه على النيل من الاسلام والمسلمين ، جريا على عادة كثير من الصحفيين ، ومن المؤرخين غير المتثبتين • ولكنى وجدته يتبع طريقة شيخ المؤرخين ببريطانيا فى هذا الزمان ، أرنولد توينبى . من احقاق الحق وازهاق الباطل • وان أنس من الأشياء لا أنس قوله بصدق في شأن اسرائيل : « لا أدرى كيف يمكن أن شعبا مر بأرض أو سكن بها بضعة وسبعين عاما ، •• أن يدعى ملكيتها وملكية ما جاورها من بلدان ؟! •• » (*) ، على هذا النهج سار المؤلف نويل مالكولم عادلا متوازنا ، يقول كلمة الحق في وجه دوجلاس هيرد ولورد أوين ، وزيرى خارجية بلاده وفانس الأمريكى حين ينزعون عن طريق العدل المستقيم • ثم رأيته لا يذم الاسلام والمسلمين ولا يحملهما تبعة أى شيء وانما يحلل كل شيء تحليلا منهجيا ، مع الرجوع الدائم الى المراجع الثبتة والأسانيد الصحيحة المدعمة بالمصادر والتواريخ • انه لا يخشى في قولة الحق لومة لائم اتباعا للمنهج العلمى الصحيح • ومن هنا أدركت أن هذا الكتاب ، بما فيه من مادة علمية صحيحة ، هو الجدير بأن يطلع عليه أبناء الضاد وأتباع الاسلام الذين يضيق بهم وبما يحملون من الحق ، الناس الذين ينوشونهم من بين أيديهم ومن خلفهم •

وبعد طبع الكتاب ونشره بالانجليزية ظلت معركة البوسنة على ميزان ضيزى ، يهضم المسلمين وينكل بهم ويقتلهم جماعات وزمرا ، ويدفنهم أحياء وأمواتا بالمئات في مدافن جماعية بصورة تشيب لهولها

(*) انظر هـ• ج• ولز : « معالم تاريخ الانسانية » ، للمترجم ، هيئة الكتاب ١٩٩٤ •

الولدان دون أن تتحـــرك دول الغرب خاصـــة بريطانيا وفرنسا قادة السياسة الأوربية ، اللتين حاولتا كف يد أمريكا عن الموضوع كله وتركه تحت أراجيف أكذوبة « فانس ـ أوين » ، الى أن تنبـه رئيس الولايـات المتحدة الأمريكية بيل كلينتون فرفض ترهات أوربا ومجالسها المنافقة ، وجمع الجميع بأمريكا في مؤتمر دايتون (ديسمبر ١٩٩٥) ودعاهم الى توفيقات · ثم لاحقهم بالجيوش في عقر دارهم ، حتى اذا رآهم أخـذوا يتناوشون وينحنون لالتقاط أسلحتهم أوقفهم عنـــد حدهم وجمعهم في مؤتمر ثان بروما ، حيث أرجعهـــم الى صوابهـم ثم أعادهم لبـلادهم ، وأخذ يفك اشتباكاتهم ، وينفذ ما في المعاهدة من الغـاء لتقسيم المدن والأراضي والبلدان ووضع كل شيء موضـــعه الصحيح · ومن عجب أن الصرب كلما أخلت مكانا ليعود لاستـلامه المسلمون دمرته وأعملت فيه التفجير والنار · ويطالبونهم بتسليم مجـرمي الحرب ليحاكمـوا في المحكمة المقامة بهولندا ، فيتملص المجرمون وكلهم مجرمون · وعلى كل ، فان الوضع اليوم أفضل كثيرا عن ذى قبل · فلا قتل ولا دفن لمئات ، بل يلزم كل حدوده ، حتى تهدأ النفوس ·

ويهمني أن أوجه نظر القارىء الى المعجـــم التوضيحي الى جانب الفهرس الأبجدى اللذين وضعهما المؤلف خدمة للمادة العلمية بالكتاب ·

ويسرني أن قد أعانتني في هذا الكتاب ابنتي المهندسة شيرين توفيق عزيز التي سجلته لي على شرائط باللغة الانجليزية ، فقمت بترجمته على شرائط بالعربية ، ثم عادت فاستخرجته على جهاز الكمبيوتر ، فلها الشكر والدعاء أن يباركها الله · والى القارىء هذا الكتاب السمح الصادق ·

ع·ت·ج·
حي شيراتون المطار
٢٧ مارس ١٩٩٦

الاعتراف بالفضـل

ان أعظم ما أنا آسف له هو أني لم تتح لى فرصة العمل فى مكتبات سراييفو عندما كان ذلك الأمر لايزال ممكنا • وانى لمدين بالشكر الى هيئات العمل القائمين على تلك المكتبات التى قمت بين آكنافها بكثير من أعمال البحث العلمى اللازم لهذا الكتـاب : وهى دار الكتب القومية بباريس ، ومكتبة بودليان بأكسفورد ، والمكتبة البريطانية بلندن ، ومكتبة جامعة كمبريدج ، ومدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن ، وفوق كل شىء مدرسة الدراسـات السلافونيـة والأوربية الشرقية بلندن • وانى شـاكر بوجه خاص أفضـال كل من أنطونى هول وجون لفلاند وجون لندن وبرانكا ماجاش وجورج ستامكوسكى ، على تلك المساعدة التى بذلوها فى توفير أو البحث عن أماكن تواجد المطبوعات التى يعسر الوصول اليها • كما أنى مدين أيضا بالشكر الى أندرو جواتكين على المساعدة التى أسداها فى عمليـة معالجة النصوص ، والى مارك والينجيل وكريس بورك على تصميمهم واخراجهـم الخرائط لهـذا المجلد • وان ما أنا مدين به من دين لمن سبقونى من كتاب حول البوسنة ، سيتجلى بأوفى صـورة فى تلك الملحوظات التى أوردتها فى آخر الكتاب ، ولكننى أتمنى أن أذكر بالتنويه الخاص الى الأسـتاذية البينة الواضـحة لجون فاين ، التى أفدت منها فائدة عظمى • وانى لأحب أن أسجل دينا على من الشكران لجون يارنولد وسابا رسـال الدين وبن كوهين وجـورج سـتامكوسكى ومايو توبولوفاك على كل ما فعلوه أثناء السنة الماضية لتوفير المعلومات الصحيحة المضبوطة لوسائل الاعلام البريطانية وللعـالم كله حـول ما كان يجرى حقـا بالبوسـنة •

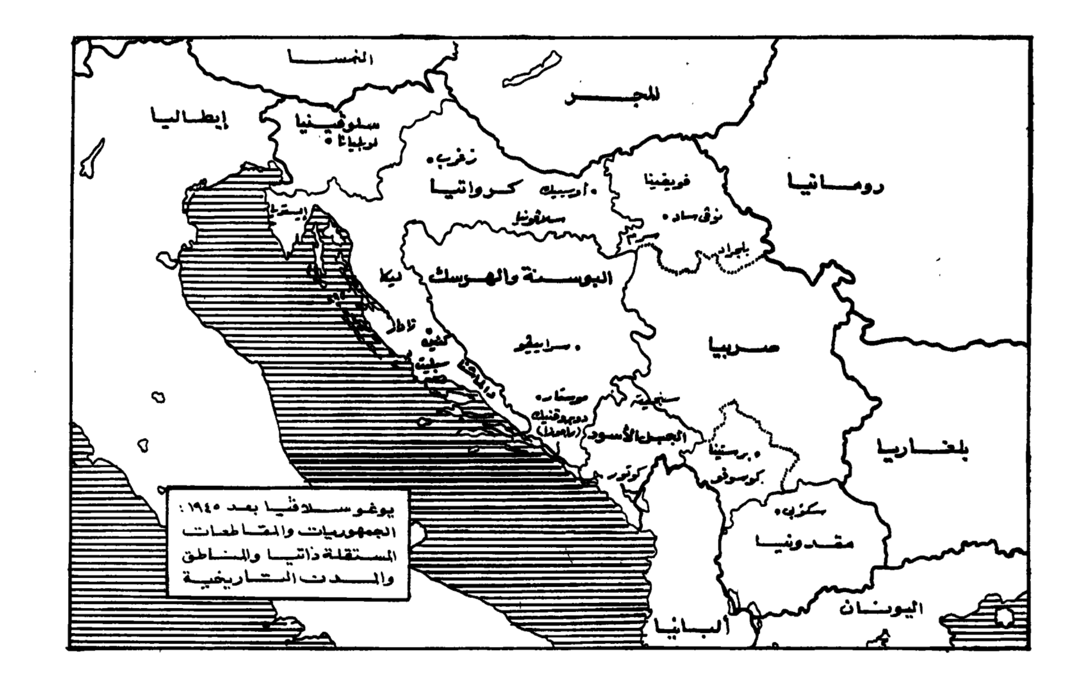
نويـل مالكوم

ملاحظة حول الأسماء وطريقة النطق

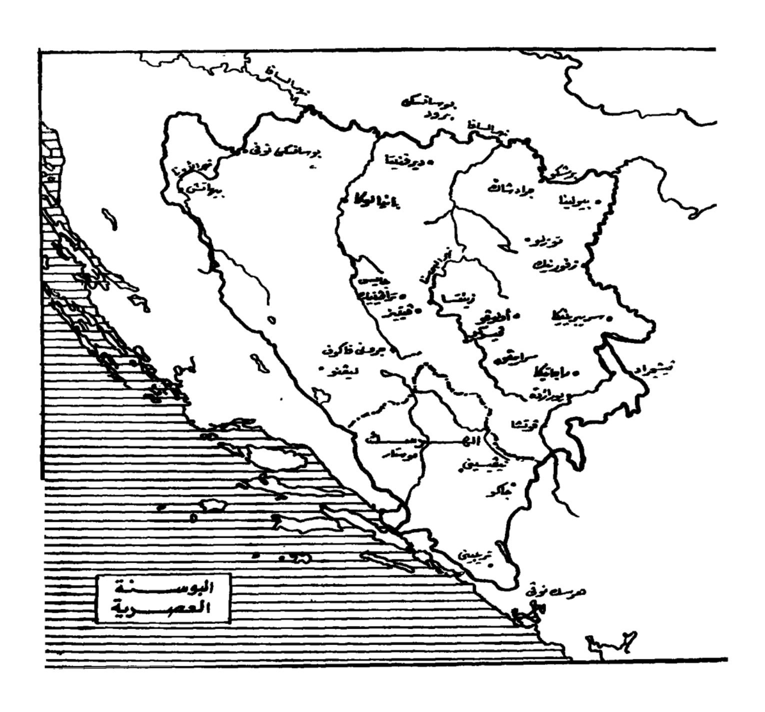
سيلحظ القراء أني استخدمت مصطلح « راجوزا » حتى زمن مبكر من القرن التاسع عشر ، و « دوبروفنيك » بعد ذلك · ولأسباب مماثلة أشرت الى البوسنيين الأرثوذكس والبوسنيين الكاثوليك حتى أخــريات القرن التاسع عشر أو أوليات العشرين ، والى الصرب البوسنيين والكروات البوسنيين بعد ذلك · أما أسماء الأقاليم مثل صربيا ، فانها تستخدم بصورة عامة ما لم يكن السياق يدل على خلاف ذلك ـ للاشارة الى مناطقها الجغرافية فيما بعد ١٩٤٥ · وحيثما استخدمت البوسنة كمصطلح جغرافي ، فان معناها في العادة كامل الأراضي التي تضـمها البوســنة والهرســك · والاستثناءات الوحيدة في هذا الوضـع هي عندما أشــير الى « البوسنة الحقة » (وهو أمر معناه : اســقاط الهرسك من الموضوع) ، أو عندما يدل السياق بوضوح على أني انما أشــير الى البوسنة في تميز بالتباين مع الهرسك ·

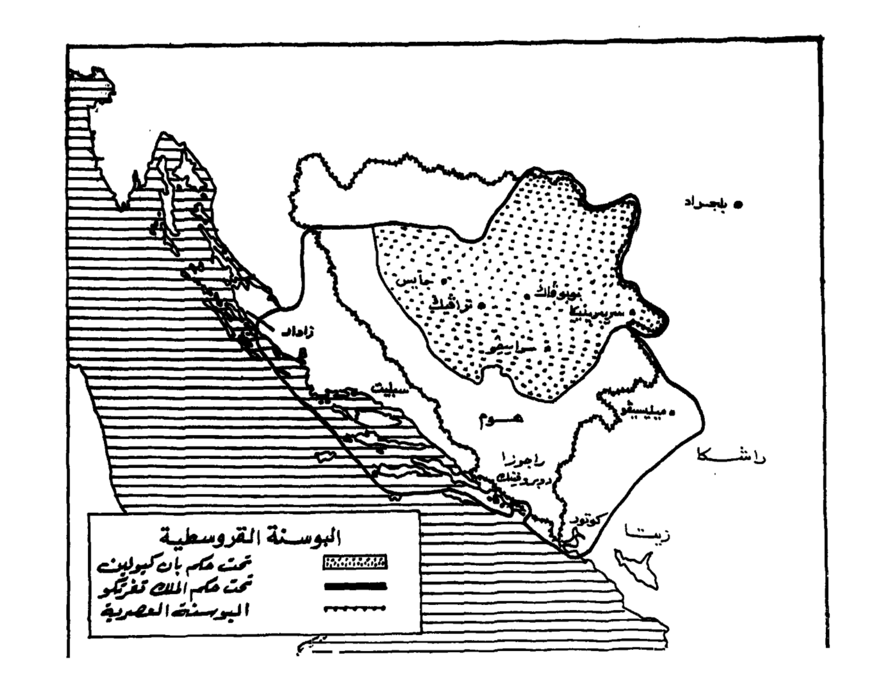
وعندما يكتب عن كيان متعدد اللغات ومتعدد القوميات كالامبراطورية العثمانيــة مثــلا ، فان من الضروري أن تستخدم مصطلحات مأخوذة من أكثر من لغة واحدة · ولقد جنحت الى اســـتخدام الأشكال التركيـــة للمؤسسات العامة التابعة للامبراطورية (مثل الدوشرمة) والأشـــكال الصربوكرواتية للدلالة على تلك التي اما كانت مما تختص به البوسنة ، أو أدمجت في المصطلحات الجغرافية المحلية (مثل قابيطانية أو سنجقية)· وعند توافر الشكل الانجليزي (مثل « سباهي ») ، فقد استخدمته · وأما في حالة أسماء الأشخاص فاني حولت للانجليزية عددا قليـــلا مــن الأسماء القروسطية من التي جــاءت في وفرة مربكة من الأشكال (مثل ستيفان وستيبان وستييبان) ، كما أني حاولت أن ألتزم بشكل أو (فورمة) موحدة لتلك الأسماء العثمانيــة التي تدمج بها الألقــاب (مثل حسين قابيطان وسيفوش باشا) ·

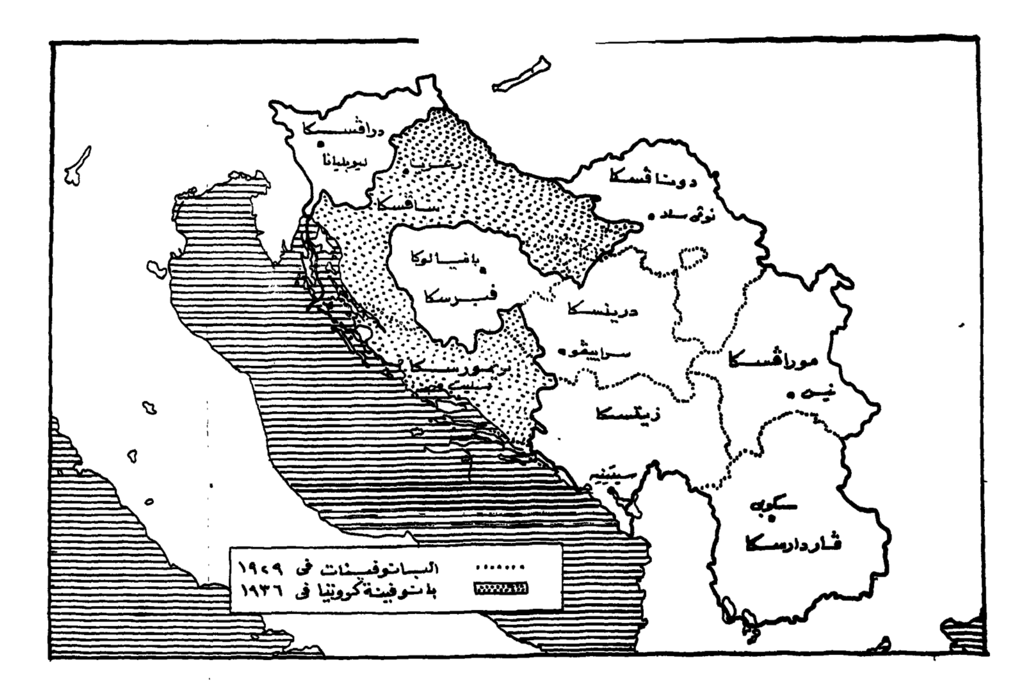
نويل مالكوم



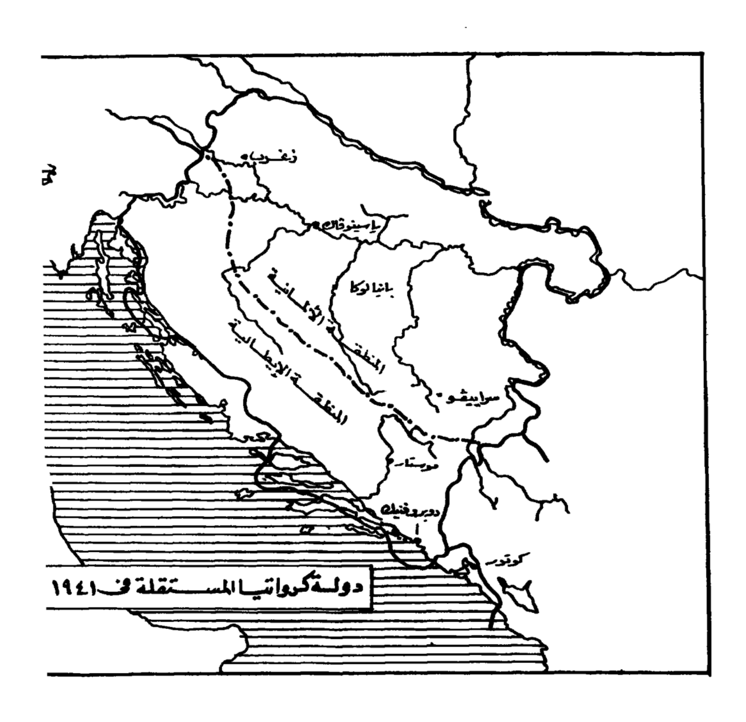
يوغوسلافيا بعد ١٩٤٥ :
الجمهوريات والمقاطعات
المستقلة ذاتيا والمناطق
والمدن التاريخية
النمسا
المجر
إيطاليا
سلوفينيا
لوبليانا
زغرب
كرواتيا
اوسييك
سلافونيا
إيستريا
فويفدينا
نوفي ساد
رومانيا
بلجراد
البوسنة والهرسك
ليكا
زادار
سراييفو
صربيا
دالماسيا
موستار
دوبروفنيك
الجبل الأسود
بلغاريا
بريشتينا
كوسوفو
سكوبيه
مقدونيا
اليونان
البانيا


البوسنة
العصرية
بوسانسكي
برود
جراداشاك
بيولينا
توزلو
زفورنيك
زينشا
سربرينيكا
سراييفو
فيشجراد
فوتشا
بانيالوكا
ليفنو
موستار
نيكشيتش
تربينيي
هرسك نوفي


البوسنة القروسطية
تحت حكم بان كيولين
تحت حكم الملك تفرتكو
البوسنة العصرية
بلجراد
جايس
بوبوفاك
ترافنيك
سربرنيكا
سراييفو
زادار
سبليت
هوم
ميليشيفو
راشكا
راجوزا
دوبروفنيك
كوتور
زيتا



درافسكا
ليوبليانا
زغرب
سافسكا
دونافسكا
نوفي ساد
بانيالوكا
فبرسكا
درينسكا
سراييفو
بريمورسكا
زيتسكا
موراڤسكا
نيش
سكوبيه
ڤاردارسكا
البانوفينات فى ١٩٢٩
بانوفينة كرواتيا فى ١٩٣٦



دولة كرواتيا المستقلة في ١٩٤١

مقدمة

سيذكر الناس سنتي ١٩٩٢ و ١٩٩٣ على أنهما السنتان اللتان دمرت فيهما دولة أوربية ٠ كانت دولة تاريخها السياسي والثقافي مختلف عن مثيليهما في كل دول أوربا الأخرى ٠ وتراكبت فيها الأديان الكبرى والقوى العظمى في التاريخ الأوربي وامتزجت هناك : امبراطوريات روما وشارلمان والعثمانيين والنمسا والمجـــر ، فضـــلا عن المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية واليهودية الاسلام ٠ ولا مراء في أن هذه الحقائق وحدها تعد سببا كافيا لدراسة تاريخ البوسنة بوصفها موضعا له أهميته الفريدة ٠ ولكن الحرب التي غمرت بأتونها هذا القطر في ١٩٩٢ ، أضـــافت سببين محزنين يدعوان الى دراســـة تاريخها دراسة تمحيص وتعمق : فأما أول السببين فهو الحاجة الى فهم أصول ذلك القتال ، وثانيهما هو الحاجة الى تبديد بعض جوانب سوء الفهم ، والخرافات والجهل المطبق بالأمور التي اكتنفت جميع شئون البوسنة وتاريخها ٠

والثانية من هاتين الحاجتين هي أمسهما بكل تأكيد ٠ ومن المتناقضات العجيبة أن أهم داع يدعو الى دراسة تاريخ البوسنة هو أنه يمكن المرء من أن يرى أن تاريخ البوســـنة **في حد ذاته** لا يفسر فصـــول هذه الحرب ٠ ولا شك في أن الحرب لم تكن لتنشب لولا أن البوســـنة هي ذلك الشيء الغريب الذي كانته ، والذي جعل منبا هدفا لأطماع ومصالح خاصة ٠ على أن هذه المطامع كانت موجهة الى البوسنة من خارج الحدود البوسنية ٠ وأعظم عائق حال دون فهم ما كان يحدث انما هو افتراض أن كل ما حدث في ذلك القطر جاء نتاجا ـ طبيعيا وتلقائيا وفي نفس الوقت ضروريا ـ لقوى، تكمن كلها في تاريخ البوسنة الداخلي ٠ تلك هي الخرافة التي أشيعت في طول الأرض وعرضها بحرص شديد على لسان الذين تسببوا في الصراع، والذين أرادوا أن يجعلونا نعتقد أن ما يفعلونه هم وحملة البنادق من رجالهم لم يتم بأيديهم ، بل على أيدي قوى تاريخية لا سبيل لأحد الى التحكم فيهـــا ٠

وصدقهم العالم مع الأسف ! وعلى مؤرخى المستقبل أن يحكموا اى الحجج كان لها وزنها حقا فى عقول رجال السياسة فى أوربا وأمريكا ، عندما كانت ردود أفعالهم ازاء القتال الناشب فى البوسنة ، هى اتخاذ سياسات لم تقف عند حد الاخفاق فى حل المشكلة بل زادتها بالفعل وبالا والشىء الواضح هو أن عقولهم كانت مملوءة مسبقا بضباب من الجهالة التاريخيـة . واليكم مثلا الرأى المتروى لرئيس الوزارة البريطانيـة جون ميجور حيث قال فى مجلس العموم بعد نشـوب الحرب بأكثر من سنة كاملة :

« ان أعظم عنصر منفرد يقف وراء ما حدث فى البوسنة هو انهيار الاتحاد السوفييتى وذلك الانضباط الذى فرضه فى يوغوسلافيا القديمة على الأحقاد والكراهيات القديمة . فما كاد ذلك النظام يتوارى عن الأنظار حتى عادت الى الظهور تلك الأحقاد القديمة وشرعنا نرى عواقبها عندما بدأ القتال . نعم ان هناك عوامل جانبية كثيرة ، ولكن ذلك الانهيار كان أعظمها جميعا » . (هانسارد ١٩٩٣/٧/٢٣ عمود ٣٢٤) .

ومن العسير علينا أن نعرف من أين نبتدىء التعليق على مثـل هذا القول فان « الانضباط » المفروض من الاتحاد السوفييتى على يوغوسلافيا انتهى الى نهاية مفاجئـة أعدت لها دعاية جيدة فى ١٩٤٨ ، عندما طرد ستالين تيتو من منظمة الكومنفورم . ولعل المستر ميجور كان يحـاول الاشارة الى قرار الزعماء الشيوعيين من أمثـال سلوبودان ميلوشيفيتش لتسييل ينابيع القومية والوطنية من أجل أغراضهم السياسية الخاصة ، بيد أن هذه العملية كانت ماضية فى طريقها ببلاد الصرب منذ صيف ١٩٨٩ ، قبل « انهيار الاتحاد السـوفييتى » ، بسنتين ، كما أنها من نواح كثيرة لم تكد تفترق كثيرا عن استغلال القومية على يد الزعماء السياسيين السابقين داخل النظام الشيوعى مثل نيكولاى تشاوشيسكو . ولا شك فى أن الفكرة الذاهبة الى أن الشيوعية فى حد ذاتها على وجه الاجمال كانت تقوم بدور « الضابط » العظيم وتضـع القومية تحت قبضتها ، فكرة خاطئة تماما . والحقيقة أن الحكومات الشيوعية كانت اما تثير القومية أو تتولى تحريكها وتوجيهها لأهدافها الخاصة ، واما أن تجعلهـا تفسد وتصبح أكثر وبالا بخلق شعب محبط سياسيا يسيطر عليه الاحساس بالاغتراب ، واما أن تأتى بالاثنين معا فى غالب الأحيـان . وهذا الأثـر المزدوج واضح اليوم تماما فى معظم دول شرق أوربا ، حيث تقوم ما تسمى باسم الأحزاب « اليمينية المتطرفة » بجمع الناخبين العاديين الذين أثارته

نفوسهم الرموز الدينية أو التاريخية منذ أيام عصر ما قبل الشيوعية ، والسياسيين الذين أمضوا شطرا من حياتهم فى عضوية الحزب الشيوعى أو خدمة أمن الدولة • وذلك ، الى حد ما ، هو ما حدث فى صربيا أيضا •

ويتجلى الجانب الآخر من الجهل بالحقائق فيما عبر عنه جون ميجور فى هذه الملاحظات التى كررها معظم الزعماء الغربيين فى تعليقاتهم على حرب البوسنة ، ونعنى بذلك ادعاء أن كل شىء حدث فى البوسنة منذ ربيع ١٩٩٢ انما هو تعبير عن « الكراهيات العرقية القديمة » التى تفجرت من تلقاء نفسها • فأما أن الكراهيات والمنافسات كانت موجودة بأرض البوسنة فذلك شىء لا ينكره أحد ، وقد بالغ أولئك الكتاب الذين صوروا البوسنة فى السنتين السابقتين على أنها أرض العجائب فى الانسجام الدينى الدائم • ولكن نظرة أعمق الى تاريخ البوسنة لابد أن تظهر أن العداوات التى كانت موجودة فعلا لم تكن مطلقة ولا ثابتة كما أنها لم تكن نتائج لا مفر منها لخلط مجتمعات دينية متنوعة مع بعضها • لم يكن الأساس الرئيسى للعداوة عرقيا ولا دينيا وانما هو اقتصادى ناشىء عن الامتعاض الذى كانت تحسه جماعة الفلاحين (الذين كان أغلبهم ، وليس كلهم من المسيحيين) نحو ملاك الأراضى المسلمين • ولم تكن هذه العداوة مطلقة قابلة لايمكن التخفيف منها : فانها كانت تتغير بتغير الظروف الاقتصادية ، كما كانت أيضا خاضعة للضغوط السياسية التى بدلت بصورة جوهرية موقف الطبقة مالكة الأراضى أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر • كما أن العداوات بين المجتمعات الكاثوليكية والأرثوذكسية كانت أيضا عرضة لمؤثرات متقلبة مثل المنافسات بين رجال الطبقات العليا للكهنوت فى الكنائس . والضغوط السياسية من الأقطار المجاورة ، وهكذا •

ولم تكن العداوات لتقيم لها بنيانا مستديما فى نفسيات الناس الذين كانوا يعيشون بأرض البوسنة ، فانها كانت من ثمار التاريخ ، وكان فى الامكان أن يلم بها التغير بتطور التاريخ • فقد تآكلت الأسباب الاقتصادية للكراهية بفضل التغيرات والاصلاحات قرب نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، حتى زالت الى حد كبير • فأما الأسباب الدينية للكراهية فقد نقصت فى النصف الثانى من القرن العشرين بفضل انتشار العلمانية بأشكالها (سواء منها الطبيعى وغير الطبيعى) • وخلال معظم المدة بعد ١٨٧٨ ، ظلت مختلف الفرق الدينية أو العرقية فى البوسنة تعيش معا بسلام آمنة : فأما حادثتا العنف العظميين بعد ذلك ـ أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة ، وأثناء سنوات الحرب العالمية الثانية الأربع ـ

فكانتا استثناءين ، آثارهما وزاد في أوارهما مسببات جاءت من خارج حدود البوسنة • ومنذ ثاني هاتين الحادثتين الرهيبتين ، نشأ وترعرع جيلان كاملان ، هما الغالبية العظمى من السكان البوسنيين ، لا يحملون في صدورهم أية ذكرى شخصية للقتال الذي جرى في تلك الحرب ، ولا يضمرون أية رغبة خاصة في احيائها •

وغني عن البيان أن من السهل استعراض تاريخ قطر مثل البوسنة والتقاط أمثلة ونماذج الانقسامات الاقليمية والعنف وعدم الضبط والانضباط • فشواهد ذلك كثيرة قائمة وسيجد القارىء كثيرا منها في صفحات هذا الكتاب • بيد أن التاريخ السياسي لبوسنة أخريات القرن العشرين لم يدخل في تحديده ما حدث في القرن الثالث عشر أو الثامن عشر • فأما المعلقون الذين يحبون أن يقدموا براهين تاريخية مجموعة في عجلة وتسرع تؤيد ما يسطرون من قول ، فيستطيعون التقاط بضعة أحداث دموية قليلة من الماضي ويقولون : « كان الأمر على الدوام على هذا النحو » • وفي امكان أي امرىء أن يمارس نفس الأسلوب ازاء التاريخ الفرنسي مثلا ، منتقيا الحروب الدينية في القرن السادس عشر والفظائع البربرية التي حدثت يوم مذبحة سانت بارثولوميو ، والثورات الاقليمية الكثيرة الحدوث ، وحرب الفروند ، والمعاملة الوحشية التي عومل بها الهوجونوت في ١٦٨٥ ، والوحشية الرهيبة وعمليات الاعدام الجماعي الذي أعقب الثورة الفرنسية ، وعدم الثبات الذي ساد سياسات القرن التاسع عشر ، بل حتى قصص التواطؤ مع الغزاة والمقاومة في الحرب العالمية الثانية • لكن لو حدث أن عددا من السياسيين والقادة العسكريين المؤزرين من الخارج ، بدءوا في قذف باريس بقذائف المدفعية الثقيلة غدا ، ما أمكننا أن نقعد مع القاعدين ونقول : « ان ذلك كله نتيجة العداء والكراهيات الفرنسية العتيقة » • بل سيحتاج الأمر منا نظرة تدقيق أكثر لنتفحص الأصل والطبيعة الحقة لتلك الكارثة بعينها • ذلك ما حاولنا أيضا فعله في هذا الكتاب •

والميزة العظمى لفرنسا على البوسنة ، هي أن تاريخها معروف معرفة أكيدة في طول العالم وعرضه كما أنه مدروس دراسة عميقة مستفيضة • فأما في حالة البوسنة ، فلسنا نعرف الا النزر اليسير بحيث أصبح من العسير علينا أثناء السنتين الأخيرتين أن نميز بين ضباب الجهل وستار دخان الدعاية المضلل • ألا ترى أن وجود البوسنة نفسه ظل ينكره بعض الكتاب الذين أكدوا بكل ثقة أن « البوسنة لم تكن في يوم من الأيام دولة » • فعندما كلف اللورد أوين بمهمة المفاوض عن المجموعة الاقتصادية

الأوربية في يوغوسلافيا عام ١٩٩٢ ، نصحه أحد الكتاب الصحفيين في عموده اليومي بكل ثقة مؤكدا له أن الحدود الداخلية ليوغوسلافيا انما هي حدود ادارية بحتة وأنها تخوم وهمية كالتى فرضها فى أفريقيا الحكام الاستعماريون • وكثيرا ما سمعنا بعض هؤلاء الكتاب يدعون أن حدود البوسنة انما هى اختراع وضعه تيتو ، ولكن الحقيقة هى أن تيتو ببساطة انما أعاد حدود البوسنة كما كانت في العهد الأخير للامبراطوريتين العثمانية والنمساوية المجرية • وكما سوف يكتشف القراء فان بعض أجزاء هذه التخوم اخترعت اختراعا فى معاهدات تعود الى القرن الثامن عشر ، وأجزاء أخرى عكست حدودا أقدم كثيرا ، مثل التقسيم الفاصل بين البوسنة وصربيا على امتداد نهر الدرينا ، الذى ورد ذكره فيما أورده المؤرخ كيناموس فى أخريات القرن الثانى عشر •

ومن الجلى أن المعلومات التاريخية الخاطئة التى رددتها أجهزة الاعلام الأوربية فى السنتين الأخيرتين قد أقحمت على الموضوع تحت تأثير الأساطير السياسية والقومية التى تدافعت موجاتها من داخل يوغوسلافيا السابقة ، وظل الكروات أكثر من قرن من الزمان يكتبون الكتب التىتحاول أن تثبت أن البوسنيين « فى الحق » كروات ، كما ذهب الصربيون بالمثل وبدون انقطاع الى أن البوسنيين « فى الحق » صربيون • وآخر صيحة بعد ذلك أن الكروات قد ادعوا أن جميع المواطنين الصربيين انما هم فى الحقيقة « تشيتنيك » (وهى حركة المقاتلين غير النظاميين الصربية المتطرفة) ، كما حاولوا أن يظهروا زعيم التشيتنيك فى الحرب العالمية الثانية ، وهو دراجا ميهايلوفيتش بأنه سفاح للشعوب • ووصفت الدعاية الصربية جميع القوميين الكروات بأنهم « أوستاشا » (وهى حركة متطرفة كرواتية فى الحرب العالمية الثانية) ، كما أنهم عمدوا الى قصة الفرقة العسكرية المسلمة فى الجيش الألمانى ، فنبشوها من قبرها كوسيلة الى الاشارة الى أن المسلمين البوسنيين اما أن يكونوا نازيين أو أصوليين أو يجمعون بين الاثنين • أما الذين وقعوا أسرى فى الوسط من هذه المنازعات كلها وهم المسلمون ودعاة التعددية فى البوسنة ، فقد تركوا ليمنوا أنفسهم بأى خرافة أو أسطورة تعجبهم : أسطورة البوجوميل أو أسطورة السلام والانسجام الدائم فى البوسنة أو أسطورة تيتو • وليس فى امكان أى معلق أو مؤرخ أن يختار طريقه بين جميع هذه الأساطير المتناحرة دون أن يحدث بعضا من التكدير المذهبى لجميع الأطراف ، ولن يرضى المرء عن فعل ذلك متى وصل الى أن يعرف وأن يحب ، ليس فقط البوسنة بل أيضا كثيرا من الصفات الخاصة لسكانها • وفى نفس الحين فان وجود نموذج متشابه من الادعاءات والمبررات المتناقضة لا يعنى أن المرء يستطيع الوصول الى

نتيجة دقيقة بمعالجته كل الادعاءات على أنها متساوية والاكتفاء بتحديد معدل الحقيقة في كل منها • وليس عندى أدنى شـك بأن عبء مسئولية تدمير البوسنة يقع معظمه بالضرورة على جانب واحد ، وحاولت فى الفصول الأخيرة من هذا الكتاب أن أبرز الأسباب التى دعتنى الى هذا الاعتقاد •

وهناك طريقة مؤكدة تماما لتقييم الادعاءات التاريخية التى يرددها دعاة استخدام العنف الرئيسيون في البوسنة ، وهى النظر فى كل ما فعلوه لتدمير الدلائل المادية للتاريخ نفسه • فانهم لا يقتصرون فقط على تدمير مستقبل ذلك القطر ، وانما هم أيضا يبذلون جهودا منظمة لمحو ماضيه ، حيث دمرت دار الكتب الوطنية والجامعة في سراييفو بقنابل حـارقة • وأما معهد الدراسات الشرقية ، بما حوى من مجموعة لا يمكن تعويضها من المخطوطات والمواد الأخرى التى توضح التاريخ العثمانى للبوسنة ، فقد دمر هو الآخر بتركيز القصف بالقنابل عليه • وفي كل أرجاء البلاد أزيلت من الوجود جميع المساجد والمآذن بما فى ذلك بعض أبدع نماذج عمارة القرن السادس عشر العثمانية ببلاد البلقان الغربية • ان هذه المبانى لم تصب فقط أثناء القتال العارض للاشتباكات العسكرية ، فان بعضـها مثـل بييليينـا (Bijiljina) وبانيا لوكا (Banja Luka) ، لم تكن لازالتها أية علاقة بالقتال اطلاقا • حيث نسفت المساجد بالمتفجرات أثناء الليل ثم أتت عليها البولدوزورات فى اليوم التالى • ولا شك فى أن الناس الذين دبروا وأمروا بتنفيذ هذه الأعمال انما يحبون أن يقولوا ان التاريخ فى جانبهم • ولكن ما يظهرونه بأفعالهم هذه هو أنهم انما يشنون حربا ضـد تاريخ وطنهم • وكل ما شئت أن أفعله فى هذا الكتاب انمـا هو ابراز بعض تفاصيل ذلك التاريخ قبل أن يتم تدمير القطر كله تدميرا تاما •

الفصل الأول

الأجناس والأساطير والأصول البوسنية حتى ١١٨٠

التاريخ العنصرى رأس الداء فى البلقان · وكما سيعلم أى انسان عاش أو مر فى ذلك الجزء من أوربا ، لا يوجد هناك شىء اسمه ولاية فضلا عن دولة ، متجانسة تجانسا عنصريا · وقل من يستطيع بنزاهة تامة فى شبه جزيرة البلقان أن يدعى لنفسه نقاء تاما فى أسلافه · ومع ذلك فكم من مرة حدث أثناء القرنين الأخيرين ، أن نظريات وهمية عن الهوية العنصرية العرقية سيطرت على السياسات القومية لأراضى البلقان · وثمة سبب أول يدعونا الى دراسة تاريخ تلك المنطقة المبكر ، هو أن تلك الدراسة تمكننا من أن نرى أن من المستحيل ادارة الشئون السياسية العصرية على أساس الأصول العرقية القديمة ، حتى وان كان صوابا ·

وهذا أمر لا يصدق فى أى مكان آخر أكثر مما يصدق فى تاريخ بلاد البوسنة ، وهى قطر كثيرا ما أطلق عليه اسم العالم الأصغر لبلاد البلقان · فليس هناك شىء يمكن أن نسميه بالسحنة النموذجية البوسنية : فهناك مثلا بوسنيون شقر الشعر وآخرون سمر الشعر ، ومنهم من لهم بشرة سمراء مملوءة بالنمش ، ومنهم من يتسمون بضخامة العظام وقصر الأطراف المثقلة بالعضلات · لقد أسهمت جينات ما لا يحصى من الشعوب المختلفة فى تكوين هذه الفسيفساءة البشرية · والقطر كله جبلى وعر ، به من الأراضى ما يتراوح بين الغابة الكثيفة والمرتفعات كثة النماء الشجرى والعشبى فى شمال وسط البوسنة ، الى الطبيعة البرية القاحلة جدا الموجودة فى منطقة غرب الهرسك ، وتشقها الأنهار الكثيرة التى لا يصلح معظمها للملاحة · وهناك قطعة ضخمة من الأرض التى لايمكن اختراقها وهى تقع بين اثنتين من الطرق الرئيسية التى مرت منها موجات الشعوب الغازية ودخلت الى غرب البلقان : الطريق الضيق الدالماشى الساحلى

وطريق الأرض المنبسطة المنخفضة الذى كان يؤدى من بلجراد جنوبا متخللا صربيا الى مقدونيا وبلغاريا • ولذلك فان الأثر المباشر لتلك الغزوات على البوسنة كان فيما يرجح أقل كثيرا من وقعها على أرض صربيا السهلية الخصيبة أو على المدن الدالماشية الساحلية الشديدة التعرض لحملات النهب • وترتب على ذلك تراكم أنواع عرقية مختلفة فى أرضها ، وهو أثر غير مباشر ، وان كان أقوى من الأثر الأول فيما نرجح ، فكما هو معلوم أن المناطق الجبلية كانت ملاجىء حصينة لمجاميع السكان التى ما كانت الا لتهلك أو تطرد من ديارها فى المناطق الأكثر تسطحا • وما على المرء الا أن ينظر بعينه الى بقاء شعب الباسك حتى اليوم على قيد الحياة ببلاد البرانس ، أو الى ذلك المتحف الغنى بمفرداته السلالية والعنصرية ، وأعنى به بلاد القوقاز • وفى حالة البوسنة ، تمكن الغزو السلافى فى القرنين السادس والسابع من أن يؤسس هوية لغوية ، تمكنت فى آخر المطاف من أن تحل محل جميع الأخريات ، ولكن آثار التنوع السلالى العنصرى واضحة تماما لكل ذى عين مبصرة •

ومن أجل دواع تتصل باللغة والثقافة ، ومن أجل ما يربو على ألف سنة من التاريخ ، يمكن أن يطلق حقا على سكان البوسنة العصريين أنهم سلافيون • اذ ليس وصول السلاف الى البلقان الا نقطة الابتداء لتاريخ البوسنة • ولكن نقط الابتداء الجديدة لا يمكن أن تكون مطلقة تماما فى التاريخ البشرى ، ولابد لنا من أن نعرف أيضا شيئا عن سكان البوسنة الذين وجدهم السلاف يسكنون تلك البلاد عند وصولهم اليها والذين تمكنوا من امتصاصهم فيما بعد •

وأقدم السكان الذين لدينا شىء من العلم بهم هم الالليريون Illyrians ، وهم مجموعة من القبائل كانت تغطى شطرا كبيرا من يوغوسلافيا وألبانيا ، وكانوا يتحدثون لغة هندوأوربية ذات ارتباط بالألبانية الحديثة • والقبيلة التى أعارت اسمها لاقليم دالماشيا Dalmatia وهى قبيلة دلماتيا (Delmatia) ، كانت فيما يرجح قد أخذت اسمها من الكلمة الألبانية المطلقة على « الغنم » وهى كلمة دلمى (Delme) • وكانت أرضها تغطى جزءا من غرب البوسنة ، كما أن الحفائر التاريخية تظهر أن القبائل الالليرية كانت من الرعاة مربى الدواب خاصة الأغنام والخنازير والماعز • وهناك قبائل أخرى التقى بها الرومان بينما كانوا ينشرون سلطانهم على الأراضى المجاورة أثناء القرنين الثانى والأول قبل الميلاد ، كانت تحتوى على تجمع مخلط الليرى كلتى (The Scordisci) ، على الحافة الشمالية الشرقية للبوسنة ، ثم قبيلة من المقاتلين الأشداء فى البوسنة الوسطى هى قبيلة

الدياستيين (Daesitates) ، وهم الذين أخـــدت آخـر تمرداتهم على الامبراطورية الرومانية بشدة وقسوة فى العام التاسع للميلاد • ومنذ ذلك التاريخ فصاعدا أصبحت جميع أراضى الليريا في قبضـة الرومان المتمكنة ، ولم تلبث أن أسست شبكة من الطرق والمستوطنات الرومانية بالتدريج (٣) • وامتدت طرق عديدة عبر البوسنة من مدينـة سالونا Salona الساحلية (قرب سبليت Split) ، ولم يكن الأمر بمحتـاج الى هذه الطرق من أجل التجارة قدر ما هو محتاج اليها لخدمة العمليات الحربية المتجهة بعيداً نحو الشرق ، ولكنها كانت تستخدم أيضا كطرق لنقل الذهب والفضة والرصاص التى كانت تستخرج من البوسنة الشرقية فى العهد الرومانى (٤) • وكان معظم البوسنة مضموما الى مقاطعة دالماشيا الرومانية ولكن جزءا من شمال البوسنة كان يقع داخل ولاية بانونيـا Pannonia التى تقع على أميال قليلة وراء الركن الشـمالى الشرقى من المجر المعاصرة • ولم تلبث المسيحية أن جاءت سريعة الى المدن الرومانية : فقد جاء ذكر أوائل الأساقفة فى زمن مبكر هو أواخر القرن الميلادى الأول بمدينة سرميوم Sermium فى بانونيا (سريمسكا Sremska ومتروفيكا Metrovica التى تقع على أميال قليلة وراء الركن الشمالى الشرقى من البوسنة المعاصرة) • وقد أسفرت الحفائر عن اكتشـاف ما لا يقل عن عشرين كاتدرائية رومانية داخل الأراضى البوسنية المعاصرة • ومن بين هذه الكاتدرائيات واحدة تقع قرب ستولاك Stolac بمنطقة الهرسـك (Hercegovina) انما هى خرابة محترقة تحتوى على عملات من القـرن الرابع : وهى دليل على حقيقة أن هذه الفترة الأولى للمسيحية البوسنية بلغت نهاية مفاجئة على يد الغزو القوطى (٥) •

ولابد أن استخدام اللغـة اللاتينية أصبح واسـع الانتشار فى البوسنة الرومانية ، وواضح أنها كانت اللغة المشتركة الوحيدة للمستوطنين الوافدين من أجزاء الامبراطورية الكثيرة الذين كانوا يجيئون ليعيشوا فى ولاية دالماشيا : من ايطاليا قبل كل شىء ، ولكن أيضـا من أفريقيـا وأسبانيا وبلاد الغال (فرنسا) ، واليونان وآسيا الصغرى ، وسـوريا وفلسطين ومصر • وكان معظـم هؤلاء المستعمرين يعيشـون فى المدن الساحلية ، بيد أن هناك سجلات بأقوام لهم أسماء أسيوية بوادى النريتفا Neretva (بغرب الهرسـك) وفى منطقة يايسه Jajce الواقعة بشمال غرب البوسنة (٦) • ومنذ منتصف القرن الثانى المسيحى فصاعدا اقبل عدد ضخم من المحاربين الرومانيين على الاقامة أيضا بالبلقان بعد انتهاء خدمتهم فى الجيش : والدليل القاطع على أهميتهم هو أنه فى اللغـة

الرومانية ، وهى اللغة التى تطورت عن اللاتينية التى كانت مستخدمة بتلك المنطقة ، كانت الكلمة الدالة على الرجل«الشيخ»وهى « batarin » مشتقة من كلمة « Veteranus » التى تعنى المحارب الذى أنهى خدمته العسكرية وكان الالليريون أنفسهم يجندون بأعداد ضخمة فى الفيالق الرومانية ، وكانت الأراضى الالليرية منذ أواخر القرن الثانى فصاعدا ، هى قاعدة القوة العسكرية لكثير من حكام المقاطعـــات والقواد العسكريين الذين أصبحوا أباطـرة للرومان • وأول هؤلاء الأباطـرة ، وهو سبتيموس سـيفيروس Septimius Severus خلع الحرس البرايتورى عندما عاد الى روما فى ١٩٣ للميلاد واستبدل به جندا من الالليريين : الذين وصفتهم كلمـــات مؤرخ رومانى : « بأنهم حشد مخلط من الجند ، هم أعظم ما يكون وحشية منظر وأجلف وأغلظ ما يكون فى الحوار » (٧) •

وكانت المصادر الرومانيـــة والاغريقية الأخرى تتخذ موقفا متعاليا حيال هؤلاء الرجال من أبناء القبائل المحلية فى البلقـان • ونتيجة لهذا ليس لدينا بيان تفصيلى حقا عن بنيتهم الاجتماعية أو ديانتهم أو طريقـة حياتهم • ولكن هنـاك تعليقا عابرا محيرا تركه لنـــا الجغرافى العظيم استرابون Strabo الاغـريقى (٦٣ ق • م • ـ ٢٥ م) حيث قال ان الوشم كان منتشرا بين الالليريين • ومما أثبت شـــهادته هذه عثورنا على ابر الوشم فى مناطق الدفن الالليرية بالبوسنة (٨) • وليس معروفا أن الوشم كان عادة سلافية فى أى وقت أو جزء من الأقاليم السلافية ، ومع ذلك فانه باق الى اليوم على طول هذه القرون المديدة بين كاثوليك وسط البوسنة وبين مسلمى وكاثوليك شمال ألبانيا • وفى عشرينـات القرن العشرين تمكنت الرحالة الانجليزية والعالمة المتبحرة فى شئون البلقان ، اديث درهام Edith Durham من القيام بدراسة تفصيلية مستفيضة لتلك العـادة المنتشرة ، ونقلت الينـــا كثيرا من الرســـوم والتصميمات البوسنية ــ وهى من النماذج الهندسية البسيطة للدوائر والصلبان والأهلة ظاهر أنها تمثل شموسا مشعة وأقمارا • وقد قررت الرحالة : « ان النساء يوشمن وشما أشد تعقيدا من الرجال كثيرا ، فان أذرعهن وزنودهن كثيرا ما تكون مغطاة بالأشكال والنمـاذج ، وكانت الودودات منهن يقلن انهن يوشمن لأن « تلك هى عادتنـــا » ، « لأننـــا كاثوليك » ، و « لأن ذلك جميل » ، ويقلن « ان أيادينا ستكون أجمل موشومة » (٩) • وهذه العادة دليل قاطع على الاستمرار الثقافى بالبوسنة الذى يتغلغل خلف كل ذلك الطريق الى القبائل الليرية • ومن ســوء الحظ ان ذلك ليس الا الدليـل الوحيد القوى بين أيدينا ، وقد كثرت الادعاءات بالأصل الالليرى لكثير من

الممارسات اللاسلافية التي ما تزال تعيش بالبوسنة مثل الموسيقى الشعبية المتعددة الأصوات ، ولكن هنا تقل الشواهد المؤيدة لذلك عند الكتاب الاغريق والرومان (١٠) ٠

وبالنظر الى هذا الدليل وما نعرفه من معلومات عن الفتوحات والاستيطانات بالبلقان ، يمكننا أن نؤكد أن بعض الالليريين عاشوا بعد الغزوات التالية وامتصهم تماما في داخلهم من أصبحوا السكان السلافيين٠ ولكن بعض الأيديولوجيين اليوغوسلاف من أبناء القرن التاسع عشر وضعوا نظرية رومانسية تذهب الى أن الصربيين والكراوت هم « في الحقيقة » من الالليريين (وعلى ذلك فانهم وحدة عرقية خاصة تمتد على آماد الدهر كله) ولكنها نظرية تحدثنا عن السياسة اليوغوسلافية المعاصرة أكثر منها عن التاريخ البلقاني المبكر (١١) ٠

وفي بعض الأحيان يظهر الأمر كأنما لا يستطيع أي سكان أن يدخلوا بلاد البلقان دون أن يخلفوا وراءهم نظرية مماثلة لهذه لكي تتمسك بها الأجيال التالية ٠ وذلك يصدق بوجه خاص على الغزاة التالين ، وهم قبائل القوط Goths الجرمانية الذين شرعوا في الاغارة على البلقان الرومانية في القرن الثالث وأنزلوا الهزائم الفادحة بالجيوش الرومانية في أخريات القرن الرابع ، واستولوا على قلعة سينجيدونوم Singidonum (وهي بلجراد العصرية) في أواخر القرن الخامس ، ولكنهم انسحبوا تماما الى المملكة التي أسسوها في ايطاليا ودالماشيا عقب ذلك ٠ على أنهم ما لبثوا أن طردوا تماما من البلقان على يد الامبراطور جستنيان Justinian في بواكير القرن السادس ٠ (وبعد حملة جستنيان أصبحت البوسنة ـ من الناحية النظرية على الأقل ـ جزءا من الامبراطورية البيزنطية ، وكانت تقع أصلا على الناحية الغربية من الخط الفاصل بين الأراضي الرومانية الغربية والرومانية الشرقية) ٠ أما القوط الذين تخلفوا فانهم ما لبثوا أن امتصتهم الكتلة السكانية المحلية (١٢) ٠ ومع أن القوط كانوا مستوطنين فضلا عن كونهم مغيرين ، فانهم لم يتركوا أي آثار أو انطباعات ثقافية بأراضي البلقان : فليست هناك مثلا كلمة واحدة في أية لغة بلقانية يمكن أن يستدل على أنها مشتقة من اللغة القوطية ٠

ومع ذلك ، فان هناك أسطورة عجيبة لم تلبث أن تشكلت ، ادعت أن القوط هم الأسلاف الحقيقيون للكروات و / أو البوسنيين ٠ وكان الأصل في هذه الأسطورة مخطوط قروسطي مسطر باللاتينية : « المدونات التاريخية لقسيس ديوكليا Dioclea » ، يبدو أنها منقولة من مدونة

تاريخية سلافية أقدم عهدا تعرف بعنوانها اللاتيني (Libellus Gothorum) اي « كتاب القوط » ، وهي تبدأ بذكر هجرة القوط الى بانونيا ، وتعاملهم على أنهم الأسلاف الأصليون للسلاف (١٣) • ولقد استخدمت تلك المدونة التاريخية على يد العديدين من مؤرخي عصر النهضة المتأخرين في راجوزا Ragusa (دوبروفنيك Dubrovnic) . وأعظم هؤلاء المؤرخين هو الراهب البندكتيني ماورو أوربيني Mauro Orbini ، قد شاد نظرية فخمة متفاخرة للتاريخ العنصري ، ذهب فيها الى أن جميع الأجناس تقريبا التي أدت اي شيء ذي قيمة في حقبتي التاريخ الكلاسيكية المتأخرة والقروسطية الباكرة ، كانوا من السلاف (بما في ذلك الوندال Vandals والآفار Avars والنورمان Normans والفنلنديين Finns والتراقيين Thracians والالليريين) ، وأن جميع السلاف كانوا من القوط : « فكل هؤلاء كانوا ينتسبون للشعب السلافي ويتحدثون بنفس اللسان السلافي ، وعندما غادروا في البداية وطنهم الأول المشترك وهو اسكندينافيا ، أطلق عليهم جميعا (فيما عدا الالليريين والتراقيين) اسما وحيدا هو القوط » (١٤) • وفي نظرية أوربيني هذه ، كان هذا التطابق في الهوية مع القوط جزءا من أيديولوجية للرابطة السلافية ، صورت القوط السلافيين بأنهم أشد وأقوى سلالة في التاريخ الأوربي • ولكن قوما من غربي البلقان قاموا ، في تعديل جديد لنظرية القوطية ، بتعريف أنفسهم بالقوط لكي يميزوا أنفسهم عن السلافيين • ولأسباب واضحة ومعروفة ذاعت هذه النظرية بالبوسنة ذيوعا شعبيا خاصا أثناء الحرب العالمية الثانية عندما راح البوسنيون ، الذين كانوا يريدون لبلادهم أن تحصل على استقلال ذاتي من الدولة الكرواتية الفاشية ، يحاولون تأسيس هويتهم البوسنية على أساس عنصري منفصل • وفي نوفمبر ١٩٤٢ أرسل فريق من دعاة الاستقلال الذاتي المسلمين بمذكرته الى هتلر ادعوا فيها التفوق العنصري على جميع جيرانهم من السلافيين : « نحن جنسنا ودما لسنا من السلاف ، وانما نحن من أصل قوطي • فنحن البوسنيين جئنا جنوبا الى البلقان في القرن الثالث بوصفنا قبيلة جرمانية » (١٥) ، ويبدو انه حتى هتلر نفسه وجد هذه القصة صعبة التصديق الى حد ما.

ولم يكن القوط هم الجنس البشري الوحيد الذي زار غرب البلقان ، وربما ترك بعض ذرية هناك بين الرومان والسلاف • فان الهون Huns الأسيويين (وهم شعب تركي مغولي) والآلانيون الايرانيون Irenians Alans (وهم أسلاف الأوسيتيانيين (Ossetians) العصريين ببلاد القوقاز) ظهروا أيضا في القرنين الرابع والخامس • وفي القرن السادس

دخل البلقان شعبان جديدان : الآفار (وهم أيضا قبيلة تركية وفدت من المنطقة الواقعة فى شمال القوقاز) ثم السلاف • وكانت تواريخهم فى البداية شديدة الاختلاط ، فهم اما حلفاء أو متنافسون ، ويبدو أن الآفار وان كانوا أقل عددا كانت لهم اليد العليا فى هذه العلاقة بسبب مهاراتهم العسكرية الممتازة • وانتهى الأمر بأن هؤلاء القبليين الترك طردوا من البلقان أثناء القرن السابع عشر على يد الجيوش البيزنطية والكرواتية البلغارية • وكان المؤرخون يفترضون عادة أن الآفار كان لهم تواجد على بأرض البلقان ، حيث أنهم أساسا قوة عسكرية تهتم قبل كل شىء بالغارات والاغارة • ومع هذا فان البحث الحديث (القائم على الحقائق التاريخية وأسماء الأماكن) يشير الى اقامة طويلة للآفار فى كثير من الأجزاء فى غرب البوسنة والهرسك والجبل الأسود (١٦) • وفى بعض الأماكن ، بما فى ذلك مناطق ملاصقة لشمال وشمال غرب البوسنة ، ربما استقرت مجاميع محددة من المستوطنين الآفار لعدة أجيال متعاقبة : وكان السلاف يطلقون على الآفار اسم أوبرى (Obri) ، وهناك أسماء كثيرة لأماكن مثل أوبروفاك Obrovac التى تسجل وجودهم هناك (١٧) • ومن المحتمل أيضا أن كلمة « بان » Ban التى هى لقب الحكام الكرواتيين من أقدم العصور هى نفسها من أصل آفارى (١٨) •

ولكن كان السلاف بطبيعة الحال هم الذين سادوا وتسلطوا فى النهاية • وفى أخريات القرن السادس تحركوا بأعداد غفيرة منحدرين فى شبه جزيرة البلقان ، وقد كانوا قوما ينزعون الى الاستيطان وزراعة الأرض ولم يكونوا مجرد غزاة ، وأسسوا المستوطنات التى امتدت الى الطرف الجنوبى من بلاد اليونان • (اذ كانت هناك قرى تتحدث بالسلافية حتى وقت متأخر من القرن الخامس عشر) (١٩) • وعندما حلت عشرينيات القرن السابع كانت جملة من السكان السلاف قد استقرت فى بلغاريا الحديثة وصربيا ، كما أنهم على أرجح الاحتمالات قد تغلغلوا فى جزء كبير من أراضى البوسنة أيضا • ثم حدث ، فى مدى بضع سنوات قليلة ، أن وصلت قبيلتان سلافيتان جديدتان الى السهل : هما الكروات والصرب • ونقلا عن ما كتبه المؤرخ البيزنطى الامبراطور قنسطنطين بورفيروجينيتوس Constantine Porphyrogenitus (الذى كتب بعد ذلك بثلاثمئة سنة ولكن مستخدما السجلات الامبراطورية) : فان امبراطور بيزنطة فى ذلك الزمان استدعى الكروات الى داخل البلقان ليطردوا من البلاد أولئك الآفار المشاغبين الخارجين عليه • ولم يشترك الصرب ـ حسب قول الامبراطور قنسطنطين ـ فى محاربة الآفار ولكنهم كانوا متصلين بالكروات ودخلوا البلقان فى نفس تلك الفترة (٢٠) •

فمن بالضبط كان الصرب والكروات ؟ لقد ظل رجال العلم يدركون طويلا أن الإسم « كروات » (أو هرفات Hrvat باللغة الصربوكرواتية) ليس كلمة سلافية · ويظن بأنه هو نفس الإسم الايرانى « كورواتوس » Chorpatos الموجود على النقوش البارزة على نصب القبور قرب المدينة الاغريقية : تانايس Tanais على نهر الدون الأدنى بجنوب الروسيا · وكان يسكن جميع المنطقة الممتدة شمال البحر الأسود فى القرون الأولى المبكرة للميلاد خليط من القبائل كان يضم السلاف والسرماتيين Saramatians : وقد كان الأخيرون رحلا ايرانيين مروا غربا حول الجانب الشمالى من بلاد القوقاز أثناء القرن الثانى قبل الميلاد · وتمكن السرماتيون من بسط سيادتهم السياسية على القبائل الأخرى ، ويبدو محتملا أن بعض القبائل السلافية اجتازت بذلك لأنفسها صفوة ممتازة حاكمة من الناطقين بالايرانية (٢١) · وهناك نظرية تربط بين هرفات وكورواتوس وبين كلمة هو ـ أورفاثا (hu-urvatha) ومعناها «الصديق» بلغة الآلان (الذين كانوا يشكلون جزءا من التجمع السرماتى للقبائل الايرانية فى ذلك الزمان) (٢٢) · وتقول نظرية أخرى ان جذر ذلك الاسم « صرب » Serb (سرف Serv) أصبح بالايرانية « كرف » (Carv) وذلك ما تسبب فى ظهور كورواتوس وهرفات بعد اضافة « ات » (at) فى نهاية الكلمة (٢٣) · ولكن الشيء الواضح هنا هو أن الصرب والكروات كان لهم تاريخ متماثل ومترابط من أقدم العصور : وجاء بطليموس ، الذى كتب فى القرن الثانى للميلاد ، فحدد هو أيضا موطن الصربوى (Serboi) ضمن القبائل السرماتية شمال بلاد القوقاز · ويعتقد معظم العلماء أنه اما أن كلا من الصرب والكروات كانوا قبائل سلافية تحكمها طبقات ايرانية ، أو أنهم كانوا فى الأصل قبائل ايرانية احتازت اليها رعايا سلافية (٢٤)· وفى بواكير القرن السابع كانت كل من القبيلتين قد أسست لنفسها مملكة فى وسط أوربا : « كرواتيا البيضاء » ، التى كانت تشمل جزءا من جنوب بولندا الحديثة ، و « صربيا البيضاء » فى أرض التشيك الحديثة · ومن هذين المكانين هبطا الى غرب البلقان ·

وللمرة الثانية تلاعبت الأيديولوجية الحديثة بالتاريخ القديم · اذ ظهر منظرون كروات قوميون انتقوا الدلائل المشيرة الى انتسابهم الى الأرومة الآرية بينما رفضوها بالنسبة للصرب ، وبذلك أبرزوا انقساما عرقيا قديما بين شطرى السكان · وظلت هذه النظرية مقبولة وشعبية أيضا أثناء الحرب العالمية الثانية ، عندما كان الآريون القدماء يوضعون فى أعلى درجات سلم العنصرية النازية · ومن ناحية أخرى كان هناك الأيديولوجيون من أصحاب نظرية السلاف الجنوبيين أو الكتلة السلافية ،

الذين رفضوا لأسباب سياسية ، جميع الدلائل الدالة على الصلات الآرية المبكرة . على أن الحقيقة التاريخية واضحة الى حد كبير : ذلك بأن الصرب والكروات كانوا منذ أبكر العصور متميزين بعضهما عن بعض ولكنهما متصلان أوثق اتصال ، يعيشان ويهاجران في تلازم تام ، وفي كل منهما شيء من العنصر الآرى . وهناك شيء آخر واضح أيضا ، هو أنهما في الوقت الذى وصلا فيه الى البلقان كان هناك عدد ضخم من السكان السلاف يسكنون المكان يفوق عدده عدد السكان الصرب والكروات . والحق أن هذه الطبقة التحتية الضخمة من السلاف لا يمكن تقسيمها الى مجاميع عرقية فرعية منفصلة ، وبذلك يتضح أن محاولة اختراع تقسيمات عرقية سلالية قديمة بين نسلهما ، هى باطل الأباطيل . ولابد أن هذه الطبقة التحتية السلافية نفسها قد امتصت بقايا مجاميع السكان الذين كان أسلافهم فى الأصل الليريين وكلتا رروماناو وأفرادا من جميع أرجاء الامبراطورية الرومانية ، من القوط والآلان والهون والآفار .

واستوطن الصرب منطقة تطابق الجنوب الغربى من صربيا العصرية (وهى منطقة أصبحت فيما بعد فى العصور الوسطى تعرف باسم راشكا Rashke أو راشيا Rascia) ، ثم أخذوا يمدون سلطاتهم تدريجيا الى مناطق دوكليا Duklje أو ديوكليا Dioclea (الجبل الأسود) وهوم Hum أو زاتشيومليا Zachumlje (الهرسك) . وكان الكروات يستوطنون مناطق تطابق بالتقريب أرض كرواتيا الحديثة ، وربما تضم أيضا معظم البوسنة الحقة ، بغض النظر عن الشقة الشرقية لوادى نهر الدرينا Drina (٢٥) . وكان السكان السلافيون المحليون منتظمين على أساس قبلى تقليدى : وفيه يبدأ هرم الوحدات فى أسفله بالعائلة (والراجح أنه ذلك النوع من العائلات الواسعة الموجود فى بعض أجزاء البلقان الى يومنا هذا ويطلق عليها المصطلح السلافى زادروجا (Zadruga) ، وكانت العائلات تتحد فى عشائر ، والعشائر تتحد فى قبائل (Plemena) وأرض القبائل المسماة زوبا (Zupa) كان يتولى الحكم فيها حاكم اقليمى يسمى بالزوبان (٢٦) . كانوا وثنيين يعبدون مجموعة متنوعة من الآلهة ، ولا تزال أسماء بعضها باقية الى اليوم تطلق على بعض الأماكن اليوغوسلافية : اله الحيوانات المقرنة فيليس (veles) مثلا أو اله الرعد بيرون Pirun أو بير Pir (٢٧) . وقد بذلت محاولات من الحكام البيزنطيين فى عهد مبكر يرجع الى القرن السابع لتنصير الكروات بالاستعانة بالقسس اللاتين من المدن الساحلية الدالماشية، التى كانت لا تزال تحت الحكم البيزنطى فى ذلك الزمان (٢٨) . ولكن

لم يتم تنصير الكروات بصفة رئيسية الا بعد حلول القرن التاسع ·
وفي امكاننا ان نفترض أن مناطق البوسنة الأبعد شقة والأعسر اختراقا
كانت آخر من اعتنق المسيحية ، التى يحتمل أنهـــا انتشرت اليهـم من
الأراضى الساحلية فى أخريات القرن التاسع أو بدايات القرن العاشر (٢٩) ·
وهناك أمارات تدل على أن الممارسات الوثنية قد نقلت الى المسيحية ثم بعد
ذلك الى الاسلام بأرض البوسنة ـ مثل استخدام قمم الجبال أماكن للعبادة ·
وهناك أسماء لآلهة وثنية مثل بير Pir وأوجانى Ogani وتور Tur
وكلها بقيت فى الروايات المتواتـــرة بين الناس حتى القـــرن العشرين
(فان باحثا سجل ترنيمة حولهم من رجل من سراييفو فى ١٩٢٣) ، كما
أنها قد حفظت لنــا أيضــا فى أســماء الأشـــخاص مثــل تيرو Tiro
وبيريتش Piric (٣٠) ·

والتاريخ السياسى لغرب البلقان بدءا بالقرن الســابع الى القــرن
الحادى عشر ، انما هو تاريخ متقطع ومضطرب مع توالى الفتوحات وتغير
فى توجيه الولاء · فلم يعد لأقدم قوة أرست دعائم سلطتها فى المنطقة ،
وهى الامبراطورية البيزنطية ، شىء من السلطان المباشر ســوى القليل
ولكنها استطاعت بين حين وآخر أن تجعل سلطاتها معترفا بها · واستمرت
العلاقات البيزنطية مع المدن الساحلية ومع جزر دالماشيا : وكانت تنظم
بوصفها « ثيما » Theme (أى منطقة عسكرية) فى القرن التاسع ،
ولكن أخذ سلطان الامبراطورية البيزنطية يصبح اسميا بدرجة متزايدة ،
لا سيما أن الكنائس هناك أصبحت تحت السيطرة الادارية لروما · ثم غزا
فرنجة شارلمان المنطقة الكرواتية الشماليـــة ، بما فى ذلك جزءا كبيرا من
شمال وشمال غرب البوسنة ، فى أخريات القرن الثامن وأوائل التاسع ،
وظلت فى ظلال الحكم الفرنجى حتى سبعينيات القرن التاســع · ولعل
فى تلك الفترة بدأ النظـــام القبلى القديم فى البوســـنة وكرواتيـــا يعاد
تنظيمه من جديد ليتخذ شكلا من أشكال الاقطاع الأوربى (٣١) ·

وفى ثنايا ذلك تجمعت بعض الأقاليم التى يحكمها الصرب فى منطقتى
الهرسك والجبل الأسود الحديثتين واتحدت مع مجموعة من الزوبات الصرب
فى أقصى أقاصى الشرق وهى فى عصرنا الحالى أى أراضى جنـــوب غـــرب
صربيا ، على شكل امارة صربية (برئاسة « زوبان أعظـــم ») وذلك فى
منتصف القرن التاسع · وفى أوائل القرن العاشر تنسمت كرواتيا فترة
من القوة والاستقلال فى ظل الملك توميسلاف Tomislav ، وللمرة الثانية
كان شطر كبير من شمال وغرب البوسنة جزءا من مملكته · ولكن بعد وفاته
(وذلك فى الراجح فى ٩٢٨) ابتليت الأراضى الكرواتية بحرب أهلية ،

وتم على مدى أمد وجيز (في الثلاثينيات حتى الستينيـات من القـرن العاشر) الاستيلاء على شطر كبير من البوسنة على يد امارة صربية تدين بالسيادة للامبراطورية البيزنطية (٣٢) ٠

وتعطينا هذه التفاصيل صورة للسياق التاريخي الذى ورد فيه أول ذكر نعرفه اليوم عن البوسنة بوصفها اقليما قائما بذاته ٠ وكان ذلك في المرجع السياسى الجغرافى الذى كتبه فى ٩٥٨ الامبراطـور البيزنطي قنسطنطين بورفيروجينيتس ٠ ففى ذلك القسم من مرجعه المخصص لأراضي الأمير الصربى كتب يقول : « فى صربيـا المتنصرة توجـد المدن المأهولة ديستينيكون Destinikon [٠٠٠ الخ] ، وفى أرض البوسنة توجد كاتيرا Katera وديسنيك Desnik » ، (٣٣) ٠ وهذا يوضـح أمام أعيننا أن البوسنة (وهى منطقة أصغر من البوسـنة الحقة فى زماننـا ومتمركزة حول نهر البوسنة ، الذى يفيض شـمالا من منطقة قريبة من سراييفو) كانت تعتبر منطقة منفصلة ، وان كانت فى ذلك الحين تابعة للصرب ٠ وفى ستينيات القـرن العاشر سقطت مرة ثانية فى يد الحكم الكرواتى وبقيت أرضا كرواتية ما يقرب من نصف قرن من الزمان ٠

ثم حدث بعد ذلك فى ١٠١٩ أن ولى العرش امبراطور بيزنطى قوى جديد هو الامبراطور بازيل الثـانى Basil II ، الشـهير باسـم « ذابـح البلغـار » ، فأجبر الحكام الصربيين والكروات على الاعتـراف بالسيادة البيزنطية ٠ وما لبث اخضاع الكروات الاسمى أن تحول بالتدريج الى شىء أشبه بالتحالف ، وفى أثناء القرن الحادى عشر خضعت البوسنة حينا من الوقت لحكم كرواتى ، كما حكمها حينـا آخر حكام من الصرب المقيمين فى المناطق الشرقية الذين خضعوا للسيادة البيزنطية بصـفة مباشرة أكثر (٣٤) ٠ والى الجنـوب من البوسـنة الحالية نعمت بعض الأقاليم بقدر أكبر قليلا من الاستقلال ، وهى اقليم دوكليـا الذى تسمى باسم آخر هو زيتا (Zeta) ، والجبل الأسود ، وهوم أو زاتشومليا ، وهى الهرسك ، حيث قاوم الأمراء الصربيون المحليون الحكم البيزنطى ٠ وتوحدت هذه الأراضى فى مملكة صربية واحدة امتدت حتى احتوت أرض راشكا الصربية فى سبعينيات القرن الحادى عشر ، ولكنها ما لبثت تحت حكم الملك بوذين « Bodin » فى ١٠٨٠ أن اتسعت حتى ضمت اليها معظم البوسنة ٠ ولكن المملكة ما لبثت أن تمزقت سريعـا بعـد وفاته فى ١١٠١ ٠

وتعد نهاية القرن الحادى عشر نقطة تحول فى تاريخ البلقان الغربى ، فبعد وفاة بودين انتقل مركز الثقل للطموحات السياسية الصربيــة الى راشكا ، التى أصبحت قلب المملكة الصربية فى القرون الوسطى ۰ وفى تلك الأثناء كانت المجر قد استولت على الأرض الكرواتية كلها ، وفى عام ١١٠٢ توج الملك المجرى كولومان Koloman ملكا على كرواتيا ، وبذلك أنشأ علاقة ما بين الدولتين ، كانت أحيانا علاقة خضوع مباشرة ، وأحيانا أخرى علاقة اتحاد وتحالف شخصى ، دامت مع بعض فترات التقطع والتعديل ، حتى ١٩١٨ ۰ وبسط الحكم المجرى على البوسنة أيضا فى ١١٠٢ ، ولكنها لأنها بلاد بعيدة عسيرة الاختراق كان يحكمها « بان Ban » (حاكم بالكرواتية) ظلت سلطاته تزداد استقلالا بتقدم الزمن بالقرن (٣٥) ۰ ولكن الذى حدث فى الستينيات والسبعينيات من القرن الثانى عشر أن عادت الى حين مقاطعتا البوسنة وكرواتيا للحكم البيزنطى بعد حملة عســكرية ناجحة على يد الامبراطور المتوســع مانويــل كومنينوس Manuel Comnenous ولكن بعد وفاته فى ١١٨٠ تقوضت كل فتوحاته سريعا ۰ فاســتعادت كرواتيا صلتها الأولى بالمجر ۰ وأصبحت البوسنة فى واقع الأمر حرة من السيادة المجرية ، ونظرا لأنها لم تعد تحت حكم الامبراطورية البيزنطية ولا كرواتيا فانها استطاعت أن تقف فى وجه الجميع لأول مرة بوصفها دولة مستقلة الى حد ما ۰ ومن هنا جاء الوصف الشهير للبوسنة الذى كتبه كاتم أسرار الامبراطور مانويل كومنينوس ، وهو مدون الحوليات كيناموس Kinnamos الذى كان يكتب فيما نعتقد فى ثمانينات القرن الثانى عشر ، « ان البوسنة لم تعد تطيع أوامر الزوبان الأعظم للصرب ، انه شعب مجاور له عاداته وسماته وحكومته الخاصة » (٣٦) ۰ ولاحظ كيناموس أيضا أن البوسنة كان يفصلها نهر الدرينا عن بلاد الصرب ، وهو خط فاصل ظل هو خط الحدود الشرقية للبوسنة طوال فترة كبيرة من تاريخها التالى ۰

وليس بوسعنا ازاء التاريخ المعقد للبوســنة السلافيــة المبكرة ، فيما بين وصول الكروات والصرب فى عشرينيات القرن السابع وانبثاق دولة بوسنية مستقلة فى ثمانينيات القــرن الثــانى عشر ، أن نخــرج باستنتاجات بسيطة عن تلك الفترة ۰ فان البوسنة الحقة كانت تحت الحكم الصربى فى بعض الأوقات : وأخصها فى منتصف القرن العاشر ونهاية الحادى عشر ۰ ومع هذا فان من المضلل أن يقال ان البوسنة كانت ذات يوم « جزءا » من صربيا ۰ ذلك لأن الممالك الصربية ، التى ضمت بين أجزائها البوسنة فى تلك الأيام ، لم تكن تحتوى على معظم ما نسميه اليوم باسم

صربيا • ففي أثناء معظم هذه الفترة القروســطية المبكرة كانت مقاطعة الهرسك في حقيقة الأمر وواقعه أرضا صربية ، ولكن البوسنة الحقة كانت مرتبطة ارتباطا أوثق كثيرا بأراضي الكروات ، بل وفي القرن الثاني عشر ، بعد أن حصلت على استقلالها ، بدت منحازة الى النطاق الكرواتي المجرى الثقافي والسياسي انحيازا مستمرا ومتزايدا (٣٧) • وكانت البوسنة في أيامها القروسطية الأولى مرتبطة ارتباطا وثيقا من حيث تنظيمها الديني بكرواتيا وليس بأراضي الصرب • فان أسقفية البوسنة مذكورة على أنها مطرانية كاثوليكية رومانيــة في القــرن الحادي عشر (بعــد الانشــقاق الذي حــدث بين روما والقسطنطينية عــام ١٠٥٤) ثم أصبحت تحت الرياسة الدينية لكبير أساقفة سبليت ، قبل نقلها الى أســقفية راجــوزا (دوبرفنيك) في القرن الثاني عشر (٣٨) • (ومع هذا كانت هناك كما سنرى بعض ملامح مميزة للكنيسة ببلاد البوسنة لابد أنها باعدت بينها وبين الكنائس اللاتينية القائمة في الساحل الدالماشي منذ مرحلة قديمة من الزمان) • وهناك رمز يرمز الى الوشائج السياسية مع العالم الكرواتي هو أن حكامها كانوا يلقبون باللقب الكرواتي « بان » منذ أقدم العصور • أما الحاكم الأكبر للصرب فكان يدعى باسم « الزوبان الأعظم » ولم يدع قط باسم « بان » (٣٩) •

أما عن هوية سكان البوسنة في ١١٨٠ وان كانوا من العرب أو الكروات حقا فهو تساؤل لا يمكن الاجابة عنه لسببين : أولا لأننا تعوزنا البينات ، وثانيهما لأن السؤال يعوزه المعنى • ففي امكاننا أن نقول ان معظم أرض البوسنة كان يشغلها على الأرجح الكروات ـ أو على الأقل سلاف تحت الحكم الكرواتي ـ في القرن الســابع ، ولكن هذا مسمى قبــلي قديم لم تعد له الآن أية قيمة بعد انســلاخ هذه القــرون الخمســة • على أن البوسنيين ظلوا على الدوام أقرب الى الكروات في تاريخهم الديني والسياسي على وجه الجملة ، ولكن تطبيق الفكرة الحديثة حول الهوية الكرواتية (وهي شيء تم بناؤه في القرون الحديثة على الدين والتاريخ واللغة) ، يعد مفارقة تاريخيــة • وكل ما يستطيع المرء بعقلانيــة أن يقوله الآن حول الهوية العرقية للبوسنيين ، انهم كانوا السلاف الذين عاشوا في البوسنة •

الفصل الثاني

الدولة البوسنية القروسطية

ان تاريخ البوسنة في أوج العصور الوسطى تاريخ مضطرب ومورث للارتباك . ولكن يبرز فيه ثلاثة حكام أقوياء : هم بان كولين Ban Kulin (الذي حكم من ١١٨٠ الى ١٢٠٤) ، وبان ستيفن كوترومانيتش Ban Stephen Kotromanic (١٣٢٢ _ ١٣٥٤) ، والملك ستيفن تفرتكو Stephen Tvrtko (١٣٥٣ _ ١٣٩١) . وفي حكم الثاني من هؤلاء الثلاثة اتسعت حدود البوسنة حتى ضمت امارة هوم (الهرسك) ، كما أنها في عهد الثالث امتدت أكثر نحو الجنوب واستولت أيضا على شطر كبير من الساحل الدالماشي .والواقع أنه في أثناء النصف الثاني من حكم تفرتكو كانت البوسنة أقوى دولة داخل البلقان الغربي . والجزء الوحيد من اقليم البوسنة الذي لم يضم الى حكم تفرتكو ، كان قطاعا مستطيلا من الأرض يمتد في الشمال الغربي ويحتوي مدينة بيهاتش Bihac الحديثة ، التي كانت جزءا من الأراضي الكرواتية المجرية طوال تلك الفترة .

تلك هي النقاط العظمى في تاريخ قوة البوسنة القروسطية واستقلالها . أما فيما بين فترات حكم هؤلاء الحكام الثلاثة المذكورين فكانت البوسنة مقسمة ، اما رسميا أو واقعيا نتيجة للصراع المتكرر على القوة ، بين الأسر النبيلة المحلية . ومع أن النظام الاجتماعي والسياسي في البوسنة كان في أساسه اقطاعيا ، فلم يكن ذلك الشكل الصارم الاقطاع الذي كان يقضي بعودة اقطاعيات النبلاء الى التاج ان فشلوا في أداء واجباتهم العسكرية : لقد كان النبلاء ملاك أراض مستقلين ، وكثيرا ما تمكنوا من املاء آرائهم حول وراثة العرش البوسني من واقع مركزهم كقوة اقليمية في البلاد (١) . وهنا جاء عدم الاستقرار السياسي المستمر في البوسنة في القرون الوسطى .

وكانت بلاد المجر هي أعلى الدول المجاورة كلمة أثناء تلك الفترة • وفي أثناء القرنين الثالث عشر وأوائل الرابع عشر نمت المملكة الصربية أيضا لتصبح دولة عسكرية قوية ، ومن المدهش بالرغم من ذلك أن ملوك الصرب لم يبذلوا أية محاولة قوية لفتح البوسنة (٢) • ولا شك في أن استحالة اختراق حدود البوسنة ، وهو أمر طالما خبره ملوك المجر عدة مرات ، جعلها فريسة صعبة المنال ، فان حدث وتم نيلها كان ملاك أراضيها من النبلاء المشاكسين ، يحولونها الى مغنم لا خير فيه •

وكذلك كان موقع البوسنة القصي من الأسباب الكامنة وراء تلك الظاهرة المميزة المحيرة لتاريخها ابان العصور الوسطى : ألا وهي نزعة الانقسام ، التي سادت كنيستها اذ يبدو أن هذه الكنيسة انسلخت عن الكنيسة الكوثوليكية في القرن الثالث عشر • وظلت تعمل في البوسنة مستقلة تماما حتى وصول الفرنسيسكان ، الذين حاولوا أن يعيدوا سلطان روما الى مكانته في الأربعينيات من القرن الرابع عشر • ومنذ ذاك الحين دخلت الكنيسة البوسنية في منافسة مع الكنيسة الكاثوليكية واستمر هذا الأمر أمد قرن من الزمان ، حتى انتهى المطاف برجالها عشية الفتح التركي الى الطرد أو اعتناق الكاثوليكية قسرا • وعلى امتداد عمر تلك الكنيسة ظل كتاب البابوية يتهمون البوسنيين بالهرطقة والكفر ، كما أن بعض تلك المصادر تحدد الهرطقة بالمثنوية (Dualist) والمانوية (Manichean) • وكانت تلك الكنيسة من جراء تلك الاتهامات تنعت بأنها تجسيد لطائفة مانوية بلقانية قديمة هم بوجوميل (Bogomils) بلغاريا • على أن الدراسات الحديثة أقامت اعتراضات قوية على هذه النظرية التقليدية • وقد بلغ هذا الموضوع من شدة التعقيد ما جعلنا نعالجه في الفصل التالي •

وقد أصبح بان كيولين أسطورة في التاريخ البوسني • وكتب عنه المؤرخ وليام ميللر في عام ١٩٢١ : « يعده الناس حتى في هذه الأيام ربيبا للجنيات كما يعدون فترة حكمه عصرا ذهبيا ، كما أن الحديث عن عهد بان كيولين انما هو تعبير شعبي عن الحديث عن العهد السعيد الخالي ، عندما كانت أشجار البرقوق البوسنية تئن أنينا شديدا بما تحمل من فواكه ، وعندما كانت حقول القمح الصفراء لا تكف لحظة عن التموج في السهل الخصيب » (٣) • فقد نعم البوسنيون بسلام دام ٢٤ عاما ، ولا مفر من أن هذا السلام كان تغييرا نزل بردا وسلاما على أبناء البوسنة من البسطاء • وتشير الأدلة التي وصلتنا من هذا العصر الى أن كيولين وجه اهتماما شديدا الى الشئون الاقتصادية لبلاده : فانه عقد معاهدة تجارية

مع راجوزا (دوبرفنيك) فى ١١٨٩ ، وشجع تجار راجوزا على استغلال المناجم البوسنية الثرية (٤) . كما أنه أقام أيضا علاقات طيبة مع حاكم هوم (الهرسك) الذى تزوج أخت كيولين ومع الجوبان الأعظم الصربى ستيفان نيمانيا Stephen Nemanja مؤسس أسرة النيمانيين Nemenjid الملكيـة ، التى قدر لهـا أن تحول الصرب الى دولة عظمى أثنـاء القرنين التاليين · ولكن العلاقات كانت أقل مودة مع دولتين أخريين : أولاهما بلاد المجر التى كانت لاتزال تعد نفسها صاحبة السيادة العليا على البوسنة ، وزيتا (التى كانت تدعى سابقا دوكليا أو ديوكليا : وهى الجبل الأسود الحديثة) ، التى تحالفت مع بلاد المجر لأسباب سياسية تكتيكية ·

وكانت سياسات الكنيسة ، وليس الحرب ، هى الشكل الذى اتخذه الصراع · فان البوسنة (على العكس من هوم الأرثوذكسية) كانت اقليما كاثوليكيا ، وكانت تابعة لسلطة رئيس أساقفة راجوزا · ونظرا لبعدها السحيق لم يكن رجـال الكنيسة الراجوزية يتدخلون كثيرا فى شـئون الكنيسة الكاثوليكية فى البوسنة فسمح لها فعلا بتعيين أسقفها الخاص بها (الذى كانت أسقفيته تمتد شمالا حتى الأراضى المجرية الكرواتيـة) · وكانت المجـر تريد تحكما أوثق على الأسقفية البوسـنية ، وجاهدت فى روما فى أوائل التسعينيات من القرن الثانى عشر لتحمل البابا على وضعها تحت السلطان الدينى لكبير أساقفة سبليت وكان من أشياع المجر · وعندئذ شرع حاكم زيتا ، الذى كان شديد الاهتمام باسقاط سلطان كل من البوسنة وراجوزا ، يرسل الى البابا شاكيا من أن بان كولين وزوجتـه وآلافا من رعاياه أصبحوا من الهراطقة (٥) · وربما لم تكن هذه الشكاوى الا وسيلة لالتماس اذن البابا لغزو بعض أجزاء من الأراضى البوسنية · ولكن بان كولين وأد الأزمة فى النهاية بعقده مجلسا للكنيسة البوسنية الكاثوليكية (وهو المجلس المعروف باسم بولينو بوليى Bolino Polje) فى ١٢٠٣ ، حيث تم الاقلاع رسميا عن مجموعة من الأخطـاء ، كانت فيما يبدو تتصل ببعض الممارسات الدينية الخاطئة وليست بالهرطقات الخطيرة ومع هذا فقد كان ذلك بداية لاتهام البوسنة التقليدى بالهرطقة وتثبيتا له فى الأذهان (٦) · أما بان كولين نفسـه ، الذى ظـل يعلن أنه كاثوليكى صالح ، فقد توفى فى السنة التالية ·

وأثناء نصف القرن الذى أعقب وفاته ظلت البوسنة تحت ضغط مستمر من جارتها المجرية القوية ، فان المجريين لم يتخلوا عن خطتهم التى اختطوها لوضع أيديهم على أسقفية البوسـنة · ووجهت البابوية سيلا مستمرا من الرسائل الى حكام البوسنة وأساقفتها ترجوهم فيهـا طرد

الزندقة من أسقفية البوسنة أثناء الثلاثينيات من القرن الثالث عشر (٧) ٠ كان ذلك جزئيا رد فعل لتدنى المستوى العلمى لهيئة الكهنوت البوسنية : وهناك رسالة بابوية مؤرخة فى ١٢٣٢ ، وهى تصف أسقف البوسنة الكاثوليكى بالأمية والجهل حتى بمراسم التعميد ، وأنه بغير مراء يعمل متواطئا مع الهراطقة ٠ ومع هذا فربما تكون هذه الرسالة قد عبرت عن بواعث للقلق اختلقها أولئك الحكام المجريون الذين كانوا يتطلبون مبررا دينيا لغزو البوسنة ٠ وحدث الغزو فعلا فى أخريات الثلاثينيات من القرن الثالث عشر ، وما وافت ١٢٣٨ حتى كان المجريون قد استولوا على المنطقة الجنوبية الوسطى من البوسنة وهى فرهبوسنا (Vrhbosna) ، وكانوا يعملون بكل نشاط على توطيد جماعة الرهبان الدومينيكية (٨) ٠ ومع ذلك احتفظ بان البوسنة نينوسلاف Ninoslav ، ببعض الأراضى ، وعندما انسحب الجيش المجرى فجأة فى ١٢٤٠ نحو الشمال للتصدى للغزو المغولى الذى كان يهدد المجر ، تمكن البان البوسنى من استرداد كل سلطاته وأراضيه بالبوسنة ٠ وسحق المغول الجيش المجرى ثم تقدموا تاركين وراءهم خطا من المدن والقرى المنهوبة والمدمرة خلال شمال كرواتيا حتى دالماشيا ٠ على أنهم ما لبثوا عندما سمعوا بوفاة الخان الأعظم أن ارتدوا شرقا مخترقين زيتا (الجبل الأسود) وصربيا ٠ فكأنهم بذلك قد داروا حول البوسنة تاركين اياها دون أن يمسها السوء الى حد كبير ٠

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر عاشت البوسنة فيما يبدو حياة أكثر انعزالية ٠ فان المجر أقنعت البابا بأن ينقل أسقفية البوسنة ويجعلها تحت رياسة أسقفية كبرى داخل بلاد المجر فى ١٢٥٢ ، ومع ذلك فان الأثر النهائى لهذا التغيير انما هو أن الأسقف البوسنى أصبح يعيش خارج بلاد البوسنة منذ ذلك الحين (فى سلافونيا Slavonia الخاضعة للمجر) ٠ ومن ثم فان الضغط الذى كان من الممكن أن تحدثه أية سلطة خارجية على الكنيسة البوسنية قد أصبح فى حكم المعدوم تقريبا (٩) ٠ وقامت المجر بمحاولة أخرى لغزو البوسنة فى ١٢٥٣ ، ولكن بعد ذلك فان ولاية (بانية) البوسنة الأصلية ــ وهى الوارثة لدولة بان كولين ــ يبدو أنها تركت وشأنها تتصرف كيف تشاء طوال المدة الباقية من القرن (١٠) ٠ ومع هذا ، فان كثيرا من الأجزاء الشمالية من البوسنة الحديثة مثل منطقة سولى Soli (وهى تعنى « الملح ») حول توزلا ، قد خصصت لأعضاء من الأسرة المالكة المجرية ٠ فأما القطاع الشمالى الشرقى لهذه الأراضى فقد ضم الى مناطق من شمال صربيا ليشكل ما يسمى باسم دوقية ماتشفا Macva (١١) ٠

ومن هذه الأراضى الشمالية برزت الأسرة الحاكمة التالية للبوسنة . فقد خلف ستيفن كوترومان (Stephen Kotroman) اباه فى ثمانينيات القرن الثالث عشر فى حكم أحد الأجزاء الشمالية البوسنية ، وتزوج من ابنة حاكم ماتشفا . ثم دخل فى صراع طويل على السلطة تفاصيله غير واضحة تماما ، ضد أسرة نبيلة أخرى وهى أسرة شوبيتش (Sobices) وهم أسرة من جنوب غرب البوسنة . ويبدو ان الشوبيتش كانوا يحكمون بانية البوسنة القديمة أثناء العقدين الأولين من القرن الرابع عشر ، وأنهم كانت لهم علاقات ودية مع ابن كوترومان وهو ستيفن كوترومانيتش (Stephen Kotromanic) أثناء فترة من ذلك الزمان (١٢) . بيد أنه حدث فى مطلع عشرينيات القرن الرابع عشر أن كوترومانيتش زاد شأنه وأصبحت له اليد العليا : فقد أصبح أحد أفراد أسرة شوبيتش بانا للبوسنة فى ١٣١٨ ، ولكن كوترومانيتش أخذ هذا المنصب فى ١٣٢٢ . وما كاد يستتب له الأمر ، حتى شرع يبنى دولة بوسنية أوسع رقعة وحدت البانية القديمة مع بعض المناطق الشمالية . ثم عاد فأضاف الى ذلك كله ، عن طريق الفتح ، مناطق فى غرب البانية كانت فيما سلف من الزمان جزءا من كرواتيا وظلت بعد ذلك جزءا من الأراضى البوسنية . وزاد بعد ذلك فى سعة رقعة فتوحاته بأن أضاف الى ممتلكاته نيفا ومائتى ميل من الساحل الدالماشى تقع بين راجوزا وسبليت . وفى عام ١٣٢٦ استلحق معظم أراضى هوم (الهرسك) ، وبذلك أنشأ كيانا سياسيا موحدا يتشكل من البوسنة والهرسك لأول مرة فى التاريخ . وكانت هوم حتى ذلك الحين تعيش عيشا منفصلا الى حد ما عن كل ما عداها فى ظل أسرها الحاكمة المتعاقبة ، كما كان تاريخها الدينى منفصلا أيضا عن كل ما عداها باحتوائها على مجموعة سكان تغلب عليهم الأرثوذكسية (١٣) .

وحرص كوترومانيتش على اصطناع علاقات ودية مع الدول الأجنبية . ومن عظيم يمن طالعه أن المملكة الصربية ، التى كانت تلم بها فترة نمو وقوة خارقة للعادة تحت ظل حاكمها ستيفن دوشان (Stephen Dushan) ، كانت مشغولة بالتوسع جنوبا فى أراضى مقدونيا وألبانيا وشمال اليونان . وعقد كوترومانيتش المعاهدات مع راجوزا فى ١٣٣٤ ، والبندقية فى ١٣٣٥ ، وتعاون وديا مع الملك المجرى ، حيث أرسل اليه القوات البوسنية لمساعدته فى حملته على النبلاء المشاغبين فى كرواتيا . على أنه ما دام كوترومانيتش قد تقبل وعاون على وجود الكنيسة البوسنية الانشقاقية (وهذا هو ما فعله فعلا رغم أنه كان هو نفسه أرثوذكسيا على الأرجح) ، لم يكن فى امكان علاقاته مع البابوية الا أن تكون هشة ضعيفة . وفى

١٣٤٠ وافق ، رغبة منه في تحسين علاقاته بالبابا ، على أن يسمح لطائفة الفرنسيسكان بانشاء ارسالية لهم ببلاد البوسنة : وكانوا منذ أمد بعيد راسخي الأقدام في الساحل الدالماشي ، ولكنهم حتى ذلك الحين لم يسعوا الا على استحياء للانتشار في أراضي البوسنة (١٤) • وفي وقت ما من عام ١٣٤٧ يبدو أن كوترومانيتش نفسه قد تحول الى الكاثوليكية الرومانية : فانه كتب في أبريل من تلك السنة الى بابا روما يسأله أن يزيد من عدد القسس المدربين المرسلين الى البوسنة الذين يكونون « مهرة في تعاليم العقيدة ولا يجهلون اللغة السلافية » (١٥) • وكان جميع من أعقبه من حكام البوسنة من الكاثوليك ، باحتمال استثناء واحد فقط (١٦) •

وما لبث الفرنسيسكان أن أنشأوا « أسقفية البوسنة » ، وهي وحدة ادارية ما لبثت أن توسعت حتى ضمت اليها قسما ضخما من جنوب شرق أوربا ، وبذلك أصبحت ممتدة على طول الطريق الى رومانيا • (وبذلك زادت حدة تعقد الجدال حول هرطقة البوسنة ، حيث استخدم الفرنسيسكان في وثائقهم مصطلح « البوسنة » للدلالة على مجموعة من « الخطايا » ، ان جاز مثل هذا القول) • وفي ١٣٨٥ أصبحت تلك الأسقفية تحتوي على خمسة وثلاثين ديرا فرنسيسكانيا لم يكن منها في البوسنة نفسها سوى أربعة أديرة فقط : في فيسوكو (Visoko) ولاشفا (Lasva) وسوتيسكا (Sutjeska) وأولوفو (Olovo) • وكان من المقدر بناء اثنى عشر ديرا داخل الدولة البوسنية قبل ١٤٦٣ • ولكن كل دير لم يكن يسمح فيه الا بحوالى اثنى عشر راهبا كحد أقصى ، على أن متوسط عدد الرهبان ربما لم يزد عن الأربعة لكل دير • ونظرا لأن ثلاثة من تلك الأديرة الأربعة (بدون دير أولوفو) كانت متقاربة معا في الجزء الأوسط من البوسنة ، فان الجهد الفرنسيسكاني في هداية الأرواح الى العقيدة البابوية لم يكن له أثر يذكر على معظم الأجزاء في البلاد أثناء تلك الفترة المبكرة من حملتهم الدينية (١٧) • فأما الكنيسة البوسنية ، كما سنرى ، فكان يعوزها التنظيم الاقليمي السليم ، اذ يبدو محتملا أن شطرا عظيما من سكان المناطق الريفية كانوا يمارسون أدنى أشكال المسيحية الشعبية التي تمارس طقوسها دون قسس •

وعندما دفن ستيفين كوترومانيتش في الدير الفرنسيسكاني في فيسوكو في ١٣٥٣ ، خلف من ورائه دولة بوسنية مستقلة تعيش في رفاهية الرغد والقوة • ولكن ثباتها واستقرارها كان ما يزال يعتمد بشدة على تعاون الأسر النبيلة التي كانت تبسط نفوذها وسلطانها الخاص على أجزاء مختلفة من البلاد • وخلفه ابن أخيه ستيفن تفرتكو ، وكان صبيا

لم يتجاوز الخامسة عشرة ولم يكن يملك من السلطان أو القوات العسكرية ما يمكنه من جمع شستات هذه القوى الطاردة المركزية النبيلة في جمع واحد • وفي الحين نفسه كان الملك المجرى شديد الحرص على استغلال ما يحدث في البوسنة من انقسامات لكي يسترد لنفسه أرضا أخذت منه ، واضطر تفرتكو أثناء السنوات الأربع عشرة الأولى من حكمه الى أن يصارع التمردات البوسنية والاستيلاءات المجرية على أراضيه ، وفي ١٣٦٦ بلغ الأمر به أن اضطر الى الالتجاء في البلاط المجرى عندما أقدمت مجموعة من النبلاء البوسنيين على اقامة أخيه فوك (Vuk) في مكانه حاكما • ولكن في عام ١٣٦٧ تمكن ـ فيما هو واضح بمساعدة من ملك المجر ، الذى أدرك أنه يحرك متاعب لن يستفيد منها هو نفسه ولا تفرتكو ـ من أن يعود الى السلطة في البوسنة (١٨) • ومن بعدها لم يعد يلقى أى ضر من الملك المجرى خاصة وقد أصبح أشد اهتماما بالأحداث التى كانت تحدث على التخوم الشمالية للمجر •

وعندئذ وجه تفرتكو التفاته نحو الجنوب • اذ تمزقت الامبراطورية الصربية الهائلة بعد مدة وجيزة من وفاة منشئها ستيفين دوشان في ١٣٥٥• وكان أحد النبلاء الصربيين ، الذين كانوا يحاولون آنذاك اغتصاب بعض الأراضي من بقايا الدولة القديمة ، ويدعى لازار هربليانوفيتش (Lazar Hreblianovic) ، منهمكا في صراع معقد على السلطة مع النبلاء الآخرين في جنوب غرب صربيا في هوم (الهرسك) وزيتا (الجبل الأسود) وقدم تفرتكو الى لازار المساعدة التى احتاج اليها وكوفىء على ذلك بجزء من الغنائم من بينها قطاع ضخم من الأرض يتاخم البوسنة من الجنوب والجنوب الشرقي : أجزاء من هوم وزيتا وجنوب دالماشيا (بما في ذلك قطع من الساحل الواقع بين راجوزا وخليج كوتور Kotor) وما أصبح بعد ذلك سنجقية « نوفى بازار » • وكان هذا الشطر الأخير يضم دير ميليشيفو (Mileshevo) ، وهو الدير الذى يحتوى على رفات القديس سافا (Sava) الذى هو من أقدس الشخصيات في تاريخ الكنيسة الصربية الأرثوذكسية • وفي ١٣٧٧ احتفل تفرتكو بهذا الارتفاع في مركزه ومكانته بتتويج نفسه ملكا في ميليشيفو ، لا بوصفه ملكا على البوسنة فقط بل وملكا على الصرب كذلك • على أن ادعاءه ملك الصرب لم يكن الا محاولة لتضخيم الذات له ولأسرته الحاكمة ، وزاد في هذا الادعاء فخامة البلاط الذى أقامه آنذاك في معقله في بوبوفاك (Bobovak) ، على النسق البيزنطي ، أن تفرتكو ينحدر حقا من أسرة نيمانيا الصربية

المالكة ، على انه فى الحقيقة لم يحاول جديا ذات يوم أن يمارس سلطات الولاية السياسية على صربيا (١٩) ٠

على أن طموحات الملك تفرتكو فى التوسع الاقليمى والسياسى كانت موجهة صوب مواطن أخرى ، ومن هنا شاء أن ينشىء ويطور ميناءة تجاريه أخرى جديدة على الجانب الشمالى من خليج كوتور : وأسماها « نوفى » (ومعناها « الجديد » ٠ وهى هرسك ـ نوفى (Herceg-Novi) المعاصرة ، وكانت فيما سبق معروفة كذلك باسم كاستيل نوفو Casteinuovo) ٠ ولكن ذلك أغضب تجار راجوزا ، وكانت البوسنة شديدة الاعتماد على الراجوزيين فى حياتها الاقتصادية الداخلية فلم يكن من الصواب تحديهم ، ومن ثم عدلت بهدوء تام عن خطة نقل التجارة من راجوزا الى نوفى ٠ وفى الحين نفسه نشبت حرب أهلية فى الأراضى الكرواتية بعد وفاة ملك المجر فى ١٣٨٢ ، فسنحت من ثم الفرصة لانتزاع غنائم أثمن وأنفس ٠ فيتحالف تفرتكو مع واحد من أشد النبلاء المتنافسين قوة ، فتوغل فى ساحل دالماشيا بجنده ووضع يده على الخط الساحلى بأكمله (بما فى ذلك حتى بعض الجزر) ، باستثناء راجوزا وحدها التى تمكنت من الاحتفاظ باستقلالها ، وزادار (Zadar) التى كانت تحت سيادة البندقية ٠ وكانت للبندقية بتلك المنطقة مطامع قوية ، ومالبثت حتى استعادت معظم الساحل الدالماشى بعد وفاة تفرتكو ٠ ومهما يكن الأمر ، فان تفرتكو كان سيدا لمملكة بوسنية متوسعة جدا ضمت الى ممتلكاتها أيضا أجزاء من شمال كرواتيا وسلافونيا ٠ وفى السنة أو السنتين الأخيرتين قبل وفاته فى ١٣٩١ كان يلقب نفسه : « ملك كرواتيا ودالماشيا أيضا » (٢٠) ٠

ومع نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الرابع عشر تصل الى نقطة تحول عظيمة أخرى فى تاريخ غرب البلقان ٠ حيث كانت الجيوش التركية العثمانية تتقدم غربا عبر تراقيا وبلغاريا منذ خمسينيات القرن الرابع عشر ٠ وفى ١٣٧١ التقت بهم فى بلغاريا فرقة ضخمة من المحاربين الصربيين ، فلقيت على أيديهم شر هزيمة ٠ وفى ثلاثينيات القرن الرابع عشر شرع الترك يهاجمون صربيا نفسها ، وفى ١٣٨٨ زحفت فرقة غزو تركية الى هوم (الهرسك) التابعة للحكم البوسنى ، حيث أبيدت على يد قوات يقودها نبيل محلى هو فلاتكو فوكوفيتش (Vlatko Vukovich) وفى عام ١٣٨٩ رفض لازار الحليف الصربى القديم لتفرتكو (الذى أخذ لقب « الأمير » المتواضع يوم أعلن تفرتكو نفسه ملكا) قبول السيادة التركيه عليه ، ودعا جيرانه وحلفاءه لمساعدته ٠ فأرسل الملك تفرتكو قوة بوسنية ضخمة تحت قيادة فلاتكو فوكوفيتش ، فقاتلت الى جوار جيش الأمير

لازار فى معركة كوسوفو بولى (Kosovo Polje) فى يونيـــو ١٣٨٩ ·
وعلى خلاف الواقع وصفت الأساطير والشعر الصربى هذه المعركة بأنها هزيمة
منكرة وساحقة هلكت فيها فى الميدان زهرة فرسان البلقان وأتاحت للترك
مواصلة زحفهم خلال الجزء الباقى من صربيا ، فصحيح أن الخسائر بالفعل
كانت فادحة فى الجانبين وأسر الأمير لازار وأعدم ، لكن بقايا الجيش
انسحبت بعد المعركة ، وظلت القوات الصربية والبوسنية تعتقد حينا من
الدهر أنها هى الفائزة · ولم تكن المعركة فى حد ذاتها هى التى تولد عنها
سقوط صربيا فى يد الأتراك ، ولكن الواقع أنه بينما احتاج الصربيون الى
جمع جميع القوات التى يستطيعون جمعها للوصول الى تعادل مؤقت متكلفين
فى ذلك الأموال الطائلة ، فان الأتراك كانوا يستطيعون العودة سنة بعد
أخرى بقوات متزايدة القوة على الدوام (٢١) · وعندما حل عام ١٣٩٢ كانت
جميع الأراضى الصربية الأرثوذكسية ، فضـــلا عن هوم التابعـة للحكم
البوسنى ، قد خضعت للسيادة التركية ·

وبعد وفاة تفرتكو فى عام ١٣٩١ ، عانت البوســـنة لفترة طويلة
من ضعف الحكام والارتباك السياسى · وهناك وصف للبوسنة فى أثناء
تلك المدة كتبه الفرنسى جيـــل لو بوفييه (Gille le Bouvier) وجمع
فيه آراء رحالة آخرين ، وهو يصور صورة متعسة للمكان : « انهم يعيشون
على التهام الحيوانات الضارية وعلى التقاط السمك من الأنهار وعلى التين
وعسل النحل الذى لديهم منه مقادير كافية ، وهذا هو كل طعامهم كمـــا
أنهم ينطلقون فى عصابات من غابة الى أخرى لقطع الطريق » (٢٢) ·

لم تتمزق الدولة البوسنية بعد وفاة تفرتكو كمـــا حدث بعد وفاة
ستيفن كوترومانيتش ، ولكن النبلاء من ذوى قواعد القوة الاقليمية أعادوا
تمكين أنفسهم فى السلطان ، وأصبح سكان البوسنة تحت رحمة ألوان
ونماذج مختلفة من المنافسات بين العائلات النبيلة المبرزة · وأبـدى ملك
المجر أيضا من جديد اهتماما بالشئون البوسنية ، وان حدت هزيمة ثقيلة
على يد الجيش التركى فى ١٣٩٦ من قدرة المجـر على التدخل فى الشئون
الداخلية للبوسنة لسنوات عديدة · ومع ذلك فانه عندما أقصى النبلاء الملك
البوسنى أوستويا من منصبه فى ١٤٤٠ وأحلوا محله ابنا غير شرعى للملك
تفرتكو (تفرتكو الثانى) ، فانه عاد مع جيش مجرى وغزا جزءا من البلاد
مرة أخرى · وعلى مدى عشر سنوات ، وبدعم من المجر ، استطاع أوستويا
أن يسترد حكمه وسعى لاصـــلاح العلاقات بين المجر وبين أقوى نبـــلاء
البوسنة ، هرفوى (Hrvoje) . ·

وفى عام ١٤١٤ دخل الى الساحة عامل أخل بتوازن القوى من الناحيتين السياسية والعسكرية : اذ أعلن الأتراك العثمانيون أن الملك تفرتكو الثانى المنفى من البلاد هو الملك الشرعى للبوسنة ، وأرسلوا قوة غزو كبيرة الى الأراضى البوسنية • وتبعوها بجيش جرار فى السنة التالية ، وأدى هذا الى تعديل فى تحالفات القوى : ففى أحد الجانبين الملك أوستويا ومعه جيش مجرى ، وفى الجانب الآخر كان الأتراك والنبيل البوسنى هرفوى • وسرعان ما هزم الجيش المجرى فى وسط البوسنة • ومع ان أوستويا عقد صفقة من نوع ما كان من شروطها أن يكون هو الملك وليس تفرتكو الثانى ، فقد أصبح واضحا أن الامبراطورية العثمانية منذ الآن فصاعدا سيكون لها من السلطان على الشئون البوسنية ما ينافس سلطان المجر (٢٣) • الأمر الذى اضطر الحكام والنبلاء البوسنيين الى التعاون مع الأتراك ، وهو أمر أثار حفيظة بعض المؤرخين المعاصرين ، ولاسيما الصربيون منهم ولكن طريقة هؤلاء الحكام فى ذلك الوقت لم تكن تختلف كثيرا عن تصرفات أمثالهم الذين التمسوا المعونة فى الماضى من المجر ، ولكن الفارق الرئيسى بين الاستعانة بالمجر والأتراك فى ظنهم كان أن الأتراك قوة أبعد ووجودهم مرهون باللحظة ولا يرجح أن يفرضوا أى لون من ألوان الحكم المباشر عليهم كما كان سيفعل المجريون •

وظل أوستويا فى السلطة بضع سنوات قليلة ، وتمكن فعلا من توسيع رقعة الأراضى التى يحكمها • ولكن بعد وفاته فى ١٤١٨ ، واجه ابنه نفس المشاكل : التنافس مع العائلات النبيلة الأخرى والتدخل التركى • وما لبث أن طرد من الحكم فى ١٤٢٠ ، وفى هذه المرة أكد الدعم التركى اعادة تفرتكو الثانى ملكا على بلاد البوسنة • ونعمت البوسنة ببضع سنوات من الهدوء فى أوليات عشرينات القرن الخامس عشر ، ولكن ما لبث أن تغير شكل التحالفات مرة أخرى ، حيث لجأ تفرتكو الثانى الى المجر يستنصرها على الأتراك ، كما أنه اشترك أيضا فى حرب محلية مع القوات الصربية فى خلاف حول منطقة المناجم الغنية فى مقاطعة سربرينيكا (Srebrenica) فى شرق البوسنة • وفى أوليات الثلاثينيات من القرن الخامس عشر ، كان منافساه الأساسيان فى جنوب البوسنة ، وهما النبيل ساندالى (Sandalj) وابن الملك أوستويا المدعو راديفوى (Radivoi) ، يتلقيان المساعدة والتشجيع من كل من نبلاء الصرب والأتراك ، وأصبحت لهما السيادة على شطر كبير من البوسنة • وفيما بين ١٤٣٣ و ١٤٣٥ تعرضت أجزاء من جنوب ووسط البوسنة تضم منطقة فرهبوسنا (المحيطة بسراييفو الحديثة) ، للغزو أو أعيد فتحها

على يد الجيوش المجرية والتركية وساعد ستيفن فوكتشيتش (Stephen Vukchich) حـاكم هوم القوى (وهو ابن أخ سـانداڵى) ، القوات التركية ، فتمكنت بذلك من رد المجريين على أعقابهم ٠ وفى تلك المرحلة كان الأتراك أشد اهتماما بالغنائم والسلب منهم بضم الأراضى الى ملكهم ٠ وقد افترض معظم المؤرخين أن منطقة فرهبوسنا ومعها قلعتها المهمة المحصنة هوديدييد (Hodidjed) وقعت فى يد الأتراك ، بل وحسبوا كذلك أنها ظلت تحت الحكم التركى المبـاشر ، منذ ١٤٣٥ و ١٤٣٦ ، غير أن من الدلائل ما يشير الى أن ذلك لم يحدث قبل ١٤٤٨ (٢٤) ٠

وظل تفرتكو الثانى مستمتعا بسلطان الملك فى البوسنة حتى يوم وفاته فى ١٤٤٣ : على أن السنوات الأخيرة من حكمه تميزت بغارات تركية أخرى (بما فى ذلك سقوط سربرينيكا فى ١٤٤٠) ، النمو المستمر فى القوة والسلطـان الذى أحرزه ستيفن فوكتشيتش حـاكم هـوم ٠ وفى البداية رفض فوكتشيتش الاعتراف بخلف تفرتكو ، وهو ستيفن توماش (Stephen Tomas) ، فأعقبت ذلك عـدة سـنوات من الحـرب الأهلية ٠ على أنهما ما لبثا فى ١٤٤٦ أن توصـلا الى اتفـاق ، ولكن فوكتشيتش ظل يواصل مساندته لحاكم صربى هو جـورج برانكوفيتش (George Brankovic) الذى راح ، بوصفه حاكما شبه مستقل مواليـا للترك، يواصل الحرب على الملك البوسنى طلبا للسيادة على منطقة سربرينيكا فى شرق البوسنة ٠ وزيادة فى وضـعه الاستقلالى فان فوكتشيتش أعطى نفسه لقبا جديدا فى ١٤٤٨ : « دوق (Herceg)هرتسج هوم والساحل » ٠ ثم ما لبث أن غير هذا الاسم الى « دوق سانت سافا » ، تبركا باسم القديس المدفون فى ميليشيفو فى منطقة نفوذه ٠ وكلمة « دوق » (Herceg) هى الشكل الصربى للفظة الدوق الألمانية (Herzeg) ومن هذا اللقب أخذ اقليم «الهرسك»(Hercegovina) اسمه (٢٥) ٠ وتمتع ستيفن فوكتشيتش ببضع سنوات قليلة أخـرى من السلطان والرخـاء ، ولكن فى أوائـل خمسينيات القرن الخامس عشر اضطر الى الدخول فى حرب لم تقتصر فقط على اشتباكه مع راجوزا ، بل شملت أيضا حربا أهلية مع ابنه الأكبر ٠ ولم يلبث هذا النزاع العائلى أن اشتعل مرة ثانيـة فى ١٤٦٢ ، عندما التمس الابن معونة الأتراك وشجعهم فى ادخال الهرسك بجانب البوسنة فيما يدبرون من خطط لهجوم ضخم فى ١٤٦٣ ٠

ولم تكن هناك مندوحة من أن يظلل التهديد التركى سماء السنوات الأخيرة من البوسـنة المسيحية ٠ فان الملك ستيفن توماش الذى بذل قصاراه فى الحصـول على وعود بالتأييـد من خارج بلاده ، اتجه فى

خمسينيات القرن الخامس عشر الى البابوية • وكانت روما قد شرعت تحس باهتمام متزايد بالبوسنة فى أثنـاء السنوات الأخيرة خاصـة وان الفرنسيسكان قد تمتعوا بفترة من النشاط الفعال هناك فى ظل رئاسة جاكوب دى مارتشيا (Jacob de Marchia) ، أسقف البوسنة النشيط وذلك فى ثلاثينيات القرن الخامس عشر • ولكن السلطات البابوية ظلت أيضا شديدة الانشغال بمسألة الهرطقة البوسنية ، وانهمر منها سيل من الوثائق فى أربعينات القرن الخامس عشر تتهم فيها الكنيسة البوسـنية بارتكاب أخطاء مذهبيـة قاتلة من بينها المانوية • وبذل الفرنسيسكان جهـودا مجددة فى خمسينات القـرن الخامس عشر لمكافحة الهرطقة : فان تقريرا كتبه قاصد رسولى فى البوسنة فى عام ١٤٥١ يذكر أنه « بمجرد أن وصل الاخوة الرهبان الى الأماكن التى يسكنها الهراطقة ، ذاب الهراطقة كالشمع اذا اقترب من النار » (٢٦) • ثم وافق الملك ستيفن توماش فى ١٤٥٩ . على أن يتحول الى سياسة الاضطهاد المباشر • فاستدعى رجال الدين فى الكنيسة البوسنية المنشقة وخيرهم بين التحول الى الكاثوليكية ، أو النفى من البوسنة • وحسب مصدر بابوى فى تاريخ تال ، قبل التحول ألفان منهم ولم يفر الا أربعون اتخذوا ملتجأ لهم فى الهرسك (٢٧) • وبذلك قصم ظهر الكنيسة البوسنية على يد ملك البوسنة نفسه ، وكان ذلك قبل أربع سنوات فقط من تدمير المملكة البوسنية نفسها •

وعندما توفى ستيفن تـوماش فى ١٤٦١ وخلفـه على العرش ابنـه ستيفن توماشيفيتش (Stephen Tomasevic) ، كان واضـحا أن نهاية البوسنة على مرأى البصر • وكتب توماشيفيتش الى البابا رسالة فى ١٤٦١ يتنبأ بغزو تركى ضخم جارف وملتمسا المساعدة ، ثم عاد فكتب الى البندقية فى أوائل ١٤٦٣ محذرا من أن الأتراك يرسمون خطة احتلال كل البوسنة والهرسك فى ذلك الصيف ، وعند ذلك سيتحركون لتهديد أراضى البندقية فى دالماشيا (٢٨) • ولكن لم تصله المساعدة المنشودة • وتجمع جيش تركى عظيم تحت قيادة محمد الثانى فى ربيع عام ١٤٦٣ عند أدريانوبولو (أدرنة) ثم زحف على البوسـنة • وكانت أول قلعـة سقطت فى أيديهم (فى ٢٠ مايو)هى بوبوفاك ، المعقل الملكى القـديم ، عند ذلك فر الملك ستيفن توماشيفيتش شـمالا الى يايسه (Jajce) واعتصـم بقلعة كليوتش (Kljuc) ولما حاصره الأتراك هناك استسلم مقابل وعد بمنحه الأمان • وما لبثت أن ظهرت فيما بعد قصص عديدة ملفقة ، عن خيانته وما أعقب ذلك من اعدامه • ولكن لدينا رواية لشاهد عيان سجلها انكشارى تركى صربى المولد لا شك فى أن وصفه حقيقى وصـادق بشكل شديد : « عندما رأى خدام الملك الذين كانوا فى القلعة أن مولاهم قد أخذ أسيرا استسلموا هم

الآخـرون . واستولى السلطان على القلعة فأمر بقطع رأس الملك ورؤوس رفاقه واستولى على بلاده كلها وضمها الى ممتلكاته (٢٩) .

وعلى الرغم مما أصاب البوسنة من حروب أهلية وغزوات ، فانهـا احرزت رغدا ورخاء حقيقيا أثناء الحقبة الأخيرة من العصور الوسطى . وكان مفتاح ثروتها هو المعادن والمناجم : فهناك النحاس والفضة في كريشيفو (Kresevo) وفوينيكا (Fojnica) ، والرصاص في أولوفو (Olovo) والذهب والفضة والرصاص في زفورنيك (Zvornik) وفوق كل شيء الفضة في سربرينيكا . وهناك منجم للذهب من أيام الرومان عند كروبا (Krupa) (في الشمال الشرقي من جورني فاكوف Gorni Vakuf) ، ربمـا كان يستخدم في أثناء العصور الوسطى أيضا . وفي أواخر القرن الثالث عشر وبواكير الرابع عشر وصل الى البوسنة أوائل المنقبين الألمان الوافدين من المجـر وترانسلفانيا والمعروفين باسـم الساكسون (الساسي Sasi) بدءوا في استغلال ثرواتها المعدنية (٣٠) . وما لبث أن وفد المزيد من الساكسون في القرن الرابع عشر . عندما راح ستيفن كوترومانيتش والملك تفرتكو يشجعان عملية استغلال المناجم . وكانت المناجم ملكا خاصا لملاك الأراضي المحليين ، كما كان يديرها الساكسون الذين كان القانون يبيح لهم قطع الأشجار من الغابات وانشاء مستوطنات التعدين حيثما وجد خام معدني . وأصبح بعض هؤلاء الساكسون أفرادا ذوي أهميـة في المجتمع : وهناك واحد منهم يكثر ورود اسـمه في السـجلات هو هانز ساسينوفيتش (Hans Sasinovic) (أي ابن الساكسوني) منح حيـازة ضـخمة من الأرض منحة « دائمة » ، وأرسل عدة مرات الى راجوزا كممثل تفرتكو(٣١) . وكان الذهب يصدر الى الخارج منذ ١٣٣٩ . وكان الرصاص يشحن من البوسنة الى البندقية وصقلية ، ولا مفر من أن يكون الرصاص البوسني قد استغل في كساء أسطح كثير من الكنائس الايطالية من عصر النهضة والقرون الوسطى . كما كان هناك أيضـا استخلاص لمعدن النحاس . بيد أن المصدر الأكبر للثروة كان معدن الفضة ، كما أن سربرينيكا (ومعناها الفضة واسمها اللاتيني Argentaria) أصبحت أهـم المدن التعدينيـة والتجارية في كل المنطقة الواقعة غرب صربيا . وعندما ظهرت لأول مرة في السجلات في ١٣٧٦ ، كانت قد أصبحت فعلا مركزا تجاريا ضخما يحوي مستعمرة راجوزية لها وزنها . واحتكر الراجوزيون تجارة الفضـة في داخل البوسنة ، وكانت جميع صادرات المعادن عن طريق الساحل تذهب عبر راجوزا على أية حـال . وفي مقابـل ذلك كان الراجوزيون يجلبون البضائع المصنعة مثل المنسوجات العالية الجودة الى البوسنة ، لأنه عند حلول عام ١٤٢٢ كانت البوسـنة وصربيا مجتمعتين تنتجان أكثـر من

خمس انتاج أوربا بأجمعه من الفضة ، ولذا فقد كان هناك عدد كبير من البوسنيين الأثرياء القادرين على شراء مثل هذه السلع (٣٢) ٠

ولم تسيطر المستعمرات الراجوزية (ومعها الساكسون) فقط على المدن التعدينية المذكورة أعلاه ، بل وأيضا على مدن تجارية مهمة مثل فوتشا (Foca) ٠ وكانت هنـــاك أيضـــا مستعمرة راجوزية فى فيســوكو (Visoko) ، التى كانت أيضا عاصمة بانية البوسنة فى معظم العصـور الوسطى ٠ وطبيعى آن هذه المدن العظمى ، بما فيها من مجتمعات الساكسون الكاثوليك والراجوزيين وغيرهم من الدالماشيين ، كانت تجتذب الفرنسيسكان عندما بدءوا ينشئون الأديرة الكاثوليكية فى البوسنة : وبهذا اشتد فى تلك المدن الطابع الكاثوليكى ٠ وكان من بين المدن التجارية القروسـطية الأخرى الواقعة على طرق التجارة يايســه وترافنيك (Travnik) وجورازدة (Gorazde) وليفنو (Livno) ٠ وبالاضافة الى هذه المراكز التجـارية الكبرى كان هناك كثير من المدن المحصـنة الصغيرة (وعدتها ٣٥٠ بلدة تقريبا بكل أرجاء البوسنة القروسطية) (٣٣) ٠ وتضم هذه المجموعة فرهبوسنا ، التى لم تكن فى أخريات العصـور الوسطى لتزيد كثيرا على قلعة تقوم الى جوار قرية ، والتى لم تلبث آن أصبحت مدينة سراييفو على يد الأتراك بعد ١٤٤٨ ٠

فأما فى الريف ، فان غالبية السكان كانوا من أقنان الأرض (Kmets) الذين كانوا يجندون للخدمات العســكرية والزراعية لسادتهم ويدفعون ضريبة العشر الى الملك (ولو نظريا على الأقل) (٣٤) ٠ وكان هناك أيضا أرقاء ، هم فى الغالب أسرى حرب ، وكان بعضهم يشترى أو يباع فى سوق الرقيق الكبير فى راجوزا ، وكان كثير من البوسنيين يباعون هناك أيضا كأرقاء ويصدرون الى البندقية وفلورنسا وجنوة وصقلية وجنوب فرنسا وقطالونيا (٣٥) ٠ فأما هناك فى المرتفعات فى الجبـــال البوسنية فكان الرعاة ، وبعضهم من الأفلاق (انظر الفصل السادس) ، الذين كان النظام الاقطاعى يمنصهم بسرعة وســـهولة أقل ٠ وكان التفريق بـين الناس العاديين والنبلاء هو التقسيم الأساسى فى المجتمع البوسنى ، على أنه كانت هناك فوارق أخرى بين طبقة النبلاء العليا والدنيا ، بالرغم من أنها لم تأخذ الصبغة الرسمية التى أخذتها فى النظام الأوربى الغربى القائم على الترتيب الوراثى ٠ وبالرغم من أن القوة الحقيقية كانت تعتمد بطبيعة الحـال على امتلاك الأرض ، فان المركز كان أكثر اعتمادا على الوظيفة : فالذين يملكون المناصـب العليـــا فى الدولة كانـــوا يسمون فيوموجه Veomoze أى « الأعيان » ، فأما أصحاب المناصب الأقل فكانوا يسعون كنتس Knez ،

وهو لقب يعادل لقب بارون • وبينما كان اللقب السلافى القديم للحاكم الاقليمى ، وهو الجوبان ، ظل قائما ، فان منزلته كانت تقع فى موقع ما بين هاتين المنزلتين (٣٦) • وكان كبار النبلاء يملكون كما رأينا سلطة سياسية عظمى ، وكانوا يستطيعون أن يولوا أو يعزلوا البانات والملوك • وعند نهاية القرون الوسطى أى منذ تسعينيات القرن الرابع عشر وحتى عشرينيات القرن الخامس عشر كانوا يعقدون « مجالس الدولة » ، بطريقة رسمية أو غير رسمية ، للتناقش فى مسائل توارث العرش وغيره من الشئون ثقيلة الوزن الخاصة بالسياسة الداخلية والخارجية (٣٧) •

وكان لبعض النبلاء الأعظم شأنا بلاط على نفس مستوى بلاط الملك نفسه ، وعلى هؤلاء كان يفد ، من راجوزا أو ما وراءها ، الزمار والعوادون ونافخو الأبواق والحواة « والمهرجون » وغيرهم من أهل الطرب والسمر ، وكانوا يتقاضون مكافآت باهظة (٣٨) • وكانت للبلاطات الملكية أيضا مستشارياتها الجيدة التنظيم والتى كانت عدتها غالبا ، بعد أربعينيات القرن الرابع عشر ، من الفرنسيسكان ، وكانت الوثائق تكتب اما باللغة السلافية أو اللاتينية ، وتم تطوير أشكال خاصة من الخطوط البوسنية المنوعة التى تختلف عن السيريلكيه (Cyrillic) والتى عرفت باسم بوسانتشيكا (Bosancica) (٣٩) • رجاء الفنانون وأرباب الحرف أيضا من راجوزا والبندقية للعمل فى البوسنة ، ومن آسف أنه لم يبق مما قدمت أيديهم من أعمال فنية الا القليل ، ولكنا نجد أعمال حفر ذات جودة طيبة فى جذاذات التماثيل التى بقيت الى الآن بقصر الملك تفرتكو فى بوبوفاك ، فضلا عن تاج عمود منقوش عليه الرمز الملكى البوسنى ، وهو زهرة الزنبق (٤٠) • والبوسنة لم تكن بالطبع مركزا مهما من مراكز الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى • ومع هذا فلا ينبغى لنا المغالاة فى تصوير عزلتها الاقليمية • فان العائلات النبيلة الحاكمة كانت على اتصال وثيق بدائرة أرحب من الأسر النبيلة بوسط أوروبا : وكان البلاط الملكى البوسنى القروسطى يضم أميرات من المجر وبروسيا وبلغاريا وبولندا وصربيا وايطاليا واليونان (٤١) • ولئن كانت البوسنة أرضا متخلفة بقياس المعايير الأوربية الغربية ، ولكنها بحر تفيض فيه فعلا بعض التيارات الأوربية الثقافية •

الفصل الثالث

الكنيسة البوسنية

ليس هناك موضوع في تاريخ البوسنة دار حوله نقاش وجدل أكثر من مسألة الكنيسة البوسنية الانشقاقية في العصور الوسطى (١) . ومن المحال علينا أن نناقش ذلك الموضوع دون أن نمس أيضا الأساطير والمذهبيات العصرية التي خدمتها أو فندتها . وعندى أن الهرطقة القروسطية شأنها شأن تاريخ ثورات الفلاحين تقريبا ، انما هي موضوع يثير قدرا من التعاطف الرومانسي اللاشعوري لدى المؤرخين : فان الهراطقة كثيرا جدا ما يبدون أكثر شجاعة وأكثر أصالة وأكثر اثارة للتشويق والاهتمام من المؤمنين التقليديين . ولكن كنيسة قومية هرطيقية (أو يدعي بأنها هرطيقية) انما تثير احساسا أخص بالتعاطف حيث يرى كثير من مؤرخي البوسنة أن هذه الظاهرة البوسنية العجيبة الخاصة انما هي صميم القومية البوسنية . فلا عجب اذن اذا رأينا بين حين وآخر ، كتابا يعالجون ذلك الموضوع لايلتزمون التزاما صارما بالدقة العلمية .

من المؤكد أن المؤسس لجميع الدراسات العصرية للكنيسة البوسنية كان رجلا علامة : وهو فرانيو راتشكي (Franjo Racki) ، وهو أهم المؤرخين الكرواتيين في القرن التاسع عشر . فانه جمع في مجموعة من المقالات التي نشرت تباعا في ١٨٦٩ ــ ١٨٧٠ كل ما أمكنه الوصول اليه من بينات وشواهد ، وحاول أن يثبت أن الكنيسة البوسنية كانت نبتة البوجوميلية (٢) . والبوجوميلية كانت حركة بلغارية هرطيقية أسسها في القرن العاشر قسيس يدعى « بوجيوميل » (حبيب الله) ثم انتشرت في القرون التالية في القسطنطينية وبقية مناطق البلقان ، بما في ذلك مقدونيا وأجزاء من صربيا . وهي تبشر بلاهوت مانوى « ثنائي » يكاد يكون فيه للشيطان قوة تكافيء قوة الله أو تكاد . وفيها أن العالم المرئي انما هو من خلق الشيطان وأنه ليس في امكان البشر أن يخلصوا أنفسهم من براثن العالم المادى الا باتباع حياة تزهد وتقشف متخلين عن اللحم والنبيذ

والاتصـــال الجنسى · والمطابقـــة بين المادة ومملكة الشيطان لها مضامين أو معان لاهوتية بعيدة المدى : مثل اعتبار تجسد المسيح نوعا من الوهم والخيـــال ، وأنه من ثم لم يكن فى الامكان حـدوث موته على الصليب ، وكان لابد لمراسم متنوعة كثيرة تنطوى على مواد مادية مثل التعميد بالماء أن تنبذ ، وأن الصليب نفسه أصبح رمزا مروجا لاعتقاد زائف · وكان مرفوضا أيضا ، اســتخدام مبانى الكنيســة ، كما مقت بالفعل الهيكل التنظيمى للكنيسة التقليدية خاصة أديرته الثرية · وصنف أتباعها فى مرتبتين : المؤمنون العاديون و«النخبة المطهرة »(٣)· وقد نمت بنيه مشابهة بين الكاثار (Cathars) بجنوب فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، الذين تأثر مذهبهـــم الهرطيقى تأثـرا شـــديدا بالتعاليـم البوجوميلية (٤) · وقد دفع راتشكى بأن ذلك التقسيم نفسه قد حدث بالبوسنة ، وأن المصطلحات الغامضة « جوست » (Gost) و « ستاراك » (Starac) و « ستروينيـك » (Strojnik) التى تنتشر فى الوثـائق البوسنية كألقاب للأعضاء الرئاسيين فى الكنيسة البوسنية ، انما كانت مصطلحات خاصة تطلق على العارفين بأسرارها وهم « النخبة » أو «الكاملون» فى التقليد البوجوميلى المأثور ·

وكان لهذا التأويل أثر عميق على الطريقة التى فكر بها المؤرخون البوسنيون وغيرهم من السلاف الجنوبيين حول تاريخ البوسنة · ولم يكن راتشكى أول كاتب ربط بين الكنيسة البوسنية والبوجوميل ، وكان هناك بطبيعة الحال كتاب كاثوليك أقدم عهدا راحوا ، اتباعا لمصادر القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، يصفونهـــا بأنها تتبع هرطقة ثنائيـــة أو « مانوية » (٥) · ولكن راتشكى أنتج صورة أوفى كثيرا وأشد تكاملا وتماسكا للكنيسة البوسنية بوصفها هيئة متميزة تميزا تاما عن كنائس كرواتيا وصربيا ولها مبادئها الخاصة فى التنظيم واللاهوت ، وذلك بفضل جهوده الشاقة المتأنية فى محفوظات دبروفنيك والبندقية وطريقته الخاصة فى استخدام المعلومات المعروفة حول المعتقدات والممارســات البوجوميلية غير البوسنية لملء الفجوات الخالية فى البينات والشواهد البوسنية · والتفسير الوحيد المنافس لهذا فى ذلك الزمن وهو تأويل بوجيـــدار بترانوفيتش (Bojidar Petranovic) الذى دفع بأن الكنيسة البوسنية كانت مجرد كنيسة أرثوذكسية شرقية · ولعلها صربية انفصلت عما عداها واحتازت بعض المعتقدات الهرطيقيـــة (٦) · وظلت هذه النظرية مقبولة تماما لدى الكتاب الصربيين الذين كانوا حريصين تماما على اظهار البوسنة على أنها تابعة لصربيا فى جميع جوانبها الجوهرية ، وظلت هذه النظرية تردد فى النصف الأول من هذا القرن ، ثم فقدت تأييد العلمـــاء ، على

الأقل (٧) ، خارج صربيا ولكنها لم تنبذ نهائيا ، كما أنهــا فى السنوات الخمسين الأخيرة لقيت تأييدا قويا من بعض كبــار العلمــاء فى البوسنة مثل ألكسندر سولوفييف (Aleksandr Solovjev) ودراجوتين كنيوالد (Dragutin Knieweıd) (٨) • أما النظرية الرئيسية الأخرى المنافسة التى نمت مؤيدة ومساندة فى فترة ما بعد الحرب ، فتدعو بأن الكنيسة البوسنية كانت فى جوهرها فرعا من الكنيسة الكاثوليكية ، ولعلها كانت هيئة ديرية حل بها الانشقاق واكتسبت بعض الميول الهرطيقية ، وهذه النظرية ولا عجب ، انتشرت بوجه خاص بين الكتاب الكاثوليك (٩) • على أن أشد الايضاحات اقناعا ، كما سنرى ، يحتوى على عناصر مهمة من كل من النظريتين الشرقية الأرثوذكسية والكاثوليكية • أما النظرية التى راجت لمدة تتجاوز القرن وهى اكتشاف راتشكى أن الكنيســة البوسنية كانت بوجوميلية ، فقد تبين أنها محض أمانى •

وقد لقيت نظرية فرانيو راتشكى البوجوميلية هذا الانتشار الشديد لعدة أسباب • فهى لم تقتصر فقط على توضــيح ملامح غامضــة للكنيسة البوسنية ، بل انها تقدم أيضا مفتاحا يوضح اثنين من تلك الأسرار الكبيرة الأخرى فى التاريخ البوسنوى • أحدهما هو اعتناق شطر عظيم من سكان البوسنة دين الاسلام فى عهد الترك ـ بنسبة أعظم كثيرا منها فى أى قطر بلقانى آخر عدا ألبانيا • ويبدو طبيعيا أن نفسر ذلك بأنه اعتناق جماعى لدين آخر قام به البوجوميــل ، الذين انتهوا الى اعتناق الاسلام بعد أن صمدوا قرونا متوالية تلقاء منافسات و/ أو اضطهادات صادرة من الكنائس الكاثوليكية والأورثوذكســية • وبهذه الطريقــة أصبحت النظـــرية « البوجوميلية » بصــورة جوهرية ، جذابة بوجــه خاص لأبنــــاء القرن العشرين من مسلمى البوســـنة • فبدلا من اعتبــارهم مجرد مرتدين من الكاثوليكية أو الأورثوذكسية (الأمر الذى حدث فى أوقات مختلفة أن دعاهم الكروات والصربيون أن « يعودوا عنه ») ، فانهم يمكنهم الآن أن يعدوا أحفادا لأتباع كنيسة بوسنية أصيلة الجذور لها عقيدتها الخاصة ، وأن تحولهم الى الاسلام لا يمكن أن يعد دليلا على الضعف ، بل هو ذروة التحدى لمضطهديهم المسيحيين• ومع ذلك فمن سوء الحظ أن المحافل العلمية الحديثة نسفت تماما دعوى أن اعتناق البوسنة للاسلام كان فى جوهره تحولا شاملا لأتباع الكنيسة البوسنية الى الاسلام • ولا شك فى أن بعض أعضاء هذه الكنيسة قد جنحوا حقا الى اعتناق الاسلام بسبب اغترابهم عن التيار الرئيسى للكنائس الكاثوليكية أو الأرثوذكسية ، وهذا أمر يبدو ممكنا من الناحية السيكولوجية ولكن تعوزه البينة • والشىء المفهوم اليوم هو أن هناك عوامل تدخلت فى انتشار الاسلام بالبوسنة ، وأنه اذا كان

الموقف الخاص للكنيسة البوسنية كان عاملا منها ، فانه لم يكن أبدا أهمها (١٠) .

واللغز الكبير الثاني الذى يبدو أن نظرية « البوجوميلية » قد حلته ، هو سر شواهد القبور فى العصور الوسطى ، التى توجد بأرجاء كثيرة من البوسنة وهى تعرف باسم ستتشى (Stecci) وهى جمع كلمة (Stecak) ونوجد على هيئتين : النصب وهى هيئة أو شكل شائع فى أجزاء كثيرة من أوروبا ، والكتل القائمة التى تختص بها الى حد ما المنطقة البوسنية . وقد سجلت منها فى سجلات المساحة الحديثة أكثر من ثمانية وخمسين ألفا ، ومن هذه ستة آلاف تقريبا مزينة بالنقوش المحفورة والتى تكون أحيانا شخوصا بشرية . أما المزخرفة منها ، وأكثرها يمكن ارجاع تاريخه الى القرن الرابع عشر أو القرن الخامس عشر ، فتوجد بوجه خاص فى بلاد الهرسك وجنوب البوسنة والأجزاء المجاورة بدالماشيا ، وان وجد بعضها بمناطق أخرى بعيدة أى بكرواتيا وصربيا والجبل الأسود (١١) . ولما كانت هذه المنطقة هى محور المنطقة المعروفة بأنها كانت مجال أنشطة الكنيسة البوسنية ، كان من الطبيعى الربط بين الظاهرتين ، كما أن هناك بعض الشواهد المزخرفة والمنقوشة تذكر فعلا أنها نصب « للجوستى » Gosti (وهو لقب كبار أعضاء الكنيسة البوسنية) . ومن ثم بدأ المؤرخون يفسرون التصميمات على شواهد القبور المزخرفة على أنها تعبير عن المعتقدات اللاهوتية البوجوميلية . وكانت أولى المحاولات فى هذا الاتجاه هى التى قام بها الكاتب المجرى يانوس آسبوث (Janos Asboth) فى ثمانينات القرن التاسع عشر ، وفى العقود الوسطى من هذا القرن استأنف العلماء تفسيرات شواهد القبور البوجوميلية فى دراسات متعاقبة قام بها ألكسندر سولوفييف (١٢) .

وللمرة الثانية عادت الأوساط العلمية والمنطق البسيط فأثارا مجموعة كبيرة من الاعتراضات على النظرة « البوجوميلية » . فمع التسليم بأن بعض أعضاء الكنيسة البوسنية خلدت ذكراهم على شواهد القبور لكن الفكرة القائلة بأن ظاهرة شواهد القبور هذه كانت تعبيرا لمعتقدات تلك الكنيسة أصبحت موضعا للشك المتزايد . ونحن نعلم أنه فى أخريات القرن الرابع عشر وأوليات القرن الخامس عشر عندما صنعت كثير من هذه الأحجار ، كان قسم كبير من سكان البوسنة الحقة من الكاثوليك وكان قسم يعتد به من سكان الهرسك من الأرثوذكس . وكانت شواهد القبور فى جميع الأراضى الكاثوليكية والأرثوذكسية عادة منتشرة ، على الأقل بين الأغنياء ، فاذا ما قرنا شواهد القبور بالبوجوميلية فكأنما نحل لغزا بلغز

آخر ـ ونعنى بذلك عدم وجود شوهد قبور كاثوليكية أو أورثوذكسية(١٣) - ومن ناحية أخرى فاذا كانت شواهد القبور شيئا مميزا يخص البوجوميلية، فان من الغريب حقا ألا تكون هناك دلائـل على صنع البوجوميليين لهـا فى بلغاريا أو تراقيا أو المواطن الأخـرى المشهود لها بشدة بأنها مناطق نشاط البوجوميل (١٤) ٠ ولا شك فى أن اصرار بعض الكتاب على التوحيد بين هويتى هذه الظاهرة والبوجوميلية قد أدى الى التـواءات عجيبة فى المناقشة ٠ فان وجود الصلبان (وهى رمز مكروه من البوجوميليين) على شواهد القبور ظل على الدوام عائقا يقف حجر عثرة فى سبيل النظرية ، ولكن يانوس أسبوث أعطى أصحاب النظرية الوسيلة للدوران حول هذا الاعتراض عنـدما أصر بأنهـا ليست صلبانا حقيقية بالمعنى المسيحى المعروف ، وانما هى مجرد « نماذج » تماثل النماذج الهندسية المرسومة فى الفن المصرى الفرعونى أو البابلى (١٥) ٠

وما لبثت نظرية شواهد القبور البوجوميلية أن تقوضت بالتدريج ونبذت ٠ فمعظم العلمـــاء أصبحوا الآن يعتقدون أن الموتيفات على هذه الأحجار لا تنتسب كلها الى لغة مذهبية تصويرية واحدة ٠ فربما يعكس بعضها شيئا من البقايا الموروثة من الأساطير والشعائر الوثنية البائدة ، وربما حمل البعض الآخـــر شـعارات النبالة التى تعبر عن مركز النبلاء السلاف المحليين ، وربما خلدت بعض هذه الشواهد أنشـــطة قام بهـا أصحابها على شاكلة صور الخيالة على قبور الأفلاق المبرزين بالهرسك الذين جمعوا الثروات وأصبحوا أغنيـاء نتيجة عملهم فى تسيير القوافل وتجارة الخيول (١٦) ٠ وبطبيعة الحال ، فربمـــا كان الغـرض مـن بعض هذه الزخارف والزينات على هذه الأحجـار انما هو مجرد الزخرفة وحسب ، وان كانت هذه النقطة آخر الاحتمالات التى يجـوز للمؤرخين أخذها فى الاعتبار ٠

على أن اخفاق نظرية البوجوميليـــة فى تفسير التحول الى الاســلام أو صنع شواهد القبور لاينقض النظرية نفسها ٠ ولكنه يحمل المؤرخين على النظر نظرة أعمق الى البينات الكتابية التى تتعلق بالكنيســة البوسـنية نفسها بدلا من أن يشطحوا بأفكارهم فى تفسير الأشكال المصورة أو تأمل الفترات السابقة ٠ وهنا لب المشكلة ، فمعظم هذه الأدلة الوثائقية تأتى من خارج البوسنة نفسها ٠ ففى العـادة لم تكن السـجلات البابوية تحتفظ الا بردود البابا على الرسائل التى بعث بهـــا الكاثوليك فى دالماشـــيا والبوسـنة ، كمـا أن بعض الوثائق البابوية الحافلة باللعنـات والتنديد « بالهرطقات » البوسنية دبجهـا قوم لم يطأوا بأقدامهم أرض البوسنة ، كما أن هناك مستندات أعدها الرهبان الفرنسيسكان فى ايطاليا أو وجهت

لهــم كانت دراية كاتبيها بالأمور الحقيقية فى البوســنة غـير مؤكدة بالمثل (١٧) • ومن سوء الحظ أنه ليس هناك وصف صحيح ، ورد من داخل البوسنة عن تنظيم الكنيسة البوسنية أو احتفالاتها أو لاهوتها •

وحتى الأسماء المستخدمة فى الوثائق المبكرة كانت مصدرا للمجادلات والمنازعات والربكات المحيرة • والحقيقة الوحيـدة التى أصبحت واضـحة تماما ، هى أن الكنيسة البوسنية لم توصف بأنها « بوجوميلية » قط أثناء ذلك الزمان • فليس هناك على الاطـلاق مصـادر كاثوليكية أطلقت ذلك المصطلح على البوسنيين ، والمصدر القروسطى الوحيد الذى يشير اشارة واضحة الى البوجوميليين فى البوسنة مصدر زائف زيفا مؤكدا أقرب الى اليقين (١٨) • ومن الناحية الأخــرى ، فعندما صبت مستندات صربية أرثوذكسية من أخريات القرن الرابــع عشر لعناتهـا على البوســنيين الهراطقة ، فانها لعنت أيضـا « البابيزنى » Babuny (وهو مصطلح معروف أنه كان يطلق على البوجوميليين ببلاد الصرب) ، وأظهرت بوضوح أنهما جماعتان منفصلتان (١٩) • كمـا أن مؤلفى القـرن الرابـع عشر الكاثوليك أشـاروا فى بعض الأحيان الى المانويين ببلاد البوسنة • عن أن ذلك المصطلح يبدو أنه حيلة اسـتخدمها أرباب الأقـلام ذوو النزعة التاريخية الذين كانوا يميلون الى تزيين أعمالهم الأدبيـــة بالمصطلحـات المستخدمة فى التاريخ المسيحى المبكر (٢٠) •

والكلمة شائعة الاستخدام فى المصادر الراجوزية وبعض الوثائق الايطالية أيضا ــ ولكن ليس أبدا بالبوسنة نفسها ــ هى كلمة « باتارينى Patareni أو Patarini (أو باللغــة الانجليزية Patarins) (٢١) • وهذا المصطلح أيضا له تاريخ محير الى حد ما • اذ أنه بعد أن اســـتعمل لأول مرة فى مدينة ميلانو فى القرن الحادى عشر فى وصف حركة اصلاحية شديدة التطهرية فى الكنيسة الكاثوليكية ، أصبح يطلق فى ذلك القرن على أصحاب الدعاوى الفكرية والدينيـة المناوئة للكنيسـة الرسـمية ، بما فى ذلك الهرطقة • واذا هى فى أخريات القرن الثانى عشر تسـتخدم مرادفا حقيقيـــا للهرطقات التى كانت تستهدف نـــوعا أعلى من التطهر أو التنوير الروحى ، مثل حركات الفالدانيين والكاثار ، ثم فى القـــرن الثالث عشر أصبحت لفظة باتارين هى الكلمة المعتادة التى تطلق على الكاثار بشمال ايطاليا • ولكن معنى هذه الكلمـة لم يعرف بوضــوح أبدا فى المصطلحات اللاهوتية (٢٢) • وقد ظهرت أولا مرتبطة بالبوسنة فى خطاب أرسله كبير أساقفة سبليت الى البابا فى عام ١٢٠٠ : فقد قال انه عندما طرد الهراطقة الباتارين من سبليت ومن المدينة الساحلية القريبة تروجير

(Trogir) ، وجدوا ملتجا لهم بالبوسنة حيث رحب بهم بان كولين(٢٣)٠
ويقول مصدر آخر (وهو مدونة تاريخيـة كتبت فى سبيلت فى منتصف القرن الثالث عشر) ان أخوين من زادار (وهى مدينـة ساحلية أخرى) زارا البوسنة فى صورة فنانين وصائغين للذهب فى تسعينيات القرن الثانى عشر ، كانا يعلمان الناس الهرطقة حيثما ذهبا ، وبعد أن وقع كبير الأساقفة عليهما العقوبة رجعا عن مذهبهما وعادا للكاثوليكية (٢٤) ٠ وهناك بعض اشارات من مصادر كاثوليكية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تشير الى وجود مركز للهرطقة الثنائية فى سكلافونيا (Sclavonia) ، وينطبق المصطلح على أى أرض من الأراضى السلافية الجنوبية ، ولكن هناك أسبابا تدعونا الى الظن بأن الهرطقة كانت قاعدتهـا فى مكان ما على السـاحل الدلماشى (٢٥) ٠ ومع ذلك فان من الممكن تماما أن احدى أو كلتا هاتين القصتين المذكورتين عن الهرطقة كانت مرتبطـة بالحركة الثنائية ، وأنه كان هناك شيء من الاتصال الثنائى مع البوسنة أثنـاء أخريات القرن الثانى عشر ٠

فأما المصطلح الذى كان يستخدمه البوسنيون أنفسـهم فلم يكن « باتارين » ولكن ببسـاطة كان كلمة « مسيحى » : باللغـة اللاتينيه « Christianus » وباللغـة الصربوكرواتيـة « Krstjanin » ٠ وسرعان ما برز الى النور هذا المصطلح فى أول وثيقة خرجت من البوسنة نفسها ٠ وفى أعقاب شكايات أخرى حول الهرطقات فى البوسنة (منها ما هو يحتمل انه مصطنع كما رأينا فى الفصل الثانى استفزته المنافسات السياسية) ، أرسل البابا مندوبا رسوليا الى البوسنة فى ١٢٠٣ ٠ وكانت مهمته تنحصر فى أن يكتشف ، كمـا أصر بان كولين ، اذا ما كان النـاس فى اقليمه « ليسوا هراطقة وانما هم كاثوليك » ٠ وكانت النتيجة هى عقد اجتماع بين رجال الاكليروس البوسنيين بمدينة بولينو بوليـه فى أبريل من تلك السنة ، وفيه سطروا تصريحا يعدون فيه بتصحيح سلوكهم ٠ وتعهدوا بالاعتراف بسيادة روما الكاملة ، وبقبول القسس الكاثوليك فى أديرتهم ، وارجاع الهياكل والصلبان الى أماكن العبادة ، والعودة الى نظام الاعتراف والتوبة ، واتباع التقويم الرومانى للأعياد والصـوم ، وتلقى التنـاول سبع مرات على الأقل فى السنة ، وأن يفرقوا بين الجنسين فى الأديرة ، وأن يمتنعوا تماما عن ايواء الهراطقة ٠ ووعدوا أيضا بألا يطلقوا على أنفسهم وحدهم اسـم المسيحيين ، وانمـا أن يشيروا الى أنفسهم بأنهـم « اخوة » (Fratres) بدلا من ذلك (٢٦) ٠

وأعجب ما فى هذا التصريح دون شك أنه ليس نبذا للهرطقـات ٠ فلئن كانت بعض فقراته تدل على السلوك الهرطيق ، مثـل عدم وجود

الهياكل والصلبان ، ولكن ذلك ربما دل على الجهل وعدم الكفاية أو الاهمال من ناحيتهم فقط • والاشارة الخاصة الوحيدة الى الهرطقة هي الوعد بعدم ايواء الهراطقة ، وهو أمر قد يشير الى أن رجال الاكليروس البوسنيين أولئك أنفسهم لم يكونوا يعتبرون هراطقة عند المندوب الرسولى • وبالنظر الى الاشارة الواردة هنا الى الاستخدام الخاص لكلمة «المسيحيين Christianus» وبالنظر الى استخدام مصطلح « المسيحيين Krstjanin » أثناء القرون (يوم كانت الكنيسة البوسنية تعد بكل تأكيد هرطيقية عند روما) فقد أغرى هذا الكثير من المؤرخين على محاولة استقراء تاريخ البوجوميل في سطورها وكذلك تاريخ الهيكل التنظيمى لأتباع الكنيسة البوسنية فى أوج انشقاقها • ولكن هذا المنهج لن يصل بالمؤرخ الا الى استنتاج ما يظن أنه يعرفه بالفعل • أما خير وسيلة لحل مشكلة الكنيسة البوسنية فهي الاقتراب منها من الاتجاه المقابل المضاد : فأولا يجب البدء بالنظر فى مصطلح المسيحى وما الذى كان يعنيه فعلا فى ذلك الزمان ، ثم البحث عن الدلالات التى يمكن تفنيدها فى تاريخه التالى المتأخر •

وكما لاحظ كثير من الكتاب ، فان الهيكل الأساسى للكنيسة التى التقت فى بولينو بوليه كانت ديرية • فالزعماء الذين اجتمعوا هناك وصفوا بأنهم « الأئمة » الذين جاءوا الى هناك ليمثلوا « اخوانهم » الرهبان كما وعدوا بأن يسموا أنفسهم « اخوانا » فى المستقبل • وبعض وعودهم كان متصلا بخاصة بممارسات تجرى فى الأديرة • ولكن أى نوع من الأديرة كانت تلك ؟ لقد كانت القاعدة الأساسية الديرية فى المسيحية الغربية هى قاعدة القديس بنديكت ، وافترض بعض العلماء (وبخاصة الكاثوليك منهم) أن هؤلاء الرهبان البوسنيين كانوا نوعا فجا من البنديكت ، ولكن ليس هناك بعد ذلك أية علامة أو اشارة تدل على قيام النشاط البنديكتينى فى أرض البوسنة (٢٧) • واكتشف حل تلك المعضلة مؤرخ عصرى هو مايا ميليتتش (Maja Miletich) • الذى أدرك أن المزج بين الجنسين المشار اليه فى التصريح كان بقية باقية للممارسة المسيحية المبكرة المسماة « بالأديرة المزدوجة » ، التى كانت مباحة تحت قاعدة القديس بازيل مؤسس التقاليد الديرية فى المسيحية الشرقية • (وليس هذا الاعلان هو البينة الوحيدة على تلك الممارسة : فان بعض الكتابات القديمة بدءا بكتابات البابا بيوس الثانى فى القرن الخامس عشر تذكر أيضا أديرة بعيدة بأرض البوسنة تعيش فيها أيضا النساء اللاتى كن يتولين خدمة الرجال المقدسين) (٢٨) • وكان هذا النوع من الأديرة موجودا فى الكنيسة الكلتية المبكرة ، وكان أعضاؤها غالبا ما يسمون بالمسيحيين (Christiani) وكان من الجائز أن تنضم اليها

عائلات بأكملها ، هو أمر أدى الى شيء من الضعف في التمييز بين الحياتين الديرية والدنيوية • (ووعد الموقعون على اعلان بولينو بوليه أيضا بارتداء ثوب ديرى مناسب ليميزوا أنفسهم عن الرجال العاديين) • وكثيرا ما كانت هذه الأديرة تقوم بدور فى المجتمع الدنيوى حيث كانت تنهض بدور النزل أو المشفى (Hospitia) ـ أى فنادق للمسافرين أو مشافى للمرضى • (وكذلك أيضا ضم الاعلان وعدا بانشاء جبانات مناسبة للزوار الذين يموتون فى الدير) • وكان للنزل (Hospitium) حافظ يدعى الهوسبيتالى (*) (Hospitalarium) أو بعبارة أبسط هو المضيف (Hospes) وهى الأساس لكلمة مضيف الافرنجية الحديثة (Host) • وهذا هو المعنى الحرفى للقب جوست (Gost) ، الذى نجده فيما بعد وكثيرا ما يستخدمه كبار أعضاء الكنيسة البوسنية (٢٩) •

وموجز القول ان كثيرا مما كان يحيرنا فى شأن الكنيسة البوسنية فى أثناء تاريخها التالى قد انكشفت خفاياه • فكما تدل عدة مراجع متأخرة كان المعنى الأساسى لكلمة « المسيحى » (Krstjanin) وهذا هو المعنى ففى منتصف القرن الخامس عشر مثلا أشار الدوق ستيفن فيوكتشيتش الى عضو شهير فى الكنيسة البوسنية وهو جوست رادين بأنه أحد « رهبانه » (٣٠) • وببساطة تامة ، ليس من الضرورى أن نقيم بنيان الكنيسة كما حاول راتشكى أن يفعل على أساس هرم كنسى بوجوميلى أو كاثارى قسرى • والألقاب الخاصة التى بقيت الى اليوم فى صفحات السجلات تتناسب على أكمل وجه مع البنية الديرية • وكان رأس الكنيسة كلها معروفا باسم الديد (Djed) ومعناها الحرفى هو « الجد » وكانت نونوس (Nonnus) وهى الكلمة اللاتينية ذات المعنى نفسه تستخدم فى كل من نظامى الديرية الغربى والشرقى فى الاشارة الى الاخوة أو الكبار أو الرهبان الرؤساء (٣١) • فأما اللقبان الآخران المستخدمان فى السجل فيشيران الى أعضاء رئاسيين أو موظفين فى الدير وهما Starac (« شيخ ») وستروينيك Strojnik (« أى المشرف Steward ») • ولم يكن أى لقب من هذه الألقاب ومعها مصطلح « جوست » يمنع حامله من أن يأخذ لقبا آخر منها فان سجلات الارساليات الدينية الى راجوزا فى القرن الخامس عشر تضم اشارات الى اثنى عشر مشرفا ، بما فيهم جوست رادين « والى مشرفينا » ستاراتس ميشلين (Misljen) وستاراتس بيلكو Bilko » (٣٢) •

(*) قارن فرقة الهوسبيتاليين فى الحروب الصليبية ـ (المترجم) •

ومصطلح ستروينيك أى المشرف يحمل معنى قويا لذلك المشرف الذى يباشر الضيوف ، ومرة أخرى فان هذا ربما كان تذكيرا بالدور الاجتماعى للمنزل أو المشفى الديرى · بل اننا نجد تلميحا لهذا فى النقش الموجود على قبر بوسنى يقول : هنا يرقد الرجل الصالح جوست ميشلين الذى اعد له ابراهام (أو النبى ابراهيم) للترحيب به ، العدة (٣٣) · وربما تكون الاشارة الى النبى ابراهيم الماعا لفقرتين فى العهـــد الجديد من الكتاب المقدس تدلان على أن الرجل الصالح بعد الموت سوف يجلس فى ضيافة سيدنا ابراهيم فى الجنة (٣٤) · كما أن الاشارة الى « القاعدة » تدل على أن كرم الضيافة كان يعـد واجبـا ضروريا للكنيســة الديرية البوسنية · فأما استمرار قيام الأديرة البوسنية بدور مهـم كدور مقـام للمسافرين والتجار ، فأمر واضـــح من الاشــارات الكثيرة الى ذلك فى السجلات المودعة فى دوبروفنيك (*) : ان التجار الأفلاق ليتركون بضاعتهم هنــاك فى بعض الأحيــان كمـا أن بعض الأديرة ربما قامت بدور مراكز الجمارك (٣٥) · والمصطلح الدال على « الدير » فى السجلات هو « هجة Hiza » ، وهى كلمة يمكنها أن تعنى بيتا عاديا فضلا عن بيت ديرى · وفى كثير من مواقع هذه « الهجات » تشير أسماء الأماكن الباقية الى اليوم الى أنه كان هناك مبنى لكنيســة ملحقة (٣٦) · وربمـا كانت « الهجات » مبانى متواضعة تضم بين جنباتهـا رجالا عاديين يعيشون فيها ، ومن هنا تلاشت الخطوط الفارقة بينها بصورة جزئية ، ولكن ليس من الضرورى الظن هنا بأن تلك البيوت كانت بيوتا عادية من النوع الذى كان يقوم بدور المراكز للنشاط الكاثارى بفرنسا (٣٧) ·

واخيرا يتضح لنا معلم آخر للكنيسة البوســنية له موضعه هنـا اذا نحن أدركنا أنها منظمة ديرية تقوم على قاعـدة القديس بازيـــل : أى أنها قريبة بطريقة ما من الممارسات الأرثوذكسية الشرقية · فلابد أن مؤسسى هذه الأديرة البازيليكية قد أخذوا بالتقاليد الشرقية المأثورة حتى وان كانت الكنيسة الكاثوليكيـة قد امتصتها ، وأجبرتهـا على الاعتراف بسلطان روما ، واستمر ذلك حتى انفصلت الكنيسة البوسنية واستقلت · وليس ببعيد أن الاتصال قد تم عن طريق دالماشيا اذ أن الرابطة بين المدن الدالماشية والقسطنطينية ، تلك الرابطة التى كانت قوية فى القرن التاسع،

(*) وقد وردت اشارات كثيرة فى الشعر العربى عن نزول المسـافرين ببيوت الرهبان والراهبات ، وحصولهم على القرى وكرم الضيافة _ (المترجم) ·

أضفت تقاليد دينية بيزنطية على تلك المدن في العصور الوسطى ، بما في ذلك نحلة بعض القديسين الشرقيين (٣٨) • وهناك نظرية تقول بأن أتباع القديسين سيريل (Cyril) وميثوديوس (Methodius) العائدين من مورافيا (Moravia) في أخريات القرن التاسع قد تسربوا في نواحي البوسنة وأدخلوا النظام الديرى هناك (٣٩) • ومع أننا لا نملك بينة واضحة من القرنين العاشر أو الحادى عشر ، لكننا نستطيع أن نفترض أن بعض الاتصالات ظلت قائمة بالعالم الديرى في الأراضي الواقعة في الشرق • ويتضح من اعلان ١٢٠٣ ، أنه بينما كانت البوسنة جزءاً من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية منذ الانقسام بين الشرق والغرب الذى حدث قبل ذلك بقرن ونصف ، فان بعض الممارسات الشرقية قد بقيت قائمة في الأديرة البوسنية • فهى لم تتبع التقويم الرومانى الكاثوليكى في الصيام والأعياد ، ومعنى ذلك فيما يحتمل أنهم كانوا يستخدمون تقويما شرقيا (وليس أنهم لم يستخدموا تقويما على الاطلاق) • والحق أننا نجد في زمن متأخر يرجع الى ١٤٦٦ في شهادة جوست رادين دلائل واضحة على أن الكنيسة البوسنية كانت تحتفل بأيام القديسين على أساس التقويم الشرقى الذى لم يكن معترفا به في الغرب (٤٠) • ولسنا ندرى هل سمحت روما باستخدام قواعد الصلاة الشرقية في بلاد البوسنة القروسطية المبكرة ، وهو أمر جائز ولكننا نعرف يقينا ان الصلوات كانت تقام باللغة السلافية ، شأنها في شطر كبير من كرواتيا الكاثوليكية حيث كانت الصورة « الجلاجوليتية » (Glagolitic) للصلاة الرومانية تستخدم (٤١) • ومن الأسرار المحيرة في التاريخ البوسنى القروسطى مصير رجال الدين الكاثوليكى غير الديريين ، فربما يكون أمرهم قد انتهى الى التلاشى ، وان اعتقد أحد المؤرخين أنه يستطيع التماس أدلة تشير الى وجود رجال دين « جلاجوليتيين » خلال الفترة القروسطية (٤٢) • ومن المحتمل أن القسس الناطقين بالسلافية بأرض دالماشيا كانوا يعرفون الايطالية أيضا ، ومن ثم لا يبعد أنهم كانوا يحصلون على تدريب لاهوتى صحيح باللغة اللاتينية • ولكن معظم رجال الدين (سواء أكانوا ديريين أم دنيويين) الذين ولدوا وتربوا ببلاد البوسنة يحتمل أنهم كانوا سلافيين ذوى لغة واحدة لا يجدون وسيلة للحصول على المعلومات اللاهوتية العادية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية الا بشق الأنفس • جاءت أوقات ، يوم كانت الصلة مقطوعة ببقية الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، كانت البوسنة فيها شديدة العزلة حقا •

وكما رأينا ، فان البوسـنة كانت فى الواقع مقطوعة الصلة بسائر أعضاء الكنيسة منذ منتصف القرن الثالث عشر • (يوم نقل مقر الأسقفية البوسنية الى سلافونيا التابعة للمجر) • حتى منتصف القرن الرابع عشر (يوم وصل الفرنسيسكان) • ولعل الكنيسة البوسنية كانت منعزلة عن ولاية الكنيسة الكاثوليكية في وقت مبكر يقارب ثلاثينيات القرن الثالث عشر ، وبينما هي تؤكد بالتدريج استقلالها الذاتي ، فانها ، طال الزمن أو قصر ، لابد أن وصلت الى نقطة الانشقاق الفعلي عن روما (٤٣) • وفي أثناء معظم هذه الفترة التي تمتد أكثر من قرن من الزمان ليس لدينا الا النزر اليسير جدا ، ان وجد ، من المعلومات عن الكنيسة البوسـنية • وهناك اشارات متناثرة تجيء في مراجع غير بوسـنية الى « الهراطقـة البوسنيين » منذ ثمانينيات القرن الثالث عشر فصاعدا • ونظرا لأنه لم يحدث بالفعل أى انشقاق رسمى ، فان هذا المصطلح كان يمـكن أن يستخدم اسـتخداما فضفاضا ليعني « الانشقاقيين » ، دون أن ينطوى على فوارق مذهبية عظيمة (وعندما تذكر المصادر الكاثوليكية « الانشقاقيين » فعلا ، فانها انما تشير الى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية التى كان بينها وبين روما انشـقاق رسمى) أو لعله استخدم فى الاشـارة الى الهراطقـة الأقحـاح من أتباع الهرطقة الثنائية على الساحل الدالماشي الذين لعلهم قد أصبحوا أكثر نشاطا بالبوسنة منذ أصبحت خارج منال قبضة الأساقفة الكاثوليك الدالماشيين •

ومن الممكن ، بطبيعة الحال ، أن بعض الثنائيين نشطوا فى العمل بالبوسنة • ولكن المسألة هى : ما هو أثرهم على الكنيسـة البوسـنية ؟ هناك دليل واحد من داخل البوسنة يشير فيما نخال الى أنهـم كانـوا يمارسون نفوذا ضخما • انه نص بوسنى مخطوط ورد باللغة السلافية (مجموعتان صغيرتان من الردود المتتابعة وصلاة الرب وقراءة فى انجيل القديس يوحنا) وهو يتجاوب تجاوبا وثيقا مع نص شعيرة كاثارية معروف أنه كان يستخدم بمدينة ليون الفرنسية فى القرن الثالث عشر (٤٤) • وليس لنا أن ندعو ذلك منسكا هرطيقيا الا اذا افترضنا أنه كان له أصل هرطيقى • فمحتوياته ليست بالهرطيقية على الاطلاق حيث تخلو من أى شيء يناقض المجرى الرئيسى للاهوت الكاثوليكى أو الأرثوذكسى الشرقى • وكما لاحظ دراجوليوب دراجويلوفيتش (Dragoljub Dragoklovic) ، فانه يتكون بالفعل من فقرات من صلوات الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ، وذلك القسم من انجيل القديس يوحنا الذى يقرأ فى أثناء قداس عيد الفصح فى الكنيسة الشرقية • على أنه لابد أنه استنتج أيضا ، بنـاء على دلائل لغوية داخلية ، أنه كتب أصلا فى أبروشية أوريـد (Ohrid) الأرثوذكسية

(في مقدونيــا) في تاريخ لا يتجاوز بواكير القرن الحادى عشر ـ وهي فترة لم يكن فيها الكاثار قد وجـدوا بعد (٤٥) ٠ وبدلا من القول بأن النص البوسنى جاء من ليون ، فان الشيء المعقول أكثر هو الظن بأن النص الليونى نفسه مشتق من أصل أرثوذكسى شرقى أقدم منـه ٠ وقلب هذا المنهج العلمى رأسا على عقب الفكرة القائلة بأن الكنيسة البوسنية كانت لها شعيرة كاثارية من مباركة الخبز وتقطيعه وتوزيعه ـ وهي نوع من التناول الهرطيقى ٠ فانا لنعلم أن الكاثار يفعلون ذلك في بيوتهم قبل تناول وجبات الطعام ، كمـا أن بعض المراجع الباكـرة ذكرت أن « قسس » الكنيسة البوسنية كانوا يفعلون الشيء نفسه (٤٦) ٠ ولكن كان أيضا من العادات المقررة في البيوت الديرية الشرقية في الوجبات العـامة أن يبـدأ المرء بصلاة الرب والبركة وتقطيع الخبز وتوزيعه بين الناس (٤٧) ٠ ويحتمل أن الكاثوليك خارج البوسـنة عندما سمعوا بأحاديث عن هذا الأمر ، قد افترضوا أن هذه انما هي شعيرة هرطيقية ٠ على أنه يكاد يكون من المؤكد أن الكاثار هم الذين نقلوا هذه الشعيرة الشرقية اللاهرطيقيـة القديمـة ، ولكنهم طبقوها في اطار دنيوى وفي ظل معتقدات هرطيقية حقيقية ٠

ويبقى بعد ذلك الظن بأن بعض الهراطقة بالمنطقة المتأثرين بالثنائية ربما مارسوا حينا من الدهر بعض النفوذ على الكنيسـة البوسـنية أثناء سنيها الطويلة من العزلة الاكليروسـية ٠ ولكن من ذلك الفرض المتواضع سيحتاج الأمر الى وثبة هائلة في الخيال للوصـول الى ادعـاء أن الثنائيين قبضوا بأيديهم على الكنيسة البوسنية ، وشكلوا هرمهـا الديرى محولين اياه الى التشكيل الدنيوى المتبع لدى الكاثار ، وأبدلوا تكوينهـا الريفى المتمشى مع المجرى الرئيسى للاهوت المسيحى ، وحـولوه الى نظـام من المعتقدات هرطيقى في جذوره ٠

وغنى عن البيان أن الكثير من البينات التي بقيت الى يومنـا هذا تتعارض تعارضا مباشرا مع مثل ذلك الادعاء ٠ فان الكاثار والبوجوميل كانوا يمقتون علامة الصليب ، بينما يبـدو الصليب مثبتا على رأس كثير من الوثائق البوسنية ٠ وكان الكاثار والبوجوميل يرفضون العهد القديم من الكتاب المقدس ، بينما تحتوى احدى النسخ الباقية من الكتاب المقدس الخاصة بالكنيسة البوسنية سفر المزامير ٠ وكان الكاثار والبوجوميـل يرفضون اقامة القداس ٠ بينما طلب جوست رادين في وصيته بصفة خاصة اقامة القداس على روحه ٠ ومنع الكاثار والبوجوميـل اسـتخدام مبانى الكنائس ، بينما هناك شواهد قوية تدل على أن الكنيسة البوسنية ظلت تستخدم الأبنية الديرية التي تضم أسوارها كنائس ملحقة بها ٠ وكان

الكاثار والبوجوميل يرفضون الخمر ولا يأكلون اللحم ، وتسجل سجلات الأراضي في العصر العثماني المبكر أن المسيحيين كانـوا يملكون كرمات كما أنه ليس هناك أى سبب الى الظن بأنهم كانوا من النباتيين . (والبينة الوحيدة التى يبدو أنها تدل على ذلك ، ظهر أنها كانت عبارة عن خطأ في قراءة لكلمة وردت في وصـية جوست رادين : فالقراءة الصحيحة ليست Mrsni أى « آكل اللحـم » ولكنها Mrski أى « غير قابل للنظر اى قبيح ») . والكاثار والبوجوميـل يرفضـون تقويم القديسين ، بينما مستندات الكنيسـة البوسـنية بما فيها وصية جوست رادين تشير الى الاحتفال بأعياد كثير من القديسين ، وهكذا دواليك (٤٨) .

وكذلك أيضـا كان الطابع العـام للكنيسة البوسنية مختلفـا جداً عن الطـابع الذى نربطه بالبوجوميـل أو الكاثار . فان هاتين الطائفتين الهرطيقيتين كانتا من الآخذين بالزهد والتطهر . وكانوا من المعارضين للسلطان الدنيوى والثراء العريض الذى تستمتع به الكنائس المعروفة . ويعرضون عن عرض الدنيا . فأما الكنائس البوسنية فانها في أوج مجدها (القرنين الرابع عشر وبواكير الخامس عشر) كانت تنعم بالقوة العظيمة ، كما أن كبـار رجالهـا اعتادوا أن يوقعوا المعاهدات ويوفدوا البعثـات الدبلوماسية . وهناك ملوك مثل ستيفن كوترومانيتش وتفرتكو ، كانت لهم علاقات ودية بالكنيسة البوسنية وان لم يكونوا أعضاء منتسبين اليها ، كما يبدو أن بعض العائلات النبيلة الكبرى كانت تنتمى اليها (٤٩) . وكان أذيع رجال الكنيسة البوسنية صيتا ، وهو جوست رادين ، يتولى وظيفة المستشار الأعظم للدوق ستيفن فيوكتشيتش ، وواضح أنه كان قطبا عظيما بحكم منزلته الرفيعة : وقد ترك في وصيته أكثر من ٥٠٠٠ دوقية نقدا ، فضلا عن الخيول والفضة وصحاف الذهب ، وكذلك « رداء فخما حوافيه من الفراء والذهب » ، ومعه أيضا « رداء أحمـر من الفراء مكون من ست طيات من الحرير وعلى حواشيه فراء المنك الذى خلعـه عليه جـلالة الملك ماتياش Matijas » (٥٠) . وفى هذا اختلاف كبير عن الكاثار المبكرين الذين وصفوا انفسهم « بمعوزى المسيح » .

وفور بدء الفرنسيسكان العمل في البوسنة في منتصف القـرن الرابع عشر ، دخلت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في منافسة مباشرة مع الكنيسة البوسنية . وتصف بعض المصادر السلوك العدائي الذى تعرض له هؤلاء الرهبان من جانب الهراطقة ومنها قصة عن أحدهم وهو ياكوب دو مارشـيا . فقـد أخذ يصيح أثنـاء طقوس تنصيبه في ١٦٠٩ قائلا ان « الهراطقة » نشروا بالمنشار أرجل منبر كنيسة الدير في فيسوكو بينما كان يلقى موعظته من فوقه . (وردا على ذلك لعن المسئولين عن ذلك ودعا

أن يولد أولادهم بأرجل سقيمة عرجاء) (٥١) • ومن سوء الطالع أنه لم يبق للآن أي تقرير فرنسيسكاني عن المعتقدات البوسنية ، أجل ان هناك التماسا بطلب التعليمات كتبه أحدهم ورد عليه البابا في خطاب مفصل فيه اشارة الى الهراطقة والانشقاقيين ورجال الاكليروس غير المؤهلين تأهيلا سليما ، ولكنه لا يشير أية اشارة الى المعتقدات الثنوية (٥٢) • ومع هذا ، فان أخبار البوسنة قد عادت الى التداول بين كاثوليك ايطاليا ، وأصبحت معروفة بأنها مكان ممتلىء بنوع ما من « الهراطقة » • ولابد أن مصطلح « باتارين » الذى كان يستخدم كاسم عام للكنيسة البوسنية في التقارير التي جاءت من راجوزا وبقية دالماشيا ، قد أثار الذكريات عن هراطقة شمال ايطاليا • وكان معنى التوسع السريع للأبروشية الفرنسيسكانية للبوسنة أن أصبح جميع أنواع الهراطقة في شرق أوربا يوصفون بأنهم « بوسنيون » كما رأينا • وهناك وثيقة أصدرها جريجورى الحادي عشر في عام ١٣٧٤ ، وهى تحض على تنصير جميع « الكفرة » في البوسنة وبخاصة أولئك المقيمين في ترانسلفانيا ، وهناك وثيقة كاثوليكية أخرى هي قائمة تحصر أخطاء الهوسيين (Hussites) المقيمين في « مولدافيا » [مورافيا ؟] ، وتختتم كالتالي : « وبهذا ينتهى التقرير الموجز الذى يعدد أخطاء مملكة البوسنة وشعائرها الهرطيقية »(٥٣)•

وعلينا أن نأخذ في الاعتبار هذه الخلفية التاريخية عندما نفحص الوثائق الايطالية في تلك المدة التي تشير الى الكاثارية أو الثنائية في البوسنة • فمن البينات التاريخية المحيرة تقرير لمحكمة التفتيش في تورينو في عام ١٣٨٧ ، يورد الاعتراف (الذى تم بعد التعذيب) الصادر من جياكومو بك (Giacomo Bech) الذى ادعى بأنه انضم الى طائفة كاثارية بالجبال الواقعة في غرب تورينو • وقال ان أحد أعضاء الطائفة كان من مدينة « سكلافونيا Sclavonia » ، كما أن بعض أعضاء الطائفة الايطاليين سافروا الى « البوسنة » ليتقنوا معرفتهم بالمذهب الكاثارى هناك • وأعلن بك أنه تلقى نقودا ليذهب الى هناك ولكنه لم يستطع عبور البحر بسبب رداءة الجو (٥٤) • وواضح أن الاشارة الى « سكلافونيا » تشير الى رابطة مع التقاليد الثنائية في الساحل الدالماشي • ومن الممكن توهم ذهاب الايطاليين الى هناك (حيث كانت الايطالية منتشرة) بقصد التعلم ، كما أن مما هو جدير بالتذكر أن رقعة طويلة من الأراضي الساحلية كانت في ذلك الزمان تابعة للمملكة البوسنية ، ولكن الأمر الأكثر صعوبة هو الاعتقاد أنهم يمكن أن يسافروا الى الأرض البوسنية النائية التي لايتكلم أهلها سوى لغتها • ومن ناحية أخرى فان قصة بك حول الذهاب وعدم النجاح في الوصول الى الهدف في آخر لحظة ، لها الوقع المألوف للقصص المختلفة •

وهذا شيء يبدو شبيها بالاعتراف الذي يصدر عن المتهمين في محاكمات السحرة ، عندما يصرون بأن اجتماعات السحرة تحدث فعلا ويدعون بأنهم دعوا لاحدى تلك الاجتماعات ، ثم يقولون بعد ذلك انهم قد منعهم من الذهاب سبب طاريء ، وبذلك ينقذون أنفسهم من مخاطر الافراط في نسج القصص الخيالية ٠

ومما يثير الشكوك أيضا تلك القوائم من « أخطاء الهراطقة البوسنيين» التي دبجها الفرنسيسكانيون في ايطاليا في أخريات القرن الرابع عشر ، تلك القوائم التي تصور البوسنيين بأنهم شديدو الثنوية من الطراز الكاثاري أو البوجوميلي ٠ ويبدأ احداها كالتالي : « أولا ، بأن هناك الهين وأن الاله الأكبر منهما خلق جميع الأشياء الروحية وغير المرئية ، وأن الاله الأصغر وهو الشيطان Lucifer هو الخالق لجميع الأشياء الجسدية والمرئية » ٠ ثم يستمر فيشمل رفض العهد القديم والقداس والكنائس المبنية والصور « وبوجه خاص الصليب » (٥٥) ٠ وربما صدق هذا على بعض الطوائف الصغيرة من الهراطقة « السلافونيين » أو « الدالماشيين » ، ولكن كما رأينا ، فهناك أسباب قوية تدعونا الى الظن بأنه لا يمكن أن يكون بيانا صادقا عن الكنيسة البوسنية ٠ والواقع أن قائمة « الأخطاء » تنطبق تماما على النموذج الكاثاري حتى ليثور تفسير واضح يفرض نفسه : فان رجال الدين الايطاليين هؤلاء الذين رضعوا هذه القائمة قد سئلوا أن يبرزوا تحليلات أو تفنيدات للأخطاء « الباتارينية » ، فعمدوا الى الرجوع الى كتبهم التماسا لتهم يلصقونها « بالباتارينيين » (أو بعبارة أخرى الايطاليين الكاثار) ، فانتهوا بذلك الى وضع ملخص للمعتقدات الكاثارية (٥٦) ٠ وهناك شكوك مماثلة ينبغي أن تقوم حول أخطاء المانويين التي طلب من ثلاثة من نبلاء البوسنة أن يتخلوا عنها على يد عضو محكمة التفتيش خوان دي توركمادا (Juan de Torquemada) في روما في عام ١٤٦١ ، كما ان أصابع الشك يمكن أن توجه أيضا الى الأساس الذي قامت عليه حملة الاتهام البابوية المفاجئة ضد « المانويين » في البوسنة أثناء أربعينيات وخمسينيات القرن الخامس عشر (٥٧) ٠

وبحلول خمسينيات القرن الخامس عشر ، بلغت حملة الفرنسيسكان أقصى مداها (كما رأينا في الفصل السابق) ٠ فقبل حلول ربيع ١٤٥٣ ، بقليل فر « الديد » أو رئيس الكنيسة البوسنية والتجأ عند الدوق ستيفن فيوكتشيتش ٠ وبعد ذلك بقليل من تلك السنة ، وطبقا لخطاب كتبه البطريرك جيناديوس (Gennadios) الثاني بطريرك القسطنطينية ، انضم « الديد » الى الكنيسة الأرثوذكسية (٥٨) ٠ واذا كان هذا الدليل يمكن

الاعتماد عليه ، ينبغي لنا أن نفترض أن الكنيسة البوسنية أصيبت بضعف شديد بسبب ما فعله « الديد » ، وذلك حتى قبل أن يقدم الملك توماش (Tomas) فى ١٤٥٩ على انزال الاضطهاد الرسمي على الكنيسة البوسنية • وكانت هناك منافسة قوية بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية حيث كانت كل منهما تريد أن تمتص بقية أتباع الكنيسة البوسنية • وكتب أحد الفرنسيسكانيين تقريرا قال فيه ان كثيرا من « الهراطقة » كانوا ينضمون تباعا الى الكنيسة الكاثوليكية ، لولا أن أسقف الصرب (« رشيانورم » أى سكان راشكا) لا يسمح لهم بالصلح مع روما (٥٩) • وربما ظن الأسقف أن استحواذه على « الديد » البوسنى نفسه ، يتيح له حقا فى « رعيته » أيضا • ومن ثم يكون الاجراء الذى اتخذه الملك توماش فى ١٤٥٩ قد قصد به الحيلولة دون مزيد من التحول الى الأرثوذكسية • وكان مما قصم ظهر الكنيسة اجبار ألفى مسيحى بوسنى (Krstjani) على التحول الى الكاثوليكية واضطرار أربعين من رجال الكنيسة الذين وصفوا بأنه « لا صلاح لهم » الى الرحيل الى بلاد الهرسك ، ونحن وان أعوزنا العلم بالعدد الصحيح للأديرة ، فان هذا التصرف لابد انه أخرج من البلاد معظم رجال الكنيسة البوسنية الديريين • وعندما كتب جوست رادين الى البندقية فى ١٤٦٦ ملتمسا الاذن له بالهجرة اليها اذا اضطره الأتراك الى الفرار ، سأل هل يمكنه أن يحضر خمسين أو ستين عضوا من أعضاء طائفته معه : فربما كان هذا العدد يمثل البقية الباقية من الكنيسة بما فى ذلك الأربعين الذين « لايمكن صلاحهم » (٦٠) •

أما فيما يتعلق بأتباع الكنيسة البوسنية من العلمانيين ، فانه يبدو محتملا أنها لم تضم عددا ضخما من الأعضاء ، لأنها بوصفها تنظيما ديريا صرفا ، كان يعوزها تلك البنية الأساسية الضرورية من الأبروشيات • ومهما كان عددهم أيام عزها وأوج عظمتها ، فلابد أن العدد قد تناقص فعلا فى غضون قرن كامل أو يزيد من الانطواء والاعتناق للكاثوليكية الذى تدعمه الدولة • ومن ثم يبدو أنه عندما أمسك الترك مقاليد الأمور بأيديهم كانت الكنيسة البوسنية محطمة فعلا بل فاقدة الحياة • وسجلات الأراضى للبوسنة فى العهد العثمانى أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، والتى تسجل الناس حسب ديانتهم ، قلما تدرج شخصا على أنه مسيحى Kristian (كنقيض مضاد للكلمة العادية المستخدمة للمسيحيين « Christians » وهى كافر أو غير مؤمن ، وهما اللفظان اللذان كان يسجل تحتهما كل من الكاثوليك والأرثوذكس) • وهناك عدد قليل من القرى التى سجلت بأسرها فى السجلات الأولى بأنها « مسيحية » ، ولكن الأعداد الكلية قليلة جدا • اذ هم أقل من سبعمئة فرد قد سجلوا أثناء

المدة بأكملها (٦١) . ويرى المؤرخ الذى درس هذه المادة (والذى يتبع نظرية « البوجوميل ») أن هؤلاء « المسيحيين » لم يكونوا الا « الصفوة المختارة » فى الكنيسة وأن الأعضاء العاديين كانوا يدرجون فى القوائم تحت بند « كافر » أو غير مؤمن ، بيد أن هذا خطأ بكل تأكيد .
وكل ما فى الأمر أن الأتراك كانوا يستخدمون الفئات الدينية التالية : مسلم ، ويهودى ، وغير مؤمن ومسيحى (٦٢) . وفى أثناء الفترة بأكملها ابتداء من ١٤٦٨ (وهو تاريخ السجل الأول) حتى أواخر القرن السادس عشر لم يظهر الا اسمان فقط ممن يحملون لقب « جوست » . ويظهر أن بقية ضئيلة باقية من التقاليد قد حفظت حيث قام الأفراد بالتعميد أو أداء المراسم الدينية لبعضهم البعض على طريقة « اخدم نفسك بنفسك » . فان قسيسا كاثوليكيا هو الألبانى بيتر ماساريتشى (Peter Masarechi) زار البوسنة فى عشرينيات القرن السابع عشر ، وقد أشار فى تقريره الى « الباتارينيين » الذين يعيشون بدون أى قسس أو مراسم تعميد ، اعتمادا على « قسسهم المنتخبين من افراد الشعب بدون أى مراسم » (٦٣) . ولكن لم تلبث حتى هذه البقية الضئيلة أن ابتلعت فى نهاية الأمر غير تاركة الا ذكرى فى أذهان الأجيال التالية وحكايات شعبية وأساطير لا يمكن التعويل عليها .

الفصل الرابع

الحرب والنظام العثمانى

١٤٦٣ ــ ١٦٠٦

فتح الجيش التركى مملكة البوسنة بسرعة عظيمة فى بدايات صيف ١٤٦٣ . ومنذ تلك اللحظة فصاعدا ظلت الأراضى الداخلية التابعة لبانية البوسنة القديمة ، ومعها موطىء القدم الذى أسسه الترك قبل ذلك بمنطقة سراييفو ، واقعة تحت الحكم التركى الدائم ، رغم أنهم سحبوا قواتهم العسكرية الرئيسية أثناء الخريف . بيد أن المكاسب التى غنمها الجيش التركى فى النصف الشمالى من البوسنة ، ما لبث أن استردها سريعا ملك المجر ماتياس (Mtthias) . وقد ترك هنـاك مع قوة عدتها ثمانون رجلا للدفاع عن قلعة زفتشا (Zvechaj) قرب يايسه (Jajce) . ذلك الضابط الانكشارى الصربى المولد ، الذى وصلت الى أيدينا ترجمته الذاتية ، وما كاد السلطان يعود أدراجه حتى حاصرت القوات المجرية كلا من زفتشا ويايسه اللتين لم تلبثا حتى سلمتا (١) . وسرعان ما أسس الملك ماتياس « بانية » جديدة للبوسنة تحت الحكم المجرى فى هذه الأجزاء الشمالية ، وفى ١٤٧١ أصدر أمرا بترقية البان الى رتبة « ملك البوسنة » . ومع أن هذه المملكة ما لبثت أن تهاوت تحت أقدام الترك فى حملاتهم التالية ، فان القسم الذى بقى من تلك المملكة ، استمر صامدا مدة تزيد على الثمانين عاما . وفى غضون عشرينيات الألف وخمسمائة ظلت مدينة يايسه فى حالة حصار مستمر تقريبا ، وهى تتلقى معونات من الطعام من سلافونيا المجرية بواسطة قوافل مسلحة ، لايكاد يصل عددها الى أربع مرات فى السنة (٢) . وأخيرا فتحها الترك فى ١٥٢٧ ، بعد تحطيم الجيش المجرى فى معركة موهاتس (Mohats) الفاصلة فى السنة السابقة .

وصمد شطر آخر في الهرسك ضد الترك بعد ١٤٦٣ ، ثم تمكن الدوق (Herceg) ستيفن فوكتشيتش من استرداد أرضه في نهاية تلك السنة ، على أن الأتراك ما لبثوا أن استرجعوا معظمها بعد ذلك بسنتين : واضطر الدوق الى أن يتلمس لنفسه ملجأ في مدينة نوفي المحصنة (التي عدل اسمها فأصبحت نوفي هرسك على اسمه) ، حيث مات في ١٤٦٦ (٣)٠ وبذل ابنه الثاني فلاتكو ، الذي خلفه في وراثة لقب دوق ، قصاراه لاجتذاب العون من المجر والبندقية في معركته للدفاع عما بقي له من أراض ، ولكن ذلك جره الى التورط في الصراعات الأخرى الناشبة بين أطراف ثالث الفرقاء أي راجوزا والنبلاء المحليين ، وما وافت سبعينيات الألف وأربعمئة حتى كان يدفع الجزية للأتراك ، وفي ١٤٨١ أو ١٤٨٢ استولى الأتراك على آخر معقل في الأراضي الهرسكية (٤) ٠

وكما تصور هذه الأحداث كانت الامبراطورية العثمانية جهازا عسكريا بالغ النشاط والبأس ٠ وشهد حكم السلطان محمد الثاني (١٤٥١ ـ ١٤٨١) سلسلة خارقة من الفتوح والتحديات لأعظم القوى المجاورة في أوربا : فبعد استيلائه على القسطنطينية في ١٤٥٣ ، واصل الزحف وفتح شمال صربيا وشطرا من بلاد الأناضول ، وبلاد والاتشيا والبوسنة والهرسك ، ودمر جيش البندقية في اليونان ، واجتاح مولدافيا والمجر ، وحاصر جزيرة رودس ، ووافته المنية وهو يدبر هجوما وغزوا كاملا لايطاليا ٠ على أن خلفه بايزيد الثاني (١٤٨١ ـ ١٥١٢) وجه اهتمامه الى تدعيم أركان الامبراطورية ، ولكن ظل مع ذلك يشن حروبا على مولدافيا وبولندا والمجر والبندقية ٠ ثم عاد سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) فاتجه الى الشمال الغربي من جديد : وفي السنوات الثلاث عشرة الأولى من حكمه حول معظم بلاد المجر الى اقليم تابع وأصبح قاب قوسين من الاستيلاء على فيينا ٠ وكانت معاهدة السلم التي عقدها في ١٥٣٣ ايذانا بقيام فترة طويلة من المواجهة الطويلة الخاملة ، بين الامبراطوريتين العثمانية والهابسبرجية فلم تتحول الى حروب دامية الا في أحيان قليلة ، وخلال فترة امتدت حتى نهاية القرن أخذت كلتا القوتين تبني لنفسها منطقة حدود عازلة تواجه الأخرى ، تحرسها شبكة متصلة من المعاقل ، وجماعات من الفلاحين المحاربين (٥) ٠ وكانت تحدث هناك مناوشات متناثرة ولكن الحركات العسكرية على الحدود البوسنية أصبحت أشد حدة في الأوقات التي كان السلطان يشن حربا ضروسا كاملة على آل هابسبرج ـ كما حدث أثناء حملة سليمان المجرية الأخيرة في ١٤٦٦ ٠ ونشبت الحرب العثمانية الهابسبرجية الكبرى التي دامت بين سنتي ١٥٩٣ ـ ١٦٠٦ ، نتيجة قتال نشب بين القوات المحلية على التخوم البوسنية الشمالية الشرقية : فقنم

كان الترك قد اســـتولوا على قلعـة بيهاتش الهــامة من الهابسبرجيين في ١٥٩٢ ، ولكن في السنة التالية أخذ باشا البوســـنة على غرة ، وهو يحاصر معقل سيساك Sisak (على نهر سافا ، أسفل مدينة زغرب) ، وهزم هزيمة ثقيلة • وفي الحملة العظمى الأولى في السنة التاليـة أنزل الأتراك هزيمــة منكرة بالجيوش الهابسبرجيـة عنـــد متسوكرستيس (Mezokeresztes) في ١٥٩٦ ، وتمكنوا بعد ذلك من شد قبضتهم على شطر كبير من المجر أثناء السنوات الثمانين التالية (٦) •

وظلت الامبراطورية العثمانية ـ حتى بدأت في الركود والانحدار ، وهي عملية بدأت في منتصف القرن السادس عشر ـ وهي لاتخرج في جوهرها عن مؤسسة عسكرية • كان هدفها هو النهب وفرض الجزية ، وبني نظامها الاداري على أساس امدادها بشيئين هما : الرجال لاستخدامهم في الحرب ، والمال الذي يدفع أعطيات لهم • وانقسمت القوات العسكرية الى فئتين رئيسيتين • فكانت هناك قوات نظامية تتلقى مرتباتها من الحكومة العثمانية مباشرة : وهذه تتكون من الانكشارية وهم (المشاة النظاميون) والفرسان النظاميون المعروفون باسم « فرسان الباب العالي » • (وكلمة « الباب العالي » هي الاسم التقليدي الذي يطلق على الحكومة الامبراطورية باسطنبول) • وكانت هناك من الناحية الأخرى الخيالة الاقطاعية : وهم جند راكبة كانوا يقومون بما يوكل اليهم من مهام عسكرية مقابل الضياع التي منحوها مقدما • (وكان مصطلح « فارس » Spahi بمفرده يشير دائما الى هذا الطراز من الرجال) • وكانت هاتان الطائفتان من العسكر تؤلف الجيوش الجرارة التي كانت تقوم بتلك الحملات الهائلة منذ بواكير الربيع الى أخريات الخريف • وهناك حقيقة علينا أن نلتفت اليها وهي أن القوات كان عليها أن تتجمع كل مرة خـــارج اسطنبول ، ثم تزحف الى حـــدود الامبراطورية • وهي حقيقة بدأت تضع حدا جغرافيا طبيعيا لتوســـعات الامبراطورية (على الصورة التي أظهرتهـــا حمـــلات سليمان القانوني على المجر) وكانت هناك أيضا قوات اضافية مساعدة ، لها دور أكثر أهمية في مناطق التخوم ، كالبوسنة مثلا ، حيث كان الأمر يحتـــاج الى أنشــطة عسكرية تمتد طوال العام • وكانت هذه تضم جنود العزب (Azap) وهم نوع من ميليشيات المدن ، كانت تؤلف حاميات في القلاع ، وتقوم بعمل مشاة مرابطة الثغور أي التخوم • ثم الدلاة (Deli) أو الآكينجي (Akinci) الخيالة ، وهم ضرب من الراكبة الخفيفة غير النظاميين مهمتهم الاغارة على الأعداء • وكل هذه القوات المذكورة حتى الآن كانت من المسلمين : اذ جرت العادة بأن الشعوب الخاضعة ، لا يجوز لأبنائها أن يحملوا السلاح • ومع ذلك فقد حدث لأسباب خاصة ، وهو أمر كان يجـري عادة في المناطق

التخومية للبوسنة ، أن استخدمت قوات مسيحية محلية : لحراسة الممرات ، وتنظيم امدادات الخيل ، وكان منهم النوع المخيف من الجند المشاة المأجورين المعروفين باسم الفوينوق (Vojnuk) أو المارتولوس (Martolos) (٧) • وسنقوم بوصف هؤلاء الجند وصفا أوفى فى الفصل المعقود حول صرب البوسنة (انظر الفصل السادس) •

وكان جيش الانكشارية ومعه نظام جزية الصبيان المعروف بالدوشرمة (Devshirme أو التجميع) الذى يزوده بالجند ، أهم طريقة لسحب الناس من أوروبا المسيحية ، ليدخلوا فى آلة الدولة العثمانية • وفى أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر عندما كان نظام الدوشرمة ينفذ على أوفى وأكمل وجه ، كان الصبيان من قرى أوروبا المسيحية يجمعون ، على فترات متغيرة ولكنها كثيرة ، ثم يحملون الى اسطنبول • وهناك يحولون للاسلام ، ويدربون لكى يكونوا جندا انكشارية أو يكونوا خدما شخصيين للسلطان او موظفين فى مختلف مصالح الدولة ودوائرها (٨) • (وكانت كل مصالح الحكومة فى جوهرها فروعا من القصر الامبراطورى) • وكذلك كان للشخصيات العليا فى الادارة العثمانية أعداد موفورة من مثل هؤلاء القوم فى قصورهم الخاصة : وقد توفى أحدهم فى اسطنبول فى ١٥٥٧ وعنده ١٥٦ عبدا بينهم ٥٢ بوسنيا • وقد جاء فى شرح ذلك أنه جمعهم بعملية (دوشرمة) خاصة أو اختاروا هم أنفسهم الخدمة لديه (٩) • ومع أن خطف الأطفال كان فى حقيقته عملية وحشية ، لكنه كان يعود عليهم بمنافع واضحة كثيرة ، حيث ارتقى كثير منهم فى المناصب حتى أصبحوا باشوات ووزراء ، وكان يعود كذلك بالخير على أسرهم الذين استطاعوا فيما بعد أن يتصلوا بهم • فأسرة سوكولو (سوكولوفيتش Sokolovich) فى اسطنبول التى قدمت عددا متعاقبا من كبار الوزراء (الصدر الأعظم) ، لم تفقد الاتصال بأسرتها البوسنية الصربية ، ولم يفتها أن تستخدم نفوذها فى المحافظة على مصالح الكنيسة الصربية الأرثوذكسية • وكان مجموع من شغلوا منصب الصدر الأعظم من الرجال المنحدرين من أصل بوسنى أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر تسعة ، كما أن البوسنيين كانوا يرسلون الى بلادهم كولاة عليها منذ عام ١٤٨٨ (١٠) • وهناك حالات يذكرها التاريخ عن والدين من الدينين الاسلامى والمسيحى رشوا الموظفين ليأخذوا أطفالهم فى الانكشارية • ومن المؤكد أن مزايا ذلك النظام كانت واضحة أمام أعين المسلمين من البوسنة الذين رتبوا لارسال ألف من أبنائهم فى ١٥١٥ الى مدارس التدريب الخاصة بالقصر الامبراطورى (١١) •

وما لبث نظام (الدوشرمة) أن توقف فترة قليلة في النصف الأول من القرن السادس عشر • ففي ستينيات الألف وستمئة ، عندما كتب الدبلوماسي الانجليزي بول رايكوت (Paul Rycaut) عمله الكلاسيكي عن الامبراطورية العثمانيــة « كان هذا النظام نسيا منسيا » (١٢) • ولكن نتائجه كانت هائلة • فان مئتي ألف طفل على الأقل من البلقان ، قد مروا خلال ذلك النظام أثناء قرني أدائه العمل وتنفيذه (١٣) • ولما كانت الغالبية العظمى من هؤلاء الأطفال من السلاف ، فان اللغة الصربوكرواتية (ومعها اللغة البلغارية المجاورة التي كان معظمهم يفهمها) غرست غرسا في قلب الدولة العثمانية • وقد لاحظ معلق غربي في ١٥٩٥ ، أن « السلافونية » كانت اللغة الثالثة في الامبراطورية (بعد التركية والعربية) ، لأنها كانت لغة الانكشارية • ولاحظ آخر في ١٦٦٠ ، أن « اللغة التركية لا تكاد تسمع في بلاط السلطان » لأنه في البلاط بأجمعه كانت غالبية « الشخصيات العظيمة من الوافدين من الأراضي السلافية » (١٤) • وكان للنظام أيضا أثــر هام اجتمــاعي وســياسي : فانه خلق طبقة من الموظفين الأقويـاء وأبنائهم وحفدتهم ، الذين ما لبثوا أن دخلوا في صراع مع « الفرسان » الاقطاعيين العسكريين (السباهي) ثم لم يبرحوا حتى مدوا سلطانهــم بالتدريج على ما يملكون من أرض ، الأمر الذي أدى الى الاسراع بالتحول عن الحيازة الاقطاعية الى الضياع الخاصــة ونظـام الالتزام • وكتب ستانفورد شو : من الناحية الجوهرية كانت غلبـة العنصر البلقاني في الطبقة العثمانية الحاكمة عن طريق نظام التجميع (الدوشرمة) هي العامل الذي أدى الى انهيار النظام المالي والاداري للعثمانيين ، وتسبب فيما أعقبه من انهيار الامبراطورية نفسها (١٥) •

وفرض النظام الاقطاعي العثماني على البوسنة منذ البداية • وكان هناك نوعان رئيسيان من الضــياع التي كان الفارس (السـباهي) يتلقاها ، الكبرى منها هي الزايم (Zaim) والصغرى هي التيمار (Timar) ويطلق على حائزها تيمرلي أو تيماريوت • (وكان النوع الثالث والأكبر المعروف باسم الهاس (Hass) (الحصى) ، لا يمنح الا لأعظم حكام الأقاليم وأعضاء العائلة السلطانية أهمية) • وهذا النظام ، المعروف على الجملة باسم نظام التيمار ، كان اقطاعيا عسكريا قحا : وكانت حيازته تعتمد على الخدمة العســكرية ، وكانت الأرض ملكا للسلطــان ، ولم يكن لورثة التيماريوت (أي صاحب التيمار) أي حقوق قانونية في وراثتها (وان كان الميراث هو العـرف المرعى) • وكان أصـحاب هذه الضياع ملزمين أن يتجمعوا ومعهم أسلحتهم وخيولهم عندما يستدعون لأداء الواجب العسكري. وكان عليهم أن يحضروا معهم جندا آخرين ويدفعوا لهم أجورهم، بما يتناسب

تناسبا طرديا مع ايراداتهم (١٦) . وكانوا يجتمعون للحرب تبعا للمنطقة العسكرية التى يعيشون فيها (سنجق ومعناها الحرفى بالتركية هو الراية ، وهى لفظة Sandzak بالصربوكرواتية) وكان يقودهم البك السنجق ، وهى أعظم رتبة بين الموظفين يحق لحاملها أن يحصل على لقب باشا .

ولما كان أصحاب التيمارات غالبا ما يكونون بعيدين لأداء واجباتهم العسكرية مددا تصل الى ستة أو تسعة أشهر من السنة ، فانهم لم يكونوا عبئا باهظا على الفلاحين (مسيحيين كانوا أو مسلمين) الذين كانوا يعملون بأراضيهم . وكان على الفلاحين أن يدفعوا مكسا عينيا يتراوح بين عشر وربع انتاجهم ، ويؤدون رسوما قليلة أخرى ، وكان عليهم أيضا أن يقدموا الى صاحب التيمار بعض الخدمات الاجبارية ، ولكنها كانت أقل ارهاقا بكثير منها فى معظم الأنظمة الاقطاعية الأوربية الأخرى . وكانوا يدفعون أيضا ضريبة سنوية على الأرض (هى الخراج Harach ، الذى ما لبث أن أضيف اليه فيما بعد ضريبة الرؤوس المسماة بالجزية Jizye) ، الى السلطان . وكان مركزهم الأساسى قانونا هو مركز المستأجرين الذين كان لهم حق يستطيع أبناؤهم أن يرثوه ، لا فى الأرض نفسها بل فى استخدامها واستثمارها . وكانوا يستطيعون بيع ذلك الحق ، كما كانوا من الناحية النظرية أحرارا فى الانتقال الى أى مكان آخر يشاءونه ، وان كان من الطبيعى أن أصحاب التيمارات حاولوا منعهم (١٧) . وعلى الجملة لم يكن لصاحب التيمار (التماريوت) أية مصلحة أخرى قانونية عند فلاحيه تزيد على التزامهم بدفع مكوس العشور والفروض الأخرى الواجبة، وأن يطيعوه عندما يقوم بالعمل بوصفه موظفا فى الحكومة : ولم تكن لديه أية سلطات قضائية من النوع الذى كان يمارس فى المحاكم القروية بأوربا الغربية .

ولا مفر لهذه الأحوال من أن تتبدل ، بطبيعة الحال ، مع اضمحلال النظام الاقطاعى . ومع ذلك فان حياة الفلاح فى ضيعة حيازة أو امتلاك ربما كانت بالفعل أفضل من الحياة فى البوسنة الاقطاعية قبل العهد العثمانى ـ وبخاصة فى السنوات الأخيرة السابقة على الغزو التركى ، عندما كان الناس يرزحون تحت عبء الأثقال المالية الاضافية الضخمة التى تطلبها الدفاع عن البوسنة ضد الأتراك ، ودفع الجزيات اللازمة لارضائهم . وها هو ذا الملك ستيفن توماشوفيتش يكتب فى أحد التماساته التى وجهها بطلب النجدة والمساعدة قبل الغزو : « يبدى الترك نحو الفلاحين شعورا ملؤه الرفق . وهم يعدون كل من ينطلق اليهم بأن

يكون حرا ، ويرحبون بهم بمنتهى اللطف ·· والناس سيخدعون بمثل هذه الحيل للتخلى عنى » (١٨) · على أن هذه « الحيل » لم تكن من بعض النواحى خدعة · كما أن هؤلاء الفلاحين الذين اعتنقوا الاسلام ، كان من الممكن أن ينعموا بنظام آخر من الحيازة أو الامتلاك أكثر أمنا ، يستطيع الفلاح فيه أن يتملك قطعة صغيرة من الأرض (Chift) لعل اتساعها يتراوح بين خمسة الى عشرة هكتارات (١٩) ·

ومن المؤكد أن الهوية الاسلامية كانت ميزة كبرى لأى انسان فى الدولة العثمانية · على أننا نسىء فهم الامبراطورية العثمانية فى تلك المدة متى افترضنا ـ كما لا تزال تفعل كثير من الكتب العلمية المتعمدة ـ أن نظامها كان دينيا صرفا يفصل فصلا مطلقا بين طبقة حكام من المسلمين وطبقة محكومة من غير المؤمنين ، الذين كانوا يصنفون حسب الملة (Millet أى الوحدة الدينية) التى كانوا ينتسبون اليها · أجل ان الامبراطورية أصبحت على تلك الشاكلة فى تاريخها المتأخر ، ولكن الأمر كان مختلفا فى الفترة الأولى من حكمها فى البلقان فلم يكن التمييز الأصلى بين المسلمين وغير المؤمنين ، بل بين العثمانيين (يعنى كامل الهيئة العسكرية الادارية التى يستطيع الناس الانضمام اليها ، متى تطبعوا بنظرة وسلوك العثمانيين) ، والرعية · فكان المصطلح القرآنى وهو الرعية (أى « القطيع أو السرب ») كلمة عامة تطلق على الشعوب الخاضعة : ومنهم المسلمون أيضا ، وخاصة متى كانت لهم ـ شأن العرب ـ ثقافة غير عثمانية· ولم يكن النظام القانونى العثمانى الأساسى قائما على الشريعة الاسلامية : بل كان ينبع من ارادة السلطان نفسه ، وغالبا ما يتخذ شكل انعام بالأمر بالابقاء على القوانين والامتيازات المحلية ، وكان مفروضا بالطبع أنه لا يخالف الشريعة · ولم يحدث الا بالتدريج أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر أن ازداد المزج بين الاسلام وبين مبادىء الحكم العثمانى · فعندما غزا الأتراك بلاد البوسنة ، ولمدة عدة أجيال بعد ذلك كان لايزال ممكنا لأى مسيحى أن يصبح فارسا (سباهى) وأن يمنح حيازة تيمار دون التخلى عن مسيحيته : وكان الولاء المحقق للدولة العثمانية ، وتقبل طرائقها فى الحياة والحكم ، هما المتطلبين الوحيدين اللازمين (٢٠) ·

ومع أن البوسنة كان يحكمها المسلمون . لكنه كان من الصعب اعتبارها ولاية مسلمة ، ولم يكن من سياسة الدولة تحويل الناس الى الاسلام ، أو اجبارهم على التخلق بسلوكيات المسلمين ، وكانت سياسة الدولة الوحيدة تقوم على الاحتفاظ بالبلاد تحت السيطرة ، وابتزاز النقود والرجال والايرادات الاقطاعية ، لتزويد الامبراطورية بما تحتاج

اليه فى المستقبل من عدة للحرب · وكان معنى ذلك أن الحكم العثمانى فى تلك المدة كان من بعض النواحى ، هينا ، حيث لم تمس الدولة حرية رعاياها فى بعض المجالات · وكانت الديانتان اليهودية والمسيحية قائمتين ، ولكن مع بعض القيود · كما كان مسموحا لكهنتهما أن يطبقوا على أتباعهما سننهما الدينية الخاصة ـ فى محاكم خاصة ـ وذلك على الأقل فى الشئون المدنية · ولكن فى الوقت عينه كانت الطبيعة المحدودة لاهتمام الحكومة العثمانية فى الأقطار التى كانت تحكمها ، داعيا كما هو واضح الى الفساد والرشوة والاضطهاد · وما دام الوالى الاقليمى يمد الدولة بالرجال والايرادات ، ويضع اقليمه تحت الضبط والربط ، فان أحدا من رجال الادارة الامبراطورية لم يكن ليبالى بالنظر فى الأسلوب الذى كان يسلكه هناك · وكان الباشا القاسى الفؤاد أو الفاسد المرتشى يستمتع بحرية تصرف واسعة ، وربما جاز عزل الحاكم بسبب قلة كفايته أو التمرد عليه ولكنه لم يكن يعزل من أجل مجرد الفساد أبدا · وكانت كثرة التنقلات التى تجريها الدولة لولاة الأقاليم والقواد العسكريين ، من منطقة الى أخرى، حيث يقضون بضع سنوات قليلة فى الحكم فى الاقليم الواحد ، تكاد تكون دعوة صارخة لهم لابتزاز الثروات من ولاياتهم بأسرع ما يستطيعون · وكانت هناك ألوان كثيرة من القانون المدنى فى الامبراطورية العثمانية ، كما كان هناك القانون الاسلامى : وهو « الشريعة » ، الذى زاد أهمية بسرعة كبيرة ، ولكن المرء انما يتردد فى وصف الامبراطورية العثمانية بأنها استمتعت ذات يوم بسيادة القانون ·

كان القاضى هو الذى ينفذ القانون العثمانى محليا · وكان هو أهم مدير للشئون فى المستوى المحلى ، وكانت الدائرة التى هو مسئول عنها تسمى كازا (Kaza) أو قاضيلوك (Kadiluk) أى دائرة اختصاص القاضى (٢١) · وكان العدد منها يؤلف سنجقية ، وهى المنطقة الادارية العسكرية · وكانت كل سنجقية منطقة مترامية ومهمة ، ولكنها فى حد ذاتها كانت قسما جزئيا من الايالة (Eyalet) ، وهى أكبر وحدة ادارية تتكون منها الامبراطورية · وكانت أول سنجقية ، أقامها الترك بعد غزوهم للبوسنة هى سنجقية البوسنة نفسها ، التى جعل مقرها الادارى فى سراييفو أولا (حتى ١٥٥٣) ، والثانية فى بانيالوكا (حتى ١٦٣٩) ، ثم فى سراييفو للمرة الثانية (حتى تسعينيات الألف وستمئة) ، وأخيرا فى ترافنيك · ثم أقيمت بعد ذلك بقليل سنجقية زفورنيك الى الشمال الشرقى ، وسنجقية الهرسك فى ١٤٧٠ · ثم أنشئت خمس سنجقيات أخرى فى القرن السادس عشر وهى تتكون جزئيا من أرض اقتطعت من كرواتيا وسلافونيا · وحتى عام ١٥٨٠ كانت كل هذه السنجقيات تشكل

جزءا من ايالة رومبليـــا (Rumelia) ، وهى الولاية التى تغطى معظم بلاد البلقان (٢٢) • ولكن فى تلك السنة اتخذ قرار بانشاء ايالة منها جميعا : هى ايالة البوسنة • وكان معنى ذلك ، أنها كان يحكمها حاكم بأعلى رتبة وهى الباشوية : بيك البكوات (Beylerbey) بالتركية و « بيجلر بج » (Beglerbeg) بالصربوكرواتية أى « سيد السادات » • وبذلك أصبح هناك الآن كيان بوسنى حديث ، كان يضم كل البوســـنة والهرسك ، بالاضافة الى أجزاء مجاورة من سلافونيا وكرواتيا ، ودالماشيا وصربيا(٢٣) • وبينما كان على مملكة صربيـا القديمة أن تظل مقسمة الى عدد من الوحدات الأصــغر حجما ، التى ألف الكثير منهــا أجزاء من ايــالة بودا (Buda) أو روميليا ، فان البوسنة ظلت مستمتعة بهذا الوضع القانونى الخاص بوصفها وحدة ذاتية لمنطقة كبرى ، طوال الشطر الباقى من فترة الحكم العثمانى •

الفصل الخامس

اعتناق البوسنة الاسـلام

ربما لم يكن وصول الترك فى القرن الخامس عشر ، فى الراجح ، أول احتكاك بين البوسـنة والاسـلام • فان التوسع العربى فى البحر المتوسط ، الذى كان توصل عند القرن التاسع الى انشاء الحكم الاسلامى فى كل من كريت وصقلية وجنوب ايطاليا وأسبانيا ، لابد أنه اجتلب تجار العرب ومغيريهم عدة مرات الى سـاحل دالماشـيا • ومن المؤكد أن تجارة الرقيق فى ذلك الساحل ، التى ، كما رأينا • نشرت الرقيق البوسنيين فى غرب البحر المتوسط ، فى الحقبة الأخيرة من العصور الوسطى ، كانت تمارس خلال هذه الفترة المبكرة : فان الرقيق السلاف من منطقة البحر المتوسط كانوا موجودين بأسبانيا منذ أوائل عهدها الاسلامى ، كما أن حكام الأندلس الشراقنة (*) ، معروف عنهم أنهم كانوا يمتلكون جيشا سلافيا عدته ١٣٧٥٠ مقاتلا فى القرن العاشر (١) • ولكننا لا نستطيع هنا الا الرجم بالغيب حول ما اذا كان هؤلاء الرقيق البوسنيون اعتنقوا الاسلام، وحصلوا على حريتهم ، وعادوا الى موطنهم الأصلى • والرجم بالغيب أيضا هو أقصى ما يمكن عمله عند بحث علاقة البوسنيين بمسلمى المجـر فى العصـور الوسطى ـ وتجار العرب وسلالة القبائل التركية التى اعتنقت الاسلام ، وغيرهم من المهاجرين • والمعروف عنهم أنهم عاشوا فى الكثير من أجزاء الأراضى المجرية بما فى ذلك ستريم (Strem) ، وهى المنطقة الملاصـقة لشمال شرق البوسنة ، حتى طردوا من المجر هم واليهـود ، أثنـاء القرن الرابع عشر (٢) • ومن اليسير علينا فهم السبب الذى أجج فى العلمـاء المسلمين الرغبة فى ترسيخ فكرة أن الاسلام كان له وجود بالغ القدم فى أرض البوسنة ، لعله أقدم من الدولة البوسنية نفسها • ولكن من الواضح أن الأهمية التاريخية لهذه الاتصالات الممكنة المبكرة ضئيلة • فالاحتكاك أو الاتصال شىء ، والتحول الجماعى الى ومن دين لآخر ، شىء آخر •

(*) الشراقنة Saracens ، اى العرب الشرقيين ـ (المترجم) •

وعندى أن اعتناق شطر كبير من السكان للاسلام فى عهد الترك ، يظل أهم ظواهر التاريخ البوسنى الحديث أهمية وتميزا • وقد نشأت أساطير كثيرة حول طريقة حدوث ذلك وأسبابه ، ولازال بعضها يتسرب من بعض المؤلفات العلمية القديمة (وغير العلمية الحديثة) الى عقول البوسنيين العاديين • فحتى العقد الخامس من هذا القرن ، حينما بدأ العلماء التحليل الجدى للسجلات الادارية العثمانية ، كان الكثير من البينات والشواهد غير متاح • ومن ثم استطاعوا خلال العقود التالية تكوين صورة أشد استيفاء للتفاصيل بكثير ، كما أن بعضا من أشيع الحكايات والأساطير حول اعتناق البوسنة الاسلام ، قد شيعت الى مثواها الأخير •

ولا مراء في أن خير مصدر للمعلومات هو « الدفاتر » العثمانية ، وهى سجلات الضرائب التى سجل فيها مالكو العقارات ، والتى تقسم الناس الى فئات حسب أديانهم • فمن هذه الدفاتر والبيانات يمكن عمل استيفاء للتفاصيل حول انتشار الاسـلام فى البوسـنة • وتظهر أقدم الدفاتر (١٤٦٨ ــ ١٤٦٩) أن الاسلام كان محـدود الانتشار ، فى السنوات القليلة الأولى بعد الغزو . ففى منطقة شرق ووسط البوسنة ، التى تغطيها تلك السجلات ، كانت هنـاك ٣٧١٢٥ دارا للمسيحيين ، بينما لم يكن للمسلمين سوى ٣٣٢ دارا • فلو فرضنا أن بكل دار خمسة أفراد فقط فى المتوسط ، لأعطانا ذلك عددا يصل الى ١٨٥٣٢٦ مسيحيا ، وهنـاك قائمة منفصلة تحصى عدد العزاب والأرامل بين المسيحيين بتسعة آلاف • وكانت نصف البيوت المسيحية وثلثا عدد بيوت المسلمين (٢٣٤ بيتا) من الرعية البسطاء الذين يعيشون فى ضـيعات (تيمـارات) عادية ، بينما الآخرون يعيشون فى ضيعات (أخصاص) أكبر حجما ، أو بالمدن ، أو على أراضيهم الخاصة • والعالم الذى حلل هذه الوثائق لأول مرة هو نديم فيليبوفيتش (Nedim Filipovic) لاحظ أيضا أن انتشار الاسلام كان يسيرا جدا بأرض الهرسك ، وأنه كان يسـير بخطى أوسـع – وهو أمر لا يدعو لأية دهشة ــ بالمنطقة المحيطة بسراييفو ، التى ظل الترك يملكونها منذ أربعينيات القرن الخامس عشر (٣) • وبعض المحتازين للتيمـار ، يوصفون تحديدا فى تلك الدفاتر القديمـة ، بأنهـم « مسلمون حديثـو الاسلام » ، ولبعضهم الآخر اسم مسلم قد يسجلون بأنهم « ابن ••• » أى ابن فلان ــ والوالد يحمل اسما مسيحيا (٤) •

والدفتر التالى الذى حلل تحليلا وافيا ، يغطى سنجقية البوسـنة لعام ١٤٨٥ ، وهو يظهر أن الاسلام قد بدأ الآن يحدث تقدما له ضخامته •

فكانت هناك دور مسيحية عدتها ٣٠٣٥٢ ، و ٤٢٩٢ من الأفراد المسيحيين بين عزاب وأرامل ، و ٤١٣٤ دارا مسلمة ، و ١٤٦٠ من المسلمين العزاب (٥) • ونعود الى التعداد مرة ثانية . فلو فرضنا وجود خمسة أفراد في كل دار لأعطانا ذلك ١٥٥٢٢١ مسيحيا ، و ٢١١٣٤ مسلما ، ولو قورن ذلك بأرقام عامى ١٤٦٨ ـ ١٤٦٩ ، فان الهبوط فى الأرقام الكلية (التى تكاد تكون أعظم فى حقيقة الأمر وواقعه) لو أخذ فى الاعتبار نسبة نمو السكان العادية ، يكون لافتا للنظر حقا ، ففى تلك الفترة كان هناك نزوح متواصل الى خارج البوسنة ، وتذكر السجلات عددا كبيرا من القرى المهجورة • وبطبيعة الحال كان غير المسلمين هم الذين فروا ، وكان المعتنقون للاسلام هم الذين تخلفوا • ولكن فى أثناء العقود الأربع التالية ، ظل عدد السكان الكلى ثابتا ، ولكن زادت نسبة المسلمين أكثر كثيرا : وتسجل لنا دفاتر عشرينيات القرن السادس عشر أرقاما كلية حول سنجقية البوسنة ، يشكل فيها المسيحيون ١٩٠٠٩٥ فردا ، والمسلمون ٨٧٥٧٥ فردا (٦) • ونظرا لأننا نعرف أنه لم تكن هناك هجرة واسعة المدى للمسلمين الى داخل البوسنة ، أثناء تلك المدة ، فان الرقم ينبغى أن يمثل اعتناق البوسنيين المسيحيين للاسلام •

وما لبثت عملية اعتناق الاسلام أن زادت سرعتها تدريجيا فى الهرسك ، اذ أن هناك تعليقا صدر عن أحد الرهبان الأرثوذكس بالهرسك فى ١٥٠٩ ، وفيه يلاحظ أن كثيرا من أفراد الشعب الأرثوذكسى قد اعتنقوا الاسلام عن رضا وقبول (٧) • وفى شمال البوسنة وشمالها الشرقى لم يتيسر لانتشار الاسلام أن يتم الا ببطء فى مواكبة التوسع على حساب المجر • وما أن اكتمل الفتح فى عشرينيات القرن السادس عشر ، حتى انتشر الاسلام بصورة أسرع قليلا • ويدعى المؤرخ الدومينيكى الأب ماندیتش (Mandić) أن حملة متعمدة من الاضطهاد للكاثوليك لاجبارهم على اعتناق الاسلام قد شنت لأول مرة فى المدة بين ١٥١٦ و ١٥٢٤ (٨) • بيد أن الدراسة البالغة التفصيل لشمال شرقى البوسنة فى أثناء تلك المدة التى سطرها آدم هانجيتش (Adem Handžić) ، لا تؤيد ادعاء مانديتش وان أظهرت فعلا أن كثيرا من الكاثوليك هاجروا من المنطقة ، وأن خمسة من الأديرة العشرة الفرنسيسكانية هناك ، قد أوصدت أبوابها وكفت عن العمل • ويكشف هانجيتش أيضا عن أن الكاثوليك كانوا أقرب ـ وبصورة مفهومة أكثر ـ الى اعتناق الاسلام كلما بعدت الشقة بين ديارهم وبين الكنائس الكاثوليكية • وكان المكان الذى أبدى أشد مقاومة هو سربرينيكا وكان بها خليط كبير من السكان الجرمان والراجوزيين الكاثوليكيى العقيدة ، وظل الكاثوليك يشكلون ثلثى عدد سكانها فى منتصف القرن السادس عشر • وكان انتشار الاسلام فى المدن أوسع منه

في المناطق الريفية في العادة ، وكان المسلمون يمثلون ثلث عدد سكان شمال شرق البوسنة في سنة ١٥٣٣ ، ثم ارتفعت نسبتهم الى ٤٠٪ في سنة ١٥٤٨ (٩) ٠

وتعوزنا أية أرقام دقيقة حول السنوات التالية في القرن السادس عشر ، حيث عدلت الحكومة عن استخدام الدفاتر ٠ ولكن يبدو واضحا أنه قد جاء أوان في أخريات القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر أصبح المسلمون فيه غالبية مطلقة ، بمنطقتي البوسنة العصرية والهرسك ٠ ومنذ بواكير القرن السابع عشر ، يوجد بين أيدينا فعلا ، بعض البيانات التي كتبها قساوسة كاثوليك زائرون ، جمعوا فيها تقارير وبيانات تفصيلية من أجل روما ، وكانت أرقامهم نقلا عما سمعوه . واستخدامهم لتعبير « البوسنة » مطاطا ، كما أنهم فيما هو واضح كانوا شديدي الحرص على تأكيد : اما القوة العددية للكنيسة الكاثوليكية او المبالغة في درجة الاضطهاد التي كانت تقاسيها ٠ ومن هؤلاء زائر مسيحي ذكر أن عدد الكاثوليك في البوسنة كلها كان مئتين وخمسين ألفا في ١٦٢٦ ، وأضاف الى ذلك قوله ان عدد المسلمين كان أكثر من العدد الكلي للمسيحيين (١٠) ٠ وثمة آخر هو القسيس الألباني والزائر الرسولي بيتر مساريكي ، قدم في ١٦٢٤ تقريرا قائما على التحري الدقيق ، ومن سوء الحظ أن الأرقام التي قدمها حول البوسنة لقيت أسوأ تفسير من كل المؤرخين الذين تناولوها تقريبا ٠ وفي الحقيقة فان ما ذكره هو أن عدد الكاثوليك كان مئة وخمسين ألفا والأرثوذكس الشرقيين خمسة وسبعين ألفا والمسلمين أربعمئة وخمسين ألفا (١١) ٠

واستغرقت عملية تحول معظم سكان البوسنة الى الاسلام ، الشطر الأعظم من مئة وخمسين سنة ٠ وعلى ضوء البينات التي تجمعت حتى اليوم ، يتضح أن بعضا من أقدم الأساطير حول هذا الأمر انما هو هراء يمكن نبذه ٠ وعلينا أن نرفض تماما فكرة جلب المسلمين في جماعات كبيرة من خارج البوسنة واسكانهم فيها : فرغم أن العثمانيين استجلبوا فعلا بعض الشعوب التركية الى مناطق أخرى من البلقان ، فان الدفاتر تؤكد أن مثل هذه السياسة لم تطبق في البوسنة أبدا ٠ وربما اختلط الأمر على قلة من زوار البوسنة من الأجانب الذين اختلط عليهم الأمر لضحالة علمهم عندما وصف مسلمو البوسنة أنفسهم بأنهم « أتراك » ، ولكن لم يكن معنى ذلك أنهم كانوا يعدون أنفسهم أتراكا فهم كانوا يستخدمون دائما مصطلحا مختلفا لوصف « الأتراك العثمانيين » : اما عثمانلي (Osmanli) أو تركوش (Turkosh) (١٢) ٠ ولا شك في أن بعض المسلمين من تجار وحرفيين

وفرسان (سباعى) - توافدوا للاقامة ببلاد البوسنة من الأجزاء الأخرى من الامبراطورية ، ولكن بعض هؤلاء ، وفيهم فيما يحتمل نسبة ضخمة فى أخريات القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر ، كانوا سلافا مسلمين من بلاد سلافية أخرى . والتاريخ يقول ان الجنود غير السلافيين الذين خدموا مع القوات البوسنية أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر لم يستقروا فى الأراضى البوسنية ويستوطنوها الا فى القليل النادر (١٣) .

وبالمثل ، فان الفكرة القائلة بأنه جرى تحويل جماعى للبوسنيين الى الاسلام فى السنوات الأولى التالية للغزو ، انما هى فكرة واضحة الزيف : فان عملية التحويل للاسلام كانت بطيئة فى البداية فى أحيان كثيرة واستغرقت عدة أجيال ، ومع أنه قد يعوزنا ذلك النوع من الشهادة الشخصية التى توضح لنا وتخبرنا كيف ولماذا كان الأفراد يقررون التحول الى الاسلام ، فان لدينا تعقيبات وملحوظات صدرت بين حين وآخر ، مثل تعقيب ذلك الراهب الوارد ذكره أعلاه ، وكلها تدل على أن الناس كانوا يعتنقون الاسلام بمحض ارادتهم المطلقة . وتشير الدفاتر أيضا ، بوصفها بينة وشاهدا ، الى عدم وجود أدنى تعرض للمسيحيين الذين أصروا على التمسك بعقيدتهم : وكان من الأشياء الطبيعية لدى الناس ، أن يصبحوا مسلمين ، ويتسموا بالأسماء الاسلامية ، ومع ذلك يواصلون المعيشة مع بقية عائلتهم المسيحية (١٤) . وتساعدنا هذه العادة أو الممارسة على تفسير السبب الذى من أجله احتفظ مسلمو البوسنة بالطريقة السلافية للأسماء الملقبة بالآباء : وهناك تدوينات كثيرة وردت فى الدفاتر المبكرة من نوع « فرهاد بن ايفان » أو حسن بن ميهايلو » . حتى اذا جاء الوقت الذى رسخت فيه الأسماء المنسوبة الى الأب بوصفها ألقابا للأسرة ، اذا بمعظم المسلمين وقد أصبح لهم أب مسلم ، بيد أنهم واصلوا تشكيل هذه الأسماء العائلية على الطريقة السلافية ، مقدمين الكنيات مثل حسنوفيتش وسليمانوفيتش (١٥) .

والقول بأنه لم تكن هناك سياسة عامة للضغط على الأفراد ، لا يعنى بأنه لم تكن هناك أية معوقات أمام عمل الكنائس المسيحية ولم تنزل بها أية مظالم . على أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت أقلهن معاناة أثناء تلك الفترة العثمانية الباكرة لسببين : أن سياسة الحكومة العثمانية تحابى الكنيسة الأرثوذكسية على الكاثوليكية (كنيسة العدو النمساوى) ، وثانيهما الوجود الأرثوذوكسى فى البوسنة ، باستثناء الهرسك ، كان

ضعيفا قبل الغزو التركى • ومن المؤكد أن عددا من السكان الأرثوذكس قد دخلوا فى أجزاء كثيرة من البوسنة ، كنتيجة مباشرة للسياسة العثمانية • (وسنعالج ذلك الموضوع فيما بعد فى الفصل السادس) • كما أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت مؤسسة معترفا بها فى الامبراطورية (١٦) •

على أن الكنيسة الكاثوليكية ، وان منحت الوضع القانونى الضرورى لها لمواصلة أنشطتها ، كان ينظر اليها بارتياب عميق (١٧) • وكان ينظر الى قساوستها على أنهم جواسيس محتملون للدول الأجنبية ، وكان ذلك الاتهام قائما على أسباب قوية : فان هناك مسئولا رسميا لحكومة البندقية يسجل فى عام ١٥٠٠ تقريرا مرسلا من « رهبان فرنسيسكان بعينهم مكثوا حينا فى البوسنة » ، وهو يحلل النوايا العسكرية للترك (١٨) • وفر كثير من الكاثوليك الى الأراضى الكاثوليكية المجاورة ، فى نصف القرن الأول للحكم العثمانى ، وبخاصة فيما يرجح أولئك الذين تعاونوا مع المجريين فى أثناء محاولتهم التمسك بالجزء الشمالى من البوسنة • وكما رأينا ، فان خمسة من الأديرة الفرنسيسكانية العشرة فى تلك المنطقة الشمالية الشرقية التى درسها آدم هانجيتش اختفت من الوجود أثناء عمليات الغزو التركى • وقبل دخول الترك البوسنة ، كانت هناك خمسة وثلاثون ديرا فرنسيسكانيا فى البوسنة الحقة وأربعة بالهرسك • ومعظم هذه الأديرة لا وجود لها بالدفاتر ، اذ دمر بعضها فى الحرب ، وبعضها الآخر (بكل من فوتشا ويايسه وزفورنيك وسربرينيكا وبيهاتش) قد حولت الى مساجد • وفى ثمانينيات القرن الثامن عشر وجد فرنسيسكانى زائر أنه لم يبق الا عشرة أديرة فى كل أرجاء البوسنة ، وقد ذكر كاثوليكى آخر هو الأسقف مارافيتش (Maravic) العدد نفسه فى تقريره الذى كتبه فى ١٦٥٥ (١٩) • وكان الفرنسيسكان هم رجال الدين الكاثوليك الوحيدين العاملين فى البوسنة ، وفى ١٥١٤ قسمت الوحدة الكاثوليكية الادارية فى البوسنة الى دائرتين ، هما البوسنة الكرواتية (أى كرواتيا غير العثمانية) ، و « البوسنة الفضية » (أرجنتينا) أى البوسنة نفسها ، وكان الفقر قد حل بالدائرة الثانية وأضحت معزولة عن العالم • ومع أن الكنيسة فى البوسنة لم يكن لها مصدر ايراد الا ما يرد اليها من مال من الخارج وهبات من رعاياها المخلصين ، فان الولاة العثمانيين المحليين كانوا يجدون كثيرا من الفرص لابتزاز المبالغ الضخمة منها • وكان الولاة الأكثر تقلبا فى الأهواء يستخدمون أية ذريعة لطلب المال ، وهناك تقرير يضج بالشكوى مرسل من البوسنة الى روما فى ١٦٠٣ وهو يصف كيف أن الفرنسيسكانيين قد اعتقلوا وأسيئت معاملتهم

فى السجن وكلفوا بدفع ثلاثة آلاف أسبر (Aspers) (وهى عملة عثمانية) مقابل الحصول على تصريح لهم بالبقاء فى أديرتهم (٢٠) • ومن الجلى أن الظروف المحيطة برجال الدين الكاثوليك كانت عسيرة ، وكانوا دوما عرضة للغصب والاكراه ، لا للتحول عن دينهم ، بل لابتزاز المال منهم •

وهناك نظرية أخرى شائعة حول نشر الاسلام فى البوسنة وهى أن التحول الى الاسلام نتج عن التحول الجماعى لأعضاء الكنيسة البوسنية ـ التى تفترض النظرية بكافة أشكالها أنها كانت بوجوميلية • ولأول نظرة يكتشف المرء شيئا يستحق التصديق فى هذا الادعاء : هو أن الكنيسة البوسنية والزيادة الضخمة فى عدد المسلمين يشكلان أشد الأشياء تميزا حول التاريخ البوسنى • فالكنيسة تنتهى بتحول السكان الى الاسلام ، فهل هناك أوقع من أن يفسر كل من هذين الأمرين الآخر ؟ على أن النظرية فى أبسط أشكالها انما هى رأى واضح البهتان • صحيح اننا نستطيع الربط بين بعض جوانب الظاهرتين ولكنه ارتبـــاط غير مباشر فحسب • وكما رأينا ، استغرقت عمليـة تحول البوسـنة للاسلام أجيـالا عدة • فلو أن المصدر الرئيسى لهؤلاء المسلمين المستجدين طوال تلك الفترة كان أتباع الكنيسة البوسنية ، لجاز للمرء منا أن يجد شواهد تدل على تلك العضوية المستمرة ـ شـــواهد تكون ضخمة فى أول الأمـر ثم لاتلبث أن تتناقص بالتدريج ـ فى الدفاتر • ولكن الدفاتر تظهر أقل من سبعمئة فرد من الأعضاء فى البوسنة على امتداد مئة وخمسين عاما تقريبا • ولدينا من الاسباب ما يحملنا على أن نعتقد أن الكنيسة البوسنية كانت فى عداد الموتى الى حد كبير حتى قبل الغزو التركى وأن عدد أتباعها العلمانيين (*) فى السنوات السابقة على انهيارها ربما لم يكن ضخما جدا على كل حال • وربما أقدم بعض هؤلاء الناس ، حسبما تورده بعض التقارير العصرية القليلة ، على الترحيب بالأتـراك اغاظـة وكيــــدا فى مضطهـــديهم الكاثوليك (٢١) • بيد أن الترحيب بالأتراك شىء والترحيب بالاســلام شىء آخر تماما ، فان الأفراد الذين كانت سياساتهم تسترشد بقوة اخلاصهم للكنيسة البوسنية ، لابد أن يكونـوا أقل الشعوب نزوعا الى التخلى عن ديانتهم • وقد بذل بعض الكتاب محاولات لاكتشاف أواصر روحية عميقة بين لاهوت البوجوميليين البوسنيين والمأثورات التصوفية الاســلامية ، وبخاصة صوفية طرق الدراويش (٢٢) • فان نحن رفضنا ، كما هو الواجب علينا ، نظرية البوجوميل حول الكنيسة البوســنية وجب أن نرفض هذا القول أيضا •

(*) العلمانى هو غير رجال الدين •

والعلاقة الوحيدة التي يمكن أن نستنتج بين الكنيسة البوسنية والتحول للاسلام انما هي علاقة غير مباشرة وتكاد تكون سلبية • فنحن نرى من قصة الكنيسة البوسنية أنها عانت من الضعف والانهيار أثناء المدة السابقة على الغزو التركي • وقد كانت هناك في بعض المناطق (كالهرسك والحافة الصربية من البوسنة الشرقية) ثلاث كنائس مختلفة تعمل كلها في تنافس • أما في معظم البوسنة الحقة فكانت هناك اثنتان : الكنيسة البوسنية والكنيسة الكاثوليكية • ولم تحظ أى منهما حتى العقود الأخيرة للمملكة البوسنية بدعم مطلق من سياسة الدولة • ولم تفرضا في مناطقهما نظاما صحيحا من الأبروشيات التي لكل منها رئيس كنسي • ولابد أن كثيرا من القرى كانت بعيدة عن منال كل من الاديرة الفرنسيسكانية والبيوت الديرية للكنيسة البوسنية فلا تكاد ترى راهبا أو مسيحيا ولو في زيارة سنوية • ولو أننا قارنا حالة الأمور هذه بمجريات الأمور في صربيا أو بلغاريا ، حيث كانت هناك كنيسة قومية وحيدة وقوية وجيدة التنظيم ، لوضعنا أيدينا على سبب ضخم دعا الى ما لقيه الاسلام من نجاح أعظم ببلاد البوسنة • واستمرت المنافسة الشرسة بين الكاثوليك والأرثوذكس طوال فترة التحول للاسلام ، فبينما تحول بعض أتباع الكنيستين الى الاسلام فقد تحول بعض الكاثوليك أيضا الى الأرثوذكسية والعكس بالعكس (٢٣) • ومما له دلالته أن القطر البلقاني الآخر الوحيد (خارج اقليم تراقيا المأهول بالأتراك) الذى أصبح يحتاز أغلبية مسلمة من السكان هو ألبانيا ، التي كانت معترك منافسة بين الكنائس المسيحية (الكاثوليكية والأرثوذكسية) • بيد أن حالة ألبانيا كانت مختلفة هي الأخرى ، اذ يبدو أن هذا الاقليم كان قد دخل الاسلام نتيجة لسياسة عثمانية متعمدة ومقصودة لمساعدة المقاومة المقهورة بعد الحرب التركية البندقية في القرن السابع عشر (٢٤) •

واذا نحن أدركنا أن المسيحية لم تجد عونا كبيرا من أية منظمة كنسية في كثير من أرجاء البوسنة ، أمكننا أن نفهم بشيء من الوضوح سيكولوجية اعتناق الاسلام • ومن نافلة القول ، الحديث عن هذه التحولات الدينية بالمصطلح الذى يستخدمه الناس حول مارتن لوثر مثلا أو الكاردينال نيومان • ففي المناطق الريفية التي يعوزها خدمة القسس ، كانت المسيحيه (مهما كان مذهبها) قد أصبحت فيما يرجع لا تزيد كثيرا عن مجموعة من الممارسات والمراسم الشعبية التي كان بعضها خاصا بالميلاد والزواج والوفاة ، ويهدف بعضها الآخر الى دفع سوء الحظ وشفاء السقام ، والحصول على محصول جيد ، وهكذا • ولم يكن الانتقال من المسيحية

الشعبية الى الاسلام الشعبى شيئا كبيرا جدا ، فقد كان فى الامكان استمرار كثير من الممارسات عينها ، وان جرى ذلك تحت كلمات أو أسماء مختلفة اختلافا هينا • وبدون الوجود الراقب المتحكم لكنيسة ما ، والتحذير من الخطر المحدق بروح المرء الخالدة ، كان الانتقال ممكنا بغاية السهولة • وكثيرا ما كان الزوار البروتستانت للبلقان ممن كانوا يتسمون بالجدية والوقار ، يصدمون لتلك الاستهانة التى كان الناس يجرون بها هذا الانتقال • وقد لاحظ الطبيب الانجليزى جورج هويلر (George Wheeler) أثناء زيارته لكورنثة ، فى سبعينيات الألف وستمئة ، الملحوظة التالية فقال : « ان المسيحيين هنا ، بسبب افتقارهم للتعليم الجيد والقسيس الصالح الكفء الذى يعلمهم ، يقعون كل يوم فى المروق عن الدين ويتخلون عن دينهم مستبدلين به الخرافات التركية كلما ألمت بهم مصيبة صغيرة ركلما أحسوا بالسخط » (٢٥) •

وجدير بالذكر أن بعض الممارسات الدينية الشعبية الواردة فى أقدم المصادر كان لها بالفعل تاريخ طويل فى كل من التقاليد المأثورة للمسيحية والاسلام • فالايمان بالقوى الحافظة للألواح أو قصاصات الورق التى عليها كتابات دينية ــ اما على صورة حجاب أو تدفن فى حقل لحفظ ووقاية المحصولات ــ كانت شيئا شائعا فى العصور الوسطى ولاتزال قائمة الى يومنا هذا ، بين كل من المسيحيين والمسلمين (٢٦) • وهناك مسافر فى ١٩٠٤ أخذته الدهشة حين رأى المسلمين والمسيحيين يشتركون فى « نفس المعتقدات الخرافية مثل قوة الأحجبة الواقية التى كثيرا ما كان المسلمون يلجأون الى مباركتها من الفرنسيسكانيين ويلبسونها لأطفالهم حول الأعناق أو على ملابسهم أو على طرابيشهم مثل الحيات والأسماك وبراثن النسور وقرون الوعول ، وما الى ذلك كله » (٢٧) • وكانت كل من الديانتين تحتفل بكثير من الأعياد والأيام المقدسة وتضم هذه الاحتفالات يوم يورييفو (Jurjevo ، أى يوم عيد القديس جورج) وعيد الييندن (Ilinden) أى عيد القديس الياس (الذى كان معروفا عند المسلمين باسم اليديون Alidjun) • والأمر كما ينطقه المثل السائر : « فى الصبح الياس وبعد الظهر على » (٢٨) • وحيثما كان الموقف الأساسى من الدين عمليا وسحريا ، كان من الممكن أستعارة عناصر الطقوس من دين لآخر خاصة الهامة منها ، وذلك لأن تلك العناصر كانت تعتبر أشدها قوة • لذا نجد المسلمين يقبلون أكثر الأيقونات المسيحية احتراما وتبجيلا ، كتلك الأيقونة القائمة فى أولوفو ، أو يدخلون الكنائس المسيحية للصلاة ، لذا نجدهم أيضا فى بواكير القرن التاسع عشر يطلبون تلاوة القداسات الكاثوليكية من أجلهم أمام صور العذراء التماسا لشفاء مريض

بمرض عضال (٢٩) · ويبدو أن نحلة أو عبادة العذراء مريم كانت شيئا شعبيا محبوبا لدى الناس بوجه خاص · وهناك راهب فرنسيسكانى هو « حارس » دير أولوفو ، كتب فى ١٥٩٦ بأن الكنيسة كانت تحظى بأشد التبجيل عند المسلمين بسبب التعاقب المستمر للمعجزات التى تبهر العقول التى يجريها الله هناك بفضل توسط العذراء المقدسة » (٣٠) · وفى مقابل ذلك ، يوجد هناك أيضا سجلات تدون أن بعض المسيحيين كانوا يستدعون الدراويش المسلمين لقراءة القرآن عليهم ابتغاء شفائهم من مرض وبيل · وهناك دراسة واسعة لهذا الموضوع تمت بكل أرجاء الامبراطورية العثمانية وتوصلت الى التالى : « ان النزوع الى المشاركة يبدو بطبيعة الحال أقوى ما يكون ·· حيثما التقت جميع الطوائف على أساس مشترك بينها من الخرافات الدنيوية » (٣١) ·

وينبغى لنا على هذا الأساس أن ننظـــر الى الجانب الخفى السرى الآخر فى التاريخ الدينى البوسنى ، الذى يدل حسبما يقول بعض الكتاب على وجود علاقة ما بين الاسلام والكنيسة البوســنية القروسـطية : هى البوتور (Potur) · والمعنى الأصلى لذلك الاسم غامض ، وكان يستخدم على العموم فى الاشارة الى البوسنيين السلافيين من الفلاحين أو الريفيين الذين تم أسلمتهم أو أتركتهم ، الذين ربما احتفظوا ببعض الممارسات المسيحية · وكان عمدة المصادر فى هذا الموضـوع وصف كتبه فى فترة لاحقة الدبلوماسى الانجليزى بول رايكوت ، وقد خلع عليهـم الانتسـاب الى طائفة دينية ، (ولكن هذا كما سترى فيما بعد رأى مضلل)· وقد ذهب بعض الكتاب الى أن كلمة « بوتور » مشتقة من كلمة « باتارين » (٣٢) · على أن هذا الاشتقاق ينبغى أن ينبذ لمجـرد أن « باتارين » كان مصطلحا ايطاليا أو راجوزيا ، كما أنه لم يستخدمه البوسنيون أنفسهم أبدا · ولكن لفظة « بوتور » من الناحية الأخرى كانت مصطلحا استخدمه منذ القرن السادس عشر الى الثامن عشر كل من البوســنيين والأتراك · وتفسرها الدراسة اللغوية الشعبية كصورة مختصرة لكلمة « بولوترك » (Polu-turk) الصربو ـ كرواتية ، ومعناها « نصف التركى » ، وهو أمر له بالفعل بعض الارتباط بطريقة استعمال الكلمة فى تلك المدة · وهناك اشتقاق آخر من الفعل الصربو كرواتى بوتورشتى سى (Poturcti se) ، ومعناه التترك أى أن يتحول الانسان الى تركى (يتأترك) ·

ومع هذا ، فان أقدم استخدامات لهذا اللفظ باقية الى اليوم وردت فى اللغة التركية وليس فى الصربوكرواتيـة · فبعد أن اتخذ البوســنيون المسلمون اجراءاتهم الخاصة فى ١٥١٥ لارسال أبنائهم لتلقى التدريب والتعليم فى اسطنبول ، أطلق المسؤولون العثمانيون على هؤلاء الأطفـال

جميعا اسم « بوتور » عنـدما أرسلوا الى القصر السلطانى (٣٣) كما أن عددا من الفرمانات السلطانية فى المدة بين ١٥٦٥ الى ١٥٨٩ يمنح البوتور امتياز ارسال أبنائهم ليصبحوا النخبة الممتازة من الدوشرمة : ويستخدم مصطلح « بوتور » فى هذه الفرمانات كتسمية عامة للسلاف البوسـنيين المؤسلمين • وأقدم مرجع مكتـوب يستخدم هذا المصطلح هو مجمـوعة القوانين الخاصة بالبوسنة التى أصدرها السلطان فى ١٥٣٩ ، وهو أيضا يستخدم كلمة بوتور للاشارة للسكان البوسنيين المسلمين • على أن هناك مصـدرا تركيـا آخر ، وهو تقرير حـول قضية فى سراييفو فى ١٥٦٦ ، وقد ميز بين البوتور ، الذين هم كما هو واضح السكان البوسنيون المحليون وبين غيرهم من المسلمين ، الذين قد يكونون عثمانيين • وهناك معجم تركى بوسنى (أى تـركى صربوكرواتى) صـدر فى ١٦٣١ ، وهو يترجـم « بوتور » بكلمـة « القروى » (٣٤) • ومن العجيب أن أحـدا من العلماء الذين شغلت ألبابهم هذه المسألة لم يقدم هذا التفسير الواضح وهو أن ذلك الاسم « بوتور » جاء من الكلمة التركية بوتور Potur . وهى كلمة تطلق على السراويل ذات الثنايا (حيث تعنى الكلمة التركية بوت Pot الثنايا وكسرات القماش) ، وهو السروال الذى يلبسه الفلاحون ، وهو نوع كان يستخدم فى أراضى البلقان الغربيـة ، وزحفت الكلمة أيضا الى اللغة الألبانية فى صورة كلمة بوتورى (Poture) وهى تعرف فى المعجم الأكاديمى الألبانى : « سراويل واسعة للرجال ترتدى ببعض أجزاء ألبانيا ، مصنوعة من اللباد أو القماش الخشن الأبيض (٣٥) • وهناك الكلمة التركية بوتورلو (Poturlu)، التى تطلق على أى انسان يلبس البوتور ، وتنطوى أيضا على المعنى العام لكلمة « فلاح » • ومن هنا يبدو محتملا أن الكلمة كانت فى الأصل مجرد تعبير مهنى يستعمل للدلالة على أولئك الفلاحين السلاف البسطاء الذين ظلوا رغم اعتناقهم الاسلام ، أجلافا بدائيين وريفيين فى نظر العيون التركية •

وازاء هذه الخلفية ، وبالنظر الى ما نعـرفه اليـوم من اختلاط الممارسات المسيحية والاسلام فى العقيدة البوسنية ، يتكشف الغموض الذى كان يكتنف بعض الاشارات المتأخرة الى البوتور بأرض البوسنة • فقد قدم كاتب كاثوليكى الى البلاط الهابسبرجى تقريرا فى ١٥٩٩ يتضمن أن هناك من البوتور عددا ضخما فى المناطق التخومية للبوسنة قد احتفظوا بأسمائهم المسيحية وظلوا مسيحيين « قلبا وقالبا » ، وقال انهم يتمنون متى حرروا من الأتراك أن يعمدوا بكل سرور (٣٦) • وليس هناك ما يدعو الى الدهشة أن يقول قوم هذا اذا كانوا يرجون أن هذه الدولة المسيحيـة العظمى المجاورة سوف تحررهم ، وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن هذا التقرير

كتب أثناء حرب عثمانية هابسبرجية طويلة ، زاد في أثنائها عبء الضرائب والواجبات العسكرية على السكان البوسنيين زيادة ثقيلة · وببساطة تامة ، ليس من الضروري أن نقـرأ بين سـطور هذه البينة علامات أو آثارا خفية تشهد بوجود تقاليد بوجوميلية باطنية · وهناك كاثوليكي آخر قام بزيارة البوسنة في عشرينيات الألف وستمئة ، وقام بكتابة تعليقات مماثلة ، فقال : « قل بين « الأتراك » الذين يشتغلون في الأرض (يعني الرعيـة المسلمة البوسنية) من يستطيع التحدث بالتركية ، ولو أنهم لم يخافوا النار فانهم جميعا سيصبحون مسيحيين ، لعلمهم يقينا أن أجدادهم كانوا مسيحيين » (٣٧) · وواضح أن هذا الكاتب أيضـا كان يدبج تقريرا للهابسبرجيين وكان حريصـا على أن يقنعهم باعادة فتح البوسـنة للكاثوليكية · ويبدو أن عددا من أمثـال هذا التقرير قد أقنع النمساويين أنهم لو أقدموا في أية لحظة من الزمان على حملة غزو ضخمة ، لأقبل عليهم السكان جميعا مرحبين ، ولكنهم منوا بخيبة الأمل عندما حاولوا ذلك في ١٦٩٧ · ومن الممكن بطبيعة الحال ، أنه كانت هناك في البوسنة ، مثلما كانت هناك أيضا في أجزاء أخرى من العالم العثماني ، حالات أصيلة من المسيحية الباطنية ، أو بمعنى آخر قوم لهم مظهر خارجي من الاسلام يتوارى وراءه تمسك خاص بالمعتقدات والممارسات المسيحية (٣٨) · على أنهـا كانت ظاهرة نادرة ، وتختلف اختلافا تاما عن ذلك النـوع من المزج بين المسيحية والاسلام الذى سبق وصفه آنفا · وهي لاتنشأ الا ردا على سياسة اجبار الناس بالقوة على اعتناق دين جديد ، وهي سياسة لم تطبق بصورة عامة في البوسنة ·

وأخيرا ، يجيء الحديث المحير حول البوتور الذى قدمه بول رايكوت في ١٦٦٨ · وتجيء اشـارته اليهم في ذلك القسم من كتابه الذى يبحث في موضوع القاضيزادية (Kadizadeler) وهي حركة اسلامية متطهرة وشديدة الأصولية أحرزت تأثيرا عظيما في اسـطنبول في بواكير القـرن السابع عشر قبل أن تخمدها السلطات في ١٦٥٦ · ويلاحظ رايكوت شدة تمسك تلك الحركة بالأصولية (« انهم قوم منضبطون وشديدو المواظبة في مراعاة قواعد الدين ») ، ولكنه أضاف الى ذلك قوله انهم أدخلوا صلوات خاصة للموتى · من أجل ذلك كما يقول رايكوت ، « انضم اليهم كثير من « الروس » ومن شاكلهم من المسيحيين المارقين الذين ، نتيجة لفكرة مشوشة وتقريبا منسـية عن الديانة المسيحية ، لا يزالون يحتفظون بذكرى عن « دار التطهير » و « الصلوات على الموتى » · ثم يواصـل الحديث بعـد ذلك قائلا : ·

« ولكن افراد تلك الطائفة الذين يخلطون خلطا عجيبا بين المسيحية والاسلام ، كانوا من الجند الذين يعيشون على الأطراف القصية للمجر والبوسنة ، وهم يقرءون الكتاب المقدس باللسان السلافوني ... وبالاضافة الى ذلك تراهم يجنحون الى تعلم أسرار « القرآن » وقواعد اللسان العربي ، ولكي لايعدوا أجلافا غلاظا أو أميين جهالا ، فانهم يقبلون على الفارسية المستخدمة في البلاط · وفي شهر الصيام رمضان ، فانهم يشربون النبيذ ·· ويحسنون ويعطفون على المسيحيين ، كما أنهم على استعداد لحمايتهم من أذى الترك وعنفهم : ورغم ذلك فهم يعتقدون أن محمـــدا هو الروح القدس الذي وعد المسيح به الناس ··· وينتسب البوتور البوســنيون لهذه الطائفة ، ولكنهم يدفعون الضرائب كما يدفعها المسيحيون ، ويمقتون الصور المقدسة وعلامة الصليب ، وهم يختتنون ، ويتخذون من مثل سلطة المسيح سندا مؤيدا لذلك » (٣٩) ·

ويتمسك زعيم الدعــاة العصريين للنظــرية البوجوميليــة ، وهو الكســندر سولوفييف ، بهذه الفقرة كدليــل على التطابق بين البوتــور والبوجوميل (٤٠) · على أن الرابطة الوحيــدة مع ممارسات البوجوميل انما هي عبارة أنهم « يمقتون الصور المقدسة وعلامة الصليب » ، والمعنى الواضح لهذا كله هو أن البوتور كانوا يستخدمون الممارسات الاسلامية في هذه النقطة (أو على الأقل كانــوا يدعون أنهم يفعلون ذلك عنــدما حدثوا المرشدين المسلمين الذين استمد منهم رايكوت معلوماته) ·

وغني عن البيان أن رايكوت قد ربط هنا بين مجموعات ثلاث متباينة من الناس برباط مزيف مع جماعة « المارقين عن المسيحية » · واحدى هذه الجماعات هي طائفة القاضيزادية الأصولية المتطرفة · وقوام الطائفة الثانية هم الجند الذين كانوا يعملون بالمجر والبوسنة ، الذين كانـــوا يقومون بأشياء لا يمكن أن يتقبلها المتدينون مثل شرب الخمر في رمضان · وبالنظر الى أميتهم وجهالتهم ودراستهم للعربية والفارسية ، فلابد أنهم كانوا من الانكشارية الذين تلقوا تعليما كاملا في اسطنبول · وبعض هؤلاء كانوا ، بغير شك ، من حيث الأصل ، بوتور بالمعنى المعتــاد · وكان تهاونهــم واهتمامهم باللاهوت المسيحي يجعلهم يبــدون أقرب كثيرا الى طائفـــة الدراويش البكتاشية ، وهي أكثر طريقة صوفية اتساعا في الأفق ومصالحة بين المذاهب ، وكانت بصفة خاصة أكثر شعبية بين الانكشارية · وكمــا لاحظ رايكوت بموطن آخر ، كانت هذه الطائفة موضع التنديد والكراهية الخاصة من القاضيزاديين بسبب سلوكها المتراخي (٤١) · وهناك بعد ذلك

الطائفة الثالثة وهم البوتور : ويبدو أن السبب عند رايكوت في وضعهم مهنا اما أن يكون الاختلاط الجغرافي مع الجند « على الأطراف القاصية ... للبوسنة » أو لأنهم هم أيضا كانوا من « المسيحيين المارقين » الذين كانوا يحتفظون ببعض العلاقات الشعبية مع المسيحية . ولم يحدث قط أن زار رايكوت البوسنة ، ولابد أنه كان يعتمد على غيره لمده بهذه المعلومات ، وبدهي أنه ليس كل تفصيلة أو معلومة يمكن الاعتماد عليها (٤٢) . ولكن ، والحق يقال ، فان ادعاءه بأنهم كانوا يدفعون الضرائب « مثلما يفعل المسيحيون » (يعني الجزية أو الخراج ، وهي ضريبة الرؤوس المفروضة على غير المسلمين) ربما كان صادقا ، اذ تذكر وثيقة رسمية بوسنية لأعوام ١٦٤٢ ـ ١٦٤٥ أن البوتور دفعوا الجزية ، ومن المعلوم أن المسلمين كان من الممكن مطالبتهم بدفع هذه الضرائب في الظروف الاستثنائية عندما تشتد الحاجة للمال للمجهود الحربي (٤٣) .

وليس لبيان رايكوت هذا أية علاقة بالبوجوميلية : وبينما كان في الامكان من الناحية الاحصائية أن قلة من البوتور كانوا في الأصل من أتباع الكنيسة البوسنية ، فليس هناك أي تطابق اثباته هنا بين تلك الكنيسة وبين مجموع السكان الريفيين من المسلمين البوسنيين . وبالمثل ، ليست هناك أية علاقة حتمية بين بقايا تلك الكنيسة وبين مجموعات المسيحيين الذين كان الزوار الكاثوليك يلتقون بهم أحيانا في المناطق النائية والذين لم يتبق لهم من دينهم سوى الاسم أو لم يتبق منهم سوى أفراد قلائل : وهم قوم « في حالة تعسة ومن الجهل بدينهم ولولا أنهم غير مختونين لما جاز لهم أن يسموا أنفسهم مسيحيين » (٤٤) . وربما كان هؤلاء القوم بقايا مجتمع مسيحي ما عاش بدون خدمات قسيس أو كنيسة عدة أجيال متتالية . وأيا كانت هويتهم فانهم على كل حال لم يكونوا البوتور الذين هم ببساطة تامة الفلاحون المسلمون العاديون في البوسنة .

وهناك أيضا نظرية خاطئة أخرى حول أسلمة البوسنة لابد من اشارة اليها ، اذ مازالت شائعة ، وان تقوضت على يد البحث التاريخي منذ ١٩٣٠ وما بعدها . وهي الادعاء بأنه عندما فتح الأتراك البوسنة ، اعتنقت هيئة النبلاء المحلية بأجمعها الاسلام بغية الاحتفاظ بمزارعها الاقطاعية . وقد شاعت هذه النظرية في القرن التاسع عشر على يد الفرنسيسكاني والوطني السلافي ايفان فرانيو يوكيتش (Ivan Franjo Jukich) الذي أصدر كتابا في ١٨٥١ عن تاريخ البوسنة تحت اسم مستعار هو « سلافوليوب بوشنياك » (Slavoljub Bošnjak) أي البوسني المحب للسلاف) . وقد أكد في كتابه هذا أثناء حديثه عن الأرستقراطية المسلمة في البوسنة :

« أنهم نشئوا عن المسيحيين الفاسدين الذين تحولوا الى مسلمين لأن التحول الى الاسلام كان سبيلهم الوحيد للاحتفاظ بأراضيهم. واحتفظت لهم العقيدة الجديدة بممتلكاتهم وثروتهم وحررتهم من كل الضرائب والمدفوعات وأعطتهم تفويضا كاملا للانغماس في كل رذيلة واتيان كل شر وذلك من أجل أن يعيشوا كالسادة العظام دون بذل أى تعب أو جهد » (٤٥) . وقد سبق أن رأينا كيف أن ذلك لاينطبق على موقف أى نبيل بوسنى استطاع فعلا أن يحتفظ بممتلكاته : فتحويل أرضه الى مزرعة تيمارية ، كان يفرض عليه أن يبقى شطرا كبيرا من السنة جنديا في الخدمة العسكرية العاملة . (أما المزارع غير التيمارية أو الملك الحر Mulk فكانت ضربا من الحيازة مقصورا بوجه رئيسى اما على الحيازات الصغيرة أو على هبات كبيرة من الأراضى الممنوحة للعثمانيين) . وفى ثلاثينات الألف وتسعمئة لحظ المؤرخ فاسو تشوبريلوفيتش (Vaso Chubrilovic) أن قلة ضئيلة من ملاك الأراضى البوسنيين القدماء أصبحوا فعلا من الفرسان (السباهى) واحتفظوا ببعض مزارعهم ، ولكن ، كما لاحظ هو أيضا ، لم يكن من المحتم عليهم أن يصبحوا مسلمين لكى يحتفظوا بتلك الأرض (٤٦) . وكان المسيحيون الفرسان (السباهى) موجودين بوفرة أثناء السنوات الأولى للبوسنة العثمانية ، وهناك واحد شهير منهم أصبح « جراح باشى » (Gerrah bashi) أى كبير الجراحين فى حاشية والى البوسنة فى سبعينات الألف وأربعمئة ، كان يدعى فيلاه سفينياريفيتش (Vlah Svinjarevic) وتعنى ابن راعى الخنازير ، وهو اسم غير اسلامى بشكل يلفت النظر (٤٧) .

ومن الغلطات التى وقع فيها ايفان فرانيو يوكيتش افتراضه بأنه كان هناك خط متواصل من التعاقب والوراثة فى عائلات النبلاء من العهد قبل العثمانى ثم اعتناق الاسلام حتى يصل الى الأرستقراطيين المسلمين المالكين للأرض فى زمانه . وكما أوضح تشوبريلوفيتش وغيره من العلماء ، فان حيازة الأرض فى البوسنة العثمانية قد تقلبت عبر تلك المراحل ، ففقد ملاك أرضهم وأصبح غيرهم من الملاك بحيث ان هذه النظرية لا يمكن بأية حال أن تبرر سبب وجود المزارع الضخمة فى أيام يوكيتش . وهى مزارع نشأت نتيجة للتطورات المتأخرة الاجتماعية والسياسية ، كما أنها تكونت بصفة رئيسية أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . وحتى لو رجعنا للوراء الى القرن السادس عشر لوجدنا أن نظرية يوكيتش أقرب الى الزيف منها الى الصدق . فقد قامت مؤرخة معاصرة بدراسة تفصيلية حول أصول ثمان وأربعين عائلة ممن ينتمون الى طبقة المسلمين الأرستقراطية من ملاك الأراضى فى البوسنة فى القرن السادس عشر . وخلصت فى النهاية الى أن خمسا منها بالتأكيد ، واثنتين فيما يحتمل ،

انحدروا من طبقة النبلاء العليا القديمة (ما قبـــل العهـد العثمانى) . وانحدرت سبعة بالتأكيد وسبعة بالاحتمال ، من العائلات النبيلة الأقل شأنا . وكان لسبعة منها أصـول بوسنية عادية ، وأربعة أو خمسة كان لها أصول سلافية غير بوسنية ، وأربعة أو خمسة كان لها أصـــول غير سلافية ، وفى احدى عشرة حالة لم يتيسر الوصول الى الأصول (٤٨) ؛ ومن المعلوم أن كثيرين من النبلاء البوسنيين قد لقوا مصرعهم أو فروا من البلاد أثناء الغزو التركى ، كما أن بعض النبلاء الأقل شأنا قد أخذوا عبيدا . ولم يكن هناك حلف بين « كبـار النبلاء » وبين الأتراك لمقايضة المسيحية مقابل حياة من الدعة و « اتيان الشر » .

والفكرة الشائعة القائلة بأن بعض الناس اعتنقوا الاسلام رغبة فى تحسين مركزهم الاقتصادى أو الاجتماعى أمر لا سبيل الى انكاره ، لأن هذه الاتجاهات النفعية موجودة بين كل البشر . ولا مفر من أن يكون هذا الدافع وراء اعتناق الكثيرين للاســلام . بيد أن الدافع الاقتصـــادى لا يمـكن أن يكون هو المبرر الوحيد كما تزعم احدى النظريات التى ترى فيه محاولة لتجنب دفع الضرائب المقررة على غير المسلمين ، وهى الجزية أو الخراج . وكانت هذه ضريبة ســـنوية ما لبثت أن أصبحت نوعا من ضريبة الراس التدريجية : ففى القرن الســادس عشر كان معدل المدفوع أربع دوقيـات للأغنياء واثنتين لمتوسط الحال ودوقية واحدة للفقير (٤٩) . (وفى ذلك الوقت كانت دوقية البندقية تستطيع أن تشترى فى المتوســـط عشرين كيلوجراما من القمح فى البندقية ، بينما تشترى الدوقية النمساوية قدرا أكبر قليلا) (٥٠) . وربما زادت الضريبة فى أوقات الحرب ، لذا فان أكثر التقارير شنعة فى وصف معاناة المسيحيين الذين يقاسون الأمرين من الظلم العثمانى بالبوسنة ، كانت تجىء أثناء فترات من زيادات ثقيلة من الضرائب كانت تفرض على الناس للقيـــام بحمـلات على البندقيـــة أو آل هابسبرج . ولكن ربما حدث فى بعض الأحيان ، كما أشرنا آنفا ، أن الضرائب فرضت أيضا على المسلمين أنفسهم . أى أن الرغبة فى تجنب هذه الضريبة لم تكن بالقوة التى تدفع المرء الى التحول عن دينه الأصلى ، ولا ينبغى لنـا أن ننسى أن المسلمين كانـوا ، على العكس من المسيحيين ، يدفعون الزكاة أيضـا ، التى هى أحـد الفروض الأساسية فى الاسلام . (وعلى غرار الزكاة ، ربما اضطر المسيحيون الأرثوذكس الى دفع مكوس الى الكنيسة الأرثوذكسية ، أما الفرنسيسكان فكانوا يعتمدون أكثر على التبرعات) . وكان بعض المسلمين عرضـــة للاستدعاء الى أداء الخدمات العسكرية اما فى ميليشيات المدن أو كجنـود فى الكتائب التى يرسلهـا « الفارس » ، فى حين أن المسيحيين كانـوا عادة يعفون من أداء مثل هذه الواجبات فيما عدا مناطق الحدود .

وليس حقيقيا أنه لم يكن بد لأي انسان من أن يكون مسلما ، لكي يثرى في الامبراطورية العثمانية ، فهناك عدد جم من التجار الموسرين الناجحين — ما بين يوناني وافلاقي وأرمني — ممن لم يتخلوا قط عن مسيحيتهم ٠ ولكن منذ أوائل القرن السادس عشر على الأقل لم يكن هناك بد للانسان من أن يكون مسلما لكي يتيسر له أن يحظى بمنصب في هيكل الدولة العثمانية نفسها ٠ وكما رأينا ، فان نظام الدوشرمة في أخذ جزية الأطفال صب تيارا ضخما من شبان البلقان الى الجيش وادارة الامبراطورية ٠ وكان يقال عن البوسنيين انهم يكافأون مكافأة خاصة : فقد لاحظ كاتب نمساوي سلوفيني في ١٥٣٠ أن السلطان كان يفضل أن يجند البوسنيين ، لأنه كان يعتقد فيهم أنهم « خير الرجال وأكثرهم ولاء وتقوى » ، وأنهم يختلفون عن غيرهم من « الأتراك » في أنهم كانوا « أبسط قامة وأكثر وسامة وأقدر جهدا » (٥١) ٠ ومع أن الانكشارية ورجال الادارة في الامبراطورية كان من الممكن أن يخدموا في أي جزء من الامبراطورية ، وكان الانكشاري يضطر أن يظل عزبا أثناء خدمته العسكرية ، فان منهم من كان يعود في خاتمة المطاف الى وطنه ويعطى هبات ضخمة من الأرض ٠ وبعد أداء الانكشاري الخدمة على مدى عشرين عاما كان بوسعه أن يتخذ زوجة ويكون أسرة ٠ وكان نظام الدوشرمة أحد العوامل الكبرى في نشر الاسلام بكل أرجاء البلقان ، وكان أثره قويا بوجه خاص ببلاد البوسنة (٥٢) ٠

وثمة عامل اجتماعي آخر ساعد على انتشار الاسلام ، هو الوضع القانوني الممتاز للمسلمين ٠ وقد وجه التفات مفرط الى قوانين الرعية ، وهي قوانين التمييز العنصري التقليدية التي كانت تطبق على الرعايا غير المسلمين : وكان من بعض المحظورات عليهم ركوب الخيل أو حمل السلاح أو لبس نفس الطراز من الملابس الذي يرتديه المسلمون (*) ٠ بينما تظهر مصادر القرن السابع عشر أن القساوسة والتجار المسيحيين في البوسنة كانوا يرتدون نفس الملابس التي كان يرتديها المسلمون تقريبا ، وأنهم بالفعل كانوا يركبون الخيل وكانوا بالفعل يحملون الأسلحة ٠ بل انه كان هناك بالفعل بعض طبقات من المسيحيين ، مثل الأفلاق العسكريين ، كانوا معفيين رسميا من تلك المحظورات ٠ كما أن هناك محظورات أخرى واردة في قانون الرعية كمنع المسيحيين من بناء الكنائس أو اصلاحها ، كان يتم التجاوز عنها في الواقع اما بتصريح خاص أو عن طريق ذلك الامتياز

(*) لم يكن هذا التمييز على أساس الدين حكرا على الاتراك ، بل كان شائعا وسنة مرعية في العالم بأسره انذاك رغم انه أمر يتنافى مع جميع تعاليم الكتب المقدسة في جميع الديانات — (المترجم) ٠

العام ، الذى منح أصلا للفرنسيسكان وأعاد تأكيده كل السلاطين الذين خلفوا بعضهم البعض (٥٣) • وبالرغم من هذا فقد كان هناك احساس معين يدفع المرء الى الشعور بأن على الرعية المسيحيين أن يبدوا الاحترام والخضوع للمسلمين الأعلى منهم ليس فقط لمجرد أنهم من مستوى اجتماعي أو رتبة اجتماعية أعلى بل وأيضا لأنهم كانوا مسلمين • وربما كان أهم امتياز شيئا لا يحتويه قانون الرعيـــة وهو المبدأ القائل بأن المسيحيين لا يجوز لهم اقامة الدعوى القضائية على المسلمين وأنه لاتقبل شهادتهم على مسلم في محكمـــة • ومن الجلى أن هذا كان شـكلا خطيرا من التمييز القانوني ، وكان الشعور به دون أدنى ريب لذاعا جدا يحس به المسيحيون والمسلمون فى حين كانوا فى الحقيقة متكافئين اجتماعيا ـ سواء سكان المدن أو القرويين •

وبقى بعد ذلك كله أن نذكر عاملين مهمين اجتماعيين واقتصاديين أسهما فى انتشار الاسلام بالبوسنة : وهما الرقيق ونمو المدن الإسلامية • وكان أخذ الرقيق فى الحرب ـ ولم يكونوا فقط مجرد جند من الأعداء بل ومن السكان المحليين أيضا ـ سنة عثمانية مقررة • كما كان عادة تمارس على معيار أصغر عند الدول المسيحية أيضا • فقد سيقت أعداد ضخمة من العبيد الأرقاء فى خضم حملات الترك على آل هابسبرج : فأخذ سبعة آلاف من كرواتيا فى ١٤٩٤ مثلا ، ومئتا ألف ، (فيما تزعم التقارير) ، من المجر ومن سلافونيـا فى ١٥٢٦ (٥٤) • ومتى اعتنق الأرقاء الاســلام كان فى امكانهم التماس الحرية ، ولذا فان أولئك الأرقاء الذين اجتلبوا للبوسنة ، وذلك بوجه خاص من الأراضى السلافية المحيطة وهى دالماشيا وكرواتيـا وسلافونيا ، أسهموا حتما اسهاما ضخما في نمو عدد السكان المسلمين • وكان من المحتمل بوجه خاص لدى هؤلاء الأرقاء بعد تحولهـم الى الاسلام وعتقهم أن ينتهي بهم الأمر الى السكنى في المدن النامية التى كانت تتيح لهم فرصا جديدة للعمل • ففي ١٥٢٨ كان هؤلاء الأرقاء المعتقين يشكلون ما يقارب الثمانية بالمئة من سكان سراييفو بأكملهم (٥٥) •

وغلب الطابع الاسلامى على معظم المدن الكبرى التى نمت واتسعت بأراضى البلقـان العثمانيـة • وكانت تكتظ بالمعاهد الاسـلامية والمبانى الاسلامية • ولكن المدن الكاثوليكية القديمة بالبوسنة مثـل سربرينيكا وفوينيكا وأولوفو بما حوت من تجار راجوزيين وعمال مناجم من الألمان صمدت أمدا طويلا ازاء الأسلمة ، ولكنها ما لبثت فى النهاية أن تحولت الى الاسلام • (وكانت أهميتها الاقتصادية آخذة فى الاضمحلال وان استمر بالفعل استخراج المعادن الثمينة رغم صدور حظر راجوزا استيراد الفضة

من الإراضي التركية) (٥٦) . والمدن التي أصبحت مقر حكام السنجقيات (Sandzakbeg) مثل بانيالوكا وترافنيك وليفنو ، اكتسبت الطابع الاسلامي بشكل أسرع . أما المدن مثل موستار وسراييفو ، التي لم تبدأ في التطور الحق الا في منتصف القرن الخامس عشر ، فقد كان للاسلام حضور جارف منذ اللحظة التي وصل فيها الترك . ولا شك في أن سرعة التطور كانت شديدة لافتة للأنظار .. ففي السنوات الخمس عشرة للحكم التركي في سراييفو (التي كانت تعرف قبل ذلك باسم فرهبوسنا) قبل ١٤٦٣ ، بني الترك مسجدا و «تكة» (أي تكية باللغة الصربوكرواتية وتعني مسكنا لطائفة من الدراويش) ، ومسافر خانة (أي فندقا للمسافرين) ، وحماما على الطراز التركي ، وجسرا يعبر نهر م (Miljacka) ومواسير للمياه ، والسراى وهي مقر بلاط الحاكم ، وهي الكلمة التي أعطت المدينة اسمها الجديد «سراييفو» . وكذلك أنشأوا في بداية حكمهم السوق الكبيرة في قلب المدينة (٥٧) . ورغم أن شطرا كبيرا من المدينة قد احترق إبان غارة مجرية في ١٤٨٠ ، فسرعان ما أعيد بناؤه ووسعت رقعته . وكان سكان المدينة جميعا تقريبا من المسلمين ، وكانت معقلا عسكريا هاما ، وفي العقود الأولى من عمرها كانت ممتلئة بمهرة الصناع والتجار الذين كانت جهودهم ضرورية لدعم العمليات العسكرية . وفي أواخر القرن السادس عشر انقسم سكانها الى طبقتين : التجار والجند ولكل منهما قاضيه .

وجاء ازدهار سراييفو تحت حكم غازي خسروف بك (Gazi Husrevbeg) الذي تولى حكم سنجقية البوسنة لعدة فترات بين ١٥٢١ و ١٥٤١ . كان رجلا شديد الهمة ينطوي قلبه على عاطفة انسانية ، وكان ابن رجل اعتنق الاسلام من منطقة تريبيني (Trebinje) السلافونية بالهرسك (٥٨) . وقد بني المسجد الرشيق الذي يحمل اسمه وهو جامع بيجوفا أى « البك » (Begova Dzamija) ومدرسة (أى معهدا دينيا) ودار كتب وحماما ، وخانين (فندقين) وبيزستانا (أى سوقا للقماش) مهما . وكان من عادة الأغنياء أن يوقفوا بعض أراضيهم للانفاق على مثل هذه المؤسسات (ولا يقتصر ذلك على المساجد والمدارس ، بل ينصب أيضا على الخانات والحمامات والجسور) . وهذا النوع من المؤسسات الدينية ـ الخيرية المعروف باسم الوقف (Vakuf) كان أساسا حيويا لتطور جميع المدن العثمانية ، كما ساعد على توثيق الروابط بين المؤسسات المدينة والمؤسسات الاسلامية المماثلة . وكان وقف غازي خسروف بك أغنى تلك الأوقاف جميعا ، كما أنه ظل قائما حتى القرن العشرين (٥٩) . وبحلول عام ١٥٣٠ كان سكان المدينة بأسرهم من المسلمين . وفي الامكان تقدير

مدى انتشار تأثير المدينة فى المناطق المحيطة بها ، حين نعلم أن ستة وثلاثين بالمئة من المناطق الادارية المحلية كانت مسلمة هى الأخرى (٦٠) • وزادت سراييفو نموا فى عدد السكان ، حيث اجتذبت سكان المناطق الريفيـــة المجاورة ، وكان كثير من أسماء الشوارع القديمة مأخوذا من أسماء للقرى القريبة • وفى نهاية القرن السادس عشر كانت تضم عددا من المسيحيين ، بينهم جالية من التجار الراجوزيين ومجموعة صغيرة من اليهود • ومن بين ثلاث وتسعين محلة (أى حى ـ يتكون كل منها فيما يرجع من أقل من أربعين دارا) ، كانت اثنتان منها مسيحية واحدى وتسعون منها مسلمة • وكانت هناك أيضا ستة كبار وستة حمامات وثلاث بيزستانات وعدة دور للكتب وست تكايا وخمسة معاهد دينية وأكثر من تسعين كتابا أوليا (أى مدرسه ابتدائية) وأكثر من مئة مسجد • وكان الأهالى يتمتعون بامتيازات شتى منوعة ، واعفاءات من الضرائب ، ويرى بعض المؤرخين أنها أصبحت آنذاك مدينة حرة فعلا ، أو جمهورية ـ مدينة City republic (٦١) • وقد كانت الحياة فى سراييفو أثناء تلك المدة طيبة ومستساغة جدا ، بالمعايير البلقانية أو ، والحق يقال ، بأى معيار فى ذلك الزمان • ومن هنا يتضح لماذا أقبل كثير من البوسنيين بكل سعادة على اعتناق الاســـلام لينالوا نصيبهم منه •

وأخيرا ، هناك عامل آخر لعب هو أيضـا دورا فى عمليـة أسـلمة البوسنة : هو نزوح السلاف المعتنقين للاسلام آنفا من خارج تخوم البوسنة الى داخلها • وقد سبق أن أشرنا الى أن بعض السلاف المسلمين قدموا فى السنوات الأولى بوصفهم فرسانا (سباهى) من صربيا ومقدونيا وبلغاريا ، ولكن أعظم نزوح جاء فى نهاية القرن السابع عشر ، عندما اجتلب تقهقر العثمانيين ، من المناطق التى طال احتلالهم لها بكل من دالماشيا وكرواتيا وسلافونيا والمجر ، كثيرا من السكان المسلمين فى تلك المناطق • ولا شك فى أن بعض هذه العائلات كانت من أصل بوسنى ، حيث كان أجـدادهم قد استقروا هناك بوصفهم فرسانا (سـباهى) بعد الفتوح العثمانية • وموجات النزوح هذه أضافت أعدادا غفيرة من السلاف المسلمين الى سكان البوسنة • ولم تشكل هذه الحركة التى تمت فى ثمانينيات وتسعينيات الألف وستمئة موجة النزوح الوحيدة من نوعها ، وان كان بكل تأكيد أكبرها جميعا • وسنصف ظروفها وصفا أوفى فى الفصل السابع •

الفصل السادس

الصرب والأفلاق (★)

لم نعرض حتى الآن لذكر الكنيسة الأرثوذكسية الصربية الا لماما ٠ وذلك لسبب بسيط ، هو أنه حتى العصر العثماني ، لم يكن للكنيسة الأرثوذكسية نشاط يذكر بمنطقة أرض البوسـنة الحقة ، ولم يكن لها وجود مهم الا بأرض الهرسك ٠ وكانت منطقة الهرسـك فى تاريخهـا القروسطى الباكر (وكانت تسمى هوم) جزءا من العالم الثقافى والسياسى للامارات الصربية ، مع كل من زيتا (الجبل الأسود) وراشكا (جنوب غرب صربيا) ٠ وكان معظم نبلاء الهرسك من الأرثوذوكس أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكذلك كانت فيما يرجح غالبية سكانها (١) ٠ وفى أثناء القرن السابق على الغزو التركى الذي شهد نشاطا كاثوليكيا ، حصلت الكنيسة الكاثوليكية على مكاسب لهـا وزنها الضخم ، حيث أقامت أربعة اديرة فرنسيسكانية على أرض الهرسك : على أن بعض هذه المكاسب ما لبثت أن ضاعت ، وخاصة فى القطاع الشرقى من الهرسك ، اثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر ٠ وفى عام ١٦٢٤ ، كانت هناك أربع عشرة أبروشية كاثوليكية لاتزال قائمة بشرق الهرسك ، ولم تنقض خمس عشرة سنة أخرى حتى كان المجموع هبط الى احدي عشرة كنيسة ، أربع منها كانت فى حكم الخرائب (٢) ٠

ومن الناحية الأخرى ، يبدو أن « بانية » أو مملكة البوسينة لم تشهد نشاطا منظما للكنيسة الصربية الأرثوذكسية حتى وسـع رقعتها الملك تفرتكو فى سبعينيات الألف وللاثمئة ، فضـمت وادى الدرينـا الأعلى (جنوب شرقى سراييفو) ، وأجزاء من منطقة الجبـل الأسـود الحديثة

(★) الافلاق (Vlachs) : اسلاف السكان المصطبغين بالصبغة الرومانية الذين سكنوا البلقان قبل السلاف ـ (المترجم) ٠

وصربيا ، بما فيها الدير الأرثوذوكسي في ميليشيفو ، ومع أن تفرتكو قد تم تتويجه في ميليشيفو ، فانه كان وظل كاثوليكيا شــأن جميع الملوك البوسنيين الذين أعقبوه ، (فيما عدا استثناء محتملا وحيدا هو أوستويا ، الذى ربما كان من أتباع الكنيسة البوسنية) • فأما في خارج وادي الدرينا الأعلى ، فليس هناك أية علامات واضحة تدل على مبان كنسية أرثوذكسية بأرض البوسنة قبــل عصر العثمانيين • وقد ادعى أحــد مؤرخى الفنون الصربيين أن بعض الأديرة الأرثوذكسية بشمال البوسنة ترجع الى ما قبل الغزو التركي ، ولكن تأريخه ليس موثوقا به الى حد كبير (٣) • وبطبيعة الحال لا يستبعد أن أفرادا من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية قد أقاموا فعلا في البوسنة ، وتزوج بعض الأرستقراطيين من نساء من العائلات الصربية النبيلة ، وقد ورد ذكر أسرة أرثوذكسية بمنطقة فرهبوسنا (وهى المنطقة المحيطة بسراييفو العصرية) فى عشرينيات الألف وأربعمئة (٤) • ولا شك في أنه قد حدث فعلا تسرب تدريجى من المؤمنين بالأرثوذكســية من بــلاد الهرسك الى المناطق المجاورة من البوسنة • وتدل بعض التقارير الكاثوليكية الصادرة فى خمسينيات الألف وأربعمئة ، على وجود تنافس على الأتباع بين الكنيستين ، ولكن ذلك كان انعكاســا لشيئين : الرحلات التى كان يقوم بها الفرنسيسكان الى داخل الهرسك وتنافس الكنيستين على ازالة كل آثار الكنيسة البوسنية (٥) • ولو جاز لنا أن نستخدم لغة التنظيم الكنسى ، لقلنا ان الكنيســة الصربية الأرثوذكســية ظلت مختفية تقريبــا عن الأنظار فى منطقة البوسنة الحقة أثناء الفترة قبل العثمانية •

ومع هذا ، فبعد وصــــول الأتراك ، تبدأ الصورة في التغير بأقصى سرعة • فمنذ ثمانينيات الألف وأربعمئة فصـــاعدا ، بدأ ذكر القسس والمؤمنين الأرثوذكس يرد في أجزاء كثيرة من البوسنة ، بينما لم يكن يرد عنهم ذكر على الاطلاق قبل ذلك • ومعروف أن عدة أديرة أرثوذكسية قد تم بناؤها في القرن السادس عشر (في تافنا Tavna ولومنيكا Lumnica وبابراتشا Papraca وأرزن Orzen وجوســـتوفيتش Gostovic) فضلا عن دير رماني Rmanj (في شمال غربي البوسنة) البالغ الأهمية ، وهو يذكر لأول مرة في ١٥١٥ • ولا شك في أن هذه المؤسسات الجديدة تسترعى النظر بوجه خاص ، عندما نتذكر أن قانون الرعية كان يحظر بناء أى مبنى جديد للكنيسة : وواضح أن تصاريح خاصة قد منحت كل مرة من السلطات العثمانية (٦) • ومع أن الأرثوذكس كانوا يعانـون قدرا لا يستهان به من المهانات والمظالم ، فليست هنالك أية مبالغة فى القول بأن الكنيسة الأرثوذكسية كانت تلقى عطفا من نظام الحكم التركى • وكان

المؤمنون بالأرثوذكسية يتجهون بأنظارهم الى داخل الامبراطورية العثمانية التماسا لمصادر سلطاتهم الدينية . أما الكاثوليك فكانوا يتجهون الى الخارج، وليس بعيدا أنهم كانوا يعتبرون اعادة غزو البوسنة على يد دولة كاثوليكية نوعا من التحرير . ولأول مرة ورد ذكر مطران عام للبوسنة في ١٥٣٢ ، كما أن أول كنيسة أرثوذكسية في سراييفو بنيت فيما يحتمل في منتصف القرن السادس عشر (٧) .

ورغم وجود حالات كثيرة مسجلة لكاثوليك تحولوا الى الأرثوذكسية بالبوسنة في أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فان من الواضح أن هذا الانتشار للكنيسة الأرثوذكسية لم يكن يحدث عن طريق الهداية وحدها (٨) . ففي الأماكن التي حققت فيها الأرثوذكسية أعظم مكاسبها المهمة ، وبخاصة في شمالي البوسنة ، شهدت في نفس المدة تدفقا شديدا للمستوطنين النازحين من أرض الأرثوذكس . وكان من الواضح أن هناك سياسة متعمدة من جانب العثمانيين لاعادة ملء الأراضي التي خلت من السكان ، اما بسبب الحرب واما بسبب الطاعون . وتشير أقدم الدفاتر الى جماعات من الرعاة المسيحيين عرفتهم بأنهم أفلاق (Vlachs) أنزلوا في المناطق التي تخربت في الهرسك الشرقية . وتوضح دفاتر سبعينيات وثمانينيات الألف وأربعمئة أنهم كانوا ينتشرون في الأجزاء الوسطى والشمالية الوسطى من البوسنة ، بالمناطق المحيطة بفيسوكو وماجلاي (Maglaj) : ومثال ذلك أنه بعد ١٤٧٦ بقليل وطنت ٨٠٠ عائلة تقريبا من الأفلاق بمنطقة ماجلاي ، وفي صحبتهم قسيسان أرثوذكسيان (٩) . واستمرت أعداد الأفلاق في الازدياد في مناطق شمال وسط وشمال شرق البوسنة على مدى الخمسين سنة التالية ، كما أنهم بدءوا ينتشرون في شمال غرب البوسنة أيضا . وفي أثناء الحروب التي نشبت في أوليات القرن السادس عشر خلت منطقة أخرى من البوسنة من السكان ، اذ هجرها الكاثوليك وفروا الى الأراضي الهابسبرجية . ولما كان العثمانيون يرون أن من الأهمية بمكان ألا تترك أرض ملاصقة للحدود العسكرية خالية من الناس ، فقد استمر تدفق المستوطنين الجدد من الأفلاق الى الهرسك وصربيا . وحدثت نزوحات أخرى الى تلك المنطقة طوال القرن السادس عشر اذ أن الطاعون ، فضلا عن الحرب ، ترك فراغات سكانية احتاج الأمر أن تملأ وتشغل (١٠) .

وفي زمن مبكر هو ١٥٣٠ ، عندما قام المسئول الهابسبرجي الرسمي بنديكت كيوريبيشيتش (Benedict Kuripesic) بجولة خلال البوسنة ، ذكر أن الاقليم يسكنه ثلاثة شعوب . أحدها هو الشعب التركي الذي كان يحكم المسيحيين « بطغيان وظلم بالغين » . والشعب الثاني هو « البوسنيون

القدماء الذين كانوا يعتنقون العقيدة الكاثوليكية الرومانية » . أما الثالث فهو من « الصربيين الذين يسمون أنفسهم أفلاقا » . وقد أتوا من سميديروفو (Smederovo) وبلجراد » (١١) . ويبلغ من أهمية العنصر الأفلاقي في تكوين ذلك الشطر الأرثوذكسي من السكان ، أنه بعد ذلك بثلاثة قرون ، ظل مصطلح « الأفلاق » يعني : « أحد أتباع الكنيسة الأرثوذكسية »(١٢) . وبديهي أن غير الأفلاق من الصرب والهرسك ، أسهموا أيضا في عملية الاسكان هذه . فأما مشكلة التمييز بينهم ، أو تحديد معنى كلمة « الأفلاق » أثناء تلك المدة ، فأمر سنناقشه فيما بعد . بيد أن من الواضح أن الأفلاق كجماعة عرقية وثقافية مميزة ، قد لعبت بالفعل دورا ضخما . وكان الأفلاق أصلح الناس بوجه خاص لتنفيذ أغراض الحكومة العثمانية ، وليس ذلك فقط لأنهم كانوا ميالين الى الحركة والتنقل (حيث كانت أعمالهم النموذجية هي الرعي وتربية الخيول وتنظيم خدمات النقل للتجار) ، بل وأيضا لأنهم كان لهم ماض وتقاليد عسكرية قوية . وعملت ترتيبات خاصة لاغرائهم على النزوح الى منطقة الحدود التركية الهابسبرجية : فخفضت الضرائب على الأغنام لكل من يسكن مناطق التخوم ، كما منح زعماؤهم تيمارات (أي مزارع) ضخمة (١٣) . ولم تكن تصرف لهم رواتب عسكرية ولكن كان يسمح لهم بحمل السلاح ، ويتوقع منهم أن يقوموا بدور عسكري ، وعوضا عن الرواتب ، كان مسموحا لهم أن ينهبوا أرض الأعداء . وقد عرفوا باسم « المارتولوس » أو « الفوينوق » وأصبحوا أشد العناصر رهبة في الجهاز العسكري العثماني .

وفي نفس الوقت ، فان الأفلاق والصرب الذين فروا شمالا أمام الزحف العثماني أثناء القرن الخامس عشر ، والذين كانت لديهم تقاليد عسكرية مماثلة ، بدأ يتم تنظيمهم على يد الهابسبرجيين على الجانب الآخر من تلك الحدود المتغيرة بصفة دائمة . وعبر الأفلاق من داخل البوسنة تلك الحدود أيضا للانضمام اليهم ، وبذلك تكون الأسباب الثلاثة التي أوردها الراهب البنديكتيني كيوريبيشيتش عن فرار السكان من البوسنة في أوائل القرن السادس عشر ، هي الطاعون والدوشرمة وغارات المارتولوس الصربوأفلاق عبر الحدود (١٤) . وفي عام ١٥٢٧ أنشأ لهم ملك النمسا فرديناند الأول ، بعد انتخابه ملكا للمجر وكرواتيا ، نظاما لحيازة الأراضي والمهام العسكرية . فقد حررهم من الالتزامات الاقطاعية وسمح لهم بنصيب من الغنائم وانتخاب قوادهم (voïvode) وقضاتهم (knezovi) وحرية ممارسة العقيدة الأرثوذكسية . وبهذه الطريقة نما نظام خاص لحيازة الأراضي والتنظيم العسكري تحت حكم آل هابسبرج ، وهو النظام المدعو الحدود العسكرية (vojna krajina أو Militärgrenze) والذي في

النهاية كان يضم قطاعا من الأرض بعرض عشرين الى ستين ميلا وطول يناهز الألف ميل . وكان سكان الحدود على التخوم الشمالية والشمالية الشرقية للبوسنة ، الذين اشتهروا بشجاعتهم وشراستهم العسكرية ، يدعون « بالأفلاق » أو « المورلاتش » (Morlachs) . بالاضافة الى أن فرديناند الثانى أعاد تأكيد امتيازاتهم بالوثيقة المعروفة باسم « قانون الأفلاق » (Statuta Valachorum) (١٥) . وعلى ذلك ، فانه باستثناء الحملات العسكرية الكبيرة ، غدت المناوشات العسكرية التى كانت تنشب بين العثمانيين والهابسبرجيين على تلك الحدود سنة بعد أخرى ، قتالا بين أفلاق وأفلاق .

فمن يكون هؤلاء الأفلاق ، ومن أين جاءوا فى الأصل ؟ ان هذه لاحدى أصعب المسائل فى التاريخ البلقانى (١٦) . فالأفلاق متناثرون فى الوقت الحالى فى أرجاء كثيرة من البلقان ، وأعظم تركز لهم انما يوجد فى جبال البيندوس (Pindus) فى شمال اليونان ، ولكن يوجد أفلاق آخرون أيضا فى بلغاريا ومقدونيا وألبانيا وصربيا ، فضلا عن بقايا سكان من الأفلاق فى شبه الجزيرة الاستيرية (Istrian بالبحر الأدرياتيكى) . والمعروف عنهم أنهم كانوا رعاة غنم وماشية ، يمارسون شكلا من شبه الترحل يسمى باسم النقلة الموسمية ، وهو الرعى الذى تساق فيه القطعان، فى بعض الأحيان الى مسافات بعيدة ، بين كلأ صيفى منتظم فى الجبال وعشب شتوى منتظم فى أماكن أخرى . وأصبح بعضهم أغنياء بما حصلوا من حياتهم الرعوية : من منتجات كالصوف والجبن والأنعام . وأصبح الكثيرون منهم أيضا مشهورين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كتجار محليين ودوليين . ولم تتغير هذه الحرف الا قليلا على كر القرون ، وهناك قصيدة بيزنطية من القرن الثانى عشر تذكر الجبن الأفلاقى الذى كان شهيرا فى القسطنطينية ، كما تذكر العباءة الأفلاقية ، وهى حرام أسود دون أكمام (talagan) لايزال يستخدمه رعاة الأغنام البلقانيون حتى اليوم . كما يذكر بعض الكتاب البيزنطيين النقلة الموسمية للأفلاق ، وتشير الوثائق القروسطية الصربية الى الأفلاق على أنهم رعاة أغنام وقواد رعائل الخيل kjelatori ـ وهو تحوير للكلمة اللاتينية caletor التى لاتزال تستخدم فى اللغة الأفلاقية العصرية بمعنى « المسافر » (١٧) . وكانت شغلتهم المميزة الأخرى فى ذلك الزمن هى القتال : وكانوا بوصفهم جبليين أشداء يلقون التقدير من أجل قوة شكيمتهم ، كما أن ما يمتلكون من رعائل الخيل ، جعلهم عضدا نافعا وقويا لأية حملة عسكرية تشن . على أن السلطات البيزنطية كانت فيما يبدو لاتعتمد عليهم ولا تثق فيهم كثيرا ، وكانت تتخذ منهم على وجه الجملة فرقا احتياطية للجيش ، وكانوا

يعملون في بعض الأحيان باستقلال تام عن الجيوش النظامية ، بيد أن هناك اشارات الى وجود فرقة كاملة من مشاة الأفلاق في جيش بيزنطي يرجع الى أوائل القرن الرابع عشر (١٨) .

ويتراءى لنا من السجلات القديمة أن وجود الأفلاق في منطقة ما كان عابرا غير محسوس . ذلك أنهم كانوا يتحركون من منطقة الى أخرى ، متحدثين باللغة المحلية وممتزجين بالسكان المحليين : فهناك اشارات في الوثائق البيزنطية المتأخرة الى « أفلاق بلغار ألبانيون » وفيها أيضا « أفلاق صربيون ألبانيون بلغار » (١٩) . وهناك أسماء أخرى لهم منها مافروفلاتشي (Mavrovlachos) باللغة اليونانية البيزنطية أي « الأفلاق السود » التي اشتقت منها كلمة « مورلاتش » والكلمة اليونانية العصرية « كوتسوفلاتشي (Koutsovlachos) ومعناها الحرفي « الأفلاقي الأعرج » وهي كلمة قد تكون صورة محرفة للكلمة التركية « كوتشوك أفلاق » أي « الأفلاقي الصغير » . اما كلمة « الأفلاق » (Vlach) نفسها فتأتي من مصطلح أطلقه السلاف الأوائل على تلك الشعوب التي كانوا يلتقون بها وتتكلم لغات لاتينية أو مصطبغة باللاتينية ومنها اشتقت كلمة والاتشي (Wallachian) والوالون (Walloon) ، أو كما نقول الويلزيون (Welsh) أي سكان اقليم ويلز في بريطانيا .

ولم يرد الينا أي تسجيل تاريخي محدد عن الأفلاق (الفلاتش) قبل أواخر القرن العاشر . وقبل ذلك فان البينة الوحيدة التي يمكن استنتاجها أو استخراجها بينة لغوية . واللغة الفلاتشية لغة لاتينية وثيقة القربى من اللغة الرومانية (المستخدمة في رومانيا) : والتي يطلق عليها اللغويون اسم « الرومانية ـ المقدونية » (Macedo -Romanian) ويسميها الرومانيون « داكو ـ رومانية » (Daco-Romanian) ومن الواضح أنها ثمرة الاستعمار الروماني لبلاد البلقان ، واستمرت هناك حيث التقى بها السلاف عند وصولهم في القرنين السادس والسابع . ولكن الامبراطورية الرومانية في أرض البلقان كانت تغطي مساحة شاسعة مترامية ، وهو أمر أتاح للمؤرخين القوميين المعاصرين مجالا متسعا لتحديد الوطن الأصلي للأفلاق في أية منطقة شاءوا : فيدعي اليونانيون أن الأفلاق انما هم « يونانيون » مرمنون (أي مصطبغون بالصبغة الرومانية) ، ويقول البلغاريون انهم « تراقيون » مرمنون ، كما يصر الرومانيون أنهم « داكيون » مرمنون (و / أو نسل وأحفاد الجند الرومان في داكيا : ولا يعنينا من أي أصل كانوا ما داموا قد كانوا هناك قبل وصول المجريين) . أما أغرب نظرية قيلت حتى الآن ـ وان كانت أبعدها عن المعقول ـ فهي تلك النظرية

التى قدمها المؤرخ الكرواتى الشهير الاب مانديتش الذى راح أثناء بحثه فى أصول الصرب الأفلاق فى البوسنة يستنتج أنهم جاءوا فى الأصل من بلاد مراكش • وذلك ، فيما يرى هذا المؤرخ ، يفسر لنـــا تلك الكلمة اليونانية البيزنطية « مافروفلاتش » أو « الأفلاق السود » : وهى اشارة الى وجوههم السمراء المورية (المغربية) • وتنحصر نظريته فى أنهم منحدرون من الجند الموريتانية فى الفرقة الرومانية التى كانت تحتل البلقـــان • فأما قوله بأن أعدادا غفيرة من الجند كان الرومان يوطنونهم هناك ، فأمر صادق لا غبار عليه ، ولكنهم كانوا كما رأينا يضمون أقواما من كل أرجاء الامبراطورية • ومن بين الجاليتين الموريتانيتين الوحيدتين اللتين ذكرهما مانديتش ، فان واحدة أنزلت قرب البحـــر الأســـود فى بيسارابيـــا (Bessarabia) والأخرى على نهر الاين (Inn) قرب فيينا • ولا تكاد هذه تكون نقطة ابتداء كافية لتكوين شعب بأكمله فى البلقان الجنوبية • وبالرغم من أن القوميين المعارضين للصرب فى البوسنة ســوف يسعدهم اكتشاف أن الصرب البوسنيين انما هم فى الحقيقة أفريقيون (كما أن هذه النظرية تعرى افك التمييز العنصرى والصربى العصرى ازاء الألبانيين الذى يجنح الى معاملتهم على أنهم قوم سمر الوجوه نازحون من العـــالم الثالث) الا أنها نظرية لا يمكن اطلاقا أن تكون صحيحة (٢٠) •

ومع ذلك ، فيمكن التعرف على الأصول الحقيقية للأفلاق عن طريق الاستنتاج من الشواهد اللغوية • ذلك بأن اللغة الأفلاقية الرومانيـــة (التى ظلت لغة واحدة حتى بدأ الشكلان الرئيسيان لهـــا ينفصلان فى القرون الوسطى المبكرة) ، بها عدد كبير من الملامح الخاصة مشتركة بينها وبين الألبانية • وتتضمن هذه الملامح أمورا جوهرية فى النحو والصرف وعددا من التراكيب اللغوية الخاصـــة وعددا ضخما من المفردات المتصلة بالحياة الرعوية (٢١) • وتحوى الألبانية أيضا ، وهى اللغة الوحيدة الباقية من لغات القبائل الاللىرية ، عددا ضخما من الكلمات المستعارة من اللاتينية، ويدل ذلك على وجود صلة وثيقة حقـا بسكان مصطبغين باللاتينية طوال الحقبة الرومانية (٢٢) • ولا شك فى أننا لو جمعنا بين اللغويات التاريخية ودراسة أسماء الأماكن وتاريخ الامبراطورية الرومانية ، لأدى ذلك الى نتيجة مؤكدة الى حد ما ، وهى أن الأرض الأساسية التى تطورت بها هاتان اللغتان كانت منطقة تمتد من شمال ألبانيا عبر كوسوفو وجنوب وسط صربيا ، ومن المحتمل أيضا أنها كانت تشمل أجزاء من مقدونيـــا وغرب بلغاريا • وجلى أن الشطر الأعظم من السكان المرمنين والناطقين باللاتينية بتلك المنطقة (الذين كانت لهجتهم اللاتينية متأثرة بما شابها من لغتهم الأولى ، وهى الاللىرية) قد شتت أو دمر أو امتص نتيجة للغزوات منذ

العصور المظلمة وخاصة غزوات السلاف . وهناك بقية كانت تشتغل بالرعي تمكنت من البقاء في الجبال الشاهقة غير متأثرة بأي فتح سلافي للزراعات المستقرة ، كما أنها في الجبال الأبعد شقة (وبخاصة الجبال في شمال البانيا) على اتصال وثيق مع بقية ، يمكن أن يقال انها أقدم ، ما زالت تتكلم الالليرية ، وان تكن لهجة معدلة من الالليرية التي تغلغلت فيها اللاتينية بشدة بعد قرون من الاحتكاك والاتصال . ذلك هو التفسير الذي يقبله الجميع تقريبا من العلماء المستقلين الذين درسوا هذه المسألة ، ومن سوء الحظ أنه يمس الكبرياء القومية للكتاب الرومانيين الذين لا يطيقون ان يتقبلوا أن أول من نطق بالرومانيــة كانـوا قوما جاءوا من جنـوب الدانوب مما جعلهم يشنعون عليه (٢٣) .

ونظرا لأن هذه المنطقة الألبانية الشمالية والصربية الجنوبية كانت صميم الأرض الأصلية للأفلاق ، فليس غريبا ولا مدهشا أنهم استطاعوا أن ينتشروا في مرتفعات الهرسك القريبـة منذ عهد سحيق القدم . ومن هناك تحركوا شـمالا من خلال المنطقة الداخلية الجبلية الدالماشية حيث نجدهم يرعون القطعان (ثم يهبطون بهـا الى الأرض الخصبة الساحلية في الشتاء) ، منذ عصر مبكر هو القرن الثاني عشر . فهناك اشارات جمه اليهم في سـجلات راجوزا وزادار منذ القـــرن الثـــالث عشر حتى الخامس عشر (٢٤) . ونفذ بعض هؤلاء الأفلاق الرعاة أيضا فيما أمامهم من بلاد حتى وصلوا الى وسط البوسنة ، حيث تدل الأسماء القروسطية بالمناطق المحيطة بسراييفو وترافنيك على وجودهم : فلاهينيا (Vlahinja) وفلاشكوفو (Vlashkovo) وفلاشيتش (Vlasic) (٢٥) . كمـــا أن كثيرا من الكلمات الأفلاقية (الفلاتشية) المرتبطـة بالحيـاة الرعوية قد امتصتها اللهجات البوسنية من اللغـة الصربوكرواتية مثل : ترز Trze ومعناها آخر الخراف المولودة ، وهي مأخوذة من الكلمة الأفلاقية تيرزيو Tirdziu ، أو كلمة زاريكا Zarica وهو نوع من الجبن ، المأخوذة من الكلمة الأفلاقيـــة زارا Zara . وهذه الكلمة الأخيرة انما هي صورة أخرى من الكلمة الألبانية دلة Dhalle اي زبـد اللبن ــ وهي احـدى التفاصيل التي تشير الى الاختلاط والتعايش الرعوي بين الأفلاق والألبانيين الذي استمر فعالا على مدى فترة طويلة جدا (٢٦) .

ويبدو أن معظم هؤلاء الأفلاق الدالماشيين والبوسنيين الأولين كانوا يعيشون عيشة هادئة منعزلة تمـاما في الجبال (٢٧) . ولكن ما حدث في أرض الهرسك نفسها ، التي كان بها تجمع كبير من الأفلاق ، هو تطور تقليد جديد ينطوي على طابع عسكري عدواني . فهناك شـكاو كثيرة في

السجلات الراجوزية من غارات قام بها هؤلاء الأفلاق المجاورون أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر (٢٨) . وكان الأفلاق في الهرسك من مربي الخيل وحداة أو قادة القوافل الذين كانوا يتكسبون ، حين لا يكونون مشغولين بالنهب والسلب ، من التجارة بين راجوزا ومناجم البوسنة ، زهو نشاط عاد عليهم بالثراء . وكما رأينا ، فان من المرجح أن بعضهم كان من أصحاب شواهد القبور الحجرية الفخمة المزينة بصور الفرسان . ولابد أن صلاتهم التجارية بالشرق قد جعلتهم على اتصال أوثق مع الشعوب الأفلاقية في صربيا وبلغاريا ، الذين كانت لهم تقاليد طويلة من النشاط العسكرى في جيوش الأباطرة البيزنطيين والملوك الصربيين .

وهناك سر آخر غامض لم يصل أحد الى حله في هذه القصة هو المعنى الدقيق لمصطلح مورلاتش (حيث كان معنى مافروفلاتش هو الأفلاق السود) ، وكيف اتفق أنه استخدم في الهرسك ودالماشيا . والمعنى الأصلى الواضح كان ينطوى على اشارة للعباءات السود التى كان يرتديها أفلاق البلقان الوسطى ، (صربيا وبلغاريا ومقدونيا وشمال اليونان) : وكانوا يعرفون كذلك ، في أوقات مختلفة باسم « الكاراجونيدس » (Karagounides) و « الكرجونييتسى » (Crnogunjci) التى معناها الحرفى « العباءات السوداء » باللغتين اليونانية ـ التركية والصربية (٢٩). ومن الجائز أن عنصرا مميزا من هؤلاء الأقوام قد دخلوا الهرسك ودالماشيا جالبين معهم الاسم (الذى حازوه في منطقة تتحدث باليونانية) (٣٠) . وسرعان ما حولته طريقة الهجاء الشعبية السلافية الى موروفلاتش (Morovlach) ومعناها الأفلاق الساحليون (٣١) . ومن استخدامه في دالماشيا أصبح ذلك المصطلح فيما بعد يطلق على الأفلاق في كرواتيا الذين كانوا يملأون منطقة التخوم العسكرية (كرايينا Krajina) حول الكتف الشمالى الغربى للبوسنة . وأصبح مورلاكى هو الاسم البندقى (الفينيسى) والمعتمد لهذه الشعوب . وكتب على المنطقة اسم « مورلاكيا » في كثير من خرائط القرنين السابع عشر والثامن عشر . واكتسب المورلاكيون سمعة سيئة وذلك بسبب طريقتهم المخيفة فى الحرب غير النظامية واعتبروا شعبا بدائيا وحشيا . ولكن كل شيء ما عتم أن تغير تغيرا تاما في أخريات القرن الثامن عشر ، عندما قام بزيارتهم قسيس ايطالى هو الأب موريتس (Abbé Morits) ، وقد ألهمه شعر أوسيان (Ossian) ، وصحبه متحمس ثان للشعر البطولى والأدب الشعبى البطولى وهو أستاذ التاريخ الحديث بجامعة كامبريدج ، فسافر بين رحاب المورلاتش ـ بالأراضى الدالماشية الداخلية بحثا وراء الشعر والفضائل البدائية . فوجد الاثنين جميعا : « ان الاخلاص والثقة والأمانة التى يتحلى

بها هؤلاء القوم الفقراء ... في كل أمور معيشتهم أشـــياء قد نصفها بالسذاجة والخنوع » . وقد جمع أيضا الشيء الكثير من الشعر اذ لاحظ أن « الرجل المورلاتشي يسافر بين أرجاء الصحراء والجبال الموحشـــة وهو يتغنى ، وبخاصة في ظلام الليل ، بأعمال القدماء من الملوك السلافيين الى البارونات أو بحدث تراجيـدى » ، « ان اللهجة البوسنية التي يتكلمها سكان الأراضي الداخلية من المورلاتش ، أوقع في النفس ، فيما أرى ، من اللغة الالليرية الساحلية » (٣٢) (والقصـيدة التى نشرت فى الترجمـة وهى « زوجـة حسن أغا » (Hasanaganitsa) كانت فى الحقيقة أغنيـة بوسنية اسلامية ، وهي قصة قصيرة من الحب المأساوى ، وسوء الفهم ، وأصبحت من أشهر نماذج الشعر الشعبي في كل أرجاء أوربا ، كما ترجمها كل من جوته وبايرون والسير والترسـكوت وميريميه ميت بوشـكين وليرمونتوف (٣٣) .

فأما في داخل البوسنة نفسها ، فان مصطلح مورلاتش لم يكن يطلق كثيرا جـــدا على الأفلاق المحاربين الذين كانـوا يذهبـون لملء مناطـــق التخوم في عصر العثمانيين . وكان هؤلاء الأفلاق الذين كانوا يجيئون اما من الهرسك أو صربيـا ، يسمون بالأفلاق أو المارتولوسيون . وتشير الكلمة الأخيرة الى وضعهم العسكرى ، وربما شملت غير الأفلاق أيضا : لقد كانت صورة محورة للكلمة اليونانية الدالة على رجل مسلح ، وهى الأرماتولوس (Armatôlos) . وكان لأفلاق البوسـنة والهرسـك تنظيمهم الاجتماعي والعسكرى الخاص ، وهو شيء محدد بوضوح تام في الوثائق العثمانية الباكرة : فعلى رأس كل مجتمع محلي كان هنـاك رئيس أو كانيز Knez (وهو مصطلح سلافي قديم) ، وكان من دونه بريميكور (Primikür) المأخوذة من الكلمة اليونانية primikerios ، وكان من دونه ليجاتـور (Lagator) (المأخوذة من الكلمـة اليونانيـة ألاجاتور (Alagatôr) أي رئيس سرية عسكرية أو قول عسكرى) ، وكانت المجموعة العسـكرية الأساسية تسمى جوندر (Gönder) نقلا عن الكلمة اليونانية Kontarion أي الحربة) (٣٤) . وكما تدل هذه المصطلحات ، فان العثمانيين ورثـوا نظاما أسس في الماضى لخدمة جيوش الامبراطورية البيزنطية . ولم يفت العثمانيون ، شأن الحكام البيزنطيين والصربيين من قبلهـم ، أن يعطوا الأفلاق امتيازات ضريبية خاصة في مقابل خدماتهم العسكرية : فمنح قادة الأفلاق تيمارات وعوملوا بالفعل معاملة الفرسان (السباهى) ، كما كان شعبهم معفيا من الضريبة الأساسية المفروضة على غير المسلمين ، وهى ضريبة الخراج . نعم ان الأفلاق كانوا يدفعون بالفعل ضريبة تسمى بالضريبـة « الأفلاقية » وهى رسوم أفلاق (Rusum-i-eflak) ، وقوامهـا رأس من

الغنم وحمل من كل دار قائمة ، وتدفع يوم عيد القديس جورج من كل عام (٣٥) • ونظرا لأنهم كانوا يتمتعون بنوع خاص من الضرائب ، كان تقييدهم في الدفاتر التركية من نوع مختلف • وهذا يمكننا من أن نرى أنه في أخريات القرن الخامس عشر كان هناك على الأقل خمسة وثلاثون ألفا من الأفلاق ببلاد الهرسك • وما لبث أن بلغ عددهم في القرن السادس عشر ٨٢٦٩٢ أسرة (وان أدرج ضمن هذه العائلات بعض المارتولوس غير الأفلاقيين الذين كانت لهم نفس الامتيازات) في منطقة سميفريبيف الواقعة الى الجنوب من بلجراد (٣٦) • (ونقل الأتراك عددا كبيرا من الأفلاق النازلين بالجزء الشرقي من بلاد الهرسك الى هناك لاعادة عمران تلك المناطق بالسكان بعد أن عاث فيها الخراب أثناء الحروب التي قامت في ستينيات الألف وأربعمئة) (٣٧) • وكان هؤلاء القوم هم المستودعات الرئيسية للسكان التي كانت تملأ منها أراضي البوسنة الشمالية الخالية من السكان • ونظرا لأن العيش ببلاد الهرسك وصربيا قد جعلهم يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية منذ أمد بعيد ، فانهم أسسوا الوجود الأرثوذكسي في تلك البقعة من البوسنة وهي كنيسة دامت منذ ذلك الحين حتى الآن •

فما مدى اختلاف وتميز هؤلاء الأفلاق عمن يحيط بهم من سلاف ؟ ••• من البين تماما أنهم كان لهم وضع مخالف ، كما كان لهم تنظيم اجتماعي عسكري مخالف • فان من هاجر منهم الى شمال البوسنة لم يعد بوسعهم أن يمارسوا تقليد الانتقال الموسمي القديم ، كما تدل الفرمانات العثمانية الصادرة في القرن السادس عشر بشأن أفلاق البوسنة والهرسك ، على أن غالبية الأفلاق قد أصبحوا آنذاك سكانا مستقرين ، وان معيشتهم تتركز حتى ذلك الوقت حول تربية القطعان ورعي الغنم (٣٨) • وقد لاحظ جيوفاني لوفريك (Giovani Lovrich) في سبعينيات الألف وسبعمئة أن المورلاتش الكرواتيين كانوا يمتلكون جميعا قطعانا يتراوح عددها بين مئتين أو ثلاثمئة أو ستمئة رأس من الغنم ، ولما سألهم لماذا يتراخون بشدة عن عزق الأرض وحرثها أجابوه بقولهم : « ان أجدادنا لم يكونوا يفعلون ذلك ، هذه سنة أجدادنا وعليها نسير » (٣٩) وقد ذهب بعض الكتاب وبخاصة الصربيين منهم ، الى أن مصطلح « الأفلاق » كان مستخدما ليعني بالضبط « الراعي » ، ولم يدل اطلاقا على أي فرق عرقي أو لغوي — وعلى ذلك فان معظم هؤلاء الأقوام انما كانوا في الحقيقة صربيين يرعون الغنم (٤٠) • ويرفض وجهة النظر هذه أكبر خبير معاصر في تاريخ الأفلاق أثناء فترة العثمانيين الأولى بالبلقان ، وهو يصر اصرارا شديدا على أنهم كانوا يعدون قوما مختلفين (٤١)

وظل الأفلاق يتكلمون دائما لغتين ، لغتهم ولغة من حولهم ، ونظراً لأنهم لم يتولوا الادارة والأحكام قط ، فان اللغة التي بقيت الينا حتى اليوم في السجلات لم تكن لغتهم اطلاقا • ولكن بين أيدينا فعلا بعض آيات تدل على استخدامها في غير تسجيل الأسماء الشخصية مثل أورسول (Ursul) وشاربان (Sarban) • وظل الأفلاق الذين نزحوا الى جزيرة أدرياتيكية في القرن الخامس عشر ، يستخدمون الأفلاقية هنـــاك بعد ذلك بأربعمئة عام • وقد كتب أحـد البنادقة في القـرن السـادس عشر يصف أفلاق الأراضي الداخليـة الدالماشية وقال انهم يتحدثون « اللاتينية وان كان بطريقة محرفة » ، كما أن الرعاة بتلك الجبال ظلوا يستخدمون أرقام العد الأفلاقية الى عهد حديث جدا هو ١٩٨٥ (٤٢) • وهنـــاك دليل آخر في القرن السابع عشر على ثنائيـــة اللغـة عندهم أى استخدامهم لغتين في وقت واحد ، وذلك رغم أن الكاتب يوانس لوشيوس Ioannes Lucius (ايفان لوكيتش Ivan Lukic) قد ذكر أن اللغة قد اختفت في زمانه ذاك (٤٣) • على أنهم بطبيعة الحال ، وقد عاشوا قرونا عدة بين سلاف الهرسك وصربيا ، فان مظهرهم الخارجي (أى من ناحيتي اللغة واللباس)، لم يكن مختلفا عن السلاف العاديين بتلك المناطق • والرأى القائل بأنهم كانوا يتكلمون لغتهم وحدها لأنهم لم يجلبوا معهم اللهجة الييكافية الصربية عندما انتقلوا من صربيا الى شمال البوسنة ، فأمر لا شك في زيفه (٤٤) • لقد كانوا يتحدثون بأية لغة يتحدث بها السلاف المحيطون بهم ، وهي لغات ولهجات ربما تغيرت بمر الزمن في مناطق عرضة للتغير وعمليات التدفق الديموجرافي (السكاني) كمنطقة شمال البوسنة ، ولابد أن أفلاق الهرسك كانوا يتكلمون الييكافية على كل حال (٤٥) •

وقد بذلت بعض محاولات لاثبات أن سكانا من المتحدثين بالأفلاقية كانوا لايزالون يقيمون بالبوســـنة في وقت حديث جـدا هو بداية القرن العشرين • وقد ذكر احصاء البوسنة في ١٩١٠ وجود ست عشرة قرية تتحدث « بالرومانية » ، وفي ١٩٠٦ أصدر روماني متحمس محب للأفلاق كتابا كاملا حول « الجاليات الرومانية » التي وجدها هناك (٤٦) • وعندما قام الخبير الأول الألماني في شئون الأفلاق وهو البروفيسور فايجاند (Weigand) بزيارة المنطقة لمراجعـة هذه الادعاءات في الســـنة التالية ، وجد أن القرى الأفلاقية الوحيدة انما تضم مهاجرين قدموا من مقدونيا أثناء القرن الثامن عشر ، وأنهم منذ ذلك التاريخ قد فقدوا لغتهم • فأما القرويون « المتكلمون بالرومانية » المعروفون محليا باسم (الكرافلاسي » (Karavlasi) أو « الأفلاق السود » فكانوا يتحدثون في الحقيقة بالرومانية ، وكان ذلك لسبب بسيط هو أنهم لم يكونوا من الأفلاق اطلاقا ، وانما غجر رومانيون من ترانسلفانيا (٤٧) •

وأخيرا ، يصبح من الضروري علينا أن نوضح أنه لا معنى في هذه الايام لأن تقول ان الصرب البوسنيين انما هم في « الحقيقة » أفلاق ، فعلى كر القرون كان الكثير من اتباع الكنيسة الأرثوذكسية الصربية يعبرون نهر الدرينا الى البوسنة أو ينتقلون شمالا من الهرسك • كما ظهرت طبقة من التجار الصربيين اكتسبت شيئا من الأهمية في المدن البوسنية أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر • ولم يكن كل الناس الذين أرسلوا لملء شمال البوسنة بالسكان إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر من الأفلاق ، ومنذ ذلك التاريخ حدثت عمليات نزوح وهجرة من والى البوسنة حتى اننا نعجز عن حساب النسبة المئوية الدقيقة للأفلاق أسلاف الصربيين البوسنيين (٤٨) • لكن الأفلاق لم يسهموا فقط في زيادة عدد السكان الصربيين ، بل ان بعضهم كما حدث في كرواتيا أصبحوا من الكاثوليك ، كما أن قلة ضئيلة منهم اعتنقوا الاسلام في البوسنة (٤٩) • واطلاق اسم « الصربي » على أي انسان اليوم انما ينطوي على مفهوم نشأ في القرنين التاسع عشر والعشرين ، يجمع الديانة واللغة والتاريخ واحساس الفرد الخاص بهويته : والصربيون البوسنيون العصريون يستطيعون بصدق وصحة أن يصفوا أنفسهم بأنهم من الصرب على هذا النحو ، بغض النظر عن الأسلاف الأفلاق الأوائل • والحق أن المرء لايملك الا أن يبتسم ، عندما يسمع السياسيين البمبيين الروس يتحدثون عن الحاجة للدفاع عن اخوانهم السلاف القدماء في البوسنة ، اذ أن الفئة الوحيدة من سكان البوسنة التي تنطوي على عنصر كبير واضح من الأرومة غير السلافية هي صرب البوسنة •

الفصل السابع

الحرب و الشئون السياسية
في البوسنة العثمانية
١٦٠٦ ـ ١٨١٥

ظل تاريخ البوسنة أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر تتداوله وتتسلط عليه الحروب العظمى · وبالضبط مثلما نمت الامبراطورية العثمانية عن طريق الحرب ، فان الحروب والتغيرات الاجتماعية التى ترتبت عليها انما ساعدت على انحدار الامبراطورية · فعندما حل القرن السابع عشر كانت الخيالة الاقطاعية القديمة قد أصبحت قديمة الطراز من الناحيـــة العسكرية ، منذ أن ازدادت أهمية الجند المشاة المسلحين بأسلحة نارية حديثة ومعهم المدفعية · ونشأ جيش نظامى يتقاضى رواتب وهو جيش لم يعد التجنيد فيه عن طريق الدوشرمة ضروريا بعد ذلك · ولكن الشيء المهم كان هو الأموال والايرادات اللازمة للحكومة المركزية للانفاق عليه : وكان معنى ذلك الاستيلاء على المزارع التيمارية الاقطاعية كلما خوت من سكانها وتحولت الى خليط من الضياع الخاصة والمزارع الخاضعة للضرائب· وأدت هذه التغيرات ، كما سنرى فى الفصـــل الثامن ، الى تغيير طبيعة المجتمع العثمانى الاقليمى ، فزيدت الضرائب على فلاحى المزارع ·واخترعت اسطنبول عددا من الضرائب الجديدة التى أدت الى الفقر وولدت الامتعاض والقلاقل العـديدة · والضرائب التى كانت تجمعهـا الحكومة المركزية ، والمعروفة باسم الأفاريز (Avariz) ـ (انما يقوم التشابه بينهـا وبين أفاريز Avarice محض صـدفة ليس الا) ـ كانت مجرد اجراء طوارىء ، ولكنهـا أصبحت الآن هى القاعدة · وزاد الفســاد واستشرى ، واختـل القانون والنظام · وكان من المعترف به أن الظروف فى البوسنة كانت أحسن تنظيما منها فى المناطق المجاورة الصربية من الامبراطورية ، حيث كان الفلاحون يهربون من المزارع ويتحولون الى عصـــابات من قطاع طرق

أو هازدوق (Hazduk) . بيد ان البوسنة كان لها هي الأخرى نصيبها من التدهور في القرن الثامن عشر . فعند ذلك الحد ، كان واضحا لدى كثير من مراقبي الأحوال ان الامبراطورية كانت تتعفن من الداخل .

وكانت الحروب الكبرى تحدث كل جيلين على الأقل . فبعد الحروب الهابسبورجية من ١٥٩٣ الى ١٦٠٦ التي استنزفت موارد البوسنة تماما ماليا ، وأنهكتها عسكريا ، مرت عدة عقود هادئة لم يعكر صفوها سوى تخفيض قيمة العملة والتضخم بكل أرجاء الامبراطورية العثمانيـة أثناء المدة من ١٦١٥ الى ١٦٢٥ (١) . وفي أربعينيات الألف وستمئة اشتبك الترك في حرب طويلة مع البندقية استمرت حتى ١٦٦٩ . وأدى ذلك الى غارات متكررة كثيرة شنت من الأراضي البندقية على الساحل الدالماشي ، كما جرت صدامات ضخمة بين قوات كل من البندقية والبوسنة : حيث زحف في ١٦٤٥ جيش بوسني كامل بأسره على دالماشيا ، ولكنه لم يتمكن من احراز أية مكاسب هناك (٢) . وكانت هذه الحرب الطويلة الضروس تلقي عبئا ثقيلا على البوسنة ، بالاضافة الى الزيادات في الضرائب والتضخم التي تولدت عنها بكل أرجاء الامبراطورية . فقد كتب الأسقف الكاثوليكي ماريان مارافيتش (Marijan Marevic) تقريرا في ١٦٥٥ يبين ان أكثر من الفي عائلة كاثوليكية قد فرت من البوسنة أثناء « الحرب الحالية » ، فضلا عن تقرير آخر في ١٦٦١ يقول ان أكثر من أربعة أديرة فرنسيسكانية أحرقت في « هذه الحروب المستديمة التي تحدث في هذه الأجزاء » (٣) . وفي ١٦٦٣ اشتعلت نار الحرب ثانية على آل هابسبرج ، وزحف جيش عثماني عرمرم على النمسا في السنة التالية ، وبعد معركة ، عدها الأتراك تعادلا وعدها النمساويون انتصارا ، تم التوقيع على معاهدة سلام وافق فيها كل من الجانبين على ايقاف جميع غارات الحدود ما دام الطرف الآخر يلتزم بذلك (٤) .

على أن الحرب الشـاملة المهمة التي لم تفق منهـا الامبراطـورية العثمانية ولا استعادت قوتها بعدها أبدا ، انما هي الحرب الهابسبرجية من ١٦٨٣ حتى ١٦٩٩ . وكانت سنة ١٦٨٣ كارثة على الترك . فبعد اخفاق حصارهم لفيينا ، ردوا على أعقابهم وهزموا في المعركة على يد الجيوش النمساوية والبولندية ، ونفذ الأتراك حكم الاعدام في بلجراد في الصدر الأعظم الذي قاد المعركة . وفي ١٦٨٤ الى ١٦٨٧ فتح النمساويون بالتدريج كل المجر التابعة لحكم العثمانيين ، فطردوا بذلك آلافا من الفرسـان (السباهي) والمعتنقين للاسلام حيث تراجعوا جنوب بلادهم التي هجروها وأفاضوا بطوفانهم في داخل البوسنة . وفي الحين نفسه كانت البندقية

تشن هجوما مباشرا على الأراضي البوسنية · ولكن تقدما بندقيا ضخما في البوسنة في ١٦٨٥ رد على أعقابه ، ولكن المسلمين دفعوا دفعا الى داخل البوسنة على يد القوات الهابسبرجية الزاحفة من منطقة ليكا (Lika) في أرض كرواتيا ، في أقصى الركن الغربي من الايالة البوسنية ، وفي ١٦٨٧ كان عدد يقارب الثلاثين ألفـــا أو يكاد قد فر من أرضه ، كما أن الألف والسبعمئة من السكان الذين بقوا في أرضهم أرغموا بالقوة على اعتناق الكاثوليكية (٥) · وكان لهذه النزوحات المتتابعـة للاجئين أثر ضخم في حجم وطبيعة أهل البوسنة وسكانهـــا : وقدر أنه قد بلغ عدد النـاس المنقولين الى البوسنة مئة وثلاثين ألف نسمة كنتيجة نهائية للحرب (٦) · وكان أكبر عنصر منهـم هم المسلمين السلافونيين ــ وهم اما مستوطنون بوسنيون مسلمون انتقلوا في الأصل شمالا نازحين من البوسنة ، أو من الكروات السلاف الذين أسلموا أو دفعوا الى الاسلام أثناء الفترة الطويلة من الحكم التركي · وبعض اللاجئين وبخاصة طبقة الفرسان (السباهي) الذين فقدوا كل شيء كانوا رجالا تملأ نفوسهم المرارة ، عادوا وقد اجتلبوا معهم كراهية جديدة للمسيحيين (٧) ·

وكان كل شيء ينذر بأسوأ من ذلك بالنسبة للسلطات العثمانية ، ففي ١٦٨٩ زحف الجيش النمساوي الهابسبرجي عبر البوسنة ، ولم يلبث حتى دخل صربيا · ولم يزل يخترق البلاد حتى وصـل الى كوسـوفو ، وانتهز كثير من الصربيين الفرصة فثاروا على الحكم التركي · وجاء زمان بدا فيه أن الأتراك سيفقدون السيطرة على البلقان كلية · ولكن صحوة مفاجئة مكنت الأتراك من رد النمساويين مرة ثانية على أعقابهم في السنة التالية · وفر عدد ضخم من السلاف الأرثوذكس ، وعلى رأسهم البطريرك ــ وهم جمع لا تقل عدته عن ثلاثين ألفا ــ الى الشمال مع الجيش النمساوي المتقهقر من منطقة كوسوفو · (والغالبية الألبانية في كوسوفو ــ ذلك على الأقل في المدن العصرية ــ ربما يعود تاريخها في الغالب الى هذه الأحداث) ولكن من الناحية الأخرى قام كثير من الصربيين الأرثوذكس بالترحيب بعودة الترك ، بعد أن جربوا حرارة تحمس القسس الكاثوليك النمساويين في نفس الحين · ثم تلت ذلك فترة من تعذر حقيقي في الحركة في أي اتجاه ، وواصل العثمانيون الحملات بغير جدوى عبر الدانوب في الأراضي المجرية ، وقاومهم هناك ضابط نمساوي عديم الكفاية هو الفيلد مارشـال كابرارا (Caprara) · ولكن عندما عزل كابرارا وعين محله أصغر وأذكى ضابط قائد في الجيش ، وهو الأمير يوجين من سافوي ، فان الأمور ما لبثت أن بدأت تتغير · فأنزل الأمير يوجين هزيمة فادحة بالأتراك في معركة زنتا (Zenta) بجنوب المجر ، في سبتمبر ١٦٩٧ · وبعد ذلك انطلق في سرعة خارقة بجيش عدته ستة آلاف رجل حتى دخل الى قلب البوسنة ·

ووصلوا فى ٢٢ أكتوبر الى سراييفو حيث وجدوا الأتراك غير مستعدين اطلاقا للقتال • وهنــاك فقـرة وردت فى مفكرة الأمير يوجين العســكرية تصف أحداث اليومين التاليين :

« فى يوم ٢٣ أكتوبر ، صففت الجند فى جبهة عريضة على مرتفع يطل على المدينة مباشرة • ومن هناك أرسلت فصائل لنهبها • وكان الترك قد أخذوا من قبل أشياءهم الثمينة الى أماكن آمنة ، ولكن مع ذلك فان مقدارا ضخما من جميع السلع ظل باقيا وراءهم • وحوالى المســاء بدأت المدينة تحترق • والمدينة ضخمة جدا ومفتوحة تماما ، وبها مئة وعشرون مسجدا بديع التصوير والشكل • وفى اليوم الرابع والعشرين ظللت فى سراييفو • وتركنا المدينة وجميع ما حولها من مناطق شعلة نيران متقدة • ولم تلبث فرقتنا المغيرة التى تعقبت العدو أن عادت الينا بالغنائم وبكثير من النساء والأطفال ، بعد أن فتكت بكثير من الترك • ويجىء المسيحيون الينا فى جماهير غفيرة ، ويسألون الاذن بالدخول الى معسكرنا بكل ما لهم من متعلقات ومتــاع ، وذلك نظـرا لأنهم يريدون أن يغادروا البــلاد ويتبعونا • وانى لأرجو أيضــا أن آخذ معى جميع المسيحيين بهذه البلاد وأعبر بهم نهر السافا » (٨) •

وكان معظم هؤلاء المسيحيين على الارجح من التجار الكاثوليك الذين يبدو أن سيطرتهم على التجارة فى البوســنة قد انتهت تماما مع تلك الحرب (٩) • وبينما كان الأمير يوجين يتراجع شمالا ، سارع آلاف من الكاثوليك الأخـر بالانضـمام فعلا الى جيشه أثناء مسيره الى النمســا • ولئن لم يكن عدد السكان الأرثوذكس فى البوسنة يفوق آنفا عدد الكاثوليك عند حلول النصف الثانى من القرن السابع عشر ، فان تفوقهم العددى كان مفروغا منه عند نهاية تلك الحرب (١٠) • وسواء أكان هؤلاء الكاثوليك مقتنعين (شأن البطريرك الصربى) أنهـم لابد عائدون سريعا برفقة جيش تحرير أم لم يكونوا ، فذلك شىء غير واضح حتى الآن • فهناك علامات تؤكد أن النمساويين كانوا يفكرون تفكيرا جديا فى ضم البوســـنة ضما نهائيا : فقد بعثوا يسألون ويتحرون فى ١٦٨٧ ـ ١٦٨٨ ، من خــلال وسطاء لهم فى راجوزا ، هل يقبل مسلمو سراييفو (الذين كانوا مستقلين تماما تجاه الحكومة العثمانية) الحكم النمســـاوى لو ضمنت لهم حرية العقيدة ، وردت اثنتا عشرة عائلة بالايجــاب ، ولكن لم يسفر الأمـر عن

شيء (١١) • ولم يدر أي شيء من هذا القبيل مع ذلك ، في عقل الأمير يوجين فعندما قام بغارته العسكرية على البوسنة ، لم يكن الغرض الجوهري منها سوى النهب والتدمير •

وتؤكد معاهدة كارلوفيتش Karlowitz (سرمسكي كارلوفتسي Sremski Karlovci في شمال غربي بلجراد ، قرب نوفي ساد) ، التي انهت الحرب في ١٦٩٩ ، أن الامبراطورية العثمانية كانت في حالة تقهقر في أوربا ، اذ تنازلت فيها عن المجر وترانسلفانيا لآل هابسبرج ، وتنازلت للبندقية عن مناطق مترامية في دالماشيا واليونان : وفي أثناء القرن التالي كان الحد الجنوبي الغربي للبوسنة يسير مع أراضي البندقية جنبا الى جنب • ويبلغ من ضخامة التأثير السيكولوجي لهذه الخسائر أن أصبح استردادها هدفا جنونيا طويل المدى للسياسة العثمانية • ولم تلبث الفرصة أن سنحت في ١٧١٤ ، بعد أن اقدمت البندقية عدة مرات على خرق المعاهدة خرقا صارخا • وفي الحرب التي نشبت بعد ذلك ، عادت النمسا فواصلت تحالفها مع البندقية ، وللمرة الثانية (في ١٧١٦) أنزل الأمير يوجين هزيمة فادحة بالأتراك في بتروفارادين (Petrovaradin قرب نوفي ساد) • ولكن قوات الدفاع البوسنية صمدت في مكانها تماما • وفي معاهدة باساروفيتش Passarowitz (بودجاريفاتس Podjarevats في صربيا) في ١٧١٨ ، اقتطعت النمسا شقة من الأرض جنوب الحد التقليدي وهو نهر السافا ، كما تقدمت دالماشيا الواقعة تحت حكم البندقية داخل الأرض البوسنية حتى بلغت خطا شكل منذ تلك اللحظة التخم الجنوبي الغربي للبوسنة (١٢) •

ودفعت هذه الحرب موجة أخرى من اللاجئين المسلمين الى البوسنة(١٣) • فالظروف لم تكن مستقرة ، وزيدت الضرائب للمرة الثانية ، ونشبت ثورات بسبب الضرائب في انهرسك في ١٧٢٧ و ١٧٢٨ و ١٧٢٩ و ١٧٣٢ • وتشير المصادر غير العثمانية الى أن المسيحيين اشتركوا في اثنين من هذه التمردات (١٧٢٨ و ١٧٢٩) ، ولكن أهم العناصر المحركة والمشاركة فيها كانت من المسلمين (١٤) • وتوالت الأوبئة أيضا أثناء تلك السنوات : فمات عشرون الفا في البوسنة بالطاعون أثناء ثلاثينيات الألف وسبعمئة (١٥) • وعندما نكث النمساويون بمعاهدة باساروفيتش في ١٧٣٦ وغزوا البوسنة حسبوا أنها ستقع في أيديهم سريعا • ولكن خاب فالهم ، فقد تصادف ، قبيل الغزو مباشرة ، أن عين على غير المألوف وال ذو همة عالية وقدرة على البت السريع في الأمور ، هو حكيم أوغلو علي باشا ، حاكما على البوسنة ، فنظم الدفاع بمهارة فائقة (١٦) • وتمكن

فى السنة التالية من انزال الهزيمة بالجيش النمساوى فى معركة بانيالوكا ، وبمقتضى معاهدة الصلح التى أعقبت ذلك (وهى معاهدة بلجراد فى ١٧٣٩)، تخلى النمساويون عن جميع الأراضى الواقعة جنوب نهر الصافا عدا قلعة واحدة (١٧) • ويرجع تاريخ الحد الشمالى للبوسنة العصرية الى تلك التسوية •

ولبثت هذه المعاهدة أمدا طويلا ، فلم تتعرض البوسنة لأى غزو أجنبى لمدة خمسين عاما • ولكن كان على ايالة البوسنة أن تتحمل عبء الضرائب المزادة لسداد نفقات حملات أخرى بأمكنة أخرى ، ففى ١٧٤٥ عندما عاد حكيم على أوغلو باشـا ليتولى الحكم مدة أخرى واليا على البوسنة ، واجه ثورة عاتية على الزيادات فى الضرائب وعجز عن اخمادها الأمر الذى اضطره الى مغادرة البلاد مرة ثانية مدة ستة أشهر • وعندما عاد ثانية فى ١٧٤٧ واجهته ثورات أكثر فاضطر الى التراجع الى اليونان فى السنة التالية (١٨) • وشب عصيان كبير فى موستار ، اشترك فيه حتى الانكشارية أنفسهم ، وزادت عليه عصيانات أخرى بسبب الضرائب فى البوسنة أثناء السنوات القليلة التالية (١٩) • وكان القرويون المسلمون يحتجون هم أيضا على التغيرات التى لحقت بنظام حيازة الأرض • وأخيرا جاء وال آخر للبوسنة ، هو محمد باشا كوكافيتسا (Kukavca) ، فتلقى رسالة من السلطان تتكون من جملة واحدة : « ينبغى غزو البوسنة ثانيـة » (٢٠) • فاستجاب لذلك النداء بكفاية وحشية • وأعيد السلام الى البوسنة ، ولكن مدينة موستار ظلت مركزا لعدم الولاء والمقاومة ، فاضطر الوالى فى ١٧٤٨ الى أن يجرد عليها جيشا كبيرا لاخضاعها • ولكن على العكس من التمردات الشعبية التى حدثت ابان أربعينيات الألف وسبعمئة ، جاءت هذه المقاومة من المراكز الحضرية ، من رؤساء المسلمين وأعيانهم ، الذين كانوا يحاولون الدفاع عن امتيازاتهم القديمة (٢١) •

على أن الحرب النمساوية التالية ، التى بدأت فى ١٧٨٨ ، كان لها حجم سياسى جدى أخطر من أية حرب أخرى سبقتها • فقد كانت هناك فى هذه المرة خطة تم الاتفاق عليها بين جوزيف الثانى النمساوى وكاترين العظمى الروسية ، ترمى الى الاستيلاء على جميع الأراضى العثمانية بشبه جزيرة البلقان ، واقتسامها بين هاتين الامبراطوريتين المسيحيتين • وحددت هذه الخطة شكل المصالح الجغرافية والسياسية للنمسا فى أرض البلقان التى تمخضت فى نهاية الأمر عن احتلالها للبوسنة فى ١٧٨٨ ، وضمها اليها

بعد ذلك بثلاثين عاما • وبذلك اظهر الامبراطور جوزيف الثانى ، عندما أعلن عند بداية الحرب أنه سيبسط حرية الدين لجميع المسلمين الذين يوافقون على طرح أسلحتهم جانبا ، انه كان يفكر في حكم البوسنة وليس مجرد فتحها (٢٢) • وقد حاول آل هابسبرج ان يرتقوا بثقافة الكاثوليك البوسنيين (واستحضروا بعضهم ليدرس في زغرب) ، وكانوا يأملون فى نشوب ثورة عامة للمسيحيين البوسنيين (٢٣) • وفى أوائل عام ١٧٨٨ دخلت القوات النمساوية أرض البوسنة ، ولكن أحلامهم فى الترحيب بهم بوصفهم محررين ومنقذين لم تتحقق • نعم حدث فعلا أن قلة قليلة من البوسنيين تطوعوا في الجيش النمساوى • ولكن كلا من المسيحيين ، والمسلمين البوسنيين ، ابدوا مقاومة شديدة للنمساويين بمنطقة الحدود ، وتجمد الجيش النمساوى فى حصار دام خمسة أشهر لقلعة دوبيكا (Dobica) (٢٤) • (وبذلك أصبحت تلك الحرب تسمى فى التاريخ البوسنى باسم حرب دوبيكا) • وفى السنة التالية أصبح النمساويون أحسن تنظيما ، وتمكنوا هذه المرة من اجتياح البوسنة المسلمة وواصلوا الزحف فى عمق صربيا • وكان هذا ارهاصا ثانيا بالطريقة التى تتم بها الأمور أثناء القرن التاسع عشر : ولم يكن ما أوقف مطامع النمسا والروسيا عند حدها قوة العثمانيين العسكرية ، وانما هو الضغط الدبلوماسي والسياسى الذى بذلته الدول الأوربية الأخرى • وفى ١٧٩١ وافقت النمسا على التخلى عن جميع المكاسب التى أحرزتها فى البوسنة وصربيا ، وفى مقابل ذلك منح السلطان الامبراطور النمساوى وضعا رسميا يجعله « حامى » المسيحيين الذين يعيشون تحت الحكم العثمانى (٢٥) •

وقبل أن يتهيأ لنموذج القرن التاسع عشر اكتمال التشكيل ، وقعت حادثة عطلت من مجرى تطورات النظام الدولى هى الحروب النابوليونية • فبعد الانتصار الأول لنابوليون على النمسا ، ضم الفرنسيون الى حكمهم كلا من البندقية وايستريا ودالماشيا (بما فى ذلك الجمهورية الراجوزية) فى ١٨٠٥ ــ وبذلك خلق حد فرنسى بوسنى دولى • وحرصت معظم الدول الأوربية على التزلف ، لأسباب استراتيجية ، الى الامبراطورية العثمانية • فارسل نابوليون مساعدة الى السلطان عندما كان يحاول اخماد ثورة في صربيا ، كما أن الفرنسيين تدخلوا أيضا ، بطريقة مباشرة أكثر ، فى عراك محلى نشب بالهرسك ، عندما ارسلوا تجريدة عسكرية لانقاذ وال أو باشا محلى هو حاجى بك ريزفان بيجوفيتش ، الذى كان محاصرا في قلعة هوتوفو (Hutovo) نتيجة لخلاف نشب على ميراث بينه وبين أخوين له (٢٦) • وفى ١٨٠٩ أعلنت النمسا الحرب على فرنسا

مرة ثانية . وتشجع نابوليون البوسنيين على الاغارة على سلافونيا فى أوائل صيف تلك السنة ، ولكن بعد معركة واجرام فى يوليو توسل النمساويون فى طلب السلام . وتنازل آل هابسبرج مرة ثانية عن بعض الأراضى : القسم الغربى من كرواتيا (المتاخم للكتف الشمالى الغربى للبوسنة) ، وشطر كبير من سلوفينيا البصرية . وضمت هذه بعضها الى بعض ومعها مكاسب أخرى فى المنطقة ، لتشكل منطقة فرنسية جديدة هى « المقاطعات الاللبرية » ، التى تولى الحكم فيها الماريشال مارمونت (الذى تلقب لتلك المناسبة بلقب دوق راجوزا) ، وتولى الحكم أربع سنوات .

وسرعان ما وجد الماريشال نفسه ، شأن معظم من سبقوه من حكام المنطقة الحدودية من قبله ، نفسه مضطرا الى التعامل مع كتائب مغيرة قادمة من البوسنة . وفى آخريات ١٨٠٩ ، عبرت بعثة تأديبية فرنسية الحدود البوسنية ، حيث قابلت قوة صغيرة ، تتكون بوجه رئيسى من الفرسان غير النظاميين ، تحت قيادة أغا (أى حاكم) بيهاتش ، ومع أنهم لم يكونوا نفثا للجند المدربين فى الجيش النابوليونى الأعظم ، فان مهارة الفروسية التى أبداها هؤلاء غير النظاميين البوسنيين ، تأثر بها جندى فرنسى تأثرا قويا ، فوصفهم فى مذكراته بأنهم : « مجموعة من الرجال ، لم يكن فيهم أحد يلبس زيا عسكريا ويمتطون خيولا هزيلة صغيرة الحجم ، ذات خفة خارقة فى الحركة ، وهى تطيع صوت راكبها وضغط ركبتيه ، دون لجام أو مهماز » . فردهم الفرنسيون الى الخلف ستة فراسخ ، ثم توقفوا عند احدى القرى وأشعلوا فيها النار » . وتذكر الجندى ما حدث فيما بعد فقال : « دخلت أنا وبعض الضباط أشد البيوت وجاهة ، وقدرنا أن الغرفات ذات النوافذ ذات القضبان المطلة على حوش داخلى كانت هى حريم البيت ، فأشعلنا فيها النيران تكريما للجنس اللطيف » (٢٧) .

وعندما انسحب الفرنسيون من « المقاطعات الاللبرية » فى ١٨١٣ ، عاد الحكم النمساوى سيرته الأولى هنـــاك ، وكذلك عاد أيضا النسق المعتاد من صراعات الحدود وحوادث الاختراق . وعادت الأمور الى نصابها المعتاد . ولكن أكبر تهديد طويل الأجل للبوسنة العثمانية كان يتشكل فى الشرق فى صربيا . حيث تفجر تمرد خطير فى ١٨٠٤ . والحق أنهما كانا تمردين صربيين : أولهما هو الذى قامت به جماعة من زعماء الانكشارية المحليين الذين وضعوا أيديهم على السلطة للحيلولة دون تنفيذ الاصلاحات التى صرحت باجرائها اسطنبول (وهى التى كانت تسمح للصربيين المسيحيين بتجنيد فرق الميليشيا الخاصة بهم ، وجمع ضرائبهم الخاصة ، وما الى ذلك) ، وكان التمرد الثانى ثورة ضخمة قام بها السكان

المسيحيون • وحدث في البداية أن السلطان انضم الى الرعايا ضد الانكشارية الثائرين فتفاقم التمرد الشعبى الأمر الذى جعله يقرر اخماده • وقضى الصرب تماما على جيش عثماني فى ١٨٠٥ ، وكذلك أيضا ، هزم جيش مرسل من البوسنة في ١٨٠٦ هزيمة ساحقة • وكان من بين أعمال العنف التى ارتكبت ضد العثمانيين فى الصرب المذابح المتسعة والسطو والسرقات، والتعميد الاجبارى للسلافيين المسلمين العاديين ، فضلا عن الأتراك أنفسهم ، وعندئذ شرع الباقون منهم فى الفرار الى الأراضى البوسنية (٢٨) • وحدثت بعض عصيانات من قوم ينتسبون الى الكنيسة الصربية الأرثوذكسية فى البوسنة ، كما حدث في الهرسك عصيان أشد خطورة (نشأ من أسباب محلية أكثر) ، وأخيرا وافق السلطان فى ١٨١٥ على اعطاء الصرب ــ أو على الأقل أولئك المقيمين فى سنجقية سميديروفو وهى فلذة من شمال وسط صربيا تضم فيها بلجراد ــ قدرا كبيرا من الاستقلال الذاتى ، يشمل قيام جمعيتهم الخاصة وأميرهم المنتخب الخاص • وبقيت الحاميات التركية هناك ، كما أن باشا تركيا واصل الاقامة فى بلجراد • ولكن الأساس أصبح الآن قائما لتطور صربيا ، حتى تصبح فى نهاية المطاف مملكة مستقلة ــ وهى مملكة لابد فى المستقبل أن تتصرف حيال البوسنة بوصفها اما منارة للحرية وطوق نجاة ، أو تصبح مركزا للمطامع الاقليمية التوسعية •

ولقد كان التمردان المتناحران اللذان كانا بداية تحرك الصرب نحو الاستقلال يعبران عن نزعتين ظلتا واضحتين فى الولايات البلقانية التابعة للامبراطورية العثمانية • فكان هناك عدم ارتياح شعبى ضد النظام بأكمله ، كما كانت هناك رغبة تساور الممثلين المحليين لذلك النظام فى الدفاع عن امتيازاتهم ضد التدخل (بل وفوق كل شيء) ضد تدخل اسطنبول • وكانت سلطة أعيان المسلمين المحليين متركزة بالأكثر بأرض البوسنة ، وكان معنى ذلك أن مقاومتهم للحكم المركزى التى شاهدناها آنفا بضع مرات ، منذ منتصف القرن الثامن عشر ، راسخة الأساس ويتطلب القضاء عليها عدة أجيال متتالية • ولقد نمت فى البوسنة مؤسسات سياسية واجتماعية خاصة ، لو نظر اليها كمجموع ، لتحصل منها نظام للسلطة المحلية مؤثر بصورة غير عادية •

وكان أهم هذه المؤسسات القابيطانية (Kapetanije) • • وتذكر بداية أنه فى أخريات القرن السادس عشر كان القابيطان حاكما عسكريا اداريا بمنطقة التخوم : وكان عليه أن يجمع الجند ، ويفحص المسافرين الذين يعبرون الحدود ، ويحافظ على أمن الطرق من عصابات قطاع

الطرق ، فضلا عن أدائه واجبات مماثلة ومنوعة أخرى شرطية وادارية . وكانت المنطقة التى يحكمها وتسمى « قابيطانية » يمكن أن تكون أكبر أو أصغر من « قاضيلوكية » (وهى الوحدة الادارية الأساسية التى يرأسها قاض) ، ولكنها على كل حال أصغر من سنجقية (٢٩) . وفى أثناء القرن السابع عشر امتد هذا النظام الى الأراضى الداخلية ، ووسعت أيضا مجالات سلطات القابيطانات ، وأخذت بعض العائلات العليـــة البـارزة تعتبر القابيطانية من الوظائف المتوارثة . وعندما وافى عهد معاهدة كارلوفيتس (١٦٩٩) كانت هناك اثنتا عشرة قابيطانية فى البوسنة ، وزاد العدد عند نهاية القرن الثامن عشر فأصبح تسعا وثلاثين ، وعندئذ كان ذلك النظام يغطى معظم الأراضى البوســنية . وعند منعطف القرنين الســـابع عشر والثامن عشر ، يوم شرعوا أيضا يتولون جمع الضرائب ، بلغ القباطنة قمة سلطاتهم (٣٠) . وكانت القابيطانيــة ســمة اختصت بها البوسنة ، حيث كونت بنية «اجتماعية سياسية» أفردتها عن كل الأراضى البلقانية الأخرى. وعندما كان ذلك النظام يعمل بطريقة حسنة ، فانه كان يعد تحسنا عظيما ألم بالنظام العثمانى الأصـلى رحـم الشعب من أولئك الظلمة النهابين من البكوات السناجقة المعينين من الخارج ، الذين كانـوا يقضـون مدة ولايتهم القصيرة فى البوسنة وكل همهم جمع الثروة وبلوغ الغنى ـ وأصبح له حكام محليون لهم مصلحة قوية فى اضفاء الرخـــاء الطويل الأمد على مناطقهم . وتقبلت اسطنبول بالرضـــا نمو سلطة « القابيطانية » ، لأنها كانت أكفأ من الناحيـــة العسكرية ، كمـا كان القائمون عليها أوفياء فى تسليم الضرائب . ولكنهم كانوا فى الحين نفسه قادرين على وضع عقبة كئود فى طريق سلطة حكام البوسنة ، الذين كان يعينهم السلطان .

ومن الناحية النظرية ، كان الوالى يمارس السلطة العليـا للسلطان على البوسنة كلها . كان بوصفه حاكما على « ايالة » ، يحمل لقب بيك البكوات أو وزير ، وكان كما رأينا آنفا ، يملك أعلى الرتب الثلاث لكلمة باشا وهى المسماة « الباشا ذو ثلاثة الذيول » من البيرق المزين بثلاثة من ذيول الخيل الذى يتقدمه اثناء المعركة (٣١) . وكان دونه البكوات السناجقة (وعند نهاية حروب القرن السابع عشر ، كانت البوســـنة تتكون من أربع سنجقيات : هى البوســـنة والهرسك وتسفورنيك وكليس (Klis) وكلهم يعينون من قبـــل السلطان مباشرة . وكان هناك عند مستوى المنطقة ، بالاضافة الى القابيطانات ، أربع أغالوكات (Agaluk) مستقلة أعنى مناطق سيادة مستقلة ، وكان فى الامكان أيضا أن يحكم الأحياء « موضيليمين » (Musselims) وهم مديرون يعينهم الوزير نفسه (٣٢) . ولكن الذى حدث فى الواقـع هو أن سلطة الوزيـر أخذت تتقلص أكثـر

فأكثر ، منذ بواكير القرن الثامن عشر فصاعدا . وكان في مستطاع وزير همام مثل حكيم أوغلو علي باشا أن يستنفر البوسنيين للجندية ، حين يكون من مصلحة البوســـنيين أن يستنفروا للقتال ، بيد أنه لايـكاد يستطيع السيطرة على الاقليم ، عندما ينقلب عليه ، ولم تكن هناك من وسيلة لذلك الا القوة الغاشمة ، ومع ذلك فان استخدامها لم يكن من المعتاد . وعند نهاية القرن ، يتفق معظم المراقبين على أن سلطان الوزير الحق ، لم يكن يمتد الا على المنطقة المحيطة بمدينة ترافنيك ، وهي محل اقامته ومجلسه (٣٣).

وقد إنتقل وزراء البوسنة الى خارج سراييفو بعد الحرب التى تشبت في تسعينيات الألف وستمئة ، ثم وجـدوا ان عودتهم اليها تـكاد تكون مستحيلة . فان نمو سراييفو وكذلك (الى حد أقل) موستار ، كان عاملا آخر حد من سلطان السلطة المركزية . لأنهما كانتا حريصتين أشد الحرص على استقلالهما السياسى زمنذ أقدم الأزمان ، منح محمد الثاني سراييفو في ستينيات الألف وأربعمئة امتيـازا Mufname ، يتضمن بعض اعفاءات ضرائبية ، مكافأة لها على صمود أبنائها أثنـاء الغزو الأصلي للبوسنة . وقد اصـــبح ذلك الفرمان أساسـا تطالب به ـ وخاصـــة من قبـــل زعماء النقابات القوية ، الذين اكتسبوا السلطـة (المحتفظ بهـا للدولة بأماكن أخرى) لتعيين الرئيس الأعلى للمدينـة (٣٤) . وبعد نهاية نظام الدوشرمة في القرن السابع عشر ، اضمحلت طبيعة قوات الانكشارية في سائر أرجاء الامبرطورية : حيث تحولت في البوسنة أثناء القرن الثامن عشر الى شيء يكاد يشبه النقابة أو الجمعيـــة أو نحو ذلك ، أي الى شيء يهتم بالامتيازات الاجتماعية قدر ما يعنى بالواجبات العسكرية (أو أكثر) . وقد لاحظ معلق فرنسى فى ١٨٠٧ « أن لقب « انكشارى » يحمله كثير من الرجال المسلمين فى المدينة » ، وقد أخبره الناس أنه من بين ثمانية وسبعين ألف انكشارى فى البوسنة ، لم يكن هناك الا ستة عشر ألفـا يتلقون الرواتب ويؤدون الواجبات العسكرية الحقة ، وأما الباقون فانهم حرفيون يستمتعون باللقب فحسب (٣٥) . ولما كانت سراييفو تحتوى على الأقل على عشرين ألف انكشارى ، كان بعضهم رجالا عسكريين ، لم يكن فى امكان أى وزير أن يهمل امتيازاتهم أو يلقيها جانبـا ، وكان بها موسيليم يمثل الوزير ، رسميا وان كانت سلطته الحقيقية دون ذلك..

وكانت سراييفو هي البادئة بمقاومة السلطة المركزية : فقد لاحظ مدون أخبار بوسنى أنه فى ١٧٧١ ، عندما فرضت ضريبـــة جديدة ، انتظرت أماكن أخرى لترى ما اذا كان السراييفيون سيقبلونها قبـل أن تدفعها هى نفسها ؟ (٣٦) على أن موستار كانت لها هى الأخرى أهميتها .

وان لم تذكر السجلات المكتوبة أنها منحت أية امتيازات خاصـــة حيث كانت تحاول دائما أن تتخذ لنفسها وضعا مماثلا ، فكانت تقـاوم كل محاولات التحكم والسيطرة · واشتبكت في مصـادمات كثيرة مع جنـــد الوزير · وجردت على موستار حملات في ١٧٦٨ و ١٧٩٦ ، وفي ١٨١٤ تطلب الأمر جيشا من ثلاثين ألف رجل لاعادة حكم الوزير الى نصــــابه هناك : ووضع على رأس السلطة موسيليم · ولكن الناس سريعا ما نبذوه ، واختاروا رجلهم وعينوه في المنصب (٣٧) · وكان موظفو المدينـــة هؤلاء الذين قادوا المقاومة في موســـتار يحملون لقب آجـان (ajen) · ومنذ تلك اللحظة أصبحت تلك الوظيفة حصنا منيعا ضد السلطة المركزية · وعندما أدخلت هذه الوظيفة الى البوسنة لأول مرة أثناء حرب ١٦٨٣ ـ ١٦٩٩ ، كان الآجان موظف مدينة ، تنحصر مسئوليـــاته في اســتتباب القانون والنظام ، ويختار من بين الفرسان (السباهي) وضباط الانكشارية وغيرهم من الشخصيات الكبيرة ، ومع أن ذلك اللقب تطور وأصبحت له دلالة وأهمية أوسع بمواطن أخرى من البلقان ، التي كان يطلق فيها بوجه عام على جميع الأنواع من المسلمين السادة الأعيان المحليين شبه المستقلين ، فانه في البوسنة احتفظ بمعناه بوصفه منصبا اداريا بحتا · وفي كثير من أرجاء البوســـنة الاقليمية ، كان لرتبـــة القابيطان أيضا نفس وظيفة الآجان وأعماله · ولكن الدور الخاص للآجان كان يوجد في المدن الرئيسية التي كانوا ينتخبون فيها بالفعل ، أثناء الشطر الكبير من القرن الثامن عشر ، على يد ممثلين للمواطنين ـ المسيحيين والمسلمين أيضا · فأما الآجان أنفسهم فكانوا مسلمين بطبيعة الحال ، وفي كل من سراييفو وموستار كان لتنظيمات الانكشـــارية نفوذ قوي في تعيينهم · وفي سراييفو فان مواطني المدينـــة العاديين كان يمكن أن يكونوا آجانا ، وأما في موســـتار ، فان طبقة الأرستقراطية المحلية المالكة للضـــياع ، اســتولت على ذلك المنصب ، وانتهى بها الأمر الى تحويله الى النظام الاقطاعي ، جاعلين من الانتخـــاب مجرد « شكلية » بحتة · وعن طريق ممارســـــة هذه الوظيفـة أو ذلك المنصب ، تمكن زعماء موستار ، بمعاونة أبنــاء الطبقة المحليـــة من ملاك الأرض الآخرين ، من الاحتفاظ بمدينتهم في حالة من المقاومة المستمرة للحكومة المركزية من ســـــتينيات الألف وسبعمئة حتى ثلاثينيـــات الألف وثمانمئة (٣٨) ·

الفصل الثامن

الحياة الاقتصادية والثقافة والمجتمع
فى البوسنة العثمانية ١٦٠٦ ــ ١٨١٥

كان هناك ــ كما يستبان من تاريخ القابيطانات والآجانات ، تغير اجتماعى ذو أهمية هائلة يمضى أشواطا بعيدة أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . فقد ولى بالتدريج ذلك النظام القديم للحيازة العسكرية الاقطاعية ، ونشأ فى مكان طبقة التيمار ، نوع جديد من الأرستقراطية المحلية ممن يمتلكون مزارع ضخمة ملكية كاملة وراثية . وقد سبق أن لخصنا بعض أسباب هذا التغير : نمو طبقة الدوشرمة من موظفى الامبراطورية الذين كانوا يتنافسون فى اسطنبول فى القرن السابع عشر على المنح المكونة من المزارع الخاصة اللاعسكرية ، والتحول فى الأهمية العسكرية من الفرسان (السباهى) الى جند المشاة مدفوعى الأجور ، وازدياد الحاجة بصورة متناهية لجمع الايرادات المالية ، وهى حالة أفضت الى أن مناطق شاسعة من الارض قد سلمت الى السادة المحليين مقابل جمع الضرائب وتسليمها نقدا . وحدث فى البوسنة أن سيل فرسان السباهى والانكشارية والموظفين المتدفق من بلاد المجر وسلافونيا وكرواتيا ودالماشيا فى ١٦٨٣ ــ ١٦٩٧ زاد الضغط على تحويل أراضى التيمار الى مزارع خاصة (ويطلق عليها ذلك المصطلح العام « تشفتليك أو جفالق » Ciftlik)[٧] ، حيث كان معظم هؤلاء الناس يبحثون عن الأمن الذى سوف يظللهم به ملاك الأراضى فقد كان من الممكن اعتصار ايرادات أكبر من الجفالق ، حيث لم يكن الأهالى ينعمون بحقوق قانونية كبيرة .

وكانت بعض هذه المزارع التى تحولت بهذه الطريقة تعرف فى البوسنة بالأغالوكات كما يعرف أصحابها باسم الأغاوات : وكان الفلاحون هنا يحتفظون ببعض حقوق الاستخدام ، ولكن أعباء الضرائب والعشور والسخرة زادت فداحتها . أما المزارع التى كانت تؤسس على ملكية أراض

غير محددة ، فكانت تعرف باسم البجليكات (Begliks) كما يسمى اصحابها باسم البكوات وهى الكلمة العامة الدالة على السادة والأعيان (١) ٠ وكان الكثير من هذه ملكيات مترامية يديرها نظار زراعة ، وكانوا يبتزون أكبر مبلغ يستطيعونه من الفلاحين المستخدمين فى تلك المزارع : وكان فى مقدورهم أن يرتبوا تعاقداتهم مع الفلاحين كيفما شاءوا حيث لم ينظمها القانون العادى ٠ وقد تغير معنى مصطلحى « الأغا » (الذى كان يشير فى الأصل الى ضباط الانكشارية) و « بك » ، فأصبحا يستخدمان للاشارة الى أفراد من طبقة النبلاء الدنيا والعليا مالكة الأرض ، وفى نفس الحين أصبح الفلاحون المسلمون ، الذين كان يبيح لهم القانون على الدوام امتلاك قطع صغيرة خاصة بهم ، يتحولون بازدياد نحو ذلك النوع من الزراعة ، حينما أخذت أحوال العمل فى المزارع الكبرى فى الانهيار ٠ وبهذه الطريقة حدثت عملية طويلة من الاستقطاب الاجتماعى والدينى : من القرن الخامس عشر ، يوم كان مالكو المزارع من المسيحيين أو المسلمين ، وكذلك فلاحوهم الذين يعملون فى مزارعهم حتى القرن التاسع عشر عندما كان جميع كبار ملاك الأراضى من المسلمين والغالبية العظمى للفلاحين غير المالكين للأراضى من المسيحيين (٢) ٠ وكان هؤلاء الفلاحون لا يزالون يسمون بـ « الأقنان » ، ولكن لو شئنا الدقة فى التعبير فان أولئك الذين كانوا لا يزالون يعملون فى أبعديات البكوات ، لم يكن لهم الوضع القانونى للأقنان ٠ اذ أنهم كانوا مجرد فلاحين مغلوبين على أمرهم فى نظام لا يمنحهم الا أقل القليل جدا من القدرة على المساومة ٠

وأخذت الأحوال المعيشية للأقنان تتردى يوما بعد يوم ٠ الأمر الذى دفع عددا متزايدا على الدوام منهم الى هجر الأرض بحثا عن العمل فى المدن الكبيرة (٣) ٠ وفى القرن السادس عشر كان من المألوف تماما لفلاحى البلقان العثمانية الاحتفاظ بفائض المحصول بعد الضرائب ، وكانوا عندئذ يستطيعون أخذه الى السوق لبيعه (٤) ٠ على أن هذا الحق سرعان ما أصبح مستحيلا فى الأبعديات الخاصة (الجفالق) ، حيث هبط الفلاحون الى درك لا يكاد يزيد كثيرا عن عيش الكفاف ٠ اذ حدث ذات يوم أن الكاتب الفرنسى فوركاد (Fourcade) اضطر وهو فى طريقه الى تسلم عمله كقنصل لفرنسا فى سالونيكا فى ١٨١٢ ، أن يقضى ليلة فى أحد بيوت أقنان الأرض فى كوجاراك (Codjarac) : وكانت مساحته عشرين قدما فى اثنى عشر ، ويقوم فى وسطه موقد نار ، ولكن لم تكن له مدخنة ولا نوافذ (وانما مجرد فتحات فى الحوائط وثقب فى السقف) ، وكانت الأرضية من الطين ، كما كان الأثاث الوحيد هو الصناديق ، وكانوا ينامون وأقدامهم فى مواجهة

النار ملتفين بجلود الأغنـام على أكوام من القش وكانت الحشرات تنهش أجسامهم (٥) ٠

بلا شك أن هذا التقرير يقدم صورة قميئة للحياة في المناطق الريفية من البوسنة ٠ ومع ذلك فان من أهم اكتشافات المؤرخين الجدد للبلقان أن عدد السكان كان يزداد بقوة أثناء القرن الثامن عشر ـ وبخاصة فى البوسنة ٠ على أنه كان هناك على وجـه الاجمال انخفاض عام في العدد أثناء القرن السابع عشر لأسباب غير واضحة تماما : ولعل من الأسباب الممكنة انتشار مرض التيفوس (٦) ٠ والواقع أن عدد المسلمين النازحين الى الداخل كان يعادل فيض الكاثوليك النـازح الى الخارج أثناء القرن السابع عشر بأكمله ٠ وتقدر المصادر الكاثوليكية عدد الذين غادروا البلاد بأكثر من خمسين ألفا أثناء حرب ١٦٨٣ ـ ١٦٩٩ ، كمـا أن مجموع النازحين الى الخارج على وجـه الاجمال أثنـاء الحرب مع البندقيـة فى ١٦٤٥ ـ ١٦٦٩ ، بلغ على الأرجح عشرات الآلاف أيضا (٧) ٠ ومع ذلك فان السكان المسلمين هم الذين حملوا معظم عبء النشاط العسكرى ـ ولم يكن ذلك فقط دفاعا عن البوسنة بل كان أيضا مشاركة في حروب العثمانيين التى لا تكاد تنقطع فى أركان أخرى من امبراطوريتهم ٠ ولا أدل على أهمية القوات البوسنية فى الجيش العثمانى من قائمة تحوى أسماء ١٥٥٣ من الفرسان (السباهى) البوسنيين الذين خدموا فى الحملة على الروسيا فى ١٧١١ : حيث كان كل واحـد من هؤلاء الفرسـان مكلفا بأن يحضر معه مجموعة من رجاله المقاتلين (٨) ٠ ولا شك فى أن آلافا عدة من البوسنيين المسلمين هلكوا فى هذه الحملات القاصية الشقة ، فمن بين خمسة آلاف ومئتى رجل أرسلوا للقتال فى بلاد فارس فى الحرب من ١٧٢٣ ـ ١٧٢٧ مثلا لم يعد الى أرض وطنهم الا خمسمئة رجل (٩) ٠ وهناك أسباب أخرى للوفيات ، تتضمن الطاعون الذى استمر كما رأينا يعيث فسادا فى البوسنة فى بواكير القرن الثامن عشر ٠ وليس من الصعب أن نفهم السر فى بطء نمو عدد السكان المسلمين بعد عمليـة النزوح التى جرت فى تسعينيات الألف وستمئة ٠

وأما أشد زيادة فكانت فى عدد السكان المسيحيين ، حيث تشـير مجموعة من سجلات الضرائب فى المحفوظات العثمانية الى أن عدد السكان نما بأكثر من ٢٠٠ فى المئة أثناء القرن الثامن عشر ٠ غير أن هذا الرقم ينبغى أن يعامل بحذر شديد ٠ على أن اتجاه خط السير نحو النمو واضح ٠ فاذا ضربنا عدد الذكور البالغين فى ثلاثة فان المجاميع الكلية لأقرب ألف لعدد السكان المسيحيين وفق العوائد الضريبية يبلغ ١١٨٠٠٠ فى ١٧١٨ ،

و ۱۹۰۰۰۰ فى ۱۷٤۰ ، و ۲۹٥۰۰۰ فى ۱۷۸۸ ، و ۳٦۲۰۰۰ فى ۱۸۱٥ . (ومع ذلك فهذه أرقام لا يمكن اجراء مقارنة صحيحة بينها فالمناطق الادارية التى تغطيها مختلفة) (۱۰) . والأرقام المقدرة على أساس آخر مخالف عن البوسنة والهرسك بكامل ارجائهما تشير الى أن عدد السكان المسيحيين زاد من ۱٤۳ ألف نسمة فى ۱۷۳۲ الى ٤۰۰ ألف فى ۱۸۱۷ (۱۱) . وليس بين أيدينا سجل يدل على قيام هجرة عظيمة قام بها الفلاحون المسيحيون الى البوسنة ، وان نزح اليها بين الحين والآخر قوم من الصرب أو مقدونيا واستقروا فيها (۱۲) . وعلى الرغم من الاضطرابات المتكررة فى أرض الهرسك أثناء القرن الثامن عشر ، فان الايالة البوسنية كانت على وجه الاجمال أحسن ادارة وحكما من المناطق المجاورة مثل صربيا وأقل تعرضا لهجمات العصابات المغيرة ، ومن المحتمل أنها كانت تجذب تيارا مستمرا من سكان الأراضى الصربية طوال القرن كله . غير أن السبب الأكبر فى زيادة السكان لابد أنه كان النمو الطبيعى . وهذا يشير الى قيام اقتصاد فعال فحتى وان عاش معظم المسيحيين بالأقاليم الريفية فى فقر ، فانهم لم يكونوا يعيشون معيشة الكفاف .

ومن ناحية أخرى فان قلة صغيرة من السكان المسيحيين تمتعت بعيش رغيد فى المدن الكبيرة بالبوسنة ، حيث نمت طبقة من التجار المسيحيين (واليهود أيضا) . وكان الكاثوليك ، بما لهم من علاقات راجوزية قديمة ، يسيطرون على التجارة البوسنية حتى نهاية القرن السابع عشر ، ولكن بعد ذلك أصبح الصربيون والأفلاق ، واليونانيون والأرمنيون يلعبون دورا أعظم . وكان بعض الصناع المهرة أيضا من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الصربية ، وبخاصة صياغ الذهب (۱۳) . وكان المسلمون من سكان المدينة يمتهنون الحرف اليدوية ، ولكنهم ما عتموا منذ منتصف القرن الثامن عشر أن شرعوا هم أيضا يشتغلون بالتجارة (۱٤) . وكانت سراييفو المزدهرة فى القرن السابع عشر احدى عجائب البلقان ، كما أنها كانت أهم المدن الداخلية على الاطلاق فى غربى سالونيكا ولا تدانيها من قريب أية مدينة أخرى . فقد لاحظ زائر فى ۱٦۲۸ أن مخزون بعض التجار كان يساوى مئتى ألف أو ثلاثمئة ألف دوقية (۱٥) . وهناك وصف لا يبرح ينمو لسراييفو تحتويه يوميات الرحالة التركى الذى لا يكل ايفليا تشيليبى (Evlija Celebi)، الذى زار المدينة فى ۱٦٦۰ ، فقد لاحظ أنها : كانت تحتوى على سبعة عشر ألف منزل (ويعنى ذلك أنها كانت تضم عدد سكان يزيد على ثمانين ألفا) ، وبها مئة وأربعة من المساجد ، وسوق تحتوى على ألف وثمانين دكانا تبيع سلعا واردة من الهند وبلاد العرب وفارس وبولندة وبوهيميا . وقد انبهر أيضا بالسكان أنفسهم : « لما كان

المناخ هنا جميلا ، فان وجوه الناس وردية · وهناك مراع جبلية تقوم على جميع جهات المدينة الاربع ، ومياه جارية كثيرة · من أجل ذلك فان السكان اقوياء وأصحاء · بل ان هناك آكثر من ألف معمر يزيد عمره على سبعين عاما » (١٦) · وهناك رحالة فرنسي مر بها قبل ذلك بسنتين كان متحمسا بنفس الدرجة ، وقد لاحظ أن : « هناك شوارع جميلة جدا وقناطر بديعة مصنوعة من الحجر والخشب ، ومئة وتسع وستون نافورة جميلة ، والمدينة مليئة بالحدائق : ومعظم البيوت لها حدائقها الخصوصية ، وكلها مملوءة بأشجار الفاكهة وبوجه خاص أشجار التفاح » · وأعجب اعجابا شديدا بالسوق « بما حوت من عدد لا حد له من الناس وجميع أنواع السلع » ، كما أخذ أيضا بتلك السوق الأسبوعية الكبيرة للخيل ، وهي سمة تختص بها البوسنة (١٧) ·

واحتاجت سرايفو الى وقت طويل لتستعيد عافيتها بعد تخريبها ونهبها في ١٦٩٧ ، كما أنها تعرضت للحريق أيضا في ١٧٢٤ و ١٧٨٨ (١٨) · وكان المعتقد أن تعداد سكانها في ١٨٠٧ بلغ ستين ألفا : وهو أقل من الرقم الذى اقترحه تشيليبي في ١٦٦٠ ولكنه مع ذلك تعداد كبير لو قارناه بتعداد بلجراد في ١٨٣٠ وهو ١٢٩٦٠ نسمة أو زغرب في ١٨٥١ وهو ١٤٠٠٠ نسمة (١٩) · وشهدت بلاد البلقان نهضة قوية في تجارتها بعد معاهدة باساروفيتش ، وهي التي فتحت طريق التجارة مع الامبراطورية النمساوية وعادت بالفعل بمزية تجارية على العثمانيين (٢٠) · فسرعان ما جاء تجار من سرايفو وأخذوا يعملون في الأسواق التجارية العظيمة في لايبزيج وفيينا ، وكانت أهم صادرات البوسنة وأعظمها شأنا هي المنتجات الزراعية (الجلود غير المدبوغة والفراء والفواكه ، وبخاصة البرقوق المجفف : القراصيا) ، كما أن أهم الواردات كانت المنسوجات (٢١) · أما مناجم البوسنة الثرية فقد أصبحت آنئذ مهملة (فيما عدا بعض عمليات استخراج الحديد الخام قرب فارش Varesh) ، كما أن البلاد لم يكن بها نشاط صناعي كبير عدا ما يقوم به أرباب الحرف بالمدن ممن يشتغلون في دبغ الجلود وسبك المعادن وما الى ذلك (٢٢) · ولقد فاتهم في الامبراطورية العثمانية اقامة مشروعات انتاجية ضخمة ، وكان اخفاقهم ذاك موضع تعليق معقب حكيم من القرن الثامن عشر ، هو مرادجيا دوهسون (Mouradgea d'Ohsson) الذى اعتنق الاسلام حيث أنحى بلائمته على انعدام الضمانات القانونية : « ان أحدا لا يجرؤ أن يجعل ثروته عرضة للأعين مخافة استلفات نظر الحكومة » (٢٣) ·

وكان الفساد الذى شاع فى النظام العثمانى المتأخر موضع الملاحظة من كثير من الناس : « كان هم سياسة كل وزير تركى هى مصلحته فى المقام الأول » ، ذلك ما كتبه الدبلوماسى الانجليزى سير جيمس بورتر فى ١٧٦٨ (٢٤) · على أنه لاحظ أيضا أن ذلك كان ثمرة الخطأ فى النظام الادارى السياسى وليس مسألة انحلال خلقى عام · وحتى فى هذه الفترة من الركود الآسن ، فان أولئك الذين وصفوا الحياة فى أوربا العثمانية كما شاهدوها بعيونهم — على عكس هؤلاء الذين كانوا يشنعون عليها عن بعد — أعجبوا ببعض سماتها الخلقية والاجتماعية · وروى لنا بورتر بعض تعليقات أفندى (سيد مهذب) عثمانى « كان فى الأصل من أبناء البوسنة كما أنه عاش طويلا بأرض وطنه » وقد أخبره أنهم « لا يكادون يعرفون فى أية قرية تركية (مسلمة) أى مكر وتحايل أو غش أو خداع أو لصوصية فيما بينهم » · وعلاوة على ذلك لاحظ بورتر قلة السرقات فى اسطنبول : « يمكنك أن تعيش هناك فى أمن تام وتظل أبوابك مفتوحة على الدوام تقريبا » (٢٥) · وربما ظن البعض أن السبب فى هذا السلوك الذى لاتثريب عليه ، هو أن الناس كانوا يعيشون فى حالة خوف من تطبيق الحدود الصارمة للشريعة الاسلامية ، بيد أن هناك بينات كثيرة تشهد بأنه وان كان مستوى التقوى العام قد ظل عاليا فى نفسية السكان المسلمين ، فان قوانين الشريعة لم تكن منفذة بصرامة وهناك دراسة تاريخية لمواقف الناس من شرب الخمر فى البوسنة ، أظهرت أن وجهات النظر أصبحت أقل تشددا أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر : فلم يعد الناس عرضة للابلاغ عنهم من جيرانهم لتناولهم الشراب كما كانوا فى القرن السادس عشر ·

وقد راح محدث بورتر ومبلغه يلقى تبعة الفساد الأخلاقى على الطائفة الأرثوذكسية · على أنه ليست هناك أية بينة حقيقية (عدا تلك التعليقات العارضة) ، يمكن أن تساند فكرة أن السكان الأرثوذكس كانوا أكثر فسادا من المجموعات الدينية الأخرى · على أنه كانت هناك عدة تقارير عن الفساد بين كهنوت الكنيسة الأرثوذكسية ، حيث هيمنت عليها عائلات « الفاناريوت » الناطقة باليونانية فى اسطنبول وقد ترددت فى بعض الممارسات السيئة · وبعد أن حصلت هذه العائلات على أعلى المناصب الكنسية بأموالها عادت فباعت بعد ذلك المناصب الدنيا لتعوض ما دفعت · وحصل مطران البوسنة على مقر رسمى بسراييفو فى ١٦٩٩ ، وما وافت نهاية القرن الثامن عشر حتى كان معه أربعة أساقفة تحت رياسته سراييفو وموستار وزفورنيك ونوفى بازار (وهى الآن داخلة فى نطاق صربيا الحديثة) (٢٧) · ولكن الوثائق لاتسجل الا النزر اليسير من

الأنشطة الرعوية الدينية أو الذهنية الفكرية لهؤلاء الأساقفة في البوسنة أثناء تلك المدة : ثم أعيد بناء « الكنيسة الأرثوذكسية القديمة » (من القرن السادس عشر) لسراييفو ، كما أصلحت في أوقات مختلفة ، كما شيدت مدرسة ابتدائية أرثوذكسية بالمدينة في ١٧٢٦ (٢٨) . وكان المستوى العام لنشاط رجال الدين الأرثوذكسي العاديين منخفضا جدا ، فانهم تلقوا تعليما سيئا جدا أو هزيلا ، كما كانوا يعتمدون بوجه رئيسي على المطابع في روسيا ورومانيا للحصول على حاجتهم القليلة من الكتب المقدسة والأناجيل وكتب الصلوات (٢٩) . وفي أثناء القرن الثامن عشر . وهي الفترة التي كان عدد السكان الأرثوذكس في أثنائها ينمو بسرعة عظيمة ، دمرت الحرائق أو الحرب بعض الأديرة الأرثوذكسية ، كما أن بعضها الآخر توقف استخدامه . فعند نهاية القرن كان هناك اثنا عشر ديرا في الهرسك ، ولكن عددها كان اثنين فحسب في البوسنة الحقة أحدهما في ديرفنتا (Derventa) والآخر في بانيالوكا (٣٠) . فأما الكنيسة الكاثوليكية التي ظل الفرنسيسكان ممثليها الوحيدين ، فلم يكن لها أي مجال في بيع الوظائف . وكان الرهبان قد مارسوا مدة طويلة عادة طلب الصدقات أو المكوس من رعاياهم ، وهي عادة كان يدافع عنها رجال الكنيسة الزائرون على أساس أنه ليس لهم مصدر آخر للرزق (٣١) . على أن هذه الممارسة كانت عرضة لسوء الاستغلال كما يستدل على ذلك من تقرير لاذع وارد من أولوفو في ١٦٩٥ ، وقد كتب حارس الدير بأن ديره اذ لم يتلق المال من روما فلابد له من أن يغلق أبوابه : اذ أنه لم يتلق أية صدقات من الأبروشيات منذ سبع سنوات ، لأن الشخص الذي كان مكلفا بجمعها ، وهو الأب ستانيتش (Stanic) قد اختلسها (٣٢) . بيد أن معاناة الكنيسة الكاثوليكية في البوسنة من الفاقة تتضح من تقارير كثيرة . فقد لاحظ الأسقف مارافيتش في ١٦٥٥ ، أنه « قل من الابروشيات ما له كنائس يمكن أن تقام فيها القداسات وأن تقام فيها العبادات المقدسة ، وفي العادة كان القداس يقام في الجبانات وفي البيوت الخاصة للكاثوليك » (٣٣) . ويضطر الفرنسيسكان لأداء العبادات المقدسة الى أن يركبوا خيولهم الى القرى النائية ويقضوا الليل ، فلا يعرفهم أحد من ثيابهم غير الدينية ولا يميزهم من الفلاحين ، ولذا كانوا يخاطبون بكلمة « العم (Ujak) » ، وهي عادة عاشت الى يومنا هذا . وقد صدم القنصل الرسمي الفرنسي شوميت دي فوسيه (Chaumette-des-Fosses) في ١٨٠٨ ، ما شهده من جهل الرهبان الفرنسيسكان وشيوع الخرافات بينهم ، فضلا عن تدخلهم في حياة الناس (٣٤) .

ومع ذلك ، فانه وبفضل صلتهم شـديدة الالتصاق بالعالم الفكرى للكنيسـة الكاثوليكية الأفسح رحـابا ، فان هؤلاء الرهبان البوسنيين قد ألفوا أعمالا منشورة كان أكثرها كتيبات دينية ، ولكن منها عملا أو اثنين تتجلى فيهما روح من الأصالة أحدهما قصيدة ترجع الى بواكير القـرن الثامن عشر ، تدد مؤلفها بشراسة بما تحتويه الأغانى الشعبية من بذاءة وقذر(٣٥)٠وكان أهم كاتب منهم هو فيليب لاستريتش (Filip Lasetric) (١٧٠٠ ـ ١٧٨٣) ، الذى أصبح رئيسا للفرنسيسكان البوسنيين ، ودافع عن حقوق اقليمهم « البوسنة الفضية » ، برسالة يفند فيها اقتراحا قدم فى روما بتخفيض مركزها ٠ وكانت الرسـالة التى سـطرها من أجل ذلك الغرض (Epitome vetustatum bosnensis provinciae) « خلاصة رسالة عن المركز القانونى لاقليم البوسنة » فى ١٧٦٥ ، أول كتاب مطبوع عن البوسنة كتبه بوسنى من أبناء البلاد (٣٦) ٠

ولم يكن الفرنسيسكان البوسنيون بحاجة فحسب الى الدفاع عن أنفسهم ازاء تهديدات روما وحدها ٠ اذ دامت طوال تلك الفترة المنافسات بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية ، حيث تقول رسـائل من البوسنة الى البابا فى ١٦٦١ ان البطريرك الأرثوذكسى يحـاول أن يجبر جميع الكاثوليك هناك على ممارسة شعائر الأرثوذكس ٠ وأنه قد حصل على مرسـوم من وزير البوسـنة يكفل له قمع الكاثوليك ٠ وكان على الكاثوليك البوسـنيين عندئذ أن ينفقوا مبلغـا طائـلا من المال فى التقاضى » (٣٧) ٠ لكن الفرنسيسكان احتفظوا بالعهدنامة (Ahdname) أى منحة الامتيازات التى حصلوا عليهـا من محمد الثانى ، والتى جددها (بفضل التدخـل الدبلوماسى من المبعوثين النمسـاويين والفرنسيين والراجوزيين بل حتى الانجليز فى اسطنبول) كل سلطان تولى الحكم طـوال تلك الفترة ، كما أن هنـاك فرمانات أخـرى ترجع الى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وكلها تضمن بالفعل اعفاءات للفرنسيسكان من ضرائب منوعة ، والحمـاية من كل محاولات الاستيلاء التى كانت تقوم بها الكنيسة الأرثوذكسية ٠

وعند بداية القرن التاسع عشر ، كان بعض المراقبين يلاحظون أن السياسة العثمانية فى البوسـنة ، كانت أكثر ايثـارا للكاثوليك منها للأرثوذكس (٣٨) ٠ ويحتمل أن يكون هذا انعكاسا للتطابق المتزايد بين الأرثوذكس وبين حركة المقاومة للحكم العثمانى بصربيا ، كما أن كاثوليك البوسنة كان يمكن الاعتماد عليهم والثقة فيهم بأنهم لن يتواطئوا مع القوة الجديدة المجاورة : وهى الامبراطورية النابوليونية ، وذلك لأن قساوستها كانوا يرون فيها عنصرا الحاديا بالغ الخطورة (٣٩) ٠ وكانت المنافسة بين

رجال الدين الأرثوذكس والكاثوليك في البوسنة موضع الملاحظة والتعليق من جانب كثير من الزوار لتلك المنطقة : فان شوميت دى فوسيه الذى قضى سبعة أشهر بالبوسنة ، لاحظ أن العداوة بين هاتين الطائفتين الدينيتين كان « يضرمها على الدوام رجال اكليروس الكنيستين كلتيهما ، الذين كانوا يتبادلون التشنيعات » (٤٠) ولولا تحريضات هاتين الفئتين المتنافستين ذوى المصالح الخاصة ، لما وجد الفلاحون الكاثوليك والأرثوذكس تلك الأسباب الكثيرة لاشعال نار العداوة بينهما ، ذلك بأنهم قوم يتكلمون اللغة نفسها ، ويرتدون الملابس عينها ، ويذهبون أحيانا الى نفس الكنائس، ويتقاسمون معا بالضبط عين الأحوال المعيشية في الحياة ٠

ولو اكتفينا بالروايات المعتمدة عن البلقان العثمانية لسهل علينا الخروج بانطباعة بسيطة ، وهي أن هذه القرون الطويلة التى انصرمت ، انما كانت أقفرت من النشـــاط الثقافي فيما خلا بعض الأشكال البدائية الساذجة ٠ تلك هي الصورة التى تترسم لنا من كثير من الأعمال التاريخية للمؤرخين اليوغوسـلاف ، وقدمها الينا بصورة كاريكاتورية أو تكاد الروائى ايفو أندريتش (Ivo Andrie) فى رسالته عن الثقافة العثمانية البوسنية ، التى تطفح بالمرارة حيث قال : « كان أثر الحكم التركى سلبيا بصورة مطلقة ٠ ان الترك عجزوا عن جلب أى مضمون ثقافى او احساس برسالة سامية ، حتى لأولئك السلاف الجنوبيين الذين قبلوا الاســلام واتخذوه دينا » (٤١) ٠ وعندى أن هذه الملحوظات انما هى تعبير عن التحيز الأعمى ـ وهى عماية متعمدة تجاهلت المنشآت الأثرية الضخمة للعمارة العثمانية فى البوسنة ، كما أنها أغفلت بسبب مفهوم المجال الواسع للأعمال الأدبية التى كتبها المسلمون البوسنيون فى ظل الحكم العثمانى ، فالكثير منها كان مجهولا تماما فى المدة التى كتب فيها أندريتش مؤلفاته فى ١٩٢٤ ٠ ولا يزال من العسير علينا تماما اصدار أى حكم صائب على هذه الكتابات البوسنية التى لا تعرفها الا حفنة قليلة من العلماء المتخصصين فى العالم : فان الذى ترجم منها قلة لاتذكر ، كما أن الكثير منها لا يزال موجودا ولكن فى صورته المخطوطة الأولى (لو فرضنا ، بعد ذلك التدمير الهائل والمتعمد للتراث الثقافى البوسنى الاسلامى فى ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ ، أنها لاتزال موجودة) ٠ وقبل قذف سراييفو بالمدافع فى ١٩٩٢ كانت هناك سبعة آلاف وخمسئة مخطوطة بدار غازى خسرو بك ، وخمسة آلاف فى معهد الدراسات الشرقية ، وألف وسبعمئة واثنتان وستون نسخة فى دار المحفوظات التاريخيـــة ، وأربعمئة وثمـان وسـبعون فى دار الكتب القوميـة (٤٢) ٠ ومن هذه الأرقام وحـدها يستطيع المرء أن يستنتج أن البوسنة العثمانية لم تكن صحراء ثقافية ، كما أن هناك عددا ضخما من

الأعمال التى سطرها الكتاب البوسنيون باللغات التركية والعربية والفارسية ، لاتزال موجودة فى مجموعات جيدة بكل من اسطنبول وفيينا والقاهرة وغيرها من البلاد ·

وهناك نوع من الكتابة حاز التفاتا خاصا هو ذلك المسمى بالأدب « الألياميادو » (Aljamiado) ، وهى أعمال كتبت باللغة الصربوكرواتية ولكن بالحروف العربية · (وهذا الاسم هو لفظ اقتبسه العلماء المعاصرون من مواد غير عربية مماثلة كتبت بالحروف العربية فى أسبانيا الاسلامية) · وفى أثناء القرنين الأولين من الحكم التركى ، ظل الخط « البوسانتشيكى » (Bosancica) وهو البديل البوسنى للسيريليكى (Cyrillic) مستخدما عند بكوات البوسنة ، أما الخط الرومانى فقد شاع استعماله بين الرهبان الكاثوليك ، كما أن الأعمال المطبوعة بالسيريليكية كان يتلوها أيضا رجال الدين الأرثوذكس ابان القرنين السابع عشر والثامن عشر · ولكن التحول للكتابة بالخط العربى كان من الطبيعى أن يتم بين المسلمين : فانه الخط الذى كانت تكتب به العربية والتركية والفارسية جميعا ، كما كانت تعلم بجميع المكاتب (الكتاتيب) الاسلامية أى المدارس الأولية فى كل أرجاء البلاد (٤٣) · ويتكون الأدب الألياميادو فى معظم شأنه من شعر مختلف الأنواع مكتوب وفق الأوزان الشعرية العربية الكلاسيكية : منها الشعر الدينى والقصائد ذات الموضوعات الأخلاقية والاجتماعية ، وكذلك أيضا بعض القصائد الغزلية التشبيبية ، فأما الشعراء فكان منهم شيوخ الدراويش والجند والنساء (٤٤) · وهناك كاتب من كتاب الألياميادو هو محمد خفاجى أسقفى (الذى توفى فى ١٦٥١) (Mehmed Havaji Uskufi) ، كتب أيضا بالشعر المنظوم قاموسا صربوكرواتيا تركيا ، وهو ثانى أقدم معجم فى أية لغة سلافية جنوبية · وبالاضافة الى انتاج هذه الكتابات ، لعب المسلمون دورا كبيرا فى خلق ونقل التراث الثرى للشعر الشعبى فى البوسنة ونقله الينا : ومنها قطع البالاد وشعار الرثاء (مثل قصيدة زوجة حسن آغا الشهيرة التى سلف ذكرها) ، ثم القصائد الملحمية ، وذلك النوع الخاص من أغانى الغزل الذى تشيع شعبيته عند كل من المسلمين والمسيحيين والمعروف باسم « سفدالينكه » (Sevdalinke) (٤٥) ·

وليس من المدهش واللغة الصربوكرواتية تقوم بعمل اللغة الثالثة فى الامبراطورية العثمانية أن يكتب بها بعض الأدب العثمانى · فان كاتبا بوسنيا من القرن الثامن عشر هو مدون الحوليات التاريخية ملة

مصطفى شوقى باشيسكيا Mula Mustafa Sevki Baseskija (الذى أضاف مجموعة من الأغانى الصربوكرواتية الى مدوناته التاريخية) ، صرح بأنها لغة أشد ثراء بكثير من العربية لأنها تحتوى على خمســـة وأربعين لفظا لكلمة « يذهب » (٤٦) · فقد أضفى المؤرخون العصريون أهمية ودلالة كبيرة على اطلاق الكتاب فى تلك المدة على لغتهم اسم « البوسنية » ، وان كان كل ما عنوه من ذلك ببساطة هو اللغة التى يتكلم بها الناس بالبوسنة ، ولم يكونوا يقصدون أبدا أن يشيروا الى أنها كانت منفصلة تماما عن اللغة المنطوقة فى أى مكان آخر · وبالطبع فانه كانت هناك اختلافات فى اللهجات الصربوكرواتية بين المناطق المختلفة ، وهكذا نرى أن أحد الفرنسيسكان فى القرن الثامن عشر يقول ان اللغة البوسنية مختلفـــة عن الكرواتيــة الدالماشية والراجوزية (٤٧) · على أنه بين جميع ضروب الصربوكرواتية المتنوعة ، ظلت البوسنية طويلا تعد أحسنها جميعا · ففى ١٦٠١ كتب ماورو أوربينى يقول : « لو نظرنا الى جميع الشعوب الناطقة بالسلافية ، لوجدنا أن البوسنيين لديهم أكثر اللغات نعومة ورشاقة ، وأنهم يشعرون بالفخر من أنهم هم وحدهم الدين يحتفظون فى أيامنــا هذه بنقاء اللسان السلافى » (٤٨) · وكان فوك كارادجيتش (Vuk Karadzic) ، الكاتب وجامع الأغــانى الشعبية والمصـــلح اللغــوى الصربى الكبير فى القــرن التاسع عشر ، يعد لهجة وســط الهرسك ممثلة للغة الشعبية فى أحسن أشكالها وأنقاها (٤٩) ·

ومع هذا ، فان معظم الأعمال الأدبية لمسلمى البوسنة كتبت بالتركية أو العربية أو الفارسية · وأسباب ذلك واضحة تماما : فان بعضهم كان يكتب فى أشكال تكون فيها اللغــة جزءا لا سبيل الى فصله من الضرب الأدبى ، مثل ذلك الشعر الفارسى التقليــدى المتقن الديباجــة والرائــع الأسلوب ، وبعضهم كان يعالج موضوعات مثل الفلسفة التى كان لها فى العربية قاموس فنى كامل وقائم بين الأيدى ولكنه يعوز الصربوكرواتية ، وبطبيعة الحال كان الكثير منهم يكتبون لقراء يعيشون خـــارج الأراضى السلافية · فأما الكتابات النثرية فتغلب عليها الأعمال الدائرة حول علم الكلام والفلسفة والتاريخ والقانون ، ولكن المجال ، كان كما هو واضح ، شديد الاتساع ، ولا يستطاع الا ذكر قلة منهم فقط · وكان من الكتاب الكبـــار أحمــــد ســـعدى البوســـناوى Ahmed Sudi al Bosnawi (توفى ١٥٩٨) ، وقد كتب تعليقات على شـــعراء الفرس الكلاســيكيين ،

٧٧

وحسن أفندى بروشتشاك Hasan efendi Pruscak (توفى ١٦١٦) ، وقد كتب رسالة شهيرة حول الحكم والحكومة أسماها « مرآة الأمراء » ، وكتبا فى المنطق وعلم البيان والقانون ، كما أنه جمع سجلا بأســـماء

المؤلفين البوسنيين المتبحرين في العلم ، وعبدي البوسناوي Abdial Bosnawi (توفي ١٦٤٤) ، وهو الذي ألف رسائل صوفية ممتازة بالأسلوب الصوفي التقليدي ، ومنهم ابراهيم على بيجوفيتش Ibrahim Alajbegović ، المعروف باسم بيتشيفي Pečevi ، (توفي ١٦٥٢) ،

وهو الذي صنف بالتركية تاريخا للفترة بين ١٥٢٠ و ١٦٤٠ ، واستقى معلوماته من المصادر الأوربية المطبوعة . وأحمد الموستاري رشدي Ahmed al-Mostari Rushdi (توفي ١٦٩٩) ، وهو واحد من شعراء عديدين من موستار الذين كانوا يكتبون الشعر التركي على أساس النماذج الفارسية ، ومصطفى الموستاري اجوبوفيتش Mustafa al-Mostari Ejubović ، المعروف باسم الشيخ يويو Shejh Jujo (توفي ١٧٠٧) ، وقد كتب ما يقارب الثلاثين رسالة في المنطق والنحو والشريعة الاسلامية ، ومصطفى الآكوعيساري Mustafe al Aquhisari (توفي ١٧٥٥) ، الذي كتب عدة أعمال أخلاقية ودينية ، كما كتب رسالة اطراء في البن (القهوة) ، ومصطفى شوقي باشيسكيا وهو الذي سبق ذكر مدونته الاخبارية حول سراييفو القرن الثامن عشر بلغة تركية دارجة .

وبعض هؤلاء الكتاب كانوا يعملون أيضا بالتعليم او الادارة خارج البوسنة . بيد أنه كان هناك عدد كبير من رجال العلم ، يعملون في حكومة البوسنة نفسها . فان الشيخ يويو كان هو مفتي موستار ، كما أن أحد ولاة البوسنة ، وهو درويش باشا البوسناوي (توفي ١٦٠٣) كان شاعرا مطبوعا ، قام بترجمة الشعر الفارسي الى التركية (٥٠) . ولا شك في أن البوسنة كان لها أيضا نصيبها الوافر من رجال الادارة او الولاة الجهلة والأجلاف والغلاظ الأكباد أيضا . وهنا يتبين أن القول بأن البوسنة كانت صحراء ثقافية أثناء الحكم العثماني ، انما هو قول سخف وهراء . وذلك فضلا عن الفن الزخرفي كفن الخط والرسم الدقيق ، وهما فنان انتشرت ممارستهما بين مسلمي البوسنة طوال القرون العثمانية بأكملها (٥١) .

وكثير من الكتاب الوارد ذكرهم أعلاه كانوا أعضاء في جمعية الدراويش الصوفية التي لعبت دورا مهما في الحياة الاسلامية البوسنية . وللمرة الثانية نشعر أن من الصعب الكتابة حول مثل هذا الموضوع ، ليس فقط لأن المادة اللازمة لذلك لاتزال غير مطبوعة (كالمخطوطات المثتين والاثنتين والعشرين المأخوذة من احدى دور الدراويش وهي تكية سنان في سراييفو) ، بل وأيضا لأن الطرق الصوفية ظلت على الدوام تمارس عملها كنوع من النشاط « الاسلامي غير الرسمي » ، خارج الهيكل الرسمي للمدارس الاسلامية الدينية والجوامع ـ بحيث ان كتب التاريخ المعتمدة دأبت على التقليل من دورها . وما هذه الطرق الا جمعيات أو اخوانيات

يديرها معلمون روحانيون أو شيوخ يجتمعون فى العادة وبانتظام فى التكايا (الرواقات) التماسا للانضمام للزمالة ، ومن أجل الاحتفالات التى ربما انطوت على الحركات الشعائرية : وأشهرها المولوية (« الدوارة » حيث يدور الدرويش حول نفسه فى سعيه للوصول الى النشوة عن طريق الخروج من دائرة الوعى العادى الى الوعى الباطنى) وطراز من الشعر الدينى الذى ينبع تلقائيا من لحظات الوله يعرف باسم «الالهى» وتعاورت على جمعيات الدراويش فى أوقات مختلفة من تاريخها أحوال متقلبة ، فكانت ذات يوم من دعاة الهدوء وعدم التدخل فى السياسة ، أو تكون نشطة سياسيا ومتمردة النزعات ، كما حدث ذات مرة من حركة المريدين الشهيرة رهى الجماعة التى قاومت تقدم الروس فى شمال القوقاز المسلم ٠ وكان اتجاههم الدينى ينمو عادة الى التصوف الذى ينحو فى بعض الأحيان الى التفكر بعقل متفتح يقتات من الأفكار الفلسفية وشعر الغزل ، بل حتى من اللاهوت المسيحى ، حتى لقد عده المسلمون المتشددون الحادا هرطيقيا ٠ وكان هذا ينطبق بوجه خاص على مؤسسة البكتاشية التى كانت تعمل بين الانكشارية (٥٢) ٠

ولقد جاءت طرق الدراويش الى البوسنة فى زمن مبكر ، ولعلها لعبت هناك دورا جوهريا ، كما فعلت فى غيرها من الأماكن ببلاد البلقان ، فى تلك العمليتين المترابطتين هما التحول الى الاسلام ، وتطور المدن المسلمة وازدهارها (٥٣) ٠ وكانت أولى تكايا الدراويش بسراييفو ، وهى تكية ايشاكبيجوفا (Ishakbegova) ، التابعة لجماعة المولوية وقد بنيت قبل عام ١٤٦٣ ، وتكية اسكندر باشا (Skender Pasha) التابعة لجماعة النقشبندية وقد بنيت فى ١٥٠٠ ، كما أن هناك تكيتين أكثر أهمية (تكية سنان باشا والبيستريجينا Bistrigina) وقد أضيفتا فى أثناء القرن السابع عشر (٥٤) ٠ وهناك أيضا مجموعة من التكيات الأصغر حجما تم بناؤها وزالت من الوجود الآن : وقد أحصاها ايفليا تشيليبى فوجد مجموعها سبعا وأربعين تكية فى سراييفو فى منتصف القرن السابع عشر (٥٥) ٠ وكان فى الامكان تأسيس التكايا فى أجزاء بعيدة من الريف أيضا ، وقد ظلت واحدة منها تعمل فى سبعينيات الألف وتسعمئة بقرية جبلية منعزلة فوق فوينيكا Fojnica — وهى موطن ميلاد زعيم الدراويش الأشهر فى القرن الثامن عشر ، الشيخ حسين (٥٦) ٠ ولم تكن مجرد مراكز للتآخى والتقوى ، بل انها كانت أيضا جزءا من شبكة دولية هائلة ، وكان البعض من أكبر جماعة وهى النقشبندية يسافرون الى أماكن بعيدة الشقة قد تحملهم الى وسط آسيا ، التماسا للقاء الشيوخ المشهورين ٠ والطائفة الوحيدة التى لم تحظ قط بالشعبية فى البوسنة ،

وهو أمر عجيب ، هي جماعة البكتاشية الخاصة بالانكشارية : نعم انها كانت لها بالفعل التكايا هناك ولكنها كانت تعتمد بوجه رئيسي على الزائرين من الألبان والأتراك . ويبدو أن هالة الزندقة التي كانت تكتنف الطريقة البكتاشية لم تكن تلقى قبولا في البوسنة (٥٧) .

والاسلام في البوسنة العثمانية كان في غالب أمره سنيا سلفيا . وكانت الحركة المارقة الجدية الوحيدة هي حركة « الحمزاوية » ، وهم أتباع لشيخ يدعى حمزة بالي بوشنياق (Hamza Bali Boshniak) وقد أعدم بتهمة الزندقة في ١٥٧٣ . ونحن لانكاد نعرف عن تعاليمه الا النزر اليسير ، وواضح أنها كانت تتجاوز كثيرا ما فعله البكتاشيه حين أدخلوا على عقيدتهم عناصر من اللاهوت المسيحي . وتمكن بعض أعضاء الحركة الحمزاوية في البوسنة في أثناء ما أنزل عليهم بعد ذلك من عذاب واضطهاد ، من أخذ ثأرهم باغتيالهم الصدر الأعظم محمد باشا سوكولوفيتش . ويبدو أن أولئك الحمزاويين واصلوا العيش كنوع من الحركات المعارضة الخفية طوال القرن السابع عشر (٥٨) .

كان معظم المراقبين يعدون مسلمي البوسنة سنيين أتقياء صالحين وقد كتب ايفليا تشيليبي بحرارة عن مسلمي سراييفو ، قال : « انهم جميعا قوم يخافون الله ، لهم عقيدة نقية مستقيمة لا تشوبها شائبة ، ونفوسهم خالية من الحسد والبغضاء ، كما أنهم جميعا صغيرهم وكبيرهم وغنيهم وفقيرهم ملتزمون بشدة بتأدية الصلاة » (٥٩) . على أنهم وان كانوا قوما « يخافون الله » فانهم كانوا بوجه ملحوظ تماما ، أقل تدقيقا من بعض المجتمعات الاسلامية الأخرى ، في تمسكهم بكثير من الأعراف الاسلامية ، فان بهم ضعفا نحو احتساء شراب الراكي ، وكان استخدام الحجاب لا يراعى في بعض المناطق (وبخاصة في ريف منطقة الهرسك) ، كما أن ممارسة البوسنيين للغزل وحتى العلاقات الغرامية كانت موضع التعليقات الكثيرة من المراقبين الأجانب (٦٠) . وقدم مسلمون آخرون أوصافا للسمات الأخلاقية للبوسنيين ، وكلها تتفق تماما مع بينة تشيليبي . وهناك كاتب سوري كان يضع قاموسا فارسيا تركيا ابان أخريات القرن السابع عشر ، فقد كتب في بيانه في مادة البوسنيين : « يعرف البوسنيون برقة الأخلاق والكرامة واللوذعية والفهم الدقيق والتعقل الذهني الممتاز والولاء والجدارة بالثقة ، تلك هي صفاتهم المميزة » (٦١) . وبعد أن قضى الرحالة الفرنسي كيكليه (Quiclet) شهرين كاملين في سراييفو ، صرح قائلا : « لم أتلق من جميع مسلمي هذه المدينة سوى جميع

أنواع المعاملة الحسنة وكل أشكال الفضل والمجاملة ، حيث كان كل انسان يصادقني ويبدى لى المودة » (٦٢) ٠

ولا شك في أن مثل هذه الأوصاف جديرة بأن يحملها الانسان في عقله عندما يقرأ ما يكتب عن « تعصب » مسلمي البوسنة في القرن التاسع عشر٠ ومن اليسير جدا أن يفترض أى انسان أن ذلك التعصب كان خلة دائمة متوارثة في اسلام البوسنة ٠ ولا ريب أن اتجاها الى التعصب قد نما بالتأكيد ابان القرن التاسع عشر بين بعض البكوات ورجال الدين الاسلامي والطبقة الدنيا من المسلمين ، ولكن هناك أسبابا قوية للظن بأن وراء ذلك أسبابا سياسية واقتصادية من نوع خاص ٠ وقد كتب شوميت دى فوسيه ، بعد أن قضى سبعة أشهر في البوسنة في ١٨٠٨ ، تعليقا عميقا حول تشكك البكوات في المسيحية ، قال : « لو شئنا النصفة لمسلمي هذا الاقليم ، وجب علينا أن نقول ، كما يسلم بذلك الرعية (أى الفلاحون المسيحيون بصفة رئيسية) أنفسهم ، انهم كانوا شديدى اللين في تلك السنوات الأخيرة القليلة ٠ ولكن منذ بداية هذا القرن دفعهم مركزهم السياسي الى الامتلاء بالريبة والشكوك » ٠ وقال انه بعد استيلاء الفرنسيين على منطقة دالماشيا والعصيانات المسلحة للصرب والجبل الأسود ، شعروا أنهم محوطون ومهددون ٠ ان هذا الموقف وقد أثار مخاوفهم ، جعلهم يشعرون بالتوجس من كل انسان ٠ وقد بث فيهم ذلك شعور الخوف من أن تتمرد رعيتهم ، ولكي يضمنوا خضوعهم اضطروا الى معاملتهم بشيء من الهمجية البربرية » (٦٣) ٠ ومعلوم أن الاستقطاب السياسي الاجتماعي الديني بين ملاك الأراضي والفلاحين ، كان قد قارب الاكتمال في تلك الفترة، ولا بد أنه قد لعب هو أيضا دوره ٠ وكان ما أثار مخاوف رجال الدين المسلمين هو قيام صربيا بوصفها دولة مسيحية مسلحة وشبه مستقلة ، وقد طردت جميع المسلمين الذين نجوا من المذابح طردا وحشيا عنيفا ٠ ومما زاد في حدة مشاعر التشكك والحسد في أنفس سكان المدن المسلمين العاديين ، تلك الزيادة المستمرة في أهمية طائفة التجار المسيحيين في سراييفو ، الذين نعموا في أوليات القرن التاسع عشر بحماية الموظفين القنصليين التابعين لفرنسا والنمسا وبروسيا ٠ ولذا فانه عندما وافت ١٨٢٢ كان في امكان زائر فرنسى آخر هو شارل برتوزييه Charles Pertusier أن يكتب أن « المسلم متطرف في ايمانه الى حد التعصب » (٦٤) ٠ ولا ريب في أن هذا الحكم العام كان ينطوى في ذلك الحين ولو على شيء من الصدق ٠ بيد أن الحال لم يكن كذلك على الدوام ٠

الفصل التاسع

يهــود وغجر البوسنة

لم نعرض حتى الآن ليهود وغجر البوسنة الا بأدنى قدر من الذكر ، رغم أن وجودهما في البوسنة منذ مرحلة مبكرة : وربما سبق وجود الغجر الغزو التركى ، واليهود الذين وفدوا خلال القرن الأول من الحكم التركى· وسيقدم هذا الفصل خلاصة موجزة لتاريخهم بأرض البوسنة منذ وطئت أرضها أقدامهم حتى بواكير القرن العشرين · وبدهى أن هذين الشعبين لا يكادان يشتركان فى شيء تقريبا ، فضلا عن أن كلا منهما احتفظ تماما بطبيعته وهويته ، وهو مشتت فى عدد لا يحصى من البلدان · ولكن فى الحالين كان الفارق فى المعاملة التى كانا يلقيانها فى الامبراطورية العثمانية وتلك التى كانوا يتعرضون لها فى أوربا الغربية والشمالية ، فرقا هائلا يسترعى الأنظار · وعلى أولئك الكتاب الذين يشيرون بصورة آلية الى عدم تسامح الحكم العثمانى ، أن ينظروا نظرة أعمق الى تاريخ هاتين الأقليتين · ولا جدال أن التحامل على اليهودى والغجـرى كان موجودا فى المجتمع البلقانى ، ولكن هذا التحامل المحلى لم يهلك هذه الآلاف المؤلفة منهم كما حـدث لهم فى القـــرن العشرين · فما كان يستطيع أن يفعـــل ذلك الا أيديولوجية تطورت فى الأجزاء « المسيحية » الأكثر تقدما فى أوربا ·

وكما هو الحال مع الاسلام ، يمكننا أن نتكهن بوجود صلات شديدة القدم بين اليهودية والأرض البوسنية · ونحن بفضـــل الحفائر الأثرية التاريخية ، نجزم بأن كثيرا من اليهود قد ســكنوا فى المناطق المجاورة ليوغوسلافيا الواقعة تحت الحكم الرومانى : تشهد بذلك أطـلال المعابد اليهودية الباقية لنا منذ القرنين الثالث والرابع ، والمقابر اليهـــودية فى دالماشيا ومقدونيا والجبل الأسود ، وعند مدينة أوسييك (Osijek) التى تبعد ثلاثين ميـــلا من الحد البوســنى الشـمالى الشرقى · وأشـد تلك الاكتشافات سحرا وأخذا بالأليـــاب ، جبانة للآفار من القـرن الثامن

اي التاسع تقع قرب نوفي ساد (شرقي أوسييك ، وعلى بعد مماثل من البوسنة) ، وهي تحتوي على عدد كبير من القبور عليها رموز يهودية ونقوش عبرية ، وهو أمر يشير الى أن هؤلاء الآفار قد استوعبوا بعض قبائل خزر القرم القديمة التي اعتنقت اليهودية أثناء القرن الثامن (١) •

وظلت مجموعة من السكان اليهود تعيش في مقدونيا طوال الحكم البيزنطي بأكمله ، وبسبب أهمية طريق التجارة البري الى سالونيكا ، اجتذبت أعضاء جددا من الطوائف اليهودية في بعض الأجزاء الأخرى من أوربا ، الذين انضموا الى أحفاد يهود سالونيكا الرومانية • وهناك يهودي مقدوني شهير هو ليون مونج (Leon Mung) الذي تحول الى المسيحية وأصبح كبير أساقفة أوريد (Ohrid) في ١١٢٠ ، لعله كان من الذين فروا من وجه الاضطهاد في ألمانيا • ولابد أن لاجئين آخرين قد فروا الى مقدونيا بعد طرد اليهود من المجر في القرن الرابع عشر ، وفي ذلك الوقت كانت هناك أيضا وبالمثل ، مجتمعات يهودية في راجوزا وسبليت وبلجراد (٢) • ولكن أكبر نزوح من نوعه هو الذي تم في نهاية القرن الخامس عشر ، حيث رحبت الامبراطورية العثمانية باليهود المطرودين من اسبانيا وأكرمت مثواهم وأحسنت معاملتهم • واستقر كثير من هؤلاء اليهود السفرديم في مدينة سالونيكا ، كما تحرك بعضهم شمالا الى مدينة سكوبيي (Skopje) التي سرعان ما حولوها الى مركز تجاري مهم •

ولم تكن البوسنة واقعة على طريق التجارة من الشمال الى الجنوب (الذي مر من خلال صربيا) ،ولكن طريقا مهما من الشرق الى الغرب امتد من راجوزا خلال فوتشا (جنوب سراييفو) حتى نوفي بازار واستمر حتى سكوبيي • ولابد أن التجار اليهود من سكوبيي وراجوزا كانت لهم تعاملات تجارية كثيرة مع الوسطاء البوسنيين • ولكن يبدو أن التطور الذي ألم بسراييفو بوصفها مدينة تجارية في حد ذاتها هو الذي جلب اليهود الى التربة البوسنية والاقامة بها واستيطانها • على أن تاريخ وصولهم الى هناك ليس معروفا ، لكن ثلاثة سجلات للمحاكم في ١٥٦٥ تشير الى أن هناك تجارا من اليهود ، كان من الواضح أنهم مستقرون تماما في سراييفو (٣) • والراجح أن العامل الحاسم في ذلك هو بناء « سوق المنسوجات » في بورصة وهو سوق أقامه غازي خسرو بك في ثلاثينيات الألف وخمسمئة : حيث كانت تجارة الحرير مع بورصة الى حد كبير في أيدي يهود الأناضول (٤) • ومن غير المعروف ما اذا كان اليهود جاءوا عبر هذا الطريق الطويل من بورصة ليستقروا في سراييفو ، فقد كانت الروابط الرئيسية لطائفتهم في سراييفو مع سكوبيي أو سالونيكا خلال القرنين

التاليين ، ويمكن افتراض أن كثيرا من المستوطنين اليهود كانوا من أبناء هاتين المدينتين • وقدر لتجارة المنسوجات التى هى على رأس الواردات الى البوسنة طوال الفترة العثمانية بأكملها . أن تظل فى أيدى اليهود حتى تم تدمير طائفتهم ابان الحرب العالمية الثانية (٥) •

وكان يهود سراييفو يعيشون أولا فى محلة أو حى المسلمين ، لكن سمح لهم فى ١٥٧٧ ، مكافأة لهم على العون الذى قدموه ضد الهابسبرجيين. بتأسيس حى خاص بهم (٦) • وكلمة « حى » تكاد تكون ترجمة مضللة لكلمة « محلة » ، فكما لوحظ فى الفصل الخامس أن هذه انما كانت أقساما أصغر للمدينة ، ربما لم تحو أكثر من أربعين بيتا • فأما لفظة « جيتو » (Ghetto) ، التى تستخدم للدلالة أحيانا على هذه المحلة اليهودية ، فانها أيضا تسمية غير صحيحة : فقد كانت حرية الحركة التامة مكفولة ، دون بوابات أو حظر تجول أو أى نوع من الاجراءات التمييزية • وهناك قصة وردت فى مخطوطة من القرن الثامن عشر تقول : ان المسلمين قد اشتكوا من الضجة التى كان يحدثها اليهود ومن الخطر من الحريق • ومغزى هذه القصة ، على فرض أن لها نصيبا من الصدق . هو أنها تدل على أن يهود سراييفو كانوا بالفعل يشتغلون بالصناعة ، ولعلهم كانوا فى الراجح يديرون مسبكا للمعادن (وهو شىء كان مشهورا بأنه واحد من أعمالهم فى السنوات التالية لذلك) • واذا كانوا يعاونون فى صنع الأسلحة والمهمات المعدنية التى كانت تحتاجها حملة عسكرية ، فربما كان ذلك تفسيرا لامتنان السلطات التركية لهم • ومع ذلك ، فان كاتبا يهوديا من القرن السابع عشر سجل أن نقل اليهود لحى خاص بهم تم بناء على طلبهم (٧) • ومهما يكن السبب ، فان اليهود الأكثر ثراء انتقلوا الى بيوت متجاورة فى منطقة قرب السوق المركزى ، وانتقل آخرون الى مبنى خاص هناك أقامه حاكم خير للبوسنة فى ١٥٨٠ ــ ١٥٨١ ، وعرف المبنى باسم « وقف سيافوش باشا » (Siavuš Pasina Daire) وكان المبنى يتكون من بيت كبير يحتوى على ٤٦ حجرة وحوش داخلى : وبه كانت تسكن العائلات الأفقر ، تسكن كل منها فى حجرة أو حجرتين صغيرتين• وكان اليهود يسمونه باسم « الحوش » (Il Cortijo) ، فأما المسلمون فكانوا يسمونه « الحوش الكبير » أو « بيت اليهود » • (وكانت مثل هذه البيوت المجمعة تبنى أيضا فى مناطق أخرى من البلقان : منها المبنى المقام فى بلجراد والمسمى بيت اليهود الأتراك Turkišcher Judenhof وكان يحتوى على ١٠٣ غرف و ٤٩ مطبخا و ٢٧ بدروما للتخزين) (٨) • وفى نفس الوقت شيد فى سراييفو أول معبد لليهود ، على امتداد الحوش (٩)

وآثار المجتمع اليهودى فى القـرن السابع عشر بسراييفو قليلة ٠ ونحن نعلم يقينا أنه كان له وجود مستمر ، ولكن ليس ممكنا أن يكون له بروز بالغ ، وذلك لأنه لا يكاد يرد ذكر عنه فى أية كتابات أخرى لليهود فى تلك الفترة ٠ وكان أول حاخـام عرف لهم وهو صمويل باروخ قد جاء من سالونيكا فى بواكير القرن السابع عشر ، والمأثور أن قبره هو أقدم قبر بجبانة اليهود بسراييفو (١٠) ٠ وعندما زار ايفليـا تشيليبى المدينة فى ١٦٦٠ لاحظ أنه أصبح لليهود فى المدينة محلتان (١١) ٠ وكان الوضع القانونى لليهود مماثلا لوضـع المسيحيين : اذ أنه حسب قانون الرعيـة لم يكن مباحا لهم بناء أماكن جديدة للعبادة بغير اذن خاص ٠ وكان هذا ، شأن معظم أنواع التدابير القانونية الأخرى، يتم الحصول عليه بدفع الأموال المناسبة ٠ واليهود شأن المسيحيين ، كانت تعوزهم المسـاواة القانونية بالمسلمين فى المحاكم العثمانية ، على أنه كان مباحا لهم استخدام محاكم خاصة بهم للحكم فى القضايا المدنية بداخل مجتمعهم اليهودى ٠ وكان اليهود أيضا يدفعون الخراج ، كما أنهم كانوا خاضـــعين لقواعد قانــون الرعية فى تحديد نوع الملابس ، بما فى ذلك الشروط الاضافية التى أمر بها السلطان مراد الرابع فى ١٥٧٤ ، حيث أصبح بموجبها محرما على اليهود أن يلبسوا العمائم والملابس الحريرية ولا أى لبـاس باللون الأخضر ٠ وما لبثت أن استقرت فيما بعد ممارسة السماح للحاخامات بارتداء العمائم شريطة أن تكون صفراء اللون (١٢) ٠ ولكن يمكن القول على وجه الجملة إن معاملة اليهود كانت تنطوى على قدر أقـل كثيرا مـن التمييز الدينى مما كان يطبق عليهم فى أية أرض مسيحية الى الشمال والغـرب ، أثناء أواخر العصور الوسطى وبواكير العصر الحديث ٠

وفى ١٦٦٥ أصابت يهود الامبراطورية العثمانية هزة شديدة تنبأ عجيب تداول أسماعهم . فان حاخاما شابا من سميرنا (Smyrna) ذا حضور شـــديد هـــو ســـاباتاى شـــيفى Sabbatai Sevi ، أعلن أنه المسيح المنتظر ٠ واخترق هذا الاعلان كل أرجـــاء أوربا شرقا وغربا ، وأخذت الكتابات الدينية الغيبية لأتباع ساباتاى ، وخاصة كتابات تلميذه وحواريه الأول والداعية الأكبر له وهو ناثان من غزة ، تقرأ بشغف شديد : اذ يذكر تقرير أن يهود فيينا تلقوا نسخا من أعمال ناثان التعبدية فى ١٦٦٦ من سراييفو (١٣) ٠ وقد قامت مبادىء ساباتاى وأتباعه (الساباتاينيين) على التقاليد المأثورة على القبالة ، وهى طريقة تقوم على اســتخلاص التنبؤات والحقائق اللاهوتية الخفية من كلمات وحروف النصـــوص العبرانيـــة المقدسة ٠ على أن أعظم لغز وفضيحة فى قصة الساباتاينيين بأكملهـــا انما حدثت فى ١٦٦٦ عندما وافق ساباتاى شيفى ، وقد اعتقل وأحضر بين

يدى السلطان ، على اعتناق الاســلام · وتبعه في ذلك كثير من أتباعه ، واحتفظ غيرهم ممن ظلوا على عقيدتهم اليهودية ، بتعاليمه وكونوا لاهوتا عجيبا متطرفا ، كان فيه هذا المروق العجيب عن اليهودية يعد عملا ضروريا وغيبيا (يكاد يمكن مقارنته بطبيعة موت المسيح فى اللاهوت المسيحى) · وكان من أبــرز الساباتاينيين فى الجيــل التالى نحميا خايون (Nenemia Hayyon) ، الذى ولد فى سراييفو فى ١٦٥٠ ، وكانت عائلتـــــه (التى ينطق اسمها كايون Kajon أو جايون Gojon أو جـــــارن Gaon بالصربوكرواتية) من العائلات اليهودية القديمة بالمدينة ، قد ظلت مقيمة هناك حتى عهد متأخر من القرن العشرين · وقد قام خايون برحلات فى فلسطين واليونان وايطاليا وألمانيا · وأصدر فى بلين فى ١٧١٣ كتابا هو « قدرة الله » Oz l'Elohim ، وصف بأنه الوثيقة الوحيدة المطبوعة للقبالة الساباتاينية ، وهو يحتوى على رسالة نسبت الى ساباتاى نفسه ، وأحدثت ضجة عظيمة فى الدوائر اليهودية · ثم وجهت الى خابون فيما عقب ذلك من الزمان تهمة الهرطقة . حيث وجهها اليه أحد حاخامات أمستردام وهو سيفى اشكينازى ، وهو ممن عاشوا فى سراييفو من ١٦٨٦ حتى ١٦٩٧ يوم فر الى الشمال مع جيش الأمير يوجين (١٤) · (ولعل هذا الحاخام هو اليهودى الوحيد الذى شعر بالامتنان نحو الغزو النمساوى ، فقد أصاب المحلة اليهودية تدمير شديد من جراء قصف مدفعية الأمير يوجين · وفى مقابل تخفيض فى الضرائب ، وافق يهود سراييفو على المعــاونة فى دفع نفقات اعادة بناء المنطقة بأكملها) (١٥) ·

وكانت أقدم سجلات مجتمع سراييفو التى بقيت لنا فى أى شكل من الأشكال ، هى التى ترجع الى عشرينيات وثلاثينيات الألف وسبعمئة · وقد تولى المؤرخ موريتس ليفى طبع بعض فقــرات منهــا ، لكن الوثائق نفسها ما لبثت أن دمرت مع جميع المحفوظات اليهودية فى سراييفو أثناء الحرب العالمية الثانية (١٦) · وتذكر أسماء ست وستين عائلة من تلك الفترة الباكرة ، كما أن قائمة بالأسماء تعود الى ١٧٧٩ تحوى ٢١٤ رئيسا للعائلات ، وهو ربما يعادل سكانا يزيد عددهم قليلا عن الألف نسمة · وجاء أيضا ذكر مدرسة أولية يهودية صغيرة (تلمود توراه Talmud Torah) وكان يهود سراييفو يمارسون ضروبا منوعة من المهن : فبالاضافة الى التجار كان هناك الأطباء والصيادلة والخياطون وصناع الأحذية والجزارون وعمال الخشب والمعادن وصناع الزجاج والصباغون (١٧) · وكان يتولى الخدمات الدينية بينهم فى معظم تلك الفترة حاخامات مجتلبون من مناطق أخرى : وكان أشهر هؤلاء الحاخامات هو دافيد باردو ، وهو يهودى من البندقية ، الذى كان رئيس حاخـامات سراييفو فى ستينيات وسبعينيات القــرن

الثامن عشر ، وكان علامة بارزا وكاتبا متميزا ، وقد أسس كلية تدريب الحاخامات (yeshivah) هنـــاك أثناء فترة توليه منصبه • وحتى ذلك الحين كانت سراييفو تابعة للمجتمع اليهودى فى سالونيكا ، أما الآن فانها أصبحت قادرة على انتاج حاخاماتها الخاصين بها (١٨) • ومع ذلك فقـــد أضحت الغلبة فى مجالى التجارة والثقافة لطائفة بلجراد المجاورة • وكان بتلك المدينة ، عاصمة المستقبل لصربيا ، مجتمع مختلط من يهـود السفرديم والاشكنازى ، ويبدو محتملا أيضا أن بعض الاشكنازية كانوا يأتون أيضا الى سراييفو ، على أنهم لو استقروا هناك فلابد أنهم قد امتصهم المجتمع السفرديم الناطق باللغة اللادينوية (Ladino) وذلك نظرا لأنه لم يكن هناك معبد اشكنازى فى سراييفو حتى أخريات القرن التاسع عشر • واللادينو هى لهجة من أسبانية القرن الخامس عشر التى كان يتكلم بها أحفاد اليهود المطرودين من أسبانيا فى ١٤٩٢ ، ولا يزال يتحدث بها بعض يهود سراييفو الباقين على قيد الحياة حتى اليوم • وهناك آية خاصة لاتزال تدل على تراث سراييفو الأسبانى ، هى « هجادة سراييفو » (Sarajevo Haggadah) وهى مخطوط أسبانى من القرن الرابع عشر للقداس الذى يقام فى الليلة الأولى من عيد الكيبور وكان مملوكا لاحدى العائلات اليهودية فى المدينة حتى ١٨٩٤ وهو من أبدع الأعمال الفنية من نوعه فى العالم كله (١٩) •

وفى العقود الأولى من القرن التاسع عشر كان عدد السكان اليهود فى البوسنة يعادل ألفين أو أكثر • فقد كتب القنصل الفرنسى فى سالونيكا تقريرا تفصيليا ، بعد أن ذهب الى سراييفو لجمع المعلومات حول أحوال التجارة فى ١٨١٣ ، قال فيه : ان هناك ألفى يهودى فى سراييفو ، ولاحظ أنه من أهم الأعمال التجارية فى المدينة كانت هناك اثنتان يهوديتان وواحدة يونانية وواحدة نمساوية وواحدة فرنسية (٢٠) • وكانت هناك حتى ذلك الحين جالية يهودية صغيرة تتكون من ستين فردا بمدينة ترافنيك : وقد اكتسبت هذه المدينة أهميتها لكونها مقر والى البوسنة وكان عدد سكانها يبلغ سبعة آلاف معظمهم من المسلمين (٢١) • وفى ستينيات الألف وثمانمئة كانت هناك عائلات يهودية قليلة تعيش فى سوستار أيضا (٢٢) •

وهناك قصة تأخذ بالألباب ، ترجع الى أوليات القرن التاسع عشر ، وتدور حول مصير يهودى من ترافنيك هو موسى كافييو Moses Chavijo، الذى اعتنق الاسلام واتخذ اسم الدرويش أحمد ، وراح يثير المسلمين المحليين على اليهود • وفى ١٨١٧ شكا زعماء اليهود البوسنيين من مهاجمته لهم ، وتمكنوا من تقديمه للمحاكمة واعدامه • وما عتم جماعة من أتباعه أن شكوا فيما بعد الى والى البوسنة وهو رشدى باشا ، الذى انتهز الفرصة

فابتز بعض المال من أيدى اليهود غصبا ، وطالبهم بأن يدفعوا خمسمئة ألف جروشن (وهي عملة نمساوية) ، وألقى القبض على عشرة من كبار اليهود كان من بينهم الحاخام ، وهدد بقتلهم اذا لم يسدد المال فعلا • وانتهت القصة بخروج جماعة من ثلاثة آلاف مسلم حملوا أسلحتهم وطالبوا باطلاق سراح اليهود ، فسارع الباشا بتلبية طلبهم (٢٣) • ويبدو أنه على وجه العموم كانت العلاقات بين المسلمين واليهود طيبة ، وكثيرا ما كانت أحسن منها بين المسلمين والمسيحيين • وفى كثير من أرجاء الامبراطورية العثمانية كان المسيحيون ينظرون الى اليهود نظرة امتعاض ، ولذلك أسباب منها أن الشعور بالعداء نحو اليهود يجد تربة خصبة فى اللاهوت المسيحى ومن المرجح أيضا أن بعض الولاة العثمانيين كانوا يعتمدون على الأطباء والتجار اليهود ، ويتخذون منهم مستشارين شخصيين ودبلوماسيين ، بحيث ان الوجود اليهودى بدا فى أعين المسيحية والمسيحيين كأنما هو طرف ملازم للدولة التركية • (والواقع أن ارتداء اليهود نفس ملابس الأتراك ، كان عاملا اضافيا ببعض أقطار البلقان الأخرى ، ولكن ليس بالبوسنة ، حيث كان المسيحيون يلبسون نفس ثياب المسلمين ، فيما خلا بعض التفاصيل التافهة التى تميزهم بنص قانون الرعية) •

أصدر بعض السلاطين من ذوى النزعات الاصلاحية فى ثلاثينيات وخمسينيات الألف وثمانمئة قوانين تمنح حقوقا مدنية مماثلة لرعايا جميع العقائد الدينية ، ولكن ذلك ظل مسألة نظرية أكثر منها ممارسة عملية • وجاء أكبر تغير فى الوضع القانونى لليهود مع احتلال دولة النمسا والمجر للبلاد فى ١٨٧٨ : وبعد ذلك بسنوات أربع ، شكلت لليهود فى سراييفو طائفة على غرار نظام الطوائف الدينية النمساوى عرفت باسم « طائفة السفرديم الاسرائيلية الدينية » وكانت هذه الطوائف تنتخب الهيئات الحاكمة الخاصة بها وتضع سجلا لجميع اليهود السفرديم المقيمين فى المدينة ، كما خول لها أن تفرض الضرائب عليهم بمقدار يصل الى ما يعادل عشرين فى المائة من الضرائب المباشرة المدفوعة للدولة ، وقد أقبل كثير من اليهود الاشكنازى من المجر وغاليسيا وبولندا وأرض التشيك وغيرها من الأماكن ، على الاستيطان فى البوسنة تحت الحكم النمساوى المجرى أيام امبراطورية النمسا والمجر ، فشكلت لهم طائفة مستقلة أيضا (٢٤) • وكان اليهود الناطقون باللادينوية ينظرون اليهم نظرة ازدراء ، وعاشت كل طائفة من هذه الطوائف عيشة خاصة بها• ويصفهم مراقب فى ١٩٠٨ بأنهم : « قوم متميزون بشدة أحدهم عن الآخر» (٢٥)• وهذا التدفق أو النزوح الشديد للسكان اليهود الى المدينة

حيث ظل ثابت العدد حول ألفين طوال القرن كله ، ثم نما الى ٢٦١٨ نسمة في ١٨٨٥ ، ثم ٤٠٥٨ فى ١٨٩٥ ، ثم ٦٣٩٧ فى ١٩١٠ (٢٦) ٠

وكان عدد السكان اليهود فى الأجزاء الأخرى من البوسنة فى ازدياد هو الآخر بفضل الهجرة : ففي ١٩٠٠ كان هناك ٩٩١١ نسمة فى سائر أرجائها (٢٧) ٠ وعادت السياسة الاقتصادية التى اتبعها النمساويون بفرص جديدة على البوسنيين اليهود ، وعلى العكس من المسلمين انخرطوا على الفور فى المشروعات الصناعية ٠ وكانت النتيجة أن أكبر ثلاثة من ملاك المصانع البوسنيين كانوا جميعا من اليهود السفرديم ٠ وكذلك أيضا كان للسياسة النمساوية أثر فعال فى ادماج اليهود مع سائر المجتمع البوسنى : ومن ثم فان اللغة الصربوكرواتية قررت فى مناهج الدراسة بالمدارس الابتدائية اليهودية ، كما أن بعض اليهود أرسلوا أطفالهم ليتلقوا، لأول مرة فى تاريخ هذا المجتمع اليهودى ، تعليما دنيويا فى مستوى المدارس الثانوية (٢٨) ٠ وحتى عام ١٩٤١ ظل يهود البوسنة يلعبون دورا جوهريا فى الحياة الاقتصادية لوطنهم ، فقد كان هناك مجتمع يهودى فى سراييفو وترافنيك وموستار وبانيالوكا وزينيكا ويوجوينو وباييلينا وفرشيكو وروجاسيكا وفلاستينيكا وتوتسلا (٢٩) ٠ وقد مزق هذا المجتمع اليهودى شر ممزق فى طوفان البربرية الذى اجتاح العالم فى ١٩٤١ ٠

أما غجر البلقان فالغموض يكتنف تاريخهم أكثر كثيرا من اليهود ، اذ أنهم لم يتركوا وراءهم تراثا كبيرا من المنشآت المعمارية والمبانى أو السجلات المكتوبة أو الكتاب أو المتعلمين ٠ ومع هذا فان عددهم كان أعظم ، كما أن وجودهم فى البوسنة كان على الأرجح أقدم كثيرا ٠ ومع أننا لا نعلم شيئا عن تاريخ خروجهم من الهند ، فانهم كانوا موجودين فى الأرض البيزنطية فى عام ٨٣٥ ، وهناك من البينات الأكيدة ما يدل على أن الغجر قد عبروا الى الجزء الأوربى من الامبراطورية البيزنطية بحلول القرن الحادى عشر ٠ وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان المركز الرئيسى للاستيطان الغجرى هو جنوب بلاد الاغريق ، كما أنهم أيضا كانوا مستقرين فى جزيرة كورفو ٠ ولعل بعضهم قد واصل المسير قدما على الساحل الأدرياتيكى ، ولعل بعضهم الآخر انتشروا برا ٠ وقد ورد ذكر للقرى الغجرية فى غرب بلغاريا ، فى عقد هبة عقارية يعود الى منحة عام ١٣٧٨ ، وهو أمر يشير الى أنهم كانوا مستقرين آنفا مدة طويلة تماما بتلك المنطقة٠ وهم أيضا شأن الأفلاق كانت لهم بعض التقاليد العسكرية : اذ يسجل التاريخ ضربا من التجمع العسكرى بين الغجر فى بلاد اليونان أثناء القرن الخامس عشر ٠ ومن ثم فان مما يثير الاهتمام أن يعرف المرء أن أول سجل محدد التاريخ عن الغجر بأرض يوغوسلافيا العصرية انما هو وثيقة قانونية

من راجوزا في ١٣٦٢ ، قدمها اثنان من « المصريين (Egyptians) » (أى الغجر Gypsies) اسمهما فلاك وفيتانوس (٣٠) ٠

وقد ربط البعض بين اسم ذلك المواطن الغجرى « فلاك » وبين الأفلاق وزعموا أنه كان هناك شيء من التعايش بين الغجر والأفلاق في تلك المناطق أثناء العصور الوسطى المتأخرة ٠ ولا ريب في أن حياة البداوة لدى هذين الشعبين كانت من نوعين مختلفين تمام الاختلاف ، ولكن اذا كان الغجر قد عملوا بأشغال المعادن وما اليها من حرف ، فقد كان من الممكن أن يكون لهم نفع لدى قوم يشتغلون بتربية الخيل والتجارة ٠ وهناك كذلك بينات لغوية تساند فكرة وجود علاقات أفلاقية غجرية بالبلقان الغربى والأوسط ٠ وقاموس مفردات معظم اللهجات الغجرية بغرب أوربا ، لا يدل فقط على وجود دين ثقيل عليهم للغات اليونانية والسلافية الجنوبية ، وانما يحتوى أيضا على بعض آثار للغة الرومانية أو الأفلاقية ٠ ونحن نعلم أن هذه القبائل من الغجر تحركت خارجة من جنوب شرقى أوربا في أوليات القرن الخامس عشر ، وربما قضوا بعض الوقت في رومانيا ، ولكنه زمن غير طويل ، وليس هناك أى أثر لأى تغلغل أو نفوذ لغوى مجرى على مفردات لغتهم ٠ وكل الدلائل تشير الى احتكاك أطول مدى مع الناطقين بالأفلاقية في الجنوب من الدانوب (٣١) ٠

ولو صح هذا الرأى أو الافتراض النابع من الوثيقة الراجوزية فمعنى هذا أن الغجر كان لهم وجود بالهرسك أقدم كثيرا من الغزو العثمانى ٠ ولسنا ندرى شيئا عن نشاطاتهم بالبوسنة ابان السنوات العثمانية الأولى ، غير أن بعضهم ربما اعتنقوا الاسلام في مرحلة مبكرة : فان قانونا أصدره في ١٥٣٠ سليمان القانونى حول الايالة الروميلية (وكانت في ذلك الوقت تضم البوسنة أيضا) ، يميز تمييزا حادا بين الغجر المسلمين وغير المسلمين ٠ فأما الأولون فكان عليهم أن يدفعوا ضريبة مقدارها اثنان وعشرون أسبيرا (عملة فضية عثمانية) ، وغير المسلمين يدفعون خمسة وعشرين أسبيرا ٠ وكان محرما على الغجر المسلمين السكنى مع غير المسلمين منهم (٣٢) ٠ وقد وردت أول اشارة خاصة الى الغجر في البوسنة في عام ١٥٧٤ ، عندما أصدر سليم الثانى فرمانا يمنح امتيازات ضريبية للغجر الذين يعملون بالمناجم : وقد نص الفرمان على ذكر العمال الذين يعملون في مناجم الحديد الخام قرب بانيالوكا ، فضلا عن الغجر الآخرين الذى يعملون في مناجم « خارج نوفى بازار » ــ ولعله كان يعنى مناجم كوسوفو الشمالية ٠ وبالاضافة الى ذلك أبيح لعمال المناجم الغجر انتخاب قائد لكل مجموعة من خمسين رجلا (٣٣) ٠ فهل كان هؤلاء

غجرا محليين جنحوا الى الاشتغال بالمناجم أم كانوا نازحين جاءوا ـ شأن عمال المناجم الساكسون ـ هابطين من الأراضي المجرية الرومانية ، ذلك أمر لايمكن معالجته الا بالحدس والتخمين • وما أن وافت أواخر القرن الرابع عشر حتى كان الغجر مستقرين تماما شمالى الدانوب ، وبينهم الفئات التقليدية لغجر ترانسلفانيا الرودارية (Rudari) البايشية (Baiesi) من رجال المناجم ، والأوراريه (Aurari) من غسالى الذهب (٣٤) • ولعل بعض هؤلاء الغسالين للذهب الذين لاحظ وجودهم الراهب بنديكت كوريبيشتش فى نهر قريب من جايس فى ١٥٣٠ ، كانوا غجرا من هذا النوع (٣٥) •

كان الغجر أثناء معظم الفترة العثمانية ، يلقون معاملة حسنة من الادارة التركية • ويشير فرمان صدر فى ١٦٠٤ حول غجر جنوب ألبانيا وشمال غربى اليونان الى الغجر المسيحيين والمسلمين ، وينص على : « لايجوز أن يرهق أى انسان أو يضطهد ذلك الجنس المذكور » (٣٦) • وهو موقف يتسم بروح انسانية أكبر مما أظهرته أية حكومة فى أوربا المسيحية فى ذلك الزمان ، مثال ذلك أنه حدث قبل ذلك بثمانية أعوام أن مئة وستة من الغجر قد أدينوا فى مدينة يورك وقطعت رؤوس تسعة منهم بمقتضى قانون من البرلمان فى العهد الاليزابيثى يهدف الى « مواصلة انزال العقوبات بالمتشردين الذين كانوا يسمون أنفسهم بالمصريين (Egyptians) » (٣٧) • وبطبيعة الحال ظل معظم الغجر عند القاعدة الدنيا للسلم الاجتماعى فى الحياة العثمانية ، شأنه فى كل مكان آخر • وكانت ادارات المدن تفضل تركهم يعيشون خارج حدود المدن ، بدلا من أن تخصص لهم محلة خاصة بهم ، الا اذا تمكنوا من اقناعهم بالاستيطان بوصفهم صناعا مهرة • ويوضح سجل من بلغاريا فى ١٦١٠ أن الجزية أو ضريبة الرأس حددت بمئتين وخمسين أسبرا على كل غجرى غير مسلم ، ومئة وثمانين لكل غجرى مسلم ، وبغض النظر عن هذا التخفيض ، فان هذا يبدو كأنما هو ضرب من التمييز ، اذ لم يكن مطلوبا من المسلمين أن يؤدوا هذه الجزية اطلاقا (٣٨) • وعند نهاية القرن السابع عشر يبدو أن الموقف والقلوب اشتدت وقست فى الادارة العثمانية ، وقامت ضدهم حملة اتهمت نساءهم بأنهن من البغايا ورجالهم بأنهم قوادون ، ومن ثم زيدت الرسوم على الغجر زيادة ثقيلة (٣٩) •

ومع هذا ، فان الحقوق القانونية الأساسية للغجر كانت هى نفس القواعد المطبقة على اخوانهم من المسيحيين أو اخوانهم من المسلمين • وكانت الغالبية العظمى من الغجر البوسنيين مسلمة ، ويبدو أنهم غلبت عليهم البداوة والترحل حتى قرب نهاية الدولة العثمانية ، وأنهم كانوا موفورى

العدد : اذ ذكر الأسقف مارافيتش في تقرير من البوسنة في ١٦٥٥ : « لقد وجدنا الغجر بكل مكان » (٤٠) · وعندما فتح النمساويون البوسنة في ١٧٨٨ انضم عدد كبير من الغجر الى القوات البوسنية ليقاتلهم (٤١) · ولسنا نعرف عدد السكان الكلي في البوسنة في تلك الأيام · ويقدرهم شوميت دى فوسيه بثلاثين ألفا في ١٨٠٨ · ولكن برتوزييه ، الذى كان هناك بعد ذلك بأربع سنوات ، يحدد عددهم بأنه ثمانية آلاف ليس غير (٤٢) · ولو حكمنا بواسطة الاحصائيات الأخرى التى قدماها لنا ، عرفنا أن برتوزييه كان أجدر الاثنين بالثقة ، وتقدر الاحصائيات التركية لعام ١٨٦٥ جملة تعداد الغجر بـ ٩٣٣٠ بالبوسنة والهرسك ، ثم جاء مصدر ألماني في أواخر ذلك العقد وقدر عددهم بـ ١١٥٠٠ ، أما احصاء ١٨٧٠ فيحدد عددهم بـ ٥١٣٩ فقط ، ولكن الاحصاء اعتمد على مسح للبيوت ولعله أغفل كثيرا من الناس الذين كانوا لايزالون يحيون حياة الترحال خارج المدن (٤٣) · وقد بذلت جهود كثيرة لاقناع الغجر بالاستقرار ، وفي أثناء القرن التاسع عشر كانت هناك « محلات » كثيرة للغجر في سراييفو وترافنيك (حيث لاحظ شوميت دى فوسيه أن عددهم ثلاثمئة) وبانيالوكا وفيسوكو (٤٤) ·

وفي ذلك الوقت ، كانت هناك ثلاث فئات من الغجر تعيش في البوسنة · أقدمهم المعروفون باسم « الغجر البيض » ، وكانوا أكثر استقرارا ، كما أن أعضاء تلك الفئة كانوا يهجرون اللغة الرومانية بالتدريج · ولكن لم يبرح معظمهم حتى فقدوها تماما عند حلول القرن العشرين · وهؤلاء الغجر كانوا مسلمين داخل البوسنة ، ولكن « الغجر البيض » الذين كانوا يقيمون بصربيا ومقدونيا كانوا من الأرثوذكس · وكانت لهجتهم الرومانية تشير الى اقامتهم الطويلة في الأراضي السلافية الجنوبية · ثم كان هناك من الناحية الأخرى « الغجر السود » الذين احتفظوا بحياة ترحل أكثر ، وعملوا بصفة خاصة في صناعة السمكرة ، وكانوا يعرفون باسم تشرجاشي (Čergaši) المشتقة من الكلمة التركية تشرجي ومعناها « الخيمة » · وقد أسلموا ولكنهم في بعض الأحيان منعوا من المساجد بحجة أنهم نجساء غير طاهرين وكانت الصورة التى كانوا ينطقون بها اللغة الغجرية ، تحتوى على عناصر رومانية أكثر ، وهو أمر يشير الى أنهم قد هبطوا من ترانسلفانيا أو اقليم البانات أثناء العصر العثماني الأول · (ومن الممكن كما أشرنا أعلاه أن عمال المناجم الغجر أثناء القرن السادس عشر كانوا ينتمون الى تلك الأرومة نفسها) · وكانت تلك الطائفتان تشيران الى أنفسهما بأنهم « ترك » ، يعنون بذلك « مسلمون » ·

وكانت المجموعة الثالثة تسمى نفسها «قرافلاقى» أى الأفلاق السود، وكانوا يرفضون أن يوصفوا بأنهم من الغجر ويدعون أنهم رومانيــون • والحق أنهم كانوا يتحدثون بالرومانية . كما أن أحد الكتــاب الرومانيين القوميين الوطنيين ، دبج أكثر من مئة صفحة فى ١٩٠٦ حــاول فيها أن يثبت أنهم ليسوا من الغجر على الاطلاق • ولكن كل من كانت له عينان كان يستطيع أن يرى بنفسه أنهم من الغجر الذين جاءوا فى الأصل من رومانيا، ذلك أنهم بغض النظر عن الرومانية نفسها كانوا يتكلمون لهجة من اللسان الغجرى مشبعة بمفردات رومانية • وكان السكان المحليون يسمونهم الغجر « الصربيين » ، وهو اسم محير ربما كان أصله أنهم عاشوا فيما سلف من الزمان شطرا من الوقت فى صربيــا ، أو لأنهــم كانوا من أتباع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية (٤٥) •

ولم تكن لهم بطبيعة الحال أية علاقة بالموزلاتش أى « الأفلاق السود » الوارد اسمهم فى التاريخ الأقدم • لقد كانوا يشكلون جزءا من أولئك السكان الغجر المتكلمين بلهجة رومانية مما يدعونه بالأفلاقية (أى اللهجة المتأثرة باللغة الرومانية) ، الذين انتشروا الى أوربا الغربية فى موجة جديدة من الهجرة وكونت الأساس للسكان الغجــر الأمريكيين • وكان بعضهم من مدربى الدببة » ، وهى حرفة رومانية غجرية قديمــة يعــرف محترفوها باســـم الأورســـارى (ursari) ، وكان بالامكان العثور على مدربى الدببة البوسنيين ، وهم يضربون فى الأرض بفرنسا حوالى سبعينيات القرن الألف وثمانمئة (٤٦) • ولاحظ مسافر انجليزى بالبوســـنة فى تسعينيات الألف وثمانمئة ، أنهم كانوا يتجولون فى كل أنحاء أوربا مع دببة راقصة (*) ، كما أن الكابتن فون روث ، وهو ضابط نمساوى بالبوسنة قال انه رأى أحدهم بمدينة لندن » • ويواصل حديثــه فيصفهم بقوله : « انهم قوم عجيبو الشأن ، يعيشون فى حفر فى الأرض » (٤٧) • وأول رد فعل للقارىء ازاء هذا القول هو أن القائل انما يكرر فى الواقع الآراء المتحيزة التى كان يرددها عليه محدثوه من النمســاويين أو البوســنيين • ولكن الواقع أن الغجر الرحل فى الأراضى الرومانية ، كانوا لعهود طويلة يتجولون وهم يحملون الخيام أثناء الصيف ، ويحفرون لأنفسهم فى أرض الغابات ملاجىء أثناء الشتاء (٤٨) •

(*) وقد رآهم المترجم بمدينة رشيد فى عام ١٩١٦ ، حيث مرت مجموعــة من الاجانب ومعهم دب أعمى يلعبونه فى الشوارع – (المترجم) •

وكان هناك دون أدنى ريب عدد من التحركات الأخرى الأصغر شأنا للسكان الغجر الى داخل البوسنة • وكانت أهم تلك الجماعات النازحة فى أوائل القرن التاسع عشر جماعة نزحت من سنجقية نوفى بازار ، (وكانت آنذاك جزءا من الايالة البوسنية) ، وسكنت بقرية بوجلى جالا قرب روجاتيكا الى الشرق من سراييفو • وأقام رادى أوليك ، وهو خبير فى شئون الغجر البوسنيين ببوجلى جالا قبل الحرب العالمية الثانية ووصفها آنذاك بأنها : « دون أدنى ريب أشد مستوطنات الغجر حيوية واثارة للاهتمام بالبوسنة » •

> ان الناس شديدو الجد فى العمل والكفاية وحسن التدبير ، وهم سمكرية أمناء يظهرون كفاية فى التنظيم • ليسوا بالبدو الرحل ، وهم يسكنون فى بيوت تبدو عليها سمة الفقر • وهم يجوبون البوسنة أثناء فصل الدفء فيما بين الربيع والخريف ويمضون فى اتجاهات مختلفة متنوعة ، بقطارات السكك الحديدية ، ملتمسين العمل فى كل عام •• ومعظمهم يستطيعون الكتابة ، وهم يحتفظون بلسانهم الغجرى بمنتهى الحرص (٤٩) •

وعندما عاد رادى أوليك الى بوجلى جالا بعد الحرب العالمية الثانية ، وجد القرية خالية قد هجرها سكانها : « اليوم هى يباب تماما ، والبقية الباقية من الغجر الأحياء فروا الى الجزء الشمالى الغربى من البوسنة » • وقد أبيد ثمانية وعشرون ألف غجرى ابادة تامة داخل دولة الأوستاشا ، ولكن الغجر المسلمين كانوا أحسن حالا من الأرثوذكس القرافلاق • وقد كتب رادى أوليك يقول : « وبفضل تدخل الأئمة الكبار من المسلمين منعت مذبحة أكبر كانت تدبر للغجر البوسنيين » (٥٠) • فأما السبب الذى دعا الغجر المسلمين فى بوجلى جالا الى الفرار من جنوب شرقى البوسنة ، فكان فتك الصرب بهم ، وكان من المقدر للأحياء الاسلامية الغجرية فى مدن كثيرة ، فى جنوب شرق وشمال شرق البوسنة ، أن تشهد أحداثا مماثلة من القتل والتدمير فى ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ •

الفصل العاشر

المقـاومة والاصـلاح
١٨١٥ ـ ١٨٧٨

عندما اقتربت الفترة النابوليونية من نهايتها ، كان واضحا للسلطات في اسطنبول أنه كانت هنك نقاط ضعف فى بنية الامبراطورية العثمانية لابد من معالجتها بشدة وقوة ان لم يشأ لها أن تتمزق اربا ، وكان توالى نجاح الثورات الصربية ضربة أصابت الكبرياء العسكرية التركية ، كما أن الحروب النابوليونية فى حد ذاتها ، قد أبرزت مستوى جديدا من الكفاية العسكرية فى أوربا الغربية ، جعل الجيش العثمانى يبدو متهالكا وقديم الطراز ـ وهو درك كان قد انحط اليه بالفعل • وكان وضع صربيا شبه المستقل الجديد سابقة يمكن أن تحتذيها بقية أجزاء الامبراطورية ، وبدت بوادر التمرد فى بلاد اليونان ، كما أن اتجـاه الدول الأوربيـة من ناحية أخرى ، وبخاصة روسـيا والنمسا الى جعـل نفسها نصراء وحماة لجميع أنواع السكان المسيحيين ببلاد البلقان ، أنزل بالسلاطين ضغطا مضاعفا لاصلاح الوضع القانونى للرعية (أى غير المسلمين) ، كما أن الحاجة دعت الى ادخال اصلاحات قانونية وادارية أخرى لمجرد طبع النظام كله بالطابع العصرى وتحديثه وتحسينه • بيد أن أعظم مشكلة سـياسية فى المدى القريب ، كانت نمو السلطة والاسـتقلال الذاتى ليس فى أيدى الرعايا المسيحيين وحدهم ، بل فى أيدى الحكام المحليين المسلمين شبه المستقلين • وكان أوفرهم طموحا هما على باشا حاكم أيونينا فى شمال غربى اليونان ، الذى حاصرته هناك القوات التركية فى ١٨٢٠ ، وما لبث فى النهاية أن قتل فى ١٨٢٢ ، ومحمد على باشا فى مصر ، وهو شخصية جبارة أقوى شكيمة بكثير ، شاد قوته بنقله الطرائق العسكرية والادارية عن غـرب أوربا : وقد باءت محاولة لخلعه بالقوة فى أوائـل ١٨٣٠ بفشل ذريع • وكان حكام آخرون أقل منه قدرا وقدرة ، يعملون هم أيضـا على توطيد مكانتهم ، ولكن قل بينهم من فهم أن الحاجة ماسة الى الاصلاح على الطريقة

التى اتبعها محمد على ، ولم يكن هناك شخص يبشر بالاصلاح المستقبلى بالتأكيد بين الثائرين من بكوات وقابيطانات وأغاوات البوسنة ·

وجاءت أولى المتاعب نتيجة لتصادم بين شخصية حاكم للبوسنة شديد الاعتداد بنفسه وكبرياء أهل مدينة سراييفو وامتيازاتهم المتوارثة ، وكان هذا الحاكم وهو على باشا السلحدار ، قد تولى منصبه فى ١٨١٣ ، وكان رجلا عسكريا قوى الشكيمة حاد الطبع متهورا عازما على كبح استقلال البوسنة · فأعلن عند وصوله الى سراييفو أنه لا ينتوى أن يقضى بها الأيام الثلاثة فقط التى يسمح بها العرف المتبع ، بل بدلا من ذلك فانه سيبادل بين سراييفو وترافنيك على فترات كل منهما ستة أشهر · ورفض هذا الاقتراح ، وعندئذ اضطر الى ارسال قواته (ومعظمهم من الترك والألبان) لاخضاع المدينة (١) · كما أن موستار ، كما سبق أن رأينا ، هوجمت هى أيضا فى ١٨١٤ بجيش عظيم · واتخذت اجراءات مماثلة فى ١٨٢٠ عندما رغب السلطان فى أن يضمن ألا تقوم البوسنة باحداث أية متاعب له حين يكون الجيش العثمانى مشغولا بالقضاء على على باشا فى شمال غربى اليونان : حيث أرسلت قوة تأديبية بقيادة جلال الدين باشا هاجمت موستار وسريبرينيكا ، وقتلت القابيطانات الثائرين فى بانيالوكا وديرفينتا (٢) ·

ولم تكن هذه المصادمات الا من قبيل مقابلة المقاومة بالقوة ، بيد أن هجوما نظاميا أكثر على القوة المحلية ، كان مبيتا فى أثناء عشرينيات الألف وثمانمئة ، وكان يتضمن اصلاح النظام العسكرى والسياسى الذى كان هؤلاء السادة المحليون يستمدون منه السند · وكانت نقطة البداية ، شأن جميع محاولات الاصلاح العثمانية السابقة ، هى الجيش ، وهناك حقيقة واقعة وهى أن السلطان اضطر تماما الى أن يعتمد على جيش محمد على الذى دربه الفرنسيون فى مصر ، لسحق الثورة القائمة ببلاد اليونان ، وهى تدل على أن اصلاحا عسكريا جذريا كان شيئا لابد منه · وعندما أصدر السلطان محمود الثانى أمره بانشاء قوة حربية جديدة ، احتشد الانكشارية فى ميدان تدريبهم ، للزحف على القصر الامبراطورى وتنفيذ الانقلاب الانكشارى المعهود · ولكن السلطان محمود كان أعد عدته ، وركز قوات موالية له مجهزة بالمدافع حول الميدان ، وبعد نصف ساعة من القصف المدفعى القوى تم القضاء على القوات الانكشارية فى اسطنبول وأبيدت ابادة تامة · وهذا الحادث (الذى يشار اليه فى التاريخ العثمانى باسم الواقعة « الميمونة ») ، مكن السلطان محمود من الغاء نظام

الانكشارية ، منشئا بذلك جيشاً نظاميا جديدا مقره الأساسى اسطنبول ووحدات جديدة فى الولايات يجند لها الجنود مدة خدمة تدوم اثنى عشر عاما (٣) • وكان رد فعل ذلك فى البوسنة ، حيث كان الانكشارية يكونون مؤسسة اجتماعية لها امتيازاتها وينتمى اليها بعض سكان المدن هناك ، هو الغضب الشديد • فأرسل عليهم السلطان وزيرا جديدا هو حاجى مصطفى باشا يصحبه ستة قومبسارية لفرض الاصلاح على ذلك البلد، ولكن البوسنيين ردوه على أعقابه • وعندئذ أرسل السلطان قوة بقيادة عبد الرحمن باشا فى ١٨٢٧ ، فدخل سراييفو وقضى على الانكشارية هناك وتفذ حكم الاعدام فى سبعة من زعمائهم • ولكن المقاومة ما لبثت أن اشتعلت مرة ثانية فى ١٨٢٨ ، وبعد ثلاثة أيام من القتال فى سراييفو ، اضطر عبد الرحمن باشا الى ترك المدينة والعودة الى العادة القديمة وهى الاقامة فى ترافنيك (٤) •

وادت التغييرات الاساسية فى الجيش ، وهى تتضمن استخدام طرق تدريب تقوم على النظام الأوربى الغربى الحديث والبدل العسكرية الأوربية ، الى استمرار المقاومة فى البوسنة ، وانتهز السادة المحليون الفرصة فسخروا هذا الاستياء الشعبى العام بين المسلمين لتوجيهه نحو مصلحتهم السياسية الخاصة • وفى ١٨٣١ تقدم قابيطان شاب ذو مواهب قيادية من جراداشاك بشمال البوسنة ، يدعى حسين حتى وصل الى ترافنيك بقوة صغيرة واحتل المدينة • وقد امر الوزير كنوع من التحقير له بخلع زيه العسكرى الحديث ، ثم امره ، بعد الوضوء ، بالعودة الى ارتداء ملابسه التقليدية القديمة • واراد ان يحتفظ بالوزير أسيرا ، بيد أن أسيره غافله وفر الى النمسا • (واقام ذلك الحادث سابقة للتعاون فى المستقبل بين السلطات النمساوية والعثمانية ، على هذه الحدود : حيث كان النمساويون ملوا من مواصلة الاغارة على البوسنة بتحريض من القابيطانات المحليين المتمردين)(٥) • وفى الآونة نفسها تفجر عصيان آخر مماثل ولكنه اشد خطورة فى شمال ألبانيا ، وكان الجيش الثائر يتحرك شرقا ليشتبك فى القتال مع القوات العثمانية بقيادة الصدر الأعظم • وانتهز القابيطان حسين هذه الفرصة ، فقاد جيشا عدته خمسة وعشرون ألف بوسنى حتى بلغ كوسوفو ، وهو يظهر أنه يريد ان يساعد القوات العثمانية • فلما وصلوا قدموا قبلة طلباتهم : الاستقلال الذاتى الادارى ، وانهاء الاصلاحات بارض البوسنة ، ووعدا بان يكون وزير البوسنة منذ ذلك الحين على الدوام بيكا بوسنيا او قابيطانا بوسنيا ، وتعيين القابيطان حسين فى تلك الوظيفة فورا •

ووافق الصدر الأعظم على تلك الطلبات ، ولكن لم تكن لديه أية نية في انفاذها ، وسرعان ما أخذ يعمل ناشطا على اثارة المشاحنات بين هؤلاء البكوات البوسنيين المختلفين • وفي ١٨٣٢ تمـــكن من ابعاد قابيطانات الهرسك الذين كان يقودهم علي أغا ريزفان بيجوفيتش (Ali-aga Rizvan begovich) من الانضـمام لتمرد حسـين قابيطــان ، ثم عاد في ١٨٣٢ فأرسل جيشا على البوسنة عدته ثلاثون ألف رجل • وحاول حسين قابيطان الصمود في سراييفو ولكن مساعديه تفرقوا عنــه ، ثم اضطر هو أيضا الى أن يلتمس الملجأ بالنمسا • ولكنه ما لبث فيما بعد أن منح عفوا مشروطا من السلطان ، ثم أرسل الى منفى في داخل البلاد بمدينة طرابيزوند • وكانت مكافأة علي أغا ريزفان بيجوفيتش أن فصلت له الهرسك عن ايالة البوسنة ، ومنحت له كولاية منفصلة تحت حكمه (٦) • ثم وقعت بعد ذلك بعض عمليات المقاومة الجديدة في البوسنة ، ولكن الوالي الجديد وهو محمد صالح باشا فيجهيا (Mehmed Salih-pasha Vedjehija) قمعهـا بقسوة ثم اختدع آجان من بانيالوكا ذائع الشغب حتى حضر الى سراييفو ثم شنـق (٧) •

وبينما حسين القابيطان يحلم بقيـام بوسنة ذات استقلال ذاتي داخل الامبراطورية العثمانية ، استمر التحول التدريجي لتلك الامبراطورية • فالغي نظام اقطاعيات التيمار في ١٨٣١ • ولكن ذلك لم يقلب الأوضاع في البوسنة ، اذ أن كثيرا من الفرسـان (السـباهي) تجاهلوه ، وتشجعت مجموعة أخــرى من ملاك الأراضي على الاسراع بتحويل التيمارات الى « اغالوكات » و « بيجيلوكات » (٨) • ولا شك في أن احتمال ثورة الفلاحين على ملاك الأراضي كان قائما وقد تحقق في ١٨٣٤ و ١٨٣٥ • والأمر الملفت في ثانية هاتين الثورتين هو التعاون الذي حدث بين موالي الأرض الكاثوليك والأرثوذكس (٩) • ومن ثم فقد تقرر اصلاح خاص بالبوسنة والهرسك وحدهما ، وبه تم الغاء نظام القابيطانات في ١٨٣٥ • ولا ندري كيف استقبل هؤلاء القابيطانات أنفسهم ذلك الاصلاح ، ولكن لا ريب في أن غضبتهم كانت أقل كثيرا مما كان متوقعا • وبدلا من القابيطانات أصبح حكم البلاد منوطا بموسلمين (وهم موظفون يمثلون الوالي ويعينون من قبله) • وعين في وظيفة الموسيليم هذه كثير من القابيطانية والآجانات والسباهي السابقين ، وهو أمر لعله رد اليهم كبرياءهم وان حرموا من بعد ذلك من قيادة قواتهم الخاصة المحلية ، وتوريث المنصب • ورغم أن بعضهم قد ثار في البوسنة الغربية في ١٨٣٦ لكن ثورتهم انسحقت على يد جنود من الأناضول • وما لبث بعض الاغاوات أن ثاروا مرة ثانية في السنة التالية • وحدث تمرد آخر في ١٨٤٠ ، أدى الى طرد الوالي مؤقتا من ترافنيك ، ولكن اخمدته بعد ذلك الجنود النظامية • وسنرى فيما بعد كيف أن القابيطانات الآخرين البعيدين

عن هذه الأحداث والذين لم يعينوا موسيليمين ثاروا فى آخـر الأمر فى ١٨٤٩ و ١٨٥٠ فلقيهم نفس المصير (١٠) ٠

لم تمس معظم الاصلاحات الأخرى التى أدخلتهـا الدولة العثمانيـة فى ثمانينات القرن التاسع عشر وضع البوسنة الا بدرجة أقل ٠ ومنهـا ادخال نظام الخدمة البريدية وانشاء جريدة رسمية وانشاء مدارس جديدة ، واصلاح الوزارات ٠ ولكن فى ١٨٣٩ ، تولى العرش بعد السلطان محمود ابنه عبد المجيد الأول الذى أصدر فى نوفمبر من تلك السنة فرمانا مكونا من مجموعة أكبر كثيرا من الاصـــلاحات فى وثيقة تسمى الخط الشريف جولهانى Hatti-i Sherif (وهو اسم معناه الحرفى الفرمان النبيل الموقع فى فناء حديقة الورد ٠ وقد أسمى بذلك الاسم تيمنا بفناء سراى التوبكابى الذى صدر منه ذلك الفرمان) ٠ وأعلن هذا الفرمان أن جميع الرعايا ، بغض النظر عن دينهم ، مخولون أمانا متسـاويا على الحيـــاة والشرف والممتلكات ـ وبذلك ألغى فى الواقع قانون الرعية ، وقد أقام أساسا جديدا للتجنيـد فى الجيش ، وكان يحتوى على طرائق جديدة لتقييم الضرائب وجبيعها ، ملغيا بذلك طريقة « الالتزام » القبيحة السيرة ٠ كما تم احكام هذه المبادىء بسلسلة متلاحقة من الاجراءات التالية ، وكررت فى فرمان مماثل صادر فى ١٨٥٦ هو خط همايون (Hatti-i Humayun) ٠ والمجموع الكلى لإجراءات الاصلاح أثناء تلك الفترة يعرف باسم جامع هو «التنظيمات» ٠ ويعنى ذلك اعادة تنظيم الامبراطورية ، أو لو شئنا أن نستخدم له مصطلحا صدر فى أخريات القرن العشرين ، مع كل ما صاحبه من أصداء سوء الحظ والمصير والنجاح ، وهو مصطلح البروسترويكا (١١) ٠ والمبادىء المقدمة فى الخط الشريف مبادىء نبيلة أجيد تمحيصها والتفكير فيها ٠ولكن لم يكن لها لسوء الحظ الا أثـر طفيف (أو حتى لا أثر اطـــلاقا) ، فى المناطق الخارجيـــة البعيدة من الامبراطورية كالبوســـنة مثلا ، حيث قوبلت بتجاهل تام ٠

وكانت البوسنة عند ذلك الوقت ترزح تحت حال شديد من السوء ٠ وربما لم يقاس أى جزء من البلاد بدرجة بالغة السـوء من كثرة القتال والاضطرابات ، وينبغى لنا أن نتردد قبل أن نفترض أن كل سكان البوسنة جميعا غرقوا فى وهدة البؤس والشقاء : فان امرأة أرثوذكسية أبلغت زائرا انجليزيا فى منتصف سبعينيات الألف وثمانمئة أنه « قبل ثلاثين سنة كان عامة الناس أيسر حالا بكثير منهم الآن ٠ اذ لم يكن عليهم آنذاك من ضرائب الا الخراج ٠٠٠ كانوا أغنياء ويملكون الخيل والثيران والخنازير والأغنام والدواجن ٠٠٠ ومع أنهم لم يكونوا ينعمون بأية حرية ، فمع ذلك كان

البكوات وغيرهم من ســادة الأرض يحنون ويدافعون عن موالى الأرض التابعين لهم » (١٢) ٠ ولكن لا يجب أن ينسى أنه على الدوام يبدو للناس أن الأمور كانت أحسن حالا منذ ثلاثين عاما ٠ وفى الواقــع كانت الأحوال شديدة السوء فى منتصف سبعينيات الألف وثمانمئة ، ومن المؤكد أن الحال العامة فى البوسنة لم تكن حسنة فى أربعينيات الألف وثمانمئة ، فان بنيتها الأساسية والاقتصادية دخلهما الضعف بسبب ما مر عليها من القتال ٠ وقد أصــدر الجغــرافى والمؤرخ الفرنسي العظيم آمى بوويه (Ami Boué) تصنيفا للطرق البلقانية فى ١٨٤٠ ، وفيه وصف أدنى فئة بأنها « فى حالة يرثى لها » ، وخص بها البوسنة والبانيا ، وهو يصف هذه الطرق بأنها : « سلالم من أحجار » (١٣) ٠ وها هو القنصل الرسمى النمساوى ، وهو ديميتر آتاناسكوفيتش (Demeter Atanaskovic) يبلغ فيينا بعد زيارة للبوسنة فى ١٨٤٤ : « ان الانطباعات التى خرجت بها عند رحيلى من البوسنة تكاد تكون أسوأ من التى كونتها عند وصولى»(١٤) ٠ فقد كانت طبقة ملاك الأرض ، وقد أفعمتها المرارة وسحقت آمالها السياسية القومية مرارا أخذت تكرس كل طاقتها فى محاولة اغتصاب أقصى ما يمكن من الأموال من أيدى الفلاحين بدلا من السعى لتحسين الأوضاع ، وكانت نفوس البكوات ممتلئة بالشكوك المتزايدة ، كما لاحظ بوويه ، خشية أن يلجأ المسيحيون الى استدعاء أبناء ملتهم من الأجانب الى غزو البلاد ، وكانت المشاكل الجوهرية اقتصادية وسياسية وليست دينيــة (١٥) ٠ وكان الفلاحون المسلمون يعانون من ، نفس « الاعتصــار » البالغ الذى يتعرض له اخوانهم المسيحيون ولدينا التماس يمزق نياط القلب موجه الى والى البوسنة فى ١٨٤٢ يشكو فيه كاتبه من ارتفاع الرسوم والضرائب فوق طاقة الناس ، وقد بدأ بقوله : « نحن المواطنين المسلمين والمسيحيين التعساء فى كل أرجاء منطقة تيشانى (Tisani) ٠٠٠ » (١٦) ٠

وحاول الوالى الجديد الذى وصل فى ١٨٤٧ ، واسمه طاهر باشا ، أن يصلح النظام المعتاد من الرسوم والضرائب المفروضة على الفلاحين ، بالنسبة للمزارع الأغالوقية : فألغى السخرة ، (وهى الشغل الاجبارى فى أرض صاحب الملك) ، كما أنه فى مقابل ذلك رفع نسبة القمح التى كان ينبغى تقديمها الى ملاك الأرض من الربع الى الثلث ٠ ولسوء الحظ أن معظم الملاك نفذوا البند الثانى من هذه التغييرات دون الأول وهو السخرة (١٧) ٠ وعندما حاول طاهر باشا كذلك تنفيذ اصلاحات الجيش ، التى لم تكن تطبق حتى آنذاك بطريقة مثلى ، فى البوسنة ، انفجرت ثورة البكاوات والأغاوات للمرة الثانية ، واشتعلت البلاد فى موجة قتال فى ١٨٤٩ ،

كما ن التمرد كان لايزال فى الذروة عندما تـوفى طاهر باشـــا فى ١٨٥٠ (١٨) ٠

وعندئذ ارسل السلطان الى البوسنة واحدا من أشد الولاة فاعلية وذكاء ، فى هذا القرن الأخير من الحكم العثمانى ، وهو عمر باشا لاتاس ٠ كان اسمه فى الأصل وله ميشيل لاتاس ، اذ كان سلافيا من منطقة ليكا وشغل رتبة جاويش فى الجيش النمساوى على التخوم العسكرية ، وكان يجيد الحديث بالألمانية ، ويفهم كيف تسير الأمور فى جيش أوروبى غربى، ويملك مهارات سياسية وعسكرية حقة ٠ وبعد أن قضى على التمرد قضاء مبرما فى ١٨٥٠ ــ ١٨٥١ ، أرسل كثيرا من البكوات وغيرهم الى المنفى ببلاد الأناضول،وألغى أيضا الباشالوكية (Pashaluk) المنفصلة لبـلاد الهرسك ، ووضع تقسيما اداريا جديدا للبوسنة والهرسك ، حولهما الى تسعمناطق. وضع كل منها تحت امرة قائمقام Kajmak (وهو ممثل للوالى يكاد يكون صورة عسـكرية أكثر للموسليمين) (١٩) ٠ وقد التقى به ديمتر أتاناسكوفيتش ، الذى عاد الى البوسنة كقنصل عام للنمسا فى ١٨٥٠ ونقل عنه هذا التعليق ، قال : « هنـاك أسباب سياسية لا تستطيع الحكومة العثمانية من أجلها الا أن تسير بتمهل شديد وحذر فى مسألة اصـلاح احوال المسيحيين ، حتى لا تغضب المسلمين الذين تعتمد عليهم الدولة من حيث السند والقوة تماما » (٢٠) ٠ ولم تكن بعض اجراءاته الاصلاحيـة مقبولة تماما لدى الفلاحين المسيحيين : فان سياسته فى نزع السلاح من أيدى السكان جميعا جعلتهم يشعرون بأنهم مستضعفون ، كما أن بعض من عينهم من القائمقامات ممن ليسوا من أصل بوسنى ، قد ارتكبـوا بعض الأخطاء ٠ كتب أتاناسكوفيتش فى ١٨٥١ يقول : « قد عم الناس التذمر والسخط » (٢١) ٠ ولكن القوة السياسية للطبقة القديمة من ملاك الأرض قد قصمت قصما لا رجعة فيه ، ومنذ تلك اللحظة أصبح فى الامكان بذل المحاولات لادخال الاصلاحات الواردة فى التنظيمات العثمانية ٠

ولا أدل على الحاجة الماسـة الى هذه الاصلاحات من التماس أرسله مسيحيو البوسنة الى السلطان فى ١٨٥١ ٠ وقد جاء من بين ما طلبوه من مطالب أنهم يرجون أن يعاملوا بوصفهم أتـراكا لا بوصفهم « رعيـة » ، وطالبوا بالمساواة أمام القانون ، ورغبوا فى وجود عدد متساو من القضاة المسلمين والمسيحيين ، والتمسوا ازالة ضريبة الرأس أو الخراج (٢٢) ٠ فأما الطلبان الأولان فكانا من حقهم منذ صـدور فرمان حديقـة الورد فى ١٨٣٩ ، كما أن الثالث كان امتدادا وتوسعة لنفس المبدأ ٠ (والواقع أنه كان هناك فعلا ثلاثة قضاة مسيحيين بمحكمة المدينة فى ترافنيك ، بيد أن

هذا كان ترتيبا استثنائيا) (٢٣) · وقدر لالغاء الخراج أن يتم فى ١٨٥٣ عندما رفع الحظر التاريخى القديم الذى كان يمنع المسيحيين من الانتظام فى الخدمة العسكرية النظامية · ولكن نظرا لأن الخراج قد بدل به رسم بدلية عن الخدمة العسكرية ، وهو رسم كان يجمع بنفس الطريقة ، ونظرا لأن معظم الرعايا المسيحيين استمروا فى امتناعهم القديم عن الانخراط فى الجندية ، فالواقع أن هذا التغيير لم يحدث أى فارق عند المسيحيين فى الممارسة العملية للأمر ·والفرق الحقيقى الوحيد أنه وجب على غير العاملين فى الجيش من المسلمين دفع ضريبة اضافية لابد من دفعها (٢٤) ·

وكما أشرنا آنفا ، كان موقف المسلمين من البوسنيين ازاء المسيحية قد اتخذ سمة شيء من الصرامة قرب النصف الأول من القرن التاسع عشر· وتقدم التقارير القنصلية أثناء تلك المدة أمثلة كثيرة فى هذا الشأن · وعندما حصلت الجالية الأرثوذكسية على اذن بمدينة ترافنيك لبناء كنيسة فى ١٨٥٣ ، أصر المواطنون المسلمون على أنها لابد أن تبنى خارج المدينة · وفى نفس العام رفض طلب الكاثوليك أن يبتنوا لأنفسهم كنيسة فى سراييفو (وان منح ذلك التصريح بعد ذلك سريعا ، ولكن ذلك من ناحية جزئية نتيجة للضغط من جانب الهيئات القنصلية الأجنبية) · وشكا القسس الكاثوليك فى ليفنو من أن المسيحى من هؤلاء لم يكن ليستطيع أن يحصل على حكم لصالحه من احدى المحاكم فى حالة واحدة من مئة (٢٥) · على أننا حين نقرأ هذه الشكاوى ، ينبغى لنا أن نتذكر أن عددا لا بأس به من الكنائس الجديدة ومشيخات الكنائس والمدارس كان يجرى بناؤها فى أجزاء مختلفة بين ١٨٢٠ و ١٨٥٠ وما بعدها · وبالاضافة الى المدرسة الأولية بسراييفو ، التى كانت لديهم منذ بواكير القرن الثامن عشر ، كانت للطائفة الأرثوذكسية مدرسة ثانوية هناك فى ١٨٥١ ، وكانت لهم من قبل بالفعل مدارس أولية فى عشر مدن بوسنية أخرى ، ولابد أنه فى ١٨٧٠ قد كانت لهم بالفعل ثمان وعشرون مدرسة أولية ، وربما بلغ مجموع ما لديهم من مدارس سبعا وخمسين · وفى ستينيات الألف وثمانمئة كانت للكاثوليك مدارس ثانوية ببعض المدن الكبرى ، و ٢٧ مدرسة أولية ، وبنيت عدة كنائس كاثوليكية فى خمسينيات الألف وثمانمئة (٢٦) ·

أما من حيث الكم والعدد ، فقد انتعشت أحوال كلتا الكنيستين بالبوسنة فى أواخر العهد العثمانى : ففى خمسينيات الألف وثمانمئة ، كان هناك بالتقريب ٣٨٠ قسيسا كاثوليكيا وأكثر من ٤٠٠ قسيس أرثوذكسى (٢٧) · ولو نظرنا الى ذلك السجل من حيث الكيف فان السجل يكون أقل تأثيرا · وقد عقب معظم الملاحظين الأجانب على ضعف مستوى

الفرنسيسكانيين بوجــه عام ، كمــا أن جميع المراقبين أصيبوا بصدمة لما رأوه من شح رجال الدين الأرثوذكسي : وقد لاحظ زائر ألماني أنهم كانوا يشترون أبروشياتهم مقابل مبلغ يتراوح بين عشرين دوقية ومئتي دوقية ، ووصفهم بأنهم « حثالة البشرية » (٢٨) · ولاحظ آخــر أن الأســاقفة الأرثوذكس كانوا يشترون كراسي وظائفهم بمبالغ طائلة من المال ، ثم يحاولون بعد ذلك استرداد هذه الأموال عن طريق استغلال رعيتهم ، وأفضى بهم ذلك الى « صداقة حميمة بصــورة مفرطـة مع السـلطات المحلية المسلمة » (٢٨) · ولكن لا شك في أنه كان يوجد بين ظهراني رجال الدين المسيحيين والمدرسين من كل من الكنيستين ، قلة من الأفراد الناشطين النابهين · فبعضهم كانوا متدينين أصـــلاء مثــل جــرجو مارتيتش (Grgo Martić) زعيم الفرنسيسكان في سراييفو من خمسينيات حتى سبعينيات الألف وثمانمئة · ولكن البعض الآخر منهم لم يكتفوا بالأنشطة الدينية ، بل جمعوا السياسة الى الدين · وهؤلاء كانوا رجالاً من أضراب الفرنسيسكاني ايفان فرانيو يوكيتش الذى التقينــا من قبل بملحوظته التاريخية حول تحول النبلاء الى الاسلام في أثناء العصور الوسطى ، وهناك أيضا تيوفيل بترانوفيتش (Teofil Petranović) ، وهو مدرس بالمدرسة الأرثوذكسية بسراييفو في ستينيات الألف وثمانمئة · وقد شكل جماعة من الناس كانوا ينطلقون الى القــرى ليبلغوا الفلاحين الأرثوذكس بأنه « ينبغي لهم الكف عن تسميه انفسهم باسم هيرشاني Hirscani ، (وهو المصطلح المحلي الذى يطلق على الأرثوذكس) ، وأن يشرعوا في تسـمية أنفسهم باسم الصرب » ، وفاسو بيلاجيتش ، ناظر المدرسة الأرثوذكسيه في بانيا لوكا الذى كان يدعو الناس لنصرة قضية «القومية الصربية»(٣٠) · وأخيرا اعتقل بيلاجيتش وحكم عليه بالسجن ، وان أذن له بالبقاء في مقر المطرانية الأرثوذكسية بسراييفو بدلا من الذهاب الى السجن ·

ولكن على وجه العموم ، فان الأمر المستلفت للنظـر هو تســامح السلطات البوسنية ازاء مثل هذه النشاطات ، وقد كانوا بطبيعة الحال على وعى بأن القوميين على كل من جانبى الأراضي البوسنية في كرواتيا وصربيا، كانــوا يهدفون الى ضــم البوســنة الى أراضيهم · فان ضابطا من الجرينتسر (قوات الحدود النمساوية المجرية) بكرواتيــا هو الميجور انطونيى أوريشكوفيتش (Antunje Orešković) بلغ به الأمر أن حاول أن ينظم شبكة ثورية في البوســنة في أوائل ستينيات الألف وثمانمئة بقصد تفجير ثورة عامة وانشاء ولاية سلافية جنوبية جديدة ، ولكنه كان يعتزم كذلك تخليص الشعب من حكم النمساويين ، لذا كانت السلطات النمساوية هي التى انقضت عليه في النهاية هو وأصدقائه (٣١) · أما فيما

يتعلق بالدولة الصربية المستقلة استقلالا شبه ذاتي ، فان أطماعها في البوسنة كانت واضحة تماما • فان المفكر الصربي الأكبر فوك كاراجيتش نشر مقالا في ١٨٤٩ بعنوان « صربيون جميعا وفي أي مكان » ، ادعى فيه أن شعب البوسنة ودالماشيا أيضا ينتميان عرقيا الى الشعب الصربي (٣٢) • وفي ١٨٤٤ وجدنا وزير الداخلية الصربي ايليا جاراشانين (Ilija Garasanin) قد كتب مذكرة سرية وضع فيها بالتفصيل الخطط والوسائل التي تؤدي الى اثارة عاطفة موالية للصرب بين أبناء البوسنة ، وذلك بقصد استلحاقها في نهاية الأمر وضمها الى صربيا • ومن بين تلك الخطط تدريب البوسنيين الشبان داخل الادارة الصربية واستثمار جهود كبار الرهبان الفرنسيسكان (٣٣) • ونخطيء اذا نظرنا الى هذه المحاولات في ضوء الأطماع التوسعية التي ترمي الآن الى تأسيس « صربيا الكبرى» ، فهو أمر ينطوي على مفارقة تاريخية • ففي ذلك الأوان كانت صربيا هي الدولة الوحيدة التي كان في مستطاعها لعب الدور الذي لعبته « بيدمونت » في توحيد ايطاليا • فكل صربي شاء أن يرى دولة سلافية جنوبية تولد وتنمو ، كان من الطبيعي أن يرى ذلك لا يتم الا على أساس توسعة صربية بعينها • على أنه من الناحية الأخرى كان هناك كثير من قادة الفكر الكرواتيين ، مثل أنتي ستارتشيفيتش (Ante Startcevic) ويوجين كفاترنيك (Eugen Kvaternik) وهم قوم كانت لهم أيديولوجية مماثلة ولكنها معاكسة ومناقضة ، يعلنون فيها أن البوسنيين من الكروات (٣٤) • على أن السلطات المسلمة في البوسنة لم تكن بطبيعة الحال تتابع هذه المجادلات الفكرية متابعة تفصيلية ، بيد أنهم كانوا على وعي كامل واضح بأن البوسنة كانت غنما يتنافس عليه كلا الجارين الأرثوذكسي والكاثوليكي تنافسا واضحا للعيان •

وبينما كل هذه الاضطرابات تمضي في سبيلها ابان ستينيات الألف وثمانمئة ، كانت البوسنة تنعم بعقد من الزمان ذهبي الى حد ما ، تحت رجل من أعظم حكامها أريحية ، هو توبال عثمان باشا (Topal Osman-Pasa) • ويكاد يكون من المستحيل عليك الا تبدي اعجابك بهذا الرجل ، وذلك من ناحية جزئية لأن كثيرا مما نعرفه عنه قد جاءنا من مذكرات طبيب سويسري محب للأتراك هو يوزف كوتشيت (Josef Koetschet) ، الذى كان يقيم بسراييفو في ١٨٦١ حيث فتح بها صيدلية ، وأصبح محل ثقة ومستشارا لمجموعة متعاقبة من حكام البوسنة • وكان واضحا أن توبال عثمان باشا كان أحبهم الى قلبه • (وبدهي أن الأحوال لم تكن رغدة آنذاك وكان سبب مجيء كوتشيت الى البوسنة هو في المقام الأول أنه كان الطبيب الشخصي لعمر باشا لاتاس الذى أعيد

ارساله للمرة الثانية الى هناك قائدا عسكريا للقضاء على ثورة أخرى أشعلتها في الهرسك ، جارتها الجبل الأسود) (٣٥) • غير أن توبال عثمان باشا (وقد لزمته كنية توبال أى الأعرج ، اشارة الى اصابته بالعرج من جراء جرح أصابه في احدى المعارك) ، كان كما هو واضح خير مثال لرجل الادارة التركى المتحضر ، وكان فيما سبق أميرالا وحاكما مدنيا لبلجراد • وكان يجيد التركية والعربية والفارسية وآدابها جميعا ، كما كان يجيد كتابة الشعر التركى ، ويتحدث الفرنسية واليونانية • وشيد فى سراييفو مدارس اسلامية جديدة ، واذن للمجتمعات المسيحية ببناء مدارس أكثر لأولادها ، وبدأ مكتبة عامة تجمع الأعمال والكتب العربية والفارسية والتركية فى مسجد بيجوفا ، وأنشأ مطبعة كانت تنتج الكتب المدرسية ، كما انشأ صحيفة أسبوعية هى « بوسنيا » ، كانت تصدر بالصربوكرواتية والتركية • ثم طفق يعمل فى مشروع انشاء طرق ناشط طموح ، حتى أتم طريقا رئيسيا يمضى من سراييفو الى الشمال حتى يصل الى بوسانسكى برود (Bosanski Brod) فى مدى سنة واحدة • بل انه أمر فمد فرع السكك الحديدية من بانيالوكا الى الحدود الكرواتية ، وكذلك أيضا أنشأ مستشفى بسراييفو ، وهو أول مستشفى عام بالبوسنة كلها ، يحتوى على أربعين سريرا للمرضى من جميع الديانات (٣٦) •

وتمت على يديه أيضا بعض الاصلاحات السياسية • فان النظام الجديد للتجنيد العسكرى للمسلمين أدخل أخيرا الى البوسنة فى ١٨٦٥ ، وكان توبال عثمان باشا حذرا معهم ، فوعد بأنهم لن يستخدموا خارج البوسنة ، ورسم تخطيطا للاصلاح وبدأ فى تنفيذ ، بأن جند ما يربو على ألف متطوع • وفى السنة التالية نفذ بالفعل التغيرات البعيدة المدى التى استوجبها قانون اصلاح الأقاليم الصادر فى ١٨٦٤ • وقد شمل ذلك التغيير اعادة تنظيم ايالة البوسنة بأكملها ، (التى أصبحت تسمى منذ تلك اللحظة « ولاية ») ، وبذلك تم انشاء محاكم جديدة (مع محكمة استئناف مختلطة تجمع بين المسيحيين والمسلمين) ، وتم تقسيم المناطق البوسنية والهرسكية الى سبع سنجقيات كانت كل منها ترسل آنذاك ممثليها (اثنان منهم مسلمان والثالث مسيحى) الى جمعية استشارية كانت تجتمع لمدة قد تصل الى أربعين يوما مرة كل سنة ، لتشير على الوالى فى الشئون الاقتصادية والمالية : الزراعة وفرض الضرائب ، وانشاء الطرق ، وما الى ذلك كله • كما كان هناك بالاضافة الى ذلك مجلس تنفيذى صغير : مكون من اثنين من المسلمين ومسيحيين ويهودى واحد ، كان يجتمع برئاسة الحاكم مرتين كل أسبوع • ورغم الوضع الاستشارى للمجلسين ، لكن تأسيسهما كان

تقدما هائلا جدا ، عن الطريقة التى كانت تدار بها الأمور فى البوسنه على امتداد القرون الأربعة السالفة (٣٧) ٠

ومن أكبر المشاكل ، شأن الأحوال فى تلك الفترة الأخيرة من الحكم العثمانى فى البوسنة ، مشكلة العلاقات بين الفلاحين وملاك الأرض ٠ فهنا كان الاجراء الاصلاحى الرئيسى هو الفرمان الذى صدر فى ١٨٥٩ ، قبيل وصول توبال عثمان باشا بزمن يسير جدا ٠ وبذلك واجهه الدور الأصعب لتنفيذه ٠ كان الفرمان محاولة لتقنين العرف حول واجبات الفلاحين الذين كانوا يعملون بمزارع الاغالوكات ، وهى مزارع اقطاعيات التيمار السابقة التى ظل لها أساس قانونى فى العلاقات بين الفلاح ومالك الأرض ٠ حيث حددت المكوس المدفوعة لمالك الأرض بثلثى المحصول ، وهى المسماة بالتريتينا Tretina ومعناها الثلث) ٠ ولما كانت عشور الدولة ، وهى مدفوع نقدى يعادل عشر المحصول ، تخصم أولا وتقدر التريتينا أى الثلث على الباقى من المحصول ، فان ذلك كان معناه أن هذه المدفوعات الأساسية كانت تصل الى أربعين فى المئة من المحصول الكلى للفلاح ، كما كانت هناك ضرائب أخرى رسمية شتى ، كالضريبة الجديدة التى فرضت بدلا من الخدمة العسكرية ٠ وعندما يصف المؤرخون العصريون نظام الضرائب فى البوسنة بأنه « باهظ وتعسفى » لأنه « يمتص أكثر من أربعين فى المئة من ايراد الفلاح » ، فان قولهم هذا يكاد يغرينا أن نشير بأنه يماثل نسبة اجمالى الانتاج القومى المأخوذة من جميع أشكال رسم الضرائب فى كثير من دول القرن العشرين (٣٨) لكن المقارنة صعبة لأن العاملين فى عصرنا هذا يتوقعون أن يعود اليهم معظم ما يدفعونه من مبالغ فى صورة الرعاية الصحية والتعليم وما الى ذلك ، ولم يكن ذلك هو الوضع أيام الفلاح البوسنى ٠ ومن ناحية أخرى كان هؤلاء الفلاحون غير مضطرين الى شراء بيوتهم ولا استثمار أى مال فى الأرض ٠ وهناك مبدأ آخر قننه فرمان ١٨٥٩ ، هو أن مالك الأرض ينبغى أن يزود الفلاح بالدار التى يسكنها ، ويساعده فى وقايتها واصلاحها ٠ وكان الفلاحون أحرارا فى ترك مالك الأرض ، وكان لمالك الأرض الحق فى طردهم ، ولكن ذلك فقط بشرط عدم قيامهم بالعمل على الوجه المرضى ، وعدم دفع المكوس المفروضة ، وذلك مع الحصول على موافقة موظفى الحكومة الرسميين (٣٩) ٠ ومن سوء الحظ أن هذه القواعد لم تكن تنطبق الا على الاغالوكات ولم يكن لهما أثر على البكليكيات ، حيث كان ملاك الأراضى يستطيعون أن يقيموا آية علاقات تعاقدية شاءوا ٠ ومن ثم فان أثرها الرئيسى كان تشجيع ملاك الأراضى على نقل وتحويل حيازتهم للأرض من هذا الشكل الى ذاك ٠

ويرى يوسف كوتشيت فى دراسته لهذه الفترة أن هناك مبالغة وتضخيما فى تصـــوير ضروب الابتزاز وسوء المعاملة التى تعرض لها الفلاحون على أيدى ملاك الأراضى آنذاك حيث يقول :

> كان معظم موالى الأرض (الكميتس) يعيشـــون على أساس مقبول من المودة والصداقة مع ملاك أراضيهم · والواقع أنه كان يحدث فى السنوات السيئة أن ملاك الأراضى ـ وأعنى بهم الأغنياء والمحترمين فيهم كانوا يبذلون كل مساعدة ممكنة لموالى أرضهم · حقا انه كان هناك أيضا بعض الأغوات غلاظ الأكباد الذين كانت قبضتهم الحديدية ترسخ بثقل على كاهل الفلاح المسكين الذى لا يجد مدافعا يدفع عنه · ومع هذا فان العداء الذى كان ينمو ويستفحل فى مثل تلك الأحـوال كان ناجما عن المصلحة الاقتصادية ، أكثر منه عن مسببات دينيـة أو سياسية (٤٠) ·

ومن المؤكد أن الصورة التى يصورها كوتشيت للحياة فى سراييفو فى ذلك الوقت انما هى صورة وردية · حيث يستعيد ذكريات أيام الأحد فى الصيف ، يوم كانت العائلات الكاثوليكية والأرثوذكسية تخرج فى العصر للنزهة على سـفح التـلال المطلة على الطريق الى ايليـدج (Ilidze) وكان « المسلمون والمسيحيون واليهود يمضـون فى طريقهـم بسلام ··· وهم يستمتعون بدرجة واحدة من الاحساس بالأمن فى ذلك الزمن المبارك حينما كانت القلوب تجهل معنى التعصب عن الكراهية الدينية » (٤١) · ولم يحدث الا عند نهاية ستينيات الألف وثمانمئة حسبما يروى كوتشيت ان الجو أخذ يربد بعد أن انتهت السنوات التسع التى حكم فيها توبال عثمان باشا البوسنة · وفى ١٨٦٩ صدرت عن اسطنبول أوامر ملحة بالبحث عن مثيرى الشغب من السلاف الذين يدعمهم الروس ، ولذلك صـــدرت الأوامر الى كوتشيت نفسه ، من الوالى الجديد بالبحث عن مروجى الدعاية الصربيـــة فى ديـر دجيتوميسليتش (Djitomislich) الأرثـــوذكسى ، قرب موســتار ، وهو أمر أثار ضيقه (٤٢) · وحدث المزيـد من التذمر العلنى فى ستينيات الألف وثمانمئة أيضا ، ولم يكن موجها ضد ملاك الأراضى ، بل ضد جباة الضرائب التابعين للولاية ، الذين جـرت عادتهم على تجديد قيمة محصولات الفلاح (والمطالبة بالدفع) قبل جنيها ، وكان ذلك من أبغض الأشياء الى الناس · وحدث فى ١٨٦٨ أن ألفـا من الفلاحين الأرثوذكس والمسلمين احتجوا فى منطقة بوسافينا (Bosavina) بشمال البوسنة ، وفى ١٨٦٩ اجتمعت جماعة تقدر بمئة من الفلاحين المسلمين والأرثوذكس فقدموا احتجاجا مماثلا فى فوتشـــا (٤٣) · وهذه الأمثلة

للتعاون الديني المتبادل تؤيد ، والحق يقال ، وجهة نظر كوتشيت بأن الأسباب الأساسية للغضب والاضطراب كانت في الحقيقة اقتصادية أكثر منها دينية • ولكن في الوقت نفسه كان هناك بكل تأكيد احساس جديد بالعداء نحو المسيحية ، أخذ ينتشر بين صفوف رجال الدين المسلمين والخجات (Hodzas) أي معلمي الدين بمدينة سراييفو • ولم يحدث الا في فترة ١٨٧١ ـ ١٨٧٢ حسب رواية كوتشيت أن بدأنا لأول مرة نشهد صورة للكراهية الدينية » (٤٤) •

وهناك قضية بارزة هي قضية بناء الكاتدرائية الأرثوذكسية • وكان بناؤها ذاك رمزا للوضع القانوني المتغير للمسيحيين البوسنيين، الذين كانت ترعى مصالحهم آنئذ الهيئات القنصلية الأجنبية وحكومتا الدولتين «الحاميتين»ـ روسيا للأرثوذكس وحكومة النمسا والمجر (وذلك كان اسمها في تلك الآونة) للكاثوليك • والحق ان تدخل المنظمات المسيحية المتمتعة بالرعاية الأجنبية بأرض البوسنة ، يعد من أبرز مظاهر تلك الفترة : ففي ١٨٦٩ سمح لجماعة من الرهبان الكاثوليك من أرض الواين ، أن تبتني ديرا في بانيالوكا ، وفي ١٨٧٠ أنشأت بولين ابري (Pauline Ibry) مدرسة في سراييفو تمولها هيئة مسيحية انجليزية ، وتعمل بها معاونات بروتستانت من ألمانيا ، وفي السنة التالية وصلت الى البوسنة جماعة من الراهبات النمساويات (من أخوات الصدقة والاحسان) لكي يبتنين ديرا ويشتغلن بالتعليم الأولى (٤٥) • وعندما صدر التصريح في ١٨٦٣ ببناء كاتدرائية أرثوذكسية في سراييفو ، جمع لها المال من كل أرجاء العالم الأرثوذكسي ، وأخذ مبعوث من مطرانية البوسنة يطوف بكل أنحاء روسيا وهو يحمل أثرا دينيا مقدسا هو يد القديس تكلا ، ليجمع التبرعات (٤٦) •

وبينما المبنى يقترب من نهايته في ١٨٧٢ ، نشب نزاع مرير بين المجتمع الأرثوذكسي ورجال الدين المسلمين ، الذين أصروا أن برج الجرس الكاتدرائيــة ينبغي الا يعلو على مئذنة مسجد بيجوفا (٤٧) • فأما قرع الأجراس فكان في حد ذاته أعجوبة وبدعة ، فقد جرت العادة الثابتة أمدا طويلا أنه ليس بالمسموح في المدن العثمانية باى دق للأجراس المسيحية • وشرع بعض الديماجوجيين من الحجاب والأئمة في اثارة السكان المسلمين وتهييج أنفسهم على هذه المسائل • وكان أحدهم رجلا ضخم الجثة متبجحا فظا يدعى الحاج لويو (نظرا لأنه حج الى مكة) ، وكان يعامل على أنه حجة في الدين وان كان في الحقيقة غير متعلم على الاطلاق (٤٨) • فأما الآخر فبع الامام المتعصب لمسجد بيجوفا • ومهما يكن من شيء ، فانه عندما أثار ذلك الامام الجدل حول قرع الأجراس في الكنائس ، وجد من هو كفؤ له في الوالي الجديد ، وهو ألباني لا يحب الهراء اسمه محمد عاكف باشا، ع

وبدأ الامام حديثه بتلاوة آية من القرآن . فصاح به الوالي : « صمتا أيها الحمار ! أتريد أن تعلمني القرآن ؟!! ... أنت اذن لا تطيق سماع صوت الأجراس أيها الكلب ؟!! ... وأنتم أيضا يا من معه من الناس ... أبلغتم من الغباء حتى لا تدركوا أن هذا الوغد لن يمتنع أن يدق الأجراس بنفسه ، ما دام سيدفع له خمسون قرشا في كل شهر على أداء ذلك ؟ » (٤٩) .

وفي صيف ١٨٧٣ ، فر أربعة وعشرون تاجرا مسيحيا من البوسنة الى كرواتيا ، وقالوا ان « كثيرا » من المسيحيين نفذ فيهم حكم الاعدام في البوسنة بسبب تآخيهم مع القنصل النمساوي (٥٠) . وأعطيت مثل هذه الحوادث أهمية عظمى في الكتابات النمساوية حول أحداث سبعينيات الألف وثمانمئة ، وذلك نظرا لأنها بدت كأنما تضع التزاما خلقيا أو دينيا على النمساويين للتدخل . ولكن الأسباب الحقيقية التي أدت الى انهيار الحكم العثماني وتدخل الجيش النمساوي كانت أسبابا اقتصادية وسياسية وليست دينية . اذ حدث في صيف ١٨٧٥ أن جاءت الأخبار بأن الفلاحين المسيحيين في منطقة نيفيسينيا في الهرسك (شرق موستار) ، قد فروا الى الجبال تجنبا لدفع العشور الحكومية التي كانت تشكل عشر أو ثمن محصولاتهم ، وذلك لأن المحصول فشل فشلا تاما في ١٨٧٤ ، ولكن جباة الضرائب المحليين (واثنان منهم مسلمان والثالث مسيحي) ، لجأوا الى اجراءات عنيفة مع الناس لاجبارهم على الدفع . وما كاد شهر يوليو يبلغ منتهاه حتى كان جميع الفلاحين في المنطقة قد لجأوا الى الجبال وقد شرعوا في القيام بمقاومة مسلحة (٥١) . وكانت هذه منطقة حساسة جدا من الناحية السياسية بسبب شدة قربها من تخوم الجبل الأسود : وقد نقلت حكايات أخرى كثيرة سابقة حول الصراع بين القوات العثمانية وقوات الجبل الأسود ، كحملة عمر باشا في ١٨٦٠ - ١٨٦١ ، كما أن أمير الجبل الأسود ، وهو عميل الروس حامت حوله الشبهات بأنه أرسل الرجال والأسلحة لاثارة الشغب في الهرسك (٥٢) .

وسرعان ما اخذت ثورات أخرى للفلاحين تحدث بشمال البوسنة ، ففر من جراء ذلك أعداد ضخمة من الناس الى كرواتيا والجبل الأسود - اما بسبب تعرضهم لأعمال العنف أو من جراء الضرائب الفادحة ، أو بسببهما كليهما (٥٣) . وكان السبب الأساسي للتذمر بين الناس زراعيا بحتا ، ولكن السكان الأرثوذكس ، الذين انشأوا علاقات اتصال مع صربيا ، ركبوا الموجة وصرحوا الآن علنا بولائهم للدولة الصربية (٥٤) . وعندئذ تقاطر على البلاد متطوعون من صربيا وسلافونيا وكرواتيا وسلوفينيا ، بل حتى من روسيا نفسها (بالاضافة الى بعض الغاريبالديين الايطاليين ومغامر هولندي يدعى يوهنا باولوس) ، وذلك لاعتقادهم بأن

ليقظة لسلاف الجنوب كانت على الأبواب (٥٥) · وجمع والى البوسنة جيشا فى البوسنة والهرسك ارتكب أعمالا وحشية لكنها لم تؤت اى أثر ثناء خريف ١٨٧٥ ــ ١٨٧٦ وشتائها القارس · وهنا استنفر البكوات فرق جندهم غير النظامية المسماة بالباشى بزق (Bashi-bazouks) واذ خافوا من هزيمة عامة فى البوسنة شرعوا فى ترويع السكان الفلاحين · وتم فى أثناء ١٨٧٦ احراق مئات من القرى وقتل خمسة آلاف فلاح على الأقل ، عند نهاية السنة بلغ عدد اللاجئين من البوسنة فيما يرجح مئة الف انسان وربما كانوا ٢٥٠ الفا (٥٦) ·

وعند منتصف ١٨٧٦ كانت هذه الأزمة الكبيرة قد أصبحت أزمة دولية · فأخذت الأنباء تنتشر بكل أرجاء أوربا عن شبوب ثورة مماثلة فى بلغاريا ، وعن اخمادها بوحشية بالغة (وهى الفظائع البلغارية التى روعت الشيخ المسن جلادستون (*)) ، بل وحدث أيضا فى يوليو ١٨٧٦ أن صربيا والجبل الأسود أعلنتا الحرب على الامبراطورية العثمانية بعد أن اتفقتا فيما بينهما على أن تستلحق الأولى البوسنة وتضم الثانية الهرسك · وحققت الجبل الأسود بعض النجاح العسكرى ، ولكن صربيا منيت بهزائم فى الحرب ولم ينقذها من اعادة الفتح العثمانى لها الا تدخل الحكومة الروسية ، التى أجبرت الترك على قبول هدنة فى شهر نوفمبر · ولكن تصرفات صربيا أدت الى زيادة شدة السلطات البوسنية فى موقفها المعادى لسكانها وأبناء وطنها من الأرثوذكس · فان هناك لاجئا سمع تقارير فى ١٨٧٧ بأن « هناك عملية تنظيف تام لأبناء الشعب الصربى فى البوسنة ، ذلك لأن السلطات التركية تقتنصهم وتقضى عليهم وتعطى تفويضا تاما للباشى بزق والغجر وكذلك للكاثوليك واليهود بالقضاء عليهم » · (ومع هذا فان هذه الملحوظة عن الكاثوليك واليهود انما تشير بوضوح الى أن اللاجئين كانوا من الأرثوذكس المتحيزين) ولاحظ آرثر ايفانس أنه « كانت من أعجب الظواهر فى التمرد الحالى هى الطريقة التى حاربت بها جنبا الى جنب الطائفتان المسيحيتان » (٥٨) ·

وفى ١٨٧٧ أعلنت روسيا الحرب على الامبراطورية العثمانية · وجرت بالفعل قبل ذلك مفاوضات كثيرة وراء الكواليس بين الروس والنمساويين ابتغاء وضع خطة لاقتطاع نصيب من أرض البلقان لكل منهما · ومع ذلك فقد حدث فى بواكير ١٨٧٨ ، يوم أوشكت القوات الروسية أن تصل الى

(*) جلادستون ، وليم ايوارت (١٨٠٩ ــ ١٨٩٨) : سياسى بريطانى خطيب حجة فى الشئون المالية وفى عهد رئاسته للوزارة احتلت بريطانيا مصر ــ (المترجم) ·

أبواب اسطنبول ، أن تمكنت الروسيا من املاء شروط صـلح ، أشبعت مصالحها أكثر مما ارضت مصالح النمسا • وبمقتضى هذه الاتفاقية ، المسماة بمعاهدة سان استيفانو ، وسعت بلغاريا ، أكبر عميل لروسيا بأرض البلقان ، توسيعا هائلا ومنحت ما كاد أن يكون اسـتقلالا ذاتيا تاما • وظلت البوسنة أرضا عثمانية ، شريطة أن تدخل اصلاحات متنوعة اليها ، وبمقتضى المادة الرابعة عشرة من المعاهدة وجب أن تستخدم أيرادات البوسنة لخدمة الأغراض البوسنية البحتة (تعويض اللاجئين والسكان) مدة السنوات الثلاث التالية (٥٩) •

عند ذلك استيقظت الأحلام القديمة للبكوات البوسنيين ، في الحصول على حق الحكم الذاتي للبوسنة داخل الامبراطورية العثمانية • ولاحظ آرثر ايفانس في ١٨٧٧ ، أن الولاة والموظفين الرسميين العثمانيين « موضـع مقت المسلمين البوسنيين والمسيحيين البوسنيين على السواء » (٦٠) • ومن سوء الحظ أنه بعد أحداث السنوات الثلاث الأخيرة ، بلغ المقت المتبادل بين البوسنيين المسلمين والمسيحيين من الشدة بحيث انه لو تركت البوسنة وشأنهـا ، لأصبحت دار قلاقل حامية أمد سنين طويلة آتية • كانت تلك احدى الاعتبارات التى ثقلت وطأتها على الدول الاوربية عندما اجتمعت فى مؤتمر برلين فى يوليـو ١٨٧٨ لإعادة كتابة التسوية التى تمت فى سان استيفانو ، ورسم الخريطة من جديد • وأهم من هذا كانت رغبتها فى اعادة التوازن ازاء نفوذ الروس القسم فى البلقان ، ووضع حد لاتجاهه الى البحر المتوسط • وهكذا لم يقتصر مؤتمر برلين على قصقصة أطراف بلغاريا ودفعها الى الجنوب ، بل وأعلن أيضا أن البوسنة والهرسك ، وان ظلتـا من الناحية النظرية تحت السيادة العثمانية ، لابد لهما من أن تحتلهما وتديرهما النمسا والمجر •

وللمرة الثانية وقع النمساويون فى نفس الخطأ الذى وقعوا فيـه أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر : حيث افترضوا أنهم سيكونون موضع الترحاب من معظم الشعب البوسنى ، والا لما أقدموا البتة على ارسال أخبار قرارات المؤتمر الى سراييفو البرق فى اليوم الثالث من يوليو ، قبل حصول الصحف الأوربية عليها بعشرة أيام • وفى اليوم الخامس من يوليو عقد اجتماع عام للمسلمين بمسجد بيجوفا ، وظهر الحاج لويو المثير التقدى للشعب وبسط بيرقا أخضر ، (رمزا للاسلام) وشد على رأس المجتمعين الى دار الوالى (٦١) • ووافق الوالى على تعيين « قومندان » عسكرى والاستعداد لمقاومة النمساويين • ولكنه فيما يبدو لم يكن مؤيدا لهذه السياسة التى تنطوى على تحد علنى لالتزامات السلطان فى المعاهدة • وفى

اليوم العشرين حذرت صحيفة سراييفو من وقوع غزو نمسوي وشيك ، وبعد اربعة أيام عبرت طلائع الجيوش التمساوية بالفعل نهر السافا • وقاد الحاج لويو مظاهرة أخرى الى دار الوالي في السابع والعشرين ، وشجع الحامية على التمرد ، وحصل من الوالي عنـوة على قرار بطـرد كثير من الموظفين الرسميين وتأليف « حكومة قومية » • وفر القائد العسكري عن المدينة مع مئة من الجند الراكبة ، ولكن تم القبض عليـه ، واقنـاعه بأن يساعد في تنظيم الدفاع ضد النمساويين (٦٢)

وفي الحين نفسه ، حصل الحاج لويو على المساندة المتحمسـة من كبار القساوسة الأرثوذكس ، الذين سعدوا بالظن بأن البوسنة قد رمت عن كاهلها الحكم العثماني وأنها ليست لديها أدنى رغبة في أن يحل محله حكم النمسا ، وعقد اجتماع عام للمسلمين والأرثوذكس كان من شـأنه كما يذكر بعد ذلك يوزيف كوتشيت: «أن الأرشمندريت سافا كوسانوفيتش (Sava Kosanovic) والقسيس ريستو كانتا نوفاكوفيتش (Risto Kanta Novakovcic) ، وقد ارتديا ثيـاب رؤساء القرابضة (قطاع الطرق) اللصوص ، بما في ذلك التمنطق بالغدارات والخناجر ، وضعا نفسيهما على رأس جمهور من الشباب الصربيين وطفقوا يرددون الأناشيد » • وفي اليوم الثاني من اغسطس عقدت مسـيرة من المتطوعين المسلمين تصحبهم « الكتيبة المسيحية التي تتكون من الأرثوذكس بشكل ساحق جارف ، مع قلة قليلة جدا من الكاثوليك » • ولكن رصيد لويو انتهى بعد ذلك بزمن غير بعيد ، عندما أطلق النار على فلاح مسيحي شاب • ولكن اعماله نجحت في اثارة المسلمين في أجزاء أخرى من البوسنة ايضا ، وهنا تجمعت قوات غير منظمة الى حد ما ، بأجزاء متنوعة من الاقليم بلغت عدتهـا ما يقارب الأربعين الف رجل (٦٣) •

فأما النمساويون فكانوا من الناحية الأخرى اثنين وثمانين الف رجل • منهم ٩٤٠٠ جندي كانوا يؤلفون «قوة احتلال» المنوط بها التقدم الى داخل البلاد من دالماشيا والتمسك بالأماكن التي تستولي عليهـا القوة المحاربة الرئيسية • وكانت القوة الرئيسية ، تحت قيـادة قومندان كرواتي هو البارون يوزيب فيليبوفيتش (Josip Filipovich) تتحرك بسرعة مخترقة شمال البوسنة مستولية على بانيالوكا ومجلاى وبايسه • وكان النمساويون في جودة من عدة السلاح ، كما كانوا على علم جيد بمدن البوسنة وطرقها وكبارها ، وكان ذلك بفضل رجل مساحة نمساوي عسكري سمحت له السلطات البوسنية ، بمنتهى البراءة والسذاجة ، أن يطوف في أرجاء القطر في ١٨٧١ ــ ١٨٧٣ (٦٤) ، وفي (١٦) اغسطس تمكنوا من أن ينزلوا هزيمة

ثقيلة بقوة بوســنية بمعــركة كلوكوتى (Klokoti) قرب فيتيز (Vitez) .
وفى ١٨ اغسطس وصل النمساويون الى أرباض سراييفو . فبدءوا الهجوم فى الصباح التالى بقصف مدفعى فى الساعة السادسة والنصف صباحا . ثم دخلت المشاة المدينة حيث أطلقت عليهم النيران « من كل بيت ، ومن كل نافذة ومن كل باب ... حتى النساء أنفسهن اشتركن فى ذلك » .
ولكن المعركة حسمت في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، وبلغت خسائر النمساويين ٧٥ قتيلا و ٣١٤ جريحا . ثم تحرك الجيش الى الأمام مخترقا أرض الهرســـك وسنجقية نوفى بازار فيما تبقى من اغسطس وسبتمبر ، وفى العشرين من أكتوبر كان الاحتلال التام للبوسنة والهرسك قد اكتمل . ولم يستغرق ذلك منهم الا أقل من ثلاثة أشهر . نعم أنه قد حدثت مقاومة عنيفة بشكل ما ، وتكررت هجمات من نوع حرب العصابات:
والخلاصة ، وقعت ثلاث وخمسون معركة ، انتهى الكثير منها بالإستيلاء على مدن محصنة ، وبلغ عدد الخسائر النمساوية النهائي ٩٤٦ قتلى و ٣٩٨٠ جرحى . ولم تستطع أية مدينة أن تصمد أكثر من يومين كاملين ، ولو سلمنا بالحالة الرهيبة التى كانت عليها الطرق ، لم يكد يكون من المبالغــة بأية حال القول بأن الجيش النمساوى فتح البوسنة فى مدة زمنية لاتزيد كثيرا عن الوقت الذى يتطلبه ذرع أرجاء الاقليم (٦٥) .

الفصل الحادى عشر

البوسنة تحت الحكم النمساوى المجرى
١٨٧٨ ـ ١٩١٤

لم تتخذ دولة النمسا والمجر قرارها بالاستيلاء على البوسنة الا بعد تردد وتمنع · وبطبيعة الحال ظل المعقبون يحاجون طويلا بأن البوسنة تمتلك قدرا عظيما من الثراء (الزراعة والغابات والموارد المعدنية) ، وأن من المعقول لها أن تنمى كجزء من وحدة اقتصادية مع الساحل ـ الذى كان أرضا نمساوية · وكان العسكريون فى النمسا حريصين أيضا على فتح الأراضى الداخلية التى تقوم وراء الساحل الدالماشى المستهدف وغير الحصين (١) · ولكن عندما طرحت فكرة الاستيلاء على البوسنة للمناقشة فى ١٨٦٩ ، كان اثنان من صناع السياسة فى الدولة ضدها : وهما جيولا أندراسى (Gyula Andrassy) وزير الخارجية ، وبنيامين كاللاى (Benjamin Kallay) خبير التاريخ السلافى الجنوبى (والمؤلف فيما بعد لتاريخ معتمد عن الصرب) ، وكان يشغل آنذاك وظيفة القنصل النمساوى فى بلجراد · ولم يكن واحد منهما ليريد للنمسا والمجر أن يبهظ عاتقها بثقل مليون أو ما يقاربه من السلاف (٢) ·

ولقد كانت هناك مشاكل سياسية لابد أن يتمخض عنها ذلك التكوين ذو النوع الخاص للملكية الثنائية : فهل تحكم النمسا البوسنة أم تحكمها المجر ؟ أو تحكمها لجنة مشتركة ؟ أم هل سوف توحد مع كرواتيا ، التى كانت تستمتع منذ ١٨٦٨ بنوع من الحكم الذاتى (مع حاكم تعينه المجر)، ولها برلمان كرواتى خاص بها ومجموعة من أعضاء البرلمان فى البرلمان المجرى ؟ لقد كانت المتاعب التى لاقتها النمسا من كرواتيا أقوى سبب دعا الى عدم الرغبة فى ضم البوسنة هى الأخرى : فزيادة عنصر ضخم آخر من السلاف الجنوبيين لابد أن يزيد من قوة حجة أولئك الكروات الذين

يطالبون بوضع قانونى أعظم لوطنهم · وكان بعضهم يطلب أن ترفع كرواتيا الى درجة المشاركة المتساوية مع النمسا والمجر (وهو ذلك الرأى المسمى بالفكرة الثلاثيـة) · وكان غيرهم يهدف الى منح كرواتيـا استقلالا تاما وتأسيس دولة سلافية جنوبية · ولكن لم تلق واحدة من هاتين الخطتين ترحابا لا من فيينـا ولا من بوادبست · ولكن كان هنـاك شيء كانت السلطات النمساوية والمجرية أشد حرصا على تجنبه : فان توسيع كرواتيا حتى تصبح دولة سلافية جنوبية سيكون أمرا سيئا والحق يقال · ولكن اذا كان لصربيا أن تفعل ذلك وتنفذه بدءا بامتصاص البوسنة وانتقالا الى تقويض الحكم النمسوى المجرى فى دالماشيا ، فهو أمر أسوأ كثيرا · وكان اعلان صربيا الحرب على العثمانيين فى ١٨٧٦ هو العامل الحاسم الذى أفضى بالنمساويين الى التفكير جديا فى الاستيلاء على البوسنة ، ولو أنهم كانوا على يقين من أن السلطان يستطيع أن يحتفظ بالسلطة فى البوسنة الى أبد الآبدين ، لما أهمهم الأمر فى قليل ولا كثير ·

حتى اذا وقع المحظور ، وأصبحوا هم المسئولين عن حكم البوسنة لم يبق مجال لأنصاف الحلول · وتم الاتفاق مع الحكومة العثمانيـة على مجموعة من البيانات حـول ما ينبغى أن يحدث فى البوسـنة فى أبريل ١٨٧٩ ، ولكن بعض هذه البيانات كانت أنصاف حقائق ، وبعضها الآخر لاينطوى على أية حقيقة اطلاقا · وتم الاتفـاق على أن : الحاق البوسـنة بالنمسا والمجر « لايمس حقوق السـيادة لصاحب الجلالة الامبراطورية السلطان » ، وأن العملة التركية ستظل مستمرة التداول ، وأن ايرادات البوسنة ستستخدم محليا ، وأن الادارة الجديدة ستستخدم موظفين من الأتراك فضلا عن الأهالى البوسنيين ، وأن يباح للمسلمين حرية العبادة ، وأن يظل اسم الخليفة السلطان قائمـا يردد فى صلاة الجمعة (٣) · تلك وعود صدرت ، ولكن لم ينفذ منها بدقة الا الاثنان الأخيران ، فاستبعدت النقود التركية وأدخلت البوسنة فى اتحاد الجمارك النمسـاوية المجرية (وكان معنى ذلك أن ايرادات الجمارك التى تجمع على الحدود البوسنية كان فى الامكان انفاقها فى أى مكان من الامبراطورية) ، وانتقلت الإدارة الى حد كبير الى مواطنين نمساويين مجريين · أما فيما يتعلق بسـيادة السلطان فان أية فكرة بأن هذه الولايات المحتلة قد تعود ذات يوم الى الحكم التركى كانت مستبعدة منذ البداية ولم يعد أمام البوسـنة ما تصبو اليه أكثر من أن يتحول الاحتلال الى ضم بحيث تغدو جزءا من الامبراطورية · وعندما انضم الامبراطور النمساوى الى حلف الأباطـرة الثلاثة مع روسـيا وألمانيا فى ١٨٨١ ، كان من بين الفقرات السرية نص : « ان دولة النمسا

والمجر تحتفظ لنفسيهــا بالحق في ضــم الولايات في أية لحظة تراها مناسبة » (٤) ٠

أما مشكلة ضم البوسنة ، وهل يكون ذلك الى النمسا أو المجر ، فقد حلت بجعلها أرض تاج (Crown Land) ، ومعنى ذلك أنهــا كانت لا يحكمها أحد منهما ، وفي الوقت نفسه كان يحكمهــا كلاهما ٠ وأنشئت لجنة مشتركة تابعة لوزارة المالية المشتركة (أى النمساوية والمجرية) . ومن الناحية النظرية كانت السلطة الرئيسية في البوســنة بيد الحاكم العسكرى المسؤول مباشرة أمام التاج ، غير أن وزير المالية المشتركة هو الذى كان يضع القرارات السياســية الواجب اتباعهــا ٠ ومن الناحية النظرية أيضا كانت البوسنة تعيش تحت ظل القانون العسكرى ، ولكن اعلانا صدر فى أواخر ١٨٧٨ يعلن أن جميع القوانين العثمانية ستظل نافذة المفعول حتى اعلان آخر ، ولم تكن هذه القوانين تستبدل بأخرى أو تستكمل بالقوانين النمساوية المجرية وبالقوانين الجديدة المخصوصة بها البوسنة الا بالتدريج البطيء ٠ وكذلك بقيت سلطة المحاكم الشرعيــة التى تنفــذ الشريعة الاسلامية وتحكم مجموعة من المسائل المدنية بين المسلمين ٠ وعلى العموم لم تمس الادارة الجديدة البنية الأساسية للادارة العثمانيــة في الجوانب التى رأت أنها صالحة للعمل فلم تطبع بالطابع النمسوى المجرى الا من حيث الاسم وهيئة العاملين بها : وأعيدت تســمية السنجقيــات بالمناطق ، كما أن أحياءها الصغرى وهى القاضيلوكات سميت بالنواحى ويرأس كلا منهــا مشرف ٠ لكن بينمــا كان العثمانيون يحكمون تلك الأراضى كلها بمئة وعشرين موظفا ، فان عدد الموظفين الاداريين النمساويين المجريين ــ من جــراء خليط عجيب من البيروقراطيــة المطلقــة وقوانين باركنسون ــ ارتفع حتى وصل فى ١٩٠٨ الى ٩٥٣٣ (٥) ٠

وكانت السنوات القليلة الأولى أصعب السنوات وطأة على الادارة الجديدة ٠ وكانت هناك منذ البداية مشاكل كبيرة مثل الحاجة الى اعادة أكثر من مئتى ألف لاجيء الى ديارهم ، وكانت نيران العنف تشتعل أحيانا فى بعض المناطق ، وذلك بوجه خاص فى تلك المناطق من الهرسـك التى كان الجبل الأسود لايزال يضمر نحوها بعض الأطماع : فثارت فتنة فى منطقة نيفيسينيا للمرة الثانيــة فى ١٨٧٩ ، كما حدث هجوم خطير على وحدة من الجند قرب جاكو (Gacko قرب الحدود مع الجبل الأسود) فى ١٨٨١ (٦) ٠ ولكى تبث الحكومة النمساوية دعائم الثقة بين السكان فى الهرسك ، وتشجع اللاجئين على العودة الى ديارهم ، عمدت الى انشــاء قوات ميليشيا عسكرية محلية خاصة هى « الباندور » ، على أن كثيرا من

أعضاء الميليشيا هؤلاء تمردوا هم أنفسهم ، فتحول بعضهم الى عصابات قطاع طرق (٧) . وفي نوفمبر ١٨٨١ بلغ عدد جند النمسا والمجر ١٢٨٤٠ في البوسنة وحدها فقط ، و ٤٠٠٠ في الهرسك . وكل هذا العدد لابد أن يكفي لحفظ السلام والنظام ، الا أن السلطات أعلنت اجـراء جديدا قدر له أن يكون موضع بغض الشعب : وهو قانون للجيش يجعل جميع البوسنيين من الذكور تحت طائلة التجنيد في القوات المسلحة النمساوية المجرية . وسرعان ما نشأ غضبان مسلح ببلاد الهرسك ، ولما انتصف شهر يناير ١٨٨٢ حتى انتشرت عصابات الثوار بالمنطقة (٨) .

وتشير التقارير النمساوية الى هؤلاء العصاة بأنهم « لصوص » ، ولا شك في أن بعضهم كان ينطبق عليه ذلك الوصف ، ولكن انضم اليهم زعماء الباندور ورؤساء القرى الكبار أيضا ، ولم تكن أنشطتهم الأولى ولا الأساسية هي السرقة بل مهاجمة مراكز الشرطة ومواقع الجيش . ووقع طابور من المشاة أرسل لمنازلتهم ، تحت نيران كمين كمن له في طريق بين التلال واضطر الى التقهقر الى موستار . وعندئذ أرسلت عليهم قوات أكبر . وتواصل القتال أثناء فبراير بأكمله بالمنطقة المحيطة بفوتشا التي تضم بعض الجبال الممتدة بين فوتشا وسراييفو . وقدر أن العصاة وصل عددهم الى ألف رجل مقسمين الى رهط يغلب عليه الأرثوذكس بقيادة ضابط من ميليشيا الباندور هو بترو تانجوز (Petro Tanguz) وثلة مسلمة تحت

قيادة مالك أرض شهير هو عمر شناتشيتش (Omar Satció) وثلتان مختلطتان (٩) . وبالتدريج تمكنت القوات النمساوية المجرية من استعادة سيطرتها على المنطقة . حسب نص التقرير الرسمي : « ان المنطقة كلها التي كانت تغطيها شبكة كثيفة من الطوابير السريعة الحركة ، التي كانت لا تبرح تلتف حول العصابات وتضيق عليهم الخناق حتى انهم بعد محاولات عديدة من المقاومة العنيدة ، عادوا فاستسلموا تماما في شهر يناير » (١٠) . واستمرت عصابات من أنواع مختلفة بأرض الهرسك مدة تزيد على عقد من الزمان . كان هذا هو التمرد الخطير الأخير على الحكم النمساوي .

وهناك سبب لضعف المقاومة وهو أن عددا ضخما من العناصر المتشددة في عدائها للنظام الجديد غادر البلاد بصورة نهائية . وكانوا في غالبيتهم من المسلمين الذين رحلوا الى بلاد الترك — ومنهم من كان يأبى لدواع دينية أن يعيش في ظل الحكم الكافر ، كما أن بعضهم ، بلا شك ، ممن خافوا أن تأخذهم العدالة بما فعلوا أو الانتقام منهم على الأشياء الرهيبة التي أنزلوها بالمسيحيين أثناء السنوات الأخيرة من الحكم العثماني .

وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء المهاجرين من الفلاحين ، بيد أنه كان بينهم أيضاً بعض ملاك الأرض الذين أسسوا في اسطنبول جماعة تطالب بضغط سياسي تركي أكبر على الحكومة النمساوية المجرية في البوسنة (١١)· فكم كان عدد المهاجرين النهائي ؟ تلك مسألة دار حولها جدل شديد وحام بين المؤرخين المحدثين · على أن السلطات النمساوية المجرية أصدرت بيانا رسميا يذكر أنه بين ١٨٨٣ ــ ١٩٠٥ غادر البلاد ٣٢٦٢٥ وعاد اليها ٤٠٤٢ (١٢) · ويفيد بيان آخر بأن أربعة وعشرين ألفا غادروا البلاد بين ١٩٠٦ و ١٩١٨ · على أن هذه الأرقام لاتذكر الا الذين حصلوا على تصريحات رسمية بمغادرة البلاد ــ وهو شرط فرض في ١٨٨٣ عندما أحست الحكومة بالانزعاج ازاء عدد الناس الذين يهاجرون تجنبا للتجنيد · وهو لايضم عدد أولئك الذين خرجوا من البلاد بطريقة غير قانونية ، ولا أحدا من أولئك الذين فروا في السنوات الأربع الأولى· وادعى بعض مؤرخي المسلمين أن العدد الكلي للمهاجرين بلغ ثلاثمئة ألف انسان ، بيد أن ذلك الرقم يبدو عاليا جدا الى درجة غير محتملة · وهناك جغرافي درس عدد السكان المهاجرين وذرياتهم ، وقدر بأنه يوجد الآن ٣٥٠ ألف بوسنياك (*) في تركيا ، ومع ذلك ، فان ذلك المصطلح يطلق في تلك البلاد (أي تركيا) على أولئك الذين جاءت أسراتهم من صربيا والجبل الأسود بالاضافة الى البوسنة أيضا ــ كما أن العدد الكلي اليوم يتضمن أعدادا ضخمة ممن انتقلوا عن البلاد في فترة ما بين الحربين(١٣)· على أن المؤرخين الصربيين من الناحية الأخرى ، يقدرون العدد الكلي بأنه يقارب الستين ألفا ، وهو رقم معناه القبول بصحة الاحصائيات الرسمية بما لايترك الا ما لايزيد عن ثمانية آلاف في الفترة المنقضية بين ١٨٧٣ و ١٨٨٣(١٤)· ولا شك في أن عددا يقارب دائرة المئة ألف يعد رقما محتملا أكثر كثيرا لصافي الهجرة والمهاجرين ، على أن هذا لا يخرج عن كونه مجرد حدس فقط · وينبغي ألا ننسى أنه ليس كل هؤلاء من المسلمين ، فان مئات كثيرة من الفلاحين الأرثوذكس ظلوا يغادرون بلاد الهرسك كل عام حوالي منعطف القرن(١٥)· وهناك اديث درهام ، وهي من أشد المراقبين الأجانب دقة ادراك وبعدا عن التعاطف مع النمسا ، وهي تورد سببا بسيطا للهجرة بين ١٩٠٠ و ١٩١٠، قالت : « كانت الأجور منخفضة ، والفلاحون في غاية الفقر · وكان بالامكان الحصول على أجور عالية جدا بأمريكا ، فبلغ عدد المهاجرين اليها الألوف ·

(★) بوسنياك : مصطلح يسمى به أهل البوسنة المهاجرون منها الى تركيا ــ (المترجم) ·

ورغم أنهم كانوا ينسبون هجرتهم الى الحكم النمسوى ، بيد أن الشيء نفسه كان يحدث بالجبل الأسود ... لقد كان الأمر كله مسألة اقتصادية من عرض وطلب » (١٦) .

وكان السبب الرئيسى فى السخط على النمسا والمجر بين هؤلاء الفلاحين المسيحيين ، هو خيبة توقعاتهم فى حدوث اصلاح لنظام الملكية الزراعية . وكان هذا أبرز مثال من أمثلة السياسة النمساوية المجرية فى حرصها على الاستمرار على القديم . والتدرج فى التحديث . وقد استقر الرأى منذ مرحلة مبكرة جدا ، على أن آخر اصلاح عثمانى ضخم ، وهو فرمان ١٨٥٩ سيظل قائما ومعمولا به ، وأنه لن تدخل أية تغييرات جذرية على ذلك القانون منذ تلك اللحظة . وقد بذلت جهود صغرى لتحسين حال الفلاحين : فان تقدير قيمة محاصيلهم وكل الى مندوبين ضرائبيين عدول ، والى خبراء فى التقدير ، وأنشىء سجل للأراضى ديدنه الاعتدال لمنع التعديات التى كان يقوم بها ملاك الأراضى ، كما انشىء نظام لتقدير متوسط العشور . (ومعنى ذلك أن العشور كانت تحدد على أساس متوسط أو معدل الانتاج فى السنوات العشر الأخيرة ، وبذلك يدفع فلاح يكون محصوله فى ازدياد أقل من نسبة العشور المتوجبة على محصول سنته الجارية) . وتم التأكيد على حق موالى الأرض فى تحرير أنفسهم بدفع مبلغ على سبيل التعويض — وهى قاعدة كانت قد أقرت فى قانون تركى صدر فى ١٨٧٦ ، كما أدخلت اجراءات اضافية على الوسائل التى تزيد قدرتهم على دفع ذلك المبلغ بسهولة . وتمكن ٤١٥٠٠ من أقنان الأرض من تحرير أنفسهم بهذه الطريقة فى المدة من ١٨٧٦ الى ١٩١٣ ، ولكن فى أوائل ١٩١٤ قدر وجود ٩٣٣٦٨ أسرة من موالى الأرض يعملون فى مزارع الأغالوك التى كانت تمثل على وجه التقريب ثلث الأرض الزراعية كلها (١٧) . ولا يغيبن عن الأذهان أن تسميتهم باسم أقنان الأرض لا يعنى مع ذلك أنهم كانوا جميعا يعيشون فى ضنك وضغط وظلم . فان المؤرخ البريطانى وليم ميللر لاحظ عندما زار البوسنة فى تسعينيات الألف وثمانمئة ، أن « قن الأرض البوسنى أيسر حالا من الفلاح الدالماشى أو الصقلى » ، كما أنه لاحظ أيضا أن تكرار تقسيم الأرض حسب شريعة الأتراك فى قوانين ميراثهم ، أدى الى تفتيت ثروة الكثير من الأغاوات بحيث أصبحت لاتزيد على ثروة الفلاحين من أصحاب الحيازات الصغيرة (١٨) .

وبينما كان رجال الادارة النمساوية المجرية شديدى الحذر من اتيان أى شىء يؤدى الى تغييرات اجتماعية كبيرة ، فانهم كانوا بالغى النشاط فى سعيهم نحو تطوير الاقتصاد البوسنى . وكان العائق الوحيد الذى يقف حجر عثرة فى سبيل خططهم ، قانون صدر فى فيينا فى ١٨٨٠ يقرر فى

صورة معكوسة ذلك الوعد الذي أبـــرم للسلطـــات بأن نفقات الادارة البوسنية ينبغي أن تغطيها الايرادات البوسنية نفسها ، وهو أمر يجعل من الصعب تمويل مشروعات البنية الأساســــية الضخمة اللازمة لتطوير البوسنة ، فاستعاضوا عن ذلك بالقروض . وفي السنوات القليلة الأولى مد خط حديدي من التخوم الكرواتية الى زينيكا (بطول ١٩٠ كيلومترا) بنفقات تقدر بثمانية ملايين من الفلورينات . وما لبث بعد ثلاث سنوات أن مد الى سراييفو ، (وهي مسافة ثمانين كيلومترا أخرى) بنفقات قيمتها اربعة ملايين فلورين أخرى (١٩) . وكان معيار الاستثمار العام هائلا فعند ١٩٠٧ كانت الحكومة قد مدت ١١٧ كيلومترا من خطوط السكك الحديدية العريضة المقاس ، و ٩١١ من الضيقة المقاس وأكثر من ١٠٠٠ كيلومترا من الطرق الرئيسية ومثلها أيضا من الطرق الفرعية ، بالاضافة الى ١٢١ كوبريا (٢٠) . وتعلق اديث درهام في ١٩٠٦ : « والطرق الجبلية لا تقل عن جميع ما في أوربا » (٢١) .

وكان وراء انشـــاء بعض هذه الطرق والسكك الحديدية أهداف عسكرية بطبيعة الحال ، ولكنها كانت كذلك جزءا من اتجـاه هائل نحو الاصلاح والتحسين الاقتصادي . واعطيت دفعة نمو هائلة لنشاطي قطع الغابات والتنقيب عن المناجـم ، وكذلك تم استـخراج معادن أخرى مثل النحاس والكروم ، واستخرج خام الحديد من منطقة بريدور (Prijedor) وأسست أيضا عدة مصانع للحديد والصلب ، كما افتتحت مصـــانع كيماوية كثيرة . وعندما وافت ١٩٢٢ ـ ١٩١٣ كانت للبوسنة صادرات تقدر بثمانيـة وعشرين مليونا من الدولارات ، وقوة من العمــال عدتها ٦٥ الفـا من الرجال (٢٢) . وكانت اليـد العاملة في كثير من المدن من النساء (معظمهن من المسيحيات ، والقليل من المسلمات) ، مثال ذلك أنهن في سراييفو كن يصنعن الســجائر والأبسطة . وبلغ الأمر بعمال مصنع التبغ أنهم نظموا اضرابا في١٩٠٦ ابتغاء تقليل ساعات العمل اليومية ورفع الأجور وسوى ذلك الاضراب في مدة خمسة أيام ، ولكن اضرابات أخرى مماثلة حدثت بمدن أخرى ، واطلق الرصاص على مظاهرة لعمال الصلب في زينيكا فاصاب كثيرا من الناس . ولم يكن لهذا الاضراب أى أثر ضخم في سياسة القطر ، وان شجع على انشاء نقابات للعمــــال في كثير من الحرف والصناعات في السنة التالية (٢٣) . ومع هذا ، فانه لما كان من دأب البلاد الاشتراكية أن تعصيد لنفسها من خلال ماضيها السابق على الاشتراكية ، أحداثا بطوليــة من هذا النــوع ، فان « الاضراب العام » سنة ١٩٠٦ بولغ في تصويره ، في كتب التأريخ اليوغوسلافي العصرى عن تلك المدة (٢٤) .

ولم يفت السلطات النمساوية المجرية الاهتمام بالزراعة التي تعتبر عماد الاقتصاد . فقد انشأت المزارع النموذجيــة ، ومنهــا مزرعة عنب نموذجية ، قرب موســتار ، وكذلك مزرعة أســماك نموذجية ، كما جرى تدريب المعلمين على مناهج التدريس الحديثــة ، كما أسست كلية زراعة بمدينــة ايليدج قرب سراييفو (٢٥) . وأسست مزارع لتربيــة الماشية ورغبة في تشجيع تربيــة الخيل ، أنشئت مضمارات سباق الخيل في مدينتي ايليدج وبريدور . (فان تلك السباقات التي أصبحت شعبية ، لم تكن تدار في البلاد حسب قواعد أندية « الجوكية » : بل كان الفرسان يركبون الخيل عارية الظهر بلا سروج ، فاذا اقتربوا من عمود السبق قذفوا بأنفسهم بعيدا رغبة في التخفيف عن خيولهم ، التي كانت تصل الى خاتمة الشوط منفردة ») (٢٦) . ولم تكن كل هذه الأنشطة الانمائية موضــع التقدير العام من الفلاحين البوسنيين ، فان أحد ضباط الشرطة النمساوية المجرية أبلغ اديث درهام في ١٩٠٦ : أن هذه التغييرات كانت سريعة جدا فلم يتقبلها الناس الذين كانوا يفضلون الشوارع التركية القديمة ويؤثرون ركوب الدواب على العربات والطرق الجديدة ، كما أنهم كانــوا ينظرون بارتياب الى كل جديد » . وفي هذا الجزء الذي كان يعمل به من بلاد الهرسك ، رفض الفلاحون استخدام حتى المحاريث الحديدية التي كانت تمدهم بها الحكومة بأقل من سعر التكلفة . « لقد أنفقنا النقود بلا نهاية ، محاولين تحسين نسل الماشــية الحية : الكباش والخنازير من أرقى أنــواع الذراوى . وقد أرسلنــا خنزيرا بديعــا (لاستخدامه في تحســين النسل) في السنة الماضية الى احدى القرى وجعلناه في حيازة رجل كنا نراه جديرا بالثقة ، فلما أتى عيد الميــلاد ، ذبحه وشــواه وجعله وليمة دعا اليها القرية بأكملها » (٢٧) .

ومن أشد نواحي اثارة الجدل في السياسة الزراعيــة ، تشجيع الأجانب على الاستيطان . وكانت أول جالية من هذا القبيل جالية جاءت بناء على مبادرة من قسيس ألماني نشر اعلانا في احدى المجلات الدينية في ألمانيا ، ملتمسا من الأتقياء من الفلاحين الحضور والسكنى في البوسنة . فجاءت الى البلاد عائلات من سيليزيا وأرض الراين ، واشترت أرضا قرب الحدود الكرواتية وأنشأت مستوطنة عرفت رســميا باســم فيندهورست (Windhorst) ، وجزء منها تم تسميته « رودلفشتال » (Rudolfstal) تيمنا بزيارة ولي العهد الأمير رودولف في ١٨٨٨ ، وأنشأت مستوطنة أخرى جمــاعة من البروتســتانت الألمان وفدوا من المجــر وأســموها « فرانتس يوزفسفيلد (Franzjosefsfeld) . وكانت الدولة تنظر بعين الرعاية الى هؤلاء الفلاحين ، فأعطتهم تنازلات ضرائبية ، وفي ١٨٩٠ أصدرت

قانونا خاصا « بالمستوطنات الزراعية» ، وبمقتضاه تمنح كل عائلة ما يصل الى اثني عشر هكتارا معفية من الايجار في السنوات الثلاث الأولى وبعد ذلك يسددون ثمنها على أقساط بفائدة بسيطة تنتهى بعد عشر سنوات ، ان هم أخذوا الجنسية البوسنية • وفى المجموع تم انشاء ٥٤ مستوطنة من أصول ألمانية ، وكانت الغالبية من السلاف (البولنديين والتشيك والروثينيين) الذين اختلطت سلالتهم مع السكان البوسنيين السلاف • ولكن مهما كان أصل المستوطنين وجذورهم ، فان تلك السياسة لقيت الرفض في ذلك الوقت ، وعندما حصل البوسنيون على برلمان لأول مرة فى ١٩١٠ ، كان من أوائل ما طلبوه وقف بناء هذه المستوطنات (٢٨) • وحتى تلك الآونة كانت الزيادة المتواصلة في عدد السكان الأجانب بالبوسنة بدأت تبعث القلق في نفوس الزعماء السياسيين المحليين • اذ لم يكن هناك بأرض البوسنة في ١٨٨٠ الا ٤٥٠٠ مواطن نمساوى واثنا عشر ألف مواطن مجرى ، وما وافت ١٩١٠ حتى كان عدد المواطنين النمساويين سبعة وأربعين ألفا وعدد المجريين واحدا وستين ألفا • على أن هذه الأرقام ليست مزعجة تماما كما قد يبدو فى ظاهرها • فان الكثيرين منهم كانوا من رجال العمل الادارى في الدولة أو رجال الأعمال الذين لاينوون على الاطلاق الاقامة الدائمة بتلك البلاد • وكان بعضهم جندا : حيث جرت العادة العامة بأن يعمل الجند النمساويون المجريون فى أرض البوسنة ويعمل الجند البوسنيون فى النمسا والمجر • فأما عن المواطنين المجريين ، فان معظمهم كانوا من الكروات ، ولم يكن منهم من المجيار الا أقلية صغيرة (٢٩) • وبغض النظر عن النهوض « بالمستوطنات الزراعية » الذى كان الغرض الأساسى منه زراعيا بحتا أكثر منه ديموجرافيا سكانيا ، فلم يكن هناك البتة أية سياسة جدية للاستعمار الجماعى للبلاد ، ولكن التدفق الذى حدث كان كافيا لتذكير أهالى البوسنة بأنهم كانوا فى الواقع واقعين تحت نوع من الحكم الاستعمارى •

ولكن على وجه العموم كان رجال الادارة النمساوية المجرية يفهمون مثل هذه الحساسيات ويحاولون أن يتجاوزوا عنها • فأبيح لكل طائفة أن تكون لها مدارسها الخاصة ، التى أصبحت آنذاك تدعم من الحكومة بالمال • كما أن الحكومة أسست مدرسة للشريعة لتدريب قضاة المحاكم الإسلامية فى ١٨٨٧ • وفى ظل نظام المدارس المجانية الحكومية التى أقامتها الادارة للناس ، كان أعضاء كل جماعة يتلقون التعليم الدينى على حدة على يد رجال دينهم الخاص • وقد ضمن الكتاب اليوغوسلاف العصريون جام زرايتهم على الجهود التعليمية التى بذلتها حكومة النمسا والمجر ، مشيرين الى أنه لم يكن يذهب للمدارس الا أقلية صغيرة من الأطفال •

ولكن حكومة تبنى ما يقارب المئتين من المدارس الابتدائية وثلاث مدارس ثانوية ومدرسة صنائع وفنون وكلية للمعلمين ، لا يمكن أن توصف بأنها مهملة اهمالا مطلقا في سياستها التعليميـة • وليس ذلك بعجيب ، فان الفلاحين الذين رفضوا فيما مضى أن يستخدموا المحاريث الحديدية ، لم يكن يعقل أو يحتمل منهم أن يندفعوا الى ارسال أبنائهم ليتلقوا تعليما لم يتلقوه هم أنفسهم فيما سلف • وأدخل التعليم الاجبارى فى ١٩٠٩ ، أما حتى آنذاك ، فقد كانت السياسة هى كما لخصها وليم ميللر بقوله : « ليس الفلاح مجبرا على ادخال أبنائه الى المدرسة على الاطلاق ، ولكن السلطات المحلية كانت تلجأ الى أساليب النقاش والحوار لاقنـاعه بمزايا التعليم ان اختار أن يحرم أولاده منه » (٣٠) •

على أن معالجة شئون الطوائف الدينية الثلاث الكبرى ، كانت الى أقصى حد أدق وأحرج دور يواجه الادارة النمساوية المجرية • وبطبيعة الحال كان انفاق المال على مدارسـهم وسـيلة لكسب تعاونهم وممارسة درجة ما من السيطرة عليهم • وبذلت أيضـا جهود لضـمان أن تكون للسلطات النمسـاوية المجرية السيطرة على تعيين الشخصيات الرئيسية فى كل طائفة دينية : فان الامبراطور منح من البطريرك الأرثوذكسى الحق فى تعيين الأساقفة في البوسنة ، وتيسر الحصول من البابا أيضا على حق مماثل لهذا لتعيين الأساقفة الكاثوليك • واقترح المسلمون بأنفسهم انشاء مشيخة دينية فى البوسنة مستقلة عن اسطنبول ، وتم ذلك فى ١٨٨٢ بتعيين الامبراطور لأحد الشيوخ رئيسـا للعلماء (أى رئيسا للطائفـة الاسلامية) يترأس مجلسا مكونا من أربعة أعضاء أو هيئة من المستشارين•

ومن بين هذه التنظيمات الدينية الثلاثة ، كانت الكنيسة الكاثوليكية أشدهن وضوحا ظاهرا من حيث النمو والتغيير • وفقـد الفرنسيسكان احتكارهم واجتذب الجزويت (*) الى البلاد • وأنشئت ثلاث كليات كهنوتية ليعلم فيها الجزويت الناس ، كما شيدت فى سراييفو كاتدرائية كاثوليكية، ما لبثت أن أتبعت بكنيسة للقديس أنطونيو من بادوا • وزاد تدفق الناس من النمسا والمجر عدد السكان الكاثوليك زيادة كبيرة (حيث نما عددهم فى سراييفو وحدها من ثمانمئة فى ١٨٧٨ الى ٣٨٧٦ فى مدى ست سنوات فقط ، وكذلك بفضـل جهود أربعة أساقفة وكبير أساقفة يتصف بالعزم الشديد (هو المونسنيور ستادلر Stadler ، الذى خدم بسراييفو طوال

(*) الفرنسيسكان والجزويت : جماعتان من الرهبان الكاثوليك تابعتان لبابا روما — (المترجم) •

تلك المدة الممتدة من ١٨٨٢ الى ١٩١٨) ، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية أكثر نشاطا مما كانت عليه في أثناء ألف السنة تقريبا السابقة من تاريخ البوسنة كله (٣١) • على أن السلطات كانت تعي تماما ذلك الخطر القائم في تحويل الكاثوليك البوسنيين الى طائفة مميزة ، فان وليم ميللر الذى كتب في ١٨٩٨ ، مبينا ما كانت عليه سياستهم من حذر :

« لقد أصيب الكاثوليك ••• الذين طالما شخصوا بأبصارهم الى النمسا للمعاونة والتأييد ، كما أنهم بالطبيعة رحبوا بوصولها ، بوصفها دولة كاثوليكية عظمى ، بشيء من خيبة الأمل ، لأنهم ــ وهم الذين كانوا يكونون أكثر قليلا من خمس سكان البلاد ــ لم يسمح لهم أن يقوموا بوظيفة « الشريك المسيطر » في « الشركة » البوسنية • وفي اعتقادى أنه لا يقوم هنالك أى دليل يدل على الاتزان والمساواة في معاملة العقائد الدينية المتنوعة من جانب الحكومة أكثر من هذا الاحساس بخيبة الأمل » (٣٢) •

كما أن الصحفي الأمريكي و • ا • كيرتس الذى زار البوسنة في ١٩٠٢ ، تكونت في ذهنه انطباعة مماثلة عن هذه العدالة والتوازن في المعاملة ، حيث شهد أن « اتباع مختلف العقائد الدينية يتبادلون الصداقة والمودة ؛ ويبدون احتراما وتسامحا متبادلا » ، وتدار الأمور في المحاكم بحكمة وأمانة ، والعدل مكفول لكل مواطن ، بغض النظر عن دينه أو مركزه الاجتماعي » (٣٣) • ولكن كان من الممكن بين الحين والحين أن تعرقل المشكلات الدينية سير أجهزة الحكم ولو كانت مشيدة على أعلى درجة من الدقة •

وكانت أشد المشاكل المثيرة للفرقة والجدل مسألة التحول من دين لآخر • وكانت هذه القضايا تمس في العادة البنات المسلمات ، اللائى كن يتحولن الى الكاثوليكية على يد خطابهن وأزواجهن ، وبذلك ينزلن الفضيحة الكبرى والخزي الأعظم بأسرهن • وهنا تجد القسس الكاثوليك ، وان لم يجهروا بدعوة التنصير بين المسلمين ، فانهم كانوا يبذلون أقصى ما في وسعهم لمساعدة أولئك الذين كانوا يأتون اليهم ــ وذلك اما بتخبئة البنات في الأديرة أو في مقر كبير الأساقفة مثلا ، ورفض الكشف عن مكانهن للشرطة • وبعد أحداث متعددة من هذا القبيل خضعت السلطات للضغط الاسلامي في ١٨٩١ ، وأصدرت قانونا يسمى « قانون اعتناق الأديان » ، وضع اجراءات للقضايا المتنازع فيها : بدءا بفترة انتظار طولها شهران ، قبل اعلان التحول رسميا الى الدين الآخر ، مع تشكيل لجنة حكومية للتحرى حول أى اتهام بالاجبار والقهر ، وما الى ذلك من اجراءات•

وأدت تلك الاجراءات الى تهدئة مخاوف المسلمين ، ولكن وقعت بعد ذلك بأثني عشر عاما حادثة تورط فيها كبير الأساقفة ستادلر وكان الآخر خاصا بأرملة مسلمة وطفليها ، وقد اعترف بأن الحكومة عقدت اتفاقية سرية مع البابا في ١٨٩٥ ، منحت بها رجال الدين الكاثوليك الحق في الاتصال بمن ترى فيهم الرغبة من الناس في اعتناق المسيحية ـ وهو أمر قوض بطريقة سرية « قانون اعتناق الأديان » • وهنا ثارت ثائرة المسلمين مرة أخرى • وقدموا الالتماسات والشكاوى • ومع هذا فانهم ما لبثوا حتى هدأت نفوسهم عندما اكتشفت الحكومة مكان اختفاء الأرملة صاحبة هذه القضية هي وطفليها في أحد الأديرة • وقامت الشرطة بالقبض عليها ، وأعيدت الى قريتها ، حيث وافقت على العودة الى الاسلام ثانية (٣٤) •

ومن المؤكد أن مشاعر الغضب العامة استثيرت بمثل هذه الأحداث ، ولكن الطريقة التى تناول بها زعماء المسلمين تلك الوقائع ، والتي ربطوا بها هموما أخرى (مثل الشكاوى حول الضرائب وغير ذلك) ، تدل على وجود استراتيجية سياسية لديهم فهي ليست وليدة التعصب الأعمى • والأمر كما تعبر عنه دراسة تفصيلية حديثة لتلك الأحداث يتلخص في التالى : « ان النشطاء المسلمين حرصوا على ستر أهدافهم في ثوب الاخلاص الديني ، ولكن غرضهم الحقيقي انما هو الاحتفاظ بقوتهم وسلطانهم أو حتى زيادتها » (٣٥) • فقد شهدت العقود الثلاثة الأولى للحكم النمسوى المجرى تنافسا على السلطة ، بين النخبة الممتازة المسلمة التى اكتسبت القوة والنفوذ عن طريق التعاون مع الحكومة ، وبين زعماء المسلمين الأشد تصلبا في كل من ترافنيك وموستار ، الذين اتخذوا موقفا معارضا متشددا ، وأخذوا يشوهون سمعة منافسيهم من أبناء سراييفو ، محاولين بذلك انتزاع السلطة منهم • (وفي تسعينيات الألف وثمانمئة ، زادت الصورة تعقيدا بظهور منافسات قوية بين مسلمي موستار أنفسهم أيضا) •

كانت أشد المسائل أهمية هي السيطرة على المؤسسات الخيرية الاسلامية • وكما أوضحنا فى الفصل الخامس ، كانت هذه المؤسسات المعروفة باسم الأوقاف تلعب دورا جوهريا فى المجتمع الاسلامى ، وتدعم بالمال شئون المساجد والمدارس ، والتكايا بل حتى الخانات والكبارى : وكان وضعها المالى يكاد يكون دعوة ضخمة الى اساءة استخدامها على طول القرون • اذ كان على المعطى الواهب أن يعين على ادارتها أولاده وأحفاده كنظار مدفوعى الأجر يتوارثون ذلك العمل الى أبد الآبدين ، وبذلك يخلق الواقع وديعة مالية عائلية تكاد تكون معفاة من الضرائب • وفى ١٨٧٨ قدر أن الثلث تقريبا من الأرض الصالحة للزراعة بالبوسنة كانت تملكها

الأوقاف . وكان من المبادىء الأساسية فى الشريعة الاسلامية أنه متى حدث أن ملكية تحولت الى أرض وقف لم يجز اطلاقا ردها الى الملكية العادية . وكان من أوائل ما فعله النمسويون المجريون أن جمعوا القوانين العثمانية التى حاولت قديما تنظيم ادارات ونظارات الوقف وقضت بوضع حسابات جيدة التنظيم وما الى ذلك من معالجة وقاموا بنشرها وعلى ذلك أنشأوا لجنة للأوقاف فى ۱۸۸۳ ، وعين فى عضويتها بعض وجوه الطائفة الاسلامية : فوضعت جميع الأوقاف الأهلية أى العائلية المحلية تحت سيطرة مركزية ، ورسمت لهـا ميزانيات مضبوطة ووضعت خطـة لسياسة شاملة للبوسنة كلها من أجل توفير الأموال اللازمة للمساجد والمدارس . وقد ارتضى الجميع هذا كله ، باعتبـاره مصلحـة عامة ولكن اللجنـة خضعت لسيطرة الشخصيات الأكثر تعـاونا مع الحـكومة من مسلمى سراييفو ، فأصبحت من ثم موضع حقـد . وبغض من وجـوه المسلمين فى المناطق الأخرى من الاقليم . وحتى عندما وسعت لجنة الأوقاف فى ۱۸۹٤ ، لتضم ممثلين عن كل أرجـاء البوسـنة ، ظل تعيين هؤلاء الممثلين بيـد الحكومة (٣٦) .

وكان مسلمو موستار بقيادة زعيمهم ذى العزم الشديد ملة مصطفى جابيتش (Mula Mustafa Dzabić) ، هم الذين حولوا موضـوع ادارة الأوقاف الى مسألة سياسية ضـخمة . فلقـد تزعموا حملة لارسال الشكاوى والالتماسات وغيرها من الأنشطة ، خاصة وقد استفزهم تحول بعض المسلمين الى المسيحية ، وتمكنوا من الحيلولة دون صدور مشروع قانون فى ۱۸۹۹ كان يقضى بانشاء « جمعية أوقاف » ذات استقلال ذاتى للهرسك . وبدلا من أن تقوم على التعيين الحكومى من أكبرها الى أصغرها فان الشكل الذى اقترحوه كان قائما على الجمعيات المحلية : فتقوم تلك الجمعيات بتعيين أعضاء من جمعيات النواحى ، ثم ترسل جمعيات النواحى مندوبيها الى مجلس المقاطعة (٣٧) . وكان أول رد للحكومة على ذلك هو أنها أخذت تعامل هؤلاء المسلمين بوصفهم مثيرين خطرين للشغب ، ثم أغلقت النادى الذى كان مركز أنشطتهم . وعندئذ بدأ زعماء موستار فى حشد الأنصار بكل أرجاء الهرسك والبوسنة أيضا . وباستخدام السلطة المعنوية لجابيتش وطاقات المهيجين الحركيين الأصغر سنا مثل شريف أرناؤوطوفيتش (Sherif Arnautović) كونوا تنظيما شمل القطر كله ـ كان فى الواقع حزبا سياسيا فى طور جنين ـ فى مدى سنة ، وعقدوا جمعية لزعماء البوسنة المسلمين بفندق بمدينـة بودابست فى صيف ۱۹۰۰ . وبذلك بدءوا عمليـة مطولة من الدعوة للتمرد والمفاوضـات ، وأخذت السلطات تسعى تارة الى ارضائهـم وتارة للصلح معهم وتارة أخرى لبث الفرقة بينهم وتارة ثالثة لقمع المشاغبين منهم (۳۸) .

وكان هذا النجاح للنشطاء المسلمين ، موضع سخط شديد من الرجل المسئول عن شئون البوسنة فى ذلك الزمان ، وهو بنيامين كالاى ، وهو المؤرخ والدبلوماسى السابق ، الذى تولى وظيفة وزير المالية المشترك من ١٨٨٢ ـ ١٩٠٣ • وكانت لكالاى سياسة بوسنية عامة ، تنحصر فى عزل البوسنة عن الحركات السياسية القومية بكل من صربيا وكرواتيا ، وتطوير الفكرة الداعية الى قيام القومية البوسنية كعامل منفصل وداع الى توحيد الصف • والواقع أن الأتراك استخدموا فى قديم الزمان مصطلحا معناه : « البوسنيون » ، وهو بوسنياكلر (Bosniaklar) للاشارة الى كل من كان يسكن البوسنة من الناس ولكن باللغة الصربوكرواتية ، كان الشعب الوحيد الذى كان يسمى نفسه حسب المأثور التقليدى باسم « البوسنيين » (بوشنياق) هو المسلمين البوسنيين (٣٩) • (وكان الكاثوليك يطلقون على أنفسهم اسم « لاتينيزى » أى اللاتينيين ، أو الكريستشيانى Krisćjani ، وهى كلمة تدل على المسيحيين ـ ولا يجوز أن تختلط مع كلمة « كريستيانى » Krstjeni الشائعة فى العصور الوسطى ـ كما أن الأرثوذكس أسموا أنفسهم « فلاسى » أى الأفلاق ، أو « هرشيانى Hrsćiani » ، وهى كلمة أخرى معناها المسيحيون) • وكان كالاى يأمل أن يبسط مصطلح « بوسنى » على الناس من جميع الطوائف الدينية ، وكان من الضرورى لأهدافه أن يتقبل المسلمون أولا فكرة القومية • اذ كان يعرف أن خير الفرص المتاحة له كانت بين أيديهم ، وذلك لأنهم على عكس الكاثوليك والأرثوذكس ، لم يكن لهم أية قوى خارجية تدعمهم ويستطيعون التطلع اليها خارج الحدود البوسنية ، وكان من الواضح أنه لو حدث وطوروا شخصيتهم وهويتهم الخاصة المنفصلة بدلا من ذلك فسيخفق مشروعه بأكمله •

ونجح كالاى نجاحا تاما مع مسلمى سراييفو الأكثر تعاونا ، الذين رأوا فى خط الفكر هذا استمرارا طبيعيا لسعيهم السابق للحصول على الحكم الذاتى فى عهد العثمانيين • وأسس زعيمهم ، وهو عمدة مبرز سابق لسراييفو ، اسمه محمد بك كابيتانوفيتش (Mehmed-beg Kapetanović) ، صحيفة يومية فى ١٨٩١ تسمى « بوشنياق Bošnjak » ومعناها « البوسنى » • ومع أنها كانت تخاطب القراء من كل الأنواع ، فانها كانت فى جوهرها صحيفة اسلامية وكانت تهاجم البدعات المحافظة بين رجال الدين المسلمين ، كما حاولت أن تدرأ محاولات القوميين الكروات والصربيين الذين زعموا أن مسلمى البوسنة كانوا فى « الحقيقة » كرواتا أو صربا • وأعلنت هذه الصحيفة أنه « بينما كان

الكروات يجادلون بأن الأرثوذكس هم أعظم أعدائهم وأن عالم الصربية هو نفسه الأرثوذكسية ، أخذ الصرب ينسجون تاريخا زائفا ، ضربوا فيه صفة الصربية على العالم كله » • ومرة أخرى صرحت : « لمن ننكر أننا ننتسب إلى العائلة السلافية الجنوبية • على أننا مع ذلك سنظل بوسنيين مثل آبائنا ، ولا شيء غير ذلك » (٤٠) •

وما كان ليبدو في عيني أحد أن مشروع كالاى سخيف وغير مجد عندما ينظر فحسب الى تاريخ البوسنة قبل الاحتلال النمساوى المجرى بجيل أو أكثر قليلا • وكما رأينا ، فان الكاثوليك والأرثوذكس بالبوسنة احتفظوا طويلا بروابطهما الدينية مع الكروات والصرب • فلما في أثناء القرون العثمانية ، فقد كانت هناك عدة هويات دينية في البوسنة ، وكان بالامكان أن تكون لهذه الهويات فعلا معان ومضمونات سياسية : اذ كان كثير من الكاثوليك البوسنيين يشخصون بأبصارهم الى الأراضى خارج الحدود الكرواتية والدالماشية ، التماسا للعون بل حتى التحرير • غير أن ذلك كان شأنا من شئون الدين وليس من شئون القومية • فقد كان هؤلاء الكاثوليك يتطلعون بأبصارهم الى النمسا الكاثوليكية أو الى البندقية الكاثوليكية أو الى كاثوليك آخرين الذين يتصادف أنهم كانوا من الكروات، ولم يكونوا ينظرون الى أمة الكروات بوصفها ذلك • ولم يحدث الا في منتصف القرن التاسع عشر فقط على أبكر تقدير ، أن بدأت الفكرة العصرية للقومية في الانتشار من كرواتيا وصربيا الى كاثوليك البوسنة وأرثوذكسها • ومن بين المعايير الثلاثة الأساسية التي كانت الأمتان الصربية والكرواتية تؤسسان وتميزان نفسيهما عليها أثناء تلك الفترة ـ وهي التاريخ واللغة والدين ـ لم يكن هناك الا عامل واحد ينطبق على البوسنة هو عامل الدين ، حيث انها قطر كان له تاريخه الخاص المنفصل، وفيها كانت الخطوط الكفافية (الكنتورية) للخريطة اللغوية تقطع وتعبر جميع الحدود الدينية • ولم يحدث البتة أن كانت هناك أسباب اجتماعية ولا اقتصادية للكراهية مع الأرثوذكس والكاثوليك بأرض البوسنة ، كما أن الأسباب التي كانت قائمة للعداوة مع المسلمين قد أزالها الحكم النمساوى المجري الى حد جزئي • وهذا كاتب انجليزى يعلق في ١٨٧٩ على موقف المسيحيين من المسلمين في البوسنة :

« من العجيب أنهم يحملون مثل هذا القدر القليل من الكراهية نحو جلاديهم السابقين ، وربما كان تفسير ذلك أنهم كانوا جميعا أبناء جنس واحد • فمهما يكن السبب ، فانه يؤيد تأييدا تاما الرأى الذى خرج به كل من درسوا تلك

البلاد في الأزمان التركية .. ومفاده أن الحالة التعسة الأليمة التي كان عليها السكان ، انما تعود الى أسباب زراعية أكثر منها دينية . وأنه لو أمكن ازالة هذه الأسباب لانقشع بالتدريج الاحساس السيء الذى خلقته تلك الأسباب»(٤١).

فلو أن كاللاى قدر له بشكل ما أن يعزل البوسنيين الأرثوذكس والكاثوليك عن التطورات السياسية الثقافية الموجودة في الأراضي المجاورة ، فلربما أمكن لسياسته أن تجد لنفسها فرصة ، ولكن مثل هذا العزل المطلق التام ، كان مستحيلا . وبينما كانت القومية الصربية والكرواتية تنتشر بين صفوف البوسنيين الكاثوليك والأرثوذكس من خلال هذه الشبكات من القسس والمدرسين والمتعلمين من قراء الصحف . التي ساعد الاحتلال النمسوي المجري على انشائها ، أصبحت مشروعات كاللاى البوسنوية المتميزة مقدراً عليها الفشل أكثر فأكثر . حتى اذا حلت سنة ١٩٠٨ ، اذ مراقب نافذ البصيرة هو عضو البرلمان النمساوي يوزيف بيرنرايتر (Josef Baernreither) ، يعلن على رؤوس الأشهاد « موتها » (٤٢) .

وفي نفس الحين ، فانه خارج الحدود البوسنية ، كانت غباء السياسة النمساوية المجرية يشعل نار القومية الكرواتية والصربية ويزيدها أوارا سنة بعد سنة . واتبع الحاكم المجري لكرواتيا سياسة متعمدة من اثارة العداء بين الكرواتيين والصرب ، باتخاذ اجراءات وتدابير سخيفة لا ضرورة لها مثل اصداره قرارا بضرورة أن يتكلم جميع عمال السكك الحديدية في كرواتيا اللغة المجرية . وتدهورت العلاقات بين الحكومة الثنائية الملكية وبين صربيا ، كما أنه نظرا لأن تجارة الصرب كانت تعتمد اعتمادا قاطعا على النمسا والمجر ، فان ذلك لم يزد الصربيين الا تبلماً وضيقا من سيادة آل هابسبرج وتسلطهم على المنطقة . وعندما حاولت صربيا أن تجد لنفسها مخارج لتجارتها في أماكن أخرى في ١٩٠٦ ، انتقم منها النمساويون المجريون بفرض رسوم تأديبية على الصادرات الصربية الرئيسية : وهى الخنازير . (وهذه العقوبة التي سميت « بحرب الخنازير » كان من شأنها شأن غيرها من العقوبات التجارية في التاريخ الحديث ، أن شجعت بالفعل على تطوير المزيد من المنافذ التجارية) . وكانت العلاقات بين الدولتين في تلك الآونة مفرطة المرارة . فشرع وزير خارجية النمسا والمجر ، وهو البارون فون أرنتال (Baron Von Aehrenthal) ، ينظر جديا في الاستيلاء على صربيا في خاتمة المطاف ، كما أن رأى سلطات النمسا والمجر في البوسنة كان يؤيد بسط حدود الامبراطورية الى سالونيكا أيضا : اذ بينما اديث درهام تسافر بأرض

البوسنة في ١٩٠٦ ، لاحظت أن النمســاويين كانـوا تواقين الى تقوية مركزهم فى البوسنة جهد الطـاقة ، بحيث يكونون مستعدين للزحف الى الأمام : « فان عبارة نحو سالونيكا ، أصبحت موضوع حديث محبب اليهم جميعا » (٤٣) ٠

وفي هذا الجو والسياق ، قر القرار على تغيير الوضـــع القانوني للبوسنة ، من أرض عثمانيــة محتلة الى أرض مستلحقــة بصــورة كاملة بالامبراطورية النمساوية المجرية ٠ وكان الذى عجـل بتلك الحـركة الى الظهور هو ثورة تركيا الفتاة فى ١٩٠٨ ، وبدت الثورة وكأنما ستخلق نظاما فى استطنبول ربمــا طالب ـ ولا اثم عليــه ـ باسترجاع حقوق تركيا على البوسنة ، وذلك بمنح البوســنيين دســتورا أكثر ديمقراطية من الذى ينعمون به في ظل الحكم النمسوى المجرى ٠ وتصرف البارون فون أرنتال بسرعة ، حيث أعلن استلحاق البوســـنة بالكامل الى النمســـا فى ٥ أكتوبر ١٩٠٨ ٠ وأدى ذلك الى ثورة الرأى العام في صربيا : اذ أحس القوميون هناك أن أرض البوسنة قد خطفت من قبضتهم ظلما وعدوانا بعد أن باتوا قاب قوسين أو أدنى من هدفهـم ونظمت مظاهرات ضـــخمة فى بلجراد ، وأنشئت بعد ذلك جمعيتان سريتان لعمل حملة لتوحيد الكتلة الصربية : وهما على التـــوالى نارودنا أودبرانا (Narodna Odbrana) ومعناها «الدفاع الوطنى» ، وأيديني ايلى سمرث (Jjedjenje ili Smrt) ومعناها « الوحــدة أو الموت » ، وهى المعـــروفة أيضا باســم كرنا روكا (Crna Ruka) أى « اليد السوداء » ٠ ولم يبلغ عام ١٩٠٨ نهايته حتى كانت هناك فروع كثيرة لجمعية « نارودنا أودبرانا » بأرض البوسنة (٤٤) ٠ ولم يمنع صربيا من اعلان الحرب على النمسا والمجر الا تدخل وزير خارجية روسيا ايزفولسكى (Izvolski) الذى كان يشعر بالألم الشديد لأن فون أرنتال خدعهم ، ولكنه مع ذلك نصح بلجراد بأنه : « يجب أن تظل صربيا ساكنة ، وألا تفعل شيئا يمكن أن يستنفر النمسا ويزودها بفرصة تقضى فيهــا على صربيــا قضــاء مبرما » (٤٥) ٠ وما لبثت الحكومتـــان النمساوية المجرية والتركية حتى وصلتا فى نهــاية المطاف الى اتفاقية عقدت فى فبراير ١٩٠٩ ، وبمقتضاها تصــبح للحـكومة الأولى الحقوق الكاملة على البوسنة وأن تنسحب من سنجقية نوفى بازار ، وأن تضمن حرية العبادة كاملة للمسلمين البوســنيين ، وتدفع لاسطنبول مليونين وخمسمئة ألف جنيه تركى ، ومع ذلك فان الأزمة السياسية ظلت تدوى شهورا عديدة بعد ذلك (٤٦) ٠ وهنا يتبين أن التفاعل الذى أحدثه تنافس الدول الكبرى على وطنية الولايات البلقانية والذى كشــفت عنه هذه الحادثة ، كان نذير شؤم ينذر بأحداث أغسطس ١٩١٤ ٠

ولكن الأثر الأعظم الذى أحدثه الاستلحاق فى حيـاة البوسنة الداخلية ، كان أثرا كبير النفع لها والحق يقال • اذ شعرت السلطات فى كل من فيينا وبودابست باحـكام قبضتهما على البوسنة ، وأصبحت من ثم أشد رغبة فى السـماح بقيام حيـاة سياسية فى داخلها • وفى ظل وزير المالية المشترك المتحرر الفكر ، البارون بوريان Baron Burian (الذى ظل يشـغل هذا المنصب من ١٩٠٣ حتى ١٩١٢) ، حصلت البوسـنة على تنـازلات ضـخمة : فمنح المسلمون أولا نظام ادارة الأوقاف الذى طالما طالبوا به ، ثم فى السنة التالية ، انتخب برلمان بوسنى • نعم ، انه كان مؤسسا على نظام اقتراع محدود ، كما لم تكن له أية قوة تشريعية مباشرة ، ولكنه مكن بالفعل المنظمات التى أقامتها المجتمعات المحلية ، فى السنوات الأخيرة ــ مثل المنظمة الوطنية الاسلامية (١٩٠٦) ، والمنظمة الوطنية الصربية (١٩٠٧) ، والجمعية الوطنية الكرواتية (١٩٠٨) ــ أن تبدأ العمل بوصفها أحزابا سياسية حقا (٤٧) •

وبذلك أتيح للنخبـة الممتازة من المتعلمين والأثرياء فى كل طائفة من هذه الطوائف أن تلعب دورا نشيطا فى هذه الأحزاب بطبيعة الحال • وهذه الحقيقة تساعد على تفسير السبب الذى من أجله لم يقم الحزبان المسيحيان الرئيسيان بأية حملة شرسـة لاصـلاح نظام ملكية الأراضى الزراعية ، وذلك رغم أن معظم النـاس الذين كانـوا حينئذ يدعون أنهم يمثلونهـم ، كانوا من الفلاحين • وكانت هناك مسألة حسابيـة برلمانية لها وزنهـا أيضا : فعن طريق عدد أعضاء مجلس النواب الذى عكس بدقة تامة النسب العـامة بين السكان : (٣٧ أرثوذكس ، و ٢٩ مسلمون ، و ٢٣ كاثوليك وواحد من يهود) ، لم تكن أى من الطائفتين المسيحيتين تستطيع أن تسيطر منفردة ، ولذا فانهـم سرعان ما وجـدوا أنفسهم مضطرين الى التنافس على التماس تعـاون المسلمين معهم (٤٨) • وفى ١٩١١ فاز الكاثوليك فى المنافسة وكونوا اتفاقا مع الزعماء المسلمين ، الذين كانوا يرون أن احتمال قيام الكاثوليك بمساندة الاصلاح الزراعى أبعد منه لدى غيرهم •

ولم يكن هذا التدليل الذى يلقاه المسلمون الا مجرد جانب من عملية تدليل فكرية وثقافية كانت مستمرة مدة عشر سنوات على الأقل ، حيث كان كل طرف من الأطراف يحـاول أن يركز فى الأذهان أن مسلمى البوسنة كانوا كرواتا « أقحاحا » أو صربا « أقحاحا » • وفى أثناء معظم هذه المدة ، أصاب الكروات نجاحا أكبر من حيث تطبيع الهوية الثقافية ، وبخاصة مع أصحاب العقول النابهة من المسلمين ، الذين قضوا ردحا من الزمان فى زغرب ، أو فى جامعات أخرى نمساوية مجـرية من التى يتردد عليهـا

الكروات • وكانت أكبر الجمعيات الثقافية شأنا في سراييفو ، بل الأولى فيهن جميعا ، وهي « الجايرت » (Gajret) ، وقد أسست في سنة ١٩٠٣) ، يتسلط عليها في سنيها الأولى ، كتاب من أصحاب النزعة الكرواتية مثل الشاعر والمؤلف صفوت بك باشاجيتش (Safvet-beg Basagić) (٤٩) • ولكن في الحين نفسه كان هناك قدر أكبر من التعاون السياسي ، وان جاء على شكل فضفاض غير رسمي ، بين زعماء المسلمين والصربيين في السنوات التي سبقت تكوين البرلمان • وقام الصربيون بجملتهم الخاصة هم أيضا ، يقودهم مناضل آخر من موتسار هو فويسلاف شولا (Voislav Šola) ، وكان يطالب بانشاء هيئة دينية تكون أكثر استقلالا ذاتيا ، وقد أرسلوا كذلك وفدهم لكي يؤازر المسلمين سياسيا في بودابست في عام ١٩٠٠ ، بل وعقدوا مؤتمرا ثلاثيا مشتركا بينهم جميعا في السنة التالية (٥٠) • لقد كانت هذه الجوانب الثلاثة جميعا تقوم بلعبة دقيقة من الانتهازية السياسية ، وكانت عملية الانحياز بينها مائعة دائما • ومع أن بعض البارزين من المفكرين الاسلاميين « أعلنوا » أنفسهم صربيين أو كرواتا ، فان هذه الأعمال الفردية لم تقوض بأية حال ، المركز العام للمسلمين ، الذين ترسخت أقدامهم وتدعمت أركانهم في كتلة سياسية متميزة أي (كيان خاص) • والأمر كما لخصه روبرت دونيا (Robert Donie) الخبير الأول في تاريخ تلك المدة : « أن هذه الاعلانات كانت في معظم أمرها تكتيكية وسياسية في طبيعتها ، وكان بعض المسلمين يتنقلون من معسكر لآخر تبعا لاختلاف المناسبات • ولو لجأنا الى التعبير عن الوضع ببساطة لقلنا ان قيام هوية اسلامية منفصلة كان فكرة بالغة التقدم بحيث لا يستطيع بسهولة أى مسلم ذي شأن أن يتخلى عنه » (٥١) •

ولسنا نستطيع أن نعلم الا على سبيل الظن ما الذي كان سيحدث لو تركت هذه الترتيبات العقائدية والحزبية في مسارها ، لكن ذلك لم يكن مقدرا له أن يكون ، اذ كان اختمار الوطنية الصربية الذي أثير بعد ضم البوسنة الى النمسا والمجر ، قد أخذ ينتشر بين قطاعات أخرى من السكان البوسنيين الأرثوذكس – أو على الأقل بين فئة قليلة من مئات تلاميذ المدارس وطلابها • وكان الشعور المضاد للنمسا والمجر آخذا في النمو في كرواتيا أيضا ، وفي المدة ما بين ١٩٠٧ و ١٩١٠ كان آخذا بصورة متزايدة في التحول الى شكل من التعاون مع الصربيين في عملية انشاء دولة سلافية جنوبية مشتركة • ويتجسد ذلك في الاسم المنتقد لمنظمة من الطلبة كانت تعمل في جامعات خارج البوسنة ويرأسها الكاتب البوسني الشاب ايفو أندريتش ، اذ كانت تسمى نفسها « حركة الشباب التقدمية

الصربوكرواتية أو الكرواتوصربيـــة أو اليوغوسلافية » (٥٢) . وشرع الطلبة الصربيون فى داخـل البوسنة يغيرون سريعا موقفهم بعد ١٩١٠ من النزعة الصربيـــة الضيقة الى المطاليـــة بدولة يوغوســـلافية . وهناك تجمع هش من تلاميذ المدارس وطلبتها سمى « جمعية البوســنة الفتاة » (Mlada bosna) ، التى اتخذت لنفســها هذا الاتجاه الذى كان أبسط موقف مشترك يستطيع أن يتحد عليه جميع « أعداء آل هابسبرج »، وبذلك أصبح الانضمام الى عضويته يمكن أن يضم الكروات بل حتى بعض المسلمين أيضا (٥٣) - والأمر كما عبر عنه أشهر أعضاء جمعية البوسنة الفتاة أثناء محاكمته فى ١٩١٤، وهو جافريلو برنسيب (Gavrilo Princip) « اننى وطنى يوغوسلافى ، أهدف الى توحيد جميع اليوغوسلاف فى وحدة مترابطة ، ولا يهمنى أى نوع من الدولة يتمخض عنه الأمر ما دام يكون خاليا من النمسويين » (٥٤) .

ولقد عالج الكتاب الشيء الكثير من جوانب الفلســـفة السياسيـة لهؤلاء « النشطاء » الشبان ، ولعلهـــم أسرفوا فيما كتبوا فلم يكن هؤلاء الصبية ، الذين لم ينالوا قسطا وافرا من التعليم الجيد ، من الفلاســفة ولكنهم كانوا ضد رجال الدين وعارضوهم بشدة وكانوا يريدون الثورة الاجتماعيـــة ، بالضبط بنفس قدر ما يريدون من التحـرر الوطنى ، وكانوا شديدي التهافت على كتابات الفوضـــويين أو الفوضـــويين الإشتراكيين ، من أمثال باكونين (Bakunin) وهرتســـن (Herzen) وكربوتكين (Kropotkin) ، وكانوا فوق كل شيء يبتغون أن يصبحوا أبطالا . وكان الأول الرائد بين عدد متعاقب من هؤلاء الذين اتجهـوا الى عمليات الاغتيال السياسى ، طالب من البرسك يسمى بوجدان جيرايتش (Bogdan Žjerajić)، الذى ذهب الى سرايفو يـوم افتتـــاح البرلمان البوسنى الجديد فى ١٩١٠ ، وهنـــاك أطلق خمس طلقات على الحاكم العسكرى ، وهو يغادر الموكب ، فلما رأى أنه أخطـــأ التصويب فى كل واحدة منها ، أطلق السادسة على رأسه حتى ينتحر (٥٥) . وفى صيف ١٩١٢ حاول لوكا يوكيتش (Luka Jukić) وهو بوســـنى كرواتى أن يغتال الحاكم العام لكرواتيا فى زغرب وقبل ذلك بقليـــل من نفس السنة ساعد يوكيتش فى تنظيم مظاهرات احتجاج من تلامذة المدارس فى سرايفو ، بالاشتراك مع جافريلو برنسيب وعدد كبير مـن الشـــبان ، ممن أصبحوا فيما بعد مشتركين فيما يعده برنسيب من خطط الاغتيال فى ١٩١٤ . وفى هذه المناسبة ، كما دون أحد هؤلاء فى مفكرته ، « كان برنسيب ينتقل من فصل مدرسى الى آخر وهو يتهدد ، بقبضة من الحديد ،

جميع الأولاد الذين كانـــوا يترددون في الاشتراك في تلك المظاهـرات الجديدة (٥٦) ٠

ولم يكن ما اجتلب الناس الى الشـــوارع فيما بعد في ١٩١٢ هو القبضة الحديدية لبرتسيب ، وانما هو الأحداث الدرامية التي حدثت في شرق البوســنة وجنوبها ٠ ففي أكتــوبر أعلنت الجبل الأسود وصربيا الحرب على تركيا ، وبمساعدة بلغاريا واليونان تمكنوا من طرد الترك من سنجقية نوفي بازار وكوســوفو ومقدونيا ٠ وقد أدت السرعة والحجم الضخم لانتصارات الصرب والجبل الأسود في هذه الحرب البلقانية الأولى، الى ظهور موجة عظيمة من المشاعر بين النشطاء المناوئين لآل هابسبرج بكل من البوسنة وكرواتيا ٠ حيث اندفـــع عدد كبير من أعضــــاء جمعيـــة « البوسنة الفتاة » للعمل متطوعين مع القوات الصربية ، ومن عجب أنه من بينهم بعض الصبيان المسلمين (٥٧) ٠ ولعلهم لم يكونوا يعلمون ، أو حتى يهتمون ، بأن الصربيين وحلفاءهم كانوا يذبحون القرويين الألبان المسلمين ، مما جعل عشرات الآلاف من المسلمين الســـلاف يفـرون من مقدونيا ، وأوقـــع المسلمين الناطقين بالبلغـــارية تحت طائلة التحويل الاجباري الى المسيحية (٥٨) ٠

وبلغ الأمر انه عند حلول ربيع ١٩١٣ كانت العلاقات بين النمســا والمجر ، وصربيا بالغة التوتر ، خاصة وأن الفتوح الصربيـــة أوشكت أن تضاعف من حجم رقعتها ، ولو كانت اســـتولت على جزء من الســـاحل الألباني أيضا (وهو أمر كانت تنتويه بالفعل) ، لكانت قد تسببت في وقوع تهديد استراتيجي للنمسا والمجر في البحر الأدرياتيكي ٠ ومع ظهور ظرف تبـدو فيه الحرب وشـــــيكة الوقوع بين الدولتين ، فان الحاكم العسكري للبوســـــنة ، وهو الجنرال بوتيوريك (Potiorek) ، طبق خطة أمن عنيفة ٠ فأعلن حالة الطوارئ في ٢ مايـــو ، وحـــل البرلمان ، وأوقف المحاكم المدنية عن العمـــــل ، وأمر باغـــلاق كثير من الجمعيات الصربية ، ووضع تحت تصرفه جميع المدارس البوسنية (٥٩) ٠ ومضت تلك الأزمة المباشرة الى خاتمتها عندما انتهت الحرب البلقانيـــة الأولى بمعاهدة لندن في الثلاثين من مايو ، ثم اشتعلت نار الحرب بعد ذلك بين الحلفاء المنتصرين ، في الحرب البلقانية « الثانية » في شهري يونيو ويوليو ٠ غير أن سياسة الجنرال بوتيوريك البالغة الشدة ، كانت رسخت جذورها الآن في البوســـنة ، فان الوزير المشترك للماليـــة ليون فون بيلينسكي Leon Von Bilinski (وهو الذي تقلد الوزارة بعد بوريان في ١٩١٢) ، كان يفضل سياسة مرنة أكثر ، بدفع الجماعات البوسنية

احداها ضد الأخرى ، والاستفادة من الطبقات الصربية التجارية والمهنية ، ولكن سياسة بوتيوريك المناوئة للصرب، كانت لها الغلبة (٦٠) ٠

وبذلك تهيأ المسرح لمناورات الصيف الكبرى للجيش النمساوى المجرى في البوسنة في ١٩١٤ ، التي كان من المقرر أن يشهدها الأرشيدوق فرانز فرديناند ولى عهد العرش الهابسبرجي والمفتش العام للقوات العسكرية للامبراطورية ٠ وكان من الحماقة البالغة أن زيارته لسراييفو حدد لها اليوم الثامن والعشرون من يونيو ، وهو العيد السنوى لمعركة كوسوفو ، ومن ثم فهو أشد الأيام قداسة في التقويم الروحي للوطنية الصربية ٠ واتباعا لخط سير نشر في اليوم السابق في صحيفة البوسنة « بوسنيشي بوست Bosnische Post » ، مرت عربات الليموزين بموكبه على ما لا يقل عن ٦ من أعضاء جمعية « البوسنة الفتاة » المسلحين بالقنابل والمسدسات الذين كانوا يضمرون اغتياله ٠ وأخفق خمسة لكن أحدهم وهو نيديليكو تشابرينوفيتش (Nedeljko Tchabrinovic) ألقى قنبلة انفجرت خلف سيارة الأرشيدوق وجرحت من كان في السيارة التي خلفه ٠ وعندئذ اتخذ جابريلو برنسيب موقعا آخر لنفسه في مكان متقدم من خط السير الرسمي المقرر لليوم عند منعطف شارع فرانز جوزيف ٠ وفي الوقت نفسه كان الأرشيدوق قد قرر أن يغير الطريق ، لأنه شاء أن يذهب رأسا الى المستشفى لزيارة الضباط المصابين ، ولكن أحدا لم يبلغ سائقه بذلك ، فعرج السائق بالسيارة الى شارع فرانز جوزيف وفقا للخطة المرسومة ٠ وأمره الجنرال بوتيوريك بالتوقف والعودة ٠ وهكذا عاد بالسيارة الى الخلف ببطء أمام الموقع الذى كان برنسيب واقفا فيه بالضبط ٠ وقال برنسيب لوكيل النيابة الذى تولى التحقيق : « لا أدرى أين صوبت مسدسى ، ولكنى أعرف أنى كنت أصوب المسدس نحو ولى العهد ، وأعتقد أنى أطلقت النار مرتين ، ولعلى أطلقتها أكثر من ذلك ، وذلك بأنى كنت منفعلا جدا ٠ وسواء أصبت الضحايا أم لم أصب ، فذلك شأن لا أستطيع أن أقوله لأن الناس انهالوا فورا على بالضرب » (٦١) ٠ وتوفى كل من الأرشيدوق وزوجته الدوقة هوهنبرج ببطء متأثرين بجراحهما ٠ وبعد شهر واحد بالضبط ، أعلنت النمسا والمجر الحرب على صربيا ٠

الفصل الثاني عشر

الحرب والمملكة : البوسنة ١٩١٤ ـ ١٩٤١

لايزال المؤرخون مختلفين هل كان وراء السبب في ذلك الاغتيال هو القومية الصربية أو اليوغوسلافيـــة ، أم الجمعيات الصربيـــة السرية ، أم كان مبادرة محلية صرفة ؟ ولكن كثيرا من البوســنيين سرعان ما حددوا من هو الملوم : ففي مساء اليوم الثامن والعشرين من يونيو ١٩١٤ ، حدثت اضطرابات مضادة للصرب في سراييفو ، صحبها تدمير الدكاكين والبيوت التي يملكها الصربيون . وعندئذ صرح رئيس العلماء الشيخ جمال الدين شوشيفيتش (Gjemaludin Tchaušević) معلنا استياءه من هذا الاجرام المـــدبر الذي راح ضـــحيته الأبرياء ، ووضــــع بعض الصربيين تحت حمايته (١) . وكذلك أيضا شعر بعض الزعماء الصرب البوسنيين أن هناك حملا من الآثام الصربية لابد من تقديم الغفران عنه وعندما بدأت الحرب قدموا التماسا الى السلطات أن تســـمح لهم بالذهاب رأسا الى الخط الأمامي ضـــد صربيا ، وأن يبدوا ولاءهم للامبراطور (٢) . وهناك حقيقة تبـــدو دلالتها واضــحة . وهي أن معظـــم المتآمرين كانـــوا من الصرب البوسنيين ، وعندما ظهر في النهاية أن الفاعلين الرئيسيين وهما برنسيب وتشابرينوفيتش تلقيا دراستهما في بلجــراد ، وحصلا على قنابلهما منها وعبرا بها الحدود الى داخل البوسنة ، بدا الاتهام دامغا وقاطعا . ومن الواضح أنهما تلقيا بالفعل شيئا من المعونة من عميـــل لمنظمة « الدفاع الوطني » الصربية (النارودنا أودبرانا) ، كان يعمل في خدمة الكولونيل أبيس (Apis) رئيس ادارة المخابرات الصربيـــة (٣) . والنظريات لاتزال تتضارب حول مدى اشتراك أبيس في المســـألة وحول دوافعـــه السياسية الممكنة ، ولكن الفكرة الذاهبة الى أن الحكومة الصربية كانت هي التي دبرت للاغتيال ، قول يمكن رفضه بكل حزم .

وبلغ الأمر أنه حتى الحكومة النمســـاوية المجرية نفسها لم تحمل الصرب المسئولية المباشرة عما حدث . وذلك لأن الانذار النهائي الصادر

في ٢٣ يوليو لم يشك ألا من مجرد أن الحكومة الصربية « تسامحت ازاء مؤامرات جمعيات ومنظمات عدة معادية للنظام الملكي ، واللغة غير المهذبة التي تستخدمها الصحافة ، وتمجيد المحرضين على العنف ، ومشاركة الضباط والموظفين في الحركات الهدامة » ، - وكلها حقيقية تماما في جوهرها • وقد قبلت صربيا جميع المطالب العشرة التي قدمت اليها لأنهاء هذه النشاطات الا واحدا فقط ، كان يتطلب حضور مندوبين نمساويين مجريين من محققين او رجال شرطة وتوليهم تحقيقهم على الأرض الصربية (٤) • وكان هذا الاعتراض على نقطة واحدة سببا كافيا لهؤلاء السياسيين في بودابست وفيينا وبرلين - وعلى الأخص برلين - الذين كانوا يريدون الحرب • واعتاد المؤرخون أن يكتبوا ما يشاءون كأنما الحرب تسبب فيها شيء غير شخصي يسمى « النظام الدولي » ، ولكن الحقيقة المتفق عليها بين الناس عامة هي أن ألمانيا كانت تدفع الأمور دفعا شديدا نحو الحرب ، لكي تضع حدا حاسما لقوة روسيا المتزايدة (٥) • أما النمساويون المجريون فكانوا أكثر ترددا ، حيث كانوا يخشون تدخل روسيا (بوصفها حامية صربيا) بقدر ما كان الألمان يسعون الى ذلك • ومع أنه كان بين وزراء الحكومة النمساوية المجرية من كان يرغب في اتخاذ اجراءات تأديبية نحو صربيا ، فانهم لم تكن لديهم خطط جديدة لزيادة الرقعة الأرضية في بلاد البلقان : بل على العكس فان الوزير المجري تيستسا (Tisza) ، أصر (بسبب الخوف المجري القديم من زيادة عدد السلافيين أكثر مما ينبغي على أرضها) على أنه لا ينبغي ، بأية حال ضم أية أرض صربية • فحتى عندما فكرت حكومة النمسا والمجر في شن الحرب على صربيا في ١٩٠٦ و ١٩١٣ ، فانها لم تعرف قط معرفة يقين ماذا تفعل بتلك البلاد لو أنها فتحتها • ذلك بينما كان واضحا أن صربيا كانت تريد فعلا الاستحواذ على اقليم البوسنة ، رغم أنها لم تتصور يوما أنها تستطيع أن تنتصر في حرب حاسمة على الامبراطورية النمساوية المجرية • ولو أنك أنعمت النظر في صميم هذا النزاع البلقاني المحلي ، لوجدت فيه أسبابا قوية لزرع العداوة ، لكنك لن تجد دوافع كافية لشن الحرب • فلولا الضغط الألماني لما أثار حادث الاغتيال في سراييفو فيما يحتمل حتى ولو حربا بلقانية خطيرة الشأن ، ناهيك عن حرب تتورط فيها جميع القوى العالمية الكبرى •

قاتل الصربيون ببسالة ، وكان كثير من الجند الذين أرسلوا الى صربيا تحت قيادة الحاكم العسكري للبوسنة ، وهو الجنرال بوتيوريك ، هم أنفسهم صربيين من البوسنة نفسها ومن المناطق الحدودية العسكرية بكرواتيا في السابق • وهنا نرى الأرثوذكس يقاتلون الأرثوذكس :

وكأنما هذه عودة الى الأيام القديمة للحروب الهابسبرجية والعثمانية ٠ ولكن كان من بين الجنود النمساويين المجريين كثير من المسلمين والكاثوليك، أيضا والطائفة الأخيرة كان من ضمنها شاب صغير نصف كرواتي ونصف سلوفيني يدعى جوزيب بروز اشتهر فيما بعد باسم تيتو ٠ وفي عام ١٩١٤؛ رد الجيش النمساوى المجرى على أعقابه مرتين عن الأراضى الصربية ، مع تكبد الطرفين خسائر جسيمة ٠ وصمدت صربيا حتى أخريات صيف ١٩١٥ ، ثم حدث بعد ذلك هجوم جديد على الجيش الصربى بقيادة الجنرال الألماني فون ماكنسن (Von Mackensen) ودخلت بلغاريا الى ساحة الحرب الى جانب ألمانيا والنمسا ، وعندئذ أخذ يتراجع الجيش الصربى متجشما خسائر جسيمة فى الأرواح عبر جبال شمال البانيا الساحل الأدرياتيكي ، وأما من بقى من ذلك التقهقر على قيد الحياة فقد كتب عليهم أن ينضموا الى جيش الحلفاء الذى قاتل فى سالونيكا ، ومن هنالك شقوا طريقهم حتى بلغوا مقدونيا وصربيا فى خريف ١٩١٨ ، معيدين فتح بلجراد فى الأول من نوفمبر ، ثم متحركين الى داخل البوسنة والفويفودينا ٠

وكان بين صفوف الجيش الصربى متطوعون كثيرون من البوسنة وغيرها من الأراضى السلافية التابعة للنمسا والمجر ٠ وكان من المعروف أن ما يقارب خمسة آلاف من البوسنيين انضموا الى « الفرقة الأولى للمتطوعين الصربيين » ، كما أنه كانت هناك ثلاث كتائب من المتطوعين من الهرسك فى جيش الجبل الأسود (٦) ٠ ومن ثم فليس مما يدهش له أن السلطات بالبوسنة بقيادة بوتيوريك أولا ثم بقيادة خلفه البارون ساركوتيتش (Sarkotić) ، قامت ببعض العمليات شديدة الوطأة على الوطنيين الصرب وعلى « النشطاء » السياسيين وعلى غيرهم من المتعاطفين المتوقعين على القضية الصربية ٠ وتم نقل صربيين من منطقة تخوم البوسنة الشرقية ، وأعيد توطينهم بغرب الاقليم ، وذلك تجنبا لنشاط الطابور الخامس ، كما أن ما يصل بالتقريب الى خمسة آلاف عائلة صربية دفعوا عبر الحدود حتى دخلوا صربيا والجبل الأسود (٧) ٠ وتعرض البعض للاعتقال ، اذ أن روائى المستقبل ايفو أندريتش مثلا ، الذى عاد الى البوسنة فى اليوم الذى سمع فيه بالاغتيال اعتقل يوم ٢٩ يوليو ، واحتجز فى عدد متعاقب من السجون بدالماشيا وسلوفينيا ، (وأخيرا وضع فى قيد من النفى الداخلى فى قرية قرب مسقط رأسه ترافنيك ، حتى صدر العفو العام عن مثل هذه الحالات فى ١٩١٧) (٨) ٠ ولا أقل من ٣٣٠٠ وبحتمل حوالى ٥٥٠٠ من أبناء البوسنة المشتبه فيهم ، ومعظمهم من الصربيين ، ظلوا محتجزين فى معسكرات اعتقال بكل من البوسنة

والمجر . والمظنون أنه مات عدد يتراوح بين ٧٠٠ و ٢٢٠٠ من المعتقلين هناك . وكانت وطأة الضغوط الشديدة على جمعية « البوسنة الفتاة » وغيرها من التجمعات الأخرى من تلامذة المدارس ، قاسية وعنيفة . وقدم ١٤٢ فردا من هؤلاء الى المحاكمة فى ١٩١٥ . وفى أشهر هذه المحاكمات اسما ، وهى محاكمة قوم مرتبطين بحركة « الدفاع الوطنى » الصربية ، والتى عقدت فى بانيالوكا فى ١٩١٦ ، كان عدد المتهمين ١٥٦ متهما ، صدر حكم الاعدام فى خمسة عشر منهم ، وحكم بالأشغال الشاقة على ٨٦ (٩) . ولم تجد كثيرا هذه الأفعال الحكومة النمساوية ولا الجهد الحربى النمساوى المجرى كما كان متوقعا ، وان أكسبت الغايات الصربية ، قضية الوطنية اليوغوسلافية تعاطفا شديدا .

ومع ذلك فان غالبية البوسنيين ، مهما تكن شكوكهم فى الجو المحيط بهم ، ظلت موالية للدولة النمساوية المجرية . ومع أن بعض المسلمين انضموا فعلا متطوعين فى الجيش الصربى فان معظمهم لم تكن لديهم أدنى رغبة فى أن يروا صربيا تبتلع وطنهم بعد أن تضع الحرب أوزارها ، ورغم أن زعماءهم رضوا من قبل أن يقيموا أحلافا تكتيكية مع الصرب البوسنيين أثناء السنوات الخمس عشرة السابقة على الحرب وذلك ابتغاء اكتساب تنازلات خاصة من الحكومة ، لكن التحالف مع صربيا كان أمرا مغايرا تماما (١٠) . أما الكروات إلبوسنيون فكان الخلاف بينهم أشد ، عاكسا اختلاف الرأى داخل كرواتيا نفسها . وهناك تحليل شائق يصف مركز الكروات البوسنيين ، ورد فى خطاب أرسله مدير المدرسة الكاثوليكية فى ترافنيك الى الحكومة النمساوية ، قال : « ان بعضهم كان يريد الانضمام الى صربيا ، بينما كان آخرون ضد ذلك على الاطلاق ، فأما الذين أرادوا الوحدة غير المشروطة مع صربيا ، فكانت غالبيتهم من بين المثقفين ، بل لقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء أنهم كانوا على استعداد للتخلى عن كاثوليكيتهم : ذلك بأن ميولهم فى « التحرر من روما » كانت تتناغم وميولهم فى « التحرر من النمسا » (١١) .

ولو استعرضنا القادة السياسيين فى كرواتيا نفسها ، ومنهم من انضم الآن الى « لجنة يوغوسلافية » فى المنفى ، ما وجدنا فيهم أحدا يتصور أن الدخول فى الأرثوذكسية يمكن أن يكون ثمنا للاتحاد مع صربيا ، فقد كانوا يريدون الاحتفاظ بهوية كرواتيا المميزة داخل نطاق دولة يوغوسلافية مستقبلة ، كما كانوا يرتابون فى أية خطة تصل الى خلق « صربيا العظمى » . وازدادت شكوكهم فى ١٩١٥ ، يوم قبلت الحكومة الصربية اتفاقا تقتطع بمقتضاه أجزاء كبيرة من دالماشيا وايستريا

وسلوفينيا ، وتعطى لايطاليا كمكافأة على دخولها الحرب الى جانب الحلفاء • وكانت مثل هذه الحركات تقوى من حجة أولئك السياسيين الذين كانوا لايزالون نشطين داخل الأراضي النمساوية المجرية ، الذين كانوا يعيدون شكلا موسعا جديدا للحل السياسي الثلاثي الأطراف القديم ، الذي يدعو الى « وحدة ذاتية يوغوسلافية موحدة » كشريك مساو للنمسا والمجر من خلال امبراطورية هابسبرجية مستمرة • وكان هذا هو الموقف الذي اتخذه الممثل الأول للسلوفينيين فى البرلمان النمساوي وهو المونسنيور كوروشيك (Korosec) (١٢) •

وفي يوم ٣٠ مايو ١٩١٧ ، أصدر كوروشيك وبعض زملائه اعلانا يدعو الى « توحيد جميع الأراضي الموجودة فى المملكة التى يسكنها السلوفينيون والكروات والصرب » • وأوتي « اعلان مايو » هذا أثرا قويا فى البوسنة ، فانحاز اليه كثير من السياسيين الصرب والكروات • ورحب الصربيون بادخال اسم الصرب صراحة فى مقترح الوحدة (اذ يعد ذلك تقدما على كل التعبيرات والصور السابقة الثلاثية الأطراف) ، ورأوا فيه أقرب صورة لدولة يوغوسلافية يمكن التوصل اليها تحت الحكم النمساوي المجرى • وكان المعتدلون من الكرواتيين البوسنيين يؤازرون خطة من هذا النوع ، فأما الكاثوليك المحافظون ، يقودهم كبير الأساقفة ستادلر ، فكانوا يفضلون صورة محدودة أكثر لنفس الفكرة ، يكون فيها الكيان المقصود شاملا للبوسنة ، على أن يتسم بطابع كرواتيا العظمى • ومع ذلك ، فان المسلمين كانوا أشد اختلافا ، فعندما ذهب اثنان من قادة السياسيين المسلمين، وهما شريف أرناؤوطوفيتش وصفوت بك باشاجيتش لمقابلة الامبراطور فى ١٩١٧ ، طالبا بدلا من ذلك بالاستقلال الذاتى البوسنة داخل دولة يسيطر عليها الكرواتيون ، وكان معظم المسلمين أشد استقلالا من الوضع القانونى الذى كانت تستمتع به كرواتيا فعلا من قبل ، لم تكن فى الحق الا احياء للحلم القديم بالاستقلال الذاتى الذى شغل بال زعماء المسلمين منذ أيام حسين قابيطان فى ثلاثينيات الألف وثمانمئة • وكان التماسها الأساسي هو الحيلولة دون ابتلاع البوسنة داخل دولة يسيطر عليها الكرواتيون ، وكان معظم المسلمين حريصين على تجنب ذلك ، وان أبدى صفوت بك باشاجيتش نفسه ميلا للكروات فى نظرته العامة الى الأمور ، حتى انه سرعان ما تحول الى موقف مؤيد لقيام « كرواتيا الكبرى » (١٤) • على أنه كان بين المسلمين كثرة ترى أن الاستقلال الذاتى نفسه تحت سيطرة المجر ، تسوية غير مرضية ، وكانوا أميل الى الدخول فى غمرة دولة يوغوسلافية منفصلة • وكان من

هؤلاء رئيس العلماء تشاوشيفيتش ، الذى أبلغ المونسنيور كوروشيك في ١٩١٧ أنه قد سئم من حكم الترك أو الألمان (١٥) .

وانكبت السلطات النمساوية المجرية على دراسة هذه المقترحات لكنها لم تفعل شيئا . ولما حان الوقت لأخذها مأخذ الجد ، كان الأوان قد فات ، ففي فبراير من تلك السنة حدث تمرد في الأسطول النمسوى المجرى باقليم الجبل الأسود ، وكان الهروب من الجيش والاضرابات تتزايد يوما بعد يوم ، ولم يبق الا توطين النفس على قبول الهزيمة الشاملة . وبدأ الحاكم العام للبوسنة البارون سارزكوفيتش في الاقدام على سلسلة من المناقشات والمجادلات ، رغبة منه في محاولة ادخال بعض التعديلات السياسية في النظم التي ربما تفيض سبيلا للاحتفاظ بحكم آل هابسبرج . فبدأ أولا بأن حسن للامبراطور في مارس أن تضم البوسنة لكرواتيا ، ثم عاد فاقترح في مايو اندماج البوسنة مع كرواتيا أو الحصول على الاستقلال الذاتي بوصفها « كيانا منفصلا » تحت ظل التاج المجرى ، ثم عندما نوقشت هذه المسائل بالمجلس الامبراطورى في آخر مايو تحول الى تحبيذ الاتحاد مع كرواتيا مرة ثانية (٩٦) . وفي أغسطس ، يوم كان الجهد الحربى النمسوى المجرى يترنح ويتداعى يوما بعد يوم ، نظم المونسنيور كوروشيك اجتماعا جديدا لرجال السياسة تخلى تماما فيه عن فكرة السيادة النمساوية المجرية ، واتخذ يعلن وجوب قيام « مجلس قومى » بقصد « توحيد الشعوب اليوغوسلافية داخل دولة مستقلة » . والآن وقد أصبحت النهاية على مرمى البصر أرسل الامبراطور الوزير المجرى الكونت تيستسا لزيارة كل من زغرب وسراييفو في سبتمبر ، في محاولة نهائية مقضى عليها بالفشل ، لاقناع السياسيين المحليين بقبول هيئة دستورية جديدة ، تحت ظل التاج المجرى .

والاجابات التي تلقاها تيستسا في سراييفو تعطينا صورة مدهشة لمواقف زعماء السياسيين البوسنيين . وقدم الصربيون والكرواتيون (بقيادة السياسى الصربى فويسلاف شولا) ، بتقديم مذكرة مشتركة قالوا فيها انهم شعب واحد ، وانهم يرغبون في اقامة دولة يوغوسلافية مع جميع الصربيين والكروات والسلوفينيين . وشكوا بمرارة من التدابير التي أملتها ظروف الحرب : مثل القضاء على الحكومة المحلية والمصادرات والمحاكمات السياسية . وكان من بين مطالبهم اصدار العفو العام عن السجناء السياسيين واعادة الحكم الدستورى مع الانتخابات الحرة وعقد برلمان جديد ، ومن بين زعماء المسلمين ، كان أرناؤوطوفيتش لايزال يستسيغ ويؤيد اقامة استقلال ذاتى تحت حكم المجر ، وباشاجيتش كان

يرغب في أن يجعل ذلك الاستقلال مطلبه المفضل الثاني بعد الأول الذي هو التوحيد مع كرواتيا • ولكن الاتجاه المسيطر عبر عنه رجل كان يشغل آنذاك وظيفة سكرتير غرفة التجارة ، ولكنه ما لبث أن أصبح الرجل السياسي البوسني الأول ابان سنوات ما بين الحربين وهو محمد سباهو • وقد شكا هو أيضا بمرارة من سوء ما لاقاه شعب البوسنة من معاملة أثناء الحرب وبخاصة مصادرة المؤن وتجنيد الشيوخ من الرجال والمراهقين من الأولاد في الجيش • وقال ان عوامـل التفريق بين المسلمين والمجتمعات الدينية الأخرى قد هبطت حدتها بسبب ما يعانونه من بؤس وشقاء من جراء الحرب ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح معظم مسلمي البوسنة الآن ــ على حد قوله ــ يؤيدون انشاء دولة يوغوسلافية (١٧) •

وسرعان ما حلت النهاية • ففي أكتوبر عقد في زغرب اجتماع عام « للمجلس الوطني » ، فأما المندوبون البوسنيون الذين حضروه فعادوا الى سراييفو حيث أقاموا مجلسهم القومي الخاص للبوسـنة • وفي يـوم ٢٩ أكتوبر ألغى البرلمان الكرواتي رسميا حكم آل هابسبرج وسلم السلطة الى « المجلس الوطني » معلنـا قيام دولة ذات سيادة من السلوفينيين والكروات والصرب • وهذا الاعلان وان انطبق فقط على الأراضي النمساوية المجرية السابقة ، فانه كان مؤذنا بقرب قيام دولة يوغوسلافية • والآن ولم يبق على التوحد مع دولة الصرب الا بضعة أيام ، كما أصبح الجيش الصربي على مسافة قريبة جدا من الأراضي البوسنية ، فان الصربيين هم الذين شعروا بأنهم أقرب الناس الى النصر بين شعب البوسنة • وكتب البارون ساركوتيتش في يوم ٢٩ أكتوبر يقول : « يبـدو أن مشـاعر الابتهاج والفرح التي أعرب عنها الصربيون وبالغوا في اظهارها كان لها الى حد ما أثر مهدىء على الكروات والمسلمين » (١٨) • وفي اليـوم التالي جاء زعماء المجلس الوطني البوسني لزيارته ، وكانوا يحملون التماسات وطلبات متنوعة ، مثل التوقف عن مصادرة الماشية ، ولكن من أعجب الأمور أنهم لم يطالبوه بأن يسلمهم السلطة • وكانت وزارة الحرب في فيينا ، هي التي أبلغته برقيـا في تلك الليلة أن جميع القوات العسـكرية في البوسنة ينبغي أن توضع تحت تصرف المجلس الوطني • وفي اليوم الأول من نوفمبر دعا ساركوتيتش قادة الجيش وزعماء المجلس الوطني لمقابلته وأخبرهم بتنازله عن الحكم • وعندئذ سأله أحد زعماء الكروات البوسنيين وهو يوزيب سوناريتش (Josep Sunarié) أن يطلق سراح المعتقلين السياسيين ، وكان جوابه بسيطا : « ان السلطة لكم الآن » • وبعد ذلك بيومين اثنين شكلت « الحكومة الوطنية الأولى للبوسنة والهرسك » (١٩) •

وكانت أول نتيجة لانهيار الدولة النمساوية المجرية ، هي حالة عامة من الفوضى وثورات الفلاحين بالمناطق الريفيـة · وكانت أبشـع الحالات من هذا النوع هي التى حدثت فى شمال كرواتيا ، حيث نهبت كثير من المزارع الكبيرة وسرق كل ما فيهـا من مواش · ولما حدث ذلك الشيء نفسه فى البوسنة ، كان المسلمون وحدهم هم ضحايا هذه الهجمات لأنهم كانوا هم المالكين لمعظم المزارع الكبرى · بيد أنه كان هناك أيضا نوع من الاحساس بالنصر من الصرب على المسلمين ، خاصـة بعد وصول جند صربيا والجبل الأسود فى أوائل توفمبر · وفى مارس ١٩١٩ أبلغ رئيس العلماء جمال الدين تشاوشيفيتش صحفيا فرنسيا أن ألف رجل مسلم قد قتلوا وأن سـبعا وسـتين امرأة أحرقت حتى الموت وأن مئتين وسبعين قرية قد نهبت نهبا مع المساعدة ، سلبية كانت أم ايجابية ، من الجند الصربيين · وعندما نشر هذا الصحفى هذا البيان فى الجرائد الفرنسية ، ضغطت الحكومة الجديدة فى بلجراد على رئيس العلماء لكى يسحب أقواله (٢٠) · وهذه الفظائع لا تعد مع ذلك دليلا على عودة البغضاء العرقية القديمة بين أهالى البوسنة من الصربيين والمسلمين ، لأنها حدثت فى ظروف غير عادية ، فى نفس لحظة انتهـاء حرب لقى فيهـا النـاس ضروبا من المعاناة القاسـية · (من العسير علينـا أن نحصى عدد الذين ماتوا فى البوسنة من جراء العمليات العسكرية والتيفوس : ولكن من المعتقد أن سدس عدد السكان تقريبا هلكو أو هجروا ديارهم أى ٣٠٠ ألف نسمة ، ويشمل ذلك جماعة من المسلمين فروا فى موجة ثانية من الهجرة الى تركيا بعد ١٩١٨) · وطوال سنى الحرب كلها ، كان مسلمو البوسنة موالين بوجه عام للحكومة التى كانت تشن الحرب على صربيـا · وكذلك اشترك المسـلمون (مع الكروات وبعض الصربيين أيضـا) فى فيلق الشوتس (Schutzcorps) ، وهى وحـدة الدفاع المحليـة التى نفذت سياسات الحكومة المضادة للصربيين فى شرق البوسنة ، مستخدمة فى بعض الأحيان أساليب وحشية فظيعة (٢٢) · ومن اليسير أن نفهم أن بعض أبناء الطائفة الصربية المحليين قد أفعمت المرارة نفوسهم · كما أنه لا شك فى أن الجند الذين أتوا من صربيا كانوا يحملون ضغينة الأجيال السابقة ضد المسلمين ، فمعظمهم لم يكن عايش المسلمين من قبل ، كما أنهم قد ربوا على أن المسلمين رموز أسطورية خفية لأعداء صربيا · ولكن هذا ينطبق على القرويين الصرب البوسنيين ، الذين عاشوا فى سلام تام مع جيرانهم المسلمين مدة أربعين عاما أو تزيد ·

ومع هذا كان من الواضـح أن المسـلمين البوسنيين كانوا بحاجة ماسة الى تنظيم سياسى قوى يحمى مصالحهم · وتشكلت عدة تجمعات فى

هذه الشهور الأولى : فشكلت « منظمة المسلمن » ، و « الحزب الديمقراطي للمسلمين اليوغوسلاف » في ديسمبر ، و « اتحاد المسلمين » في بانيالوكا في أوائل عام ١٩١٩ (٢٣) . ولكن الحزب الرئيسي الذى سرعان ما أجمع المسلمون على تأييده كان « منظمة المسلمين اليوغوسلاف » التي تأسست في سراييفو فى فبراير ١٩١٩ . وانضم محمد سباهو الى قيادتهـــا . وسرعان ما وجد نفسه متورطا في المجادلات حول المبادىء الأساسية للدولة اليوغوسلافية الجديدة . وهنا ظهر أن جماعة فى داخل الحزب ، يقودها رئيسه ابراهيم ماجلايليتش (Ibrahim Maglajlić) ، كانت تؤيد فكره قيام يوغوسلافيا موحدة ومركزية من النوع الذى كان يحض على ايجاده الزعيم الصربي السياسي نيقولا باشيتش (Nikola Pašić) . وكان كثير من هؤلاء المسلمين من المثقفين ، ممن تشكلت آراؤهم ووجهات نظرهم في الجمعية الثقافية الإسلامية ، « جايرت » : ذلك بأن جايرت كانت منذ ١٩٠٩ تميل نحو الصرب ، (وبلغ من شدة ميلها ذلك أن فرضت السلطات عليها حظرا أثناء الحرب) ، وهي تدفع بأنه لكي تستقل البوسنـــة عن النمسا والمجر ، كان من الضروري للمسلمين أن يوحدوا هويتهـــم مع الصرب (٢٤) . ولكن تأييد هذا الإتجاه ما لبث أن تلاشي ازاء العنف الموجه ضد المسلمين من الفلاحين الصربيين والجنود الصربيين فى أعقاب الحرب العظمى الأولى . ولو أن البوسنيين المسلمين عرفوا الآراء الخاصة لأحد وزراء الحكومة الصربية هو ستويان بروتيتش (Stojan Protić) ، الذى استصوب ونصح في ١٩١٧ ، « بحل » مشكلة مسلمي البوسنة من خلال برنامج يرمي لجعلهم على تغيير هويتهــم الدينيــة وانزال المذابح بهم . لاضمحل هذا الإتجاه بصورة أكثر حدة (٢٥) .

وكانت وجهة نظر محمد سباهو التى ما لبثت أن انتصرت فى تلك الأيام داخل « منظمة المسلمين اليوغوسـلاف » ، هو أنه ينبغي للبوسنة أن تحاول الاحتفاظ بهويتهـا كوحدة ذاتيـــة الاستقلال داخل الدولة اليوغوسلافية . ولكن على وجه العموم ، وضعته آراؤه تلك فى صف كرواتيا فى المعركة الطويلة التى نشبت بين المركزية الصربية والاقليمية الكرواتية ، التى قدر لهـــا أن تسيطر على السياسات أثناء فترة ما بين الحربين . وأدى ذلك بالتأكيـد الى وضعه موضعا أوثق قربا من موضع الكروات البوسنيين ، الذين كان زعيمهم يوزيب سوناريتش ناقدا شرسا للمركزيين فى بلجـراد ، ودافع عن قيام يوغوسلافيا كونفيدرالية . فأما حزب الصربيين البوسنيين الرئيسى ، وهو « الديمقراطيون الراديكاليون »، فانه كان يؤيد فكرة اقامة دولة يوغوسلافية مركزية ، كما أنه ظل صادق الالتزام بأصولها الأولى في حركة ما قبل الحرب « البوسنة الفتاة » ،

بمطالبته باصلاح اجتماعى بعيد المدى . وكانت هناك أيضا منظمة شديدة الميل للكتلة الصربية تصدر صحيفة تسمى الفجر الصربى (Srpska Zora) كانت تطالب بامتصاص البوسنة كلها فى صميم صربيا (٢٦) .

وعندما عقدت الانتخابات اليوغوسلافية الشاملة بكل البلاد فى نوفمبر ١٩٢٠ ، للحصول على جمعية تأسيسية تقرر قرارها فى مستقبل شكل الدولة اليوغوسلافية ، فاز حزب سباهو بكل الأصوات المسلمة تقريبا بالبوسنة ، محرزا بذلك أربعة وعشرين مقعدا (٢٧) . ونظرا لأن أصوات هؤلاء النواب ، بالاضافة الى أصوات ستة مسلمين غيرهم انتخبوا فى مقدونيا ، كانت قادرة على قلب التوازن فى الجمعية ، تكالب على اكتسابها الساسة اليوغوسلافيون الآخرون . وهناك مطلب كان سباهو شديد الحرص عليه ، وهو التخفيف من وقع قوانين اصلاح الأراضى على ملاك الأرض المسلمين . وأصدرت الحكومة اليوغوسلافية مراسيم فى ١٩١٩ ، تلغى نظام أقنان الأرض ، وتقضى بأن عائلاتهم ينبغى أن يكون لها حق قانونى فى الأرض التى يفلحونها . وقاتل سباهو قتالا عنيفا لتعويض ملاك الأرض التعويض العادل من خزانة الدولة ، وما لبثت الحكومة أن دفعت ملايين الدينارات ، ولكن كان المستوى العام للتعويض أدنى من قيمة السوق للأرض . ويبلغ عدد العائلات المسلمة التى تأثرت بهذا الاصلاح أربعة آلاف عائلة ، ومنهم من أنزل به الى حضيض الفاقة (٢٨) . وعرضت اهتمامات سباهو هذه حزبه للانتقاد والتنديد به باعتباره مثلا للطبقات الاقطاعية القديمة ، لكن الواقع أنه لم يكن من بين مرشحيه الثمانية والسبعين الذين قدمهم حزبه للانتخابات فى ١٩٢٠ ، سوى ستة من ملاك الأراضى ، بينما كان اثنان وخمسون منهم من المحامين والمعلمين وغير ذلك من الحرفيين (٢٩) . وعلى كل حال ، فان ملاك الأراضى كانوا مجرد اقلية صغيرة من السكان المسلمين ، بينما الغالبية العظمى كانت فلاحين من ذوى الحيازة الصغيرة .

وكانت النقطة الثانية التى تشغل بال سباهو فى الجمعية التأسيسية هو الابقاء على الهوية الاقليمية الادارية للبوسنة . وقد وفق فى هذه النقطة الى شىء من النجاح ، وان كان الثمن العجيب الذى دفعه هو أنهم اضطروه الى أن يؤيد الدستور المطلق التمركزى الذى قدمه القادة الصربيون . (وأصبح ذلك معروفا باسم دستور الفيدوفان (Vidoven) أى يوم عيد القديس فيتوس ، لأنه تم تطبيقه فى ١٩٢١ يوم الثامن والعشرين من يونيو ، يوم الذكرى السنوية لمعركة كوسوفو) . ولم يكن هناك بد مما حدث ، وذلك نظرا لأن زعيم الحزب الكرواتى

الرئيسى ، كان من الحماقة بحيث سحب نوابه سحبا تاما من الجمعية ٠ هكذا حدث لما تمت اعادة تنظيم جميع الأراضى اليوغوسلافية وتقسيمها الى ثلاث وثلاثين مقاطعة ، أن معالم خطوط نرواتية اختفت من الخريطة ، ولكن معالم خطوط البوسنة تم الاحتفاظ بها ٠ والحق ان المقاطعات الست البوسنية كانت تقابل بالضبط عددها فى عهد النمساويين المجريين ، التى تم تأسيسها بدورها قبل ذلك على أساس السنجقيات فى الفترة الأخيرة من الحكم العثمانى (٣٠) ٠ وبفضل جهود سباهو صارت البوسنة هى العنصر الأساسى الوحيد فى يوغوسلافيا الذى احتفظ بهويته بهذه الطريقة ٠

وكانت هذه المناورات المستمرة التى دامت طوال العشرينيات من هذا القرن العشرين بينما التوترات تزداد بين زغـرب وبلجراد تفسر لنا لماذا أقبل بعض أبرز المسلمين أن يعلنـــوا أنفســـهم على الملأ « كرواتا مسلمين » أو « صربا مسلمين » ٠ وقد رأينا من قبل أن بعضهم فعل ذلك فى سنى ما قبل الحرب ، نتيجة لاحساســهم بالحاجة لاظهــار هويتهم الثقافية ، وبخاصـــة الكتـــاب منهم ، مثل صفوت بك باشاجيتش ، الذى غرق الى الأذنين فى الثقافة الأدبية الكرواتية ٠ غير أن الأســاس الأصلى لكل هذه التصريحات كان سياسيا بحتا ٠ وكما أن الاتجاه فى أثناء العقد الأول كان الانحياز الى الصرب بوصفهم حلفاء طبيعيين على فيينا ، فكذلك أصبح الاتجـاه الآن هو الانحياز الى الكروات بوصفهم حلفاء طبيعيين على بلجراد ٠ وفى البرلمان اليوغوسلافى لسنة ١٩٢٤ ، وصف جميع النواب البوسنيين أنفسهم بأنهم كروات ، اللهم الا سباهو نفسه الذى أصر على أن يسمى يوغوسلافيا (٣١) ٠ ومع هذا فان لأخوى سباهو قصة : فان أحدهما أصر على أن يسمى نفسه كرواتيا ، وأصر الآخر أن يكون صربيا ٠ وهناك مقال رئيسى نشر فى صحيفة المنظمة الاسلامية اليوغوسلافية فى ١٩٢٠ ، استصوب الكاتب فيه علنا أن يطبق المسلم على نفسه هوية أية أمة تهبه أعظم فرصة « للتطور الاقتصادى » (٣٢) ٠ لقد كانت فكرة اختيار « الهوية الوطنية » على أساس السياسات الاقتصادية المتنافســـة فكرة سطحية ، ان لم تكن سخيفة ٠ والواقع أن الأسباب التى كانت تدعو المسلم لاتخاذ الهوية الكرواتية أو الصربية فى البوسنة كانت أضعف من الأسباب التى تدعو اخوانهم لاتخاذ هويات مماثلة ، مثلا المسلمون فى مقدونيا مع المقدونيين أو مسلمو الصرب مع الصربيين ٠ وكما رأينا آنفا ، كان الأساس الوحيد الحقيقى الداعى للأرثوذكس والكاثوليك البوســنيين لأن يسموا أنفسهم صربا كرواتا هو هويتهم الدينية ، وطبيعى أن ذلك كان هو الشىء الوحيد الذى لم يكن المسلمون البوسنيون يستطيعين المشاركة فيه ٠ والشىء الذى تظهره تلك المطابقة الذاتيـة ، المتصفة بالسطحية والقدر

الكبير من اللباقة والكياسة ، مع الصرب أو الكروات أثنـاء تلك المدة ، هو أنه كان لايزال هناك تردد وتمنع نظرى فى استعمال كلمة « مسلم » بوصفها بطاقة ثقافية تاريخية على نفس المستوى ، ولكن الواقع العملى هو أن المسلمين كانوا يعملون فعلا بوصفهم طائفة تعادل الطوائف الأخرى تماما ، وتدافع عن هويتهـا ، بل كان يفعل ذلك فعلا بطريقة أشد أثرا من اى تجمع آخر فى اطار السياسات البوسنية ٠

وبينما مصطلح « مسلم » يحتاز أهمية سياسية على هذا النحو ، كذلك أيضا كان الأساس الديني الدقيق للمصطلح يتآكل بالتدريج بفعل مؤثرات القرن العشرين المتجهة الى بث العلمانيـة ٠ ولم يكن المسلمون المتمسكون بدينهم في البوسنة من «المتعصبين» ، وان وصفهم بعض الزوار العارضين بذلك ، أجل كان فيهم رجال دين شديدو التمسك بالأصول ، ولكن السكان بوجه عام كانوا أكثر تراخيا فى ممارستهم ٠ وكما لاحظ آرثر ايفانز فى ١٨٧٥ : « فان حظر تصوير الأشياء الحية ينفذ ويراعى بنفس القدر الذى يراعى به تحريم الخمر » (٣٣) ٠ ولكن الأمر أخذ يتغير مع اتجاه أعداد متزايدة من المسلمين الى تلقى العلوم الحديثة بمدارس الدولة ، كما أن بعضهم الآخر واصل دراسة موضـوعات مثـل الطب والهندسة بفيينا وبودابست ٠ وبينما أخذت المزايا القديمة للسلطان الاقتصادى النابع من امتلاك الأرض تتدهور وتتناقص ، كان من الطبيعى أن الطبقة العليا من المجتمع الاسلامى أخذت تتنقل الى ممارسة الحرف والمهن ، وهو أمر كان يستلزم أساسا من التعليم الغربى ٠ وقد دهش مراقب فى ١٩٢٠ من ضخامة عدد الشبان المسلمين الذين يدرسـون العـلوم فى الجامعـات والكليات الفنية (٣٤) ٠ وفي الحين نفسه تشجعت النســاء المسلمات العاديات على الانخراط فى سلك العمل بالمصانع فى سراييفو ــ وهو شئ لم يكن من الممكن تصوره في المجتمعات المسلمة فى ذلك الزمان ٠

ولقيت هذه الميول والاتجاهات الجديدة تشـجيعا قويا من رئيس العلماء تشاوشيفيتش الذى تلقى العـلم في اسطنبول ، وقرأ أعمال دعاة التحديث والاصلاح العظماء كالشيخ جمـال الدين الأفغـانى والشيخ محمد عبده ، كما زار تركيا أتاتورك ٠ وفى ١٩٢٧ أحدث ضجة عظمى بين رجال الدين المسلمين الأشـد محافظة ، حين اقترح أولا أن تحول أراضى الأوقاف في مراكز المدن التى كانت تستخدم مقابر الى استخدامات أنفع كبناء المدارس عليها ، ثم بتصريحه فى حديث صـحفى فند فيه تحجب النساء ، قال : « انى أفضل أن أرى فتاة مسلمة غير محجبة تتكسب قوتها بشرف عن أخرى تمشى يومها بأرجاء الشوارع محجبة نهارا ، ثم تقضى مساءها فى احدى القهوات » (٣٥) ٠ وأصر بأن النقاب انمـا هو عادة

فحسب ، وليس واجبا دينيا بأية حال • كما أنه أبدى استحسانه أيضا لالغاء الطربوش واستخدام قبعة عادية بدلا منه ، على طريقة أتاتورك • ; ولا يخفى أن الطربوش نفسه قد فرضه على الناس أحد السلاطين كوسيلة لطبع الدولة بطابع غربى فى ١٨٢٨ ، فلقى مقاومة شرسة فى ذلك الزمان ، بوصف كونه رمزا للكاثوليك ، ولكن أحدا لم يدرك ذلك على الاطلاق بعد ذلك بتسع وتسعين سنة) (٣٦) • وتسببت ملاحظات تشاوشيفيتش تلك فى اثارة عاصفة ضخمة من الاحتجاج ، فألقيت الخطب وكتبت المنشورات. وصدر قرار من المجلس الاسلامى فى سراييفو يدين آراءه • وقد كان تشاوشيفيتش يعمل بمفرده ومعه قلة ضئيلة من بين رجال الدين المسلمين ، وكان لايزال أمام عملية الطابع الغربى مشوار طويل لابد من قطعه قبل أن يمس قلوب ممثلى الشعب البوسنى العاديين • ولكن فى الوقت الذى وجدت فيه بالفعل بريمادونا مسلمة وهى بحرية نورى هاجيتش (Bahrija Nuri Hadjić) ، التى كانت تغنى فى دار أوبرا بلجراد ، أصبح من البين تماما أن التغيرات الاجتماعية كانت تمضى سائرة فى طريقها بلا تردد ، ولن يستطيع أى قدر من الأحكام التى يصدرها رجال الدين أن يقف فى سبيلها أو يوقفها (٣٧) •

وربما بدا للزائر العابر فى أثناء سنوات ما بين الحربين هذه ، شىء من التفرقة والتمييز بين المسلمين والمسيحيين أكثر مما سلف ، لسبب بسيط هو أن المسيحيين كانوا أسرع من المسلمين فى التخلى عن الملابس « الشرقية » • وكتب بعضهم فى زمن قريب هو ١٩٠٣ : « يجد الأجانب صعوبة شديدة فى التمييز بين المسيحيين والأتراك فى البوسنة ، لأن الطرفين كليهما يرتديان العمائم والصديريات المطرزة والسترات المفتوحة الفضفاضة والسراويل المتجمعة عند الركبة ، والأحذية غير ذات الكعوب وذات المقدمة المعقوفة لأعلى (المركوب) » (٣٨) • والآن وقد ميز الكاثوليك والأرثوذكس أنفسهم بوصفهم كرواتا وصربا ، فانهم ألقوا جانبا ، وذلك فى المدن على الأقل ، ملابسهم البوسنية القديمة ، وقد عقب الصحفى جون جيبونز فى ١٩٣٠ بأن : « المسلمون واضحون فى شوارع سراييفو بسبب ملبسهم التقليدى » ، وقال : « وادعى الأشياء الى العجب مع ذلك بدا فى الطريقة التى كانوا يتوافقون بها كل مع الآخر تماما وبكامل السعادة » (٣٩) • وقبل ذلك بسنوات ثلاث كان كاتب امريكى كون لنفسه انطباعة مماثلة لهذه حيث قال : « هنا يرى المرء فلاحا بوسنيا من أبناء العقيدة الأرثوذكسية يضع صدقة فى كف سائل كفيف مسلم يقعد القرفصاء وهو يلعب على نايه على باب أحد المساجد •

ولو نظرت الى الدكاكين الصغيرة الوادعة التى يختلط فيها المسيحيون والمسلمون واليهود فى أعمالهم التجارية ، بينما يذهب كل منهم بعد ذلك الى الكاتدرائية والمسجد والكنيس ، لا يسعه الا أن يعجب : أليس التسامح واحدا من أعظم الفضائل ؟ » (٤٠) ٠

وكان التهديد الأكبر للتسامح يجيء شأنه فى الكثير الأعم من التاريخ البوسنى ، من خارج التخوم البوسنية ٠ وكان التوتر السياسى الذى لم يهن بين دعاة المركزية وخصومهم ، يزداد على الدوام شدة وقسوة أثناء عشرينيات الألف وتسعمئة ٠ وكان محمد سباهو مشتركا فى تلك الحكومات العديدة غير المستقرة التى شكلت فى تلك السنوات ، وكثيرا ما كان يجد نفسه وهو يعمل فى خط متواز مع القائد السلوفينى المونسنيور كوروشيك ، بوصفه نوعا من القوة الثالثة التى تتوسط بين الكروات المناوئين للمركزية والصرب الداعين لها ٠ وساعد الاثنان على اسقاط الرئيس المستبد نقولا باشيتش فى ١٩٢٤ ، وأدخل الاثنان كوزراء فى حكومة واحدة يرأسها الصربيون فى فبراير ١٩٢٨ ٠ وفى تلك الآونة ، كان الجو فى السياسة اليوغوسلافية آخذا فى التلبد ، اذ أسقطت عضوية الزعيم الكرواتى ستييبان راديتش (Stejepan Radić) فى البرلمان فى مارس ١٩٢٨ ، لأنه قال لوزير الشئون الاجتماعية : « انما أنت رضيع بكاء أوتى عجورة بدلا من رأس انسان ! أيها الجهول ! انك لص تجلس فى كرسى الوزارة ! » (٤١) وبعد ذلك بثلاثة أشهر ثارت ثائرة نائب من الجبل الأسود لمقاطعته أثناء القائه خطابا ، فأخذ غدارته وأطلق النار على نواب عديدين كان فيهم راديتش ٠ وحاول الملك ألكسندر فى البداية تبديد الأزمة وتعيين حكومة جديدة برئاسة كوروشيك ٠ ولكنه عاد بعد ذلك فى يناير ١٩٢٩ ، فاتخذ اجراءات أكثر شدة وفعالية ، فأوقف الدستور وفرض على البلاد نظاما سياسيا أشد وأعنف وأوثق توحيدا بكثير من أى نظام آخر حاول السياسيون الصربيون قبل ذلك تطبيقه ٠

وكان أول تغيير له رمزيته هو الاعلان أن « الدولة منذ الآن ستدعى دولة يوغوسلافيا » ــ وهو مصطلح أكثر توحيدية من « مملكة الصرب والكروات والسلوفين » ٠ وقد أراد الكسندر أن يمحو عن الخريطة السياسية تلك الهويات الاقليمية القديمة ، ولذلك فانه أدخل تقسيما جديدا تماما على الأراضى اليوغوسلافية الى تسع بانوفينات (Banovine أى بانات Banate ــ وكان استخدام هذا المصطلح الكرواتى القديم يكاد يكون بلة الريق الوحيدة للكبرياء الكرواتى) ، وقضى لكل بانوفينا نظاما تقطع بمقتضاه الحدود القديمة للعناصر الأصلية المكونة للدولة

اليوغوسلافية · وأسميت البانوفينات حيثما أمكن على أسماء الأنهار · وقسمت البوسنة بين أربع بانوفينات : فرباسك (Vrbaska) ، التى كانت تضم بعض الأراضى الكرواتية ، ودرينسكا (Drinska) ، التى كانت تضم شطرا كبيرا من صربيا ، وزينسكا (Zetska) التى كانت تتكون بصفة رئيسية من الجبل الأسود ، وبريمورسكا (Primorska) التى كانت تمتد الى الساحل الدالماشى · وبذلك حدث لأول مرة منذ أكثر من أربعمئة عام أن قسمت البوسنة ·

وكان « البانات » (Bans) حكاما يعينهم الملك ، كما أنهم كانوا بدورهم يعينون لهم مفوضين فى مكان مسئولى الحكومة المحلية المنتخبين · وهناك قس بوسنى صربى هو سيمو بيجوفيتش (Simo Begović) ، وهو شخصية محترمة كان النمساويون المجريون قد حكموا عليه بالاعدام فى محاكمات بانيالوكا السياسية فى ١٩١٦ ، قد قاد وفدا منوبا عن الفلاحين من بالى (Pale) الى دار البان فى سراييفو لكى يقدموا الشكوى حول هذه التغييرات · فطلب من البان أن يعطيه أربعة آلاف دينار ، فسأله البان لماذا ؟ ، فأجابه : « أريد أن أسافر بها الى فيينا لأن فيها قبر فرانز يوزيف ، وبذلك أستطيع أن أقول له : استمع الى يا فرانز ·· لو أننى علمت مقدما بالمصيبة التى ستقع فيها البوسنة بعد موتك ، ما حاولت قط ابعادك » (٤٢) · فاذا خامر قس صربى أرثوذكسى مثل هذا الاحساس ، فيمكننا أن نتصور كيف كان الكرواتى العادى يحس ، وهو الذى كان يعد يوغوسلافيا الموحدة الجديدة شيئا لا يقل فى واقع الأمر عن تحقيق آمال صربيا · ان أحدا لم يسعد بهذه التغييرات ولا حتى الساسة الصرب أنفسهم الذين ساءتهم الطريقة التى قصقص بها أجنحتهم الانقلاب الملكى · وكان أهل البوسنة المسلمون يعانون من التعاسة : خاصة وأنهم كانوا أقلية فى كل بانوفينا من تلك الاربع التى كانت كل منها تضم جزءا من البوسنة السابقة ، وكان الموظفون المسلمون لايعطون الا أدنى الوظائف فى وزارات ومصالح الحكومة الملكية الجديدة · بيد أن الكروات كانوا أقلهم سعادة وأتعسهم مزاجا · وهناك غادر البلاد أشد السياسيين الكروات راديكالية وهو أنتى بافليتش (Ante Pavelić) ، وشرع ينظم فى الخارج بمعاونة موسولينى ، « الأوستاشا » وهى حركة المقاومة الكرواتية ، التى ستناضل لتحقيق استقلال كرواتيا (٤٣) · وجاء بعد ذلك دور زعيم الحزب الكرواتى الرئيسى ، وهو فلادكو ماتشك (Vladko Matček وهو خليفة الزعيم ستيبان راديتش الذى اغتيل) · فاصدر « قرارا » فى نوفمبر ١٩٣٢ يدعو الى العودة الى الديمقراطية وانهاء السيطرة الصربية ، ثم صدرت بعد ذلك بيانات أخرى مماثلة ،

أولها من كوروشيك في سلوفينيا ، وسباهو في البوسنة ، وعندئذ تم القبض على ثلاثتهم • فأما الزعيمان السلوفيني والبوسني فقد أفرج عنهما سريعا ، وأما ماتشك فقد حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات (٤٤) •

ومن بين التدابير الأقل شأنا الهادفة الى تطبيق المركزية أثناء تلك الفترة من الحكم الفردى القرار الذى أصدره الملك باعادة تنظيم المجتمع المسلم فى يوغوسلافيا • فقد كان هنالك حتى الآن تنظيمان مختلفان ، أحدهما تنظيم مسلمي البوسنة والآخر تنظيم مسلمي مقدونيا وكوسوفو (المتركزة فى سكوبيه) • وبمقتضى المرسوم الملكي الصادر فى ١٩٣٠ ، وضع جميع المسلمين اليوغوسلاف تحت رئاسة رئيس علماء واحد ، ومجلس منفرد ، مع نقل مقر رئيس العلماء الى بلجراد • وعندئذ استقال تشاوشيفيتش بعد أن اعترض على هذه الخطـــة ، وكان رئيس العلمـاء الجديد المعين ليوغوسلافيا كلها هو ابراهيم مجلايليتش ، وهو الرئيس السابق لمنظمة المسلمين اليوغوسلاف الذى عرف بانحيازه للعرب (٤٥) • وهناك تغييرات أخرى أصغر شـأنا حدثت فى نفس الوقت ومنها ادخـــال منهج دراسى عمومى غربى الى المدارس الاسلامية ، وكان ذلك الاجراء جزءا من سياسة تهدف الى توحيد المناهج الدراسية بكل أرجاء المملكة (٤٦) • وغنى عن البيان أن القانون الصادر فى ١٩٣٠ أعطى الملك درجة ضخمة من التحكم والهيمنة على المجتمع الاسلامى ببلاده ، ومع ذلك فانه بعد وفاة الملك الكسندر (*) ، صدرت قوانين جديدة ، وتم الاعداد لبنية ديمقراطية أكثر ، واعطاء الحق لجمعيات نظار الأوقاف المحليين لتســمية ثلاثة مرشـحين لمنصب رئيس العلماء ، يختار الملك منهم واحدا •

وحدث شيء من التراخى الحذر فى النظام الأوتوقراطى الملكى بعد اغتيال الملك الكسندر فى ١٩٣٤ • وكان الوصى الجديد على العرش وهو الأمير بول (الذى كان يحكم بالأصالة عن الوارث للعرش الملك بيتر الذى كان يبلغ الحادية عشرة من عمره) ، قد أفرج عن ماتشك من السجن وعقد انتخابات جديدة فى صربيا فى ١٩٣٥ وعين سياسيا صربيا شابا هو ميلان ستويادينوفيتش (Milan Stojadinović) لتشـكيل حـكومة تراض • وكان السياسيون الوحيـــدون المعروفون الذين أدخلهـــم فى وزارته هما كوروشيك وسباهو • وبمعاونتهما ، كما قال ذلك فيما بعد ، كانت الحكومة « قوية أمام الشعب ولكنها ضعيفة فى البرلمان » : ومن قبل كان حزب كوروشيك قد قاطع الانتخابات ، وكانت منظمة المسلمين اليوغوسلاف برئاسة سباهو قد حاربت الانتخابات كجزء من قائمـة المعارضـــة التى

(*) الملك الكسندر قتله بعد ذلك بقليل صربى فوضوى بمدينة مرسـيليا ـ (المترجم) •

ترأسها ماتشك (التى قاست بفعل نظام انتخابى أعطى عددا لا يتناسب من المقاعد « للقائمة » الفــائزة) (٤٨) . وحدث بعد ذلك فى ١٩٣٥ أن ألف ستويادينوفيتش حزبا جديدا للحكومة هو « حزب الاتحاد الراديكالى اليوغوســلافى » وحــد فيـــه بين حزبى (الحزب الراديكالى الصربى) وكوروشيك وسباهو . على أن لجنـــة الحزب الراديكالى عدلت عن ذلك التنظيم فى الربيع التـــالى وأعلنت معارضتها للحكومة . وبذلك وجد ستويادينوفيتش نفسه فى موقف غريب بغير تأييـد الحزب الكرواتى او الصربى أصحاب الأغلبية وقائما فقط على السلوفينيين والمســلمين البوسنيين ومن بقى معه من مؤيديه الشخصيين .

دامت وزارة ستويادينوفيتش أربع سنوات ، وفى أثناء ذلك أحرز بعض التقدم التدريجى نحو الديمقراطية ، وسمح بمواصلة المباحثات مع ماتشك حول اعادة تنظيم يوغوسلافيا وصــولا الى نظام فيدرالى فى خاتمة المطاف ، واستحدث سياسة خارجية تقوم على التصالح والتراضى وتهدف الى تنمية الشئون التجارية والعلاقات الودية مع كل من ايطاليا وألمانيا . وكانت أشد القوى المدمرة فى السياسة اليوغوسلافية أثناء تلك السنوات هى الوطنية الصربية : حيث نجحت الكنيسة الأرثوذكســية فى اثارة الصربيين وحملهم على الخروج فى مظاهرات عنيفة ، وتمكنت من ايقاف وفاق بين يوغوسلافيا والفاتيكان فى ١٩٣٧ . وفى اليوم الثالث من فبراير ١٩٣٩ ، ألقى أحد وزراء ستويادينوفيتش الصربيين خطابا فى البرلمان أكد فيه سيادة الصربيين على الكروات والسلوفانيين : « ان سياسة الصرب ستكون على الدوام هى سياسة هذا المجلس وهذه الحكومة » ، وعندئذ طلب محمد سباهو من ستويادينوفيتش أن يستنكر ذلك البيان ، ولكن ستويادينوفيتش لزم الصمت . وفى تلك الليلة نظم كوروشيك استقالة خمسة وزراء احتجاجا على ذلك بما فيهم ســـباهو والوزيــر الصربى دراجيشـــا سفيتكوفيتش (Dragisa Cvetković) وجعفــر كولينوفيتش (Djafer Kulinović) ، الذى كان نائب ســـباهو فى منظمة المسلمين اليوغوســـلاف . وتمكن الأمير بول بفضـــل هذا الفعل من أن يطرد ستويادينوفيتش من السلطة واحلال سفيتكوفيتش فى محله (٤٩) .

والآن وهتلر يتقـدم نحو تشيكوسلوفاكيـــا ، والمعجب به أنتى بافليتش فى ايطاليـــا قد بات أكثر جـــرأة فى مطالبته بفض اتحـاد يوغوسلافيا ، أصبح واضـحا أن مشكلة ايجـاد حل فيدرالى مقبول من الكروات لم يكن من الممكن تأجيله أكثر من ذلك . وعندئذ بدأت المباحثات فى أبريل بين سفيتكوفيتش وماتشــك بهــدف اعادة تشكيل أرض وطنية

لكرواتيا ومنحها بعض السلطات السياسية الخاصـــة بها ٠ وكان أول ما اتفقا عليه أن البانوفينتين الرئيسيتين الكرواتيتين سافسكا وبريمورسكا (اللتين كانتا تضمان أجزاء من البوسنة) ، ينبغى أن تتوحدا مع منطقة دوبروفنيك ، وأن سكان بقية البوسنة ينبغى أن (يقرروا باستفتاء عام ما اذا كانوا يرغبون فى الانضمام الى كرواتيا أو صربيا » ـ وعندئذ يكون الهدف النهائى دولة فيدرالية ثلاثية الأطراف تتكون من صربيا وكرواتيا وسلوفينيا (٥٠) ٠ ولكن الأمير بول رفض أن يقبل هذا البناء الدستورى ، وبدأت دورة جديدة من المباحثات ٠ وفى هذه المرة اقتطعت أجزاء اضافية من أراضى البوسنة ببساطة تامة من الخريطة وأضيفت الى كرواتيا : وهى تتضمن برتشكو ، وجراداتشاك ، وديرفينتا ، وترافنيك ، وفوينيكا ٠ وبدلا من دولة ثلاثية الأطراف ، فالنظام الجديد يعامل كرواتيا بوصفها بانوفينة ذات وضع خاص ولها برلمانها الخاص بهـا : وبذلك تظل بقايا البوسنة موزعة بين البانوفينتين الموجودتين أصلا والمنقوصتين أيضا : بانوفينة فرباسكا وبانوفينة درينسكا ٠ هذه هى الخطة التى تم اتباعها فى النهاية فى اتفاقية أغسطس ١٩٣٩ (٥١) ٠

وتوفى محمد سباهو فى يونيو ١٩٣٩ ، وهذه المفاوضات فى أشد مراحلها حرجا ٠ لقد كان سياسيا حصيفا ، عمـل على اعطـــاء مسلمى البوسنة درجة من الضغط السياسى فى فترة ما بين الحربين ، لا تتناسب مع قوتهم العددية ، ولكن حتى معارضته العنيفة لم تستطع ايقاف القصقصة ٠ ودعا خلفه جعفر كولينوفيتش الى انشاء بانوفينا خاصة بالبوسنة ٠ ولكن طلباته لقيت التجاهل التام ، ولم يكن أقل أسباب ذلك أن المناطق الباقية من البوسنة كانت بها غالبية من الصربيين الذين لم يكونوا راغبين فى أن ينفصلوا عن باقى البانوفينات التى يسيطر عليها الصرب (٥٢) ٠ وظل كولينوفيتش عضوا فى الحكومة ولكنه أصبح معزولا وازداد حزنا واكتئابا ٠ وعندما ذهب كوروشيك لزيارته فى أوائل ١٩٤٠ ليسأله لماذا كان يقاطع اجتماعات مجلس الوزراء ، انهمر من فمه سيل من الشكاوى ٠ فلم يكن حزبه يتلقى سوى الفتات النزر من الرعاية السياسية ، وأوضح أنه بات لايطيق استمرار المباحثات حول انشاء بانوفينات سلوفينية وصربية ذات وضع متساو لكرواتيا ، دون أى ذكر لفكرة اعطاء البوسنة وضعا مماثلا ٠ أنه كان يطالب بانشاء بانوفينا جديدة مكونة من الجزء الباقى من الأرض البوسنية ، وسنجقية نوفى بازار التى يسكنها غالبية من المسلمين (٥٣) ٠ وللمرة الثانية تجوهلت رغبته مما أفعم نفسه بالمرارة ، وبات يضمر عداوة شديدة نحو الصرب الذين كانت رغبتهم فى ابتلاع البوسنة تتضح يوما بعد يوم ٠

وبينما هذه المسائل تناقش بدون نتيجة حاسمة ، أثناء الجزء الباقى من ١٩٤٠ ، كان الضغط الذى تمارسه دول المحور على يوغوسلافيا يزداد فى كل يوم شدة • وصدم الرأى العام صدمة شديدة بانهيار فرنسا السريع ، كما ثار غضبه بسبب مهاجمة ايطاليا لليونان ، ومع هذا اضطر الزعماء اليوغوسلافيون ، ازاء التماس بين حدود الرايخ الألمانى وبينهم (منذ ضم النمسا لألمانيا) ، وبسبب ما كان واضحا من عجز الحكومة البريطانية عن تقديم أية حماية فعالة فى البلقان ، الى أن يتخذوا سياسة هادئة ومسالمة • على أن الأمير بول وحكومته صمدوا شهورا عدة ازاء الضغط الألمانى وأبوا الانضمام الى حلف المحور ، ولكن بعد أن وقعت بلغاريا على ذلك فى أول مارس ١٩٤١ ، رأوا أنهم لن يستطيعوا المقاومة أكثر من ذلك • ووقع زعماء يوغوسلافيا على الانضمام الى الحلف فى فيينا ، فى ٢٥ مارس ١٩٤١ • وفى اليوم التالى لعودتهم طردوا جميعا مع والأمير بول نفسه فى انقلاب غير دموى قام به الجيش والأحزاب السياسية الصربية القديمة وحظى بتأييد شعبى • فضلا عن بعض الوزراء السابقين • ودعت الحكومة الجديدة الى سياسة من السلم والهدوء تجاه ألمانيا • ولكن الذى حدث بعد ذلك بعشرة أيام ، أى فى السادس من أبريل أن شن سلاح الطيران الألمانى سلسلة من غارات القصف المركز على بلجراد • وما عتمت يوغوسلافيا أيضا أن اجتاحتها قوات ألمانية وايطالية وبلغارية ومجرية • وبعد قتال دام أحد عشر يوما استسلم الجيش اليوغوسلافى استسلاما تاما للقيادة العليا الألمانية (٥٤) •

الفصل الثالث عشر

البوسنة والحرب العالمية الثانية
١٩٤١ ـ ١٩٤٥

ان تاريخ الحرب العالمية الثانيـة في يوغوسلافيا ، انما هو تاريخ حروب كثيرة تراكمت احداها فوق قمة الأخرى . فكانت هناك أولا بطبيعة الحال ، الحرب الأولى التي شنتها ألمانيا وايطاليا على يوغوسلافيا نفسها . وضمت بعض الأراضي : فاستولت ألمانيا على نصف سلوفينيا ، وأخذت ايطاليا النصف الآخر من سلوفينيا وعدة أجزاء من دالماشيا ، كما نالت المجر وبلغاريا وألبانيا الخاضعة لسيطرة ايطاليا ، أجزاء أخرى . وكان القصد من تمزيق صربيا تأديبيا ، ولكن الهدف الرئيسي كان الاخضاع والسيطرة . وفضلا عن ذلك كانت يوغوسلافيا مهمة للمواصلات وللامداد بالمواد الخام وبالعمال لتوفير حاجة المجهود الحربي في الحرب الدائرة ضد الحلفاء . وكانت هناك أيضا حرب محتدمة بين جنود المحور وحركات المقاومة اليوغوسلافية ، على أن هذه الحرب ظلت ثانوية بالنسبة للأغراض الأوسع لاستراتيجية لمحور ضد الحلفاء . وبعد ذلك شبت على الأقل نيران حربين أهليتين . أولاهما حرب شنها المتطرفون الكرواتيون على السكان الصرب الآمنين من أهل كرواتيـا والبوسـنة ، وهي حـرب عدوانيـة انتقامية شعواء لم يميزوا فيها بين محارب أو مدني . وأخيرا شبت هناك حرب بين تنظيمي المقاومة الرئيسيين ، اللذين تطوع فيهما الصرب مـن تلك النواحي : وهما تنظيما التشيتنيك والشيوعيين (البارتيزان) . وضمت الحركتان ، بمضي الزمن ، في عضويتهما جماعات عرقية أخرى كذلك . وليس من اليسير علينا أن نفك الاشتباك بين جميع هذه الخيوط المتشابكة ، لنحدد مسؤوليـة كل منها عن العدد النهائي للوفيـات في يوغوسلافيا أثناء تلك السنوات الأربع الفظيعة . ولكن الواضح تماما أن الذين لقوا حتفهم في ذلك الوقت لا يقل عددهم عن مليون انسان . ومن المحتمل أن غالبيتهم كانوا من اليوغوسـلاف الذين قتلهم اخوانهـم اليوغوسلاف (١) .

وفى اليوم العاشر من أبريل ١٩٤١ ، وحتى قبل أن تنتهى « حربهم الخاطفة Blizkrieg » ، أعلن الألمان قيام « دولة كرواتيا المستقلة » الجديدة ، وتضم البوسنة بكاملها والهرسك · ولم تكن مستقلة بطبيعة الحال ، كما أنها قسمت بين منطقتين من الاحتـــلال العســكرى الألمانى والايطالى يفصلهما خط التقسيم الذى يمضى مائلا من خـلال البوسنة من الشمالى الغربى الى الجنوب الشرقى · وبناء على اقتراح موسولينى ، دعا الألمان أنتى بافيليتش ليتولى الحكم فى دولة كرواتيا المستقلة بوصفه حاكما عالما أى فيرر (*) · ولم يكن لحركته « الأوستاشا » (وهى الحركة القومية الكرواتية المتطرفة التى تولت السلطة فى دولة كرواتيا المستقلة) حتى ذلك الحين تكتل بين الناس (اذ ربما لم ينضـــو تحت لوائها أكثر من اثنى عشر ألف عضو فى كل كرواتيا بأكملها) ، ولكنها سرعان ما أصبحت ذات تكتل كبير بمجـــرد أن تولت السلطة · وبعد عقدين من المقـاومة السياسية لمركزية بلجراد ، فان الغالبيـة العظمى من الكروات رأوا أن أقامة « دولة كرواتيا المستقلة » حدث يحتفى به ، مهما تكن ظروف ميلادها ومهما تكن لا شرعية وضعها « المستقل » · وأيـا كان الأمـر ، فقد بقى السياسيون المسئولون البارزون فى مدة ما بين الحربين ، مثـــل فلادكو ماتشك ، سلبيين لايتحركون ، بينما المتعصبون يتولون زمام السلطـة ويستغلون الدولة أداة للرعب وابادة الجنس ·

وصدر أول قانون مضـــاد لليهود فى « دولة كرواتيا المستقلة فى ١٨ أبريل ١٩٤١ · وبعد ذلك باثنى عشر يوما صـــدرت ثلاثة قوانين للدولة : عن المواطنة ، والهوية العرقية ، وحمـاية الدم الآرى ، وشرف الشعب الكرواتى » (٢) · على أن اضطهاد اليهود قد بدأ فعلا حتى قبل ظهور هذه الشكليات القانونية · ففى ١٦ أبريل ، وهو اليـــوم التـالى لوصول الألمان الى سراييفو ، هاجم الجند الألمان المعبد أو الكنيس القديم هناك · وفى مدى يومين من السلب والنهب ، كانت محتويات جميع المعابد اليهودية فى المدينة قد دمرت تماما (٣) · وفى الوقت نفسه ذهب ضابط ألمانى على الفور الى المتحف القومى ليصادر هاجادا (**) سراييفو التى لاتقدر بثمن ، ولكن بفضل فطنة مدير المتحف ، أنقذت هذه المخطوطة وخبئت طوال فترة الحرب فى احدى القرى الجبلية (٤) · وعندما صدرت الأوامر فى الشهر التالى بأنه ينبغى لجميع الحوانيت ومحلات الاستثمار الأخرى

(*) فيرر (وليس فوهرر كما تنطق عادة) تعنى القائد أو الزعيم بالالمانيـة ، ولها دلالتها الخاصة فى النظم الفاشية القائمة على عبادة الفرد ·

(**) الهاجادا : الجزء الأسطورى من التلمود ـ (المترجم) ·

« أن يكون لها مندوب من « الأوستاشا » للاشراف عليها » ، خصت الأعمال اليهودية بأشدهم غلظة وضراوة • وعندئذ بدأت سلسلة متلاحقة الحلقات من الاستيلاء على الأموال والاغتيالات ، وبدأ الاعتقال الجماعي لليهود في دولة كرواتيا المستقلة ، أما في صربيا التي عين لها رئيس غير متعصب ولكنه عميل خائن ومتواطىء مع الأعداء ، هو الجنرال نيديتش (Nedić) فقد بدأت فيها ملاحقة اليهود بعد ذلك بقليل ، وعندما حلت نهاية ١٩٤١، كانت غالبية اليهود قد نقلت الى معسكرات اعتقال بكل من المنطقتين• وتعاونت هيئات الموظفين المحلية في هذه الملاحقات في صربيا فضلا عن دولة كرواتيا المستقلة : ولم تكن أية منطقة بريئة من ذلك اطلاقا • ونهب جميع ما بالبوسنة من معابد يهودية ، كما دمر كثير منها تدميرا تاما • وعند نهاية الحرب قدر أنه من بين أربعة عشر ألف يهودي بالبوسنة قتل ما لايقل عن اثني عشر ألفا (٥) •

وغني عن البيان ، مع ذلك ، أن معاداة السامية كانت في الدرجة الثانية من الأهمية في ايديولوجية الأوستاشا • وكان الهدف الأساسي هو « حل » مشكلة الأقلية الصربية الكبيرة (٩ر١ مليونا من اجمالي ٦ر٣ مليونا) في أرض دولة كرواتيا المستقلة (٦) • وفي مايو بدأت حملة من الترويع ضد المواطنين الصربيين • وفي يونيو حدث اعتقال جماعي للصرب في موستار ، فضرب المئات منهم بالرصاص وألقيت جثثهم في النيريتفا ، ونفذت فظائع مماثلة لهذه في دولة كرواتيا المستقلة بما في ذلك المدن البوسنية مثل بيهاتش وبرتشكو ودوبوى ، دمرت قرى بأكملها في منطقة سراييفو • وبلغ الأمر في يوليو أنه حتى الألمان أنفسهم أخذوا يشكون من فظاعة ووحشية هذه الاعتداءات (٧) • وكان رد هؤلاء الفلاحين الصرب ـ وخاصة ببلاد الهرسك ـ وهي معقل ثورة الفلاحين المسلحة في ١٨٧٥ و ١٨٨٢ ، معروفا مقدما : ففي منطقة نيفيسيني أرجفوا بالثورة في يوليو ١٩٤١ ، وطردوا قوات مليشيا الاوستاشا من مواقعها ، وأسسوا الى حين محدود ، « منطقة محررة » ، ضموها الى منطقة أخرى للمقاومة قائمة في الجبل الأسود المجاورة • وعند ذلك استداروا على القرويين المحليين من كروات ومسلمين • اذ كانوا يعدون دخولهم تحت حكم دولة كرواتيا المستقلة نوعا من التواطؤ ، فقتل أكثر من ٦٠٠ مسلم في الركن الجنوبي من الهرسك ، وفي يوليو وأغسطس بلغ عدد القتلى بالتقريب ٥٠٠ بالمنطقة المحيطة بفيشيجراد (٨) • وفي منتصف أغسطس كتب أحد المنظمين الشيوعيين رسالة يقول فيها من سراييفو : ان الثوار نهبوا سكان

القرى المسلمين فى منطقة موســـتار ، وبهذا قلبـــوا على أنفســـهم جميع السكان المسلمين كافة » (٩) ٠

وأدت سياسات ابادة الجنس التى انتهجها نظام دولة كرواتيـــا المستقلة الى اندفاع الآلاف من الصرب البوسنيين الى الانخراط فى واحدة من حركات المقاومة المنظمة ٠ وكانت هناك اثنتان من هذه التنظيمات تعملان فى الأراضى البوسنية ، مع صفات مميزة مختلفـــة وأهداف شـــديدة التباين ٠ وبلغ من شدة اختلافهما أن أصبح جليا أن هناك حربا أهلية رعناء بينهما تتراءى من بعيد أمام الأنظار حوالى أكتوبر ١٩٤١ ٠ وقد شكل الأولى كولونيل فى الجيش اليوغوسلافى اسمه دراجـــا ميخايلوفيتش (Dradja Mihailović) ، وهو ضـــابط ملكى النزعة محب للانجليز ، وخبير متمرس فى حرب العصابات ، وكان يقيم فى البوسنة عندما حدث الغزو الألمانى ٠ فسافر شرقا بصحبة بقية الرجال الذين كانوا تحت امرته الى منطقة تلال رافنا جورا (Ravna Gora) ، فى غرب وسط صربيا . وهناك أقام مقر قيادته ٠ وكان بوصفه ضابطا فى الجيش ، يمثل البقية الباقية حيـــة من السلطة الملكيـــة (وعندئذ عمـــدت الحكومة الملكيـــة اليوغوسلافية فى المنفى فيما بعد الى ترقيته الى رتبة الجنرال وتعيينه وزيرا للحرب) ، وتمكن بوصفه صربيا وطنيـــا من ضمان ولاء كثير من المواطنين الصرب العاديين ٠ وأصبح رجاله يعرفون باسم التشيتنيك أى رجال العصابات ، وهو المصطلح التقليدى المأثور لأولئك القراصنة قطاع الطرق من الفرسان الكماة الصناديد ، والمقاتلين البواســـل فى التاريخ الصربى القديم ٠ وكان ذلك الاسم مصدرا لعدة التباسات ، وذلك لأنه كانت هناك قبل ذلك منظمة رسمية من « التشيتنيك » تقوم على حركة من قدامى المحاربين من الحرب العالمية الأولى ، وأصبحت ساعدا للنظام العميل الصربى ٠ ونشأت تجمعات صربية كثيرة فى أمكنة أخرى وأسمت نفسها « تشيتنيك » ٠ ولكن لم تكن لها أدنى علاقة بجماعة ميخايلوفيتش ، وكانت نقطة الضعف الكبرى فى مهمته ، هى أن قواده المتفرقين بكل مكان كانوا يعملون آمادا طويلة فى استقلال تام ، أو عدم اهتمام بأى أوامر تصدر عنه (١٠) ٠ وبدأ الجند التشيتنيك التابعون له المقاومة الناشطة الفعالة ضد الألمان فى مايو ، ولكن السياسة العامة التى اتبعها ، كمـــا طلبت اليه ذلك الحكومة فى المنفى فى يوليـــو وسبتمبر ، كانت التربص وبناء منظمة ، وتسريب العملاء فى قوات نظام العميل الخائن نيديتش ، والتهيؤ للقيام بثورة ، لابد فى خاتمة المطاف أن تأتى ، عندما يكون الحلفاء قد انقلبوا ضد الألمان (١١) ٠

فأما المنظمة الأخرى وهي منظمة « البارتيزان » (الأنصار) وهم رجال المقاومة الشيوعية ، فكانت لها أغراض أخرى مخالفة تماما • فقد لعب الحزب الشيوعي دورا يكاد يكون مكنونا في السياسات اليوغوسلافية في فترة ما بين الحربين ، وذلك لأنه كان محظورا أمد تلك الفترة • وفي ١٩٤٠ لم يكن به سوى ستة آلاف عضو في كل أرجاء البلاد كافة (١٢) • وكان قائد المنظمة تيتو (جوزيف بروز ، وهو الجاويش السابق في الجيش النمسوي المجري) ، من المخلصين لستالين ، ونجا من عمليات التطهير التي جرت في موسكو ، وفي أثناء المدة المنحصرة بين عقد حلف مولوتوف ريبنتروب وغزو هتلر لروسيا ، كان يواصل اتباع خط « الكومنترن » الرسمي من الشكوى من العدوان البريطاني على ألمانيا • بيد أنه كان رجلا واسع الحيلة والتدبير ، كما أنه كان ذا قدرة فطرية على تدبير المؤامرات وتنظيمها • وبعد أيام من غزو ألمانيا لروسيا في يونيو ١٩٤١ ، كان يدبر عملية مقاومة ، لم تكن تقتصر فقط على تدبير محاولة لطرد الألمان من البلاد (بينما تكون ألمانيا فيما قدر بتفكيره قد هزمت سريعا على يد روسيا (، بل واشتغل أيضا في تحضير ثورة اجتماعية تتسلم السلطة اعدادا لدولة شيوعية بعد الحرب • وكان معنى ذلك الهدف الأخير امكان أن تكون تكتيكاته مخالفة تماما لتكتيكات قائد التشيتنيك • وكان ميخايلوفيتش يريد أن يحافظ ، ليس فقط على السكان بل وأيضا على النظام الاجتماعي بأكمله ، فكان من ثم شديد الحرص على عدم استعداء الألمان أو اعاثة الخراب بمناطق كاملة من البلاد • ولكن من الناحية الأخرى كان تدمير المجتمع ، وخلق نوع جديد من أهل البلاد والسكان منزوع من جذوره وملقن بالراديكالية ، أمرا يعد في مصلحة تيتو ، كانما هو يقدم لطحنته • ومن ثم فان المناطق التي كانت تحررها قواته كانت تصبغ علنا بالصبغة السوفيتية » ، وعلى ذلك فان كثيرا من البورجوازيين المحليين نفذ فيهم حكم الاعدام ، بل لقد حدث أنه حتى بين صفوف أنصاره ، نفذ ألكساندر رانكوفيتش رئيس الأمن لدى تيتو ، تطهيرات قام بها من تلقاء نفسه • فالثورة الاجتماعية كانت الهدف الأسمى فوق كل شيء : وكما عبر واحد من أشد معضدي تيتو ، وهو ميلوفان ديلاس : « ان العمليات العسكرية •• كان الدافع اليها ايديولوجيتنا الثورية • فالثورة لم تكن ممكنة بغير كفاح عام مشترك متزامن ، ضد قوات الاحتلال » (١٣) فلا عجب اذن في أن تعاونا خشنا ولكنه وثيق بين الفلاحين والتشيتنيك وقوات البارتيزان الشيوعية تمكن من أن يحرر مؤقتا مناطق فسيحة من الجبل الأسود والبوسنة وغرب صربيا في أخريات صيف ١٩٤١ وخريفها ، ولكن كان من المستحيل أن يقوم التعاون طويل الأمد بين المنظمتين • فلقد حدثت فعلا بعض خلافات

وصدامات بينهم ، قبل أن يجيء هجوم ألمانى فى شتاء تلك السنة ، فمزق جيوش ميخايلوفيتش فى صربيا واجبر البارتيزان على الانتقال الى المرتفعات فى جنوب شرق البوسنة ٠

وهناك ناحية أخرى سياسات التشيتنيك والشيوعيين المتنافسة تحتاج هى الأخرى أن تذكر هنا : هى طريقة تعاملهم مع المسلمين ووضع البوسنة ٠ وقد كان بين التشيتنيك عدة أفراد من الرابيد (Rabid) وهم قوم صربيون وطنيون ، كانوا لا يرغبون فقط فى ابتلاع البوسنة بل وأيضا دالماشيا والجبل الأسود وأجزاء من كرواتيا وسلافونيا ، بل حتى أيضا شمال ألبانيا وضمهن جميعا الى أرض صربيا (١٤) ٠ ولقد كان يغذى هذه الأهداف أثنان من رجال الفكر فى الحركة التشيتنيكية : أحدهما هو المحامى والسياسى الصربى دراجيشا فازيتش (Dragisa Vasić) والمحامى الصربى البوسنى (من بانيالوكا) ستيفان موليفيتش (Stevan Moljević) ٠ وأصدر الأخير منهما فى يونيو ١٩٤١ مذكرة عنوانها « صربيا المتجانسة » ، وفيها طالب بأن تدمج فى صربيا جميع الأراضى سالفة الذكر ، وأوضح أن « الواجب الأساسى » هو أن « تخلق وتنظم صربيا متجانسة تشمل المناطق العرقية التى يسكنها الصرب »(١٥)٠ وكتب موليفيتش فى خطاب أرسله الى فازيتش فى فبراير ١٩٤٢ : « أن الأرض الصربية ينبغى أن تبسط على طول الخط الى دالماشيا ، وأنه ينبغى أن يتبع ذلك عندئذ تطهير الأرض من جميع العناصر غير الصربية ٠ وعندئذ يكون الشىء الواجب عمله هو ارسال جميع هؤلاء المعتدين الى حال سبيلهم : فالكروات الى كرواتيا ، والمسلمين الى تركيا أو ألبانيا » ٠ والآن وقد أصبح قوم من أمثال هذا الرجل هم الذين يؤثرون فى سياسة قيادة التشيتنيك ، (حيث أصبح موليفيتش المدير السياسى للحركة فى أوليات ١٩٤٣) ، صار واضحا أنه كان هناك أساس نظرى لسياسة مضادة للمسلمين بصورة لا هوادة فيها ٠

ولكن من الناحية الأخرى ، ليس هناك أى دليل قاطع يدل على أن دراجا ميخايلوفيتش قد دعا البتة الى التطهير العرقى ٠ والوثيقة الوحيدة التى طالما استشهد بها على أنها دليل على ذلك ، هى مجموعة من التعليمات أرسلت الى اثنين من القواد المحليين فى ديسمبر ١٩٤١ ، انما هى فيما يحتمل وثيقة مزيفة ـ وان وجب علينا أن نبين أنها وثيقة لم يزورها أعداء يريدون منها الحط من قدر ميخايلوفيتش ، بل القواد أنفسهم الذين رغبوا أن يتناولها الناس على أنها وثيقة أصلية تشيتنيكية صحيحة (١٧) ٠ ومن المسلم به أن ميخايلوفيتش كان قادرا على استخدام منطق الوطنية الصربية

وبلاغتها · فان اعلانا عاما نسب اليه تصريحا يقول : « انى من أبنــاء شوماديا الصربية (وهى منطقة فى وسط صربيا) ، من أرض صربيا ، ومن أرومة صربية · وبصفتى هذه فانى سأقاتل من أجل أسمى المثل العليا التى يستطيع صربى أن يفاخر بها : من أجــل التحرير الدائم والتوحيد الى الأبد للأرض الصربية ··· فحيثما وجدت قبور صربيا ·· فثم أرض الصرب ··· » (١٨) ورغــم ذلك ، فانه ظل خادما مخلصا مواليا للملك وحكومتــه فى المنفى ، التى كانت سياستها انقــاذ واعــادة بنــاء مملكة يوغوسلافيا بأكملها · وقد علق ميخايلوفيتش ذات مرة قائلا : « ان الصرب من حقهم أن يقولوا : نحن منذ الآن لم نعد نريد يوغوسلافيا ، ولكن هناك مصالح أسمى تضطرنا اضطرارا الى اعادة صنع هذه البلاد » (١٩) · وهو ابتداء كان يعد نفسه مقاتلا فى سبيل اعادة يوغوسلافيا الى الوجــود ، بما فى ذلك بانوفينة كرواتيا شــبه ذاتية الاستقلال ، الى سابق عهدها بالضبط قبل الحرب · على أنه عندما أدرك المدى البعيد القــدر لمذابح الأوستاشا ، وافق على أن تؤخذ من كرواتيــا بعض الأراضى : مثل طرفها الشمالى (سرم وبرانيا) ، الذى ينبغى أن يضم الى صربيا ، وينبغى أن ينضم جنوب دالماشــيا الى البوسنة ، كما ينبغى أن تأخذ صربيــا القسم الشرقى من الهرسك · وسيطلق للبوسنة نفسها الحق فى أن تقرر عن طريق الاستفتاء هل تريد أن تنضم الى صربيا أم لا ؟ (٢٠) ولما كان الجذع الأساسى من البوسنة يضم غالبية من السكان الصرب ، فان هذه التسوية الاقليمية لابد أن تنتج نتيجة مماثلة تماما لتلك التى يخططها مستشاروه الأعمق منه أيديولوجيا ، وكانت نقطة الفارق الرئيسية بينه وبينهم هى أنه شخصيا لم يكن لديه أية خطة لطرد المسلمين · ولكن مهما يكن الأمر ، فانه على العكس من تيتو ، لم يكن يتوقع أن يدير القطر بنفسه · فان كل هذه القرارات ، لو قدر له النجاح ، ستكون فى قبضة السياسيين والملك ·

فلو سلمنا بأن تيتو كان ينوى بالفعــــل أن يدير الدولة بعــــد الحرب ، فستعجب عنــد أول نظرة من قلة المعلومات التى قدمها للشاكلة التى ستنتظم بها البلاد أو ستقسم · بل ان هنـــاك سببيا يسيطا لذلك ، فانه فى تلك المرحلة كان لايزال خادما مخلصا مواليا لســتالين ، وكان لايمتنع اطلاقا عن اتيان كل ما تطلبه موسكو : سواء أكان دولة مركزية قوية التمركز أم اتحادا يوغوســلافيا من جمهوريات فيدرالية اشتراكية ، أو حتى تكوين اتحاد فيدرالى بلقانى يضم أيضا بلغاريا وألبانيا · ويمكنك أن تقول ان الخليط المكون من الغيبية التنظيرية والانتهازية القاســية التى لا ترحم ، وهى الصفات التى نعتت بها سياسة ستالين ازاء « مسألة القوميات » كانت كلها أمورا واضحة فى الحزب الشيوعى اليوغوسلافى

ايضا • وحتى منتصف تسعينيات الألف وتسعمئة ، كانت سياسة الكومنترن تعد يوغوسلافيا جزءا من جدار الدول المناوئة للاتحاد السوفييتي في فرساي : وقد دعا الكومنترن الى تفكيك يوغوسلافيا في ١٩٢٤ ، وتلقى الشيوعيون اليوغوسلاف تشجيعا على استفزاز القوميات المعادية على بلجراد ، كوسيلة تتخذ لتلك الغاية • ولكن في ١٩٣٥ تغير خط الاتجاه تغيرا تاما : اذ كان المطلوب من الشيوعيين الآن أن يحافظوا على يوغوسلافيا ، وأن يعملوا بروح « الجبهة الشعبية » ضد الفاشية الدولية (٢١) • وليس هناك أدنى شك في أن ستالين لو أنه كان قد أبدى كراهية لجميع أشكال الهوية الوطنية ولو كان قد سبها بأنها بورجوازية وطالب بالغائها ، لقفز تيتو من خلال ذلك الطوق أيضا • وفي غمرات الحرب تعلم بعض الدروس من واقع تجربته في محاولة بث التلاحم في صفوف جيشه بين كل ما حوى من أعضاء القوميات اليوغوسلافية المختلفة المتنافسة •

من أجل ذلك لا ندهش اذ نجد الحزب الشيوعي اليوغوسلافي يفتقر الى فكرة واضحة عن الوضع الذي ينبغي أن يكون عليه البوسنيون المسلمون • على أن ذلك الحزب في أولى مراحله من ١٩١٩ الى ثلاثينيات الألف وتسعمئة ، لم يكن يعير الا أقل القليل من الالتفات لذلك الموضوع ، لأن الحزب الشيوعي للبوسنة نفسها لم يكن الا شظية منعزلة من الناس . ولم يكن به حتى ١٩٣٩ الا مئة وسبعون عضوا فقط (٢٢) • وجرت عادته أثناء تلك المرحلة برفض الفكرة القائلة بأن أية مجموعة من الناس تحددها ديانتها يمكن أن تكون لها هوية سياسية أو قومية • ولكن بعد التحول الجذري في موقفه في ١٩٣٥ ، شرع الشيوعيون في أن يقدموا ما يشبه أن يكون عدة مقترحات شبه فيدرالية ، لدولة أو قطر يتكون من سبع وحدات اقليمية تكون البوسنة واحدة منها • وكان معنى ذلك مقاومة الدعاوى المتناحرة بأن البوسنة « كرواتية حقة » أو « صربية حقة » ، وأرغمت الشيوعيين على أن يهتموا بهوية المسلمين الخاصة (٢٣) • وفي ١٩٣٦ كتب أحد المفكرين الشيوعيين المبرزين وهو ادفارد كارديلي (Edvard Kardelj) السلوفيني يقول : « لسنا نستطيع الكلام عن المسلمين كأمة ، ولكن كجماعة عرقية خاصة » (٢٤) • وقال « خطاب مفتوح » كتبه الشيوعيون في البوسنة : « ان المسلمين ظلوا في البوسنة دائما كلا خاصا أو كيانا خاصا » • ولكن التصنيف ظل غامضا بصورة متعمدة ، وفي مؤتمر الحزب الذي عقد في ١٩٤٨ ، وصف الرجل المنوط به سياسة شئون القوميات وهو ميلوفان ديلاس المسلمين بأنهم : « جماعة عرقية » ، ومع ذلك فانه أخرجهم من قائمة الشعوب اليوغوسلافية (٢٥) •

وفى أثناء الحرب ظلت منشورات قواد الحزب غامضة بل حتى متناقضة • فان وثيقة نشرها « مجلس البوسنة المضاد للفاشية » (وهى الجمعية الشيوعية الاقليمية) فى ١٩٤٣ أشارت الى « ممثلى الشعوب الصربية والكرواتية المسلمة » ، ولكن الذى حدث فى نفس السنة أن اجتماع « المجلس المضاد للفاشية » ، الذى وضع أسس يوغوسلافيا الفيدرالية الاتحادية بعد الحرب ، رفض الفكرة الذاهبة الى أن المسلمين أمة • وقد أقيمت الخطة التى قدمها ديلاس على شاكلة النموذج السوفييتى : « خمس جمهوريات قومية » ، من أجل « أمم يوغوسلافيا الخمس » (الصرب والكروات والسلوفين والجبل الأسود والمقدونيين) • أما البوسنة فتكون وحدة منفصلة متميزة ، على أن تكون ولاية ذات استقلال ذاتى ليس الا وليست جمهورية قومية • وكأنه كانت هناك مباراة « شد الحبل » ، بين الموفدين الصربيين الذين أرادوا أن تكون البوسنة مدمجة فى صربيا ، والمندوبين البوسنيين الذين شاءوا لوطنهم أن يكون له وضع معادل ، بوصفه جمهورية • وأخيرا جاءت التسوية النهائية ، باعطائها وضعها الجمهورى ولكن مع وصفها بأنها جمهورية يسكنها « أجزاء من الأمتين الصربية والكرواتية ، بالاضافة الى المسلمين البوسنيين » (٢٦) •

وكل هذه المناقشات كانت على كل حال أكاديمية نظرية بحتة ، حتى انتصر رجال المقاومة الشيوعية (البارتيزان) فى الحرب ـ وأعنى بها الحرب على التشيتنيك • وكان كل من الجانبين يحارب من وقت لآخر ضد قوات المحور ، وكان رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان يفعلون ذلك أكثر من التشيتنيك ، وذلك من ناحية جزئية للأسباب السابق ذكرها • ولكن الحرب على التشيتنيك ، هى التى سيطرت على استراتيجية تيتو • وبعد فراره من صربيا الى منطقة فوتشا فى الجنوب الشرقى من البوسنة فى نهاية ١٩٤١ ، انحصر قلق تيتو فى خوفه من أن تصبح منطقة وسط صربيا هى والسنجقية اقليما تشيتنيكيا ، الأمر الذى حدث فعلا • وما أسرع أن أصبح الجبل الأسود وأجزاء من الهرسك تحت سيطرة القوات التشيتنيكية أيضا بقيادة قواد محليين ، الذين اصطنعوا ترتيبا للعمل مع المحتلين الايطاليين ! • (وكان الذى يحدو الايطاليين على ذلك هو الرغبة فى الحصول على حياة هادئة والتحصن ضد البارتيزان) ، وارادة حقيقية فى ترك السكان المحليين يحمون أنفسهم من رجال الأوستاشا • وفى صيف ١٩٤٢ ، زحف تيتو الى الشمال الغربى مخترقا البوسنة على امتداد الخط الفاصل بين منطقتى احتلال الألمان والايطاليين. واستقر بمنطقة تتمركز حول بيهاتش لا توجد بها أية قوات للمحور •

وهناك أقام بضعة أشهر وهو يحشد حشوده اذ أخذ يجمع فيها البوسنيين الصرب وبعض الكروات أيضاً ٠ وعند حلول الخريف ادعى أنه سيطر على « منطقة محررة » في حجم سويسرا ، وذلك لأن قوات المحـــور وقوات دولة كرواتيا المستقلة لم تأبه بمهاجمته ٠

ومع أن جيش تيتو كان يضـم آلافا من الرجـال البواسـل الأشداء فلابد أن يقـال ان القتال الضـــخم المعيار الذى شب بينـه وبين قوات المحور ، انما حدث بناء على مبادرات من قادة المحور ، الذين كانوا يقررون بين حين وآخر اجلاء رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان من مناطق بعينها٠ فأما « تحرير المناطق » على يد تيتو وهى مناطق الريف السحيقة البعـد ، فلم يكن له أثر حيوى على الجهد الحربى الألمانى اذ كان الألمان والايطاليون يواصلون السيطرة على المدن الكبرى ، وعلى الطرق والسكك الحديدية الرئيسية ، وعلى المناجم ٠ وكثيرا ما قيل ان تيتو قد « ألزم » أعدادا ضخمة من الفرق العسكرية الألمانيـة و « ربطها » في مواقعها ، ولكن الراقع أنه لم يكن هناك عند بداية ١٩٤٣ سـوى أربع فرق عسكرية ألمانية ، ذات مستوى خفيض ، بكل يوغوسلافيـــا بأسرها ٠ (وفى أغسطس من تلك السنة انضمت اليهم فرقتـا احتياط من مجنـدين تحت التدريب ، وفرقة واحدة منهوكة القوى من ستالينجراد ٠ ثم أضيفت اليهم قلة بعد ذلك قرب نهاية العام بعد إستسلام القوات الايطاليـة فى سبتمبر) (٢٧) ٠ وكما كتب ناقد معاد لتيتو ، وان كان قوله يتســم بقوة الادراك ونفاذ البصيرة : « هناك في مناطق البوسـنة والهرسك وكرواتيـا حيث كان رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان يروحون ويغـدون ، جـرت بالطبع اشتباكات متكررة بينهم وبين قوات المحور ٠ وقد دمرت جميع المواصلات بأعمال التخريب ، ولكن لم يكن ذلك وفق أية خطـة استراتيجيـة ٠ وعلى أغلب الظن أنها خربت لحماية تقهقر رجال المقاومة البارتيزان ، كما أن الحركات كلها كانت فى واقع الأمر تقهقرات دائما » (٢٨) ٠

والسبب الرئيسى الذى من أجله قرر الألمان اجـلاء قوات تيتو من الشمال الغربى للبوسنة فى أوائل ١٩٤٣ ، هو خوفهم من أن ينزل الحلفاء جيوشهم على الساحل الدالماشى ، وهم من ثم شـاءوا أن يحكموا سيطرتهم على تلك المنطقة الداخليـة من الأرض المهمة من الناحيـة الاستراتيجية ، ولنفس السبب صمم الألمان على القيام بهجوم على التشيتنيك فى الهرسك والجبل الأسود (٢٩) ٠ وكانت فكرة نزول الحلفاء برا ، مسيطرة على استراتيجية وفكر جميع القواد العسكريين ٠ وكان ميخايلوفيتش يريد إزاحة رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان ، حتى لا يكون هناك أى عائق

يمنع تقدم الحلفاء السريع الى الداخل ليتضموا الى قواته أيضا (٣٠) ٠ فأما تيتو فانه أرسل ثلاثة من كبار موظفيه للتفاوض مع الألمان فى مارس ١٩٤٣ ، وذلك أولا فى مدينة جورنى فاكوف البوسنية ، ثم بعد ذلك فى زغرب : فأبلغوا الألمان أنه « فى حالة نزول برى أنجلو أمريكى ، كان تيتو مستعدا للتعاون مع الفرق العسكرية الألمانية فى كرواتيـا فى عمليات مشتركة ضد الغزاة » (٣١) ٠ وكان تيتو على يقين من أن احتلال الحلفاء ليوغوسلافيا لم يكن له الا معنى واحد هو اعادة الملك وحكومته الى البلاد ، وانتهاء كل حلم بقيام استيلاء شـيوعى سريع على البلاد ٠ وظلت هذه المخاوف تؤرقه حتى بعد أن أخذ يتلقى مساعدات مباشرة من الحلفـاء فى أخريات صيف ١٩٤٣ ٠ وكمـا لاحظ أحد كبـار الموظفين الألمان فى يوغوسلافيا : « فى ١٩٤٤ كانت هناك لحظات أصبح فيها قلق رجـال المقاومة الشيوعية البارتيزان من الألمان أقل منـه من نزول الحلفـاء بـرا » (٣٢) ٠

وفى أثناء ١٩٤٣ أدى هذا التضارب فى الأهداف الى مجمـوعة من الانحيازات التكتيكية المتعاقبة بين استراتيجيات القوات المختلفة الثلاث ـ أو قل الأربع ، وذلك نظرا لأن سياسة الايطاليين نحو التشيتنيك كانت تختلف عن سياسة الألمان المتشككة ٠ ودفع الألمان رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان نحو الهرسك فى أوائل ١٩٤٣ ، وعلى كل حال ، فان تيتو كان يفكر فى خطـة الانزلاق الى الجنوب للتعرض للقوات التشيتنيكيـة فى الهرسك والجبل الأسود ٠ وفى مارس تمكن ـ وان لاحقه الألمان وقاومه التشيتنيك ـ من النجاح فى عبـور نهر نيريتفا بالهرسك والتحرك جنوبا حتى دخل الجبل الأسود معقل التشيتنيك الحصين ٠ (وعند تلك النقطة بالضبط شرع فى اجراء مفاوضاته مع الألمان ، لاقناعهم بأنه من مصلحتهم السماح له باطـلاق يديه على ميخايلوفيتش) (٣٣) ٠ وكان الايطاليـون يتعاونون تعـاونا وثيقا مع التشيتنيك ، ولكن الألمان كانـوا لا يزالون يعتبرون تدمير قوات ميخايلوفيتش هدفا استراتيجيا مهما : ومن ثم فانهم قبضوا على بضعة آلاف من التشيتنيك بالجبـل الأسود ، وجردوهم من سلاحهم فى مايو ، وأرسلوا قائد المنطقة التشيتنيكى الى معسـكر اعتقال فى جاليسيا (٣٤) ٠ ثم ما لبث الألمان أن انقضوا فى أوائل صيف ١٩٤٣ على رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان ، وأوشكوا أن يحاصروهم على جبل دورميتور بشمال الجبل الأسـود ٠ بيد أن رجال تيتو قاتلوا بعزم فائق أكيد ، وأخيرا استطاعوا شق طريق لهم من خـلال القوات المحاصرة ، متحركين من خلال جنوب شرق البوسنة ، ثم الحول بدورة نحو الشرق من

سراييفو ثم السير غربا من أولوفو الى ترافنيك (٣٥) · وأخيرا تمكن تيتو من اقامة مقر قيادته في منطقة جايس في غرب وسط البوسنة ·

وعلى جبل دورميتور ، انضم الى تيتو ضابط بريطاني هو وليام ديكون · وكان عميق الاعجاب بقدرات رجال المقاومة الشيوعية (البارتيزان) القتالية · وأدت التقارير التي أرسلها هو وكثير من الضباط البريطانيين الآخرين ممن زاروا رجال المقاومة أثناء الصيف والخريف ، الى اقناع الحلفاء بنقل مساندتهم من ميخايلوفيتش الى تيتو · وفي الحين نفسه فاز رجال المقاومة البارتيزان بميزة عظيمة على التشيتنيك ، عندما استسلم الايطاليون في سبتمبر ١٩٤٣ ، فسقطت بذلك في أيدي رجال المقاومة البارتيزان مقادير ضخمة من المعدات الايطالية ، وعندئذ أخذ قواد ميخايلوفيتش الاقليميون يتعاونون لأول مرة مع الألمان (٣٦) · وفي أثناء ١٩٤٤ زيدت مساندة الحلفاء لتيتو قوة ، كما أن قواته زادت حجما وعددا عندما أدى السقوط العام لحكم الأوستاشا الى ملء صفوف جيشه بالنافرين من الكروات والبوسنيين وكذلك الصربيين · وفي صيف تلك السنة بدأ الألمان انسحابهم من يوغوسلافيا · وأرسلت مقادير ضخمة من الأسلحة الى تيتو لتمكينه من تعويق انسحابهم ، ولكن أهم ما كان يشغل تيتو في ذلك الحين هو اتمامه انتصاراته في الحرب الأهلية · وفي سبتمبر أقنع الحلفاء الملك بيتر أن يوصي جميع اليوغوسلاف بمساندة تيتو · ولكن عند نهاية السنة تمكنت القوات السوفيتية (الجيش الأوكراني الثالث بقيادة الماريشال تولبوخين (Talbu Khin) من احتلال ما يقارب ثلث مساحة البلاد · وبذلك تأكد الآن الحكم الشيوعي ليوغوسلافيا ·

ولا شك في أن موقف الكروات البوسنيين والصرب البوسنيين أثناء سنوات القتال الأربع هذه واضح سهل الفهم · فان الأولين منهما سلكوا مسلك الكروات في كرواتيا : اذ عمدت قلة منهم الى تقديم المساندة الفعالة الى الأوستاشا ، بينما رحبت الغالبية بتأسيس دولة كرواتيا المستقلة في البداية فقط ، ثم أخذت رويدا رويدا تفيق من الانبهار بها ، الى أن بلغ الأمر بهم في ١٩٤٣ و ١٩٤٤ أن أخذت أعداد غفيرة منهم تنضم الى رجال المقاومة الشيوعية البارتيزان ، على أن الصرب البوسنيين ، كما رأينا سابقا ، سرعان ما دفعوا الى معارضة دولة الأوستاشا واحتلال المحور العسكري · وكانت هناك ثلاث فترات رئيسية قضى فيها جيش المقاومة البارتيزان عدة شهور بمكان واحد ، وهو يجمع المؤونة ويضم اليه مجندين

جدا • وكانت كلها فى الأراضى البوسنية (فوتشا فى النصف الأول من ١٩٤٢ وبيهاتش فى النصف الثانى من نفس السنة ويايسه فى النصف الثـــانى من ١٩٤٣) ، ومن ثم فقد ســنحت فرص كثيرة أمام الصربيين البوسنيين لكى ينضموا الى قوات المقاومة البارتيزان • وكانت قوات ميخايلوفيتش التشيتنيكية تجند الصرب البوســنيين أيضا ، وخاصة فى منطقة وادى الدرينا الواقعة فى شرق البوسنة ، وفى أراضى الحدود للهرسك والجبل الأسود •

وكان موقف البوسنيين المسلمين أكثر تعقيدا • فكما رأينا كانت العواطف السياسية العامة للمسلمين أميل الى زغرب أكثر منها الى بلجراد طوال فترة ما بين الحربين • ومع أن السياسة الرسمية لمنظمة المسلمين اليوغوسلاف كانت تتجه الى « اليوغوسلافة » المخففة الى حد ما بدرجة من الاستقلال الذاتى الاقليمى ، ومع أن سباهو ظل على الدوام يصف نفسه بأنه يوغوسلافى ، فان معظم زملائه المسلمين قد سموا أنفسهم كرواتا مسلمين • ومع ذلك فان هذا التحديد للهوية كانت له جوانب قصور ، فعندما أقام أشـــد المسلمين السياسيين ميــــلا الى الكروات وهو حقى حاجيتش (Hakija Hadžić) فرعا اسلاميـــا لحزب الفلاحين الكرواتى استعدادا لانتخابات ١٩٣٨ لم ينضـم اليـه الا حفنة من خصوم سباهو ، ولم يحصل على بضعة آلاف من الأصوات الا بشق الأنفس (٣٧) • وشـــاع بين رجال الدين المسلمين اتجاه عجيب التخليط نحو فكرة « الكروتة » (أى الصبغة بالصباغ الكرواتى) • وكان فهيم شـقيق محمد سباهو ، الذى تولى منصب رئيس العلماء من ١٩٣٨ ـ ١٩٤٣ ، وقد اعتبر نفسه « كرواتيا » ولعب دورا زعيما فى الجمعية الثقافيـة الاسـلامية المسماة « نارادونا أوزدانيكا » التى كانت تناصر الكروات • (وذلك بينما الجمعية المنافسة ، وهى جمعية جايرات ظلت تبدى هوى نحو الصرب) • بيد أن فهيم سباهو حرص أيضا على الاحتفاظ بهوية المسلمين الخاصة ، التى شعر بأنها معرضة للخطر • ومن ثم فانه أصدر التعليمات بمنع الزيجات المخلطة ومنع استخدام الأسماء غير الاسلامية فى تسمية الأطفال ، بل لقد بلغ به الأمر أن نصح المسلمين بعـدم الدخول الى الكنائس الكاثوليكية خشية أن يضطروا الى خلع طرابيشهم متى دخلوا هناك (٣٨) •

وعندما قوبل المسلمون بضرورة الاختيار بين أن يحكموا من بلجراد أو زغرب ، اختـــار معظم السياسيين المسلمين وكبار رجال الدين زغرب شريطة الحصول على ضمانات بأن ممارسـة العقيدة الاسـلامية ستستمر غير معرضة لأية مضايقة • وذلك ما حرص انتى باديتش على أن يعدهم به

في غضون أيام من وصوله الى الرئاسة . وفي ٢٥ أبريل ١٩٤١ أرسل اليهم مبعوثا ليؤكد لفهيم سباهو أنه يريد من المسلمين البوسنيين أن يشعروا « بأنهم أحرار وراضون تماما ويمتلكون حقوقا متعادلة » . وقدمت الضمانات للمسلمين بحرية العقيدة ، بما في ذلك نظام التعليم الخاص بهم . ودعى أحد عشر سياسيا من رجال منظمة المسلمين اليوغوسلاف السابقين للانضمام الى البرلمان المنعقد في زغرب (٣٩) .

وعين جعفر كولينوفيتش زعيم الحزب نائبا لرئيس حكومة دولة كرواتيا المستقلة في نوفمبر ١٩٤١ . وكان على الدوام رجلا محبا للكروات في تطلعه ونظرته ، كما أنه ، كما رأينا ، يئس من سياسة بلجراد في السنوات الأخيرة السابقة على الحرب ، بيد أنه لم يكن متحمسا للأوستاشا . وكما عبر أحد الخبراء المتخصصين في دراسة هذه المدة ، حيث قال : « ومع أنه بقي في الحكومة حتى النهاية ، فانه لم يحرز قط ثقة الأوستاشا ، كما أنه فقد سمعته بين أتباعه من أعضاء منظمة المسلمين اليوغوسلاف » ، وبفعل الضغط الذى كانوا يمارسونه عليه أخذ يقول : « انه ليس ممثلهم أو نائبهم في حكومة دولة كرواتيا المستقلة وانه لا يمثل الا نفسه » (٤٠) . وبعد وفاة محمد سباهو ، أصبح أعظم الزعماء نفوذا في « منظمة المسلمين اليوغوسلاف » رجل أعمال من سراييفو هو أوزير آغاحاجي حسنوفيتش (Uzeir-aga Hadžihasenović) . وقد شجع كولينوفيتش في الانضمام الى حكومة دولة كرواتيا المستقلة ليحول دون حدوث مخالفات للقانون ، كما استخدم نفوذه ضد المتطرف المحب للكروات وهو حقي حاجيتش الذى عين آنذاك مندوبا ساميا للأوستاشا في البوسنة . وفي نهاية أبريل ١٩٤١ اشترك حاجي حسنوفيتش في عضوية وفد مشترك مسلم ــ صربي مع السياسي المسلم الصربي ميلان بوجيتش، ليطلب من حقي حاجيتش الاستقلال الذاتي للبوسنة . وكانت نتيجة هذه المبادرة أن اعتقل بوجيتش وزملاؤه الصربيون ثم قتلوا بعد ذلك بقليل ، وأبلغ حسنوفيتش بأنه ينبغي له أن يتخلى عن جميع آرائه المناهضة للكروات (٤١) .

وما لبثت أكنة الخداع أن أزيلت سريعا عن أعين كثير من المسلمين . ومع أنه لم يكن هناك برنامج ضدهم ، الا أنه كان واضحا أن الوعد باحترام حقوقهم لم ينفذ ، وببساطة لم تطبق دولة كرواتيا المستقلة مبدأ سيادة القانون . وأصدر علماء المسلمين سلسلة من القرارات والاحتجاجات في أثناء صيف وخريف ١٩٤١ ، بدءا باليوم الثاني من اغسطس . وظهرت تلك القرارات في سراييفو وبرييدور وموستار

وبانيالوكا وبييلينا وتوزلا · وأشار قرار موستار الى : « ما لا حصر له من الجرائم والاعتداءات والأساليب غير القانونيـــة والتحويـل الدينى القهرى ، التى كانت ومازالت تستخدم ضد الصرب الأرثوذكس ، وغيرهم من المواطنين ، وشكا رجال الدين فى بانيالوكا من سرقة ونهب ممتلكات ومتعلقات الصربيين واليهود ، كما أن التماســا أعده حاجى خستوفيتش ووقعه مئة من سراة المسلمين فى سراييفو ، شـجب أعمال العنف التى تمارس ضــد اليهود والصربيين وطالب : « بتأمين الحيــاة والكرامة والممتلكات والدين لجميع المواطنين بغير استثناء » · وفى نهــاية العام نفســه كان الألمان يبلغون رئاستهم أن « العلاقات بين الحكومة والمسلمين قد تدهورت تدهورا شديدا » (٤٢) ·

وفى الحين نفسه ، أدت أفعـال العنف التى كان يرتكبها القرويون الصربيون ضد المسلمين ، وبخاصة فى بلاد الهرسك الى أن يشعر المسلمون فى النهاية بأنه من المستحيل عليهم أن ينضموا اليهم فى كفاحهم ومقاومتهم للأوستاشا · وعلى العكس من ذلك تماما فقد دفع بعض المسلمين الى أن ينخرطوا فى ميليشيا الأوستاشا بدلا من مقاومتهـا · بل بلغ الأمـر أن المسلمين البوسـنيين لم يكن لهم ممثل فى الحـكومة فى المنفى ، ومن ثم فلم يشعروا الا بقدر قليل من الولاء لذلك الممثل العسكرى لتلك الحكومة وهو ميخايلوفيتش · ولكن الذى حدث فى النصف الثـانى من ١٩٤١ ، عندما أصبح البارتيزان أقوى من الناحيتين السياسـية والعسكرية من التشيتنيك (وعندما أصدر قواد المقاومة البارتيزان أوامرهم بمنع هجوم رجالهم على القرى المسلمة) ، شرع المسلمون ينضمون الى جيش تيتو · وشكلت أول وحدة مقاومة بارتيزان اســلامية وهى المسماة موييناتشيتا (Mujina ćeta) بعد أغسطس ١٩٤١ ، حتى اذا وافى ديسمبر كانت قد أصبحت كتيبة · ثم تكونت وحدة من شباب المسلمين أيضا أثناء اقامة تيتو فى فوتشــا فى شــتاء ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ ، وفى أوائل ١٩٤٢ ظل المسلمون يواصلون الانضمام الى كتائب المقـاومة البارتيزان فى زينيكا والهرسك · وتشكلت وحدات اسلامية أخــرى فى أثنـاء تلك السنة ، ولم يلبث شهر ديسمبر أن شــــهد تشكيل « الآلاى الثامن الاقليمى الاسلامى » بقيادة عثمان كاربيجوفيتش (Osman Karabegović) (٤٣) · وكان عدد المسلمين المجندين قليلا فى بادىء الأمر ، ولم ينضم الا سياسى مســلم بارز وحيــد فقط هو نورى بوزدراك (Norija Pozderac) الى الشيوعيين فى تلك المرحلة المبكرة ، وكان من العسير اقنـاع أئمة ومفتى البوسنة ، بأن مستقبل شعبهم انما يقوم مع الشيوعية الالحادية · ولعلهم قد سمعوا قبل ذلك بتلك المعاملة الرهيبة التى يلقاها الاسلام فى الاتحاد

السوفييتى ، أثناء السنوات العشرين السابقة • ولم يكونوا يشعرون بأى اقتناع لدى قراءة النشرات التى كان يكتبها تنظيم تيتو آنذاك ، التى تظهر روسيا ستالين وكأنما هى أرض عجائب من التســـامح والحرية الدينية الاسلامية (٤٤) •

ومـع ذلك ففى أثنـــاء تلك المدة ، وبينما كان القواد التشيتنيك لايزالون يسمحون لجندهم بمهاجمـة القرى الاسلامية ، كان التشيتنيك يلتمسون العون رسميا من المسلمين ، وكما كتب فى ١٩٤٢ ، أحد الزعماء التشيتنيك بالهرسك وهو دوبروساف يفديفيتش (Dobrosav evdjević) فى يوليو ١٩٤٢ : كان من الضرورى أن نتجمل بالتســامح نحو المسلمين لأسباب تكتيكية ، وذلك « دون أن ننسى أنه لايمكن أن تقوم هناك وحدة حقيقية معهم » (٤٥) • ولم يكن من المحتمل ولا المنتظر من مسلمى جنوب شرقى البوسنة والهرسك أن ينســوا ذلك ، وذلك نظـرا لأن التشيتنيك وغيرهم من القوات المحلية الصربيـــة ، قتلت عدة آلاف من المسلمين فى شتاء ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ وصيف ١٩٤٢ • وكان من أشنع المذابح ما حدث فى منطقة فوتشا ـ تشاينيتشى ـ حيث قتل ألفا مسلم على الأقل هناك على يـــد قوات تحت امرة قائد تشيتنيكى هو زاهاريا أوســـــتوييتش (Zaharia Ostojić) فى أغسطس ١٩٤٠ ، وفى فبراير ١٩٤٣ قتل أكثر من تسعة آلاف من الأفراد ، بينهم ثمانية آلاف من الشيوخ والنســـاء والأطفال (٤٦) • والآن ، أصبح العداء قائما بين الطرفين • وكلما زاد عدد المسلمين المنضمين الى البارتيزان اشتدت نظـرة التشيتنيك الى المسلمين كأعداء ، وكلما فتك التشيتنيك بالمسلمين ، زاد احتمال تعاون المسلمين المحليين مع قوات المقاومة والألمان والايطاليين ودولة كرواتيا المستقلة ضد التشيتنيك •

ومع هذا كله ، فقد كانت الصـــورة والنموذج يتغيران من مكان الى آخر • حتى بلغ الأمر فى بعض المناطق ، أن كان من الممكن والمحتمل أن يتبادل المسلمون والتشيتنيك التعاون ، فقد حدث أن جماعات التشيتنيك والمسلمين بمنطقة زينيكا بعثت برســـالة الى الألمان فى مايو ١٩٤٢ قالت فيها : « أزيلوا الأوستاشا من البوسنة ، وعندئذ نعدكم نحن المسلمين والصرب باتبـــات النظام هنــا فى مدى أسـبوعين » (٤٧) • وكان أشد المسلمين المؤازرين للتشيتنيك نشــاطا همــا الدكتـور عصمت بوبوفاك (Ismet Popovak) عمدة كونيكا ، وفؤاد موسى كاديتش رئيس شرطة سراييفو الأســبق • وكتب بوبوفاك الى ميخايلوفيتش مقترحــا عليــه أن يجند المسلمين فى قواته ، وكان هناك من يؤيدون هذه الفكرة بين المسلمين الأكثر ميـلا الى الصرب والأكثـر مضاداة للشيوعية فى كثير من المدن

البوسنية ، وعند ديسمبر ١٩٤٣ كان الناس يقدرون أن عدد مؤيدى ميخايلوفيتش من المسلمين قد يصل الى ثمانية فى المائة من جندهم ـ ولعلهم كانوا يبلغون أربعة آلاف أو أكثر (٤٨) • وقاد بوبوفاك بنفسه هجوما قام « بتحرير » قرية مسلمة فى يناير ١٩٤٣ • وحدث فيما بعد فى تلك السنة نفسها ، أن قبض الشيوعيون على بوبوفاك وموسى كاديتش ، وأعدموهما رميا بالرصاص (٤٩) •

وفى بحران هذا الدردور (الدوامة) من القوى المتصارعة ـ التى كانت كل واحدة منها ، كما يلحظ القارىء ، ذات مصادر من خارج البوسنة ـ كان خط السير الأقرب الى الطبيعة والأحب الى قلوب الناس ، الذى ينبغى للمسلمين أن يتبعوه ، هو أن يشكلوا وحدات دفاعهم المحلية الخاصة ، ويحاولوا حماية أنفسهم من كل وارد من الخارج • وحدث فعلا أن نشأت جماعات صغيرة من هذا النوع بكل أرجاء القطر • وفى أكتوبر ١٩٤٢ نشأ أيضا « فيلق من المتطوعين المسلمين » يتكون بالتقريب من أربعة آلاف رجل ، اشتبك فى حرب مع المقاومة البارتيزان أكثر مما اشتبك مع التشيتنيك • وأدى عدم اطمئنانه نحو حكومة الأوستاشا (ومنها كان مع ذلك يحصل على امدادات من السلاح) ، أن حاول أن يتعامل رأسا مع الألمان (٥٠) • وتجمعت قوة مماثلة ولكنها أكثر استقلالا ، بمنطقة كازين (Cazin) بشمال غرب البوسنة قرب (بيهاتش) فى صيف ١٩٤٣ : يقودها قائد كان فى السابق من المقاومة البارتيزان يدعى هوسكا ميليكوفيتش ، ويتكون فى معظمه من المحاربين السابقين من البارتيزان الخارجين على كل سنة خلقية والفارين من الجندية من قوات الدفاع المحلى ، وكانت تنطوى على ثمانى كتائب وتسيطر على منطقة متسعة من الأراضى • وكان هوسكا ميليكوفيتش تتجاذبه اغراءات كل من دولة كرواتيا المستقلة والبارتيزان ، ولكنه تباعد عنهما حتى ١٩٤٤ ، عندما عقد اتفاقا مع المقاومة البارتيزان ـ وعندها اغتاله بعض أفراد جيشه الميالين الى الأوستاشا (٥١) •

وكان كثير من الزعماء السياسيين من المسلمين يرى أن الحل الوحيد للمسألة هو فى اعطاء البوسنة نوعا ما من الاستقلال الذاتى • وأن الطريق الوحيدة للوصول الى ذلك الاستقلال ، هى التوجه مباشرة الى الألمان ، لأنهم هم الوحيدون الذين يستطيعون منح ذلك العطاء • ولم يكن ذلك مجرد ابتعاث أو انتعاش للحلم القديم للسياسيين المسلمين ، وان ردد صدى الالتماس الذى قدمه أقوام مثل شريف أرناؤوطوفيتش لبلوغ الاستقلال الذاتى تحت الحكم المجرى ، عند نهاية الحرب العالمية الأولى : لقد كان ذلك محاولة للوصول الى حل عملى لموقف لا تبرح وطأته تزداد

شدة على كواهل الناس . ومن هنا نشأت « المذكرة » الشهيرة التى وجهها زعماء البوسنة المسلمون الى هتلر فى نوفمبر ١٩٤٢ ، وهى المذكرة السالف ذكرها في الفصل الأول من هذا الكتاب . وبعد الافاضة فى الفخر بالأصل القوطى ، شكت المذكرة من الشكوى من كثرة المذابح التى ارتكبتها الأوستاشا ضد المسلمين ، والتمست ايقاف جميع الأنشطة الأوستاشية فى الأراضى البوسنية ، ولحماية البلاد التمست المذكرة الاذن بتوسيع عدد فيلق المتطوعين المسلم ؛ ورغبة فى بث الطمأنينة فى نفوس الألمان ، اقترحت أن يوضع الفيلق تحت السيطرة الألمانية المباشرة (٥٢) .

كانت هذه طائفة من المقترحات محسوبة بكل عناية وحرص ، ولكن الطلب الأساسى فيها ، وهو الاستقلال الذاتى للبوسنة ، كان غير مقبول عند الألمان ، الذين كانوا يعلمون مقدما أن ذلك لابد أن يعود عليهم بغضب لا يمكنهم تحمله من زغرب . على أنهم كان يهمهم شيء واحد ، هو زيادة فرص تجنيد الجند من تلك المنطقة . وفى ديسمبر أمر هتلر فرقة « الأمير يوجين » التى كانت تتكون أصلا من رومانيين من أصل ألمانى بالانتقال الى دولة كرواتيا المستقلة وجمع عدد أكبر من ذوى الأصل الألمانى هناك . وعندما قال فى فبراير ١٩٤٣ انه يريد من تلك الفرقة أن تتولى انشاء فرقة كاملة جديدة فى دولة كرواتيا المستقلة ، اقترح هملر انشاء فرقة من مسلمى البوسنة . ومضى الاقتراح فى طريقه جادا رغم الاعتراضات الشرسة من زغرب (٥٣) . ولا يخفى أن مبدأ تجنيد فرق ألمانية متطوعة من الأقطار المحتلة ، كان مبدأ ثابتا ومعمولا به من زمن بعيد وسبق تنفيذه بفرق من فرنسا وبلجيكا وهولندا والدانمرك . ولقبت الفرقة المسلمة بالفرقة الثالثة عشرة وأطلقت عليها كنية « الخنجر » وهو اسم السلاح التقليدى فى المنطقة وهو الخنجر التركى القديم المقوس أو السيف المقوس .

وابتدأ التجنيد فى أبريل ١٩٤٣ ، وانتهز الألمان فرصة زيارة مفتى القدس الأكبر الموالى للألمان ، ليطلبوا منه العون لدى رجال الدين المسلمين (ومعلوم أن المفتى الأكبر كان قد استفزته الحماسة على البريطانيين أمدا طويلا من الزمان : فبعد تصريح « بالفور » حول فلسطين فى ١٩١٧ ، دعا العرب جميعا الى تشكيل معاهدة أو اتفاقية عربية ألمانية ، لمقاومة السياسة البريطانية) . وأقبل بعض المفتين والأئمة المسلمين يمدون يد العون لتجنيد المسلمين ، وأعطيت كل وحدة فى الفرقة مفتيا شابا ليفتيهم فى أمور الدين ، ومع هذا فان جميع الضباط تقريبا كانوا من أصل ألمانى (٥٤) . وما انتهى شهر أبريل حتى بلغ عدد المجندين اثنى عشر ألف شاب . كما

ان القوة النهائية للفرقة بلغت واحدا وعشرين ألف رجل · وكان التجنيد تطوعيا في معظم الحالات ، وان كان الكثير منهم قد أعطي صورة للمستقبل مضللة جدا ، حول الأغراض التي ستستخدم فيها الفرقة (٥٥) ·
وبالخيبة ظن مسلمي البوسنة ! ، فقد خدعهم الألمان بالوعود البراقة وظنوا أن الفرقة ستستخدم لحماية مدنهم وقراهم ولكنهم أرسلوا في صيف ١٩٤٣ الى ألمانيا وفرنسا ، ليتلقوا مدة طويلة من التدريب · وأرسلت مجموعتان من المسلمين من سراييفو وبانيالوكا للانضمام الى بعض المهندسين الكرواتيين في مركز للتدريب في فيل فرانش دى رويرج (Villefranche-de-Rouergue) قرب تولوز بفرنسا · وهناك في ليلة ١٧ سبتمبر ، وبقيادة أحد المسلمين ، واسمه فريد جانيتش (Ferid Djanić) وكرواتي اسمه بوزوييلينك (Bozo Jelenek) ، ألقوا القبض على ضباطهم ذوى الأصل الألماني ، وقدموهم الى محاكمة سريعة ، ثم أعدموهم رميا بالرصاص · كانوا يدبرون أن ينفلتوا وينضموا الى المقاومة الفرنسية ضد الألمان ، ولكن ضابطا أعطى الانذار ، فهاجمتهم القوات الألمانية · وفر ييلينك ، ومات خمسة عشر من المتمردين وقتل مائة وأربعون آخرون فيما تلا ذلك من عمليات التطهير · ولايزال العيد السنوى لذلك التمرد يحتفل به الى اليوم بمدينة فيل فرانش دى رويرج وقد أطلق على هذا التمرد اسم يدل على الانحياز هو «ثورة الكروات»(٥٦)·

وبينما كانت فرقة الخنجر ترسل لمزيد من التدريب في منطقة سيليزيا النائية ، كان التذمر يتصاعد في البوسنة · فثمة شكايات متزايدة من البوسنيين المسلمين ، حول هجمات تشن على أبناء شعبهم من جانب الوحدات الأوستاشية · وشرع كثير من المسلمين في انشاء وحدات دفاعية محلية ، عرفت باسم « النواة الخضراء » · وحصلت تلك المنظمة على

٧

زعيم سياسى هو البروفسور نيشاد توبتشيتش (Nesad Topcic) وكان ممن يدعون الى الاستقلال الذاتى للبوسنة · وثمة حركة مماثلة قام بها أحد كبار أعضاء مجلس رجال الدين المسلمين في سراييفو محمد بنجة (Muhamed Pandja) ، الذى دعا المسلمين في ديسمبر ١٩٤٣ الى أن ينزعوا عن أعناقهم نير حكم الأوستاشا ، وينشئوا ولاية بوسنية ذات استقلال ذاتى ، تضمن حقوقا متساوية متكافئة لجميع المواطنين ، بغض النظر عن ديانتهم · فكان لدعوته هذه أثر بالغ القوة في فرقة « الخنجر » ، وذلك نظرا لأنه كان أحد أوائل المؤيدين الأصليين للدعوة الى التجنيد فيها (٥٧) · ومع هذا ففى نفس الوقت أيضا ، حدث هجوم بين المسلمين على التطوع في صفوف المقاومة ، وتكوين « الآلاى المسلم السادس عشر » التابع لتيتو في سبتمبر ١٩٤٣ (٥٨) ·

وبعد تقديم عدة التماسات ترجو عودة فرقة الخنجر ، أعادها هتلر في النهاية الى البوســنة في مارس ١٩٤٣ ، من أجل عمليات «حفظ النظام». وأنزلت الفرقة في شـــمال البوســنة وشرقها ، (توزلا وجراداتشاك وبييلينا وبرتشكو وزفورنيك) ، حيث قامت الفرقة أثنـــاء ربيع تلك السنة وصيفها بأعمال انتقامية بلا تمييز ، ـ من قتل وغيره من أنواع الجرائم ـ ضد السكان الصربيين المحليين (٥٩) • والعدد الدقيق للضحايا غير معلوم ، ولكن لا مراء أنه ربما بلغ مئات كثيرة ، وربما كان بضعة آلاف• وبينما السنة تتقدم ، حدثت تطورات عديدة جعلت المسلمين أشد ميلا الى أن يلقوا بحظهم ونصيبهم مع المقـــاومة البارتيزان • فان ما أبـــرم من اتفاقيات ، تتزايد في علانيتهـا وصراحتهـا بين الألمان والتشيتنيك كانت تزيد في شكوك المسلمين في الألمان ، ومما زاد الأمر سوءا ، قطع العلاقات السياسية بين ألمانيا وتركيا • وكان تيتو في ذلك الحين يفوز بنجاحات عسكرية جديدة ، وبعد استيلائه على مدينة ديرفينتا في سبتمبر ، أصدر انذارا نهائيا بالزام القوات الكرواتية والبوسنية جميعا بالانضمام الى المقاومة البارتيزان • وبلغ عدد أفراد قوات الخنجر الذين انضموا فعلا ألفي رجل • وكان الشعور المضاد لدولة كرواتيا المستقلة يشتد ساعة بعد بعد أخرى بين الجنود المسلمين ، وذلك بينما أصبح الأوستاشا مستهينين بكل شيء في محاولاتهم ادخال الرهبة في نفوس السكان المسلمين بما كانوا ينفذونه من أعمال الاعدام بدون محاكمة • فتفرق شمل فرقة « الخنجر »• وفي أكتوبر أبلغت السلطات الألمانيـة في زغـرب رئاستها في برلين أن تلك الفرقة لم تعد تصلح للعمـــل اطلاقا • ومن أسـخف السخف ، أنه قدمت في تلك اللحظة مقترحات بانشاء فرقة أخرى ، ولكن تلك المقترحات لم تنفذ قط • وفي نهاية ١٩٤٤ ، حلت جميع وحدات الفرقة الألمانيـــة المسلمة في دولة كرواتيا المستقلة (٦٠) •

وحررت المقاومة البارتيزان سراييفو في ٦ أبريل ١٩٤٥ ، ولم تمض أسابيع قليلة ، حتى كان القطر البوسني بأكمله تحت سيطرتهم الكاملة • وتعينت « حكومة الشعب » في ٢٨ أبريل • وأصـــبح كثير من المسلمين راضين بامكان قيام حكم شيوعي : فبدلا من أن تمتص كرواتيا قطر البوسنة (وهو الحل الذي تقترحه الأوستاشا) أو الامتصاص داخل صربيا (وهو خطة التشيتنيك) ، ـ يعرض عليهـم الآن حل فيدرالي غامض ، تظل فيه البوسنة موجودة قائمة • ولكن فوق كل شيء ، كانوا يتطلعون شاخصين بأبصارهم أماما الى زمن ينقطع فيه الاغتيال والقتل • والمظنون أن مجموع من توفوا في الحرب من المسلمين قد بلغ ٧٥٠٠٠ مسلم : وهو ما يعادل

١ر٨٪ من مجموع عدد السكان الكلى ، وهى نسبة تعلو ما قاساه الصرب ، (حيث بلغت النسبة ٣ر٧٪) أو ما قاساه أى شعب آخر اللهم الا اليهود والغجر (٦١) • لقد قاتل المسلمون فى جميع الجوانب ـ الأوســـتاشا ، والألمان ، والتشيتنيك والبارتيزان ، ـ كمـا أنهـم لقوا حتفهم على يد كل جانب من الجوانب • فقتل الكثيرون فى معســـكرات الموت الكرواتيـة والألمانية بما فى ذلك ياسينوفاك وبوخنفالد وداخاو وأوشفيتس (٦٢) • لم يكونوا هم الذين أوقدوا نار هذه الحرب وأججوا لظاها ، كما أنهم كانوا يقاتلون قبـل كل شىء دفاعا عن أنفســهم • بيد أن القتل لم ينته بعد •

الفصل الرابع عشر

البوسنة في يوغوسلافيا تيتو
١٩٤٥ ـ ١٩٨٩

كثيرا ما ينسب الى تيتو فضـــل عظيم فى احـلال السلام الداخلى والصلح الى يوغوسلافيا ، بعد الحرب العالمية الثانية ٠ والواقع أن السلام قد جاء فعلا ، وأن جراح الحرب لم تلبث حتى اندملت بالتدريج ، ومن الحق أيضـــا أن تيتو أعار بعض فكره لايجـــاد التـــوازن بين الدعاوى المتصارعة ، لشعوب يوغوسلافيا ومناطقها ٠ بيد أن القوة والسلطان كانت أهم قدرا عند تيتو من كل صـــلح ، كما أن النظام الشيوعى فرض على يوغوسلافيا بثمن فاحش وثقيل جدا ٠ وأبرز مثال على ذلك ، تلك المعاملة التى عوملت بها بقايا القوات المعادية للمقاومة البارتيزان المدنيين المشاركين فى تلك القوات المعادية ، الذين لجئوا لبـلاد النمســا المشمولة بسيطرة الحلفاء ، فى أثناء أبريل ومايو ١٩٤٥ : ما بين « حرس وطنى » سلوفينى ، وجنـد أوستاشـــا وتشيتنيك صربيين ومسلمين ٠ والكروات والصرب والمسلمون البوســنيون كانــوا على هذا النحو موجودين فى هذه الكتلة المهولة الضخمة من الجند المهزومين ٠ وأعيـــد الى يوغوسلافيـــا أكثر من ١٨٠٠ جندى ، اذ أعادهم البريطانيون ، ردا على اصرار تيتو ، وأعمـــل الذبح فى معظمهم فى مدى ساعات من وصولهم الى الأراضى اليوغوسلافية٠

ويقدر أن ٢٥٠ ألف شخص قد قتلوا سواء رميا بالرصاص أو خلال مسيرات « الموت » القسرية أو فى معسكرات الاعتقال خلال عامى ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦ (١) ٠ وهناك تقرير حول الموقف أرسله موظف أمريكى فى فبراير ١٩٤٥ جاء فيه « ان الدعاية والمظاهرات المنظمة « التلقائية » ، والاجبار على العمل سخرة ، والمصادرة الطاغية ، والاعتقالات والعقوبات ، كانت كلها أدوات تذكر الناس بالاحتـــلال الى أقصى حد » (٢) ٠ وكان بوليس تيتو السرى ، المسمى « ادارة حماية الشعب » ، شديد النشاط فى ملاحقـــة الأعداء السياسيين الحقيقيين أو المتخيلين ٠ وهو ما حدده تيتو بقوله : « ان الهدف من وجود هذه الادارة هو « بث الرعب » فى صدور أولئك الذين لا يحبون هذا النوع من يوغوسلافيا » ـ وكانوا كثيرين (٣) ٠ وكان

السعداء منهم الذين نجوا من القتل ، يستخدمون مصدرا للعمالة فى مشروعات البلاد البنائية الكثيرة التى شارك فيها معهم بعض المتطوعين الأجانب ، الذين كانوا يأتون للعمل فى « خطوط سكك حديد الشباب » ، وكان أول خط أنشىء منها فى ١٩٤٧ من سراييفو الى شاماك (Samac) ، (على الحدود الفاصلة بين البوسنة وكرواتيا) ٠ وقد أشار أحد المعلقين الى أن ذلك الطريق العام الموصل بين بلجراد وزغرب ، كان من الأعمال العظيمة التى تفخر بها تلك الفترة ، فلم تعمل فى بنائه فيالق الشباب المتطوعين فحسب كما ذكرت ، بل شارك فيه عمال من السجناء ، وبخاصة من أسموهم « الأعداء الطبقيين » ، من البرجوازيين » (٤) ٠

وما كاد ستالين يطرد يوغوسلافيا من الكومنفورم (وهى المنظمة التى خلفت الكومنترن) فى ١٩٤٨ ، حتى أعيدت كتابة التاريخ اليوغوسلافى سريعا لاظهار أن تيتو كان على الدوام يتبع سياسية مستقلة تماما ومتحررة مضادة للمسارات الستالينية ٠ والحقيقة هى أنه قبل قطع العلاقات مع الاتحاذ السوفييتى ، ولمدة عدة سنوات بعده ، كانت سياسات تيتو تسير موازية بدقة شديدة مع النماذج الستالينية (٥) ٠ بل بلغ الأمر أن الدستور اليوغوسلافى نفسه ، الذى أعلن فى يناير ١٩٤٦ ، كان ببساطة تامة ، محاكاة مباشرة للدستور السوفييتى الذى أعلن قبل ذلك بعشر سنوات ٠ حيث كان يحتوى على ذلك الخليط المألوف من التصريحات الرنانة المدوية والمغالطات المنطقية ، كاعلانه مثلا ، أن كلا من الجمهوريات المكونة للدولة تعتبر « جمهورية ذات سيادة » ، ولكنه أيضا ألغى الحق فى الانسحاب عندما أعلن أن شعوب يوغوسلافيا قد اختاروا بمحض ارادتهم العيش معا للأبد (٦) ٠ ولا حاجة بنا الى القول ان الدستور لم يشر أية اشارة الى الحزب الشيوعى ، الذى كان فى الواقع مصدر جميع السلطات ٠ واستخدم تيتو الطريقة المماثلة المتبعة فى أقطار شرق أوربا الأخرى ، فى تمويه الحزب الشيوعى واظهاره بصورة الجبهة الشعبية ، وذلك كخطوة البداية الأولى ، حتى يجىء الوقت الذى يمكن فيه ازالة جميع التعدديات السياسية فى خاتمة المطاف (٧) ٠ وأعلن فى ١٩٤٧ مشروع خطة خمسية « مبالغ ومسرف فى طموحه ، وفى ١٩٤٩ بعد قطع العلاقات مع ستالين حولت المزارع الخاصة بالقوة الى ملكيات جماعية ، بكل أرجاء البلاد ، وكانت نتيجة ذلك أن هدد شبح المجاعة جميع المدن الكبرى فى السنة التالية (٨) ٠

ومن أشد الظواهر النموذجية المعبرة عن السياسات الستالينية ، تلك الحملة التى شنت على الدين ٠ فعوملت الكنيسة الكاثوليكية بغلظة

وقساوة خاصة ، وذلك على أساس التواطؤ الذى كان جــاريا بين بعض رجالها وبين الأوستاشا في كرواتيـا والبوسنة • ودمرت بعض الكنائس تدميرا تاما ، كما أغلقت أبواب الأديرة والرهبانيات والمعاهد اللاهوتية • ولكن الكنيســة الأرثوذكســية لقيت معاملة أحسن قليــلا ، وان لقيت مؤسساتها ضغطا شديدا أثناء السنوات الثـلاث أو الأربع الأولى • وقد تعاون بعض كبار رجال الدين بها مع النظام العميل فى صربيا ، بيد أنه كان هناك أيضا العديد من صغار القساوسة « التقدميين » ممن عملوا وعاظا دينيين فى جيش تيتو • وكانت تنظيمات شباب القسيسين تلقى التشجيع داخل الكنيسة ، كوسيلة للسـماح للحزب الشيوعى أن يمارس سيطرة غير مباشرة عليها (٩) • أما الاسلام ، فيبدو أنه قاسى اسـاءة مزدوجة فى أعين حكام يوغوسلافيا الجدد : فأولا كان ينظر اليه على أنه (وذلك صدق وحق) نمط من الدين لا ينطوى فحسب على معتقدات شخصية ، بل وأيضا ممارسات اجتماعية ، وثانيا لأنه كان ينظر اليـه باعتباره عقيدة رجعية آسيوية • وكان هناك أيضا نوع من الاحساس بأحقاد قديمة تمت تسويتها فى نهاية الحرب ، وهى الأحقاد التى عاد المسلمون النشطون الى تذكرها فيما بعد : « وأنزلت به فى ذلك الوقت على يد الشيوعيين أشد الخسائر عندما كانت الوحدات العسكرية تدخل القرى • فقد كان كل من يحتمل كونهم خصوما ، خاصة الأشخاص ذوى المقام الاجتماعى الأعلى والمفكرين المعرفين بايمانهـم ، يعدمون بدون اتخـــاذ أية اجـراءات قانونيـــة أو تحقيقات (١٠) • وبطبيعة الحال كان دستور ١٩٤٧ يحتوى على العبارات المألوفة المعتادة : التى تعلن أن يوغوسلافيا ستحافظ على حرية العقيدة ، وتصون الفصل بين الكنيسة والدولة ، ولكن الأحداث توحى بغير ذلك •

فألغيت المحاكم الاسلامية الشرعية فى ١٩٤٦ ، وصدر قانون بمنع النساء من ارتداء الحجاب فى ١٩٥٠ ، وفى نفس السنة صدر قرار باقفال آخر كتاتيب تحفيظ القرآن ، وهى المدارس الأوليــة التى كان الأطفال يتلقون فيها التعاليم الأساسية للقرآن الكريم ، واعتبر تعليم الأطفال فى المساجد جريمة يعاقب عليهـا القانون ، وفى ١٩٥٢ أقفلت جميع التكايا الموجودة بأرض البوسنة ، وحظرت جميع طرق الدراويش • وذكرت بعض التقارير أن المسلمين الذين كانــوا يؤدون الخدمة العسكرية ويصلون فيما كان يسمى (ادعاء) باسم فيالق العمل ، كانوا يرغمون على تناول لحم الخنزير ، وحذر الموظفون الرسميون الشيوعيون بألا يجروا عملية الختان لأولادهم • وألغيت الجمعيات الثقافية والتربوية الاســلامية : جايرت ونارودنا وأوزدانيكا وغيرها الغاء تاما ، ولم تسمح السلطات الا بوجود جمعية اسلامية واحدة (وقد أصبحت تحت سيطرة الدولة منذ ١٩٤٧) •

مع مدرستها الاسلامية التي عليها اشراف حريص لتدريب رجال الدين المسلمين • كما أن دار الطباعة الاسلامية في سراييفو أغلقت هي الأخرى ، ولم يعد يصرح بصدور أي كتاب دراسي اسلامي حتى ١٩٦٤ • ولكن بعض هذه الاجراءات قوبلت بمقاومة مستترة مع ذلك : فان كتب النصوص الاسلامية ظلت تدور في التداول ، وظل الأطفـــال يتلقون التعليـم في المساجد ، واحتفظت طرق الدراويش الصوفية بشعائرها وممارساتها داخل البيوت الخاصة ، ولكن تنظيما للطلبة هو « تنظيم الشباب الاسلامي » قاوم الحملة الموجهة على الاسلام ، فسجن بعض أفراده في ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠•

وعاني المجتمع الاسلامي بالفعل دمارا ماديا شديدا أثناء الحرب : فحسب التقديرات المحسوبة في جميع أجزاء يوغوسلافيـا ، فان ٧٥٦ مسجدا دمرت أو خربت تخريبـا شديدا • واعيد بنـاء كثير منها بالجهود المحلية الخاصة ، ولكن لما وافت ١٩٥٠ كان لايزال هناك من المساجد غير المستخدمة مئة وتسعة وتسعون بالبوسنة ، كان بعضها لا يزال ينتظر اعادة البناء ، وحولت السلطات المحلية بعضها الآخر الى متاحف ، أو مخازن ومستودعات ، بل حتى الى اســطبلات • أما الهيئـــة التي كانت تدير الأوقاف ، فقد وضعت في الواقع تحت سيطرة الدولة ، وصدرت اليها التعليمات أن تسـلم كثيرا من أثمن ممتلكاتهـا وأعلاها قيمة (بما في ذلك أول مبنى مكاتب عصري في سراييفو) الى السلطات المحلية • وحولت كثير من الجبانات الاسلامية الى حدائق عامة او الى متسعات من الارض لبناء المصالح الحكومية والمساكن ، صحيح أن رئيس العلماء تشاوشيتش سبق أن اقترح أشياء من هذا القبيل قبل الحرب ، ولكن الشيء الذي لم يخطر بباله هو أن يتم ذلك بغير رضاء المجتمع الاسلامي • كما أن الضربة النهائية التي أنزلت بالأوقاف التي صودرت أملاكها من قبل قطعة بعد قطعة بانتزاع ملكية الأراضي الزراعية ، جاءت عند تأميم الممتلكات الايجارية في ١٩٥٨ مما قضى على المؤسسات الخيرية الكبرى التي أنشأها غازي خسروف بك في ١٥٣٠ وظلت من بعده تعمل ٤٠٠ عام (١١) •

على أن الظروف العادية العامة للحيـــاة الدينيـة في يوغوسـلافيا تحسنت بعد ١٩٥٤ ، عندما مرر قانــون جديد يضـمن حرية العبـــادة (مرة ثانية) ويضع الكنائس تحت سيطرة حكومية مباشرة • ووضـــع برنامج قوي لترميم الأديرة الأرثوذكسية منذ ١٩٥٦ فصاعدا ، وكان ذلك من ناحيـة جزئيـة لأغراض تتعلق بالسياحة ، ومن ناحية جزئية ثانية لأن العلاقة بين كبار رجال الدين الأرثوذكس والدولة كانت قد بدأت تكتسب

شيئا من الود (١٢) • وتحسنت معاملة العقيدة الاسلامية بوجه عام في أخريات خمسينيات وستينيات الألف وتسعمئة ، وكان ذلك بسبب خاص جدا : اذ أصبح المجتمع اليوغوسلافي الاسلامي يستخدم أداة « لسياسة عدم الانحياز » الخارجية التي اختطها تيتو لنفسه •

وشأن كثير من الانجازات الواسعة الاعلام لتيتو ، كانت سياسة عدم الانحياز تلك سياسة عثر فيها تيتو بالصدفة تقريبا ، فبعد أن طرد (لدهشته) من الكومنفورم ، أصبح معتمدا اعتمادا شديدا على القروض والمعونات والمساندات الدبلوماسية الغربية ، بات بحاجة الى أيديولوجية يعلو بها فوق ذلك الموقف الشاذ الحرج حتى يبدو مستهدفا هدفا مقصودا أو نافعا ، ويمكنه في نفس الوقت من أن يجد مبررا يقربه من الديمقراطيات الغربية التي تخرجه مساعداتها ومعوناتها • ووجد بغيته في جولة قام بها في اثيوبيا والهند ومصر في ١٩٥٥ أثمرت عن تلك السياسة • وسرعان ما شرع بعد ذلك يلقي الخطب والبيانات التي تنعى على العالم انقسامه الى كتل ، وفي السنة التالية تابع اصدار بيانات حركة عدم الانحياز أثناء زيارة ليوغوسلافيا قام بها جمال عبد الناصر ونهرو (١٣) • وتم التعارف بين كل من جمال عبد الناصر وسوكارنو وبين رئيس العلماء عند زيارتهما لبلجراد في ١٩٥٦ ، وبينما تلقت الهيئة الرسمية التي تمثل المسلمين اليوغوسلافيين ، وهي « المجتمع الديني الاسلامي » ، التعليمات بمقاطعة المؤتمر الاسلامي العالمي الذي عقد في كراتشي ١٩٥٢ ، فان أعضاءها ما لبثوا حتى أرسلوا سريعا في جولات عامة حول العالم ، ليراهم مسلمو العالم الثالث والتجمعات غير المنحازة (١٤) • وسرعان ما أصبحت الخلفية الاسلامية تعتبر مزية ايجابية لأي انسان يأمل في العمل في مجال السلك الدبلوماسي اليوغوسلافي • وفي منتصف الستينات ، كان الدبلوماسيون المسلمون البوسنيون يمثلون يوغوسلافيا في كثير من الدول العربية ، وفي أندونيسيا أيضا ، وكان من بينهم ابن لرئيس سابق للعلماء (١٥) • ورغم أنهم كانوا أعضاء في الحزب الشيوعي وأنهم تخلوا الى حد كبير عن ديانتهم ، لكن أحدا لم يبال بذلك طالما كانت أسماؤهم محمد وأحمد ومصطفى •

ولكن التساؤل ظل قائما حول ماهية الاسلام في البوسنة ، هل هو هوية دينية أو عرقية أو قومية وذلك على الرغم من اعتقاد الحزب الشيوعي اليوغوسلافي في سنوات تيتو الأولى أن هذه المسألة سوف تتوارى عن الأذهان • وكان الموقف الرسمي في الأربعينات هو أن هذه المشكلة لابد لها أن تحل نفسها بنفسها بالتدريج ، عندما تذوب هوية المسلمين في هوية

الكروات أو الصرب · وفى أول مؤتمر للحزب بعد نهاية الحرب ، ذكر أن : « ليس بالامكان تقسيم البوسنة بين صربيا وكرواتيا ، وليس ذلك فقط لأن الصرب والكروات يعيشون مختلطين بعضهم ببعض فى كل أرجاء المنطقة ، بل وأيضا لأن المنطقة يسكنها مسلمون لم يستقر رأيهم بعد على هويتهم القومية أو الوطنية » (١٦) · فأما ما كان يعنيه تعبيرهم : « يقررون هويتهم القومية » ، فهو أنهم « يقررون أيكونون صربيين أم كرواتيين » · وكان أعضاء الحزب يتعرضون لشيء من الضغط ليقرروا ويعلنوا أهم من أولئك أم من هؤلاء · وان تحليلا لموظفى الحزب من ذوى الأسماء الاسلامية فى أول دليل عام للشخصيات فى يوغوسلافيا ، ليوضح أن ١٧٪ اعلنوا أنفسهم كرواتا وأن ٦٧٪ صربا ــ وهى علامة تدل بين أشياء أخرى على الجهة التى كانت تهب منها الريح فى الحياة السياسية البوسنية فى ذلك الوقت · وفى تعداد ١٩٤٨ كان المسلمون مخيرين فيه بين خيارات ثلاثة : فكان فى امكانهم أن يسموا أنفسهم صربا مسلمين أو كرواتا مسلمين أو مسلمين غير معلنى القومية « أى غير محددين » · وأدى ذلك الى اعطاء المسلمين البوسنيين فرصة يظهرون فيها كم هم غير راغبين أن يصبغوا بالصباغ الصربى (يتصربوا) أو بالصباغ الكرواتى (يتكروتوا) : فعد اثنان وسبعون ألفا منهم أنفسهم من الصرب ، وعد خمسة وعشرون ألفا أنفسهم من الكروات ، ولكن ٧٧٨ ألفا سجلوا أنفسهم غير « معلنين » · وكانت نتيجة التعداد التالى فى ١٩٥٣ مماثلة لهذه · وهذه المرة ، كانت السياسة الرسمية تدعو لتطوير وتنمية الروح اليوغوسلافية » : فأزيل بند مسلم من التعداد ازالة تامة ، ولكن سمح للناس بأن يسجلوا أنفسهم بأنهم « يوغوسلاف غير معلنى القومية » · والذى حدث فى البوسنة أن ٨٩١٨٠٠ فعلوا ذلك (١٧) ·

ولم تبدأ السياسة الرسمية فى التغير الا فى الستينيات وليس واضحا على الاطلاق لماذا حدث هذا التغير · ففى السنوات الخمس عشرة الى العشرين الأولى بعد الحرب ، كانت المناصب الرسمية العليا فى البوسنة يسيطر عليها الصرب : وفى الأربعينيات كانت عضوية الحزب الشيوعى البوسنى تتألف من عشرين فى المئة من المسلمين ، وستين فى المئة من الصرب · وكانت سياسة حكومة الجمهورية البوسنية شديدة الخضوع لبلجراد ، مع جنوح الى معاملة الجمهورية كما لو كانت احدى مقاطعات صربية الخارجية أو البعيدة · ولكن خلع ديورو بوكار (Djuro Pucar) الصربى من زعامة الحزب فى البوسنة فى ١٩٦٥ أدى الى اضعاف هذا النفوذ ، وعندما طرد ألكسندر رانكوفيتش ، الرئيس الجبار لجهاز أمن تيتو ، من اللجنة المركزية اليوغوسلافية ، اتسمت سياسة التعامل

مع الشعوب اللاصربية بجميع أنحاء البلاد بشيء من اللين • ومع ذلك ، فان الانتقال الى الاعتراف بالبوسنيين المسلمين كأمة ، كان يمضي في طريقه فعلا قبل أن تطرأ هذه الأحداث • ولعله نشأ عند اقتران عاملين مهمين : استقرار الرأي على نبذ سياسة « التكامل اليوغوسلافي » ، وتدعيم الهويات الجمهورية بدلا من ذلك في بواكير الستينيات وبروز نخبة من المسؤولين الشيوعيين المسلمين في جهاز الحزب في البوسنة وهو أمر كان قد تأخر كثيرا (١٨) •

وجاءت أول دلالات التغير في تعداد ١٩٦١ ، حيث سمح للناس بتسمية أنفسهم « مسلمين بالمعنى العرقي » • ثم جاء دستور ١٩٦٣ ، فأشار بدرجة متعادلة في ديباجته الى « الصرب والكروات والمسلمين . الذين كانت تجمعهم في الماضي حياة مشتركة » ، وان لم يذكر صراحة ، أنهم سيعتبرون أمما متساوية (١٩) • واعتبرت هذه خطوة حاسمة ، ومنذ تلك اللحظة فصاعدا أصبح من الشائع المعلوم في البوسنة ، معاملة المسلمين بأنهم تجمع قومي يتعادل تماما مع الآخرين ، وانعكاسا لهذا التغير ، اقتصرت مستندات انتخابات الموظفين في « رابطة البوسنة للشيوعيين » في ١٩٦٥ على تسجيل أسماء الناخبين بوصف كون كل منهم اما « صربي » أو « كرواتي » أو « مسلم » (٢٠) • ومع هذا ، فان تسمية المسلمين بالتحديد أمة لم يتم اعلانه رسميا • كما أن عددا من الأكاديميين والموظفين (تحت القيادة الفكرية للبروفيسور محمد فليبوفيتش (Muhemed Filipović) ، بمساعدة مجموعة من الموظفين الشيوعيين مثل عاطف بوريفاترا Atif Purivatra) ، واصلوا الدعوة للتفريق بين كلمة المسلم كوصف لأحد أبناء الأمة الاسلامية والمسلم كأحد أبناء أتباع العقيدة الاسلامية • وقاوم هذا بعض أعضاء الحزب • مما أدى الى طرد البروفيسور فيليبوفيتش من الحزب في ١٩٦٧ • على أن الفوز التام ما لبث أن أتى في النهاية في اجتماع للجنة البوسنة المركزية في مايو ١٩٦٨ ، حيث صدر عنها بيان يحتوي على النص التالي : «أظهرت الممارسة العملية أضرار مختلف أنواع الضغط •• من اليوم الذي كان فيه المسلمون يسمون فيه كرواتا أو صربا من وجهة النظر الوطنية • وأظهرت الأيام كما أكدت الممارسات الاشتراكية الحالية أن المسلمين أمة متميزة بنفسها »(٢١) • وعلى الرغم من الاعتراضات الشرسة الصادرة في بلجراد من الشيوعيين القوميين الصربيين ، مثل دوبريكا تشوسيتش ، قبلت الحكومة المركزية تلك السياسة • وهكذا حدث في نماذج ابداء الرأي في تعداد ١٩٧١ أن ظهرت لأول مرة عبارة : « مسلم ، بمعنى أمة » (٢٢) •

وظهر مصدر آخر لمعارضة هذه السياسة هو حرم رياسات الحزب الشيوعي في مقدونيا . ذلك لأن المقدونيين أنفسهم لم يعترف بهم كأمة الا مؤخرا جدا في ١٩٤٥ ، فلم ترقهم فكرة أن أقليتهم المسلمة السلافية الخاصة ، التي لها حجمها ووزنها الكبير ربما تنزع الآن الى الانسلاخ بطريقة مماثلة من القومية المقدونية (٢٣) . ولكن المقارنة بالبوسنة تمكننا من أن نرى لماذا كانت السياسة البوسنية معقولة تماما ، وان بدت في ظاهرها عجيبة . ففي حالة للمسلم السلافي المقدوني يكون من السهل الحديث عن الدين بوصفه قشرة ظاهرية ، يمكن أن نرى من خلالها الطبقة التحتية العرقية أو القومية السميكة . ولو أنك أزلت هذه القشرة لوجدت نفسك وجها لوجه أمام « سلافي » تحسبه مقدونيا قحا ، بمحك اللغة والتاريخ . ولكن الأمر يختلف في حالة البوسني المسلم : فماذا ينبغي للانسان أن يسمى تلك الطبقة التحتية العرقية ؟ انه يستطيع أن يسميها « سلافية » أو « بوسنية » ، ويستطيع المرء أن يسميه أيضا « بالصربوكرواتي » ، لكن تسميته اما « بالصربي » أو « الكرواتي » تكون خطأ لسببين : أولهما أنه ليست هنالك أية هويات صربية أو كرواتية متميزة في البوسنة في الفترة السابقة على نشر الاسلام ، ومن ثم فان من الخطأ التحدث عن « صربي مسلم » ، لأن ذلك يوحي بأن أجداده كانوا من الصربيين قبل أن يكونوا مسلمين . أما السبب الثاني فهو أنه عندما شرع البوسنيون المسيحيون في مرحلة متأخرة جدا في اتخاذ هويتهم كصربيين أو كرواتيين ، لم يكونوا يفعلون ذلك الا على أساس دقيق من الدين فقط . (وهكذا حدث أن أحفاد وسلالة المستوطنين الكاثوليك المجريين أو الألمان الذين جاءوا الى البوسنة في الفترة النمساوية المجرية ، انتهوا الى تحديد هويتهم بأنهم « كروات » ، كما أن حفدة الغجر الأرثوذكس الرومانيين ، اختاروا « الهوية الصربية ») (٢٤) . وكما رأينا ، فان الكثير من البوسنيين الأرثوذكس ربما كانوا ينحدرون من مهاجرين صربيين أو من أفلاق ، ولكن كان هناك عدد كبير من عمليات النزوح عن البلاد واليها ، والتحول من دين الى دين ، بحيث انه يندر من الأفراد من يستطيع أن يحدد بدقة أصله العرقي . ولقرون طويلة ظلت لغة الأرثوذكس والكاثوليك البوسنيين واحدة وكذلك تاريخهما والموطن الجغرافي لاقامتهما ـ وهو أمر معناه أن الطبقة التحتية التي تقع تحت هويتهما الدينية الخاصة ، طبقة واحدة لا اختلاف بينها اطلاقا في النواحي الجوهرية .

على أن الانتقال والتحول المصطنع بعبارة أخرى ، كان هو التحول الذي احدثه البوسنيون الارثوذكس أو الكاثوليك في أخريات القرن

التاسع عشر وبواكير القرن العشرين ، عندما شرعا يسميان أنفسهما بالاسم العرقى : « الصرب والكروات » • وهو أمر كانت له مبرراته التاريخية كما رأينا • ولكنهما ما أن شرعا فى تلك الحركة حتى أصبح من المحال على المسلمين أن يتخذوا السبيل المنطقى ، والذى كان يحتم عليهم أن يصفوا دينهم بأنه الاسلام ، والطبقة العرقيـــة التحتية من كيانهـم بالبوسنية اذ كان ذلك سيؤدى الى البدء فى استخدام كلمة « بوسنى » كمصطلح ثالث فى مقابـل « صربى » و « كرواتى » ـ وهو شيء يماثل استعمال مصطلح « مسلم » كمصطلح ثالث ، وهو ما يؤدى أكثر للانقسام والفرقة ، وذلك لأنه يمكن على الأقل أن يشار الى الجماعات الثلاث بأنهم البوسنيون المسلمون والبوسنيون الصرب والبوسنيون الكروات •

ولم يكن الدافع الى المطالبة بالاعتراف بالبوسنيين كأمة لها كيانها فى أخريات الستينيات فصاعدا وبواكير السبعينيات ، حركة اسلامية • بل على النقيض من ذلك ، فانه كان على رأس قيادتها شيوعيون وغيرهم من المسلمين المتطبعين بالطابع العلمانى ، الذين شاءوا للهوية الاسلامية فى البوسنة أن تتطور الى شيء بالتأكيد ليس دينيا • وفى أثناء تلك الفترة يمكن مشاهدة شيئين متميزين تماما فى البوسنة : هذه الحركة القومية الاسلامية العلمانية وحركة انتعاش للعقيدة الاسلامية (٢٥) • وان كانت كلتا الحركتين منفصلة عن الأخرى ، وكان خير تعبير عن الحركة الثانية فى الرسالة القصيرة التى كتبت (ولكنها لم تنشر) فى الستينيات ، مؤلفها هو على عزت بيجوفيتش (Alija Izetbegovic) المعنـونة « الاعـــلان الاسلامى » (٢٦) • اذ أن الأفكار التى تحتويهـا رسالة عزت بيجوفيتش (التى سنناقشها فى الفصل التالى) ، لم تكن متميزة الاختلاف عن حجج السياسيين مثل بيوزيفاترا فحسب ، بل كانت مناقضـة لهم مناقضـــة ايجابية : فلم تكن تدور حول مشكلات البوسنة ومسائلها ، وانما تدور حول موقف الاسلام فى العالم أجمع ، وكتب عزت بيجوفيتش عن الوطنية والقومية بأنها قوة تدعو الى الانقسام والشقاق ، وعن الشيوعية بأنها نظام غير واف • ولم يكن هذا الانتعاش الدينى المضـاد للشيوعيـة الا ظاهرة صغيرة فى بداية الأمر ، وان كانت سياسة تيتو فى ميدان « عدم الانحياز » سهلت لهم أن يتصلوا ويحتكوا بالعالم الاسلامى على اتساع أرجائه ، الأمر الذى نشط بذلك دراسة الدين الاسلامى فى البوسنة • وسمح لعدد أكبر من البوسنيين بأن يدرسوا فى الجامعات الاســلامية العربيـــة فى السبعينيات • وفى ١٩٧٧ بلغ الأمر أن أقيمت كليـة للشريعة الاسلامية (بتمويل من المملكة العربية السعودية) بجامعة سراييفو (٢٧) •

ولكن مثل هذه التطورات كانت أبعد ما تكون عما كان يحصل عليه ويصبو اليه أرباب الدعوات القوية مثل بيوريفاترا . وكان أشد ما يشغل بالهم هو أن مسلمي البوسنة لا يحظون بالصدد الكافي من الممثلين لهم في الادارة الشيوعية للجمهورية ، وأن الجمهورية في مجملها كانت تعد أخفض الى حد ما في وضعها القانوني ، من جمهوريات يوغوسلافيا الأخرى. وقد جاءت هذه المعاملة الدنيا ـ على حد احساسهم ـ لأن البوسنة كانت ينظر اليها لا على أنها أمة واحدة ، بل قطعة من أمتين أخريين (هما الصرب والكروات) ، بالاضافة الى عنصر لا أممي . وقد كان ذلك القول تحليلا ينطوي على قدر عظيم من الصدق . فان البوسنة كانت تعامل معاملة أقل من وزنها في نظام الاتحاد الفيدرالي اليوغوسلافي ، وكان تطورها الاقتصادي يمضي متثاقلا ومتأخرا تأخرا بعيدا خلف تطورات جيرانها الأشد قوة منها . ثم حدثت بها طفرة من التنمية استمرت فترة وجيزة بعد الانفصال عن الكومنفورم في ١٩٤٨ ، عندما عزم تيتو عزما أكيدا ، وقد شغل باله احتمال قيام السوفييت بغزو بلاده ، أن يضع مصانع الأسلحة والصناعات الأخرى ذات الأهمية الاستراتيجية في أجزاء البوسنة الوعرة التي لا سبيل الى ولوجها . على أنه سرعان ما عدل عن هذا ، وتركت البوسنة تعج بما وصفه أحد المحللين بأنه « مصانع جديدة (وغير مكتملة في غالب الأحيان) ، أسست في مناطق نائية رائعة الجمال لكنها بعيدة عن الأسواق والطرق واليد العاملة الماهرة » (٢٨) .

ولو قورنت البوسنة بما عليه حال الأجزاء الباقية من يوغوسلافيا من الركود والتدهور الاقتصادي ، لرأينا أنها عانت أثناء الخمسينيات والستينيات من الركود والتدهور الاقتصادي حتى انخفضت انتاجية الفرد من ٧٩٪ في ١٩٥٣ الى ٧٥٪ في ١٩٥٧ ، والى ٦٩٪ في ١٩٦٥ . وفي ١٩٦١ اعتبر جزء كبير من مساحتها منطقة « نامية » أي دون درجة التطور الواجبة . وهي وحدها دون سائر الجمهوريات اليوغوسلافية ، كانت تمتلك أقل نسبة من النمو الاقتصادي على طول المدة بأكملها من ١٩٥٢ الى ١٩٦٨ ، فأما دخل البوسنة القومي الذي كان دون المعدل القومي العام بعشرين في المئة في ١٩٤٧ ، فقد هبط الى ٣٨٪ تحت المعدل عند حلول ١٩٦٧ (٢٩) . وتحدثنا الاحصائيات الاجتماعية بقصة مماثلة تماما ، وتكشف عن مشاكل كانت من ناحية جزئية أعراضا « للتأخر » الاقتصادي ، كما أنها من ناحية جزئية أخرى تعد أسبابا له . ففي أوائل السبعينيات ، كان بالبوسنة أعلى نسبة لوفيات الأطفال في يوغوسلافيا عدا كوسوفو ، وكانت بها أعلى درجات الأمية (فيما عدا كوسوفو للمرة الثانية) ، وأعلى نسبة للأشخاص الذين

لم يقضوا سوى ثلاث سنوات في التعليم الابتدائي (عدا كوسوفو أيضا)، وأقل نسبة للناس الذين يعيشون في المدن (عدا كوسوفو) • وكان بها أيضا أقصى حد للهجرة الى باقي الجمهوريات اليوغوسلافية ـ بالتقريب ١٦ ألف انسان في كل سـنة طوال الخمسينيات والستينيات • وكان معظم هؤلاء قوما صربيين نزحوا منها ليعيشوا في صربيا (٣٠) • ونتيجة لهذا أن غلب المسلمون على الصرب في البوسـنة ، بوصفهم أكبر عنصر سكاني للسكان في منتصف الستينيات •

وكان تأسيس « وضع الأمة الاسلامية » في أواخر الستينيات نعب دورا ما في انعاش الكبرياء الجمهوري ، ساعد على تحويل مسار الاقتصاد البوسني • وأدت التغيرات الكثيرة في الدسـتور الفيدرالي أثنـاء تلك المدة بأكملها ، بدءا بالدستور الجديد لعام ١٩٦٣ ، وانتهاء بكتابة جديدة للدستور في ١٩٧٤ ، الى اعطاء اقتصاد البوسنة مجالا أوسع لمتابعة السير في سياسات التنمية التي أخذتها كل جمهورية على عاتقهـا • وأثنـاء السبعينيـات أقامت السلطات البوسـنية مشروعات صناعيـا هامة ، ونمت ضـواح من أبراج عاليـة المباني في مدنها الكبرى • حتى قال أحد من زاروها في ١٩٨٠ ان « سراييفو بدت كأنمـا هي مشروع ضـخم لاقامة المرافق العامة • وأعيـد تشكيل نظـام أنابيب الصرف والميـاه واحتفرت الشوارع في أقسام المدن وأعيد اصلاحها • وانتزعت خطوط الترام ليحل محلها خطوط أعرض » ، وهكذا دواليك (٣١) وكان السبب المباشر في كل هذه الأنشطة في العاصمة البوسنية ، هو اعدادها لألعاب الأولمبياد الشتوية التي أقيمت هنـاك في ١٩٨٤ • على أن هذا التطور الجديد كان مجرد مثال من عمليـات التحديث التي جـرى تنفيذها في كثير من أجزاء الجمهورية ، واعتمد في تمويلها أساسا على القروض •

ومن عجب أن ازالة المركزية من يوغوسلافيا التي بلغت أوجها في دستور ١٩٧٤ ، كانت مع ذلك تخلق مشاكل أكثر مما كانت تحل • وأن مبدأ انشاء الهويات المنفصلة القومية السياسية شحذ شهية أبناء القوميات المختلفة الى المزيد • ويرينـا التاريخ بأوضح صورة أن النظم الفيدرالية او الاتحادات التي تتكون من كيانات قومية مختلفة ، لا تستطيع أن تعمل بنجاح الا اذا أقيمت على نظام سيـاسي حقيقي الديمقراطية ، بيد أن ذلك لم يكن هو الحال السائد في يوغوسـلافيا الشيوعية ، حيث كانت كل محاولة تلتمس قدرا أكبر من الاستقلال الذاتي القومي ملزمة أن تمتص كما يمتص ورق النشاف كل صنوف الامتعاض السياسي المرير ، الذي كان النظام السياسي بأكمله ينضح به • ومن السهل عليك أن تقنع أمة

بأنها تظلم وتضطهد أو تدبر لها المؤامرات من آنة لأخرى ، بينما النظام الذى ساهم الأمتين كلتيهما كان نظاما غير ديمقراطى ولا عادل بأكمله ، وانما هو ظالم بطبيعته · كمـــا أن السبب الطبيعى لكل أنواع التفجر انما هو الاقتصاد الضعيف المختل ـ وهو شيء كان مضمونا تماما بظل النظام اليوغوسلافى الشيوعى · على أن سوء الادارة زاد سوءا نتيجة التدابير اللامركزية التى طبقت فى الستينيات والسبعينيات ، وذلك نظرا لأنه كانت هنــاك ازدواجات زائدة عن الحاجة فى الصـناعات ومشروعات البنية الأساسية بين الجمهوريات · وغنى عن البيان أن أسوأ أنواع المنافسة هو ذلك النوع الذى يحدث بين المصانع عندما يكون عملها معتمدا على القروض والدعم من السلطة السياسة ، مع عدم جعل المنافسة نفسها خاضعة للنظام الحق للأسواق ·

وظهرت بعض الفورات القومية الكثيرة التى عبرت عن امتعاضها من النظام القائم أثناء الفترة بين الستينيات وأواخر الثمانينيات ، وكان أهم هذه الحركات فى كرواتيـــا وصربيا · وفى الستينيـــات بدأ عدد من التنظيمات المختلفة يتجمع فى كرواتيا : ومنها شكاوى من تطوير صورة جديدة رسمية للغة الصربوكرواتية تتغلب فيها أشكال الكلمات الصربية ، ثم القبضة القوية التى كانت تقبض بها البنوك فى بلجراد على اقتصاد السياحة فى دالماشيا ، كما دارت الشكاوى أيضا حول مجال واســع من المسائل الاقتصادية والسكانية الأخرى (٣٢) · وهذه الحركة التى تدعو باصرار للحفاظ على حقوق كرواتيا ، والتى أصبحت مرتبطة بحملة تطالب بتحرير أكبر للنظـام السياسى اليوغوسلافى ـ وقد أصبحت معروفة فى الغرب باسم « الانتفاضة الكرواتية » ـ كانت فى جوهرها موجهة ضــــد الصربيين ، ولكنهـــا ما لبثت حتى حملت وطيس المعـــركة الى صـــميم البوسنة أيضا ·

وعندما حل عام ١٩٧١ نشرت صحيفة كرواتية تحليلا للهويات العرقية لجميع الموظفين الذين يعملون فى الادارة البوسنية ، أظهر أن الكرواتيين كانوا لا يمثلون الا جزءا قليلا منهم · ومع أنهم كانوا يشكلون أكثر من عشرين فى المائة من السكان ، فانهم لم يكونوا يصلون الا بشق الأنفس الى الأوساط والمستويات المهمة من المناصب ، مثل وظائف الادارة العامة لراديو وتليفزيون سراييفو ، فكل رؤســـاء القضـــاة كانوا من الصرب ، ولم يكن أحـــد من الكروات يشـــغل وظيفـــة المدير فى أى من الوكالات الجمهورية (الهيئات السيادية) المتنوعة · وأجاب كبـار السياســـيين البوسنيين مثل حمدى بوزدراك بأنه ليس ينبغى أن تهـم الناس قومية

الموظف ، شريطة أن يعمل لصالحة البوسنة بأكملها (٣٣) • ولكن المنافسة بين اهتمامات ومصالح القوميين الصرب والكروات حول البوسنه ، أصبحت من القوة بحيث لا تستطيع مثل هذه المجادلات أن تستبعدها : ولم يفت أحد الكتاب الصربيين وهو يوزيب بوتكوزوراك أن يصدر كتابا في ١٩٦٩ يدفع بأن جميع سكان البوسنة قاطبة (وسكان دالماشيا أيضا) كانوا في الحقيقة صربيين • واستمرت هذه المجادلات في السبعينيات ، وشرع الكروات والصرب القوميون في التحدث علنا عن استقطاع أجزاء من الأراضي التي تسكنها العرقيات من البوسنة وضمها إلى كرواتيا وصربيا على التعاقب (٣٤) • ولم تبد أية اشارة توضح أن سياسات السلطات البوسنية كانت مناوئة للكروات أو ضد الصرب أثناء تلك المدة • ولكن تعاقبت على المسرح ظاهرتا الضغط الاحصائي من ناحية والتاريخ العرقي المزيف من الناحية الأخرى ، وكان الأثر الوحيد الذي أنتجته تلك المجادلات الاحصائية على الطريقة التي تدار بها الأمور في البوسنة ، هو نشوء نظام حصص مرهق لتعيين الموظفين في الوظائف يكون تناسبيا ، أو يكون على أساس « واحد من كل منهم » — وهو اسهام صغير اضافي للفوضى الاقتصادية والادارية •

ولكن قدر لنمو الوطنية الصربية في النهاية أن يكون له أثر مدمر • وفي ظاهر الأمر ، لم تكن لصربيا الا أسباب للتذمر أقل عددا من أية جمهورية يوغوسلافية أخرى ، أثناء السنوات العشرين الأولى من الحكم الشيوعي • لقد أصبحت البلاد تحكم من بلجراد مرة أخرى • وكان الصربيون يهيمنون على الحزب والقوات المسلحة ، وكان يخامر الذين عاشوا الحرب احساس قوى بأن سجل صربيا أعلى معنويا من سجل كرواتيا • ولكن « تسوية ما بعد ١٩٤٥ » من جانب تيتو ، لم تعط صربيا مكاسب اقليمية • فحولت أرض مقدونيا اليوغوسلافية بكامل أرجائها الى جمهورية منفصلة ، ومع أن سكانها كانوا غير صربيين ، لكن الجيوش الصربية كانت قد غزتها في حرب ١٩١٢ — ١٩١٣ ، وأدمجتها بالمملكة الصربية تحت اسم مصطنع هو « صربيا الجنوبية » • ومن ثم فان التغيير الذي حدث في ١٩٤٥ كان يراه الصربيون الوطنيون نوعا من السرقة للأراضي الصربية • أما المنطقة الشمالية من فويفودينا ، حيث كان عدد الصربيين يقل عن ٥٠٪ من السكان ، فانها أصبحت جزءا من المملكة اليوغوسلافية في ١٩١٨ ، ولكن تيتو منحها وضع « ولاية ذات استقلال ذاتي » داخل صربيا • وكان هذا عند بعض الصربيين يعد عملا معاديا للصربية ، وان لم يحدث قط أن فويفودينا كانت في أي يوم جزءا من صربيا نفسها • كما أن منطقة كوسوفو ، التي تسكنها اغلبية البانية ،

وهى ايضا منطقة فتحها الصربيون فى ١٩١٢ ـ ١٩١٣ » اعتبرت مستقلة استقلالا ذاتيا » من صربيا . ان هذه التغييرات الهبت بالضغينة صدور كثير من الصربيين ، وجعلتهـــم يستهينون بذلك الكسب الاقليمى الذى احرزته صربيا عندما أعطـاها تيتو منطقة سترم وهى الحافة الشرقيـــة الضخمة للأراضى الكرواتية . (ولم يحدث تيتو أى تغيير على الاطلاق فى التخم التاريخى الذى يفصل بين صربيـا والبوسنة ، الذى ظـل ثابتـا كما هو فى أخريات الحكم العثمانى والفترة النمساوية المجرية) .

كانت جميع الأحوال ملائمة لتوليد نظرية تآمرية تزعم أن تيتو نصف السلوفينى قد تآمر على صالح صربيا التاريخى . كما أن ذلك الشعور لم يبرح يزداد نمـــوا فى الستينيـات وبواكير السبعينيـات . وذلك بينما تتابعت التغييرات الكثيرة فى الدستور ، وكانت تمنح مقادير أكثر فأكثر من الاستقلال الذاتى الادارى لفويفودينا وكوسوفو ، حتى وصل الأمر فى دستور ١٩٧٤ ، أن أصبحتا تملكان بعض ـ وان لم يكن كل ـ سلطات الجمهوريات الكاملة السيادة ، بما فى ذلك تمثيلهما فى الهيئات الفيدرالية الرئيسية . وبعد سـقوط رئيس ادارة الأمن ، ألكسـندر رانكوفيتش ، والذى حكم كوسوفو بقضيب من حديد ، ومستعينا بعدد ضخم من الموظفين الصربيين ، تغير الموقف هناك تغيرا درميا . فأولا حدثت انتكاسة الى الخلف اذ انقض الألبانيون المحليون على الصرب المحليين أيضا مع حركات شغب مضادة للصربيين فى ١٩٦٨ ، وأعمال عنف موجهة ضدهم ثم حدثت بعد ذلك حركة سريعة ترمى الى اضفاء الطابع الألبـــانى على كوسوفو ، مما أقلق صرب كوسوفو بشأن وضعهم كأقليـة صـغيرة بين سكان الاقليم . وهنا غادر آلاف من الصربيين الولاية الى صربيا نفسها ، وكان بعضهم يفر فرارا لشعوره بأنه يطارد ويهدد ، ولكن الكثير منهم كانوا يتطلعون الى الحصول على عمل أو قل انهم كانوا يشاركون فى ذلك الشعور العام الذى دفع أبناء الأقليـات الى النزوح الى مراكز قوميتهـم الأساسية . وهى الحركة التى رأينا أنها أثرت أيضا فى الصرب البوسنيين كذلك أثناء تلك المدة نفسها (٣٥) .

والموقف فى كوسوفو الذى بلغ من شأنه فى أوليات الثمانينيات أن أصبح أزمة مستحكمة واحتـلالا عسكريا ، بات بيت القصـيد والبهرة الأساسية وانتعاش الوطنية الصربية . ومنذ زمن مبكر هو ١٩٦٨ ، كان الشيوعيون الوطنيون من الصرب مثـــل دوبريكا تشوشيتش يظهـرون الشكوى من انقلاب السياسة فى كوسـوفو بعد سقوط رانكوفيتش . » كان المرء يستطيع أن يرى الهدف التاريخى القديم ، والفكرة القومية ـ

كرة توحيد الشعب الصربي في دولة واحدة ـ يتأججان من جديد في نفوس الصربيين » ، هذا ما قاله ذلك الرجل (٣٦) · وهذا القول الذي قيل بلغة التحذير ولكنه صدر بروح التهديد ، تسبب في طرد تشوشيتش من اللجنة المركزية · وكان تشوشيتش يعارض أيضا كل اتجاه لمنح الوضع القومي لمسلمي البوسنة وان لم يكن ذلك شيئا جاء من قبيل الاتفاق المتزامن · وذلك لأن الألبانيين في كوسوفو كانوا في أغلبهم من المسلمين مما جعل الشعور المضاد للاسلام ظاهرة للنزعة القومية الصربية · ولم يكن ذلك بالشيء الجديد ، فانه طالما كان جزءا من الثقافة الأدبية الصربية ، ولكن يتم التعبير عنه الآن بقوة أكثر كثيرا ، كما حدث في تلك الروايه الشرسة التعصب ضد الاسلام المعنونة « السكين » ، التى نشرها القومي الراديكالي فوك دراشكوفيتش (Vuk Drasković) في أوليات الثمانينيات (٣٧) · ولم تشأ الكنيسة الأرثوذكسية الصربية هي الأخرى أن تفوت فرصة احياء الاحساس بالهوية الدينية ، في ثقافة البلاد الأدبية والسياسية ، وهناك أيضا ادعاءات التملك الصربية المتهوسة حول كوسوفو ، فانها في الواقع كانت تقوم على وجود بعض أقدم الأديرة الأرثوذكسية الصربية ومباني الكنائس ، بما في ذلك البطريركية نفسها ، في ذلك الاقليم ·

وواكب انتعاش الأرثوذكسية أيضا ، انتعاش بالاهتمام بموضوع التشيتنيك المحظور أثناء الحرب العالمية الثانية · وفي الحقيقة كانت سياسة الشيوعيين هي حظر كل ما هو تشيتنيكي بدون تمييز ولا تحليل بسبب تواطؤ التشيتنيك مع الفاشية ، ولذا جاء رد فعل الوطنية الصربية ، متعاطفا معهم ضد هذا النظام · وأصدر دوبريكا تشوشيتش رواية قصصية في ١٩٨٥ بطلها أيديولوجي ومنظر تشيتنيكي ، وفي السنة نفسها ظهر كتاب حول التشيتنيك للمؤرخ فازيلين جوريتيتش في حفلة أقامتها أكاديمية العلوم الصربية · وكانت هذه الحادثة نقطة تحول مهمة ، ومؤشرا على أن القومية الوطنية الصربية أصبحت أمرا مقبولا لدى المؤسسة الفكرية في بلجراد · وفي يناير من السنة التالية ، وقع مئتان من أبرز الأكاديميين والكتاب في بلجراد ، على التماس أشار بعبارات هستيرية الى « العدوان الألباني » والى « التطهير العرقي » بمقاطعة كوسوفو · فكان جميع أنواع الاستياء الصربي قد ظهرت الآن على السطح : وشكا ذلك الالتماس من « أن هناك محاكمة سياسية شائكة للأمة الصربية وتاريخها ، ظلت مستمرة عقودا متتالية من الزمان » (٣٨) ·

وفيما بعد في ١٩٨٦ ، سطرت مذكرة في الأكاديمية الصربية للعلوم (أو على الأقل على يد لجنة عينتها تلك الأكاديمية معلوم أن تشوشيتش

كان بين أعضائها) ، اجتمعت فيها الشكوى من كوسوفو الى الاتهام الصريح لتيتو بأن سياسته كانت تهدف الى اضعاف صربيا • وقد شكت تلك المذكرة من أن : « القومية الوطنية انما خلقت من أعلى » • وبطبيعة الحال ، لم تكن هذه الكلمة اشارة الى الوطنية الصربية ، التى جاهد هؤلاء الكتاب لخلقها من وجهة نظرهم ومصلحتهم الخاصة ، وانما الى الهويات الوطنية للكروات والسلوفيين والمقدونيين ومواطنى الجبل الأسود والمسلمين البوسنيين • وادعت المذكرة أيضا أن مخطط استيعاب القوميات كان يجهز فى كرواتيا ، ويهدف الى تحويل من بها من الصرب الى كروات • وكذلك شكت أيضا من أن الكتاب الصرب العرقيين الذين يعيشون فى أماكن مثل الجبل الأسود ، كانوا يوصفون بأنهم يكتبون لا أدبا صربيا ، بل أدب « جبل أسودى أو بوسنى » بدلا من ذلك • وكانت نقطة الجدل الأساسية فى المذكرة هى أن « الشعب الصربى » بكل أرجاء يوغوسلافيا ، كان نوعا من الكيان الابتدائى ، يمتلك مجموعة توحيدية من الحقوق والدعاوى التى تعلو على أى أقسام سياسية أو جغرافية بحتة : « ان مسألة تكامل الشعب الصربى وثقافته بكل أرجاء يوغوسلافيا تفرض نفسها كموضوع حاسم بالنسبة لبقاء ذلك الشعب وتطوره » (٣٩) • ومن أسف أن السعى لتحقيق ذلك « التكامل » هو الذى أدى فى النهاية الى تدمير يوغوسلافيا وانزال الخراب بالبوسنة أيضا •

ومع انتشار هذا الرأى فى صربيا فى السبعينات والثمانينات ، كانت هناك حساسيات متزايدة فى صدور السلطات فى البوسنة ازاء أى تعبير عن احياء النزعة الاسلامية الذى ربما ينطوى على معان سياسية • ولا ننكر القول بأن الحكومة البوسنية الجمهورية لم تكن تعمل مسترشدة بالروح الجديدة « للوطنية الصربية » المضادة للمسلمين • وانما هى كانت على العكس من ذلك تحاول أن تحتفظ بالسياسة الشيوعية الرسمية التى تهدف الى اذابة وازالة أى عنصر دينى فى الهوية الوطنية القومية فى خاتمة المطاف • ومن ثم فانها كانت تنزعج لأية دلالة على وجود نشاط سياسى نابع من بواعث دينية بين المسلمين بنفس الشدة التى انزعجت بها من الحلف الجديد الناشىء بين النزعة القومية والأرثوذكسية المنتشر بين الصرب ، كما أمكنها أن تدرك أن أى نمو فى الأولى سيمد الثانية بالزاد والذخيرة • وأخذ أعضاء الهيئة الدينية الاسلامية فى البوسنة يعبرون بصراحة أكثر عن انتقاداتهم للنظام الشيوعى ، وترددت الشائعات والأقاصيص بعد الثورة الايرانية فى ١٩٧٩ بأن صورا لآية الله الخومينى قد شوهدت معلقة بالنوافذ البوسنية ، وهو أمر سبب للسلطات شيئا آخر من الانزعاج • ومع أنه كان لسياسة عدم الانحياز القديمة دور كبير فى

رفع الاسلام من مهاوى الركود والفتور في البوسنة وزادت من اتصالها بسائر أجزاء العالم الاسلامى ، فان السلطات قررت الآن أن تعمل ضد حدوث أى نمو جديد فى شعبية العقيدة الاسلامية . وفى ١٩٧٩ تلقى شيوعى مسلم هو درويش شوشيتش شيئا من التشجيع على أن ينشر فى صحيفة سراييفو « أوسلوبودينى » سلسلة من المقتطفات من كتاب له كان يكتبه ، وكان يعرض (بتشديد وكسر الراء) بتعاون كبار الأعضاء من رجال الدين المسلمين مع الأوستاشا ومع الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية . وعندما هوجم شوشيتش لذلك في الصحيفة الناطقة بلسان الجماعة الاسلامية رسميا وهى « بريبورودPreporod » ، دافع عنه علنا أحد كبار الرجال المعبرين عن السياسة الرسمية في الدين ، وهو البروفيسور فؤاد ميوهيتش ، أحد أساتذة جامعة سراييفو . وما لبث أن نزل الحومة رجل من أقطاب الشيوعيين المسلمين ، وهو حمدى بوزدراك ، الذى انتقد علانية ما أسماه بنزعة الجامعة الاسلامية (٤٠) .

وفى اطار هذه الخلفية ، جرت أحداث أشهر انقضاضة على النشطاء المسلمين فى البوسنة حيث قدم للمحاكمة فى سراييفو فى ١٩٨٣ ثلاثة عشر رجلا اتهموا بأنهم « قاموا بأعمال معادية ومضادة للثورة نابعة من القومية الاسلامية » . وكان على رأس المتهمين الدكتور على عزت بيجوفيتش ، وهو محام ومدير متقاعد لشركة مبان ، وكان قد أتم كتابه « الاعلان الاسلامى » قبل ذلك بثلاثة عشر عاما . وكان هو وثلاثة من المتهمين أعضاء فى « منظمة شباب المسلمين » ، التى كانت تعارض الهجوم الشيوعى على الاسلام فى نهاية الحرب العالمية الثانية . ووجهت تلك التهمة اليهم أيضا حيث ، اتهموا باحياء أهداف منظمة « ارهابية » . واتهم عزت بيجوفيتش أيضا بأنه كان يدعو الى ادخال الديمقراطية البرلمانية على الأسلوب الغربى الى البلاد . وكان أهم دليل اتهام قدم ضدهم هو « الاعلان الاسلامى » الذى كان حسب منطوق صحيفة الاتهام اعلانا بانشاء دولة بوسنية اسلامية نقية العنصر صافية العرقية . ولكن عزت بيجوفيتش أوضح أن الاعلان لم يكن يحتوى على أى شىء يتحدث عن تطهير البوسنة عرقيا ، وأنه فى الحقيقة لم يكن يحتوى على أية اشارة الى البوسنة على الاطلاق : ولكن هذه التفاصيل وأمثالها لم توقف المحكمة التى حكمت عليه بالسجن أربعة عشر عاما ، خفضت بناء على التماس قدم منه الى أحد عشر عاما (٤١) .

وكان لهذه المحاكمة أثرها السيىء فى بث الخوف فى جميع الأنشطة الاسلامية الدينية بأرض البوسنة ، كما أنها قوت الى حين مركز كبار الشيوعيين من المسلمين مثل حمدى بوزدراك الذى كان فى الامكان أن يتقبل

ويقتنع بفكرة الهوية الاسلامية الوطنية ، ما دامت ستظل في جوهرها علمانية . لكن لم يمض وقت طويل حتى قوض أيضـــا هذا الشكل من السياسة الاسلامية بفعل فضيحة مالية صارخة تسببت في سقوط بوزدراك . وكانت الفضيحة تدور حـول مشروع في الركن الشمالي الغربي للبوسنة يسـمى « أجروكومرك » ، بدأ كمشروع مزرعة دواجن في الستينيـات ثم أخذ ينمـو في ظـل مديرها ذي الموهبـــة القيـادية فيكرت أبديتش (Fikret Abdic)[٧] ، بلغ من عظم نموها أنه عنـدما وافت سـنة ١٩٨٧ كانت تستخدم ثلاثة عشر ألف عامل وموظف في المنطقة ، وكانت واحدة من أكبر المشروعات الاستثمارية الثلاثين في يوغوسـلافيا كلها . وكان السر وراء نموها أنهـا أصـدرت أوراقا تعهدية ماليـة ذات فوائد عالية النسبة دون أن يساندها رأس مال ضامن ، وذلك شيء كان ممكنا آنذاك ما دامت الأوراق ممهـــورة ومظهـرة بالخاتم الرسـمي للبنك المحلي . (وواضح أن الخاتم قد سلم الى شركة أجروكومرك بدلا من الاضطرار الى أخذ الأوراق الى البنك) . ولم تكن هذه القصة بالشيء العجيب أو الغريب في يوغوسلافيا : ولكن الشيء الوحيد الغريب هو مجرد حجم العملية كلها ، حيث بلغت قيمة هذه الأوراق التعهدية خمسمئة مليون دولار . والأمر كما عبر مصرفي كبير القدر من بلجراد : « أن جميع أقطاب رجال البنوك والسياسيين لابد أنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة أن مشروع الأجروكومرك كان يسحب على المكشـــوف . وكان ما فعله أبديتش يتم في كل مكان ، وكانت غلطته الوحيدة هو أن فعل ذلك بدرجة مفرطة » . وبالمثل كان كل انسان يعرف أن كبار مسئولي الحكومة البوسنية كانوا على صلة بذلك المشروع بما في ذلك بوزدراك الذي كان أخـوه حقي مستشـارا لمشروع الأجروكومرك . أما أبديتش نفســه فكان عضـوا في اللجنـة المركزية البوسنية ، ولكنه الآن فصل . وكان بوزدراك يشغل منصبا أكثر هيبة ومقاما ، وهو منصب نائب رئيس يوغوسلافيا ، على أنه استقال في نهاية الأمر ، رغم أنه ظل يؤكد براءته (٤٢) .

مع هذا ظل أبديتش شـخصية محبـوبة من المسلمين العاديين الى أقصى حد ، حيث شـــعروا أنه بذل جهـودا عظيمة في جذب المشروعات وتحقيق الرفاهية والرغد في البوسنة . وكان كثير من الناس على اقتناع بأن المسألة كلها انما دبرتها بلجراد كوسيلة للقضـاء على أبرز رجـال السياسة المسلمين . وكان أوزدراك نفسه يعد في طليعة المرشحين لرئاسة يوغوسلافيا ، وكان كذلك رئيسا باللجنة الدستورية التي كانت تعـد مراجعة جديدة للدستور ، الذي كانـوا يعتقدون في بلجراد أنه سـيكون « مناهضا لصربيا » فيما سيأتي به من تغيرات . ومن المؤكد أن الذي حمل

بوزدراك على الاستقالة هو الضغط الذى أنزلته الصحافة ، وبخاصة صحيفة البوربا (Borba) • وكانت نتائج ذلك الأمر مدمرة رهيبة العاقبة على اقتصاد الشطر الشمالى الغربى من البوسنة ، بما حوى من أغلبية مسلمة كبيرة •

وهذه القصة بحذافيرها ترمز بطريقتين الى التوتر والانزعاج الذى نكبت به البوسنة ويوغوسلافيا قاطبة عند منتصف الثمانينيات • فأولا كان هناك الانهيار التام للنظام الاقتصادى المتهالك الذى لم يستطع العيش الا على الأموال المقترضة ، حيث ملأ البلاد بالمصانع المهولة الجبارة التى كان لا مفر من أن تعمل بالخسارة حتى مع عدم سداد الفوائد على القروض التى مولت اقامتها • مثال ذلك أنه قد أقيم في زفورنيك بالبوسنة الشرقية أعظم مصنع للألومينيوم فى أوربا ، وهو يستخدم أربعة آلاف عامل • وهو مصنع بنى هناك ومول بالقروض الأجنبية ، للاستفادة فيه من خام البوكسيت المحلى ، وما كادت آلات المصانع تصل حتى اكتشف المديرون أن خام البوكسيت المحلى لم يكن على درجة عالية من الجودة ، وعند حلول عام ١٩٨٧ أصبحوا مضطرين الى أن يستوردوا خام البوكسيت من أفريقيا بدلا من الخام المحلى (٤٣) • ولا يخفى أن نظام تيتو الاقتصادى الذى وصف أدق وصف بأنه « الادارة الذاتية السيئة » ـ كان فى حالة من الاضمحلال المطلق ، مع هبوط انحدارى شديد وثابت فى الأجور الحقيقية ، وارتفاع فى نسبة غياب العاملين واضراباتهم • وعندما عين الزعيم البوسنى الكرواتى برانكو ميكوليتش ، رئيسا للوزراء للحكومة الفيدرالية فى ١٩٨٦ ، وعد بأن ينجز اصلاحات بعيدة المدى ، وأن تخفض درجة التضخم الى عشرين فى المئة • وأدخلت بعض اجراءات التقشف ، فأدى ذلك الى كراهية الشعب للحكومة بوجه عام ، ومعها النظام الفيدرالى كله ، بيد أن الاصلاحات العظمى فى البنية الأساسية لم تتحقق أبدا ، وبدلا من ذلك قضت الحكومة شهورا طويلة في البت فى أمور مثل : امكانية رفع عدد العمال المستخدمين في المشروعات الخاصة الى عشرة عمال لكل مشروع • وفى نفس الحين ارتفع التضخم الى ١٢٠٪ فى ١٩٨٧ ، والى ٢٥٠٪ فى ١٩٨٨ • وعند نهاية تلك السنة بلغ دين يوغوسلافيا الأجنبى الكلى ٣٣ بليون دولار ، منها ٢٠ بليونا قد وجب سدادها الى دول الغرب بالعملة الأجنبية • وعلى هذا النحو أصبح التراث الطويل الأجل لسياسات تيتو الاقتصادية هو زيادة أعداد الفقراء والساخطين وبذلك تهيأ خير جو لعمل الديماجوجيين الذين كانوا يستغلون هذا الاستياء لصالحهم •

والطريقة الثانية التى كانت ترمز بها مسألة شركة الأجروكومرك الى نظام تيتو السياسى كله ، تجلت فيما كشفته من أمر طبقة كبار المسؤولين الشيوعيين • اذ مضت عقود عديدة من السنين ومعظم البلاد تحكمه أسر محلية متوارثة وهى عائلات من السياسيين جمعت فى أثناء الحرب ثروات ميسرة ، وظلت تتلقى الرفعة والرقى من زمن مبكر وتصل الى مناصب تستطيع منها أن تطور شبكة قوية من الرعايات الشخصية لكل من حولها • فأما الذين حاربوا مع رجال المقاومة الشيوعية (البارتيزان) ، فكان فى امكانهم أن يتوقعوا المشاركة فى ثمار مكاسب القوة والسلطة مع تيتو ، طوال المدة الباقية من حياتهم • وقد عبرت احدى النكات اليوغوسلافية عن تلك المسألة على الوجه التالى : « ما الفرق بين يوغوسلافيا والولايات المتحدة ؟ » ، الاجابة : « أنت فى الولايات المتحدة تشتغل أربعين عاما ثم تصبح رئيسا أربعة أعوام ، أما فى يوغوسلافيا فانك تحارب أربع سنوات ثم تظل رئيسا لمدة أربعين عاما » • كانت أسرة بوزرداك أبرز مثل على ذلك فى البوسنة : وذلك نظرا لأن أكبر الأخوة « نورى » انضم الى تيتو فى ١٩٤١ وعندئذ ضمن المستقبل السياسى للعائلة بأسرها • كما أن الزعيم السياسى الصربى الأقدر فى أثناء السبعينيات والثمانينيات ، وهو ميلانكو رينوفيتسا ، كان هو الآخر يتاجر بسجله التاريخى أثناء الحرب ، لأنه كان أحد القلة من الصربيين الموالين لرجال المقاومة الشيوعية (البارتيزان) فى منطقة يغلب عليها طابع الميل الى التشيتنيك •

كان هذا النظام يعمل كأنما هو قطاع متراكب من الدوقيات القروسطية ، وبين راحتيه شباك متدلية من النفوذ والسلطان يشمل بها هؤلاء الأفراد المتميزين بالرضا والقبول أثناء جميع أدوار حياتهم ، شأن أى نظام آخر من الرعاية ، كان هذا النظام يستطيع أن يمنح المساعدة والرفعة والترقية لمن يستحقون ذلك من الأفراد ، ولكن النظام بأكمله كان فاسدا • كما أنه كان يدفع بالبلاد الى الركود ، وذلك نظرا لأن الجيل الذى خاض القتال فى الحرب قد تخطى سن المعاش والتقاعد • وبرز جيل جديد شق طريقه الى أعلى فى ذلك الهرم الأشم ، وأخذ يناور لبلوغ السلطة والقوة ، وهنا سهل عليهم الركود والأسن السياسى العام والاضمحلال الاقتصادى أن يلتمسوا الأوناش التى يستطيعون بها ازالة من يقفون فوقهم فى الطريق • وكان الاحساس بخيبة الأمل عند اليوغوسلافيين العاديين عاما وشائعا بين الناس جميعا • وكان هذا عند الكثير منهم يتخذ شكل الانسحاب من كل نوع من أنواع الحياة السياسية• وفى مؤتمر ١٩٨٧ لعصبة البوسنيين الشيوعية ، برزت الشكوى من النظام، وكان هناك « جنوح متزايد من الشباب الى اظهار السلبية ، وعدم المبالاة

والحياد اظهارا وعكسا لعدم رضائهـــم عن الأحوال الجارية » (٤٥) ٠ ومع انهيار الاقتصاد ظهرت انفعالات أو عواطف أخرى فى مناطق مختلفة من البوسنة ٠

وفى يوليو ١٩٨٨ ، تظاهر الآلاف من عمال المصانع فى بلجراد ، احتجاجا على اجراءات حكومة ميكوليتش التقشفية ٠ وحدثت بعد ذلك فى أثناء الصيف مظاهرات ضخمة جدا احتجاجا على كبار رجال الحزب المحليين فى فويفودينا والجبل الأسود ، حتى انتهى الأمر فى النهاية الى استقالة المكاتب السياسية بأكملها بكل من الاقليمين فى أكتـوبر ١٩٨٨ و ١٩٨٩ على التعاقب ٠ والذى دبر هذا الضغط الشعبى وأحكم تنظيمه هو الزعيم الجديد للشيوعيين الصربيين ، ســـلوبودان ميلوشيفيتش ، الذى تمكن آنئذ من تعيين أعوانه فى المكاتب السياسية ٠ والذى فعله ميلوشيفيتش هو أنه استغل التذمر الحقيقى الذى كان يملأ نفوس الناس العاديين من أبناء فويفودينا والجبل الأسود ــ الذى تولد من خيبة الأمل فى النظام الشيوعى بأكمله ــ واستخدمه لمنافعه الخاصــة ٠ وكان فى الحين نفسه يضغط ضغطا شديدا على المسئولين الشيوعيين فى كوسوفو ، بقصد تحويلهم من المعارضة الى التبعية له ، والواقع أن مقاومة الألبان المحليين لذلك الضغط الصادر من بلجـــراد ســهل عليه أن يصور العمليات فى صورة معان وطنية وقومية ، فزعم بأنها دفاع عن المصالح القومية الصربية ضد الألبانيين المتقلبين الغادرين ٠ وفى مارس ١٩٨٩ ، أقرت الجمعيــة الصربية ، بناء على طلبه ، تعديلات دستورية ألغت الاستقلال الذاتى لكل من كوسوفو وفويفودينا : وأثار هذا التصرف مظاهرات حاشدة واضرابا عاما فى كوسوفو ، فأخمدتها قوات الأمن الصربية (٤٦) ٠ والآن أصبحت جميع أجزاء لعبة الألغاز فى مكانها الصحيح ٠ وقد حل فى بلجراد سياسى طموح تعلم طرائق سياسات القوة وشق طريقه الى أعلى فى جسم النظام كله ، وكان هناك بالفعل شعور عام بالقلق والاســتياء والتذمر ، جعل الناس يحنون حنينا شديدا الى قيادة حاسمة ، كما أن أيديولوجية القومية الصربية ، التى طالت بها خيبة الأمل والاحباط ، أخذت تجد لها الآن تعبيرا عنها فى سياسة « أرجعت » فويفودينا وكوسوفو الى السيطرة الصربية ٠ وبدا الأمر كأن هناك طريقتين قد صهرتا احداهما فى الأخـرى فأصبحتا شيئا واحـــدا : جمع السلطة كلهـــا فى يدى ميلوشيفيتش ، وتجميع الصربيين فى وحدة سياسية واحدة تستطيع اما أن تتسلط وتسيطر على يوغوسلافيا أو تمزقها اربا ٠

الفصل الخامس عشر

البوسنة ومنية يوغوسلافيا
١٩٨٨ ـ ١٩٩٢

في اليوم الثامن والعشرين من يوليو ١٩٨٩ اجتمعت عدة مئات الألوف من الصربيين بموقع معركة جازيمستان خارج مدينة برشتينا عاصمة كوسوفو للاحتفال بالعيد الستمائة لمعركة كوسوفو (١) • وقبل ذلك بعدة أسابيع جرت عملية لاستثارة الشعور القومي في صربيا ، فاستخرجت عظام الأمير لازار الذى لقى مصرعه في المعركة ، وداروا بها دورة كاملة بكل أرجاء البلاد ، حيث أصبحت محجا للناس جميعا حيثما كانت • وفي حوش دير جراتشانيكا (جنوب برشتينا) ، بينما كان الناس يحتشدون لتقديم ولائهم وحبهم لعظام الأمير في الداخل ، كانت الأكشاك تبيع أيقونات الصور ليسوع المسيح والأمير لازار وسلوبودان ميلوشيفيتش ، وفي الاحتفال الذى أقيم بموقع المعركة اصطحب ميلوشيفيتش معه مطارنة من الكنيسة الأرثوذكسية في مسوحهم السوداء ، ومغنين يرتدون الملابس الشعبية الصربية التقليدية ، وأفراد من شرطة الأمن في ملبسهم التقليدي وهو البدلة السوداء والنظارات الشمسية ، وصاح ميلوشيفيتش وهو يخطب في جماهيره : « اليوم وبعد قرون ستة عدنا ثانية ننشغل بالمشاجرات ، ورغم أنها ليست معارك مسلحة لكننا لانستطيع أن نتجنب ذلك حتى الآن » (٢) • وزأر الجمهور كله بالاستحسان والموافقة •

ولم يكن ذلك الا نقطة تحول رمزية في تاريخ البلاد اليوغوسلافية • فقد حقق ميلوشفيتش الآن الشيء الكثير مما أراد • وقد حصل على مكانة ببلاد الصرب لا سبيل الى تحديها ، مكانة شخصية عن طريق خليط من الشيوعية والبلاغة القومية الوطنية • ولذلك أصبح الآن يسيطر في الحكومة الفيدرالية على أربعة أصوات من ثمانية : هي صربيا وفويفودينا وكوسوفو والجبل الأسود • ولم يبق عليه الا أن ينزل مقدونيا الى مستوى

التبعية ، لكي يتيسر له أن يفعل ما يشاء مع الحكومة الفيدرالية ، وعندئذ يمكن اعادة كتابة الدستور الفيدرالى ، لكى يثبت دعائم هيمنة الصرب وسيطرتهم ٠

ومع هذا ، فان نفس العملية التي اجتذبته الى هذه النقطة جعلت من غير المحتمل أن أجزاء يوغوسلافيا التى لم يتمكن من السيطرة عليها ستخضع أبدا لمثل هذه الاعادة التنظيمية ٠ فالاحساس القومي الكرواتي الذى كان يغلي بسموم التنمر منذ القضاء على الانتفاضة الكرواتية فى أوليات السبعينيات لدغ لدغة دفعته الى الحركة والفعل ازاء انعاش تلك القومية الصربية في منتصف الثمانينيات ٠ فان ميلوشيفيتش لم يقتصر فقط على انهاء ذلك الحظر المفروض على أشكال معينة من الانتقادات الموجهة للكروات ، بل انه شجعها تشجيعا ايجابيا بحيث ان الاعلام الصربى الرسمى أصبح الآن على العموم يشير الى زعيم الشيوعيين الكروات ايفيكا راتشان على أنه « أوستاشا » اى من الحركة الوطنية الارهابية المتطرفة للكروات (٣) ٠ ومن ثم عادت جميع المواجع الكرواتية القديمة فطفت الى السطح ثانية ، وفي هذا الجو الجديد الذى تحطمت فيه المحرمات حول الحرب العالمية الثانية ، شرع الكثيرون يحسون بالنفور من الربط الأوتوماتيكي للكروات بالأوستاشا ، وتلك الكتابات التاريخية الرسمية التى بالغت بسذاجة فى الأعداد الكلية لمن قتلوا فى كرواتيا أثناء الحرب ٠ وكانت النتيجة هي ظهور كتابات تدافع عن القومية الكرواتية بل وعن الأوستاشا فيما بعد ، وكان من مؤلفيها عضو المقاومة الشيوعية البارتيزان القديم ، الجنرال السابق فى الجيش اليوغوسلافى فرانيو توجمان ، الذي كان يريد أن يميز بين الآمال القديمة التى كانت تراود الكروات فى الاستقلال عن بلجراد وفصلها عن تاريخ الأوستاشا الذى أصبح تهمة لصيقة بهم ٠ وبغض النظر عن جميع المجادلات التاريخية ، كانت هناك مخاوف من المستقبل أيضا ، كتلك التى تمخض عنها فكر دوبريكا تشوشيتش فى يوليو ١٩٨٩ عندما أخبر أحد الصحفيين الذى كان يحادثه أن شطرا كبيرا من كرواتيا ينبغى « التخلى عنه الى جمهورية أخرى » (٤) ٠

وفى الحين نفسه عمدت أشد الجمهوريات تأثرا بالطابع الغربى راستقلالا فكريا وهى جمهورية سلوفينيا ، الى اعداد الترتيبات للوقاية من المراحل التالية من الضربة أو الانقلابة الدستورية المتمهلة التى يدبرها ميلوشيفيتش ٠ ففى سبتمبر وأكتوبر ١٩٨٩ وضعت مشروع دستور سلوفيني جديد ، ومررته قانونيا ، فكأنها أعطت لنفسها ولاية تشريعية ـ

أو بمعنى آخر أنها قالت ان قوانينها الخاصة سوف تكون لها الأسبقية على قوانين الدولة الفيدرالية مع اعلانهــا صراحة حقها في الانفصال (٥) ·
وبينما ذلك كله يجرى كان الانهيار الدرامى للدولة الشيوعية الكبرى فى شرق أوربا يملأ شاشات التليفزيون ليلة بعد أخرى · ولذا فان الخيط الرفيع من الأحزاب السياســية المستقلة ، التى بدأت فى التكون فى يوغوسلافيا فى ١٩٨٨ أصبح الآن فيضا جارفا · وفى ينــاير ١٩٩٠ خرج الشيوعيون السلوفينيون من مؤتمـــر الحزب الشيوعى اليوغوسلافى ، وبعد ذلك بأسبوعين أطلقوا على أنفسهم اسم حزب التجديد الديمقراطى ، واعدت كل من سلوفينيا وكرواتيا الترتيبات لانتخابات تجرى فى ربيع ١٩٩٠ : وفاز بهذه الانتخابات فى الجمهورية الأولى ائتلاف قومى ليبرالى وفى الثانيـــة فاز الحلف الوطنى الكرواتى الجديد « الرجـــال الجدد الكرواتيون الديمقراطيون » بزعامة فرانيو توجمان ·

وكذلك غير ميلوشيفيتش اسم حزبه : فأسماه « الحزب الاشتراكى الصربى » ، ثم أخذ يتحدث عن اجراء انتخابات متعددة الأحزاب بصربيا · ثم أجلت هذه الانتخابات حتى نهاية العام : وربما ألم بمليوشفيتش شىء من التزعزع بســـبب انخفاض شـــعبيته لفترة فى النصـــف الأول من ١٩٩٠ ، وربما كان يود أن ينتظر حتى تحـل أزمة وطنيـة ، عسى أن يستطيع أن يعـــاود دوره بوصـــفه « المنقذ » لصربيـــا · ولما كان يملك الاذاعة والتليفزيون الصربيين ، ويضعهما تحت سيطرة محكمة ، فليس هناك الا الخطر الضئيل فى فقدانه الانتخابات الجيدة التخطيط · ولكن أمست الحاجة واضحة فى النصف الأول من ١٩٩٠ الى أن « يحدث » (بتشديد وكسر الدال) استراتيجيته ويصبغها بالعصرية ، فحتى الآن ظل يواصل هدفه الأثير الأول : وهو الوصول الى السيطرة على يوغوسلافيا عن طريق الهياكل الموجودة للحزب الشيوعى والحكومة الفيدرالية · بيد أن هذا الاختيار قد أفلت من قبضته بسبب تفكك الحزب الشيوعى والتقسيم « الرأسى » للسياسات اليوغوسلافية الى مجموعة من الأحزاب القومية بين الجمهوريات المختلفة · غير أن ذلك خلى بينه وبين اختياره الثانى : فان لم يمكنه السيطرة على يوغوسلافيا كملكية منفردة فانه سيشكل منهـا كيانا جديدا ، يكون قطـرا صربيـا موسعا ، بصير له وله حده · وقضى رجال السياسة فى سلوفينيا وكرواتيـا شـطرا كبيرا من ١٩٩٠ وهم يترافعون ويتحاجون فى طلب اتفـاق سلمى يقوم على المفاوضـة لنقل نظـام يحول يوغوسلافيا من دولة فيدرالـيـــة الى دولة كونفيدرالية ـ وأعنى بذلك أن تتحول من دولة يكون فيها القانون الفيدرالى والمؤسسات الفيدرالية هو الأساس، الى دولة تكون فيها الجمهوريات هى التى تمسك بقبضتها بالسلطة

الحقيقية ، بينما المؤسسات الفيدراليـة لا تقوم ببساطة الا بدور وكالات الربط والتنسيق • ولكن ميلوشيفيتش لم يبد أى اهتمام بتلك الخطط •

وجاءت أولى العلامات الواضحة على استراتيجية ميلوشيفيتش بمنطقة كنين (Knin) في كرواتيا وهى جزء من الحد العسكرى القديم بمنطقة « كراينا » التى بها غالبية السكان من الصرب • واستعدادا للانتخابات الكرواتية فى أبريل ١٩٩٠ نظم هؤلاء الصرب أنفسهم فيما أسموه « حزب الصرب الديمقراطى » ، والراجح أن ميلوشيفيتش شعر منذ البداية بشىء من الاهتمام بهذا التطور ، ولكن يبدو أنه كان بمبادرة محلية ، تعبيرا عن مخاوف الصرب المحليين من أن يفقدوا هويتهم الثقافية فى كرواتيا الوطنية الجديدة • وراح بعض أعضـاء الحزب الأكثر تطرفا ، فى ترديد أصـداء الدعاية الصادرة من بلجراد ، يصرحون بأنهم اضطروا للدفاع عن أنفسهم ضد « دولة الأوستاشا » ــ وهى اشارة تجىء فى المقام الأول الى الراية الكرواتية الشبيهة بمربعات لوحة الشطرنج ، التى كانت بالفعـل رمزا للأوستاشا ومع هذا ، فقد كانت أيضا الراية الوطنية الكرواتية أمد مئات السنين • وبعد الانتخابات ، عنـدما شرعت الحكومة الجديدة فى طـرد الموظفين الشيوعيين من مناصبهم ، علت الصيحة بأن الصرب انما يطردون من أعمالهم زمرا • ولما كانت نسـبة الصرب العاملين فى الجهاز الحكومى بكرواتيـا تفوق نسبتهم الحقيقية فى عدد السكان (ويشكلون ما يقارب ٤٠ ٪ من أعضاء الحزب الشيوعى و ٦٧٪ من قوة الشرطة) ، فلم يكن بد من أن يظهروا فى عمليات الفصل بصورة غير متناسبة اطلاقا ، ولا شك فى أنه حدثت بعض المحاولات الجائرة لتصفية الأحقاد القديمة أيضا •

ومع هذا ، فانه حـــدث فى صيف ١٩٩٠ أن رأس حزب الصرب الديمقراطى فى كنين زعيم متطرف يبـدو أنه كان على اتصـــال وثيق مع ميلوشيفيتش • وعقد استفتاء محلى فى أغسطس على « الاستقلال الذاتى » للصرب ، حيث خرج الصرب فى تحد للحكومة الكرواتية التى اعتبرته غير قانونى ، وبدأ جند ميليشيا صربيون مسلحون يظهـــرون فى شـوارع كنين ، وكان يسـاعدهم ضباط من حاميـــة الجيش الفيدرالى (وكان قائدهم العام الجنرال راتكو ملاديتش (Ratko Mladic) ، وحـــاولت السلطات الكرواتية أن تصادر امدادات الأسلحة الخاصـــة بوحـدات الاحتياط فى البوليس المحلى ، وعندئذ عمد الصرب ، وقد أبلغهم زعماؤهم ووسائل الاعلام فى بلجراد بأن « الأوســـتاشا » يخططون ليذبحوهم ، لطلب الحماية من الجيش الفيدرالى • وحدثت قلاقل شديدة ، وأطلقت النار على رجال الشرطة الكرواتية • وفى يناير ١٩٩١ كان زعماء الصرب

المحليين يصفون المنطقة بأنها منطقة « كرايينا الصربية المستقلة ذاتيا » ، وأخذوا يشكلون « برلمانهم » الخاص • وبعد ذلك بشهرين حاول مسلحون من كرايينا أن يستولوا على حديقة بلينفيس القومية ، وهي أهم مكان يقصده السياح في داخل كرواتيا : وكان هذا يعد تحديا مباشرا ومتعمدا للحكومة الكرواتية • وحدث اطلاق نار مع الشرطة الكرواتيـة ، وعندئذ أمرت القيادة الفيدرالية قوات الجيش (رغم اعتراضات كرواتيا القوية) باحتلال الحديقة « لاعادة السلم والنظام الى نصابه » (٦)

وهذه الأحداث التي حدثت في الجانب الآخر من حدود البوسـنة الشمالية الغربية جديرة بأن ينظر اليها في شيء من التفصيل ، لأنها تشكل « مسودة » لما تم فعله في البوسنة ذاتها فيما بعد • فقد اتبعت هنا ثلاثة أساليب ، كان الأول منها هو تعبئة الأهالي الصرب بسلسلة متواصلة من الأكاذيب والاشاعات وبث الرعب والخوف في قلوبهم من خلال وسـائل الاعلام السياسيين المحليين : فكل عمـل تقوم به حكومة توجمان يعرض على الناس في صورة عمل ارهابي « للأوستاشا » • (وينبغي لنا أن نوضح أن بعض اجراءات الحكومة الكرواتية كان فيها شيء قليل من الغلظة ، مثل اصدار الأمر بحذف علامات للطريق بالحروف السيريليكية ، بينما أخذت الحكومة البوسنية تتراجع لاستمالة الصرب من سكانها) • والطريقة الثانية كانت أسلوبا نموذجيـا يمكن العثور عليـه في الكتب والمراجع الخاصة بحرب العصابات : وهو أسلوب « تعريض القرى للخطر » ، مثل الذي كانت تستعمله المقاومة الفرنسية والفييت كونج وما لايمكننا حصره من حركات حرب العصابات الأخرى • وكان هذا الأسـلوب يعتمـد على اصطناع حادثة ــ مثل اطلاق النار على عربة شرطة خارج قرية معينة حتى يداهمها رجال الشرطة ، ثم توزيع الأسلحة على السكان ، وتحذيرهم من أن الشرطة تخطط للهجوم عليهـم • وعندما تصل الشرطة المسرح فعلا ، يكون من السهل نشوب معركة ، وبذلك تصبح قرية بأكملها ، وهي بريئة في السابق تماما من كل ذلك ، منضمة تمـاما الى جـانب الثـوار • أما الأسلوب الثالث فكان حيلة بسيطة ، بل كان حيلة مكشوفة الى أقصى حد : وهي اثارة أعمال عنف ثم طلب تدخـل الجيش بوصـفه حكمـا غير متحيز ، بينما كان من الواضح تماما ، أنه انما كان في الحقيقة يعمل لصالح ميلوشيفيتش والصرب ، نظرا لولائه لبلجـراد وهيمنـة القيـادات الصربية عليه •

وهذا الاستقطاع من الرقعة الكرواتية ، الذي بدأ قبل سنة من اعلان الكرواتيين استقلالهم في يوليو ١٩٩١ ، كان يعتمد الى أقصى حـد على

ادعاء أن الصرب في كرواتيا كان يتهددهم نظام « الأوستاشا » • فأما في البوسنة فلم تكن هناك امكانية لجعل مثل هذا الادعاء يبدو مقبولا ، ومن ثم وجب أن يبتدع نوع آخر مخالف من التهديد للصرب ، فبدلا من التلويح بخطر « الأوستاشا » حذروا الصرب البوسنيين من خطـــر الأصوليـــة الاسلامية • ومن الضروري لنا الآن أن ننظر نظرة موجزة الى كيف أن امكانية هذا الادعاء نشأت وكيف كانت زائفة كاذبة •

ففي البوسنة كما في معظـم الجمهوريات الاخـــرى كان الحزب الشيوعي قد انحلت عراه في أوائل ١٩٩٠ ، وتشكلت مكانه مجموعة من الوطنيين أو الأحزاب الوطنية • ومنذ عام ١٩٨٩ فصاعدا كانت القوميات المجاورة في كل من صربيا وكرواتيا قد أصبحتا وجودين مخيفين ، ولم تكن تخفي عن الأعين الطموحات الكبرى لميلوشـيفيتش وتوجمـــان • اذ كان ميلوشيفيتش داعية صريحا لمشروعات الجامعة الصربية السياسية التي وضعها تشوسيتش والأكاديمية الصربية ، وكان توجمان مؤمنا بأن معظم المسلمين البوسنيين « من أصـل كرواتي » ، وأن البوسنة وكرواتيا تشكلان كيانا جغرافيا واقتصاديا لا سبيل الى تقسيمه » (٧) • وفي خريف وشـــتاء ١٩٨٩ أخذ كبار الموظفين البوسنيين يبدون مخاوفهم من أنه سيجيء الوقت الذي تضطر فيه كل من صربيا وكرواتيا الى أن تعيدا فيه رسم الخريطة ، وفي مارس ١٩٩٠ اجتمع مجلسا الجمعية الوطنية البوسنية في دور انعقاد مشترك للتنديد بفكرة ادخال أي تغيير على حدود البوسنة • ومع ذلك ، فان الموقف لم يكن متعادلا بين الصرب والكروات • وكان هناك احساس واضح بأن ميلوشيفيتش هو الذي كان يقود التيـار ، وكانت السـياسة الرسمية لحزب الاتحاد الديمقراطي الكرواتي تعارض تماما فكرة ادخال تغييرات على الحدود ــ وذلك نظرا لمعرفتها بأنه متى سـمح بدخـول هذه الفكرة ، فستكون حدود كرواتيـا أول من تقاسي • ولكن الدعاية المدوية التي أخذت تروج لهـا بلجـراد ، حول « تعريض الصرب في البوســـنة للخطر » ، والتي بدأت آنفا في صيف ١٩٨٩ ، كان من شأنها أن جمعت كلا من البوسنيين الكروات والمسلمين في صف واحد وجعلت الصرب في الصف المضاد • ولما تأسس حزب كرواتي في البوسنة في بواكير ١٩٩٠ ، فانه لم يكن الا فسيلة نبتت من شجرة حزب توجمان الاتحاد الديمقراطي الكرواتي ، وكانت سياسته الرسمية المعلنة هي الاحتفاظ بتخوم البوسنة سليمة لا يمسها سوء • على أنه عندما أسس حزب صربي في البوسنة في يوليو من تلك السنة ، أسمى نفسه الحزب الديمقراطي الصربي ــ وهو نفس الاسم الذي كان يدعو « للاستقلال الذاتي » في كرايينا الكرواتيـة والذي كان على أهبة التمرد الصريح (٨) •

وفى مايو ١٩٩٠ تأسس الحزب البوسنى المسلم الرئيسى الذى أسمى نفسه « حزب الحركة الديمقراطية » ، وكان زعيمه هو على عزت بيجوفيتش ، الذى أطلق سراحه فى عام ١٩٨٨ · ولما كان المتهم الرئيسى فى أشهر محاكمة جرت فى ذلك العقد ، فانه كان المرشح والمختار الطبيعى لحزب البوسنة الاسلامى الأول ـ فيما بعد الشيوعية ـ « اللاشيوعى » · (والواقع أنه عندما أصبح فى النهاية رئيسا للحكومة البوسنية ، فانه كان الوحيد من بين رؤساء الحكومات فيما بعد الشيوعية فى أى من الجمهوريات اليوغوسلافية ، الذى لم يكن أبدا مسئولا فى الحكومات الشيوعية السابقة) · والآن وقد وضع مسلمو البوسنة بين المطرقة والسندان للقومية الصربية والكرواتية ، فانهم تصرفوا بطريقتين مختلفتين : فانهم قوروا قوميتهم المسلمة بالتركيز على أكثر السمات المميزة لهويتهم وهو المقوم الدينى فيها · كما أكدوا أنهم يؤيدون الاحتفاظ بطابع التميز للبوسنة بوصفها جمهورية متعددة القوميات والأديان · وتم التعبير عن العنصر الدينى فى ذلك الرمز العام لحزب الحركة الديمقراطية براياته الخضراء ذات الأهلة ، أما العنصر التعددى فقد تم التعبير عنه فى برامجه ومناهجه · وبالطبع تصادم هذان العنصران ففى سبتمبر ١٩٩٠ قبل اجراء الانتخابات البوسنية بثلاثة أشهر ، عندما انشق من حزب الحركة الديمقراطية ، المليونير العائد من الخارج عادل ذو الفقار باشيتش، ليؤسس حزبه الخاص وهو « المنظمة المسلمة البوسنية » ، وهو حزب له برنامج غير دينى واضح ومقصود · وعلى الرغم من التسمية الصريحة الدلالة لحزبه الجديد فان ذا الفقار باشيتش كان يحاول أن يضع أسس سياسات جديدة للبوسنة تبعدها عن الطائفية ، يصوت فيها الناس باختيارهم التام على برامج سياسية (ليبرالية أو اشتراكية أو أى شىء آخر) وليس لمجرد التصويت لابراز هويتهم القومية · وكان هذا ـ كما أوضح ذلك على عزت بيجوفيتش نفسه ـ طموحا غير واقعى فى ذلك الوقت · حيث كاشف أحد الصحفيين بقوله :

لقد خلق الشيوعيون بما أنزلوه بالناس من المظالم هذا التطلع الى التعبير عن هويتهم الدينية أو القومية ، ولعلنا نستطيع فى مدى أربع سنوات أو خمس أن نعبر حقل الألغام الى آفاق المجتمع المدنى العادى · أما الآن ، لسوء الحظ ، فلا مفر أمام حزبنا من أن يكون طائفيا · فالأحزاب التى تحاول أن تمثل كل انسان وكل فرد صغيرة وضعيفة · وهناك خطر حقيقى من نشوب حرب أهلية هنا ، وهدفنا الأساسى كحزب هو أن نحافظ على تجمع البوسنة والهرسك معا (٩) ·

ولكن عزت بيجوفيتش كان بطبيعة الحال متطابقـا شخصيا مع العنصر الديني « للهوية الدينية أو القومية » . فالرسالة التى استخدمت أساسا للتهم الموجهة اليه فى عام ١٩٨٣ ، وهى « الإعلان الاسلامى » ، أعيد طبعها في سراييفو في عام ١٩٩٠ . وربما ظن بعض القراء أن نشر الاعلان كان نوعا من البيان الشخصى والدعاية للانتخابات البوسـنية ، على أنه كثيرا ما كان يقدم على يد أرباب الدعاية الصربية على أنه مسودة لتحويل البوسنة الى دولة اسلامية أصولية . رغم أنه لم يكن يحوى خطة من هذا النـوع .

فهذه الرسالة المكتوبة فى الستينيات ، انمـا هى بحث عـام فى السياسة والاسلام موجهة الى العالم الاسلامى قاطبة ، وهى لاتدور حول البوسنة بل انها حتى لم تذكر اسم البوسنة أبدا . ويبدأ عزت بيجوفيتش بعنصرين أساسيين هما المجتمع الاسلامى والحكومة الاسلامية . والحكومة الاسلامية كما قال : « لا يمكن ادخالها ما لم يكن هناك من قبلها مجتمع اسلامى ، وهذا المجتمع الاسلامي لا يمـكن أن يقوم الا اذا كانت الغالبية الساحقة المطلقة من المسلمين الصادقين المخلصين المتمسكين بدينهم . وبدون هذه الغالبية يتحول النظام الاسلامي الي مجرد سلطة (لأن العنصر الثاني وهو المجتمع الاسلامى ، غير موجود) ، وفى الامكان أن يتحول الى حكم استبدادى طاغ » (١٠) . وهذا الشرط كان يلغى انشـاء حكومة اسلامية فى البوسنة ، حيث كان المسلمون أقلية ـ سواء المسلمون منهم بالاسـم ، أو المتدينون منهـم . ومن ثم تغدو طبيعة النظـام السياسى الاسلامى ، وهو موضوع الرسالة ، غير ممكنة التطبيق على البوسـنة أيضا . وعندما يقول عزت بيجوفيتش مثلا (وهى جملة طالما رددها أيضا أنصار الدعاية الصربية على طريقة « ولا تقربوا الصلاة ») ، انه « لا سلام ولا تعايش بين العقيدة الاسلامية وبين المؤسسات الاجتماعية والسياسية غير الاسلامية » ، فهو انما يشير الى دول ، على العكس من البوسنة ، يسود فيها المجتمع الاسلامى ، ويدفع بأنه حيثما كانت الغالبية من السكان من المسلمين الصادقى الايمان ، فانهم لايستطيعون أن يقبلوا أن تفرض عليهم مؤسسات غير اسلامية (١١) . وليست هناك الا فقرة واحدة فى الرسالة بأكملها تنطبق بطريق مباشر على الوضع السياسى لمسلمى البوسـنة : « أن الأقليات الاسلامية فى داخـل مجتمعات غير اسـلامية ، تكن الولاء نحو تلك المجتمعات وتلتزم بما يلتزم به أفرادها الا ما يؤذى الاسـلام والمسلمين مادام هناك ضمان بحرية العقيدة وبالحيـاة السـوية والتطور الطبيعى » (١٢) .

وبعض الحجج الواردة في هذه الرسالة ، التي وصفت بأنها « أصولية » ، انما هي بسط للعقيدة السنية السوية التي لابد لكل مسلم مخلص أن يوافقها • وهكذا يكتب عزت بيجوفيتش : « ان دولة إسلامية لابد لها من أن تمنع شرب الخمر والاباحية والبغاء » ، وهو يدفع بأن الاسلام ليس مجرد مجموعة من المعتقدات الخاصة ولكنه أسلوب حياة كامل له أيضا أبعاد اجتماعية وسياسية ، كما أنه يصر على أن الأخوة العامة بين المسلمين المؤمنين في جميع أرجاء العالم أي « الأمة الاسلامية » تعلو فوق كل حدود قومية (١٣) • وليس في هذه النقاط نقطة واحدة يمكن وصفها بأنها أصولية متعصبة • ونفس مصطلح « الأصولية » كلمة فضفاضة تسمح بانطباعات عدة : وهو مصطلح لا يستخدمه كثيرا علماء الاسلام ، عندما يحاولون التمييز بين أنواع الحركات الاسلامية المختلفة من المحافظة الحديثة والراديكالية والمضادة للعصرية التي تتراوح بين المذهب الوهابي التقليدى الاتجاه والأيديولوجية الثورية لايران آية الله الخوميني (١٤) • وبدلا من ذلك فان مصطلح « الأصولية » انما يستخدمه بصفة رئيسية رجال السياسة والصحافة ليحشروا فيها عددا من الخصائص بعضها فوق بعض • ومن بينها التطرف السياسي ، وهو الاعتقاد بأن الغاية من انشاء الدولة أو السلطة الاسلامية تبرز استخدام أية وسيلة وكل وسيلة • ويرفض عزت بيجوفيتش هذا الاعتقاد صراحا وجهارا ، ويهاجم فكرة الاستيلاء على السلطة بغية خلق مجتمع اسلامي من أعلى • والنقطة الرئيسية في حججه هي أن : في الامكان خلق مجتمع اسلامي (بين سكان تكون غالبيتهم ، على الأقل ، من المسلمين اسما) وذلك فقط عن طريق عملية طويلة من التربية الدينية والاقناع الأخلاقي (١٥) •

وهناك سمة مميزة أخرى لمصطلح « الأصولية » الفضفاض وهي ابداء عداء سياسي وثقافي شرس نحو الغرب • ولم يفت عزت بيجوفيتش أن ينتقد ما أحدثه أتاتورك من علمنة في تركيا ، وهو أمر يرى فيه أنه أسس على افتراض أن كل شيء اسلامي كان من الناحية الثقافية رجعيا وبدائيا ، كما أنه يهاجم بشدة « دعاة الاستغراب والتحديث التقدميين » ، وهم الذين يطبقون سياسة مشابهة لهذه بأمكنة أخرى من العالم الاسلامي (١٦) • على أنه مما لا شك فيه أن موقفه العام في هذه الرسالة لا يتضمن بتة نبذ الحضارة الغربية بأية حال • فانه كتب يقول : • ان الاسلام منذ ابتداء تأسيسه تولى دون أدنى تحامل ، عملية كبيرة هي دراسة وتجميع تراث المعرفة الذى ورثه من الحضارات الأقدم منه • ولذا ، فلسنا نرى لماذا يتخذ الاسلام اليوم موقفا مخالفا لمنجزات الحضارة الأوروأمريكية ، التي هو على اتصال عريض جدا بها (١٧) • ولم تلبث وجهات نظر عزت بيجوفيتش

فى هذه المسائل أن عرضت بايفـاء أكبر فى كتـاب أطول وأهم ، ألفه فى أوليات الثمانينيـات ، وسـماه « الاسـلام بـين الشرق والغـرب Islam Between East and West » وفيه حاول أن يقدم الاسلام على أنه نوع من الترابط الروحانى والذهنى والفكرى ، يضم بين دفتيه كل القيم السائدة فى أوربا الغربيـة • ويحتوى الكتاب على صفحات شديدة البلاغة فى اطراء فن عصر النهضة (شاملا التصوير) والأدب الغربى الأوربى ، وهو يصف المسيحية بأنها « شـبه اتحـاد بين السمو الدينى والسمو الأخلاقى » ، كما أنه يحتوى أيضا على فصل خـاص يطرى فيه الفلسفة والثقافة الأنجلوساكسونيـة ، ويثنى على التقاليـد الاجتماعيـة ـ الديمقراطيـة (١٨) • وما من شـك فى أن أصوليـا كان يستطيع أن يكتب هذا •

وعندى أن الحديث عن تهديد بقيام الأصولية فى البوسنة كان على كل حال غير صحيح بصفة خاصة ، وذلك لأن المسلمين البوسنيين كانوا عند تلك اللحظة من بين أشد الأمم المتطبعة بطابع علمانى فى العالم كافة • نعم ان محاولات صغيرة الحجم ومتباعدة لاثارة الاضطرابات الأصولية فى البوسنة ، قد حدثت دون أدنى ريب فى ثمانينات القرن العشرين : فان تقريرا صدر فى صحيفة متطرفة مقرها فى لندن يعلن بفخر وكبرياء أن هذا الاضطراب قد « أشـعل جـذوة الاسـلام وألهـم مئات من المسلمين البوسنيين » (١٩) • ولكن المتعصبين ، حتى وان كانوا بالمئات ، لايمكن أن يكون لهم الا أدنى تأثير على مجموعة من السكان يربو عددهم على مليونين من المسلمين ، أغلبهم لا يرى فى الاسلام سوى نوع من الثقافة والتقاليد الموروثة • وقد أجرى استقصاء فى ١٩٨٥ بين أن نسبة المؤمنين يبلغ ١٧٪ فى البوسنة (٢٠) • ولا ننسى أن عقودا متعـددة من التعليـم والثقافة الشيوعية السياسية دعمت بشدة ذلك الاتجاه • ومن العوامل ذات الأثر أيضا ذلك التحضر النامى الذى حدث للبوسنة ، وان جاء متباطئا الى حد ما فى بداية الأمر ، ففى الثمانينيات كانت ٣٠٪ من الزيجات فى مناطق الحضر « زيجـات مخلطة » بين دينين • وفى كثير من المناطق الريفيـة المسلمة ولدى الأغلبية الساحقة من سكان المدن ، أصبح معنى كلمة مسلم يدل بطريقة مبسطة جدا على مجموعة من التقاليد الثقافية : « الأسماء الاسلامية والختان والبقلاوة والاحتفال بشهر رمضان وعيد الفطر ، ودعوة اشبين ليقص شعر الطفل متى بلغ السنة الأولى ، وشرب القهوة فى أقداح صغيرة بلا آذان والشفقة على العناكب ، وغير ذلك من مختلف الممارسات التقليدية ، التى كثيرا ما يكون الأصل فيها مجهولا لمن يمارسونها » (٢١) • وبدهى أن برنامجا « أصوليا » ما كان يمكن على الاطلاق أن يتبناه أى حزب يكون عليه أولا أن يحصل على أصوات هؤلاء المسلمين اسما ، ثم يعود بعد

ذلك لينشىء تحالفا مع واحد على الأقل من الحزبين القوميين الآخرين فى البلاد ٠

وعندما أحصيت الأصوات توطئـة لانتخابات ١٩٩٠ ، فاز حزب عزت بيجوفيتش بستة وثمانين مقعدا من بين المائتين والأربعين المنتخبين فى المجلس ، كما أن مسلمين آخرين كان من بينهم حزب « ذو الفقار باشيتش » فازوا بثلاثة عشر مقعدا أخرى ٠ أما الحزب الديمقراطى الصربى ، الذى يتزعمه الطبيب النفسى رادوفان كاراديتش (Radovan Karadijic) وأصله من الجبل الأسود) ، فقد فاز باثنين وسبعين مقعدا ٠ وقد دعا فى حملته فى شىء من الغموض الى الدفاع عن حقوق الصربيين ولكنه لم يقل شيئا حول تقسيم البوسنة حتى ولا بالوسائل السلمية ، ناهيك عن الحرب ، ومن ثم فاننا نستطيع أن نستبعد فكرة أن هذه الانتخابات التى هيأت الدكتور كاراديتش بدرجة ما أن يسمى نفسه « زعيم » الصربيين البوسنيين قد أعطته أى سند ديمقراطى لأعماله اللاحقة ٠ (وفى الحقيقة فان كثيرا من الصربيين لم يعطوه أصواتهم ، كما أن المجلس كان به ثلاثة عشر صربيا آخر من غير أعضاء حزبه) ٠ أما حزب الاتحاد الديمقراطى الكرواتى فقد حصل على أربعة وأربعين مقعدا ٠ وفى المجموع الكلى كان هناك ٩٩ مسلما ، و ٨٥ صربيا ، و ٤٩ كرواتيا ، و ٧ « يوغوسلاف » ٠ ولو نظرنا الى هذه النسب (٤١٪ مسلمين ، و ٣٥٪ صربا ، و ٢٠٪ كرواتا) ، لوجدنا أنها تضاهى الى حد ما نسب كل السكان (٤٤٪ ، و ٣١٪ ، و ١٧٪ على الترتيب) (٢٢) ٠ وشكل عزت بيجوفيتش ما كان فى حقيقة الأمر حكومة وحدة قومية ، مكونة من تحالف رسمى بين جميع الأحزاب الكبرى الثلاثة ، وتقاسم الجميع المناصب الوزارية ٠ وكان من دلائل صدق عزت بيجوفيتش وأمانته ، أنه آثر هذا الوضع ، بينما كان يستطيع أن يحكم البلاد بطريق تحالف اسلامى كرواتى ، ولكن أصبح واضحا منذ اللحظة الأولى فى حياة هذه الحكومة أن الحزب الصربى قد وضع جدول أعمال مختلفا تماما ٠

كان الموقف العام فى السياسات اليوغوسلافية عندما تولت حكومة عزت بيجوفيتش زمام الأمور فى نهاية ١٩٩٠ شديد التوتر ٠ ومما زاد الأمور تعقيدا ، أن اشتدت وطأة الكفاح بين صربيا من ناحية وسلوفينيا وكرواتيا من ناحية أخرى ، فى النصف الثانى من السنة الى حد أن صربيا فرضت رسوم استيراد فى أكتوبر على السلع المستوردة من هاتين الجمهوريتين ٠ وكذلك أصبح من الواضح تماما أن ميلوشيفيتش استولى

بجرة قلم على شطر كبير من الموازنة اليوغوسلافية الفيدرالية وأنفقها على صربيا ، وبذلك نسف خطة الاصلاح الاقتصادى التى كان يحاول بهـا أنتـى ماركوفيتش (Atne Markovic) رئيس الوزراء الفيـدرالى التحكم فى التضخم الاقتصادى الصاروخى المتزايد فى البـلاد • وفى ديسمبر ١٩٩٠ عقد السلوفينيون استفتاء مداره : هل تصبح الجمهورية دولة منفصلة وذات استقلال ذاتى ، واشترك فى التصويت أكثر من ٩٠٪ من الناخبين ، وكانت النتيجة ٨٩٪ مؤيدة للاستقلال (٢٣) • وذهب بعض السياسـيين الغربيين فى ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ الى آراء مبهمة أرجعت حـركة سلوفينيا نحو الاستقلال الى « الضغط » الألمانى • ولكن جميع المراقبين المحايدين فى سلوفينيا فى ذلك الوقت ، كانـوا يرون بوضـوح تام أن الضغط الذى كان يجعل الحياة الاقتصـادية والسياسـية للسلوفينيين مستحيلة فى اطار الاتحاد اليوغوسلافى فى أخريات ١٩٩٠ كان آتيا من بلجراد مباشرة •

وفى أوليات ١٩٩١ كان ميلوشيفيتش يقول علنـا انه لو بذلت أية محاولة ليحل محـل البنـاء الفيدرالى ليوغوسلافيـا ترتيب كونفيدرالى فضفاض فانه سيسعى الى ضم مناطق كاملة من كرواتيا والبوسنة • ومع هذا فانه فى الوقت نفسه ، بدلا من أن يدافع عن الوضع القائم الفيدرالى ، أخذ يدمر بالفعل الدستور الفيدرالى • ففى يونيو ١٩٩٠ ألغى من جانب واحد المجلس الاقليمى فى كوسوفو مخفضـا وضـع الاقليم الى أقل من بلدية ، لكنه ظل محتفظا بممثل لحكومة كوسوفو المحلية التى أصبحت غير موجودة آنذاك ، فى الرياسة اليوغوسلافية الفيدرالية • وفى مارس ١٩٩١ وقد أرهبته مظاهرات الطلبة المضادة له فى بلجـراد ، حـاول أن يجبر الرئيس الفيدرالى ، بوريساف جوفيتش (Borisav Juvic)، على أن يعلن حالة الطوارىء فى كل أنحاء البلاد ، وعندما رفض جوفيتش هذا الطلب دبر ميلوشيفيتش استقالته على سبيل التلاعب ، كما طرد بالقوة ممثلى الجبل الأسود وفويفودينا وكوسوفو • وعند ذلك ذهب ميلوشيفيتش الى التليفزيون ليعلن أن صربيـا لم تعد تطيع أوامر الرياسـة الفيدراليـة • وبدا الأمر لمدة يومين كاملين وكأنما انقلابتـه الدسـتورية قد دخلت فى درحلتها الأخيرة • ولكن الذى حدث آنذاك هو أن جوفيتش عاد ببساطة الى منصبه • ثم تراجع ميلوشيفيتش من حـافة الهاوية • كما أنه أقام ، بطريقة غير قانونيـة ، على تعيين « ممثل » جديد لكوسـوفو فى مجلس الرياسة • وكما لاحظ برانكا ماجاش (Branka Magas) فى ذلك الوقت : « فان ذلك الرجل الجديد ، سيدو بايراموفيتش (Sejdo Bajramovic) ، شخصية عجيبة جـداً ، حتى بالنسـبة للسياسيين الصربيين الحديثين :

حيث لم ينتخبه الا ٣٠ر٠٪ فى دائرته الانتخابية ٠٠ ان ذلك الجاويش المتقاعد من الجيش لا يشتهر بشىء الا ادمانه التومبولا » (٢٤) ٠

وكان مركز الحكومة البوسنية منطقيا ، ولكنه حرج مع ذلك ٠ ففى اية دراسة أو مناقشة كانت تجرى حول تغيير البناء الفيدرالى ، وتحويله الى كونفيدرالية فضفاضة ، كانت البوسنة تنضم الى جانب سلوفينيا وكرواتيا وهما تضغطان فى سبيل التغيير ، وذلك لأنها هى الأخرى كانت تريد أن تخفض من نطاق تسلط وسيطرة بلجراد على يوغوسلافيا ٠ ولكن فى الوقت نفسه لم يكن فى مستطاع البوسنة أن تساند سلوفينيا وكرواتيا الى آخر المدى فى هذه المناقشات والمجادلات ٠ فان احتمال تنفيذ تهديد هاتين الجمهوريتين فعلا بالانفصال عن يوغوسلافيا ، كان شيئا شديد الازعاج لمعظم البوسنيين ، وذلك لأنهم عندئذ كانوا سيتركون ومعهم جمهورية أخرى ضعيفة هى مقدونيا ، تماما تحت اصبع صربيا ٠

وبينما كان عزت بيجوفيتش يحاول أن يقوم بأداء هذه الحركة التوازنية الصعبة ، فى أثناء النصف الأول من ١٩٩١ ، راح الصرب يهددون مستقبل كل من كرواتيا والبوسنة علانية ٠ فهناك منطقة « الكرايينا المستقلة ذاتيا » والتى أقامها الحزب الديمقراطى الصربى فى كرواتيا وقد أصبحت لديها نزعة عسكرية أكثر فى مطالبها ، كما أنها أصبحت مسلحة تسليحا أكثر على يد صربيا ٠ وفى مايو شرع الحزب الديمقراطى الصربى فى البوسنة يطالب بتسليم أجزاء ضخمة من شمال وغرب البوسنة ، وهو أمر ينتهى عندئذ الى ضمها الى «الكرايينا» الكرواتية لتتكون منها جمهورية جديدة ٠ وأعلن الحزب الديمقراطى الصربى أن ثلاث مناطق من البوسنة يغلب فيها العنصر الصربى من السكان انما هى « مناطق صربية ذات استقلال ذاتى » ٠ متبعا فى ذلك بالضبط نفس الطريق الذى اتبع فى الصيف السابق فى كرواتيا ٠ ولم يمض بعد ذلك زمن طويل ، حتى قام حزب صغير فى كرواتيا هو حزب الحقوق الوطنية المتطرف، يطالب بأن تضم كرواتيا اليها كل البوسنة ٠ ومما زاد الطين بلة أنه حدثت فى يوليو ١٩٩١ شواهد تدل على أن تهريبا سريا للسلاح الى الصربيين البوسنيين جرى بترتيب من ميلوشيفيتش ووزير الداخلية الصربى ميهالى كيرتيس (Bihalj Kertes) وزعيم الحزب الديمقراطى الصربى البوسنى رادوفان كاراجيتش (٢٥) ٠ وجاءت البيانات التى تؤكد ذلك فى أغسطس ، عندما سمع رئيس الوزراء الفيدرالى المتفتح - أنتى ماركوفيتش ٠ باذاعة تسجيل لمحادثة تليفونية سمع فيها ميلوشيفيتش وهو يخبر كاراجيتش ، بأن دفعة الأسلحة التالية سيمده بها الجنرال نيقولا أوزيلاك

(Nikola Uzelac) قائد الجيش الفيدرالى فى بانيالوكا (٢٦) . ولم يعد هناك مجال للشك آنذاك فى أن أعمال كاراجيتش كانت تدار خطوة بخطوة ، من الرئيس الصربى نفسه : بل لقد بلغ به الأمر أن فاخر لصحفى بريطانى أنه « يتبادل الحديث التليفونى مع ميلوشيفيتش عدة مرات كل أسبوع » (٢٧) .

وعند ذلك كانت قد بدأت فى يوغوسلافيا حرب على نطاق واسع . وكانت القشة الأخيرة لسلوفينيا وكرواتيا قد تمثلت فى رفض صربيا فى مايو تقبل الكرواتى شتيبى ميسيتش (Stipe Mesić) لتولى الرئاسة الدورية للجمهورية الفيدرالية . وبذلك أصيب النظام الفيدرالى ، الذى كانت صربيا تدعى أنها تدافع عنه ، بالشلل مرة أخرى . عندئذ أجرت كرواتيا استفتاء (فى ١٩ مايو) على الاستقلال التام : وفيه صوت لصالح الاستقلال ٩٢٪ من المنتخبين . وفى ٢٥ مايو أعلنت كرواتيا وسلوفينيا استقلالهما ، وفى الصباح التالى دخل سلوفينيا طابور من دبابات الجيش الفيدرالى . وأحس ميلوشيفيتش أن بامكانه أن يجعل من سلوفينيا عبرة « حتى يخاف الآخرون » ، وذلك بتشجيع من المجموعة الاقتصادية الأوربية التى أعلنت فى أبريل أنها مسئولة عن « وحدة يوغوسلافيا وسلامة اراضيها » ووزير الخارجية الأمريكى جيمس بيكر الذى أخذ على نفسه عهدا مماثلا فى بلجراد فى ٢٠ يونيو . فأما قيادة الجيش الفيدرالى التى يسيطر عليها الصرب والتى كانت تؤيد على وجه الاجمال أهداف ميلوشيفيتش ، (ولا يخفى أنها كانت تعتمد على استمرار بقاء يوغوسلافيا فى تأمين امتيازاتها وتمويلاتها ـ حيث كان لهما أكثر من ٥٥٪ من الميزانية الفيدرالية ونظام كامل من الصناعات العسكرية) ، فقد ظنت أنها سوف تتمكن سريعا من بث الرعب فى قلب كل من سلوفينيا وكرواتيا واعادتهما الى جادة الصواب . ولكن سلوفينيا نظمت مقاومة جيدة التخطيط وسرعان ما أسقطت من الخطط الاستراتيجية لكل من ميلوشيفيتش والجيش أيضا . وأما فى كرواتيا فقد دبرت هناك سياسة ذات خطين متوازيين : أولهما التهديد العسكرى العام (بدلا من الغزو والفتح وذلك فى الابتداء) لبث الخوف والذعر فى قلوب الكرواتيين ، وفى نفس الحين تقوية التماسك بين جيوب المناطق المسكونة بالصربيين التى كانت فصلا تحت سيطرة صربيين مسلحين . وفى أواخر أغسطس تم تصعيد هاتين العمليتين الى نقطة ومستوى الحرب الكاملة الأوار : فكانت المدن تهاجم فعلا فى سلوفينيا ، ثم بدأ قذف دوبروفنيك فى سبتمبر بالمدافع (٢٩) .

وهناك ظاهرة فى القتال تنذر بالويل والثبور ، وكأنى بهما تنذر بصورة مشئومة لما ستكون عليه الحرب فى البوسنة ، وهى استخدام

الجند الصربيين غير النظاميين . ولاحظ أحد المتلقين فى سبتمبر ١٩٩١ « أن الاستراتيجية العامة التى تتبع تقوم على وصل جيوب الاستيطان الصربى ، عن طريق طرد الكروات المتواجدين بين هذه الجيوب بأساليب الترهيب والتخويف » (٣٠) · وكانت وحدات الميليشيا تعمل منذ ١٩٩٠ بأجزاء كرواتيا التى يسيطر عليها الصرب : وقد سبق أن استخدمت تلك الوحدات فى عمليات من أمثال الهجوم الذى شن على الحديقة القومية فى بليتفيس فى مارس ١٩٩١ · وفى وقت مبكر من ١٩٩١ كان وزير الداخلية فى بلجراد وهو ميهالى كيرتيس ، قد أقام معسكر تدريب تدرب فيه ذلك النوع من القوات ، وهو الذى عرف بعد ذلك باسم « حرس المتطوعين الصرب » ، تحت قيادة زيليكو رازنياتوفيتش (Zeljko Raznjatovic) المعروف باسم « أركان Arkan » · وكان مجرما من نوع زعماء المافيا ، يطلبه البوليس الدولى الانتربول من أجل جرائم عديدة ارتكبها ، وكان مشتبها على نطاق واسع بأنه عمل لحساب المخابرات اليوغوسلافية فى عملية اغتيال المهاجرين اليوغوسلاف (٣١) · وبادىء ذى بدء ، فان هذه القوة كانت تمول من وزارة الداخلية ، ثم حدث بعد ذلك فى نفس السنة ، عندما أصبحت تعرف باسم « نمور أركان » ، أنها أصبحت تمول نفسها بنفسها بفضل الغنائم التى سلبتها من المدن والقرى الكرواتية ·

وكانت هناك قوة مماثلة لهذه أسمت نفسها « الجيش التشيتنيكى Četnik Army » الذى أنشأه صربى متطرف هو فويسلاف شيشيلى ، وهو رجل قدم الى المحاكمة فى سنة ١٩٨٥ ، لأنه دعا الى تقسيم يوغوسلافيا الى دولتين هما صربيا وكرواتيا ، مع تقسيم البوسنة بينهما (٣٢) · وقد أصبح شيشيلى الآن زعيما للوطنيين المتطرفين « الحزب الراديكالى الصربى » ، وهو مركز كان يستطيع منه أن ينخرط فى نوع من المزايدات السياسية مع ميلوشيفيتش · (وكانت المنافسة قائمة على أساس من التساند المتبادل ، وكان ميلوشيفتش هو الذى صمم عملية انتخاب شيشيلى فى البرلمان الصربى فى يوليو ١٩٩١) (٣٣) · وفى حديث صحفى مع جريدة دير شبيجل Der Spigel الألمانية فى أوائل أغسطس ١٩٩١ ، قدم للناس آخر صورة لخطته ، وهى تنطوى على أن يرد الى صربيا كل اقليم البوسنة ومقدونيا والجبل الأسود ، ومعظم كرواتيا ، مع ترك الكروات يستقلون « بما تستطيع أن تراه من الأرض من أعلى كاتدرائية زغرب » · ولما سأله محدثه الصحفى عن البوسنة ، أجاب : « الحقيقة أن مسلمى البوسنة صرب دفعوا للاسلام ، كما أن جزءا من السكان المسمين بالكروات يتكونون فى الحقيقة من الصرب الكاثوليك » · واستمر المحدث يسأل : « وماذا يحدث لو قاوم المسلمون الغاء وضعهم كأمة ؟ » فأجاب

شيشيلي : « في تلك الحالة سنتركهم خارج البوسنة » ، « الى أين ؟ » ، « الى الأناضول » (٣٤) ٠

وازاء التصريح علنا بمثل وجهات النظر هذه على السنة الصرب البوسنيين أيضا ، أصبحت امكانية واحتمال أى حل سياسى للأزمة القائمة في البوسنة بعيدة بعدا مطلقا ٠ وفى أوائل أغسطس أقدم حزب الأقلية المسلم « المنظمة البوسنية المسلمة » وزعيمه ذو الفقار باشيتش على محاولة عقد اتفاق مع كاراجيتش يضمن سلامة كيان الجمهورية البوسنية ، لكنها كانت محاولة مقضيا عليها بالفشل ٠ وفسر البروفسور محمد فيليبوفيتش نائب زعيم حزب المنظمة البوسنية المسلمة ، الأمر على الوجه التالى : « ان الصرب مدججون بالسلاح ، وقد أنشأوا دولة داخل الدولة في البوسنة ٠٠٠ ومن الممكن أن ينشب الصراع بين الصرب والمسلمين فى أى يوم من الأيام ٠ وللحيلولة دون ذلك تبذل الآن محاولة لتوقيع معاهدة تنص على الاحتفاظ بسلامة كيان البوسنة » ٠ ولكن هذه الاتفاقية لم تكن الا مجرد تعهد سياسى بين ضخم كبير وآخر صغير ، ولم يكن لها وضع دستورى ، كما أن الرئيس عزت بيجوفيتش الذى كان يحاول أن يحدث تماسكا بين أطراف الحكومة الثلاثية القوميات ، اعترض على هذه الاتفاقية على أساس أن الكروات لم يتقدم أحد لاستشارتهم فى الأمر ٠ وأيا كان الحال ، فقد جاء هذا التعهد من جانب كاراجيتش فارغا من المضمون ، اذ كان يعلن حزبه أن أجزاء كبيرة من البلاد « مناطق مستقلة ذاتيا » ، ويطالب بنزعها من البوسنة ٠ وبعد بضعة أيام من تعبير عزت بيجوفيتش عن انتقاده انتهز ممثلو الحزب الديمقراطى الصربى فى الرئاسة الجمهورية فرصتهم للتصريح بأنهم سوف يقاطعون اجتماعات الرئاسة من الآن فصاعدا (٣٥) ٠

وفى سبتمبر ١٩٩١ ، اتخذ الصرب البوسنيون ، أو قل تلك الفئة القليلة النشطة منهم فى القيادة المحلية للحزب الديمقراطى الصربى ، خطوتهم التالية ٠ فان « المناطق الصربية المستقلة ذاتيا » ، وكانت عدتها فى ذلك الحين أربعة ، طلبت من الجيش الفيدرالى أن يتدخل « ليحميهم » بعد تشوب عدد من الحوادث المحلية الصغيرة واطلاق الرصاص ٠ (وكانوا فى تلك الآونة قد أصبحوا بفضل ما كانوا يتلقونه من مساعدات الجيش الفيدرالى ووزارة الداخلية جيدى التسليح الى درجة هائلة) ٠ وعلى الفور نشر الجيش الفيدرالى فى البلاد ، وأرسل طابور مكون من مائة عربة الى غرب الهرسك ، وارسل طابور آخر الى مركز المواصلات فى نيفيسينى ، كما أرسل ٥٠٠٠ جندى الى الهرسك من

سراييفو . وما أن بلغ سبتمبر نهايته حتى كانت هذه القوات تمكنت من اقامة « حدود » لتلك « المناطق الصربية المستقلة ذاتيـــا بالهرسك » .
كما انهم أسسوا أيضا نقطة ارتكاز ثقيلة الحشد بالجنود توطئة لعملياتهم ضد دوبروفنيك التى تقع بالضبط على خط الحدود الفاصل بين البوسنة وكرواتيـا (٣٦) . (وفى مقابل ذلك أرســـل صرب الهرسك مئات من رجالهـم ، يقودهم عمدة تريبيني Trebinje للمساعدة فى ضرب المدينـة الكرواتية بالقنابل) . ولم يقتصر الجيش الفيدرالى على هذه العمليـــة فقط ، على التراب البوسـنى ، فان مركز التـــدريب على الدبابات فى بانيالوكا كان أحد قواعد العمليات على كرواتيا منذ منتصف أغسطس .
وحاول طابور فيدرالى مدرع متجه الى فيوكوفار Vukovar أن يمـر من خلال فيشيجراد Visegrad فى نهـاية سبتمبر ، فأوقفـه عن التقدم المدنيون المسلمون والكروات : فأطلق عليهم النيران (٣٧) .

ولم يعد بوسع الحكومة البوسنية ، أن تسكت على هذا الوضـــع فصرح الرئيس عزت بيجوفيتش (الذى ذكر ذات مرة فى ملحوظة قالهـا عن الأحوال هناك أن الاختيار بين توجمان وميلوشيفيتش شنيع كاضطرار المرء الى الاختيار بين سرطان الدم (اللوكيميا) وورم فى المخ) فى أوائل أكتوبر بأن البوسنة تقف موقف الحياد بين صربيا وكرواتيا . وعندئذ أعلن رادوفان كاراجيتش اســـتياءه من هذا التصريح ، اذ اتهمـه بأنه « عمل مضاد للصرب » ، موضحا أن الحرب فى كرواتيا انما هى حرب على « الفكر الفاشيستى الدموى » . ثم قال : لا تستطيع أن تعلن حيـادها الا حكومة ذات سيادة (٣٨) . وهو محق تماما فى هذه النقطة الأخيرة ، وعندئذ شرعت الجمعية البوســنية بكل جـدية فى بحث فكرة اعـلان السيادة البوسنية . ولم تكن تعنى بذلك الاستقلال التام ، ولكن السيادة التشريعية داخل يوغوسلافيا ، بحيث يتهيأ لها أن تصدر قوانين ـ ولو من الناحية القانونية النظرية على الأقـل ـ تجب حقوق الجيش الفيـدرالى فى استخدام أراضيها . وفى ١٤ أكتـــوبر خـــرج كاراجيتش هو والتابعون له من النـــواب من المجلس الذى صوت عند ذاك على سيادة البوسنة . وبعد ذلك بأيـــام قليلة اقام كاراجيتش وحزبه ما أســـموه « الجمعية الوطنية الصربية » فى معقل الجيش الفيدرالى بمدينة بانيالوكا ، متخذا جميع المظاهر الكاملة للبركان والحكومة بل حتى مظاهر الدولة الكاملة (٣٩) :

والخطوات التى اتخذها كاراجيتش وحزبه ـ وهى اقامة « المناطق المستقلة ذاتيا » وتسليح السكان للصربيين ، وتدبير حوادث عنف على

الصعيد المحلى ، وممارسة الدعاية بصورة مستمرة ، و « طلب الحماية » من الجيش الفيدرالى ، ثم عقد « البرلمان » الصربي – انما كانت تضاهى بالضبط ما كان يحدث فى كرواتيا · ومن ثم فإنه كان بين المراقبين من كان يشك بأن هناك خطة واحدة تنفذ · وتبدد كل شك حول طبيعة تلك الخطة فى مؤتمر حزب ميلوشيفيتش الصربي الاشتراكى فى مدينة بيتش (Beć) فى ٩ أكتوبر عام ١٩٩١ · وبوضوح تام وصف نائب رئيس الحزب ، وهو الفيلسوف المنشق السابق ميهايلو ماركوفيتش ، فى خطبته التى ألقاها فى المجلس ، طبيعة ذلك التمزيق الذى كان هو وسيده يدبرانه :

سيكون هناك فى الدولة اليوغوسلافية الجديدة ثلاث وحدات فيدرالية على الأقل : هى صربيا والجبل الأسود ومنطقة متحدة تجمع بين البوسنة وكنين (بمعنى أنها ستكون منطقة تتكون من بعض أجزاء « المناطق الصربية المستقلة ذاتيا » والمنطقة الكرواتية الرئيسية المستقلة ذاتيا) · واذا رغب المسلمون البوسنيون أن يظلوا داخل الدولة اليوغوسلافية الجديدة ، فسيسمح لهم بفعل ذلك · فان هم حاولوا أن ينسلخوا وجب عليهم أن يعرفوا تماما ·· أن الدولة المسلمة البوسنية ستكون محاطة بالأراضى الصربية من كل جانب ·

وقد كتبت تعقيبا على هذا الخطاب فى ذلك الحين : « وعلى ذلك تكون خطة المستر ميلوشيفيتش انما تهدف الى انشاء دولة يوغوسلافية بالاسم فقط ولكنها فى الحقيقة صربيا الكبرى ، مع استثناء واحد هو دويلة مسلمة ضعيفة فى الوسط على غرار دويلات السود فى جنوب افريقيا ابان نظام الفصل العنصرى السابق » (٤٠) · وسوف تطرق الأسماع هذه المقترحات مرات ومرات أثناء المناقشات حول مستقبل المسلمين البوسنيين فى ١٩٩٣ ·

وقوبلت هذه التصريحات الواضحة عن نيات صربيا فى الحرب بتجاهل تام من معظم زعماء الغرب ومن المفاوض المعين من قبل المجموعة الاقتصادية الأوربية وهو اللورد كارينجتون ، حيث ظلوا على اعتقادهم بأنه لا يزال من الممكن قيام صورة مفككة أكثر قليلا ليوغوسلافيا الفيدرالية القديمة · وفى سبتمبر فرضت الأمم المتحدة حظرا على الأسلحة على كل أرجاء الأراضى اليوغوسلافية ؛ ولم يكن لذلك الحظر أدنى أثر

على الجيش الفيدرالى اليوغوسلافى بترسانته الضخمة ، وصناعاته العسكرية الهائلة ، ولكنه أضعف القوات الكرواتية ، التى كانت آنذاك قد شرعت فى ايقاف تقدم الجيش الفيدرالى فى أجزاء كثيرة من غرب كرواتيا وشمالها الشرقى . ولو أنهم كانوا مسلحين بالتسليح الصحيح لجاز أن يتمكنوا من صد الهجوم على مدن من أمثال فيوكوفار ، والواقع الذى حدث هو أنهم صمدوا هناك فى أماكنهم فى جلد خارق للعادة الى حد أن قادة وجنرالات الجيش الفيدرالى شرعوا يحسون أن فتح الأراضى فى كرواتيا ، عملية خاسرة . (وعندما سقطت فيوكوفار فى النهاية ، وقد دمر كل بناء فى المدينة تقريبا ، طهر الرجال من أتباع « أركان » المدينة تطهيرا تاما وقتلوا المئات من سكانها) . وتمكنت الحكومة الكرواتية فعلا من تأسيس خطوط تموين من الأسلحة من دول حلف وارسو السابق ومن الشرق الأوسط ، ونزلت ضربة ثالثة بخطط صربيا عندما صدر الاعتراف الدولى بكرواتيا وسلوفينيا ، وهو أمر ما لبثت فى النهاية أن وافقت عليه المجموعة الاقتصادية الأوربية تحت الحاح ألمانيا فى منتصف ديسمبر ، وجرى تنفيذه الفعلى فى ١٥ يناير ١٩٩٢ . وتمت تسوية سلمية فى كرواتيا أجرى المفاوضات فيها سيروس فانس ممثل الأمم المتحدة بعد ذلك بعدة أسابيع : وقد وضعت التسوية الأراضى التى غزتها القوات الفيدرالية وغير النظاميـة فى مجموعة من المناطق المشمولة بحماية الأمم المتحدة ، وهى مناطق ظل الوضع بها على المدى الطويل شديد الغموض .

وقد أدى الاعتراف بكرواتيا الى انهاء الحرب بتلك الجمهورية ، وكان على كل حال اعترافا بالحقيقة الواقعة : فان أية فكرة تقول بأنه كان بامكان كرواتيا أن تعود للانضمام الى يوغوسلافيا الفيدرالية ، بعد أن تحولت مدن مثل فيوكوفار الى حطام وأنقاض ، كانت فكرة غير واقعية على الاطلاق . ومع ذلك فان هناك عاقبة لهذه الحركة هى أنه أصبح الآن ضروريا للبوسنة أن تسعى وراء الاستقلال هى الأخرى ، والا وقعت تحت الهيمنة الصربية . وكانت المجموعة الاقتصادية الأوربية متفهمة لذلك تماما مقدما ، وكانت تدعو الى تقديم طلبات استقلال من الجمهوريات الأخرى ، وتطالب البوسنة كشرط أساسى للاعتراف بها أن تجرى استفتاء على تلك المسألة . وقد شكا اللورد كارينجتون من أن المجموعة « قد وأدت خطته الرامية الى الوصول الى تسوية عامة فى الجمهوريات الست جميعا داخل اطار يوغوسلافيا العامة . لكن الأمر الواضح أن خطته لم يكن من الممكن قبولها من الكروات أو السلوفينيين ، ولا كانت أيضا بمستطيعة أن ترضى مطامع صربيا وطموحاتها (٤١) . والأمر الوحيد

الصحيح هنا ، هو أن اتجاه البوسنة صوب الاستقلال ، كان ذريعة تذرع بها ميلوشيفيتش وكاراجيتش لبدء المرحلة العسكرية لتمزيق البوسنة ·

وكان التخطيط العسكرى محكما · فقد احتل الجيش فى خريف ١٩٩١ ، مراكز المواصلات المهمة للبوسنة · وأقيمت مواقع المدفعية الثقيلة حول المدن البوسنية الكبيرة بما فى ذلك سراييفو نفسها ، فى شتاء ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ · وبانحسار القتال فى كرواتيا فى يناير وفبراير ، « سحبت » منها طوابير دبابات ومدفعية الجيش الفيدرالى ، بموافقة الأمم المتحدة ، الى البوسنة · ومن العجيب أن الرئيس عزت بيجوفيتش سمح للجيش بمصادرة الأسلحة التى لدى وحدات الدفاع المحلى : وكأنه كان يحاول بذلك أن يؤكد لقواد الجيش ويطمئنهم نواياه السلمية التى يكنها ، وربما كان هو أيضا ضحية التضليل ، كما كان مقصودا بكل تأكيد « مصادرة » الجيش لبعض الأسلحة من بعض القوات الصربية شبه العسكرية (٤٢) · أما أن الجيش لم يكن غير منحاز وغير سياسى الاتجاه ، فأمر أوضحته تماما أحداث يومى ٢٩ فبراير وأول مارس ، عندما عقد الاستفتاء فى البوسنة · فبينما كانت قوات حزب كاراجيتش الديمقراطى الصربى تمنع الصربيين من التصويت فى ذلك الاستفتاء وتقيم نقاطا فى الطرق لمنع صناديق الانتخاب من دخول مناطق البوسنة التى كانت تحت هيمنتها ، فان كثيرا من طائرات الجيش أسقطت على الناس منشورات تؤيد المقاطعة · ولكن الذى حدث هو أنه مع ذلك تقدم فعلا للادلاء بأصواتهم ما يقارب ٦٤٪ من مجموع الناخبين بما فيهم آلاف من الصربيين فى المدن الكبرى ، وذلك للاجابة على سؤال فى ورقة انتخاب يقول : هل تؤيد قيام دولة البوسنة والهرسك ذات سيادة واستقلال ، تكون دولة من أفراد متساوين من المواطنين والقوميات المسلمين والصرب والكروات وغيرهم ممن يعيشون فيها ؟ » وكان التصويت باجماع الآراء تقريبا هو « نعم » ·

وفى صبيحة الثانى من مارس ١٩٩٢ وهو اليوم الذى أعلنت فيه نتائج الاستفتاء ، أقام أعضاء من القوات الصربية شبه العسكرية الموانع والمتاريس ومواقع القناصة قرب مبنى البرلمان فى سراييفو · وانقضت ٢٤ ساعة بدا فيها أن العسكريين استولوا على السلطة فى البوسنة ، بيد أن مئات من مواطنى سراييفو خرجوا الى الشوارع ـ أمام القناصة ـ وقاموا بمظاهرات ، ولسبب ما أجهض الانقلاب · وكان السبب المعلن والظاهر لذلك العمل هو مقتل صربى بالرصاص على يد شابين مسلمين فى حفلة زفاف فى سراييفو فى اليوم السابق · وكان مقتل ذلك الصربى ، الذى يبدو أنه وقع نتيجة لاحتدام مفاجىء بلا تدبير مسبق ، اتخذ ذريعة

للتشهير بـ « الارهاب » الاسلامى (٤٤) . لقد كان التكتيك هنا أوضح من الشمس ، كما انه من طبيعة الحال لم يكن يدور بخلد أحد ولم يفكر أحد فى اقامة المتاريس فى سراييفو احتجاجا على اعمـال قتل المسلمين على كثرتها ومثلهـا من الحوادث فى الأشـهر السابقة ، مثل قتل محمد جانيبيجوفيتش على يد جماعة من شـبه العسكريين الصربيين فى شيبوفو فى يوم ٧ أكتوبر أو اطلاق المدافع الرشاشة على مسجد محمد أغا بمدينـة توزلا مـن جانب الجنـد الاحتياط بالجيش الفيـدرالى فى ١٣ أكتوبر (٤٥) .

وبعد هذا كله تبقى اختيار ممكن واحد أمام السياسيين الصربيين : فاما أن يمزقوا البوسنة اربا بالوسائل العسـكرية ، أو أن يمزقوها بالطرق السياسية التى يدعمها تهـديد القوة العسكرية . على أن هذه الطريقة الثانيـة ظلت احتمالا حتى الأسـبوع الأخير من مارس ، كما انها كانت تتوقف كثيرا على موقف الكروات البوسنيين . وروعيت درجة ما من السيمترية والتوازن مدة طويلة جدا بين المواقف الصربية والكرواتية حول البوسنة : ففى مارس ١٩٩١ التقى الرئيسان ميلوشيفيتش وتوجمان للتباحث فى الوسائل الممكنة لتقسيم يوغوسلافيا ، وكان تقسيم البوسنة فى جدول الأعمال المطروح أمامهم (٤٦) . ولكن ضرب السيمترية لم يكن الا على وجه جزئى فقط : فان صربيا تقدمت نحو الأمام شوطا كبيرا ومبكرة أكثر كثيرا ، وبينما كان الصربيون البوسـنيون يقيمون « مناطق مستقلة ذاتيا » فى مايو ١٩٩١ و « برلمانا » فى أكتـوبر ١٩٩١ (منتهين بعد ذلك الى اعلان « جمهورية صربيـة بوسـنية » فى ٢٧ مارس ١٩٩٢) ، فأما المقابل الكرواتى وهو « اللجنـة الكرواتية للبوسنة والهرسك » فلم تعلن الا فى يوليو ١٩٩٢ ، بعد انقضاء ثلاثة أشـهر على العدوان العسـكرى الصربى على البوسـنة . وكان زعيم الحزب الكرواتى فى البوسنة وهو ستيبان كليويتش ، يؤثر الاحتفاظ بحدود البوسنة ، ومن ثم فان حزبه صـوت بالموافقـة على استقلال البوسنة . أما فكرة تحويل البوسنة الى كونفيدرالية على غرار سـويسرا أى الى مجمـوعة من « الكانتونات » ، فلم تنل موافقة زعامة الاتحاد الديمقراطى الكرواتى . وبوصفه السكرتير العام للحزب ، قال ايفـان ماركشيتش فى أكتـوبر ١٩٩١ : « انه حتى فيما يسمى باسـم المنطقة « الصربية » كبانيالوكا مثلا يوجد مائة وعشرون الف كرواتى . وليس من الممكن تقسيم البوسنة الى كانتونات قوميـة . فأما ما جـرى فى سويسرا ، فان الكانتونات كانت موجودة أولا ثم تكونت سويسرا من هذه الكانتونات . ولكن الكانتونات

في البوسنة ليس لها إلا معنى واحد هو تقسيم القطر وليس بمستطاع أن يحدث ذلك إلا بحرب (٤٧) .

ومع هذا ، فان فريقا من الكروات الهرسكيين يتزعمهم ماتي بوبان أخذ يزيد من نفوذه داخل الحزب حتى انتهى به الأمر في يناير ١٩٩٢ ، في حركة شباع أن تدبيرها تم على يد الرئيس الكرواتي توجمان ، ليحل بوبان محل كرويتش بوصفه زعيما لحزب الاتحاد الديمقراطي الكرواتي البوسني (٤٨) . وكان لكروات الهرسك بعض الحق في أن يكونوا أكثر تشددا بعد الذي شهدوه من عمليات الحشد العسكري وتأسيس « المنطقة الصربية المستقلة ذاتيا » هناك ، (ولقد كانوا أيضا على اتصال وثيق باتحاد الدفاع الكرواتي ، وفي أواخر ١٩٩١ رفضوا أن يسلموا أسلحة دفاعهم المحلي للجيش الفيدرالي ، ثم شرعوا يشكلون استعداداتهم العسكرية الخاصة) (٤٩) . ولو استعرضنا النموذج العام للأحداث ، سواء أكانت عسكرية أم سياسية ، لوجدنا أن تحركات الكروات كانت ردودا على تحركات الصرب ، كما أنهم كانوا الى حد ما يقلدونهم في كل حركاتهم : وهكذا عندما حدث أن الحزب الديمقراطي الصربي أصدر خريطة مقترحا تقسيم البوسنة الى كانتونات (مع جعل ٧٠٪ من الأراضي تقريبا كانتونات صربية) ، رد الاتحاد الديمقراطي الكرواتي في ديسمبر ١٩٩١ على ذلك في مدن غير بعيدة بخريطة خاصة به هي نفسها ، (تنطوي على ما يقارب ٣٠٪ من الكانتونات الكرواتية) (٥٠) . وكان واضحا تماما أن ما كان يعنيه الصرب بالتقسيم الى كانتونات هو انشاء بنية دستورية يستطيعون استغلالها في تنفيذ الانفصال الكامل الذي طلبوه في الماضي ، وعندما ذهب رادوفان كاراجيتش الى النمسا في أواخر فبراير ١٩٩٢ للتباحث في مستقبل البوسنة مع ميلوشيفيتش وتوجمان ، كان الذي يتحدثون عنه هو التقسيم لا الاتحاد الكونفيدرالي الكانتوني (٥١) . ولكن المجموعة الاقتصادية الأوربية واللورد كارينجتون حاولوا الحفاظ على قشة الكانتونات ، فاشتركا في رئاسة عدة جلسات مفاوضات حول هذه النقطة بين الأحزاب البوسنية الكبرى الثلاثة في كل من بروكسل ولشبونة اثناء شهر مارس . وفي اليوم التاسع من مارس كان الوفد الصربي هو الذي رفض قبول خطة تقضي بانشاء دستور فيدرالي بوسني ، يكفل فيه لكل مجموعة « عرقية قومية » حق الفيتو أي الرفض في كل مسألة كبرى سياسية أو اقتصادية (٥٢) . وفي وقت تال من ذلك الشهر عبرت المجموعة الاقتصادية الأوربية عن موافقتها على فكرة خطة « كانتوناتية » مبنية على صورة معدلة من الخريطة الصربية . وقبل الجوانب الثلاثة الخطة باديء الرأي ، ورضوا أن تتخذ

أساسا لمفاوضات تالية ، ثم عاد حزب الاتحـــاد الديمقراطى الكرواتى فرفضها فى يوم ٢٤ مارس · وتبعه حزب عزت بيجوفيتش (حزب الحركة الديمقراطية البوسنية) فى اليوم التالى لأن الكروات كانوا من رفضها · ولسنا ندهش لأن الكروات كانـوا أول من رفضها ، وذلك لأنها لم تكن تعطيهم الا ١٧٪ من أرض البوسنة ، وتركت ٥٩٪ من السكان الكروات فى كانتونات لا كرواتية (٥٣) :

والشىء الذى أظهرته كل هذه الخطط مجتمعة فى نهاية الأمر ، هو استحالة القيام بأى شىء من هذا النوع من التقسيمات بطريقة لا تشقى مئات الألوف من « المواطنين » البوسنيين · ومهما يكن الأمر ، فان غالبية سكان البوسنة صوتوا من أجل بوسنة ديمقراطيـة ومستقلة يسكنهـــا مواطنـون متكافئون متسـاوون · ولو غضضنا الطرف عن تيار الدعاية البلاغية فى الاعلام الصربى الذى صـــور البوســـنة واقعة فى قبضة « تحالف أصولى أوستاشى » ، فلا يوجد أى دليـــل يشـير ولو من بعيد الى وجود قوانين عنصرية تمييزية فى البوسنة أو حتى يجعلنا نصدق أن الحكومة البوسنية كانت عازمة على اصدارها أو فكرت فيها · ولكن نوعا ما من الجنون والاضطراب العقلى السـياسى خلقـه الصرب ورجال السياسة الصربيون والاعلام الصربى حول قضية « الدفاع » عن « حقوق » الصرب البوسنيين ، بحيث كف الناس حتى عن التســاؤل والتعجب عما اذا كانوا عرضة حقا للهجوم والاعتداء · حتى اذا تم لهذا الهوس أن يستقر فى الأذهان تماما ، باتت الخطوة النهائية وهى التحـرك العسكرى قاب قوسين أو أدنى ·

الفصل السادس عشر

تدمير البوسنة

١٩٩٢ ـ ١٩٩٣

في اليوم السادس من أبريل ١٩٩٢ تم اعتراف المجموعة الاقتصادية الأوربية بالبوسنة كدولة مستقلة • وقد مرت على البوسنة لحظات عظيمة تمتعت فيها بما يشبه الاستقلال الذاتي أو شبه الاستقلال التام أثناء القرنين الأخيرين ـ فان فترة الصعود التي مر بها حسين قابيطان في ١٨٣١ والحكومة القومية في سراييفو في يوليو ١٨٧٨ ، وتسليم البارون ساركوتيتش السلطة الى المجلس الوطني البوسني في نوفمبر ١٩١٨ ـ ولكن لو شئت القول الصحيح ، فان هذا كان أول ظهور للبوسنة بوصفها دولة مستقلة منذ ١٤٦٣ • وسارع المعقبون الى توضيح أن البوسنة قضت هذه السنوات الخمسمائة والتسع والعشرين وهي جزء من امبراطوريتين ثم مملكة ثم جمهورية شيوعية • وقد ادعوا أن البوسنة لايمكن أن تكون دولة ، لأنها انما تحتوى ثلاث قوميات مختلفة ، وأظهر التاريخ أنها لا يمكن أن تعيش الا كجزء من كل أعظم منها • وغالط الادعاء الأول حين ادعى أن الدول الأممية وحدها هي التي يحق لها الوجود • ولو كان الأمر كذلك ، فان غالبية الأعضاء الذين يقاربون المائة والسبعين في هيئة الأمم المتحدة ينبغي أن توسم بميسم عدم الصلاحية للعيش • أما التاريخ ، فلا يعلمنا أنه ينبغي للبوسنة الخضوع لدولة أكبر لمنعها من تدمير نفسها من الداخل ، بل ان الأمر يكاد يكون على العكس من ذلك : فان الشيء الوحيد الذى ظل طوال الأيام يهدد البوسنة بالأخطار لم يكن هو التوترات الداخلية الحقيقية ، وانما كان مطامع الدول الأكبر منها والولايات المجاورة لها • ويرينا تاريخ البوسنة أنه ، لو طرحنا جانبا ذلك الصراع الاقتصادى بين ملاك الأراضي والفلاحين ، لوجدنا العداوات القومية داخلها لم تبلغ نقطة تصل الى العنف العنصرى الا نتيجة للضغوط الآتية من خارجها • ومن الأمور ذات الدلالة الواضحة أنه حتى الصراع

بين ملاك الأراضي والفلاحين كان بطريقة مهمة ـ وربما حاسمة أيضا ـ يشتد بسبب الوضع الدولي السياسي أثناء القرن التاسع عشر ، وذلك بصورة متوازية مع قيام صربيا جديدة تتمتع بلون من ألوان الحكم الذاتي ، وخلق ذلك احساسا بالعزلة في نفوس الطبقة الحاكمة المسلمة بالبوسنة

وادت عملية طويله من التنافس القومي بين صربيا وكرواتيا منذ أخريات القرن التاسع عشر فصاعداً الى جعل السياسات الداخلية البوسنية شائكة حيث راحت تقنع البوسنيين الكاثوليك والأرثوذكس أنهم لابد أن يفكروا في أنفسهم بوصفهم صربا أو كرواتا · وبعد أن جمعتهم يوغوسلافيا في قطر واحد مع صربيا وكرواتيا مدة أربع وسبعين سنة ، كان من الطبيعي أن كثيرا من أفراد هذين المجتمعين بالبوسنة لابد أن يربطوا هويتهم بهذين الاثنين من أرض الأجداد · ولكن الآن وقد انتهت يوغوسلافيا من الوجود ، فان نفس الحقيقة التي جعلت الحفاظ على البوسنة أمرا شاقا ـ وهي سكانها المختلطون عرقا وأجناسا ـ جعلت ذلك الأمر اجباريا لا مفر منه · فقد اختلط هذان الشعبان مع شعب ثالث لم يكن له أرض أولى ولا أجداد يتطلع اليهما ، اختلاطا كان من الشدة بحيث ان التفرقة بينهم لم يكن من الممكن الوصول اليها الا بثمن رهيب لا مبرر له في الوقت الذي كان يمكنهم جميعا العيش معا بسلام ووئام ، لو توافر قدر صغير من حسن النية وسلامة الطوية · وكانت الأغلبية تود العيش في سلام ، ولكن أقلية كانت تعمل بتوجيه من دولة مجاورة ، لم تكن ترى ذلك ، وكانت تملك البنادق ·

وفي يوم الاعتراف الدولي ، كررت القوات غير النظامية الصربية العملية التي أجهضت في سراييفو قبل ذلك بشهر · وفي هذه المرة اجتمع ما يتراوح بين خمسين ألفا ومئة ألف من البوسنيين ، مع كافة المجموعات القومية ، وخرجوا الى الشوارع احتجاجا على ما يجرى · وأوردت الأنباء على لسان أحدهم : « فليذهب جميع المتعصبين الصرب الى صربيا ، ويذهب جميع الأوستاشا الكروات الى كرواتيا ، فانا انما نريد البقاء هنا بعضنا مع بعض · نريد أن نحتفظ بالبوسنة وحدة متماسكة » · لكن قوله هذا قطعته دفعات من طلقات الأسلحة النارية التي صوبت على المدنيين (١) · ولم تكن عمليات اطلاق النار هذه ، مع ذلك ، الأولى من نوعها · فقد حدثت في مدى أكثر من أسبوع عمليات اطلاق نار وتفجير قنابل في كثير من المدن البوسنية : بأنيالوكا وبوسانسكي وموستار · وفي المدينتين الأوليين كان واضحا أن القوات

غير النظامية الصربية بدأت باطلاق النار ، اما في موستار فقد انفجرت سيارة صهريج لنقل البترول قرب معسكرات الجيش الفيدرالي وربما كان ذلك من عمل القوات غير النظامية الكرواتية ، أو أنه كان محاولة عملها الصربيون لاثبات أن الجيش الفيدرالي كان معرضا للتهديد (٢) .
رفي الثلاثين من مارس أعلن قائد الجيش الفيدرالي ، وهو الجنرال آدجيتش ، قبل الأوان وكأنه يتنبأ ، أن جيشه مستعد للتدخل لحماية الصرب « ضد العدوان الصريح » (٣) .

لكن أسوأ تطور في الأيام الأولى من أبريل كان وصول قوات « أركان » غير النظامية الى مدينة بييلينا الواقعة في الشمال الشرقي من البوسنة . فهؤلاء الرجال المدججون بالسلاح ، ومعظمهم من الصرب وليسوا من الصرب البوسنيين ، فرغوا لتوهم من عمليات التطهير في فيكوفار . وقد انتقل بعض منهم الى بانيالوكا عند نهاية شهر مارس ، حيث بسطوا هيمنتهم على المدينة ، وأقاموا المتاريس في الطرق ، « وراحوا يتجولون في الشوارع بقاذفات قنابل اليد ومسدسات سنكوربيون الأوتوماتيكية » (٤) . ثم وصلوا الى بييلينا المدينة المسالمة التي يغلب على سكانها المسلمون ، وشرعوا في « تحرير » أجزاء منها شاملة المسجد الرئيسي . وهوجم المسلمون بعنف وطردوا وأرهقوا بالغارات المتكررة ، وحاول عضو مسلم من أعضاء الرئاسة البوسنية هو فكرت آبديتش دخول المدينة ، فرد تحت تهديد البنادق ، وفي اليوم الرابع من أبريل أعلن أن موارد الماء والكهرباء قطعت وأن أجساد القتلى ترقد في الشوارع (٥) . وواضح أن الهدف الأساسي من ذلك كان : أولا ارهاب المسلمين المحليين حتى يفروا من المدينة ، وثانيا بث روح التطرف القومي في نفوس الصرب من السكان من تجنيد بعض شبابهم لينضموا الى صفوف جيش الإحتلال الفوضوي العجيب هذا ، ابتغاء تأسيس الهيمنة الصربية على المنطقة بأكملها . ومن أجل هذين الغرضين لم يكن القتل أو الذبح الجماعي ضروريا ، وكان يكفي عدد من عمليات القتل العشوائي . وجاء في تقرير آخر بعد ذلك أن عدد القتلى المسلمين يقدر بمئة تقريبا (٦) . وكما ستدلنا أحداث الأسابيع التالية ، فقد وقع الاختيار على بييلينا قبل غيرها بسبب أهميتها الاستراتيجية . فانها كانت النقطة المحورية القريبة من الحدود الصربية التي كانت تمتد منها الشقتان العريضتان من الأراضي التي لابد للقوات الصربية من الاستيلاء عليها : وهي شقة عريضة من الأرض تمتد عبر شمالي البوسنة ، وتوصل ما بين صربيا وبين القاعدة العسكرية في بانيالوكا وهي « الكرايينا » البوسنية ، والمناطق المحتلة من كرواتيا ، ثم بعد ذلك قطاع في الجانب الشرقي من

البوسنة يمتد امتدادا طويلا فى خط الحدود البوسنية الصربية (وبذلك يتضمن نقاط الدخول الحيوية لخطوط الامدادات الواردة من صربيا) الى المناطق العرقية الصربية الموجودة فى شرق الهرسك (٧) .

وفى مدى بضعة أيام بعد ذلك أخضع عدد كبير آخر من المدن ذات العدد الأكبر من السكان المسلمين فى تلك الشقة الشرقية من البوسنة ، ولقيت المعاملة نفسها . وبالاضافة الى « نمور أركان » ، استخدمت الجماعات الأخرى غير النظامية من الجنود بما فى ذلك « النسور البيضاء » التى يقودها ميركو يوفتش والتشيتنيك الذين يقودهم شيشيلى (*) . وحدث فى حالات كثيرة من الهجوم الذى تعرضت له سفورنيك فى الأسبوع الثانى من أبريل ، أن استخدمت وحدات المدفعية التابعة للجيش الفيدرالى لقصف المدينة عدة أيام متتالية ، وعندما استسلمت ، أرسل عليها الجند غير النظاميين ، ليتعاملوا مع السكان . ولم تكن سيكولوجية الرعب والارهاب التى أدخلها قواد الجنود غير النظاميين فى تلك الأماكن قاصرة على تخويف المسلمين المحليين حتى يفروا من ديارهم ـ وان نجحوا فى هذا تماما ـ وقدر عدد الذين فروا من ديارهم عند نهاية أبريل من مسلمى زفورنيك وفيشيجراد وفوتشا بخمسة وتسعين فى المئة (٨) ، فهناك جانب منها لا يقل شأنا ، وهو اقناع الصربى المحلى بأنه مضطر الى أن « يدافع » عن نفسه من عدوان جيرانه المسلمين . ولقد مهد السبيل لذلك بطبيعة الحال ، ما كانت تبثه اذاعات راديو وتليفزيون بلجراد ، محذرين الصرب من الاوستاشا ومذابحهم المنظمة التى يذهب ضحيتها الآمنون ، ويبعثون فيهم الذعر من المجاهدين الأصوليين ، وحيث أنهم شهدوا بأعين رؤوسهم مناظر حقيقية من القتل والقتل والمدن المشتعلة بالنيران فى كرواتيا على امتداد الأشهر التسعة الأخيرة ، فأن بسطاء الفلاحين وسكان المدن اقتنعوا بسهولة تامة بأن تلك التهديدات كانت حقيقية فعلا . وكل ما كان الأمر يحتاجه لا يتجاوز بضع تفصيلات محلية قليلة لاستكمال الصورة . وهناك تقرير صحفى يجمد الدم فى العروق بعث به مراسل رويتر أندريا جوستينتشيتش يبين كيف تم الأمر على وجهه المطلوب :

سألتنى امرأة صربية قائلة : « أترى ذلك الحقل ؟ (مشيرة الى مرج مترام بجوار نهر الدرينا) . لقد كان مفهوما أن « الجهاد » سيبدأ هنا .. وكان المقرر أن تصبح فوتشا هى « مكة » الحديدة . وكتبت قوائم بأسماء الصرب

(*) الشيشيليون : هم اتباع الزعيم مانيسلاف شيشيلى ـ (المترجم) .

الذين يجب القضـــاء عليهم » . ذلك ما قالته المرأة مكررة بذلك اعتقادا سرى بين أهل المدن وحملة البنادق . « لقـد كان ولداى مكتوبين فى تلك القائمـــة التى تقول انهما سيذبحان كالخنازير . فأما أنـا فقـد أدرجت فيها تحت بند الاغتصاب » . وغنى عن البيان أن أحدا منهم لم ير القائمة ولكن ذلك شىء لا يمنع أى فرد من الاعتقاد بصــــدق تلك الأراجيف دون أن يكلف نفسه عناء التحقق من وجودها (٩) .

فهل كان القائد العام للجيش الفيدرالى بشرق البوسنة وهو الكولونيل ميلان يوفانوفيتش يصدق كل تلك الحكايات ؟ .. ذلك ما نشك فيه : وبينما كان رجاله يطردون المسلمين من بيوتهم فى مدينة فيشيجراد ، فانه أبلغ صحفيا بريطانيا أنه واقف على أرض يوغوسلافية ، وأضاف الى ذلك قوله : « كان هناك تمرد قام به المسلمون . وكانوا يعدون له منذ وقت طويل نسبيا للقضاء على الصرب » (١٠) . على أن الشىء الواضـح تماما هو أن هذه العملية المشتركة بين القوات النظامية وغير النظامية هى التى كان يجرى اعدادها منذ مدة طويلة من الزمن . والمسألة ، كما جاء فى عبارة أحد المحللين الكبار : « بالنظر الى السرعة التى تم بها اعداد وتسليح هذه الجموع ، والمستوى العالى من التناسق والتآزر الذى تكشف للعيان ، فان من الواضح الجلى أن هذه العمليات لم تشن تلقائيا (١١) . اذ بفضل استخدام مزايا المفاجأة من ناحية ، والتفوق الساحق الجارف من ناحية أخرى ، تمكن الجيش الفيدرالى ومساعدوه اللا نظاميون من أن يقتطعوا فى مدى ستة أو سبعة الأسابيع الأولى منطقة تقدر مساحتها بأكثر من ٦٠٪ من مساحة اقليم البوسنة كله .

وجندت بعض القوات الصربية المحلية من بعض « المناطق الصربية المستقلة ذاتيا » من البوسنة ، فانضمت أيضا الى هذه العمليات بمناطق كثيرة من البلاد . ولكنه من الواضح تماما أن الغزو انما تم فى معظمه على يد قوات الجيش الفيدرالى (بما فى ذلك الطائرات التى استخدمت لقصف مدن كوبريس ودوبوى وتوزلا وكلها تدار من بلجراد) ، وكتائب الجنود غير النظاميين الوافدين من صربيا . وبتعبير آخر ، فانه ولو كان بعض الجنود الذين يخدمون فى الجيش الفيدرالى « كانوا » من صرب البوسنة ، ومع أنهم كانوا ينسقون ، فى تآزر تام مع عناصر صربية متمردة فى بعض المناطق ، فان الذى جرى كان قبل كل شىء غزوا للبوسنة موجها من الأرض الصربية ذاتها . وفى أثناء الأسابيع الأولى للغزو ، كانت البيانات الرسمية التى يصدرها ميلوشيفيتش وقادة الجيش الفيدرالى تروج لادعاءين كلاهما

كاذب وزائف : أولهما أن الجيش انما يعمل كمحافظ على السلام للتفريق بين المقاتلين المحليين ، وثانيهما أن وحدة صربية واحدة لم تكن لتعبر الحدود الى داخل البوسنة (١٢) · والواقع أنه لم تكن هناك فقط قوات غير نظامية تعبر الحدود الى داخل الاقليم فقط بل وأيضا . كما عبر شاهد عيان من منطقة الحدود ، حشد الجيش الفيدرالى فى غضون هذا الأسبوع على حين بغتة ارتالا من الرجال والمدفعية والدبابات على طول الطريق الواصل من صربيا عند انزلاقه بالبوسنة » (١٣) ·

ومع ذلك ، ففى يوم ٢٧ أبريل أعلن الرئيس ميلوشيفيتش وحكومة الجبل الأسود ، قيام دولة فيدرالية جديدية ليوغوسلافيا تتكون من هاتين الجمهوريتين وحدهما ، وذلك أمر أوقع الجيش الفيدرالى فى البوسنة فى موقف حرج غريب ، وذلك لأنه لم يعد يستطيع أن يدعى أنه يتخذ صفة حافظ السلام فى الأراضى اليوغوسلافية · وفى أوائل مايو أعلن ميلوشيفيتش أنه سوف يسحب من البوسنة كل جنود الجيش متى كانوا من مواطنى هاتين الجمهوريتين ، أما من هم من صرب البوسنة فسينقلون ومعهم جميع أسلحتهم وعتادهم ، الى ما يسمى « بالجمهورية الصربية » حيث سيوضعون تحت امرة الجنرال راتكو ملاديتش الذى كان ميلوشيفيتش ، هو من عينه فى منصبه القيادى كما أن هذا التغير الشامل بأكمله كان مناورة تجميلية · ولم يكن أمام أى مراقب أجنبى أية وسيلة للتأكد من صحة أن الجنود الصربيين وجنود الجبل الأسود قد سحبوا من البوسنة حقا ، وفى ٢٠ مايو ادعت السلطات أن أربعة عشر ألفا خرجوا من البلاد ، ولكن ذلك كان معناه ترك ثمانين ألفا من الجند على الأقل هناك (١٤) · ولو اطلعنا على الشهادات التى أدلى بها ضحايا الحرب فى زمن متأخر من ١٩٩٢ ، لصادفنا عديدا من الاشارات الى جند من صربيا والجبل الأسود · وليس من الممكن لنا أن نعتقد أن الجيش الذى كان يقاتل فى البوسنة منذ أواخر مايو فصاعدا كان يتكون بأكمله من الصرب البوسنيين · وبالنسبة للجند المنتسبين الى البوسنة فان هذا التغير لم يحدث أى تغير جوهرى فى خططهم : فقد واصلوا القتال بنفس أسلحة الجيش الفيدرالى ، واستمر تلقيهم لامدادات من المؤن والذخيرة والطعام والوقود من صربيا وواصلوا العمل فى تعاون تام مع القوات غير النظامية من صربيا ، وحافظوا على الاستراتيجية الشاملة التى وضعها الزعيم الصربى · ولم يظهر الا بعد أحد عشر شهرا ، يوم أن اختلف ملاديتش مع ميلوشيفيتش ، حول تقبل خطة فانس ـ أوين ، أن هناك اختلافا بين استراتيجية « صرب البوسنة » وبين زعامة بلجراد وسياستها ·

ومهما يكن من أمر ، فان هذا المحاولة التجميلية آتت آثارها المرجوة ، فان السياسيين المبرزين الغربيين مثـــل وزير الخارجية البريطـــانى دوجلاس هيرد ، سرعان ما أخذوا يصفون القتال الناشب فى البوسنة بأنه « حرب أهليــة » · كمـا أن محررا سابقـا مبرزا فى جريدة التايمز نشر عددا من المقالات وصف فيها القتال بأنه « حرب أهلية » بمعنى الكلمة· وظلت الاذاعة البريطانية تشير باستمرار الى كل جوانب ذلك الصراع ، بما فى ذلك الحكومة البوسنية نفسها بأنها « أحزاب متناحرة » ، ووصفت الحرب بأنها « انهيار للقانون والنظام » · (اذ حدث فى مناسبة ما فى أبريل ١٩٩٢ ، عندما قطعت الطريق على ست سيارات للأمم المتحدة قوات غير نظامية صربية ، أعلنت الاذاعة البريطانية أن « جهود تقديم المساعدة للاجئين يحول دونها انهيار للقانون والنظام » ، ولعـــل هذا هو الحادث الأول من نوعه والوحيد فى التاريخ الذى يشار فيه الى اختطاف ســـيارة محملة بالأغذية على يد انهيار القانون والنظام !) (١٥) · ولم يكن بوسع بريطانيا أن فهم ما كان يحدث هناك لسبب آخر وهو أنه فى الأيام الحرجة الحاسـمة الأولى فى أبريل ١٩٩٢ كانت بريطانيـا تجتاز انتخابات عامة ، ومن ثم لم يكن فى المستطاع الالتفات الى ما كان يجرى فى البوسنة الا من جانب قلة من المعلقين والساسة ، وأخيرا عندما تنبهوا الى وجود حرب حقيقية ناشبة فى ذات الاقليم لم يستطيعوا أن يروا الا مجموعة من المتقاتلين المتشابهين تماما فى الشراسة ، يقاتلون بعضهم بعضا من أجل أســباب لا ســـبيل الى فهمها · فأما فى الولايات المتحدة · فان موعد انتخابات الرئاسة كان بعد سبعة أشهر ، ولكن ادارة بوش حرصت على تجنب أية سياسة تنطوى على التورط ، وتؤثر على نتيجة الانتخابات ، وكانت قانعة بقبول رأى زعماء المجموعة الاقتصادية الأوروبية ، الذين كانوا ادعوا منذ بداية الحرب اليوغوسلافية أن هذه انما هى « مسألة أوروبية بحتة » ·

وأخذت قوات الدفاع المحلية التابعة للحكومة البوسنية على غرة ، (ربما كان عدد رجالها لا يتجاوز ٣٥٠٠ رجل فى مجموعها كله) ، ولكنها حاولت بالفعل أن تظهر شيئا من المقاومة أثناء شـــهر أبريل · ولكن فى هذه الفترة المبكرة كانت المقاومة الرئيسية من جانب الكروات · ففى غرب الهرسك ، كان الكروات قد أعدوا بعض العدة ، وانضم اليهـم رجـال من القوات الكرواتية غير النظامية · فقد كانت هذه القوة ممتزجة بالجيش الكرواتى امتزاجا رسميا أثناء حرب ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ التى دارت رحاها فى كرواتيا ، حتى اذا انتهت تلك الحرب أو أوشكت ، ذهب كثير من أعضائها الى الهرســك كوسيلة للهرب من رقابة الجيش الكرواتى عليهـم · وفى أبريل ١٩٩٢ شكلوا ما يقارب ٥٠٠٠ من تلك القوة ذات الخمسة عشر ألف

رجل من المقاتلين الكروات ، التى كانت مجتمعة بتلك المنطقة : أما الكروات المحليون فانهم نظموا تحت رعاية « مجلس الدفاع الكرواتى » • وبدءوا فى نهاية مايو فى القيام بهجوم مضاد نجح ، بعد أكثر من شهر من القتال ، فى دفع قوات الجيش الفيدرالى بعيدا عن منطقة موستار • وانضم اليهم فى تلك المدينة ما قد يصل الى خمسة عشر ألفا من قوات الجيش النظامى من داخل كرواتيا ، وقد جلبوا معهم كمية صغيرة من الدبابات وبضع قطع من المدفعية ، وفى ١٦ يونيو وقع الرئيس عزت بيجوفيتش مع توجمان محالفة بين قطريهما تبيح استخدام كل من قوات الجيش الكرواتى وقوات مجلس الدفاع الكرواتى المحلية (١٦) • وفى أجزاء من شمال البوسنة أيضا ، وبخاصة بمنطقة پوسافينا ، تمكنت مقارمة القوات الكرواتية ، من وقف التقدم الصربى تماما ، كما أنها تمكنت فى بعض الأماكن الأخرى من رده على أعقابه •

وكانت النوايا السياسية لزعامتى الكروات والبوسنيين الكروات . عرضة لبعض الشكوك • فانهـــم أقاموا لعدة أســـابيع وهم يحاجون عزت بيجوفيتش أن يعلن قيام دولة كونفدرالية بين البوسنة وكرواتيا ، ولكنه كان يرفض على الدوام فعل ذلك ، اما لأنه كان يخشى من امتصاص البوسنة فى النهاية فى داخـــل كرواتيا أكبر منها ، أو لأنه ظن أن حركة كهذه ستعطى تبريرا لحجج الصرب • وتفكيره هذا يدل على أنه كان يعتقد فى ضرورة أن تمثل حكومته الصربيين ، كما تمثل المسلمين والكروات ، بل الواقع أنه احتفظ فعلا بالوزراء الصرب فى وزارته طوال مدة الحرب بأكملها • ولكن محاولة عزت بيجوفيتش أن يكون متوازنا ، أثارت عليه الكروات ، الذين كان هدفهم الاستراتيجى العسكرى واضـــحا فى تلك المرحلة ، كما أنه أغضبهم ، بأن عين فى القيادة العامة للجيش ، الضباط المسلمين القلائل الذين ارتقوا الى رتبة الجنرال فى الجيش اليوغوسلافى الفيدرالى ـ وهو شفير هلالوفيتش ، وله سابقة قيادة وحدات آلية كثيرة هاجمت كرواتيا أثناء الحرب السابقة • وطوال يونيو ويوليـــو ظل زعيـــم حزب الاتحاد الكرواتى الديمقراطى فى البوسنة ، ماتى بوبان يضغط على عزت بيجوفيتش عسى أن يوافق على قيام الدولة الكونفيدرالية ، وذلك اما بتهديده بسحب قواته أو بسد الطريق على امدادات الجيش • وفى أوائل يوليو أعلن بوبان قيام « مجتمع الهرسك والبوسنة الكرواتى » ، اى تأسيس اقليم كرواتى يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى ، وأدخلت فيه العملة الكرواتية ورفع فيه العلم الكرواتى • ثم حدث فيما بعد أن صدر بيان رسمى على لسان أحد مشيرى بوبان آكد فيه أن ذلك انما هو اجراء

مؤقت ، وأن المنطقة لابد أنها ستكون فى نهـاية الأمر « جزءا لا يتجزأ من البوسنة » مرة أخرى (١٧) ٠

فأما ان بوبان نفسه كان يريد حقا لهذه المنطقة أن تنضم الى كرواتيا ، فأمر ظاهر يمكن افتراضه مقدما ، ولكن اعلانات الرئيس توجمان الرسمية استمرت تطرى فكرة الحفاظ على سلامة الحدود البوسنية على أن بعض مستشارى توجمان المقربين ، وبخاصـــة وزير دفاعه الهرسكى المولد ، جويكو شوشاك ، كان يحبذ اقتطاع بعض مناطق من البوســنة ، بيد أن كثيرا من الوزراء الآخرين ومعظم حزب المعارضة فى كرواتيا كانوا معارضين لذلك ٠ ولعل من العدل أن نقول ان موقف توجمان الخاص كان ينطوى على موقف انتهازى عقلانى ٠ فلو أنه أعطى اشارات واضـــحة من العالم الخارجى ، بأنهم لن يسمحوا بهزيمة البوسـنة وتقطيعها ، فسيمضى قدما بتلك السياسة ، ولكن اذا كان العـالم مستعدا أن يســمح للصرب بأن يستولوا على الأراضى ويستمسكوا بها ، فانه كان يرجو أن ينال نصيبه من الكعكة هو أيضا ٠ لكن المجتمع الدولى لم يعطه أية اشارة واضحة تدل على عزمه على الحفاظ على وحدة البوسـنة فى حـين أن مستقبل المناطـق المأهولة بالصرب فى البوســنة كان غامضا ، مع صدور اجراءات متعاقبة مماطلة كسبا للوقت ، كان المقصود منها بسط انتـــداب الأمم المتحدة عليهم ٠ وذلك ما أتاح لتوجمـــان سببا اضافيـــا للمساومة على أرض البوسنة ٠

وعلى العموم كان رد فعل المجتمع الدولى مرتبكا أو سلبيا ٠ وعندما بدأ القتال فى البوسنة كانت الأمم المتحدة فى بداية انشاء مقر قيادة عليا فى سراييفو ، فضلا عن قواعد فى بعض مدن البوسنة الشمالية ، لكى تدير عمليات حفظ السلام فى كرواتيا ٠ وفى أوائل مايو رفض الأمين العـــام بطرس بطرس غالى استخدام قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة فى البوسنة ، وفى يوم ١٦ مايو سحبت معظم قوة الأمم المتحدة الموجودة أصلا فى سراييفو ٠ وبعد ذلك بأسبوعين أصدر بطرس غالى تقريرا كرر فيه الخط الأساسى لمناورة ميلوشيفيتش ، وهى أن الجيش والقوات شـــبه النظامية بالبوسنة كانت « مستقلة » ولا علاقة لهـا ببلجراد ٠ كان الهدف من وراء هذا التقرير هو المحاجة ضد فرض العقوبات على صربيا ــ وهو اجراء اقترحته الحكومة الأمريكية ، ولكن قاومته كل من فرنسا وبريطانيا اللذين قالا انهما يريدان اعطاء ميلوشيفيتش « فرصـــة أخرى لايقاف ما يجرى فى البوسنة من عنف » (١٨) ٠ (والواقع أن العقوبات فرضت على صربيا فى ٣٠ مايو ، ولكن لم يكن لهـا أى تأثير فى الجهـــد الحربى

الصربى ، كما أنها قوضت تقويضا شديدا بما سلم من البترول وغيره من الامدادات ، التي كانت تصل برا من اليونان أو ترسل عبر الدانوب من روسيا وأوكرانيا) ٠

كانت نقطة الاخفاق الجوهرية التى وقع فيها الساسة الغربيون ، هى أنهم لم يكونوا ينظرون الا الى أعراض الحرب ، ولم يكونوا ينظـرون الى أسبابها : وكأنما لم يكونوا يريدون حتى أن يفهموا طبيعـة مشروع ميلوشيفيتش ٠ لقد أصروا على معالجة الحرب بوصفها فى جوهرها مشكلة عسكرية أكثر منها مشكلة سياسية ٠ ولم يعد اقتسام المسئولية أو توقيع اللائمة الا مجرد الاشـارة بالاصبع الى أقوام يتبادلون اطلاق البنادق ، ولما كانت هنـاك الآن جهتان تتبـادلان ذلك الاطـلاق وقع اللوم عليهما كلتيهما ٠ « وبذلك تقع اللائمة على كل فرد ازاء ما يحدث فى البوسنة والهرسك » ، ذلك ما صرح به مفاوض المجموعة الاقتصادية الأوربيـة ، لورد كارينجتون ، فى احدى ملحوظاته التى تنم تمـامـا عن عدم فهمه للموضوع ٠ وقال : « وبمجرد الوصول الى تنفيذ ايقاف تبـادل النـار ، لن تكون هناك حاجة الى لوم أى جانب من الجانبين » (١٩) ٠ والتشبث عند حد ايقاف تبادل النار ــ وهو أمر تم خرقه أكثر من مئة مرة أثناء الجزء الباقى من السـنة ــ أصبح أوضح دليـل وأكبر عارض على سـوء الفهم السـياسى ٠

ونظرا لأن الحرب كانت ترى فى جوهرها مجـرد مشكلة عسكرية وحسب ، سببه شىء ما يسمى « العنف » الذى « انفجـر فجـأة » من « كل من الجانبين على السواء » ــ فان جهود الغرب كانت موجهة الى ما كان يوصف آنذاك « بتقليص حجم القتال » ٠ ومن هنا جاء دمار البوسنة وكان أكبر عامل فى ذلك رفض رفع حظر توريد السلاح على الحكومة البوسنية ٠ لقد فرض ذلك « الحظر » من جانب الأمم المتحدة فى سبتمبر ١٩٩١ على يوغوسلافيـا بأكملها التي كانت لا تزال فى تلك المرحلة من الناحيـة الرسمية دولة واحدة ٠ وبالرغم من أن الأمم المتحدة اعترفت بالبوسـنة وأدخلتها دولة عضوة متميزة ومستقلة عن يوغوسلافيا فى ٢٢ مايو ١٩٩٢ ، فانها استمرت فى تطبيق الحظر كأنمـا لم يحدث أى تغيير ٠ وهى بطبيعة الحال قد استمرت فى تطبيقه على صربيا أيضا ٠ بيد أن صربيا كانت تمسك بكلتا يديها معظم أكداس الأسلحة المتبقية عن الجيش الفيدرالى السابق ، كما أنها كانت تمتلك صناعة سلاح ضخمة خاصة بها ٠ (ومن بين مصانع الأسلحة الرئيسية العظمى فى البوسنة ما كانت قائمة فى المناطق العرقية للصربيين : مثل مصنع قنابل المدفعية القائم فى المنطقة الصربية فوجوتشا

خارج سراييفو ، وهو المصنع الذى استولت عليه القوات الصربيــة عند بداية الحرب) • وبالاضافة الى ذلك ، فان الجيش اليوغوسلافى اشترى مقدارا اضافيا يقدر بأربعة عشر ألف طن من الأسلحة من الشرق الأوسط قبيل تنفيذ قرار حظر السلاح فى ١٩٩١ (٢٠) • وكان القواد العسكريون الصربيون يفاخرون ، فى أحيان كثيرة ، بأن لديهم من الأسلحة والذخيرة ما يكفى لمواصلة الحرب فى البوسنة ست أو سبع سنوات أخرى ، ولم يكن فى امكان الحظر والحالة هذه ، أن يكون له أدنى أثر حقيقى على قدرتهـم العسكرية • ولكن ذلك الحظر كان بالنسبة لقوات الدفاع البوسنية قرارا بالاعدام على المدى الطويل •

ومن المسلم به أن امدادات قليلة من الأسلحة كانت تصـل الى البوسنيين بالفعل ، وذلك على يد كرواتيا فى غالب الأمر رغم ذلك الحصار المضروب على الساحل الكرواتى منذ يوليو ١٩٩٢ من جانب حلف شمال الأطلنطى والأساطيل الصغيرة التابعة لاتحاد غرب أوربا • وبقيت بضعة مصانع أسلحة قليلة داخل المناطق التى تسيطر عليها الحكومة البوسنية، وظل بعضها قادرا على الانتاج رغم الاضطراب فى الامدادات • وفى بعض الأحيان كانت قوات الحكومة البوسنية تستولى أيضا على بعض المواد من الجيش الصربى : ومن أبرز تلك العمليات بشمال توزلا الاستيلاء على طابور مدرع بأكمله • ولكن الشىء الذى كان يعوز البوسنيين على الدوام هو المدرعات الثقيلة والمدفعية ، والأسلحة المضادة للدبابات • وفى سبتمبر قدر أنهم يمتلكون دبابتين واثنتين من حاملات الجنود المدرعة وذلك بينما كان الجيش الصربى فى البوسنة يمتلك ثلاثمئة دبابة ومئتين من حاملات الجنود المدرعة وثمانمئة قطعة مدفعية وأربعين طائرة (٢١) • ثم جاء تقدير آخر صدر فى يونيــة ١٩٩٣ ، وهى يحدد الأسلحة التى استولى عليها البوسنيون بأنها تصل الى أربعين دبابة وثلاثين حاملة جنود مدرعة بالاضافة الى عدد ضخم من قطع المدفعية الخفيفة ، وكان المظنون أن القوات الكرواتية تمتلك ما يقرب من خمسين دبابة وأكثر من مئة قطعة مدفعية (٢٢) •

ومع هذا ، ورغم الفارق الكبير فى التوازن التسليحى ورغم الفيض المستمر للوقود والامداد الموجـه الى القوات الصربيــة ، فان التاريخ العسكرى للحرب أثناء ١٩٩٢ ، كان تاريخ تعادل حقيقى وندى منذ اللحظة التى بدأت فيها قوات حكومتى البوسنة والكروات فى تنظيم صفوفها فى أواخر ١٩٩٢ • وفى الشهور التسعة التاليـة ، أمكن ايقـاف القوات الصربية ، كما أنها فى بعض المناطق اضطرت الى التراجع : وبخاصة فى الهرسك أثناء شـهرى مايو ويونيو ، وحـول جورازده (Gorazde)

فى أغسطس ، وفى ممر برتشكو بشمال البوسنة الشرقى ، بدرجة منقطعة طوال الخريف ، وفى أجزاء من وادى الدرينا بشرق البوسنة فى يناير ١٩٩٣ • كان هناك فارق فى التكتيكات العسكرية بين الجانبين ، يعبر عن فارق فى السيكولوجية والدوافع • وكان التكتيك الأساسى للجانب الصربى هو نفس التكتيك الذى سبق استخدامه فى كرواتيا ، وهو القعود على مسافة معقولة حذرة ، ودك المناطق التى كانت تهاجمها بالقصف المدفعى ، مدة أسابيع ، بل حتى شهورا متتالية بلا توقف • وكان كثير من المجندين الذين يعملون فى هذا الجيش الفيدرالى سابقا يفتقرون الى حافز يدفعهم لمهاجمة ديار المسلمين والكروات ، بينما كان (٢٣) هؤلاء لديهم الحافز للدفاع عنها ، ولو كانت الحكومة البوسنية قادرة على أن تمارس الحق الطبيعى لأية حكومة أخرى ، فى الحصول على الأسلحة للدفاع عن شعبها ، فان من المحتمل تماما أن المكاسب الصربية ما كانت الا لترتد على أعقابها فى كثير من أرجاء البوسنة ، ان لم يكن ذلك الى حد الهزيمة المطلقة لزعماء الصرب ، وعند ذلك قد تكون الهزيمة الى حد أنهم يدركون ويعلمون أنهم لن يستطيعوا الحصول على الأرض التى يريدون عن طريق الفتح • وعندئذ ما كانت الحرب الا لتنتهى فيما يحتمل فى مدى أربعة أو ستة أشهر • ولكن ذلك لم يحدث ، لأن تسليم الأسلحة الى الحكومة البوسنية كان يلقى مقاومة شديدة من رجال من أمثال دوجلاس هيرد ، الذى كان يحاج بأن السماح للبوسنيين بالدفاع عن أنفسهم لن يعود الا « بتطوين أمد القتال » •

وكانت أول بادرة باحداث تغيير ممكن فى السياسة الغربية فى أوائل أغسطس ١٩٩٢ ، بعد أن قام عدد من رجال الصحافة ومجموعة من مندوبى التليفزيون بزيارة أحد « معسكرات الاعتقال » التى يديرها الصرب بشمال البوسنة • ولأول مرة استطاع الرجال العاديون والساسة أن يشهدوا بأعينهم الدلائل القاطعة التى تشهد بمأساة السكان المسلمين بتلك المنطقة • ولم تكن الحقائق مجهولة ، أو لم يكن يجوز أن تكون مجهولة ، لدى الأمم المتحدة ولدى الحكومات الغربية : خاصة وأن تيارا ضخما من التقارير من موظفى الأمم المتحدة فى المناطق المجاورة بكرواتيا ، أشار الى معسكرات الاعتقال هذه أثناء الشهرين السابقين ، كما أن تقريرا أصدرته المنظمة العالمية لحقوق الانسان فى ٢٩ مايو ذكر أمثلة كثيرة للمسلمين المدنيين الذين اعتقلوا واحتجزوا بالمدارس وغيرها من المراكز ، فضلا عن أنهم كانوا فى بعض الحالات يقتلون (٢٤) • وفى أوائل شهر يونيو أصدرت الحكومة البوسنية قائمة بأسماء أربعة وتسعين مكانا

لسجون ومعسكرات اعتقال يديرها الصرب ، ومعها تقدير لعدد الناس الذين قتلوا حتى ذلك الحين بأنه تسعة آلاف وثلاثمئة من الأنفس (٢٥) ٠ وهذا الرقم لم يكن بأية حال قريبا من المجموع الكلي للمدنيين ممن اعتقلوا وأعدموا رميا بالرصاص : وبغض النظر عن ضحايا القصف المدفعي ، فان هناك كثيرا ممن اعتقلوا وأعدموا في القرى والمدن بجميع أرجاء البوسنة ٠ وهناك حالة تدعمها وثائق جيدة بوجه خاص ، وهي حالة مدينة زاكلوباتشا المسلمة (Zaklopatca) ، حيث أعدم ما لا يقل عن ثلاثة وثمانين قرويا ـ يكادون يشكلون مجموع الرجال المقيمين بتلك القرية ـ حيث « نفذ فيهم حكم الاعدام بالجملة » على يد الجنـد غـير النظاميين الصربيين في يـوم ١٦ مايو ١٩٩٢ ٠ وهاكم مثالا نموذجيا لها :

« كان زوج أختي حاسو هودجيتش ، واقفا في الخارج أمام المنزل، عندما اقترب منه جند التشيتنيك وبدءوا بندائه بالأوستاشا ٠ فشرع زوج أختي في السير نحوهم ، فطلبوا منه تسليم أسلحته ٠ فأخبرهم بأنه لا يملك أسلحة ، وأنه يمكنهم أن يأخذوا بقراته ٠ وعند ذلك فتح عليه النار أحد التشيتنيك فأرداه صريعا » (٢٦) ٠

وفي بعض الأماكن ، جـرى قتل متعمد لكل المسـلمين المتعلمين ، ووجوه المجتمع المحلي : المعلمين والأطباء والمحامين ٠ وقد أظهرت التقارير المفصلة التي ظهرت بعد ذلك ، في نفس السـنة ، أن بعض معسـكرات الاعتقال قد استخدمت أيضا مقرا للقتل المنظم ٠ وكان هناك أيضا كثير من التقارير المدعمة بالأسانيد والوثائق عن نساء يقبض عليهن ويحتجزن في مبان خاصة بغرض الاغتصاب المنظم (٢٧)

كان رد فعل الساسة الغربيين ازاء مشـاهد السجناء المعذبين في المعسكرات ، هو مجرد التعبير فقط عن الغضب والاهتمام ٠ مثال ذلك أن لورد أوين وهو يكتب كمعلق مستقل ، دعا الى شن غارات جوية على القوات الصربية ٠ فرد دوجلاس هيرد على كل هذه الدعوات الى التدخل ببيان قال فيه : « ان هناك « مبررا » كبيرا للتدخل ٠ واذا قدرنا أن تدخلا عسكريا يستمر لمدة أيام قليلة سيضع نهاية لتلك الآلام ، فان الأمر لن يكون مجرد « مبرر » كبير بل سيكون دافعا هائلا » (٢٨) ٠ وهنا ، كان سيادته يعترف لأول مرة بصحة المبدأ القائل بأنه ربما كان من الصواب أن « نزيد حـدة القتال » في المدى القصير لكي ننهيه في المدى الطويل ٠ بيد أنه كان لايزال يعارض باصرار تام فكرة تطبيق هذا المبدأ بالسـماح للحكومة البوسنية

بالدفاع عن نفسها ، مستخدمة قواتها الخاصة وقدرا كافيا من الأسلحة ·
ولكنه كان ، شأن معظم الزعماء الغربيين الآخرين ، لايزال ينظر الى القتال على أساس أنه حرب أهلية (« وأنها حرب لا خط لجبهة فيها ·· فالقرية منقسمة على نفسها الى شطرين متعادين») ، ومفهوم وواضح للعيان أنه كان كارها للتدخل بالجند البريطانيين ــ وهو شيء لم تكن الحكومة البوسنية على كل حال تسأله أن يفعله ·

ووقع على عاتق الحكومة البريطانية ، كمتولية لرئاسة المجموعة الأوربية الاقتصادية ، أن ترأس مؤتمرا مشتركا للمجموعة والأمم المتحدة حول الموقف في يوغوسلافيا بأكملها ، وهو مؤتمر عقد في لندن خلال الأسبوع الأخير من أغسطس · وبات الشلل الذى أصاب الغرب أوضح كثيرا · فحصل جون ميجور على ما زعمه تعهدات جادة قاطعة من زعماء الصرب برفع الحصار عن المدن البوسنية كبيرها وصغيرها ، وأن يضعوا أسلحتهم الثقيلة تحت اشراف الأمم المتحدة · ولكن الاشراف فسر بمعناه الأصلى الحرفى : فسمح لمندوبى الأمم المتحدة بأن يرصدوا قطع المدفعية الموجهة الى سراييفو كل يوم وهى تطلق قذائفها دون التدخل لمنعها · والاجراء الآخر الذى تم الاتفاق عليه فى المؤتمر كان يتضمن تشديد العقوبات على الصرب عند نهر الدانوب ، (وان لم تكن هناك حتى آنذاك أية وسيلة لايقاف الصنادل العائمة عن التقدم بما تحمل ، اللهم الا استخدام مكبرات الصوت) ، وحظر تحليق الطائرات فوق البوسنة (وان لم تعد العدة لتنفيذ ذلك) ، وتعيين اللورد أوين المقاتل المحارب ليحل محل لورد كارينجتون فى وظيفة مفاوض المجموعة الاقتصادية الأوروبية (وان كان اللورد أوين قد أسقط على الفور تهديده بالعمل العسكرى ، وبدأ يعامل الصرب بوصفهم فئة متكافئة فى المفاوضات لها ادعاءاتها الصحيحة مثل الأطراف الأخرى تماما) ·

وللمرة الثانية فشل المجتمع الدولى فى أن يدرس الأسباب الجوهرية للصراع · والآن أصبح التأكيد مركزا على شيئين : الحلول العسكرية للمشاكل العسكرية ، والحلول الانسانية للمشاكل الانسانية · ومع أن مصطلح « التطهير العرقى » كان دائرا على الألسن فى كل مكان ، فقد ظل الافتراض قائما بأن المشكلة الجوهرية عسكرية بحتة ، وأن فرار السكان المقهورين والمرعوبين ، لم يكن الا نتيجة ثانوية للقتال · وعند ذلك أصبحت المسألة توصف بأنها مسألة أو مشكلة انسانية ، يمكن أن « تحل » بنقل اللاجئين الى معسكرات لاجئين خارج البوسنة · فأما الشيء الذى لم يكن مفهوما تماما ، فهو أن التطهير العرقى لم يكن نتاجا ثانويا للحرب، وانما هو

جزء محورى أساسى من المشروع السياسى الذى كان مقصودا من الحرب أن تنجزه . وأعنى بذلك خلق مناطق صربية متجانسة ، يمكن فى خاتمة المطاف أن تضم الى مناطق صربية أخرى ، بما فى ذلك صربيا نفسها ، بغية خلق دولة صربية عظمى .

وأما البعثات الانسانية التى كان يرسلها العالم الخارجى ، فانها كانت تنقذ الحياة البشرية دون أدنى مراء . على أنها كانت لها عواقب أخرى غير مرغوبة ولكنها أيضا غير بعيدة عن العقول ولا غير متوقعة : اذ كانت الميليشيات المحلية تتعامل واياها بوصفها مصدرا للمئونة ، حيث كانت تتلقى منها بانتظام مقدارا يصل الى ربع المقادير المسلمة للناس ، والتى كانت تمر من خلال نقط تفتيشهم ، مع ابتزاز مبالغ طائلة من الأموال أيضا (٢٩) . وبينما وكالات المعونة العامة والخاصة تبذل جهودا مضنية لجلب الطعام والأدوية الى البوسنة أثناء النصف الثانى من عام ١٩٩٢ ، انضم اليهم عدد متزايد من جند الأمم المتحدة (بلغوا ثمانية آلاف تقريبا عند نهاية السنة) ، وكان دورهم ، بالاضافة الى حماية قوافل المساعدات ، غير واضح ، وكانت العاقبة السياسية لوضع هذه القوة الصغيرة الخفيفة التسليح فى البوسنة هى أنها أصبحت فى وضع الرهينة ، ومن ثم صارت الدول الغربية أكثر ترددا فى تبنى أية سياسات قد يترتب عليها الانتقام من جانب الصرب من هذه الحشود المكشوفة من الجند . وهكذا حدث عند حلول ديسمبر ، أن الحكومة البريطانية التى ساعدت فى اقامة منطقة « حظر الطيران » فوق البوسنة ، كانت تجادل فى الأمم المتحدة ضد اتخاذ أى اجراء لتطبيق الحظر ، خشية ما ربما قد يقع منه من ضرر على الجنود البريطانيين فى البوسنة اذا حدث وأسقط سلاح الطيران الملكى البريطانى طائرة صربية (٣٠) .

وفى أواخر أكتوبر ١٩٩٢ قدم مفاوضا المجموعة الاقتصادية الأوروبية والأمم المتحدة وهما لورد أوين وسيروس فانس ، أول اقتراح تفصيلى لتسوية سياسية . كانت تلك التسوية عبارة عن « حل » وصلا اليه بتنفيذ مطالب الصرب والكروات والمسلمين عن طريق رسم خطوط هندسية بين الأطراف جميعا . كانت النتيجة أن أعطى الصرب مساحة كبيرة من الأرض ، مما استفز المسلمين الى الشعور بأن الصربيين قد كوفئوا على عدوانهم ، ومما أشعر الصرب بأنهم لو استمروا فى أعمالهم، فلابد أنهم سينالون قدرا أكبر . وقد وضع هذه الخطة أصلا دبلوماسى فنلندى اسمه مارتى اهتيسارى (Martti Ahtisaari) وترمى الخطة الى تحويل البوسنة الى « مقاطعات ذات استقلال ذاتى » أو كانتونات تقوم بجميع وظائف

الحكومة بما فى ذلك أعمال الشرطة · وتتولى الحكومة المركزية فى البوسنة مسائل الدفاع القومى والشئون الخارجية فقط · وعندئذ ضغط الصرب ضغطا أشد عندما صدرت الخطة فيما قيل انه آخر اطار نهائى لها بمدينة جينيف فى يناير ١٩٩٣ ، حتى أن شئون الدفاع انتزعت من سلطات هذه الحكومة المركزية المقترحة (٣١) ·

كانت مزايا خطة فانس ـ أوين تنحصر فى اصرارها على أن يسمح للاجئين بالعودة الى ديارهم بكل أرجاء البوسنة ، واصرارها على عدم توصيل الكانتونات التابعة للمناطق التى يحتلها الصرب بطريقة تجعل من السهل عليها أن تحاول أن تنضم الى صربيا بوصفها كتلة أرضية واحدة· ومن أسف أن هذين المبدأين الجديرين بالثناء كانا متناقضين مع بقية الخطة ، ومع الواقع نفسه ! · اذ أن بقية الخطة كانت تعطى سلطات تشريعية كاملة وقضائية وتنفيذية (بما فى ذلك الشرطة) للكانتونات ، وهو أمر كان من المستحيل معه أن يعود اللاجئون المسلمون فى أمان الى الكانتونات التى يحكمها الصرب (٣٢) · كما أن واقع الأمر على سطح الأرض كان يشير الى أن المناطق التى استولى عليها الصرب كانت متصلة ، وكان من المستحيل على زعماء الصرب أن يفرطوا فى هذه الروابط التى كانت عنصرا أساسيا فى خططهم الخاصة ·

ومن العيوب الأخرى فى هذه الخطة والتى تجلت فى صورتها التى نشرت فى يناير ، أن أعطيت الكانتونات أسماء « عرقية » على الخرائط ، رغم ان هذا الأمر لم يكن منصوصا عليه فى صورتها الأصلية ، كما أنها أوحت فى نفس الوقت بأن الحدود الدقيقة على الخرائط ليست مع ذلك نهائية بعد · الأمر الذى جدد التنافس على احتياز الأرض · على أنه مما يزيد الطين بلة ، أن الخطة كانت تستنفر التنافس بين القوات الكرواتية والمسلمة ، على أجزاء من وسط البوسنة ، التى يعيش فيها خليط من السكان المسلمين والكرواتيين · وهنا تكون هذه ، بعد قرار حظر الأسلحة على المسلمين ، ثانى أهم مساهمات الغرب التى أسداها فى سبيل تدمير البوسنة ، اذ أنها وضعت أسسا لتطوير حرب أهلية حقيقية ، واذ فعلت ذلك ، فانها قصمت ظهر التحالف الكرواتى المسلم ، الذى كان الحاجز الوحيد الذى يوقف الصرب عند حدهم ·

وكما رأينا آنفا ، كانت هناك توترات بالفعل بين المسلمين البوسنيين وزعماء الكروات · ففى سبتمبر ١٩٩٢ ، ظهر تقرير بأن الزعيم الكرواتى ماتى بوبان كان يحض قوات مجلس الدفاع الكرواتى على أن يكفوا عن

مساعدة قوة الدفاع البوسنية ، في محاولاتها كسر الحصار حول سراييفو (٣٣) • وحدثت في أكتوبر بعض مناوشات بين الميليشيات المسلمة والكرواتية في ترافنيك وبروزور ، كما حدث تبادل من مرير اللوم بين الجانبين حول سقوط يايسه في أيدى الصرب • ولكن حتى الآن لم يكن هناك اى فتال واسع المدى بينهما ، كما أن التحالف العام ظل قائما • ولم يلبث ذلك الموقف أن تغير تدريجيا بتأثير خطة فانس ـ أوين في أوائل ١٩٩٣ • وفي فبراير حوصرت القوات المسلمة في جورني فاكوف بواسطة قوة جند مجلس الدفاع الكرواتي ، وفي المنطقة بين فيتيز (Vitez) وكيسيلياك (Kiseljak) (وهي منطقة خلاف على خريطة فانس ـ أوين) اشتبك كل من المسلمين والكروات في قتال وصفه تقرير بأنه « تطهير عرقي مستقل » (٣٤) • وفي أوائل أبريل ، وقعت اشتباكات من القتال الثقيل بين المسلمين والكروات بمنطقة ترافنيك ـ فيتيز ـ زينيكا في وسط البوسنة (٣٥) • وأصدر مندوب هيئة الأمم المتحدة لشئون حقوق الانسان ، تادوتس مازوفيسكي (Tadeusz Mazowiecki) تقريرا في الشهر التالي ، محذرا بوضوح أن خطة فانس ـ أوين كانت تثير عملية التطهير العرقي ، ولكن سبق السيف العذل (٣٦) •

واجتمع الأثر المزدوج لحظر توريد الأسلحة ، وخطة فانس ـ أوين ، فأضعف بصورة قاتلة كل المقاومة العسكرية ضد الصرب • وحتى وقت متأخر هو يناير ١٩٩٣ ، كانت تنشر تقارير عن صد القوات الصربية على أعقابها بمناطق عديدة ، وبخاصة في منطقة براتوناك في وادى درينا (٣٧) • بيد أن نقص الذخائر كان قد أخذ بدرجة خطيرة في تعويق قوات الدفاع البوسنية • وفي الشهور الأولى من ١٩٩٣ ، صعدت القوات الصربية بدرجات واضحة حملتها على عدد من الجيوب المسلمة المحاصرة داخل المنطقة التي غزاها الصرب بشرق البوسنة : وعلى الرغم من مبادرات أجيد تدبيج الدعاية لها بقلم القائد العام لقوات الأمم المتحدة وهو الجنرال موريليون وبقلم القوات الجوية الأمريكية التي كانت تسقط عليها الامدادات والأغذية بالمظلات ، فان هذه الجيوب لم تستطع أن تصمد طويلا • وهنا انقلبت سربرينيكا ، التي كانت في أخريات العصور الوسطى أعظم مدن البلقان الغربية رغدا لاحتوائها على عمال مناجمها الألمان وتجارها الراجوزيين ورهبانها الفرنسيسكان ، الى معسكر عملاق للاجئين التعساء• أما زيبا (Zepa) ، فانها لما دخلها المراقبون الأجانب ، وجدوها مهجورة : فعندما نفدت ذخيرة المدافعين عنها ، فر سكانها الى التلال المطلة عليها وعاشوا في الكهوف على المئونة التي كانت الطائرات الأمريكية تسقطها عليهم (٣٨) •

وتحت هذا الضغط العسكرى ، تحركت الحكومة البوسنية ، خلال مارس وأبريل ، نحو تقبل خطة فانس – أوين • اذ تيقنت علم اليقين يومئذ ، بانقطاع الأمل فى أن يزيل الغرب السبب الأساسى فى ضعف البوسنة العسكرى ، وهو حظر الأسلحة عن البوسنة : وقد عبرت كل من الحكومتين الأمريكية والألمانية بايجاز مختصر عن استقرار نيتهما على الغائه ، ولكن سعى دوجلاس هيرد المجدد لديهما أقنعهما بأن يغير رأيهما (٣٩) • وحتى التدخل الصريح الواضح من جانب الليدى ثاتشر فى التليفزيون البريطانى والأمريكى فى منتصف أبريل ، لم يستطع أن يهز سياسات كل من حكومتى هاتين الدولتين • وكانت الحكومة البريطانية بوجه خاص مفتونة بخطة سلام فانس – اوين ، ولا تقبل مطلقا النظر فى أى تغيير أو حركة ، يمكن أن تعرض هذه الخطة للخطر • والأمر فى تلك المرحلة لم يكن يحتاج الى أى نوع من الفراسة للقول « بأنه حتى الأعمى كان يرى ان خطة فانس – أوين لايمكن تنفيذها على الاطلاق » (٤٠) •

والطريقة الوحيدة التى كانت تستطيع بها خطة فانس – أوين أن تحصل ولو على قبول رمزى من الصرب ، هى أن تكون محطة على طريق الانفصال الكامل للمناطق التى غزاها الصرب • على هذا الأساس قام رادوفان كاراجيتش ، بتشجيع من سلوبودان ميلوشيفيتش ، بالتوقيع على الخطة فى اجتماع خاص عقد فى أثينا فى الثانى من مايو ١٩٩٣ • وموقف صربيا هذا ، شرحه دراجوسلاف راتشيتش ، وهو المتحدث الرسمى لداعية القومية الصربية دوبريكا تشوسيتش (الذى كان قد أصبح رئيسا لصربيا والجبل الأسود) ، بقوله : « انها مجرد المرحلة الأولى ، وانها لن تدوم طويلا • وانه حتى اللورد أوين نفسه لا يؤمن بها » • وأضاف الى ذلك قوله ان المسلمين سيجدون فى النهاية أنهم يعيشون فى معازل كالسود فى جنوب أفريقيا » • وأن الصرب سيحصلون على كل شىء يريدونه (٤١) • ومع هذا فان كثيرا من سياسيى وقادة صرب البوسنة كانوا يعتقدون بأنهم مستطيعون أن يحصلوا على ما يشاؤون دون أن يكلفوا أنفسهم باتباع خطة فانس – أوين • وكانت المعارضة قوية بوجه خاص من أولئك السياسيين الصرب ، الذين أصبحوا فى واقع الأمر الحكام الشخصيين لاقطاعيات أضخم حجما ، ولا يرغبون أن تقتطع سلطتهم بأى تدخل ادارى (٤٢) • فرفضوا الخطة التى وقعها كاراجيتش فى أثينا ، ونظموا استفتاء فى الخامس عشر من مايو تمكنوا بفضله من اقناع الجنود والفلاحين الصرب أن يرفضوها أيضا • وعضد موقفهم هذا ، الجنرال ملاديتش ، الذى يبدو أنه كان على خلاف مع ميلوشيفيتش حول هذا التكتيك • وظل ميلوشيفيتش بضعة أيام وهو يصر علنا على أنه سيغلق الحدود بين صربيا والبوسنة ،

ولكنه رفض أن يسمح للمراقبين الدوليين بأن يرصدوا الحدود • وفي مدى أسبوعين عاد فيض المؤن والامدادات سيرته الأولى (٤٣) •

على أن شهادة الوفاة النهائية للبوسنة كتبت يوم ٢٢ مايو في واشنطن في اجتماع عقد لوزراء خارجية بريطانيا وروسيا وفرنسا والولايات المتحدة • والآن أسقط تماما كل حديث عن الضربات الجوية الذى استخدم تهديدا للصرب أثناء التمهيد لعقد اجتماع أثينا • بل ان فكرة فرض خطة فانس ـ أوين بالقوة قد نبذت تماما هي أيضا • وتقرر بدلا من ذلك أن يسمح لبقايا المليونين من مسلمي البوسنة بالتجمع فى عدد مما يدعى « بالمناطق الآمنة » ، حيث لا يضمن أحد فى الواقع سلامتهم: نعم انهم سيستمتعون بحراسة قوات الأمم المتحدة الذين كان يخول لهم حق أن يردوا على اطلاق النار ، ليس عند اطلاق النار على المسلمين ، بل عندما يتعرضون هم أنفسهم (أى جنود الأمم المتحدة) لأى هجوم (٤٤) • وعندما سمع الرئيس عزت بيجوفيتش بأخبار هذه الاتفاقية ـ حيث لم يكلف وزراء الخارجية أنفسهم مشقة مجرد استشارته في الأمر ـ أصدر البيان التالى :« اذا لم يكن المجتمع الدولى مستعدا للدفاع عن المبادىء ، التى سبق وأعلن أنها أساساته ، فليقل ذلك صراحة ، لكل من شعب البوسنة وشعوب العالم بأجمعها • وليعلن معيارا جديدا للأخلاقيات تكون فيه القوة العاتية هي أول وآخر حجة » (٤٥) • وفى أثناء شهور الصيف التالية ، أقدم الذين يمارسون تلك الحجة ـ وهم سلوبودان ميلوشيفيتش وفرانيو توجمان واللورد أوين ، على وضع مشروعات خطط أشد فجاجة وأكثر انكشافا وعريا ، فى تعاقب صفيق ، لتقسيم البوسنة الى ثلاث دول• وسواء أتم الاحتفاظ بورقة التوت ، المسماة دولة البوسنة الكونفيدرالية الشاملة ، أم لم يتم الاحتفاظ بها ، فأمر لا يكاد يستحق أى اعتبار • فان كل شكل لتلك الخطة لابد أن يخلق دولة مسلمة على غرار معازل جنوب أفريقيا لا يمكن العيش فيها ، وهى تسوية لن يقبلها حتى أكثر الجنود المسلمين ابتعادا عن التراث الاسلامى ومثل هذا المطمع ، بكل ما يحويه من عدم استقرار طويل المدى يسببه أى استقطاع من أراضي البوسنة ، وصفه اللورد أوين بانه « ليس حلا مثاليا » ولأجل أن نكون أكثر دقة ، فهو ليس حلا على الاطلاق •

★★★

ولو نظرنا خلفا واستعرضنا تاريخ هذه الحرب ، لوجدنا أن الأسباب الحقيقية لتدمير البوسنة لم تكن تجىء من الداخل ، وانما من خارج البوسنة نفسها • كما أنها جاءت على هذا الوجه مرتين متتاليتين : فجاءت أولا فى صورة السياسات الاستراتيجية التى اتخذتها زعامة الصرب ،

ثم جاءت ثانية فى صورة سوء الفهم والتدخل الأخرق من قبل زعماء الغرب • ومع هذا فان كل مشاهد نظر بباصرتيه الى تلك الفظائع التى لايتصورها عقل ، والتى ارتكبت أثناء تلك الحرب ، (وهى فظائع ارتكبت فى المقام الأول ، وبدرجة فاحشة جارفة على المسلمين والكروات ، ثم عادت فعدت على الصرب أيضا) ، لا يسعه أحيانا الا التعجب والتساؤل : الا ينطوى سكان البوسنة فى مجموعهم على شىء من الذهان العقلى انتهى فى خاتمة المطاف الى الظهور على السطح ؟! • فلن يستطيع أحد أن ينكر أنه كانت هنـاك بعض الممارسـات البشعة ، كالتمثيل بالقتلى ، وهو تقليد قديم يرجع الى أيام الحروب الأولى وتحدثنا عنه المرويات الشعبية ، والقصص التى تحكى عن المارتولوس المخيفين فى القـرن السادس عشر • وكان لايزال هناك فى البوسـنة رجال أحياء مسنون يستطيعون تذكر هذه الفظائع وأمثالها منذ عهد الحرب العالمية الثانية • ولكن الظن بأن هذه الحرب البوسنية انما تعتبر ضربا تلقائيا من مواصلة الحرب الأهلية العرقية التى شهدتها يوغوسلافيا أيام الحرب العالمية الثانية ، فكأنما هو ضرب من تلاوة جديدة لذلك السيناريو الذى أعده كل من كاراجيتش وميلوشيفيتش •

ان فظائع البوسنة فى ١٩٩٢ ، لم يكن يرتكبها كهول ، ولا حتى شبان يريدون اثارة الأحقاد الدفينة ولبدة الحرب العالمية الثانية • وقد بدأ النموذج بأفراد عصابات من شبان من سكان المدن يضعون على أعينهم نظارات شمس غالية الثمن ، وينطلقون من صربيا ، ونعنى بهم أفراد القوات شبه النظامية أو الميليشيات التى جندها أركان وغيره ، وبالرغم من أن الأفراد الذين يرتكبون هذه الأعمال البشعة ربما كانوا يحصلون منها على لذة سادية ، فان كل ما كانـوا يفعلونه هو تنفيذ استراتيجية عقلانية مدروسة ، يمليها عليهم قادتهم السياسيون ـ وهى استراتيجية محسوبة بعناية وحرص كاملين ، لدفع مجموعتين عرقيتين من السكان خارجـا ، وتعبئة مجموعة ثالثة بالتطرف حتى جذورها • ذلك أنى بعد أن تجولت فى جميع أنحاء البوسنة أمد خمسة عشر عاما ، أقمت بقرى مسلمة وكرواتية وصربية ، فانى غير مستطيع أن أصدق الادعاء القائل بأن ذلك القطر ظل منذ الأزل وسيظل الى الأبد ، يغلى بالكراهية والبغضاء العرقية ، ولكنى بعد أن استمعت وشـاهدت راديو وتليفزيون بلجـراد فى المدة بين ١٩٩١ و ١٩٩٢ ، أستطيع أن أفهم لماذا أصبح الصربى البوسنى البسيط يعتقد أنه معرض للتهديد من جحافل الأوسـتاشا ، ومن الأصـوليين المسلمين أو غيرهم • والأمر انما هو كما وصـفه الصحفى البلجرادى المستقل ، ميلوش فاسيتش ، أمام جمهور من الأمريكيين : كأنما استولت

جمعية الكوكلوكس كلان على جميع المحطات التليفزيونية : « تصـــوروا ولايات متحدة وقد اتخذت كل محطـة تليفزيونيـــة نفس خط الاذاعة والتحريض ـ الذى يمليه دافيد ديوك · فلو تم ذلك لنشبت الحرب فى بلادكم فى مدى خمس سنوات » (٤٦) · على أنه ربما كان خير تعليق على تكتيكات ميلوشيفيتش وكاراجيتش وعلى ما أحـرزاه فى البوسـنة من انجـازات ـ هو مئة وخمسين ألف قتيـل ، وأكثـر من مليونى نازح من ديارهم ، وقرى بل مدن بأكملها تحرق حرقا وتنهب ، وعدة مئات من المساجد والكنائس تنسف عمدا ـ ذلك كله حكم من مؤرخ آخر على خلة موروثة فى الدم لقطر آخر :

وكان على البلشفيك ـ شـــأن الدعـــاة فـى رواية دستويفسكى (الممسوس) ـ أن يسفكوا الدماء لكى يحكموا الرباط بين أتباعهم المترددين بحبل متين من الذنب الجماعى · فكلما زاد عدد الضحايا الابرياء الذين ضمهم الحزب الشيوعى الى شـعوره ووعيه لاثمـه ، زاد يقين الأفراد العاديين مـن البلاشفة بأنه ليس هناك أى مجـــال للتراجع ولا التردد ، ولا المساومة ولا الحلول الوسط ، وأنهـم مرتبطون ارتبـاطا لا فكاك منه الى زعمائهم ، وليس أمامهم ثمة طريق الا السير معهـــم قدما الى « النصر النهـــائى » بغض النظـــر عـن الثمن (٤٧) ·

معجم توضيحى

هذه القائمة بالمعجم التوضيحى تحوى المصطلحات التى يكثر وجودها فى ثنايا الكتاب. فحيثما ذكرت أكثر من صورة لنفس الكلمة استخدمنا هنا حرفى ت و ك للدلالة على التركى والصربوكرواتى على الترتيب.

اتحاد الدفاع الكرواتى H.O.S.، وهو قوة كرواتية غير نظامية.

الاتحاد الديمقراطى الكرواتى H.D.Z.، وهو الحزب الوطنى الكرواتى برئاسة فرانيو توجمان فى كرواتيا، الذى نشأ منه فرع فى البوسنة يقوده ستيبان كليويتش أولا، ثم تزعمه ماتى بوبان.

آجان Agan: موظف وإدارى محلى منتخب.

أسبر Asper: وحدة نقدية عثمانية، وهى عملة معدنية كانت فى الأصل تحتوى على ثلاثة جرامات من الفضة، ولكنها تعرضت لتخفيضات كثيرة فى القيمة (إلى أقل من جرامين فى منتصف القرن السادس عشر، وأقل من جرام واحد عند عام ١٦٠٠).

أغا Aga: المعنى الأصلى: السيد أو المولى، أو الضابط الإنكشارى الكبير. والمعنى الأول فى التاريخ البوسنى هو السَرى مالك الأرض الذى ينتسب إلى الطبقة السرية الأخفض فى طبقتى ملاك الأراضى.

أغالوك Agaluk: المعنى الأصلى فى التاريخ البوسنى: الأرض المملوكة لأحد "الأغاوات" (حيث كانت علاقات صاحب الأرض بالفلاح يحكمها القانون الإقطاعى التقليدى). والمعنى الخاص: قسم أو مقاطعة أرضية من البوسنة يحكمها "أغا".

أفلاقى (فلاتش) Vlach: أحد سلالة سكان البلقان المُرَمَّنين، قبل السلافيين.

أوستاشا Ustasha: الحركة الوطنية الإرهابية المتطرفة التى يتزعمها أنتى بافليتش، وهى التى تسلمت السلطة فى "دولة كرواتيا المستقلة".

إمام Imam: الذى يؤم المسلمين فى الصلاة.

إنكشارى Janissary: جندى عثمانى، كان فى الأصل يجند رقيقاً للسلطان من خلال "الدوشرمة"، ولكن منذ منتصف القرن السابع عشر كان يجند من بين المسلمين العاديين.

إيالة Eyalet: الولاية فى الإمبراطورية العثمانية (وهى أعظم قسم إدارى فى الدولة، يقابل قطراً عصرياً أو أكثر من قطر).

باتارين Patarin: مصطلح استخدمه الراجوزيون والإيطاليون للإشارة إلى أعضاء الكنيسة البوسنية، (ويستخدم فى إيطاليا أيضاً للدلالة على الكاثاريين الإيطاليين).

باشا Pasha: اسم عام يطلق على الحاكم العام للمنطقة.

باشالوك Pashaluk:المنطقة التى يحكمها الباشا.

بان Ban: مصطلح كرواتى، استخدم أيضاً فى البوسنة القروسطية، للدلالة على الحاكم. وأعيد استخدامه فى ١٩٢٩، عندما قسمت يوغوسلافيا إلى "بانوفينات"، يحكم كل منها "بان".

باندور Pandur: الجندرمة، رجل ميليشيا محلى.

بانوفينا Banovina: منطقة يحكمها أو يديرها "بان".

بك أو بج Beg: سيد أو سرى أو مالك أرض، ينتمى إلى الطبقة الأعلى من طبقتى ملاك الأراضى.

بكلر بك Beglerbeg (ك)، أو بلربك Beylerbeyi (ت): أعلى طبقة فى رتبة باشا، وهو الوزير أو حاكم البوسنة.

بكليك Beglik: الملكية التى يملكها "بك" (حيث لم تكن القوانين الإقطاعية التقليدية تهيمن على علاقات السيد صاحب الأرض بالفلاح).

بوتور Potur: الفلاح السلافي العادى في البوسنة الذى هدى للإسلام (ولعلها مشتقة من الكلمة التركية "بوتور" ومعناها ضرب من السراويل التى يرتديها أولئك الفلاحون).

بوجوميل Bogomil: المثنوى البفغارى الهرطيق في العصور الوسطى.

بوسانتشيكا Bosantchica: هو الخط الذى كان يستعمل في البوسنة القروسطية، وهو مرتبط بالخط السيريليكي ولكنه مختلف عنه.

بيزستان Bezistan: سوق الأقمشة أو السوق المسقوفة.

تشيتنيك Chetnik: مصطلح صربى تقليدى للمقاتل غير النظامى أطلق على القوات بقيادة دراجا ميهايلوفيتش في الحرب العالمية الثانية، يستعمل عادة للإشارة إلى كل غير النظاميين من الجند الصربيين المقاتلين في الهرسك والبوسنة في ١٩٩٢-١٩٩٣ (كما يستخدم بنوع خاص جدا للإشارة إلى غير النظاميين الصربيين بقيادة فويسلاف شيشيلى).

تشيفتليك Chiftlik: مزرعة كبيرة خاصة.

تريتينا Tretina: تسديد موالى الأرض ثلث المحصول إلى مالك الأرض.

تيمار(ت) Timar: مزرعة إقطاعية.

تيماريوت Timariot: حائز التيمار.

التكية Tekke: محل إقامة الدراويش.

جد Djed: هو رئيس الكنيسة البوسنية ومعناها الحرفى "الجد أو أبو الأب".

جروشن أو غروشن Groschen: وحدة عملة نمساوية.

جرينتسر Grenzer: جندى نمساوى مجرى لحراسة الحدود، ساكن بمنطقة التخوم التى تحد الإمبراطورية العثمانية.

الجزية Gizye: ضريبة الرؤوس التى يدفعها غير المسلمين.

جوبا Djupa: قسم إدارى فى الفترات السلافية الأبكر عهداً.

الجوبان Djupan: حاكم الجوبا.

جوست Gost: عضو فى هرم هيئة الكهنوت فى الكنيسة البوسنية (ومعناها الحرفى هو "المضيف").

الحِجة Hidja: بيت ديرى يتبع الكنيسة البوسنية.

حزب الحركة الديمقراطى .S.D.A ، وهو الحزب الذى يقوده على عزت بيجوفيتش.

حزب الصرب الديمقراطى .S.D.S ، وقد ألف أولاً فى منطقة كينين فى كرواتيا. ثم أعيد تكوينه فى البوسنة، حيث كان زعيمه هو رادوفان كارادجيتش بإشراف سلوبودان ميلوشيفيتش فى بلجراد.

حمام Hammam: هو الحمام التركى.

الخراج Harag: ضريبة الرؤوس التى يدفعها غير المسلمين (وهى فى الأصل ضريبة الأراضى، ولكنها مزجت مع الجزية لتشكل ضريبة رؤوس متدرجة).

دفتر Defter: سجل الضرائب.

دوشرمة Devshirme: جزية الصبيان، وهى جمع الصبيان الذكور المسيحيين لكى يحولوا إلى الإسلام ويصبحوا إنكشارية وموظفين إمبراطوريين.

"دولة كرواتيا المستقلة" .N.D.H، وهى الدولة الألعوبة التى كانت تشتمل على معظم كرواتيا والبوسنة ١٩٤١-١٩٤٥.

رئيس العلماء Reis ul-ulema: كبير أو شيخ الجماعة الإسلامية الدينية.

رعية Raya: وهى فى الأصل الشعوب الخاضعة غير العثمانية (سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين)؛ وفى القرن التاسع عشر أصبح معناها على العموم الرعايا المسلمين فقط.

سباهى Spahi: الخيال أو الفارس.

ستاراك Starac: عضو فى هرم هيئة الكهنوت فى الكنيسة البوسنية (معناها الحرفى "الأكبر سناً")

ستروينيك Stroijnik: عضو فى هرم هيئة الكهنوت فى الكنيسة البوسنية. (معناها الحرفى "الساقى").

ستيتشاك Stetchak (**الجمع ستيتشى Stetchi**): شواهد قبور بوسنية من العصور الوسطى.

سنجق بك Sandjak-beg: حاكم السنجق.

السنجق Sandjak: أكبر قسم فى "إيالة". وهو فى الأصل يدل على منطقة عسكرية.

شريعة Sheriat: القوانين الإسلامية.

عهدنامة Ahd-name: منحة من السلطان بامتياز ما.

فوينوك Vojnuk: قاطع الطريق أو جندى مشاة مسيحى (سواء أكان صربياً أو أفلاقياً).

قابيطان Kapetan: هو فى الأصل مدير عسكرى على منطقة حدود. والمعنى الأصلى لهذه الكلمة فى التاريخ البوسنى: مدير لأحد المناطق التقسيمية فى البوسنة، وله سلطات واسعة جداً، ووظيفته وراثية.

القابيطانية Kapetanija: المنطقة التى يحكمها "قابيطان".

قاضيزاديـة Kadizadeler: أعضـاء فـى فرقـة إسـلامية شـديدة التمسك بالأصولية.

قاضيلوكية Kadiluk: المنطقة التى تقع فى منطقة اختصاص "قاض".

قانون الرعيـة Kanun-i raya: مجموعـة القوانيـن التقليديـة المطبقـة علـى "الرعية".

كارافلاق Karavlach:غجرى من أصل رومانى فى البوسنة.

كازا Kaza: انظر "قاضيلوك".

كايماك Kaimak: مدير يقوم بدور الممثل العسكرى للوالى.

كرايينا Krajina: منطقة حدودية.

كريستيانى (أى مسيحى) Kristian: مصطلح استخدم فى السـجلات العثمانيـة للدلالة على العضو العادى فى الكنيسة البوسنية.

كريستيانين (أى مسيحى) Krsjanin: عضـو ديرى فـى الكنيسـة البوسـنية. ومعناها الحرفى مسيحى).

كميت Kmet: مولى أرض أو فلاح.

مـارتولوس Martolos: مسـيحى محلـى (سـواء أكـان مـن الأفـلاق أو الصربيين). من قطاع الطرق من البيادة أو المشاة.

المانويين Manichaean, Manichee: وهم فى الأصل من أتباع مانى، معلم المعتقد المثنوى غير المسيحى فى القرن الثالث. ثـم أصبح يستخدم فيما بعد مصطلحاً يطلق على الهراطقة المثنويين فى المسيحية.

مجلس الدفاع الكرواتى H.V.O.، وهو المنظمة العسكرية التى أقامها "الاتحاد الديمقراطى الكرواتى" فى البوسنة.

محلة Mahala: قسم صغير من المدينة.

مدرسة Medresa: معهد دراسة الشريعة الإسلامية.

مكتب Mekteb: كتاب ابتدائى إسلامى.

المنظمة البوسنية المسلمة .M.B.O، وهى الحزب الذى يتزعمه عادل ذو الفقار باشيتش.

مورلاتش Morlach: نوع الأفلاق المقيم فى دالماشيا، وبخاصة منطقة "الحدود" (الكراييتا) الكرواتية.

موسيلليم Mosselim: مدير يقوم بدور ممثل للحاكم العام.

هازدوك Hazduk: لص أو قاطع طرق، أو محارب حرب عصابات.

هاس Hass: مزرعة إقطاعية ضخمة.

وزير Vizier: أعلى رتبة فى المديرين والموظفين فى الإمبراطورية العثمانية.

الوقف Vakuf: هو المؤسسة الدينية الخيرية، التى تحبس الأرض إلى الأبد على أعمال الخير.

الولاية Vialet: القسم الكبير من الإمبراطورية العثمانية (التى حلت محل "الإيالة" فى ١٨٦٤).

الهوامش

الفصل الأول: الأجناس والأساطير والأصول: البوسنة حتى ١١٨٠

١- خير استعراض عصرى للبينات الأثرية والتاريخية واللغوية هو كتاب ويلكس Wilkes, Illyrians. انظر أيضاً ستيبتشيفيتش Stipcevic, Illyrians ؛ وروسو Russu, *Illirii*؛ وستادمولر Stadmuller, *Forschungen zur albannischen Fruhgeschichte*.

٢- ويلكس، Illyrians، ص ٢٤٤؛ وستيبتشيفيتش، Illyrians، ص ١٣٧.

٣- ويلكس، Illyrians، صفحات ٢٠٥-٢١٣.

٤- انظر ويلكس *Dalmatia*، صفحات٢٦٦-٢٨٠؛ و *Gischichte Bosniens*، صفحات ٤٨-٤٩؛ وييريتشيك Jirecek، في *Die Handelsstrassen*؛ وميللر، في *Essays on the Latin Orient*.

٥- ماركوتيتش Markotic، 'Archaeology'، صفحات ٤٥-٤٦.

٦- ألفولدى Alfoldy، *Bevolkerung der Provinz Dalmatien*، صفحات١٨٤-١٨٨.

٧- ديو كاسيوس Dio Cassius، الذى أخذ عنه ويلكس فى كتابه Illyrians ، ص ٢٦٠.

٨- ستيبتشيفيتش، Illyrians ، ص ٨٠.

٩- درهام Durham، *Some Tribal Origins*، ص ١٠٢. انظر أيضاً تروهيلكا Truhelka، 'Die Tatowirung'.

١٠- انظر ستيبتشيفيتش، Illyrians ، ص ٢٤١، عن النظرية حول الموسيقى المتعددة الأصوات التى طورها عالم الموسيقى الإثنولوجية السرابيفى سفيتكو ريتمان Cvjetko Rihtman. ولا تذكر المصادر الكلاسيكية إلا مجرد أن الإلليريين كانوا مغرمين بالموسيقى.

١١- لإطلاق مصطلح 'الإلليريين' على السلافيين الجنوبيين تاريخ طويل، يعود إلى الكتاب الإنسانيين فى القرن الخامس عشر الميلادى: انظر هاجياهيتش Hadzijahic ، 'Die Anfange der nationalen Entwicklung'، صفحات ١٧١-١٧٢.

١٢- ستادمولر، Geschichte Sudosteuropas، ص ٢١.

١٣- عن موضوع *Libellus Gothorum*، انظر المقدمة التى كتبها فيردو شيشيتش Ferdo Sisic، لترجمته للمدونة *The Chronicle, Letopis popa Dukljanina*، وييريتشيك فى *Istorija Srba*، المجلد الأول، صفحات ١٦٦-١٦٧. ونص المدونة مطبوع في فون شواندنر von Schwandner, *Scriptores rerum hungaricarum*، المجلد الثالث، صفحات ٤٧٦-٥٠٩؛ انظر صفحات ٤٧٦-٤٧٧ عن هجرة القوط.

١٤- أوربينى *Il Regno de gli Slavi*، ص ٩٧. وعن أوربينى انظر رادويتشيتش Radojcic, *Srpska istorija Mavra Orbinija*، صفحات ٥-١١؛ وعن 'القوطية' فى عمله وأعمال غيره من الكتاب الراجوزيين، انظر زلاتار Zlatar, *Our Kingdom Come*، صفحات ٣٦٥-٣٧١. ولابد أن نظرية أوربينى قد لاحت بعيدة الاحتمال حتى فى ذلك الوقت، ولكنها لا بد أن تقدم فى سياق النظريات الأخرى لتلك الفترة التى كانت تنسب فحولة أو أهمية للأجناس الجرمانية-الاسكندنافية. وكان العلامة الهولندى جروتيوس Grotius يذهب إلى أن الأجناس الأصلية بأمريكا الشمالية كانت اسكندنافية أصلاً؛ وادعى المنظر الفلمنكي جوربيوس بيكانوس Goropius Becanus أن الألمانية كانت اللغة المستخدمة فى جنة عدن.

١٥- راجيتش Radzic, *Muslimansko autonomastvo*، ص ٧٢. (وادعت المذكرة كذلك، أن تسعين بالمئة من البوسنيين شقر الشعر).-كما أن ادعاءات مماثلة ذكرت عن الكروات بواسطة أنتى بافيليتش فى ١٩٤١: Didijer *et al., History of Yugoslavia*، ص ٥٧٧.

١٦- كوفاتشفيتش Kovacevic, *Istorija Crne Gore*، صفحات ٢٨٢-٢٨٨.

١٧- ماركوتيتش، 'Archaeology'، ص ٤٩. وقد استمرت مملكة آفارية صغيرة قائمة فى بانونيا (المجر الجنوبية) حتى قضى عليها شارلمان نهائياً فى تسعينيات السبعمئة.

١٨- آنديليتش Andjelic، 'Periodi u kulturnoj historiji'، ص ٢٠٠.

١٩- مالينجوديس Malingoudis، *Slavoi ste mesaionike Ellada*، ص ٣٩.

٢٠- يوجد فى الواقع بيانان مختلفان حول تلك الأحداث فى كتاب قنسطنطين. انظر المناقشة فى كتاب فاين Fine. *Early Medieval Balkans*، صفحات ٤٩-٥٩.

٢١- روستوفتسف Rostovtsef, *Iranians and Greeks*، صفحات ١٣٥-١٤٦.

٢٢- كاولفوس Kaulfuss, *Die Slawen*، صفحات ٦-٩.

٢٣- جيمبيوتاس Gimbutas, *Slavs*، ص ٦٠.

٢٤- فاين، *Early Medieval Balkans*، ص ٥٦.

٢٥- أوبولنسكى، Obolensky. *Byzantine Commonwealth*، ص ١٣٦؛ وجولدسكو Guldescu, Political History، ص ٨٦.

٢٦- جيمبيوتاس Gimbutas, *Slavs*، صفحات ١٤٠-١٤١. وعن موضوع *zadruga* انظر سيكارد Sicard, *La Zadruga sud-slave*، وبيرنس Byrnes. ed.. *Communal Families in the Balkans*.

٢٧- جيمبيوتاس Gimbutas, *Slavs*، صفحات ١٦٥-١٦٨؛ وماركوتيتش، 'Archaeology'، ص ٥٢.

٢٨- دفورنيك Dvornik، *Byzantine Missions to the Slavs*، صفحات ٩-٢٠.

٢٩- تشوروفيتش Corovic, *Historija Bosne*، صفحات ١٣٣-١٣٤.

٣٠- هاجياهيتش Hadzijahich, 'Sinkretisticki elementi'، صفحات ٣٠٤-٣٠٥ (قمم الجبال)، صفحات ٣٠٩-٣١٣ (أسماء الآلهة).

٣١- أنديليتش Andjelic, 'Periodi u kulturnoj historiji'، صفحات ٢٠٢-٢٠٣.

٣٢- فاين، *Early Medieval Balkans* ، صفحات١٥٩، و ٢٦٢-٢٦٥؛ أوبولنسكي، Obolensky, *Byzantine Commonwealth* ، صفحات ١٥٩-١٦٠.

٣٣- قسطنطين بورفيروجينيتوس ، *De administrando imperio* ، ص ١٦٠ ('kai eis to chorion Bosona to Katera kai Desnek'). ومن المحتمل أن ديسنيك المذكورة هي ديسنيك العصرية (على الرغم من أن بيريتشيك ظن إنها تيشاني Tishani الواقعة على نهر أوسورا Usora)، وكاتيرا هى فى الغالب قرية كوتور أو كوتوراك العصرية، بالقرب من سراييفو: انظر بيريتشيك، *Die Handelsstrassen*، صفحات ٢٩-٣٠؛ وسكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina* ، ص ٣٢؛ وتشوروفيتش Corovic, *Historija Bosne*, ، ص ١١٢.

٣٤- فاين، *Early Medieval Balkans* ، صفحات ٢٠١ و٢٧٨-٢٨٠؛ أوبولنسكي، Obolensky, *Byzantine Commonwealth*، صفحات ٢٨٧-٢٨٨.

٣٥- فاين، *Early Medieval Balkans* ، ص ٢٨٨.

٣٦- كيناموس Cinnamus, *Epitome* ، ص ١٠٤، (الكتاب الثالث، الفصل السابع).

٣٧- أنديليتش Andjelic 'Periodi u kulturnoj historiji' ، صفحات ٢٠٤-٢٠٥.

٣٨- تشيركوفيتش Cirkovic, 'Die bosnische Kirche' ، صفحات ٥٤٧-٥٤٨.

٣٩- تشوروفيتش Corovic, *Historija Bosne*, ، ص ١١٣؛ و د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne* ، ص ٣٣.

الفصل الثانى: الولاية البوسنية القروسطية ١١٨٠-١٤٦٣

١- تروهيلكا Truhelka, 'Das mittelalterlicher Staatswesen' ، ص ٧٢؛ فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ١٨-٢١.

٢- يذكر أوربينى محاولة أخمدت فى مهدها خلال حكم ستيفن كوترومانيتش: *Regno de gli Slavi* ، صفحات ٣٥٤-٣٥٥.

٣- ميللر *Essays on the Latin Orient* ، ص ٤٦٨؛ والمثل المأثور : 'عادت أيام بان كيولين'، سجله أيضاً أوربينى فى ١٦٠١ : *Regno de gli Slavi* ، ص ٣٥١.

٤- ميللر *Essays on the Latin Orient* ، ص ٤٦٨؛ كوكيل Coquelle, *Histoire du Montenegro*، ص ٨٢.

٥ - انظر الخطاب الذى أرسله فولكانوس من زيتا (فيوكان) Vulcanus of Zeta (Vukan) إلى البابا إينوسنت الثالث فى سبتمبر ١١٩٩، فى Fermendzin,ed., *Acta Bosnae*، ص ٥.

٦ - فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ١٨،٤٣-٤٧؛ وعن تحليل مفصل عن مجلس بولينو بوليى، انظر فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ١٢٦-١٣٤. وواقعة الارتداد مطبوعة فى مينج Minge, ed., *Patrologia latina*، المجلد ٢١٥، عامود ١٥٣-١٥٥.

٧- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، صفحات ٨-١١.

٨- فاين، *Late Medieval Balkans*، صفحات ١٤٤-١٤٥. ويحدد البروفيسور فاين هذه بأنها مدينة فرهبوسنا (سراييفو العصرية)؛ ولكن الإشارة بالتأكيد لمنطقة فرهبوسنا، حيث إن المدينة لم تكن وجدت بعد. وهناك تقرير فى ١٢٤٤ يذكر أن 'جوبا' فرهبوسنا كان مركزها فى مدينة بردو Brdo، التى كانت مقر حكم البان والأسقف الكاثوليكى (ومن المحتمل إنها قرية بان بردو Ban-Brdo العصرية): انظر بيريتشيك، *Die Handelsstrassen*، ص ٣١.

٩- فاين، *Late Medieval Balkans* ، ص ١٤٦.

١٠- فاين، 'Was the Bosnian Banate Subjected to Hungary'?

١١- ميللر *Essays on the Latin Orient* ، ص ٤٧٣؛ فاين، *Late Medieval Balkans*، ص ١٤٨.

١٢- عن فترة الشوبيتش، انظر تالوزى *Studien zur Geschichte Bosniens* ،Thalloczy، صفحات ٤٦-٤٨.

١٣- فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ٢٦٥-٢٧٩.

١٤- د. مانديتش D. Mandic, Franjevacka Bosna ، صفحات ١٧، ٣٩.

١٥- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٢٨.

١٦- فاين، *Late Medieval Balkans* ، ص ٢٨١.

١٧- المرجع السابق، صفحات ٢٨١-٢٨٢.

١٨- المرجع السابق، صفحات ٣٦٨-٣٧٠.

١٩- المرجع السابق، صفحات ٣٨٤-٣٨٦؛ كلايتش *Geschichte Bosniens* ،Klaic. صفحات ٢٠١-٢٠٣؛ تشيركوفيتش *Istorija bosanske drzave* ، Cirkovic، صفحات ١٣٥-١٤٠.

٢٠- فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ٣٩٤-٣٩٨؛ كوكيل Coquelle, *Histoire du Montenegro*، صفحات ١١٣-١١٨.

٢١- فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ٤٠٨-٤١١؛ إيمرت Emmert, 'The Battle of kosovo'. وعن استعراض موجز عن مأثورات كوسوفو فى الشعر الملحمى الشفوى (الصربوكرواتى والألبانى)، انظر لورد Lord, 'The Battle of Kosovo'.

٢٢- لو بوفييه Le Bouvier, *Le Livre de la description*، ص ٢٢.

٢٣- فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ٤٥٣-٤٦٩؛ فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٢١٠-٢٤١.

٢٤- عن النظرة التقليدية، انظر سكاريتش Skaric, Sarajevo i njegova okolina، صفحات ٣٥-٣٦ (وهى تذهب أيضاً إلى أن فرهبوسنا وهوديجد Hodidjed أخضعت أولاً للأتراك بمقتضى اتفاقية فى ١٤٢٨، ثم ضاعت من أيديهم ثم استعادوها فى ١٤٣٥). وعن النظرة المعدلة، انظر شابانوفيتش Sabanovic, 'Pitanje turske vlasti'. ويصف شابانوفيتش التطورات فى تلك المنطقة فى 'Bosansko krajiste'.

٢٥- تالوزى Thalloczy, *Studien zur Geschichte Bosniens* ، صفحات ١٤٦-١٥٩؛ فاين، *Late Medieval Balkans* ، صفحات ٥٧٧-٥٧٨.

٢٦- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٢١١.

٢٧- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٣٣٢-٣٣٣. والمؤرخون السابقون (مثل ميللر *Essays on the Latin Orient*، ص ٤٨٥) أخطئوا فى تفسير هذا الدليل، حيث ذكروا أن عدد اللاجئين كان أربعين ألفاً بدلاً من أربعين فقط.

٢٨- فاين، *Late Medieval Balkans*، صفحات ٥٨٣-٥٨٤ (موجهاً للبابا)؛ Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٢٥٢ (موجهاً إلى البندقية).

٢٩- Lachman, ed., *Memoiren eines Janitscharen* ، صفحات ١٣٩-١٤٠. واستطاعت أرملة الملك، الملكة كاتارينا، الفرار إلى روما؛ وتوفيت هناك فى١٤٧٨، ولا تزال مقبرتها تشاهد إلى يومنا هذا فى كنيسة سانتا ماريا فى أراكولى Aracoeli، علـى الكـابيتول: انظـر Thalloczy, *Studien zur Geschichte Bosniens* ، صفحات١١٠-١٢٠، و J.Turtcinovic, ed., *Povijesno-teolosko simpozij*.

٣٠- ويرجع بيريتشيك تاريخ وصولهم إلى القـرن الثـالث عشـر (*Die Handelsstrassen*، ص ٤٣). ومن المؤكد أن عمال المناجم الساكسون قد وصلوا إلـى صربيا حوالـى النصف الثـانى من القـرن الثـالث عشـر: انظـر تاكـاكس Takacs, 'Sachsische Bergleute im mittelalterlichen Serbien'، على أن أشد الدراسات العصرية لأشغال المناجم فى البوسنة القروسطية، لا تستطيع أن تجد بينة وثائقية أقدم من ١٣١٢ (منجم تريشنيكا)، و١٣١٩ (فى ليبنيك): دينيتش Dinic, *Za istoriju rudarstva*، ص ٤٦.

٣١- دينيتش Dinic, *Za istoriju rudarstva* ، صفحات ٧-٨.

٣٢- لكافة التفاصيل السالف ذكرها، انظر بيريتشيك، *Die Handelsstrassen* ، صفحات ٤١-٤٩؛ وفاين، *Late Medieval Balkans*، صفحات ٢٨٢-٢٨٤.

٣٣- بيناك وتشوفيتش Benac and Covic, *Kulturna istorija Bosne* ، ص ٤١١.

٣٤- يشتق مصطلح "كميت" kmet من اللفظة اللاتينيـة *comitatus* ، وهـى كلمـة وضعت فى المزارع (وهى على الأرجح ديريـة) التـى كـانوا يعملـون عليهـا. علـى أنهـا فـى صربيا تطورت إلى معنى مخالف، حيث تشير إلى كبير القرية.

٣٥- فيرليندن Verlinden, 'Patarins reduits en esclavage'.

٣٦- عن كل هذه الطبقات والرتب، انظـر تروهيلكـا Truhelka, 'Das mittelalterlicher Staatswesen'، صفحات ٩٠-١٠٥.

٣٧- وأهميـة هـذا المجلـس أكدهـا كـل مـن تشـيركوفيتش Cirkovic, *Istorija srednovjekovne drzave* ، صفحات ٢٢٤-٢٢٥) وأنديليتش 'Barones Regi i (drzavno vijeche' ، وتشكك فيها فاين (*Late Medieval Balkans*، صفحات ٤٥٣-٤٥٤).

٣٨- تروهيلكا Truhelka, 'Das mittelalterlicher Staatswesen'، ص ١١٠. ولاحظ تروهيلكا أيضاً وجود 'الإيستريونس' 'istriones' فى بلاط تفرتكو الثانى فى ١٤٤٠،

وتساءل عن معنى هذا المصطلح؛ وكان بالتأكيد إشارة إلى 'الهيستوريونس' 'histriones'، أو ممثلو المسرح.

٣٩- أنديليتش Andjelic، 'Periodi u kulturnoj historiji'، ص ٢٠٩. وطبيعة البوسانتشيكا كانت موضوع مجادلة بحثية معقدة بين العلماء؛ انظر الدراسة الممتازة التى أعدها تروهيلكا 'Truhelka,'Die Bosancica، والمناقشة الحديثة فى ليفلدت Lehfeldt, *Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum*. ويقدم تانداريتش Tandaric بعض البينات التى تشهد أن الجلاجوليتية (وهى البديل البلقانى الغربى المبكر للسيريليكية) كانت تستخدم أيضا فى البوسنة القروسطية المبكرة ('Glagoljska pismenost'، ص ٤٣)؛ على أن البينة التى يقدمها عن استخدامها فى بوسنة القرن الخامس عشر إنما تجئ من مناطق كانت عندئذ جزءا من كرواتيا- المجر.

٤٠- بيناك وتشوفيتش Benac and Covic, Kulturna istorija Bosne ، ص ٤٢٢-٤٣١.

٤١- تشوروفيتش Corovic, *Historija Bosne*, ، ص ٩.

الفصل الثالث: الكنيسة البوسنية

١- عن استعراض حديث جيد لمجادلات المؤرخين، انظر Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'*, ، صفحات ١-٦٨؛ وهناك تقرير تاريخى هام أقدم عهدا فى شيداك Sidak, 'Problem "bosanske crkve" u historiografiji'. كما أن هناك مجموعة مراجع غنية فى فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٣٫٩٣-٤٣٤، يمكن أن يضاف إليها مراجع أخرى فى الملاحظات فى 'Okic, 'Les Kristians de Bosnie.

٢- راتشكى Racki, Bogomili i patareni.

٣- المراجع الممتازة العامة عن البوجوميل هى رانسيمان Runciman, *Medieval Manichee* ، صفحات ٦٣-٩٣، وأوبولنسكى Obolensky, *Bogomils* . وعن البوجوميلية فى صربيا انظر سولوفييف Solovjev, 'Svedocanstva pravoslavnih izvora'. وتوجد دراسة فائقة عن البوجوميلية فى بلغاريا فى أنجلوف Angelov, *Bogomilstvoto* ؛ ولكن معالجته للبوسنة (صفحات ٤٢٠-٤٢٨) ضئيلة وغير دقيقة. وعن المعتقدات المانوية، انظر ليو Lieu, *Manichaeism* ، وكان مانى رجلا فارسيا من القرن الثالث، وقد شملت تعاليمه المثنوية كل من الزرادشتية والغنوسطية الإغريقية -اليهودية والمسيحية.

٤- عن الكاثاريين، انظر بورست Borst, *Katharer*، وديفرنوى Duvernoy, *Le Catharisme*. ولم تكن الكاثارية مجرد شكل للبوجوميلية منقول إلى أوربا الغربية: فإنها نمت على تقاليد محلية قوية للهرطقة شبه الغنوسطية (انظر بويتش Puech, 'Catharisme et Bogomilisme').

٥- يبدو أن أول كاتب اتصل بالبوجوميلية كان شوميت دي فوسسين، فى عمله المنشور فى١٨١٦ (شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais* ، ص ١٣١). وعن الكتاب

الكاثوليك المبكرين، انظر ماتاسوفيتش 'Matasovic, 'Tri humanista o patarenima، وفاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٦٣-٧٣.

٦- بترانوفيتش .Petranovic, Bogomili, crkva bosanska i krstjani

٧- وأيد جلوشاك النظرية فى ١٩٢٤ ('Srednjovekovna crkva')، ولكن هاجمها شيداك فى ١٩٣٧ ("Problem "bosanske crkve" u historiografiji).

٨- انظر ثبت المراجع؛ ولقائمة أكثر اكتمالاً لإصدارات سولوفييف، انظر فاين، *Bosnian Church*، صفحات ٤٢٨-٤٢٩.

٩- أهم شراح هذه النظرية هما الأب ليو بتروفيتش (*Krscani bosanske crkve*)، وياروسلاف شيداك (*Studije o 'crkvi bosanskoj'*) بالرغم من إقرار متزايد بالميول الهرطيقية فى كتاباته المتأخرة.

١٠- انظر الفصل الخامس، تحول البوسنة للإسلام.

١١- عن ملخص مختصر عن الإحصائيات والجغرافية والتورايخ، انظر كتاب .M Wenzel, 'Bosnian Tombstones' ، صفحات ١٠٢-١١٥. والدكتورة ونزل أصدرت أيضاً تحليلاً جغرافياً مفصلاً عن الموتيفات المختلفة المستخدمة: *Ukrasni motivi* . وعن مناطق التوزيع الخارجية، انظر المراجع فى فاين، *Bosnian Church*.

١٢- انظر فون أسبوت von Asboth, *Bosnien und die Hercegowina*، صفحات ٩٤-١١٨؛ وسولوفييف 'Le Symbolisme' ، و-'Bogumilentum und Bogumilengra-ber'.

١٣- جايا 'Dzaja, *Die 'bosnische Kirche*، صفحات ٢٥-٢٦.

١٤- م. ونزل 'M. Wenzel, 'Bosnian Tombstones، ص ١٠٣.

١٥- فون أسبوت *Bosnien und die Herzegowina* ، ص ١٠١. ويقر سولوفييف أن الصليب لا يظهر على ٨٥ ستيتشى على الأقل: 'Simbolika srednjovekovnih spomenika'، ص ١٧.

١٦- عن التصميمات الوثنية، انظر م. ونزل 'M. Wenzel's 'Medieval Mystery Cult؛ وعن تصميمات شعارات النبالة والأفلاق، انظر كتابها 'Bosnian Tombstones'. (وعن هوية الأفلاق، انظر الفصل السادس). وهناك انتقادات أخرى لنظرية سولوفييف وردت فى س. رادويتشيتش S. Radojcic, 'Reljefi bosanskih stecaka'. ويلخص فاين مجالاً رحيباً من الاعتراضات فى *Bosnian Church*، صفحات ٨٨-٩٣.

١٧- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٤٨-٦٢.

١٨- المصدر هو مخطوط صربى من القرن الخامس عشر نقل عنه روسى فى ١٨٥٩. ولم ينشر العلامة الروسى أصل النص أبداً، ومنذ ذلك الحين اختفى الأصل بطريقة ملائمة؛ ولا يوجد مخطوط آخر باق عن نفس العمل متضمناً كلمة "بوجوميل" (انظر المرجع السابق ص ٤٤).

١٩- المرجع السابق صفحات ٢١٢-٢١٣.

٢٠- ماتاسوفيتش Matasovic, 'Tri humanista o patarenima'. ومن المحتمل فى بعض الحالات أنه كان هناك تلاعب متعمد بالألفاظ، يشير إلى "المونانشى" البوسنيين (الرهبان) على أنهم "مانيتشى" (مانيشيين أو مانويين): انظر دراجويلوفيتش Dragojlovic, *Krstjani i jereticka crkva*، ص ١٥٤. ومصطلح "المانيشيين" (المانويين) استمر يستخدم، ولو أنه كان ذا معنى عام، فى الكتابات البيزنطية؛ وفى تلخيص لقوانين جستينيان يرجع إلى القرن الرابع عشر، تم استخدام هذا المصطلح بمثابة مرادف فعلى "للهرطقة" (Lieu, *Manichaeism*، ص ١٧٧). وإنه ليظهر فعلا فى إعلان بولينو بوليى فى ١٢٠٣ كمصطلح للدلالة على الهراطقة الذين وعد الرهبان البوسنيون ألا يقدموا لهم المأوى.

٢١- يقدم فاين مثالا واضحا لاستخدام الكلمة منسوبة إلى البوسنيين (*Bosnian Church*، ص ٢٤٨)، ولكنه أساء فهم اللاتينية. فالمعنى ليس "هيئة كهنوت مملكة البوسنة يدعون باتارين بواسطة البوسنيين أنفسهم"، ولكن "الباتارين يدعون "الدينيين" (أى "الرهبان") فى مملكة البوسنة بواسطة البوسنيين أنفسهم". وعن الأصل اللاتينى، أنظر ميليتيتش Miletic, *I 'Krstjani' di Bosnia*، ص ٥٢؛ وعن معنى وأهمية "الدينيون Relegiosi"، انظر المرجع السابق، صفحات ٥٦-٦٢.

٢٢- عن تاريخ المصطلح، انظر توزيلييه Thouzellier, *Heresie et heretiques*، صفحات ٢٠٤-٢٢١. ويكتب لامبرت انه استخدم فى المرسوم البابوى ضد الهرطقة فى ١١٨٤ بوصفه "مصطلحاً فنياً يشير للهراطقة الإيطاليين، وينطبق فى الأعم الأغلب على الكاثار" (*Medieval Heresy*، الطبعة الأولى، ص ٨٤)؛ والمرسوم المذكور كان ضد الكاثار والولدانيين والهيوميلياتيين Humiliati، وكلهم كانوا يوجدون فى الأراضى الإيطالية، وعلى ذلك لم تكن هناك مطابقة لاهوتية "فنية" لهوية "الباتارين" مع المذاهب المثنوية التى كانت غريبة على الكاثار.

٢٣- توزيلييه Thouzellier, *Heresie et heretiques*، ص ٢١٦: وهذا ملخص لخطاب كبير الأساقفة ورد فى خطاب آخر من البابا.

٢٤- عن المناظرة التاريخية حول هذه القصة، انظر فاين،'Aristodios and Rastudije'.

٢٥- شيداك Sidak, *Studije o 'crkvi bosanskoj'*، صفحات ١٧٧-٢٠٩؛ فاين، *Bosnian Church*، صفحات ١١٨-١٢١؛ لامبرت، *Medieval Heresy*، الطبعة الثانية، صفحات ١٢٨-١٣١. وذهب دراجويلوفيتش إلى أن 'ecclesia sclavoniae' كانت هى الكنيسة البوسنية، و'ecclesia dalmatiae' كانت تشير إلى الهراطقة فى صربيا (*Krstjani i jereticka crkva*، صفحات ١٢٤-١٢٧)؛ ولكن البينة تبدو شديدة الاضطراب بحيث لا تستطيع أن تدعم مثل هذه العلاقة المتبادلة المحكمة.

٢٦- عن النص، انظر مينى Migne, ed., *Patrolgia latina*، مجلد ٢١٥، عامود ١٥٣-١٥٥.

٢٧- جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'*، ص ٥٥.

٢٨- فاين، *Bosnian Church*، ص ٦٤؛ ماتاسوفيتش، Matasovic, 'Tri humanista o patarenima'، صفحات ٢٣٧ و ٢٤٠.

٢٩- ميليتيتش Miletic, *I 'Krstjani' di Bosnia* ، صفحات ٥٠-٦٦، و ١١٧-١٢١. ويلاحظ دراجويلوفيتش أنه في الديرية السلافية المبكرة كان مصطلح جاست gast (=جوست gost) يستخدم أحياناً لرئيس الدير (*Krstjani i jereticka crkva* ، ص ١٥٧). ولفاين بعض تعقيبات مفيدة على الطبيعة الديرية للإعلان (*Bosnian Church*، صفحات ١٢٦-١٣٤)، ولكن القصور الرئيسي في كتابه هو أنه لم يكن يعلم بعمل ميليتيتش عندما كتبه.

٣٠- تقدم ميليتيتش الدليل في *I 'Krstjani' di Bosnia* ، صفحات ٥٢-٥٣؛ فإنها تلحظ أن كلمة 'christianus' كانت تستخدم أيضاً بهذا المعنى في بعض المصادر السلافية المبكرة من كييف وبراج (صفحات ٦٥-٦٦). انظر أيضاً دراجويلوفيتش *Krstjani i jereticka crkva* صفحات ١٥٠-١٥١.

٣١- ميليتيتش، *I 'Krstjani' di Bosnia* ، ص ١٠٢: ويضيف فاين (*Bosnian Church*، ص ١٥٥) أنه كان مستخدماً كلقب للرئيس الأعلى للدير في كرواتيا القرن الحادى عشر.

٣٢- كنيوالد Kniewald, 'Hierarchie und Kultus' ، صفحات ٥٨٨-٥٨٩.

٣٣- انظر ميليتيتش *I 'Krstjani' di Bosnia* ، ص ١١٢ للنص الأصلي ومعه الترجمة (وهي أفضل من تلك التي في فاين، *Bosnian Church* ، ص ٢٦٢).

٣٤- إنجيل متى ٨:١١ (إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبرهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السموات)؛ وإنجيل لوقا ١٦:١٩-٣١ (قصة دايفس ولعازر). وإذا كنتُ مصيباً، فإن رأى فاين أن هذا النقش في حد ذاته يثبت قبول العهد القديم (*Bosnian Church* ، ص ٢٦٢) يصبح أقل إقناعاً.

٣٥- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٢٥٦-٢٦٠.

٣٦- المرجع السابق، صفحات ١٧٦-١٧٧.

٣٧- عن نظرية الكاثار، انظر لوس Loos, *Dualist Heresy*، صفحات ٢٩٨-٣٠٢.

٣٨- انظر بيريتشيك Jirecek. 'Die Romanen in den Stadten Dalmatiens' ، الجزء الأول، صفحات ٥٠-٥٧.

٣٩- كنيوالد Kniewald, 'Hierarchie und Kultus' ، ص ٦٠٠. وقد حرمت الكنيسة بناء أية "أديرة مزدوجة" جديدة في ٧٨٧ (ميليتيتش *I 'Krstjani' di Bosnia* ، ص ٥٦)، ولكن ربما عُدّ هذا التحريم غير ممكن التنفيذ، ما دامت الأديرة التي كانت موجودة سمح لها بالاستمرار.

٤٠- لامبرت، *Medieval Heresy*، الطبعة الأولى، صفحات ٣٧٧-٣٧٨.

٤١- جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'* ، ص ٣٥. واستمرت الصلوات الجلاجوليتية في أجزاء كثيرة من دالماشيا وكرواتيا حتى قامت حركة الإصلاح المضاد: انظر زيمرمان Zimmermann, *Reformation bei den Kroaten*، صفحات ٥ و ٢٠.

٤٢- جايا Dzaja, 'Fineova interpretacija' ، صفحات ٥٨-٥٩.

٤٣- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ١٣٧-١٥٠.

٤٤- عن النصين، انظر سولوفييف 'Solovjev, 'La Messe cathare؛ وعن تصحيح هام لتفسيره لإحدى الجمل، انظر ويكفيلد وإيفانز، الهرطقات ,Wakefield and Evans *Heresies* ، ص ٧٨١. والمخطوط يشير إلى "أيام الجد راتكو"، وعلى ذلك فإنه من المظنون أنه يأتي من داخل الكنيسة البوسنية. ويمكن أن يكون تاريخه يعود إلى منتصف القرن الخامس عشر، ولكن النص منسوخ من مصدر أقدم عهداً.

٤٥- دراجويلوفيتش Dragojlovic, *Krstjani i jereticka crkva* ، صفحات ٢٠٨-٢١٣.

٤٦- لامبرت، *Medieval Heresy* ، الطبعة الثانية، ص ١٠٩ (الكاثاريين)؛ أوربيني Orbini, *Regno de gli Slavi* ، ص٣٥٤ (الكنيسة البوسنية).

٤٧- دراجويلوفيتش Dragojlovic, *Krstjani i jereticka crkva* ، صفحات ١٧٣-١٧٤.

٤٨- كل هذه النقاط (وغيرها) نوقشت في فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٣٥٧-٣٦١، فيما عدا البينة المستخرجة من وصية جوست رادين (لهذا الدليل ،انظر لامبرت، *Medieval Heresy*، الطبعة الأولى، صفحات ٣٧٤-٣٨٠) ومن السجلات التركية (انظر أوكيتش 'Okic, 'Les Kristians de Bosnie، ص ١٢٥). ولمزيد من الاختلافات، انظر دراجويلوفيتش Dragojlovic, *Krstjani i jereticka crkva* ، صفحات ١٦٥-١٧٢ ، و١٩٩-٢٠١.

٤٩- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٢٦٤-٢٧٥.

٥٠- لامبرت، *Medieval Heresy* ، الطبعة الأولى، صفحات ٣٧٥-٣٧٦؛ والملك ماتياش Matijas هو ماتياس كورنفينوس Matthias Corvinus المجري.

٥١- لاسيتش Lasic, *De vita et operibus S. Iacobi* ، ص ٤٣٨. وهذه هي أقل المعجزات الأربعة التي أتاها القديس جاكوب في البوسنة جدارة بالحمد.

٥٢- كنيوالد 'Kniewald, 'Vjerodostojnost latinskih izvora ، صفحات ١٥٦-١٦٣.

٥٣- Fermendzin, *ed.,Acta Bosnae* ، صفحات ٣٨، و٢٤٨.

٥٤- لوس 'Loos, 'Les Derniers Cathares.

٥٥- كنيوالد 'Kniewald. 'Vjerodostojnost latinskih izvora ،صفحات ١٦٨-١٦٩.

٥٦- انظر تعقيبات فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٥٦-٥٨.

٥٧- المرجع السابق، صفحات ٥٨ و٣٠٨-٣٠٩؛ وانظر ماتاسوفيتش Matasovic, 'Tri humanista o patarenima'. والجدل الذي أثاره نيكولاس لوبيز مارتينيز أن توركمادا كان لديه دون شك معلومات تفصيلية عن البوسنة، غير مقنع على الإطلاق (توركمادا 'Introduccion' ,*Symbolum pro informaione manichaeorum* ،صفحات ٢٠-٢٣).

٥٨- دراجويلوفيتش Dragojlovic, *Krstjani i jereticka crkva* ، صفحات ١٠٩-١١١.

٥٩- Fermendzin, *ed.,Acta Bosnae* ، ص ٢٢٥.

٦٠- فاين، *Bosnian Church* ، ص ٣٣٤.

٦١- أوكيتش 'Okich, 'Les Kristians de Bosnie ، صفحات ١٢٩-١٣٠.

٦٢- المرجع السابق، ص ١١٥. وبعض هؤلاء المسيحيين (*kristianlar*) مسجلون مع أبنائهم (ص ١٣١) ونحن نعلم أن كلا من الرهبان البوسنيين والبوجوميل "المختارين" (elect) كان المقصود أن يكونوا عُزّباً.

٦٣- دراجانوفيتش Draganovic, 'Izvjesce apostolskog vizitatora' ، ص ٤٤. ومع ذلك، فإن مسارانشى ضمّن فى تقريره مادة عن الباتارينيين سبق له جمعها من مصادر مكتوبة أبكر (فاين، *Bosnain Church* ، صفحات ٦٥-٦٨)؛ ولم يتضح أى من تعقيباته حولهم قدمت معلومات أصلية أو معاصرة.

الفصل الرابع: الحرب والنظام العثمانى ١٤٦٣-١٦٠٦

١- لاتشمان Lachmann, ed., *Memoiren eines Janitscharen* ، ص ١٤٠.

٢- عن بيان دراماتيكى عن بعثة لإحضار الأغنية إلى جايس، انظر ج. ونزل G. Wenzel, ed., *Marino Sanuto vilagkronikajanak tudositasai*، المجلد الثالث(=٢٥)، صفحات ٣٣٢-٣٤٢.

٣- شيركوفيتش Cirkovic, *Herceg Stefan Vukcic-Kosaca* ، صفحات ٢٦٠-٢٦٧.

٤- شابانوفيتش Sabanovic, *Bosanski pashaluk* ، صفحات ٤٤-٤٧؛ فاين *Late Medieval Balkans*، صفحات ٥٨٥-٥٨٩.

٥- عن بيان مجمل ولكنه تفصيلى عن التوسع العثمانى، انظر شو، Shaw, *History of the Ottoman Empire* ، المجلد الأول، صفحات ٥٥-٩٤؛ روتنبرج، Rothenberg, *Austrian Military Border* ، صفحات ١٧-٣٩.

٦- شو، Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، صفحات ١٨٤-١٨٧؛ وروتنبرج، *Austrian Military Border* ، صفحات ٥٢-٦١؛ وانظر الفصل السادس فيما بعد.

٧- عن موجز واف عن النظام العسكرى، انظر شو Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، صفحات ١٢٢-١٣١. وعن النظام فى البوسنة، انظر شابانوفيتش، 'Vojno uredjenje Bosne' ، وخاصة صفحات ٢١٦-٢١٩ عن القوات الاحتياطية.

٨- أفضل بيان عن هذا النظام هو بابوليا Papoulia, *Ursprung und Wesen der 'Knabenlese'*.

٩- كونت Kunt, 'Transformation of *Zimmi* into *Askeri*' ، ص ٦٢.

١٠- يورد بيليتييه قائمة بأسماء الصدور الأعظمين ويلاحظ أنه كان يوجد ٦٥ واليا للبوسنة من مواليد البوسنة فيما بين ١٤٨٨ و ١٨٥٨: Pelletier, *Sarajevo*، ص٧٥.

١١- شوجار، Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule*، ص ٥٨؛ وشو، *History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، ص ١١٤.

١٢- رايكوت Rycaut, *Present State of the Ottoman Empire*، ص ١٩٧. وآخر دوشرمة فى صربيا كان فى ١٦٣٨ (توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*). وربما حدثت محاولة لإحيائه: فإن السيد دولاكرواه، وهو سكرتير السفارة الفرنسية فى اسطنبول كتب فى ١٦٨٤ أنه يعقد الآن كل عشر سنوات (*Memoires*، ص ٢٠١-٢٠٢).

١٣- شوجار، Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule*، ص ٥٦.

١٤- ليفلدت Lehfeldt, *Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum*، ص ٤٨؛ هوتينجر Hottinger, *Historia orientalis*، ص ٤٦٣.

١٥- شو Shaw, 'Ottoman View of the Balkans'، صفحات ٦٩-٧٠.

١٦- عن التفاصيل، انظر شوجار Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule*، صفحات ٣٧-٣٨؛ ورايكوت Rycaut, *Present State of the Ottoman Empire*، صفحات ١٧٢-١٧٣.

١٧- عن نظام التيمار، انظر توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، صفحات ٢٨-٣٣؛ وشوجار، Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule*، صفحات ٩٨-٩٩، و ٢١٢.

١٨- فاين، Fine, *Late Medieval Balkans*، ص ٥٨٣.

١٩- توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، ص ٢٤.

٢٠- كونت Kunt, 'Transformation of *Zimmi* into *Askeri*'.

٢١- كان يمكن تقسيم القاضيلوكية إلى ناحيتين Nahije أو أكثر يحكم كل منها نائب قاض؛ وفى البوسنة كانت تلك تتبع الحدود القديمة للجويا. انظر كريشفلياكوفيتش Kreshevljakovich, *Kapetanije u Bosni*، صفحات ٩-١٠.

٢٢- فيما عدا سنجقيات بوجيجا Pozega (فى سلافونيا) وزفورنيك، اللتان كانتا فى إيالة بودا Buda من ١٥٤١ حتى ١٥٨٠: انظر المرجع السابق، ص ١٠.

٢٣- عن التفاصيل، انظر المرجع السابق، صفحات ٩-١٠، وديورديف، Djurdjev, 'Bosna'، ص ١٢٦٣.

الفصل الخامس: اعتناق البوسنة الإسلام

١- مازورانيتش Mazuranic, *Sudslaven im Dienste des Islams*، صفحات ٢١-٢٧؛ هوكيتش Hukic, ed., *Islam i muslimani u Bosni*، صفحات ٢٠-٢١.

٢- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien*، صفحات ٨٤-٨٩.

٣- فيليبوفيتش Filipovic, 'Napomene o islamizaciju'؛ جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'*، صفحات ٧١-٧٣. ولدلائل أخرى، من وثائق وشواهد قبور، تظهر أن سراييفو كان بها سكان مسلمون قبل ١٤٦٣، انظر هاجياهيتش Hadzijahic, *Porijeklo bosanskih Muslimana*، ص ٦٦.

٤- أوكيتش Okich, 'Les Kristians de Bosnie'، صفحات ١١٨-١١٩.

٥- جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'* ، ص ٧٤.

٦- فاين، *Bosnian Church* ، ص ٣٨٤. والأرقام التى قدمها د. مانديتش (*Etnicka povijest Bosne*، ص ١٥٤) غير صحيحة. وعدد السكان الإجمالى محسوباً من دفاتر عشرينيات الألف وخمسمئة لسنجقيات البوسنة وزفورنيك والهرسك هو ٢١١٥٩٥ من المسيحيين و١٣٣٢٩٥ من المسلمين (هاجياهيتش Hadzijahich, *Porijeklo bosanskih Muslimana* ، ص ١٦٥).

٧- هاجياهيتش Hadzijahich, *Porijeklo bosanski Muslimana* ، ص ٧٨. ويلاحظ د. مانديتش أيضاً اعتناقاً أسرع للإسلام فى نواحى كونيتش وفوتشا فى أوائل القرن السادس عشر: *Etnicka povijest Bosne* ، ص ١٦١.

٨- د. مانديتش D. Mandich, *Etnicka povijest Bosne* ، ص١٥٣-١٥٨.

٩- هانجيتش Handzic, *Tuzla i njena Okolina* ، صفحات ١١٨-١٢٢ و ١٣٦-١٤٢. انظر أيضاً مناقشة هذا الموضوع فى جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'* ، صفحات ٨٠-٨٨.

١٠- د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne* ، ص ٢١١. وكان اسم القسيس "أثاناسيو جورجيسيو 'Athanasio Georgiceo'"، الذى ينطقه المؤرخون العصريون بصور مختلفة: جرجسيفيتش Grgicevic ، (وهو نطق خاطئ بكل تأكيد)، وجورجيفيتش Georgijevic ويوريفيتش Jurjevic . و"البوسنة" فى تقارير القرن السابع عشر تلك تعنى كل المقاطعة الفرنسيسكانية التى تحمل ذلك الاسم، وتطابق تقريبا "إيالة" البوسنة، وهى مساحة أكبر كثيراً من سنجقية البوسنة.

١١- دراجانوفيتش Draganovic, 'Izvjesce apostolskog vizitatora' ، ص ٤٣، حيث ذكر التالى: 'De Turchi saranno tre parti, et a pena de Catholici una, Schismatici saranno per la meta di Catolici, de quali saranno cento cinquata milla anime in circa' [*sic*]. وهناك ملخص وضع فى أول التقرير (ص ١٠)، بواسطة كاتب آخر، شرح ذلك خطأ بأنه يعنى ١٥٠٠٠٠ أرثونكسى و٣٠٠٠٠٠ كاثوليكى (ويعنى ذلك ٩٠٠٠٠٠ مسلما)؛ وقد تبعه فى ذلك جميع من تلاه من الكتاب تقريبا.

١٢- كلمة *Turkush* مشتقة من *turk usakli* ، وتعنى ابن التركى.

١٣- كيوليشيتش Kulisic, 'Razmatranja o porijeklu Muslimana' ، صفحات ١٤٥-١٤٧؛ هاجياهيتش Hadzijahic, *Porijeklo bosanskih Muslimana* ، صفحات ١٢٨-١٤١؛ فاين، *Bosnian Church* ، ص ٣٨٢؛ جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat* ، ص ٥٧. وأساس كل تبحّر حول هذا الموضوع هو البحث الموجود فى محفوظات إسطنبول والذى أعده عمر لطفى باركان، الذى لم يجد دليلا واحدا على أى استيطان لمجاميع من الترك أو الأسيويين فى البوسنة؛ انظر بحثه 'Les deportations comme methode de peuplement'.

١٤- جايا Dzaja, *'Die Bosnische Kirche'* ، ص ٨٤.

١٥- اسمايلوفيتش Smailovic, *Muslimanska imena* ، صفحات ٥٠-٥٤؛ ويورد بلاو قائمة بألقاب المسلمين ويلاحظ أن بعضها أيضاً كان مشتقاً من أسماء الأماكن: *Reisen in Bosnien* ، صفحات ٦٢-٦٣.

١٦- انظر شوجار، Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule* ، صفحات ٤٥-٤٦.

١٧- عن المنحة والعهد نامة أو فرمان حماية الوضع القانوني، انظر باتينيتش Batinic, *Djelovanje franjevaca u Bosni* ، المجلد الأول، ص ١٣٢.

١٨- ج. ونزل G. Wenzel, ed., *Marino Sanuto vilagkronikajanak tudositasai*، المجلد الأول (=١٤)، ص ١٥٥.

١٩- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat*، صفحات ١٥٩-١٦٤؛ Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، صفحات ٤٧٧-٤٧٨.

٢٠- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٣٤١.

٢١- جايا Dzaja, *Die 'bosnische Kirche'* ، ص ٩٣.

٢٢- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، صفحات ٩٢-٩٤.

٢٣- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٣٨٤-٣٨٥.

٢٤- جايا Dzaja, *Die 'Bosnische Kirche'* ، ص ٩١.

٢٥- ويلر، Wheler, *Journey into Greece* ، ص ٤٤١.

٢٦- فاين، *Bosnian Church* ، ص ١٣.

٢٧- بوردو، Bordeaux, *La Bosnie populaire* ، ص ٥٢. وعن دراسة أكثر تفصيلاً لاستخدام المسلمين في البوسنة للتمائم والكتابات الواقية، انظر Kriss and Kriss-Heinrich, *Volksglaube* ، المجلد الثاني، صفحات ٩٩-١٠٣. وطبع إيفانز رسوماً لبعض التمائم النموذجية، ولاحظ (وهو يكتب في ١٨٧٦) أن تجارة الكتابات الواقية "مصدر منتظم للدخل لدى الرهبان الفرنسيسكان": *Through Basnia* ، صفحات ٢٨٩ و٢٩٢. وعن ممارسات ومعتقدات شعبية أخرى، انظر درهام Durham, *Some Tribal Origins* ، صفحات ٢٤٨-٢٧٤، وليلك Lilek, 'Vjerske starine'.

٢٨- بالاجيا Balagija, *Les Musulmans yougoslaves* ، ص ٣١. ويفرق هاجياهيتش Hadzijahic ('Sinkretisticki dementi') ، صفحات ٣١٦-٣٢٢، بين مختلف الطرق التي كان المسلمون يحتفلون فيها بالأعياد المسيحية، ويلاحظ أن للكثير منها أصولاً سابقة على المسيحية.

٢٩- هاجياهيتش Hadzijahic, 'Sinkretisticki elementi'، صفحات ٣٢٦-٣٢٧ (أيقونة العذراء في أولوفو)؛ جيبونز، Gibbons, *London to Sarajevo*، ص ١٨١ (كنيسة سانت أنطونيو الكاثوليكية في سراييفو: "حيث الأرثوذكس واليهود والمسلمون جميعاً يذهبون إليها للصلاة")؛ شوميت دي فوسسيه، Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie* ، صفحات ٧٤-٧٥ (عن القداسات من أجل المرض، ملاحظاً أن المسلمين كان لهم "نوع من الولع بالشعائر الكاثوليكية").

٣٠- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص ٥٢٥-٥٢٦.
٣١- ف. و. هازلوك، F. W. Hasluck, *Christianity and Islam* ، المجلد الأول، صفحات ٧٧ (الدراويش)، ٦٩ (اقتباس). ويلاحظ هازلوك أيضاً سجلاً في ١٦٢١ عن الكاثوليك والأرثوذكس والمسلمين ينتجعون صورة للعذراء التماساً للشفاء (ص ٦٦).
٣٢- ومن بين هؤلاء العلماء الأجلاء صفوت بك باشاجيتش وشيرو تروهيلكا: انظر هاجياهيتش Hadzijahic, *Porijeklo bosanskih Muslimana* ، صفحات ٩١-٩٢.
٣٣- شو، *History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، ص ١١٤ (ناطقاً إياها "بوتور").
٣٤- عن كل هذه المصادر التركية، انظر هاجياهيتش Hadzijahic, *Porijeklo bosanskih Muslimana* ، صفحات ٨٧-٩٠.
٣٥- Akademia e shkencave, *Fjalor igjuhes se sotme Shqipe* ، وعن صورة لبوتور ألباني، انظر ستارت ودرهام، Start and Durham, *Durham Collection of Garments* ، ص ٣٥.
٣٦- د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne* ، ٢٠٧-٢٠٨ و٢٢٥.
٣٧- المرجع السابق، ص ٢١١. و"النار" هنا هى، بالطبع، عقاب الردة عن الإسلام، وليست معاملة عامة للمسيحيين على إطلاقهم.
٣٨- عن أمثلة عثمانية أخرى، انظر ف. و. هازلوك، *Christianity and Islam*، المجلد الثانى، صفحات ٤٦٩-٤٧٤؛ ودوكينز Dawkins, 'Crypto-Christians of Turkey' ؛ وأمانتوس Amantos, *Scheseis Ellenon kai Tourkon* ، صفحات ١٩٣-١٩٦.
٣٩- رايكوت، Rycaut, *Present State of the Ottoman Empire* ، صفحات ١٢٩-١٣١ (الكتاب الثانى، الفصل ١٢).
٤٠- سولوفييف، Solovjev, 'Le Temoignage de Paul Rycaut'.
٤١- رايكوت، Rycaut, *Present State of the Ottoman Empire*. وعن البكتاشية، انظر ف. و. هازلوك، F. W. Hasluck, *Christianity and Islam* ، المجلد الثانى، وبيرج، Birge, *Bektashi Order*.
٤٢- قابل جورج ويلر فى ١٦٧٦ بولندى تحول للإسلام يعمل ترجماناً، وقال إنه كان من أهم مصادر معلومات رايكوت: *Journey into Greece*، ص، ٢٠٢.
٤٣- هاجياهيتش Hadzijahic, *Porijeklo bosanskih Muslimana* ، صفحات ٩٠-٩١.
٤٤- ستانويفيتش Stanojevic, 'Jedan pomen o kristjanima': وهذا التقرير، الذى يرجع إلى ١٦٩٢، والذى كثيراً ما يستشهد به فى الدراسات العصرية عن البوسنة، لا يذكر البوتور، وهو فى الواقع من دالماشيا.
٤٥- يوكيتش Jukic, *Zemljopis i poviestica Bosne* ، ص ١٤٣، وقد نقل عنه أندريتش، Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia* ، ص ٢٠.
٤٦- تشوبريلوفيتش Cubrilovic, 'Poreklo muslimanskog plemstva'.
٤٧- سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina* ، ص ٤٢.

٤٨- ب. زلاتار 'B. Zlatar, 'O nekim muslimanskim feudalnim porodicama.

٤٩- سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina* ، ص ٧٦.

٥٠- براودل Braudel, *Mediterranean* ، المجلد الأول، صفحات ٤٢٠-٤٢١، و٥٩٥.

٥١- كيوريبيشيتش Kuripesic, *Itinerarium der Botschaftsreise* ، ص ٤٤.

٥٢- عن الدور العام للدوشرمة فى عملية اعتناق الإسلام، انظر بابوليا Papoulia, *Ursprung und Wesen der 'Knabenlese'*، صفحات ٩٨-١٠٨.

٥٣- عن نص "القانون"، انظر أندريتش Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia*، صفحات ٢٣-٢٤؛ ونشره روشكيفيتس أيضاً وعلق أن كثيراً من مواده لم تعد مطبقة قبل إلغائه فى ١٨٣٩ بزمن طويل: *Studien uberBosnien* ، صفحات ٢٥١-٢٥٢.

٥٤- د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne* ، صفحات ٢٤٦-٢٤٧. وعن اختطاف القوات المسيحية للأطفال المسلمين من البوسنة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، انظر Klen, 'Pokrstavanje "Turske" djece'.

٥٥- هانجيتش Handzic, 'O gradlskom stanovnistvu u Bosni' ، صفحات ٢٥٢-٢٥٣.

٥٦- هراباك Hrabak, 'Izvoz plemenitih metala iz Bosne'.

٥٧- سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina* ، صفحات ٣٦-٣٨؛ باشاليتش وميشيفيتش Pasalic and Misevic, eds., *Sarajevo* ؛ ب. زلاتار B. Zlatar, 'Une ville typiquement levantine'.

٥٨- بيليتييه Pelletier, *Sarajevo* ، ص ٧٦.

٥٩- سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina* ، ص ٥١.

٦٠- شوجار Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule* ، ص ٥١.

٦١- ب. زلاتار B. Zlatar, 'Une ville typiquement levantine' ، ص ٩٦.

الفصل السادس: الصرب والأفلاق

١- فاين، *Bosnain Church* ، ص ١٧٢.

٢- المرجع السابق، صفحات ٣٠٥-٣٠٧؛ جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat*، ص ١٥٨؛ د. مانديتش D. Mandic *Etnicka poviest Bosne*، صفحات ٤٥٦-٤٦٧.

٣- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat* ، صفحات ١٢٥-١٢٦.

٤- فاين، *Bosnian Church* ، ص ٣٧٩.

٥- عن تقرير عن عام ١٤٥٥، انظر Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، صفحات ٢٢٤-٢٢٦.

٦- فاين، *Bosnian Church* ، صفحات ٣٧٩-٣٨٠؛ جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat* ، ص ١٢٩.

٧- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat* ، صفحات ١٢٦-١٢٧؛ سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina* ، ص ٥٦. ومع ذلك، فإن أول دليل مؤكد عن الكنيسة الأورثوذكسية فى سراييفو يعود إلى ١٦١٦: سكاريتش Skaric, *Srpski pravoslavni u Sarajevu*، ص ١٠.

٨- عن البينات الدالة على التحول الدينى، انظر د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne* ، صفحات ٤٦٧-٤٩٤. وكانت هناك أيضاً تحولات من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية.

٩- جايا Dzaja, '*Die Bosnische Kirche*' ، صفحات ٧٥-٨٢.

١٠- فاسيتش Vasic, 'Etnicka kretanja'، صفحات ٢٣٣-٢٣٩؛ وعن تقرير حول طاعون خطير فى ١٥٨٤، يقال عنه إنه قضى على مئتى ألف فى البوسنة والهرسك وصربيا، انظر Ferrnendzin, *ed., ActaBosnae* ، ص ٣٣٨.

١١- كيوريبيشيتش Kuripesic. *Itinerarium der Botschaftsreise* ، صفحات ٣٤-٣٥. وسميديروفو (Smederovo) مدينة فى شمال صربيا، جنوب شرقى بلجراد. ووجد كيوريبيشيتش أيضاً صربيين أثناء الشطر الثانى من رحلته بين سراييفو وكوسوفو؛ وهو يشير إلى هؤلاء ببساطة على أنهم صربيون (ص٤٣).

١٢- روشكيفيتس Roskiewicz, *Studien uberBosnien* ، ص ٧٧.

١٣- فاشيتش Vasic, 'Etnicka kretanja' ، ص ٢٣٨؛ شابانوفيتش Sabanovic. 'Vojno uredjenje Bosne' ، صفحات ٢١٨-٢١٩.

١٤- كيوريبيشيتش Kuripesic. *Itinerarium der Botschaftsreise* ، ص ٤٣. وعبر كثير من الأفلاق الحدود إلى الجانب النمسوى بعد هزيمة العثمانيين فى سيساك فى ١٥٩٣ (Gusic, 'Wer sind die Morlaken?' ص ٤٦١).

١٥- انظر روتنبرج Rothenberg, *Austrian Military Border*، وعن خلاصة مفيدة، انظر كتابه *Military Border in Croatia* ، صفحات ٦-١١.

١٦- المؤلفات عن الأفلاق ضخمة العدد، كما أنها فى معظم شأنها غير مرضية. وعن مراجع وفيرة العدد، انظر ناستوريل Nasturel. ed.. *Bibliografie macedo romana*. ولا تزال خير مقدمات عامة هى فايجاند Weigand. *Die Aromunen* و ويس وطومسون Wace and Thompson. *Nomads of the Balkans* . كما أن أفضل دراسة عصرية هي وينيفيرث Winnifrith. *Vlachs* ؛ ثم إن ناندريس Nandris, 'Aromani' يعد أيضاً دراسة قيمة.

١٧- جفونى Gvoni, 'La Transhumance des Vlaques' .

١٨- بارتيوسيس Bartusis, *Late Byzantine Army* ، صفحات ٢١٦ و ٢٥٦؛ ناستوريل Nasturel. 'Les Valaques balcaniques'، ص ١١٠.

١٩- د. رادويتشيتش D. Radojcic. 'Bulgaralbanitoblahos' .

٢٠- ينبغى أن أوضح أنى لم أتمكن من الرجوع إلى البيان الكامل للأب مانديتش عن نظريته *Postanak Vlaha* ، الذى نشر فى بوينس أيريس؛ وكان اعتمادى على

الملخص الوارد فى كتابه 'Ethnic and Religious History of Bosnia' ، صفحات ٣٨٣-٣٨٦.

٢١- هناك مؤلفات فنية واسعة عن العلاقات بين الرومانية والألبانية. انظر بوجه خاص Baric, *Lingvisticke studije*؛ وعن ملخصات عصرية جيدة، انظر دو نى Du Nay, *Early History of Rumanian* و *Ethnic Continuity* ، Illyes, صفحات ١٩١-٢٩٠.

٢٢- انظر هارمان Haarmann, Der *latcinische Lehnwortschatz*. وتدل البينات أن نوع اللاتينية المتأخرة التى تطورت إلى اللغة الرومانية كانت على صلة وثيقة بالألبانية، وإن كانت بعض الكلمات الألبانية المستعارة جاءت أيضاً من لاتينية أبكر.

٢٣- إن قائمة أعظم العلماء المستقلين (أى غير البلقانيين) امتيازاً تتضمن ييريتشيك وفايجاند وستادمولر. وعن مسح نافع (وإن اتجه بطبيعة الحال إلى توكيد الأصول الجغرافية الألبانية للألبان)، انظر تشابى 'Cabej, 'Problem of Place of Formation. وحاول بعض الكتاب الرومانيين أن يعكسوا الأوضاع بالزعم بأن الألبان قدموا من رومانيا. وكان أمهر حل وسط هو الذى وضعه مارييسكو (Marienescu)، الذى ذهب إلى أن الخصائص الإلليرية للغة إنما التقطها أولاً وقبل كل شيئ الجند الرومانية فى مقدونيا، وهم رجال أعيد نقلهم إلى شمالى الدانوب ('Ilirii, macedo-romanii si albanesii')، صفحات ١٥٣-١٥٤.

٢٤- ييريتشيك 'Jirecek, 'Die Romanen in den Stadten Dalmatiens ، الجزء الأول، صفحات ٣٥-٤٠؛ وجيوشيتش 'Gusic, 'Wer sind die Morlaken? ؛ ودراجومير Dragomir, *Vlahii si Morlacii* ، صفحات ١٥-٥٢. وعن السجلات البندقية للأفلاق انحداراً أسفل الساحل فى الجبل الأسود وشمال ألبانيا، انظر فالنتينى Valentini, 'L'elemento *vlah* nella zona scutarina'.

٢٥- دراجومير Dragomir, Vlahii *din nordul peninsulei balcanice* ، صفحات ٤٩-٥٢ والخريطة رقم ١.

٢٦- إ. بوبوفيتش 'I. Popovic, 'Valacho-serbica ، (وقد صححت هجاء بوبوفيتش لكلمة tirziu) صفحات ٣٧٢-٣٧٣؛ هولد Huld, *Basic Albanian Etymologies* ، ص ٥٧. وفى الرومانية العصرية تعنى كلمة tirziu "متأخر" وكلمة zara تعنى "شرش" أو "اللبن الرائب". وعن بينة على الرعويات الألبانية فى دالماشيا، وعلى مجاميع ذات أصل ألبانى بين أفلاق الهرسك وصربيا، انظر جوشيتش Gusic, 'Wer sind die Morlaken?'، ص ٤٥٦؛ وييريتشيك Jirecek, 'Die Romanen in den Stadten Dalmatiens'، الجزء الأول، صفحات ٤١-٤٣؛ وم. فيليبوفيتش M. Filipovic, 'Struktura i organizacija katuna'، صفحات ٥٠-٥٨.

٢٧- وربما كان أحفادهم عائشين فى صورة الرعاة الترانسهيومانت المحولين للإسلام، والذين يعرفون عامة باسم باليجى، فى المناطق النائية من البوسنة، انظر Balagija, *Les Musulmans yougoslaves* ، صفحات ٨٢-٨٣؛ كيوليشيتش Kulisic, 'Razmatranja o porijeklu Muslimana'، ص ١٥٣. وهناك عائلة من باليجي Balije بحثها فايجاند، فظهر أنها فيما يحتمل من أصل تركمانى ('Rumanen und

'Aromunen in Bosnien'، صفحات ١٩١-١٩٧)؛ ولكن الواضح أن معظمهم من أرومة بلقانية.

٢٨- جوشيتش Gusic, 'Wer sind die Morlaken?'، ص٤٥٧. انظر كمثال لذلك شكوى كتبت في ١٤٠٣ في Fermendzin, ed., *Acta Bosnae*، ص ٨٥.

٢٩- يطابق نوفاكوفيتش Novakovic، في (*Selo*، ص ٣٣) أيضاً بين *Crnogunjci* وSarakatsani، الذي ربما جاء اسمهم من الكلمة التركية *Karakacan* التي تعني "المتقهقر الأسود"؛ ولكن الساركاتسينيين، الذين من الواضح أنهم ظلوا يتحدثون اليونانية زمناً طويلاً أنما هم سر آخر.

٣٠- يذكر يوانوس لوسيوس التروجيري (إيفان لوكيتش) مؤرخ القرن السابع عشر أن المصطلح كان يستخدم نقيضاً لمصطلح *'Bili-Vlahi*, id est *Albi Latini'* (الأفلاق البيض) (انظر 'De Regno Dalmatiae', in von Schwandner, ed., *Scriptores rerum hungaricarum* المجلد الثالث، ص ٤٥٩)؛ على أني لم أر أية عبارة تعبر عن "الأفلاق البيض" مقتبسة من أي مصدر مبكر. ويرى بيريتشيك أن الراجوزيين والدالماشيين وضعوا وسيلة التمييز ليفرقوا أنفسهم (الذين يسمون أيضاً بالأفلاق بسبب لغتهم المصطبغة باللاتينية) عن أفلاق المناطق الداخلية، ويرى جوشيتش أنهم كانوا يميزون بين أفلاقهم الأصليين المحليين (الذين كانوا يرتدون البياض) وبين موجة من القادمين الجدد. وعندي أن كلا النظريتين غير مقنعة، إذ ليس ثمة سبب في أن يستخدم الراجوزيون أو الدالماشيون الآخرون اللغة اليونانية. وكان لوشيوس التروجيري متنبهاً على الأقل إلى هذه المسألة، فذهب إلى أن مصطلح *Mavrovlachos* أعاد نقله البنادقة (الفينيسيون) من اليونان.

٣١- وتجئ كلمة *Morovlah* في المراجع الراجوزية مشيرة إلى الأفلاق المحليين بدءاً من القرن الثالث عشر، انظر بيريتشيك Jirecek, 'Die Romanen in den Stadten Dalmalatiens'، الجزء الأول، ص ٣٥، ولا شك أن الأثر الشعبي في نطق الكلمة إنما حدث قرب أخريات القرن الثاني عشر، عندما أشار قسيس ديوكليا إلى الموروفلاتش 'Morovlachi' (وإن كان على ذكر من أن المعنى كان اللاتيني الأسود 'nigri Latini'): فون شواندنر von Schwandner, ed., *Scriptores rerum hungaricarum*، المجلد الثالث، ص ٤٧٨. ويتناقض كلا هذين العنصريين للبينة مع الحجة المقدمة في جوشيتش Gusic, 'Wer sind die Morlaken?'، صفحات ٤٥٩-٤٦٠.

٣٢- فورتيس Fortis, *Travels into Dalmatia*، صفحات ٥٣ و٨٥. وقد لقيت كثير من ملاحظات فورتيس (على أن تلك لم تكن من بينها) معارضة في عمل أوخر وأثمن على يد كاتب أوتي معرفة محلية أجود كثيراً، انظر Lovrich, *Osservazioni*.

٣٣- انظر باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien*، ص ١٧٥؛ ويلسون Wilson, *Life of Vuk Karadic*، صفحات ١٩٢-١٩٤. وترجمت ويلسون الخاصة وردت في صفحات ٣٦١-٣٦٣.

٣٤- بلديسيانو Beldiceanu, 'Les Valaques de Bosnie'.

٣٥- بلديسيانو 'Beldiceanu, 'Sur les valaques des balkans slaves ، ص ٩٧؛ بلديسيانو وبلديسيانو-ستاينهر Beldiceanu and Beldiceanu-Steinherr, 'Quatre actes de Mehmed II'، ص ١١٨؛ انظر أيضاً هاجيبيجيتش 'Hadzibegic, 'Dzizja ili harac، الجزء الأول، ص ٦٨. ومع هذا، فعند أخريات القرن الثامن عشر، كان أحفاد الأفلاق في منطقة حدود البوسنة يدفعون الخراج فعلاً: انظر لوفريتش ,Lovrich *Osservazioni*، ص ٨٣.

٣٦- انظر بلديسيانو 'Beldiceanu, 'Sur les valaques des balkans slaves ، ص ٩٤؛ هاجياهيتش ,Hadzijahic *Porijeklo bosanskih Muslimana* ، ص ١٣٧. قارن ملحوظة كيوريشيتش أعلاه (هامش ١١).

٣٧- جايا *'Dzaja, Die 'bosnische Kirche* ، ص ٧٥.

٣٨- بلديسيانو 'Beldiceanu, 'Sur les valaques des balkans slaves، ص ٩١. ويحدد تريفونوفسكي Trifunovski تاريخ التغيير نحو الاستقرار في قرية مفردة إلى القرن الخامس عشر: 'Geografske karakteristike katuna' ، صفحات ٣٦-٣٧.

٣٩- لوفريتش ,Lovrich *Osservazioni* ، صفحات ١٧٤و ١٧٩.

٤٠- وكان مؤسس هذا التفسير هو ستويان نوفاكوفيتش Stojan Novakovich مؤرخ القرن التاسع عشر؛ انظر كتابه Selo ، صفحات ٢٩-٣٠. وكذلك يرى المؤرخ الروسي إ. ب. نوموف E. P. Naumov أيضاً أن الأفلاق اصطبغوا بالصباغ السلافي الثقيل في زمن مبكر يرجع إلى القرن الثالث عشر: انظر 'Balkanskiye vlakhi'. على أن الكتاب الصربيين الذين يتقبلون الرأى القائل بأن للأفلاق هوية إثنية (عرقية) مختلفة، لم تصدهم تلك الحقيقة المجردة؛ إذ من العجيب أن مؤرخاً صربياً معاصراً يكتب: "حتى الأفلاق أنفسهم وطرائقهم في الحياة أصبحوا عرضة للتهديد حتى لقد انضموا للصرب لكي ينقذوا حياتهم، كما أنهم في أثناء تلك العملية ساعدوا في الاحتفاظ بالهوية الإثنية والدينية والثقافية للصرب واستمرارها". (انظر بافلوفيتش ,Pavlovich *Serbians*، ص ٧٨).

٤١- بلديسيانو 'Beldiceanu, 'Les valaques de Bosnie ، ص ١٢٣.

٤٢- م. فيليبوفيتش 'M. Filipovic, 'Struktura i organizacija katuna ، ص ٥٢ (أسماء)؛ ييريتشيك 'Jirecek, 'Die Romanen in den Stadten Dalmatiens، الجزء الأول، ص ٤٠ (جزيرة)؛ نيجر ,Niger *Geographiae commentariorum libri*، ص ١٠٣ (اللاتيني الفاسد)؛ نانديريش 'Nandris, 'Aromani ، ص ٣٨ (كلمات العد).

٤٣- ييريتشيك 'Jirecek, 'Die Romanen in den Stadten Dalmatiens ، الجزء الأول، ص ٤١.

٤٤- د. مانديتش ,D. Mandic *Etnicka povijest Bosne* ، ص ٥١٦.

٤٥- ويكمن الفرق في أسلوب النطق الحنكي لبعض الحروف المتحركة: فإن "الإيكافية"، المتحدث بها في صربيا، تنطق كلمة "اللبن" 'mleko'، بينما "الييكافية" (المتحدث بها في البوسنة والهرسك) تنطقها 'mljeko' or 'mlijeko'.

٤٦- ويستشهد د. ماندیتش بالإحصاء كدليل على استمرار التحث بالأفلاقية فی (Etnicka povijest Bosne ، ص٥١٦)؛ فيليبسكو Filipescu, *Coloniile romane din Bosnia*.

٤٧- فايجاند Weigand, 'Rumanen und Aromunen in Bosnien'. وعن 'Karavlasi'، انظر القسم عن الغجر فی الفصل التاسع.

٤٨- على أن د. مانديتش يذكر بدقة عجيبة زائفة أن النسبة ٥٠-٥٢ ٪ (*Etnicka povijest Bosne* ، ص ٥١٦).

٤٩- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat* ، ص ٨٣.

الفصل السابع: الحرب والشئون السياسية فی البوسنة العثمانية ١٦٠٦-١٨١٥

١- كونت Kunt, *Sultan's Servants* ، ص ٨٢.

٢- كليسولد Clissold, ed., *Short History* ، ص ٤٩.

٣- Fermendzin,ed., *Acta Bosnae* ، صفحات ٤٧٩-٥٠١.

٤- شو Shaw, *Historyy of thc Ottoman Empire* ، المجلد الأول، ص ٢١٢.

٥- ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique* ، ص ٢٥٩.

٦- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat* ؛ ومع هذا فإن بيليديا Peledija يكتب أن العدد الإجمالی للاجئين المسلمين من الأراضی التی استرجعها آل هابسبرج بلغ مئة وثلاثون ألفا، لم يكونوا جميعا يسكنون البوسنة، انظر (*Bosanski ejalet*) ص ٥٠.

٧- ديورديیف Djurdjev, 'Bosna' ، ص ١٢٦٧.

٨- مراز Mraz, *Prinz Eugen* ، ص ٤٠.

٩- د. مانديتش D. Mandic, *Etnicka povjest Bosne* ، ص ٥١٤.

١٠- على أن بعض الكاثوليك عادوا فعلاً بعد أن أعلنت السلطات العثمانية الهدنة فی ١٦٩٩: انظر بيليديا Peledija, *Bosanski ejalet* ، ص ٥١.

١١- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat*، ص ٩٨.

١٢- وأخيراً تم تحديد خط الحدود هذا بين البندقية والبوسنة خلال الفترة ١٧٢١-١٧٣٣: انظر Clissold, ed., *Short History* ، صفحات ٤٥ و٥٠. ويقول شو مخطئاً أن المعاهدة حددت التخوم على نهر سافا (*History of the Ottoman Empire* ، المجلد الأول، ص ٢٣٢).

١٣- ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique* ، ص ٢٥٩.

١٤- جايا Dzaja. *Konfessionalitat und Nationalitat* ، ص ٩٦. ويلاحظ جايا أيضاً تمردات حدثت قبل الحرب فی ١٧١٠ و ١٧١١.

١٥- هانجيتش Handzic, 'Bosanski namjesnik' ، صفحات ١٤٤-١٤٥.

١٦- المرجع السابق، ص ١٥٢-١٦٣.

١٧- ديورديیف Djurdjev, 'Bosna' ، ص ١٢٦٧.

١٨- هانجيتش Handzic, 'Bosanski namjesnik' ، صفحات ١٦٤-١٨٠.

١- هاجياهيتش Hadzijahic, 'Die Kampfe der Ajane'، ص ١٣٠.
٢- سوشيسكا Suceska, 'Osmanli imparatorlugunda Bosna'، ص ٤٤١.
٢- هاجياهيتش Hadzijahiç, 'Die priviligierten Stadte'، ص ١٥٦.
٢- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat*، ص ٩٨.
٢- ب. يلافيتش B. Jelavich, *History of the Balkans*، المجلد الأول، ص ٩٠.
٢- روتنبرج Rothenberg, *Military Border in Croatia*، صفحات ٧٢-٧٣.
٢- شو Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الأول، ص ٢٥٩.
٢- شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، صفحات ١٤٦-١٤٩.
٢- ديبوف Desboeufs, *Souvenirs*، صفحات ١٣٢-١٣٣.
٢- بافلوويتش Pavlowitch, 'Society in Serbia'، صفحات ١٤٤-١٤٥؛ ويلاحظ بوبوفيتش أن أعمالاً كهذه استمرت بيأس متجدد بعد ١٨١٥ (انظر *L'Islam balkanique*، ص ٢٦٢).
٢- كريشيفلياكوفيتش Kresevljakovic, *Kapetanije*، صفحات ١٣ و ٢٢.
٣- المرجع السابق، صفحات ٥٢-٦٤.
٣- كان من الممكن أن توصف البوسنة بأنها "باشالوكية"، ولكن ذلك كان مصطلحاً عاماً يشمل جميع أنواع الأراضي التي يحكمها باشا. وحيث أن البوسنة كانت إيالة فإنها لم تكن على نفس مستوى باشالوكية بلجراد مثلاً، التي كانت سنجقية فقط. وعن الامتيازات التي يتمتع بها الباشا ذي الذيول الثلاثة، انظر دوسون d'Ohsson, *Tableau de l'Empire othoman*، المجلد السابع، ص ٢٨٥.
٣- شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، صفحات ١٨٦-١٨٧؛ كريشيفلياكوفيتش Kresevljakovic, *Kapetanije*، ص ١٧.
٣- شاميتش *Samic, Les Voyageurs francais*، ص ١٨٨.
٣- هاجياهيتش Hadzijahic, 'Die priviligierten Stadte'، صفحات ١٣٢-١٣٤. وقد رأس المسلمون النقابات ولكنها ضمت أيضاً أعضاء من المسيحيين واليهود. وكان لغير المسلمين أقسامهم داخل النقابة. انظر كريشيفلياكوفيتش Kresevljakovic, *Esnafi i obri*، ص ٤٩؛ سكاريتش Skaric, *Sarajevo i njegova okolina*، ص ١٣٤.
٣- شوميت دي فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، ص ١١٤.
٣- هاجياهيتش Hadzijahic, 'Die priviligierten Stadte'، ص ١٣٧.
٣- المرجع السابق، صفحات ١٥٦-١٥٧.
٣- عن آجانات البوسنة، انظر المرجع السابق؛ سوتشيسكا Suceska, 'Bedeutung des Begriffes A'yan'؛ هاجياهيتش Hadzijahic, 'Die Kampfe der Ajane'؛ وعن الطبيعة الأصلية للوظيفة، انظر باون Bowen, 'Ayan'؛ وعن استخدام المصطلح في أماكن أخرى، انظر شوجار Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule*، ص ٢٣٨.

الفصل الثامن: الحياة الاقتصادية والثقافة والمجتمع فى البوسنة العثمانية ١٦٠٦-١٨١٥

١- يحلل توماسيفيتش الاستخدام الخاص لهذه المصطلحات فى البوسنة فى: *Peasants, Politics, and Economic Change*، صفحات ٩٩-١٠٠. ويعطى شوجار بياناً مختلفاً وأكثر عمومية فى: Sugar: *Southeastern Europe under Ottoman Rule* ، صفحات ٢١٤-٢١٨.

٢- والتحول إلى المزارع الكبيرة الخاصة (الشيفتليك) فى جميع أنحاء الإمبراطورية لهو موضوع ضخم يحوط الغموض جوانب كثيرة منه. وولاستعراض قيم عن هذه الموضوعات، انظر ماكجولون McGowan, *Economic Life in Ottoman Europe*، صفحات ٥٧-٧٩. وتصف موتافتشيفا Mutafchieva الشكلين التقليديين الذي كانت المزارع الكبيرة الخاصة تمنح بهما (للموسيلليمين و"الغازيين" او الأبطال العسكريين)؛ وتلاحظ أيضاً شكلاً خاصاً لهذه المزارع مستخرجاً من الممتلكات الإقطاعية القديمة فى البوسنة فى: ('K'm v'prosa za chiflitsite' ، صفحات ٣٦-٤٢).

٣- انظر ملاحظات هوتينجر على تواجدهم فىأدرنة فى خمسينات الألف وستمئة فى: Hottinger, *Historia orientalis*، ص ٤٦٣.

٤- ماكجوان 'McGowan, 'Food Supply and Taxation .

٥- شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais* ، ص٢٤٨.

٦- ماكجوان McGowan, *Economic Life in Ottmnan Europe* ، صفحات ٨٣-٨٦.

٧- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat* ، صفحات ١٠٥-١٠٦ و ١٥١ و١٦٨. ويذهب تقرير الأب مارافيتش عن البوسنة فى ١٦٥٥ إلى أن عدد السكان الكاثوليك هو ٦٣٢٠٦ روحاً: Fermendzin, ed., *Acta Bsnae* ، ص ٤٧٦.

٨- سكاريتش 'Skaric, 'Popis bosanskih spahija .

٩- ب. بيلافيتش B. Jelavich, *History of the Balkans* ، المجلد الأول، ص ٩٠.

١٠- والأرقام عن الذكور البالغين من غير المسلمين المسجلين فى إيالة البوسنة من دافعى الجزية: ١٢٥٠٠ فى سنة ١٧٠٠ (شاملة الهرسك وزفورنيك)، و ٣٩٢٠٠ فى ١٧١٨ (غير متضمنة الهرسك وشاملة زفورنيك)، و ٦٣٤٤٠ فى ١٧٤٠ (غير متضمنة الهرسك وشاملة زفورنيك)، و ٩٨٣٢٩ فى ١٧٨٨ (شاملة الهرسك وسنجقية غير معلومة) و١٠٣٨٨٣ فى ١٨١٥ (شاملة الهرسك وسنجقية غير معلومة) : ماكجوان McGowan, *Economic Life in Ottoman Europe*، ص ٩٠. ويبدو الرقم الأول منخفضاً بصورة غير ممكنة؛ ويحتمل أنه يدل على أن الإدارة البوسنية لم تستفق من الحرب، ولم تستطع إجراء الإحصاءات الكاملة. وكان ذلك هو الرقم الأول الذى تم تجميعه على أساس جديد، وهو حساب عدد الذكور البالغين بدلاً من عدد العائلات.

١١- أرقام قدرها محمد هجياهيتش،واستشهد بها جايا فى *Konfessionalitat und Nationalitat*، ص ٨٢.

١٢- فايجاند Weigand, 'Rumanen und Aromunen' ، ص ١٧٨.

١٣- سكاريتش Skaric, *Srpski pravoslvni narod* ، ص ي ١.

١٤- د. ماندينش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne* ، ص ٥١٤؛ هاجياهيتش Hadiijahic, 'Die priviligierten Stadte'، ص ١٣٦.

١٥- هاجياهيتش Hadzijahic, 'Die priviligierten Stadte' ، ص ١٣٥.

١٦- تشيليبى Celebi, *Putopis* ، صفحات ١٠٦ و ١١٦. ويعتقد علامة عصرى أن أرقام تشيليبى مبالغ فيها، وهو يقارنها برقم أقل كثيراً من دفتر لعام ١٨٤١ (ناجاتا Nagata, *Materials on Bosnian Notables*، ص ٢). ولكن الأب مارافيتش فى تقريره فى ١٦٥٥ يعطى رقماً أكبر قليلاً من رقم تشيليبى: ٢٠٠٠٠ عائلة مسلمة و ١٠٠ عائلة مسيحية (Fermendzin. ed., *Acta Bosnae*، ص ٤٧٦). (ومن الجدير بالذكر أن بيان مارافيتش يتضمن أن هذه المئة عائلة تشمل ٦٠٠ روحا، مما يوحى بأنه استخدم مضاعفاً أكبر مما يستخدمه المؤرخون المعاصرون). ومن الواضح أن سراييفو كانت أصغر فى القرن الثامن عشر مما كانت عليه فى القرن السابع عشر، ويحتمل أنها تضاعفت أكثر فى أوائل القرن التاسع عشر.

١٧- كيكليه Quiclet. *Voyages*، صفحات ٦٨-٧٠ و ٧٩. وقد علق بيتر ماساريتشى على النوعية الفائقة للخيول البوسنية فى ١٦٢٤: انظر Draganovic. 'Izvjesce Petra Masarechija'، ص ٤٢.

١٨- بيليتييه Pelletier. *Sarajevo* ، ص ٦٩.

١٩- شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، ص ٣٣؛ هاجياهيتش Hadzijahic, 'Die priviligierten Stadte' ، ص ١٣٥.

٢٠- وقد فرض النمسويون بغباء رسم استيراد على تجارهم ولم يفرضوا رسماً مماثلاً على الرعايا العثمانيين الذين كانوا يستوردون نفس البضاعة: انظر ماكجوان McGowan, *Economic Life in Ottoman Europe* ، صفحات ٢٣-٢٤.

٢١- على أن معرض ليبزج التجارى مارس ضغطاً على تجار البوسنة وأجزاء أخرى من البلقان خلال تلك الفترة: انظر باسكاليفا Paskaleva. 'Osmanli balkan eyaletlerinin ticaretleri'، صفحات ٤٧-٤٩.

٢٢- عن استخراج معدن الحديد، انظر شوجار Sugar. *Industrialzation of Bosnia*، ص ١٦. ويذكر تقرير كتبه فوركاد فى ١٨١٣، مع ذلك، تصدير نوع من المعادن إلى فرنسا: هو الأوربيمنت (الزرنيخ الأصفر)، وهو مادة كيماوية طبيعية تستخدم فى صناعة الصبغات. (Vacalopoulos. 'Tendances du commerce de la Bosnie'، ص ٩٥).

٢٣- دوسون D'Ohsson. *Tableau general de l'Empire othoman* ، المجلد السابع، ص ٢٩٦.

٢٤- بورتر Porter, *Observations on thc Turks*، المجلد الأول، ص ١٣٣.

٢٥- المرجع السابق، المجلد الثانى، صفحات ٤٧ و ٥٦. وقد ذكر أنطون هـانجى Anton Hangi، الذى كتب فى تسعينيات الألف وثمانمئة دراسة عن الحياة فى البوسنة، تعقيباً مماثلاً حول الأمانة واختفاء السرقة فى سراييفو، حيث عـاش لمدة عام بدون غلق رتاج بابه، علـى حد قوله (*Die Moslim's in Bosnien*)، ص ٧. وقد لاحظ الرحالة البريطانى هـ. س. طومسون H. C. Thomson فى ١٨٩٧: "يمكن الاعتماد على كلمة المسلم فى البوسنة بثقة تامة فى مسائل البيع والشراء" (*Outgoing Turk*، ص ١٦٢).

٢٦- موييتش 'Mujic, 'Prilog proucavanje uzivanja alkoholni pica.

٢٧- شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais* ، ص٢٤٣.

٢٨- بيليتييه Pelletier, *Sarajevo* ، ص ١١٨.

٢٩- أندريتش Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia* ، صفحات ٦٢-٦٣.

٣٠- جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitat* ، ص ١٤٩؛ شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، ص ٢٤٣.

٣١- دراجانوفيتش 'Draganovic, 'Izvjesce Petra Masarechija، ص ٤٦؛ د. مـانديتش D. Mandic, *Etnicka povijest Bosne*، ص ٣٧٥.

٣٢- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، ص٥٢٦.

٣٣- المرجع السابق، ص ٤٧٩.

٣٤- شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie* ، صفحات ٧٠-٧٤.

٣٥- فرا لوفرو سيتوفيتش "أغنية الجحيم" 'Fra Lovro Sitovic, 'Pisna od pakla؛ والقصيدة نفسها على هيئة الشعر الشعبى، وعلى ذلك فمن المحتمل أنها قصد بها أن تحل محله. ويعقب أندريتش بأنها "تختلف فقط عن القصائد الحقيقية فى الشعر الشعبى فى أنها غير منتظمة باستمرار ولا تحوى أى جمال": *Development of Spiritual Life in Bosnia*، ص ٥٠. وعن المراجع الكاثوليكية الأخرى، انظر المرجع السابق، صفحات ٤٧-٥١.

٣٦- المرجع السـابق، ص ٥٠؛ هاجياهيتش Hadzijahic, *Od tradicije do identiteta*، ص ٣٢.

٣٧- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae* ، صفحات ٥٠٣-٥٠٤. وعن المحاولات الأوخر للتعدى على الكاثوليك، انظر جايا Dzaja, *Konfessionalitat und Nationalitdt*، صفحات ٢٠٨-٢٠٩.

٣٨- شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، ص ٧٥.

٣٩- شاميتش Samic, *Les Voyogeurs francais* ، ص ١١٢.

٤٠- شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، ص٧٥.

٤١- أندريتش Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia* ، ص ٣٨.

٤٢- جـازيتش 'Gazic, 'Les Collections manuscrits. وتوحى تقارير من سراييفو أن المجموعة الكاملة فى المعهد الشرقى قد تم تدميرها بواسطة المدفعية الصربية.

٤٣- انظر ليفلدت *Lehfeldt, Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum* ، صفحات ٤٥-٥٢.

٤٤- عن ملخص ثوين، انظر باليتش Balic. *Das unbekannte Bosnien*، صفحات ٢٧١-٢٨١. وأحدث دراسة، التى لم أتمكن من الرجوع إليها، هى هوكوفيتش Hukovic, *Alhamiado knizevnost i njeni stvaraoci*.

٤٥- انظر باليتش Balic. *Das unbekannte Bosnien* ، صفحات ١٦٥-١٩٠.

٤٦- ليفلدت *Lehfeldt, Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum* ، ص ٥٠؛ وعن Baseskija's chronicle، انظر جازيتش Gazic, 'Les Collections manuscrits'.

٤٧- هاجياهيتش Hadzijahic. *Od tradicije do identiteta*، ص ٧. وعن أمثلة كثيرة لكتاب يسمون لغتهم البوسنية، انظر المرجع السابق، صفحات ٢٤-٣١.

٤٨- أوربينى Orbini, *Regno de gli Slavi* ، ص ٣٧٧.

٤٩- ويلسون Wilson. *Life and Times of Karadizic* ، ص ٣٨٩.

٥٠- عن تفاصيل أكثر عن هؤلاء الكتاب وكثيرون غيرهم، انظر باليتش Balic, *Das unbekannteBosnien*، صفحات ٢٢١-٢٦٤.

٥١- انظر المرجع السابق، صفحات ٣٠٠-٣١٦؛ وعن تفاصيل عن مصحفين بوسنيين من القرن الثامن عشر رائعين بصفة خاصة بواسطة إبراهيم شيهوفيتش وحسين بوشنياك Ibrahim Sehovic and Husein Bosnjak، انظر جازيتش Gazic, 'Les Collections manuscrits'.

٥٢- وهناك دراسة قيمة عامة عن طرق الدراويش فى الإمبراطورية العثمانية أعدها ميرميرأوغلو Mirmiroglou. *Oi Dervissai*. وهناك مادة مفيدة فى رايكوت Rycaut, *Present State of the Ottoman Empire*، صفحات١٣٥-١٥١؛ و ف. و. هازلوك F. W. Hasluck. *Christianity and Islam*؛ وبيرج Birge, *Bektashi Order*؛ وتريمنجهام Trimingham, *Sufi Orders in Islam*.

٥٣- هانجيتش Handzic, 'U ulozi dervisa'.

٥٤- بيليتييه Pelletier. *Sarajevo* ، صفحات ٨٢-٨٩. وهناك وصف كامل عن هذه التكيات فى سيكيريتش Sikiric, 'Dervickolostorok es szent sirok'، ولكن سيكيريتش أخطأ عندما وصف تكية إسكندر باشا بأنها الأبكر (صفحات ٥٧٧-٥٧٨).

٥٥- تشيليبى Celebi, *Putopis* ، ص ١١٠.

٥٦- انظر الوصف فى ألجار Algar, 'Notes on the Naqshbandi Tariqat'، صفحات ٧٣-٧٧.

٥٧- بالاجيا Balagija, *Les Musulmans yougoslaves*، ص ١٠٣؛ انظر أيضاً ف. و. هازلوك F. W. Hasluck, *Christianity and Islam*، المجلد الثانى، ص ٥٥١.

٥٨- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien*، صفحات ١٠٤-١٠٥؛ وهاجياهيتش Hadzijahic, 'Udio Hamzev ija u atentatu'، وهوكيتش Hukic, ed., *Islam i muslimani u Bosni*، صفحات ٩١-٩٨.

٥٩- تشيليبى Celebi, *Putopis* ، ص١١٦.

٦٠- انظر مثلاً شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، صفحات ٥٥-٦٣. ويلاحظ شوميت دى فوسسيه أيضاً، كغيره من المراقبين الانعدام الحقيقى لتعدد الزوجات.

٦١- هاجياهيتش Hadzijahic, *Od tradicije do identiteta*، ص ١٩.

٦٢- كيكليه Quiclet, *Les Voyages*، صفحات ٧٢-٧٣.

٦٣- شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، صفحات ٤٩-٥٠.

٦٤- برتوزييه Pertusier, *La Bosnie*، ص ٩١.

الفصل التاسع: يهود وغجر البوسنة

١- جولدستين Goldstein, ed., *Jews in Yugoslavia*، صفحات ٢٧-٢٨.

٢- المرجع السابق، صفحات ٧٥-٧٦.

٣- ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien*، ص ٢. ويكتب فرايدنرايش Freidenreich أن سجلات المحاكم تلك تشير إلى ما بين عشر وخمسة عشر عائلة يهودية (*Jews of Yugoslavia*، ص ١٢)؛ ولكن هذا هو فقط تخمين ليفى حول حجم المجتمع اليهودى فى ذلك الوقت.

٤- شو Shaw, *Jews of the Ottoman Empire* ، ص ٥٣.

٥- لاحظ بيليتييه فى ١٩٣٤ أن المنسوجات فى سراييفو كان لا يبيعها تقريبا إلا اليهود: *Sarajevo*، صفحات ٤٨-٤٩. ويذهب سكاريتش إلى أن يهود سراييفو جاءوا أصلاً من سكوبيى: *Sarajevo i njegova okolina*، ص ٦٠.

٦- شو Shaw, *Jews of the Ottoman Empire*، ص ٥٣.

٧- ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، صفحات ٦-١٠.

٨- جولدستين Goldstein, ed., *Jews in Yugoslavia* ، ص ٧٢؛ فرايدنرايش Freidenreich, *Jews of Yugoslavia*، صفحات ١٢ و ٢٧. وقد حُرق الحوش فى حريق ١٨٧٩، ولم يُبن ثانية. وعن وصف كامل عن الحى اليهودى فى سراييفو وخريطة للشوارع، انظر ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien*، صفحات ٨٥-١١١.

٩- ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، ص ١١١؛ وقد حرق تماماً فى ١٧٩٤ ثم أعيد بناؤه.

١٠- فرايدنرايش Freidenreich, Jews of Yugoslavia ، ص ١٣.

١١- تشيليبى Celebi, *Putopis* ، صفحات ١٠٥-١٠٦.

١٢- ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien*، صفحات٥٣-٥٥ و ٦٦؛ فرايدنرايش Freidenreich, *Jews in Yugoslavia*، صفحات ١٤-١٥؛ جولدستين Goldstein, *ed., Jews in Yugoslavia*، ص ٦٥.

١٣- شولم Scholem, *Sabbatai Sevi* ، ص٥٦٠.

١٤- عن هايون، انظر ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، صفحات ١٥-١٧؛ شولم Scholem, *Sabbatai Sevi* ، صفحات ٩٠١-٩٠٢؛ شولم Scholem, *Major Trends in Jewish Mysticism*، صفحات ٣٢١-٣٢٤؛ وعن الأشكنازى انظر فرايدنرايش Freidenreich, *Jews of Yugoslavia*، ص ١٣.

١٥- ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien* ، ص ٨٨.

١٦- المرجع السابق، صفحات ١٩-٢٠. وقد نهب المعبد الرئيسى لطائفة السفرديم والمكتبة القديمة والمحفوظات التى كان يحتويها فور وصول القوات الألمانية إلى سراييفو فى ١٥ ابريل ١٩٤١ (لفنتال Levntal, ed., *Zlocini fasistickih okupatora*، ص ٦٤).

١٧- شو Shaw, *Jews of the Ottoman Empire*، ص ٥٣.

١٨- المرجع السابق، ص ٥٣. ويرجع شو تاريخ وصول باردو إلى ١٧٥٢؛ ويرجعه فرايدنرايش إلى ١٧٦٥؛ ويرجعه ليفى إلى ١٧٦٨. وكلهم يتفقون على أنه رحل إلى فلسطين فى ١٧٨١.

١٩- انظر الوصف وصورة ملونة للمخطوط بأكمله فى روت Roth, ed., *Sarajevo Haggadah*.

٢٠- فاكالوبولس Vacalopoulos, 'Tendances caracteristiques du commerce de la Bosnie'، ص ٩٩. ويذهب برتوزييه أيضاً إلى أن الرقم الإجمالى هو ٢٠٠٠ للبوسنة Pertusier, La Bosnie، ص ٧٨. على أن شوميت دى فوسسيه يذهب إلى أنه ١٢٠٠ Chaumettc-des-Fosses, *Voyage en Bosnie* ، ص ٢٩٧.

٢١- وقال برتوزييه، الذى زارها فى ١٨١٢، إن سكان ترافنيك كانوا بأجمعهم من المسلمين فيما عدا "قليل من العائلات اليهودية" *La Bosnie*، ص ٢٩٧؛ على أن شوميت دى فوسسيه، الذى عاش هناك لسبعة أشهر فى ١٨٠٨، ذكر انهم كانوا يشملون ١٠٠٠ أرثونكسى و ٥٠٠ كاثوليكى و ٣٠٠ غجرى و ٦٠ يهودياً. وفى ١٨٩٨ دعى ويليام ميللر ترافنيك بأنها "إحدى المدن الإسلامية النقية فى البلاد" (*Travels and Politics*، ص ١٥٥).

٢٢- تيومل Thoemmel, *Geschichtliche Beschreibung*، ص ١٣٠.

٢٣- ليفى Levy, *Die Sephardim in Bosnien*، صفحات ٦٢-٦٣.

٢٤- فرايدنرايش Freidenreich, Jews of Yugoslavia، صفحات ١٥-١٦.

٢٥- بيرنرايتر Baernreither, *Bosnische Eindrucke*، ص ٢٦.

٢٦- فريدنرايش Freidenreich, *Jews of Yugoslavia*، ص ٢١٣.

٢٧- كيرتيس Curtis, *Turk and his Lost Provinces*، ص ٢٧٦.

٢٨- فرايدنرايش Freidenreich, *Jews of Yugoslavia*، صفحات ١٩-٢٢.

٢٩- شو Shaw, *Jews of the Ottoman Empire*، ص ٣٥؛ لفنتال Levntal, ed., *Zlocini fasistickih okupatora*، صفحات ٧٠-٧١.

٣٠- عن كل التفاصيل السابقة، انظر ميويتش 'Mujic, 'Polozaj cigana، صفحات ١٤٠-١٤٤، وسوليس .'Soulis, 'Gypsies in the Byzantine Empire. ويلاحظ فريزر فى Fraser, Gypsies، ص ٥٧، أن مصطلح *cingarije* فى مرسوم صربى كان من المحتمل أنه يعنى "إسكافى".

٣١- فريزر Fraser, *Gypsies*، ص ٨٣.

٣٢- ميويتش 'Mujic, 'Polozaj cigana، صفحات ١٤٦-١٤٧.

٣٣- فيوكانوفيتش .'Vukanovic, 'Le Firman relatif aux tsiganes

٣٤- فايجاند 'Weigand, 'Rumanen und Aromunen، ص ١٧٤. وكلمة *Baiesi* من الكلمة المجرية *beas* بمعنى "يحفر".

٣٥- كيوريبيشيتش Kuripesic, *Itinerarium*، ص ٣١؛ ويقول كذلك أن مثل هؤلاء العمال كانوا يوجدون فى أجزاء أخرى كثيرة من البوسنة (ص ٤٤). والطريقة المعتادة لم تكن بغسل التراب عن المعدن بل بجر جزة من صوف الخراف على قاع الجدول أو النهر.

٣٦- م. هازلوك 'M. Hasluck, 'Firman regarding Gypsies، ص ٢.

٣٧- فريزر Fraser, *Gypsies*، صفحات ١٣٢-١٢٤.

٣٨- شوجار Sugar, *Southeastern Europe under Ottoman Rule*؛ صفحات ٧٧ و ٨٦ و ١٠٣.

٣٩- م. هازلوك 'M. Hasluck, 'Firman regarding Gypsies، صفحات ١٠-١١.

٤٠- Fermendzin, ed., *Acta Bosnae*، ص ٤٧٦.

٤١- ميويتش 'Mujic, 'Polozaj cigana، ص ١٤٩.

٤٢- شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، ص ٣٠؛ برتوزييه Pertusier, *La Bosnie*، ص ٧٨.

٤٣- تيومل Thoemmel, *Geschichtliche Beschreibung*، صفحات ٧٦-٧٧ (عن١٨٦٥)؛ ماورر Maurer, *Eine Reise durch Bosnien*، ص ٣٧٣ (عن أخريات ستينيات الألف وثمانمئة)؛ ميويتش 'Mujic, 'Polozaj cigana، ص ١٧٠ (عن ١٨٧٠).

٤٤- ميويتش 'Mujic, 'Polozaj cigana، ص ١٥٧؛ شوميت دى فوسسيه Chaumette-des-Fosses, *Voyage en Bosnie*، ص ٣٨. ولاحظ روشكيفيتش Roskiewicz حوالى ١٠٠٠ غجرى فى سراييفو فى ستينيات الألف وثمانمئة (*Studien uber Bosnien*، صفحات ١٧٩-١٨٠).

٤٥- وآمل أن يكون الوصف الذى جمعته فى هاتين الفقرتين تحليلاً دقيقاً لبعض البينات المتعارضة. وأجود الأبحاث التى استقيت منها هى: جيليات-سميث Gilliat-Smith, 'The Dialect of the Gypsies of Serbo-Croatia'؛ والتعقيبات فى Gluck, 'Zur physischen Anthropologie der Zigeuner in Bosnien'، ص ٤٠٥؛ ومقالة لكاتب مجهول فى *Bosnische Post* لعام ١٨٩٥، مترجمة فيفيليبيسكو Filipescu, *Coloniile romane din Bosnia*، ص ٢٠٥. ويرفض فيليبيسكو نفسه حجة المؤلف،

ويبسط نظريته الخاصة "الرومانية الخالصة" في صفحات ١٩٩-٢٩٣. ويدحض فايجاند فيليبسكو في 'Rurnanen und Aromunen'؛ ويناقش لوكوود بإيجاز موضوعي الغجر البيض و cergasi في European Muslims، صفحات ٣٠-٣١.

٤٦- فريزر Fraser, Gypsies، ص ٢٣١.

٤٧- طومسون Thomson, Outgoing Turk، صفحات ١٧٠-١٧١.

٤٨- فريزر Fraser, Gypsies، صفحات ٥٨-٥٩.

٤٩- أوليك Uhlik, 'Serbo-Bosnian Folk-Tales. no. 8'، صفحات ٩٢-٩٣.

٥٠- أوليك Uhlik, 'Serbo-Bosnian Folk-Tales. no. 9'، صفحات ١١٦-١١٧. ومعظم الذين أبيدوا كانوا غجرا كرواتيين، وكانوا كلهم تقريبا أرثوذكس.

الفصل العاشر: المقاومة والإصلاح ١٨١٥-١٨٧٨

١- شاميتش Samic, *Les Voyageurs francais*، صفحات ١٩٣-١٩٤ و ٢٠١.

٢- بويه Boue, *La Turquie d'Europe*، المجلد الرابع، ص ٣٧٤؛ ديورديف Djurdjev, 'Bosna'، ص ١٢٦٨.

٣- وعن هذه الحوادث، انظر لويس Lewis, *Emergence of Turkey*، صفحات ٧٨-٨٣؛ شو Shaw, *History of the Ottoman Empire* ، المجلد الثاني، صفحات ١٩-٢٤.

٤- بويه Boue, *La Turquie d'Europe*، المجلد الرابع، صفحات ٣٧٥-٣٧٧.

٥- روتنبرج Rothenberg, *Military Border in Croatia*، ص ١٣٠.

٦- بويه Boue, *La Turquie d'Europe*، المجلد الرابع، صفحات٣٧٨-٣٨٨.

٧- المرجع السابق، المجلد الرابع، ص ٣٨٤.

٨- توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، ص ١٠٣.

٩- شوبان وأوربيسيني Chopin and Urbicini, *Provinccs danubiennes*، ص٢٤٢.

١٠- كريشيفلياكوفيتش Kresevljakovic, *Kapetanije u Bosni*، صفحات ٦٨-٦٩؛ شليفو Sljivo, *Omer Pasa Latas*، ص ١٠؛ ديورديف Djurdjev, 'Bosna'، ص ١٢٦٨.

١١- عن التنظيمات، انظر لويس Lewis, *Emergence of Turkey*، صفحات ١٠٦-١٢٨؛ شو Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الثاني، صفحات ٥٨-١٣٣.

١٢- موير ماكنزي وإربي Muir-Mackenzie and Irby, *Travels in the Slavonic Provinces*، المجلد الأول، ص ١٣.

١٣- بويه Boue, *La Turquie d'Europe*، المجلد الثالث،ص ٥٣.

١٤- شيشيتش Sisic, ed., *Bosna za vezirovanja Omer-pase*، ص ٢٧.

١٥- بويه Boue, *La Turquie d'Europe*، المجلد الرابع، ص ١١٩.

١٦- شليفو Sljivo, *Omer-Pasa Latas*، صفحات ٥٠-٥١.

١٧- توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، ص ١٠٤؛ ولوصف أكثر تفصيلاً عن محاولات طاهر باشا للإصلاحات الضرائبية، انظر شليفو Sljivo, *Omer-Pasa Latas*، صفحات ١٨-٢٤.

١٨- شليفو Sljivo, *Omer-Pasa Latas*، صفحات ٥٠-٥١.

١٩- شابانوفيتش Sabanovic, *Bosanski pasaluk*، ص٩٦.

٢٠- شيشيتش Sisic, *Bosna za vezirovanja Omer-pase*، ص ١١١.

٢١- المرجع السابق، صفحات ٢٣٥ و ٣٤٧ و ٣٥٧.

٢٢- المرجع السابق، صفحات ٣٠٢-٣٠٣.

٢٣- جافرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، ص ٤٢.

٢٤- لويس Lewis, *Emergence of Turkey* ، ص ١١٦.

٢٥- جافرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، صفحات ٤٣ و ٣٨-٣٩ و٨٤-٨٥ على الترتيب.

٢٦- شيشيتش Sisic, *Bosna za vezirovanja Omer-pase*، ص ٣٥٨؛ أندريتش Andric, *Development of Spiritual Life in Bosnia*، صفحات ٦٤-٦٥؛ تيومل Thoemmel, *Geschichtliche Beschreibung*، صفحات ١١٤-١١٦؛ جافرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، ص ٤٤.

٢٧- تيومل Thoemmel, *Geschichtliche Beschreibung*، صفحات ٩٩ و ١٠٢.

٢٨- ماورر Maurer, *Eine Reise durch Bosnien*، صفحات ٣٦٤-٣٦٥؛ قارن تعقيبات أتاناسكوفيتش Atanaskovic في ١٨٥٣: جافرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، ص٤٤.

٢٩- من تقرير يوفانوفيتش، خلف أتاناسكوفيتش، في ١٨٦٢: جفرانوفيتش Gavranovic, *Bosna 1853-1870*، ص ٢٨٠.

٣٠- انظر أندريتش Andric, *Development of Spiriual Life in Bosnia*، صفحات ٥٣-٥٤ (يوكيتش)؛ وإماموفيتش Imamovic. 'O historiji bosnjackog pokusaja'، ص ٤١ (بترانوفيتش ونظيره الكاثوليكي كلمنت بوجيتش المترجم في القنصلية البروسية)؛ وكوتشيت Koetschet, *Osman Pascha*، صفحات ٣٣-٣٤ (بيلاجيتش). وعن سيرة بيلاجيتش اللاحقة النابضة بالحيوية، والتي شملت فترات من القلاقل بين دوائر المهاجرين البوسنيين في بلجراد وبوخارست، انظر كوبريتش-أمرين Cupric-Amrein, *Die Opposition in Bosnien*، صفحات ٦١-٦٤.

٣١- روتنبرج Rothenberg, *Military Border in Croatia*، ص ١٦٦.

٣٢- عن ترجمة لهذا النص، انظرجرمك Grmek *et al.*, eds., *Le Nettoyage ethnique*، صفحات ٤٢-٥٣.

٣٣- المرجع السابق، صفحات ٦٤-٨٠، وبخاصة صفحات ٧٥ و٧٨. وعن عروض أخرى من جاراشانين للقيام بالدعاية في البوسنة، انظر سليبتشيفيتش Slijepcevic, *Pitanje Bosne*، صفحات ٢١-٢٢.

٣٤- انظر باناك Banac, *National Question*، صفحات ٨٥-٨٩.

٣٥- ويخلط شو بين هذه الحملة العسكرية لعمر باشا وبين حكمه للبوسنة فى ١٨٥٠-١٨٥٢: *History of the Ottoman Empire*، المجلد الثانى، ص ١٤٩.

٣٦- كوتشيت Koetschet, *OsmanPascha*، صفحات ١-٥ و ١١-١٢.

٣٧- المرجع السابق، ص ٤٧ ويلاحظ كوتشيت بالصدفة أن كل الإدارة المالية للولاية كانت تتكون من مدير ومراقب وخمسة عشر كاتباً. وعن قانون الإصلاح الريفى، انظر شو Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الثانى، صفحات ٨٨-٩١.

٣٨- ب. يلافيتش وس. يلافيتش B. Jelavich and C. Jelavich, *Establishment of the Balkan National States*، ص ١٤٣.

٣٩- لوصف أكثر تفصيلاً عن إصلاح ١٨٥٩، انظر توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، صفحات ١٠٥-١٠٦.

٤٠- كوتشيت Koetschet, *Osman Pascha*، ص ٦.

٤١- المرجع السابق، صفحات ٢٤-٢٥. وعن هذا النوع من النزهات، المعروفة باسم *teferic*، والتى كانت لا يزال يمارسها الكاثوليك فى ثلاثينيات الألف وتسعمئة، انظر بيليتييه *Sarajevo*، ص ١٤٣.

٤٢- كوتشيت Koetschet, *Osman Pascha*، صفحات ٤٦-٤٩. ولم يوجد أى منها؛ ولكن يوجد كثير من الدلائل على الاهتمام الروسى (بل التدخل) فى شئون البوسنة خلال تلك الفترة فى بيزاريف وإكميتشيتش Pisarev and Ekmecic, *Osvoboditelnaya borba narodov Bosnii i Rossiya*.

٤٣- سليبتشيفيتش Slijepcevic, *Pitanje Bosne* ، ص ٢٥.

٤٤- كوتشيت Koetschet, *Ostman Pascha* ، ص ٥٥.

٤٥- ماير Maier, *Deutsche Siedlungen*، ص ٩؛ أندرسون Anderson, *Miss Irby*، صفحات ٦٠-٦٧؛ بيليتييه Pelletier, *Sarajevo* ، ص ١٣٨.

٤٦- بيليتييه Pelletier, *Sarajevo* ، ص ١١٩.

٤٧- وقد وصف آرثر إيفانز، بالرغم من مواقفه المعادية للمسلمين، الكنيسة بأنها "صرح مختال مستفز" عندما رآها فى ١٨٧٥: "لم يكن المسيحيون راضين عن السماح لهم ببناء كنيسة فى أبرز مكان فى أحد الشوارع الرئيسية بالمدينة، ولكنهم بالضرورة نصبوا عمودياً مبنى متظاهراً ضخماً يلقى فىالظلال أكبر أحد مئتى مسجد أو تزيد... ولم يكن من المتوقع أبداً أن ينظر الجهلة المتعصبون من المسلمين بلإتزان إلى هذا الإعلان المسيحى الأخير بإذلالهم" (*Through Bosnia*، ص ٢٤٧).

٤٨- كوتشيت Koetschet, *Osman Pascha* ، ص ٥٥.

٤٩- المرجع السابق، ص ٧٦.

٥٠- م. ماندتيش M. Mandic, *Povijest okupacije* ، ص ٧.

٥١- إيفانز Evans, *Through Bosnia*، صفحات ٣٣٧-٣٣٨؛ وكوتشيت Koetschet, *Aus Bosniens letzter Turkenzeit*، صفحات ٦-٨. وتعرف هذه باسم اضطرابات نيفيسينيى Nevesinje، ولكن أول مكان عرف أنه قام بالتمرد كان قرية جابيلا

Gabela فى ٣ يوليو ثم تبعتها نيفيسينيى بعد أسبوع واحد (MacKenzie, *Serbs and Pan-Slavian*، ص ٣٠).

٥٢- عن الاشتباكات بين العثمانيين والجبل الأسود فى ١٨٥٧-١٨٥٨ و ١٨٦٠-١٨٦١ و ١٨٧٤، انظر شو Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الثانى، ص ١٥٠، و م. ماندينش M. Mandic, *Povijest okupacije*، ص ٨.

٥٣- م. ماندينش M. Mandic, *Povijest okupacije*، ص ٩.

٥٤- تشوبريلوفيتش Cubrilovic, *Bosanski ustanak*، صفحات ٦١-٦٧. ويعقب ايفانز أن العصيان المسلح فى الهرسك كان بصورة رئيسية حرباً زراعية" (*Through Bosnia*، ص ٣٣٤)؛ ويعقب بيتر شوجار: "لا يوجد هناك أدنى شك أن المشكلة الزراعية هى التى أشعلت هذه الثورة" (Peter Sugar, *Industrialization of Bosnia*، ص ٢٢).

٥٥- كوتشيت Koetschet, *Aus Bosniens letzter Turkenzeit*، صفحات ١٢ و ٣٣؛ وقد سمع ايفانز، أثناء عبوره إلى البوسنة فى أوائل أغسطس، عن "كثير من الكروات والسلوفينيين" من زغرب وماريبور وليوبليانا كانوا فى طريقهم إليها (*Through Bosnia*، ص ٨٧).

٥٦- ماندينش Mandic, *Povijest okupacije*، ص ٢٢ (مئة ألف)؛ ايفانز Evans, *Illyrian Letters*، ص ٤ (مئتين وخمسون ألفاً)؛ ويذكر التقرير النمسوى الرسمى أنه كان هناك ما يزيد على مئة ألف بالأراضى النمسوية وحدها (Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Die Occupation Bosniens*، ص ٣٦). وعند نهاية مايو ١٨٧٨، قدر جوستاف تيومل مئة وخمسون ألفاً بالأراضى النمسوية وسبعون ألفاً فى الجبل الأسود وعشرة آلاف فى صربيا (كابيديتش Kapidzic, *Hercegovacki ustanak*، ص٢٩).

٥٧- من خطاب كتبه لاجئ بوسنى فى سلافونيا فى مارس ١٨٧٧، واقتبسه ميور ماكنزى وإربى فى Travels in the Slavonic Provinces، المجلد الأول، ص ٣٦.

٥٨- إيفانز Evans, *Through Bosnia*، ص٣٣٧.

٥٩- Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Die Occupation Bosniens*، ص ٤١.

٦٠- إيفانز Evans, *Illyrian Letters*، ص٥٥.

٦١- كوتشيت Koetschet, *Aus Bosniens letzter Turkenzeit*، صفحات ٧٨-٧٩.

٦٢- المرجع السابق، صفحات ٨٦-٨٨؛ م. ماندينش M. Mandic, *Povijest okupacije*، صفحات ٢٨-٣٠.

٦٣- كوتشيت Koetschet, *Aus Bosniens letzter Turkenzeit*، صفحات ٩٠ و ٩٦ و ١٠٢؛ م. ماندينش M. Mandic, *Povijest okupacije*، صفحات ٣٠-٣١.

٦٤- عن عدد القوات، انظر Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Die Occupation Bosniens*, appendix, Beilag 8 (٨٢١١٣ رجلاً و ١٣١٣ فرساً)؛ وقد طبع المساح، ستيرنك Sterneck، بعض نتائج أبحاثه فى ١٨٧٧ (*Geografische Verhaltnisse*).

٦٥- كوتشيت Koetschet, *Aus Bosniens letzter Turkenzeit*، صفحات ١٠٢-١٠٩؛ Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Die Occupaticm Bosniens*، ص ٤٥٠ (اقتباس)؛ م. مانديتش M. Mandic, *Povijest okupacije* ، صفحات ٦٤-٧١ و ٩٧-٩٩.

الفصل الحادى عشر: البوسنة تحت الحكم النمساوى-المجرى ١٨٧٨-١٩١٤

١- سيتون واطسون Seton Watson, *Role of Bosnia*، ص ١٩.

٢- شوجار Sugar, *Industrialization of Bosnia*، ص ٢٠. ويتذكر الوزير المجرى بوريان بعد ذلك قائلاً: "عندما قبل أندراسي الانتداب لاحتلال البوسنة والهرسك فى مؤتمر برلين، فإن الرأى العام فى كل المملكة تقريبا كان ضده" (*Austria in Dissolution*، ص ٢٩١).

٣- شميت Schmitt, *Annaxation of Bosnia*، ص ٢؛ شو Shaw, *History of the Ottoman Empire*، المجلد الثانى، ص ١٩٢.

٤- شميت Schmitt, *Annaxation of Bosnia*، ص ٣.

٥- عن موجز مفيد، انظر شوجار Sugar, *Industrialization of Bosnia*، صفحات ٨ و٢٦-٣٢؛ وعن المحاكم الشرعية، أنظر أيضاً ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*، صفحات ٢٧٦-٢٧٧. وعن شرح واف للبنية الإدارية، انظر شميد Schmid, *Bosnien*، صفحات ٥٤-٦٠.

٦- Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Der Aufstand in Hercegovina*، صفحات ٩-١١.

٧- كابيجيتش Kapidzic, *Hercegovacki ustanak* ، صفحات ٣٤-٣٥.

٨- Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Der Aufstand in Hercegovina*، صفحات ٤٢-٤٨؛ كابيجيتش Kapidzic, *Hercegovacki ustanak* ، صفحات ١٠٩-١٢٠.

٩- Abtheilung fur Kriegsgeschichte, *Der Aufstand in Hercegovina*، ص ١٠٢؛ كابيجيتش Kapidzic, *Hercegovacki ustanak*، ص ١١٠.

١٠- Abtheilung fur Kriegsgeschichte. *Der Aufstand in Hercegovina*، ص ١٣٩.

١١- دونيا Donia, *Islam under the Eagle*، صفحات ٧٢-٧٦.

١٢- شميد Schmid, *Bosnien*، صفحات ٢٤٩-٢٥٠. وقد تباهى شميد، الذى كان يعمل رئيساً لمكتب الإحصاء فى سراييفو، بأن هجرة المسلمين البوسنيين كانت أقل من تلك الأراضى التى كانت تتبع الدولة العثمانية سابقاً مثل بلغاريا. وإذا كان ذلك صحيحا فمن السهل تفسيره: فإن مسلمى البوسنة كانوا أقل الناس احتياجاً لأن يهاجروا إلى تركيا، لأنهم لم يكونوا يتكلمون التركية.

١٣- هاجياهيتش Hadzijahic, 'Uz prilog Bogicevica'، ص ١٩١ (مصراً على ٣٠٠٠)؛ باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien*، ص ٥١ (عن نتائج أبحاث الجغرافى سليمان سملاتيتش Sulejman Smlatic).

١٤- بوجيتشيفيتش 'Bogicevic, 'Emigracije muslimana؛ أ. بوبوفيتش A. Popovic, L'Islam balkanique، ص ٢٧٢. ومن المؤكد أن هذا التقدير ٨٠٠٠ قليل جداً. فإن فرديناند شميد، الذى كان حريصاً على عدم المغالاة فى التقدير، اعتقد أن حوالى ٨٠٠٠ قد هاجروا فيما بين إعلان قانون الجيش فى نوفمبر ١٨٨٢ وبين إدخال نظام تصاريح الخروج فى أكتوبر ١٨٨٣ (Bosnien، ص٢٤٩).

١٥- كابيديتش 'Kapidzic, 'Pokret za iseljavanje.

١٦- درهام Durham, *Twenty Years*، ص ١٦٣.

١٧- دونيا Donia, *Islam under the Eagle*، صفحات ٢٥-٢٧؛ توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، صفحات ١٠٨-١٠٩.

١٨- ميللر Miller, *Travels and Politics*، ص ٧.

١٩- شوجار Sugar, *Industrialization of Bosnia*، صفحات ٤٣-٥٠. وقد شيد توبال عثمان باشا قبل ذلك مسافة قصيرة من خطوط السكك الحديدية من بانيا لوكا حتى الحدود؛ ولكن فى ١٨٧٨ "نمت الحشائش على الخطوط ومازالت البوسنة بدون قطار واحد" (Miller, *Travel and Politics*، ص ١٠٨).

٢٠- شميد Schmid, *Bosnien*، صفحات ٥٧٩ و ٥٨٦.

٢١- درهام Durham, *Twenty Years*، ص١٦٠. وعن وصف للحالة المزرية للطرق خلال العقد النهائى للحكم العثمانى، انظر سترنك Sterneck, *Geografische Verhaltnisse*. صفحات ٢١-٢٢.

٢٢- شوجار Sugar, *Industrialization of Bosnia*، صفحات ١٠٢-١١٣ و ١٢٩-١٤٣ و ١٦٧.

٢٣- المرجع السابق، صفحات ١٨٢-١٨٥؛ ويلاحظ كيوبريتش-أرمين أنه بحلول ١٩١٢ فإن ١٠ ٪ من العمال البوسنيين كانوا نقابيين وكان ٤٣ ٪ من العمال فى سراييفو (*Die Opposition in Bosnien*، صفحات ١٥٣-١٥٧).

٢٤- انظر مثلاً ديديير Dedijer, *Road to Sarajevo*، ص ٢٠٢، حيث تسمى "الفوران الاجتماعى الأكبر".

٢٥- ميللر Miller, *Travel and Politics*، صفحات ١٠١-١٠٣.

٢٦- طومسون Thomsen, *Outgoing Turk*، ص ١١٠. وكانت العادة قد أوقفت بسبب عدد من الإصابات الشديدة التى أحدثتها للجوكية.

٢٧- درهام Durham, *Twenty Years*، ص ١٥٤.

٢٨- ماير Maier, *Die deutschen Siedlungen*؛ شميد Schmid, *Bosnien*، صفحات ٢٤٦-٢٤٨.

٢٩- شميد Schmid, *Bosnien*، ص ٢٤٥. وكان عدد الجنود فى كل حالة حوالى ٧٠٠٠ عند نهاية القرن (كيرتيس Curtis, *Turk and his Lost Provinces*، ص ٢٨١).

٣٠- ميللر Miller, *Travels and Politics*، ص ٩٧؛ وعن تفاصيل نظام التعليم، انظر المرجع السابق، ص٩٨؛ و أ. بوبوفيتش Popovic, *L'Islam balkanique*، صفحات ٢٨٠-٢٨٣؛ و شميد Schmid, *Bosnien*، صفحات ٦٩٥-٧٤٠.

٣١- عن كل التفاصيل السابقة، انظر بيليتييه *Pelletier. Sarajevo* ، صفحات ١٣٧-١٤٠.
٣٢- ميللر *Miller. Travels and Politics* ، ص ٩١.
٣٣- كيرتيس *Curtis. Turk and his LostProvinces* ، ص ٢٧٥. •
٣٤- دونيا *Donia. Islam under the Eagle* ، صفحات ١٢٠-١٢٤.
٣٥- المرجع السابق، ص ١٨٩.
٣٦- المرجع السابق، صفحات ٢٢-٢٤؛ ا. بوبوفيتش *A. Popovic. L'Islam balkanique*، ص ٢٧٥.
٣٧- دونيا *Donia. Islam under the Eagle* ، صفحات ١٢٠-١٢٤.
٣٨- المرجع السابق، صفحات ١٢٤-١٦٦. وأكثر وصف تفصيلي هو هاوبتمان *Hauptmann. Borba muslimana za autonomiju*.
٣٩- إماموفيتش Imamovic. 'O historiji bosnjackog pokusaja' ، صفحات ٣٥-٣٦.
٤٠- دونيا *Donia. Islam under the Eagle*، صفحات ١٢٠-١٢٤، *Banac. National Question*، ص ٣٦١؛ إماموفيتش Imamovic, 'O historiji bosnjackog pokusaja'، ص ٤١.
٤١- طومسون *Thomson, Outgoing Turk*، صفحات ١٨٠-١٨١.
٤٢- بيرنرايتر *Baernreither, Bosnischc Eindrucke* ، ص ٢٥.
٤٣- شميت *Schmitt. Annexation of Bosnia* ، ص ١٢؛ درهام *Durham, Twenty Years*، ص ١٦٤.
٤٤- ب. يبلافيتش *B. Jelavich. History of the Balkans*، ص ١١١؛ ديديير *Dedijer. Road to Sarajvo*، ص ١٨٠.
٤٥- شميت *Schmitt. Annexation of Bosnia* ، ص ٧١.
٤٦- عن شروط الاتفاقية، انظر المرجع السابق، ص ١١٩؛ وعن الأزمة، المرجع السابق، صفحات ١٤٤-٢٢٩.
٤٧- دونيا *Donia. Islam under the Eagle* ، صفحات ١٦٩-١٧٥.
٤٨- والأرقام وردت في Naval Intelligence Division. *Jugoslavia*، المجلد الثاني، ص ٥٧. وكان عدد السكان في ١٩١٠ (١٨٩٧٩٦٢) ٥, ٤٣ ٪ أرثوذكس , ٤, ٣٢ ٪ مسلمين و ٨, ٢٢ ٪ كاثوليك و ٦, ٠ ٪ يهود.
٤٩- باناك *Banac, National Question*، وأصبحت جايرت موالية للصرب في ١٩٠٩ (ا. بوبوفيتش *A Popovic. L'Islam balkanique* ، ص ٢٨٥).
٥٠- كيوبريتش-أمرين *Cupric-Amrein. Die Opposition in Bosnien*، صفحات ٦٦-٦٧ و ٧٥-٧٦ و ١٠٢.
٥١- دونيا *Donia, Islam under the Eagle*، ص ١٧٧. ويحكم إيفو باناك حكماً مماثلاً منتهياً إلى أن "الغالبية العظمى من المسلمين العاديين نأى عن عملية التأميم" (*National Question*، ص ٣٦٦).
٥٢- كيوبريتش-أمرين *Cupric-Amrein, Die Opposition in Bosnien*، ص ٣٩٢. وقد ولد أندريتش لعائلة كاثوليكية في ترافنيك؛ وقد اتخذ موقفاً موالياً ليوغوسلافيا كان

فى حقيقته موقفاً موالياً للصرب. وقد وصفه صديق كاشفاً "أنه كاثوليكى صربى من البوسنة" (Hawkesworth, *Ivo Andric*، ص ١٨).

٥٣- ويتفق أكثر الأساتذة المتخصصين الآن على أن الشرح الممتاز الذى وضع بواسطة فيزلين ماشليشا Veselin Maslesa أساء فهم ملادا بوسنا Mlada Bosna عندما صورت على أنها تجمع صربى قومى (*Mlada Bosna*، ص ١١٦ مثلاً).

٥٤- ديدبير Dedijer, *Road to Sarajvo* ، ص ٣٤١.

٥٥- المرجع السابق، صفحات٢٣٦-٢٤٥.

٥٦- المرجع السابق، صفحات ٢٦٢-٢٦٥.

٥٧- المرجع السابق، ص ٢٧٧.

٥٨- Carnegie Endowment, *Report on the Balkan Wars* ، صفحات ١٤٨-١٥٨.

٥٩- ديدبير Dedijer, *Road to Sarajevo*، ص ٢٧٨؛ دونيا Donia, *Islaan under the Eagle*، ص ١٨٠.

٦٠- ديدبير Dedijer, *Road to Sarajevo* ، صفحات ٢٠٦-٢٠٧.

٦١- المرجع السابق، صفحات ٣١٩-٣٢١.

الفصل الثانى عشر: الحرب والمملكة البوسنة ١٩١٤-١٩٤١

١- بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak*، ص ١٣٤.

٢- ديدبير Dedijer, *Road to Sarajevo*، ص ٣٢٨.

٣- المرجع السابق، صفحات ٢٨٩-٢٩٤ و ٣٨٨-٣٩٠.

٤- المرجع السابق، صفحات ٤١٨-٤١٩.

٥- وعن ملخص جيد للنظرة التاريخية الأحدث، انظر ستون Stone, *Europe Transformed*، صفحات ٣٢٦-٣٣٩.

٦- سكاريتش Skaric *et al., Bosna pod austro-ugarskom upravom* ، صفحات ١٦٠-١٦١.

٧- المرجع السابق، صفحات ١٥٧-١٥٨.

٨- هوكسوورث Hawkesworth, *Ivo Andric* ، صفحات ١٥-١٧.

٩- سكاريتش Skaric *et al., Bosna pod austro-ugarskoom upravom*، صفحات ١٥٧-١٥٨؛ كابيجيتش Kapidzic, 'Austro-ugarska politika' ، ص ١٧.

١٠- عن المتطوعين المسلمين، انظر بالاجيا Balagija, *Les Musulmans yougoslaves*، ص ١٢٥.

١١- كابيجيتش Kapidzic, 'Austro-ugarska politika' ، ص ٩.

١٢- وعن أحسن شرح لجميع هذه الحجج، انظر باناك Banac, *National Question* ، صفحات ١١٥-١٢٥.

١٣- كابيجيتش Kapidzic, 'Austro-ugarska politika'، صفحات٢٤-٢٦ و ٣٥.

١٤- كريزمان Krizman, *Hrvatska u prvom svjetskom ratu* ، ص ٢٥٥.

١٥- بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak* ، ١٣٤.
١٦- كريزمان Krizman, *Hrvatska u prvom svjetskom ratu* ، صفحات ٢٤٦-٢٤٨.
١٧- المرجع السابق، صفحات ٢٥٥-٢٥٧.
١٨- المرجع السابق، صفحات ٣١٦-٣١٧.
١٩- المرجع السابق، صفحات ٣١٧-٣٢٠.
٢٠- وأعاد الصحفى شارل ريفيه Charles Rivet نشر الحديث فى *Chez les slaves liberes*، صفحات ١٦٩-١٧٤؛ وانظر بيوريفاترا *Purivatra, Nacionalni i politicki razvitak*، صفحات ١٥٠-١٥١. وقد كانت هناك أيضاً بعض التقارير فى نهاية ١٩١٨ عن مسلمين من شمال غربى البوسنة يغيرون على القرى الصربية فى النواحى الكرواتية المجاورة (باناك Banac, *National Question*، ص ١٣٠).
٢١- توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، ص ٢٥٥.
٢٢- باناك Banac, *National Question* ، ص ٣٦٧.
٢٣- ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique* ، ص ٣٢٩.
٢٤- عن جايرت، انظر المرجع السابق، ص ٢٨٥؛ بالاجيا Balagija, *Les Musulmans yougoslaves*، صفحات ١٢٦-١٢٧. وعن المجموعة الموالية للصرب فى منظمة المسلمين اليوغوسلاف، انظر بيويفاترا *Purivatra, Nacionalni i politicki razvitak*، ص ١٦٥.
٢٥- وتعقيبات بروتيتش Protic مسجلة فى مذكرات النحات إيفان ميشتروفيتش Ivan Mestrovic: "وعندما يعبر جيشنا نهر الدرينا، سنعطى الأتراك مهلة ٢٤ أو ٤٨ ساعة للرجوع إلى عقيدة أسلافهم. وأى واحد يرفض سيتم ذبحه، كما سبق أن فعلنا فى صربيا" (جرمك Grmek *et al.*, eds., *Le Nettoyage ethnique*، ص ١٢٦).
٢٦- ريفيه Rivet, *Chez les slaves liberes* ، صفحات ١٥٤-١٦١ و ١٧٧.
٢٧- بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak*، ص ١٨١؛ وعن تفاصيل عن عينات التصويت داخل البوسنة، وعن الضعف المتناهى للأحزاب المسلمة الأخرى، انظر باناك Banac, *National Question*، صفحات ٣٧٠-٣٧١.
٢٨- توماسيفيتش Tomasevich, *Peasants, Politics, and Economic Change*، صفحات ٣٤٧-٣٥٥.
٢٩- باناك Banac, *National Question* ، ص ٣٧٠.
٣٠- عن موجز مفيد عن دستور فيدوفدان، انظر Naval Intelligence Division, *Jugoslavia*، المجلد الثانى صفحات ٣٢٢-٣٢٨.
٣١- ماتشيك Macek, *Struggle for Freedom* ، ص ٩٤.
٣٢- باناك Banac, *National Question* ، صفحات ٣٧٤-٣٧٥.
٣٣- إيفانز Evans, *Through Bosnia* ، ص ١٩١.
٣٤- ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*، صفحات ٢٧٩ و ٢٨٣؛ يلافيتش Yelavitch, 'Les Musulmans de Bosnie'، ص ١٢٨.

٣٥- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، ص ٣٤٢.
٣٦- لويس Lewis, *Emergence of Modern Turkey* ، ص ١٠١. وقد حل محل العمامة.
٣٧- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، صفحات ٣٤٢-٣٤٥.
٣٨- كيرتيس Curtis, *Turk and his Lost Provinces* . وقد شُدِه آرثر إيفانز بطريقة مماثلة "بالمظهر الإسلامى الدقيق" للمسيحيين، بنسائهم المحجبات ورجالهم بالعمائم ذات العُذبة (طرف العمامة المتدلى على العنق): *Through Bosnia* ، ص ١٣٣.
٣٩- جيبونز Gibbons, *London to Sarajevo* ، ص ١٨٠.
٤٠- هورنبى Hornby, *Balkan Sketches* ، ص١٥٣. والأرغول gusle عبارة عن آلة موسيقية وترية تستخدم لمصاحبة الأغانى الملحمية.
٤١- دراجنيتش Dragnich, *First Yugoslavia* ، صفحات ٣٠ و ٤٨-٤٩.
٤٢- ديدبير Dedijer *et al.*, *History of Yugoslavia* ، صفحات ٥٤٣-٥٤٤.
٤٣- ب. بيلافيتش B. Jelavich, *History of the Balkans* ، المجلد الثانى، صفحات ٢٠٠-٢٠١.
٤٤- دراجنيتش Dragnich, *First Yugoslavia* ، ص ٩٤؛ كليسو Clissold, ed., *Short History of Yugoslavia*، صفحات ١٨٣-١٨٤.
٤٥- ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique* ، صفحات ٣١٨-٣١٩.
٤٦- المرجع السابق، ص ٣٢٣؛ ديورديف Djordjevic, 'Yugoslav Phenomenon'، ص ٣١٩.
٤٧- 'Statuto della comunita musulmana' .
٤٨- ستويادينوفيتش Stojadinovic, *Ni rat ni pakt* ، صفحات ٣٤٤-٣٤٦.
٤٩- هوبتنر Hoptner, *Yugoslavia in Crisis* ، صفحات ١٢٨-١٢٩.
٥٠- ماتشيك Macek, *Struggle for Freedom* ، ص ١٨٨.
٥١- المرجع السابق، صفحات ١٩٠-١٩٢؛ كليسو Clissold, ed., *Short History of Yugoslavia*، صفحات ١٩٨-٢٠٠.
٥٢- دراجنيتش Dragnich, *First Yugoslavia* ، صفحات ١١٦ و ١٢٧.
٥٣- هوبتنر Hoptner, *Yugoslavia in Crisis* ، صفحات ١٩٨-١٩٩.
٥٤- عن ملخص لهذه الأحداث مؤكداً استمرار سياسات حكومة ما بعد الانقلاب، انظر ب. بيلافيتش B. Jelavich, *History of the Balkans* ، المجلد الثانى، صفحات ٢٣٥-٢٣٧.

الفصل الثالث عشر: البوسنة والحرب العالمية الثانية ١٩٤١-١٩٤٥

١- وقد حسب المؤرخ الصربى بوجوليوب كوتشوفيتش Bogoljub Kocovic أنه كان هناك ١٠١٤٠٠٠ قتيل فى يوغوسلافيا (*Zrtve u Jugoslaviji*، ص ١٢٤). والعلامة الكرواتى فلاديمير زريافيتش Vladimir Zerjavic وصل بطريقة مستقلة إلى عدد مماثل هو ١٠٢٧٠٠٠ (باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، ص ٧).

٢- هورى وبروزات Hory and Broszat, *Der kroatische Ustascha-Staat*، صفحات ٨٩ و ٩١.

٣- لفنتال Levntal, ed., *Zlocini fasistickih okupatora* ، ص ٦٤.

٤- روث Roth, ed., *Sarajevo Haggadah* ، ص ٨.

٥- لفنتال Levntal, ed., *Zlocini fasistickih okupatora*، صفحات ١٥ و ٦١-٧٠.

٦- ب. بيلافيتش B. Jelavich, *History of the Balkans*، المجلد الثانى، ص ٢٦٣.

٧- هورى وبروزات Hory and Broszat, *Der kroatische Ustascha-Staat*، صفحات ٩٩ و ١٠٢. ويدعى جرمك أن أوائل أحداث القتل بعد الغزو الألمانى كانت للكروات والمسلمين، وأن المذابح للصرب حدثت بعد ذلك (*Le Nettoyage ethnique*، ص ١٨٧). وحيث انهم لل يحددون تواريخ هذه الأحداث، فإن من العسير الحكم على الأمر؛ ولكنه من الواضح أن قتل و/أو طرد الصرب كان هدفاً رئيسياً للأوستاشا، وليس رد فعل عارض لأحداث أخرى.

٨- ديدير Dedijer *et al., History of Yugoslavia*، صفحات ٥٩١-٥٩٢؛ ديدير وميليتيتش Dedijer and Miletic, *Genocid nad Muslimana* ، صفحات ٦-٨. وفى شرح ديدير وميليتيتش فإن هذه المذابح بواسطة الصرب المحليين منسوبة بطريقة غير محتملة الوقوع إلى "التشيتنيك".

٩- ديدير Dedijer *et al., History of Yugoslavia* ، ص ٥٩٦.

١٠- يوجد أفضل شرح عن منظمة ميهايلوفيتش فى روبرتس Roberts, *Tito, Mihailovic and the Allies*؛ وتوماسيفيتش Tomasevich, *Chetniks* ؛ وميلازو Milazzo, *Chetnik Movement*؛ وكارشمار Karchmar, *Draza Mihailovic* .

١١- عن التعليمات، انظر روبرتس Roberts, *Tito, Mihailovic and the Allies* ، ص ٢٦، وديروك Deroc, *British Special Operations*، ص ٢١٠.

١٢- بافلوويتش Pavlowitch, *Tito* ، ص ٢٦.

١٣- المرجع السابق، ص ٣٤؛ ديلاس Djilas, *Wartime* ، ص ٤.

١٤- انظر الخريطة فى توماسيفيتش Tomasevich, *Chetniks* ، ص ١٦٩ (وأيضاً تشمل الأراضى التى سوف تجتز من المجر ورومانيا وبلغاريا).

١٥- والنص مطبوع فى ديدير وميليتيتش Dedijer and Miletic, *Genocid nad Muslimana*، صفحات ٨-١٦ (مع خريطة كروكية فى ص ١٥)، وترجم فى جرمك Grmek *et al., Le Nettoyage ethnique*، صفحات ١٩١-١٩٧.

١٦- ديدير وميليتيتش Dedijer and Miletic, *Genocid nod Muslimana*، صفحات ٣٣-٣٤.

١٧- عن الوثيقة، انظر المرجع السابق، صفحات ٢٥-٣٠ (حيث قدمت على أنها أصلية). وعن نسخ ضوئية لصفحتين، انظر Drzava komisija, *Dokumenti* ، المجلد الأول، صفحات ١١-١٢. ويقبلها توماسيفيتش على أنها أصلية (*Chetniks*، ص ١٧٠)؛ على أن لوسيان كاشمار قدم أسباباً تفصيلية ومقنعة لاعتقاده بأنها مزيفة، استند إليها

القائدان لإعطاء نفسيهما تفويضاً أقوى لأعمالهما (Draza Mihailovic، صفحات ٣٩٧ و ٤٢٨-٤٣٠).

١٨- زيورنيك Zbornik ، المجلد الأول، الكتاب الثانى، ص ٣٧٧؛ وتاريخ تلك الوثيقة غير مؤكد، ولا يمكن استبعاد إمكانية أنها قد تكون إما مزيفة أو منسوبة نسباً خاطئاً.

١٩- مارتين Martin, Web of Disinformation، ص ٥١.

٢٠- كارشمار Karchmar, Draza Mihailovic ، ص ٥٧٥.

٢١- ديروك Deroc, British Special Operations، ص ٢٢٦؛ باڤلوويتش Pavlowitch, Tito، صفحات ١٧-٢٢.

٢٢- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime' ، ص ١٨٧.

٢٣- المرجع السابق، صفحات ١٨٨-١٨٩.

٢٤- إروين Irwin, 'Islamic Revival' ، ص ٤٣٩.

٢٥- بيوريفاترا Purivatra, Nacionalni i politicki razvitak، صفحات ٥٢-٥٥؛ هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime'، ص ١٨٩.

٢٦- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime' ، صفحات ١٩٢-١٩٤.

٢٧- انظر الخطابات إلى The Times Literary Supplement من ألبرت سيتون (١٩ مايو ١٩٧٢) ونورمان ستون (٢٨ مايو ١٩٩٣).

٢٨- ليز Lees, Rape of Serbia ، صفحات ٨٤-٨٥.

٢٩- روبرتس Roberts, Tito, Mihailovic and the Allies ، ص ١٠٠.

٣٠- توماسيفيتش Tomasevich, Chetniks ، صفحات ٢٣٣-٢٣٤.

٣١- هوتل Hottl, Secret Front ، ص ١٧١. وكان هوتل (المعروف أيضاً باسم "والتر هاجن") هو ضابط المخابرات الألمانية الأعلى ليوغوسلافيا. وقد لاحظ أيضاً رسالة وقعت فى يد المخابرات الألمانية من ستالين إلى تيتو، يأمره بالتعاون مع الألمان ضد الحلفاء فى حالة انزالهم. وهذه المفاوضات بين البارتيزان والألمان كانت تجرى فى سرية تامة حتى ظهور تقرير هوتل فى الخمسينيات؛ ومنذ ذلك الحين ذكرهم روبرتس فى (Tito, Mihailovic and the Allies، صفحات ١٠٨-١٠٩) وأخيراً اعترف بها أحد المشتركين، ديلاس Djilas (Wartime، صفحات ٢٣١-٢٣٧).

٣٢- نوبياخر Neubacher, Sonderauftrag Sudost ، صفحات ١٧٩-١٨٠.

٣٣- ميلازو Milazzo, Chetnik Movement ، ص ١٣٣.

٣٤- توماسيفيتش Tomasevich, Chetniks ، صفحات ٢٥٢-٢٥٣ و ٣٤٩. وعن التوتر الشديد بين سياسة الإيطاليين والألمان تجاه التشيتنيك فى ذلك الوقت، انظر ميلازو Milazzo, Chetnik Movement، ص ١٢٧.

٣٥- ديكن Deakin, Embattled Mountain ؛ صفحات ١-٦٠.

٣٦- ولابد من التفرقة بين التواطؤ المباشر وبين "النشاط المتوازى". وحتى وقت متأخر هو صيف ١٩٤٣، فإن مقتطفات من الإشارات الألمانية لم تظهر أية "بينات على تواطؤ التشيتنيك مع الألمان"؛ وأول علامات على مثل هذا التواطؤ ظهرت فى

أكتوبر ونوفمبر (هينسلى Hinsley *et al.*, *British Intelligence* ، المجلد الثالث، الجزء الأول، صفحات ١٤٦ و١٥٤-١٥٥). وذكر تقرير ديكن الرئيسى فى أغسطس ١٩٤٣، الذى أثر على سياسة الحلفاء، أن تواطؤ التشيتنيك مع ألمانيا كان "لصيقاً ومستمراً ومتزايداً" خلال السنتين السابقتين (المرجع السابق، ص ١٥٠). على أنه من المشكوك فيه أن التشيتنيك البوسنيين المزعومين الذين رآهم ديكن فى أغسطس ١٩٤٣ كانت لهم أية علاقة بقوات ميهايلوفيتش (روبرتس Roberts, *Tito, Mihailovic and the Allies*، ص ١٢٠).

٣٧- ذو الفقار باشيتش Zulfikarpasic, *Bosanski Muslimani* ، ص ١٤.

٣٨- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien*، ص ٣٤٥؛ وعن المجتمعات الثقافية انظر ذو الفقار باشيتش Zulfikarpasic, *Bosanski Muslinani* ، ص ١٤.

٣٩- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime' ، ص ١٩٠.

٤٠- رجيتش Redzic, *Muslimansko autonomastvo* ، ص ١٤.

٤١- المرجع السابق، ص ١٥.

٤٢- هوبكن Hopkern, 'Die Kommunisten und die Muslime' ، ص ١٩٠.؛ ذوالفقار باشيتش Zulfikarpasic, *Bosanski Muslimani* ، صفحات ٢١-٢٢؛ رجيتش Redzic, *Muslimansko autonomastvo*، صفحات ١٦ و٣٠.

٤٣- بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politcki razvitak* ، صفحات ١١٢-١١٤؛ رجيتش Redzic, *Muslimansko autonomastvo* ، ص ٥٢.

٤٤- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime' ، ص ١٩١؛ ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique* ، ص ٣٤٢.

٤٥- رجيتش Redzic, *Muslimansko autnomastvo* ، ص ٥٩.

٤٦- ديدير وميليتيتش Dedijer and Miletic, *Genocid nad Muslimana* ، ص xxvi-xxviii و ٣٨٣.

٤٧- رجيتش Redzic, *Muslimansko autonomatsvo* ، ص ٥٥.

٤٨- المرجع السابق، صفحات ٦٠-٦١؛ أفاكيوموفيتش Avakumovic, *Mihailovic prema nemackim dokumentima*، ص ٧١-٧٢. والتقدير الرقمى مبنى على ادعاء ميهايلوفيتش أن ٧٤ ٪ من رجاله كانوا أرثوذكس و ٨٤ ٪ كانوا "صربا" (ص ٧١-٧٢). ومن المحتمل أنه أدخل فى الحساب "صرباً كاثوليك"؛ بيد أنه كان من المحتمل وجود بعض الأرثوذكس غير الصربيين أيضاً.

٤٩- أفاكيوموفيتش Avakumovic, *Mihailovic prema nemackim dokumentima*، ص ٧١. ويلاحظ رجيتش أن القرية المسلمة "المحررة" بواسطة بوبوفاك كان يدافع عنها قوة كبيرة من المسلمين المتطوعين (*Muslimansko autnomatsvi* ، صفحات ١٠٥-١٠٦).

٥٠- رجيتش Redzic. *Muslimansko autonomatsvi* ، ص ٦٨.

٥١- المرجع السابق، صفحات ١٣١ و١٦٠.

٥٢- المرجع السابق، صفحات ٧١-٧٤.

٥٣- صندهاوسن 'Sundhaussen, 'Zur Geschichte der Waffen-SS in Kroatien صفحات ١٩١-١٩٣.

٥٤- رجيتش Redzic, *Muslimansko autonomatsvo*، صفحات ٨٧ و ١١٩-١٢٠ و١٥٥. وكان هناك تسعة ضباط مسلمين فى الفرقة بأكملها (ص ١٨٩).

٥٥- المرجع السابق، ص ٨٩؛ صندهاوسن Sundhaussen, 'Zur Geschichte der Waffen-SS in Kroatien'، ص ١٩٣.

٥٦- رجيتش Redzic, *Muslimansko autonomatsvo*، ص ١٣٦؛ إرنياك Erignac, *La Revolte des Croates*.

٥٧- رجيتش Redzic, *Muslimansko autonomatsvo* ، صفحات ١٤٠ و١٤٧ و١٧٧-١٧٨.

٥٨- المرجع السابق، صفحات ١٣٨-١٣٩؛ بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak*، ص ١١٤.

٥٩- رجيتش Redzic, *Muslimansko autonomatsvo* ، صفحات ١٦٦-١٦٧ و ١٨٣.

٦٠- المرجع السابق، صفحات ١٩٠-٢٠٦؛ صندهاوسن Sundhaussen, 'Zur Gechichte der Waffen-SS in Kroatien'، ص ١٩٣.

٦١- باليتش Balic, *Das unbekannte Bosnien* ، ص ٧.

٦٢- ديدير وميليتيتش Dedijer and Mileticc, *Genocid nad Muslimana*، صفحات xxx-xxxi؛ ذو الفقار باشيتش Zulfikarpasic, *Bosanski Muslimani* ، صفحات ١٩-٢٠.

الفصل الرابع عشر: البوسنة فى يوغوسلافيا تيتو ١٩٤٥-١٩٨٩

١- كارابانجيتش Karapandzich, *Bloodiest Yugoslav Spring*، ص ٢٠.

٢- مقتبسة فى بيلوف Beloff, *Tito's Flawed Legacy* ، ص ١٣١.

٣- ديورديفيتش 'Djordjevic, 'Yugoslav Phenomenon ، ص ٣٢٩.

٤- روسينوف Rusinow, *Yugoslav Experiment*، ص ٣٨. وعن مشروع "سكك حديد الشباب"، انظر طومسون Thompson, *Paper House* ، صفحات ١١٨-١٢٠.

٥- وعن شرح موجز واضح الأسلوب عن ستالينية تيتو، انظر بافلوويتش Pavlowitch, *Tito*، صفحات ٥٠-٦١.

٦- لابينا 'Lapenna, 'Suverenitet i federalizam ، صفحات ١٧-١٨.

٧- وهذه العملية مشروحة تماماً فى كوشتونيكا و تشافوشكى Kostunica and Cavoski, *Party Pluralism or Monism*.

٨- روسينوف Rusinow, *Yugoslav Experiment* ، صفحات ٣٥-٣٦.

٩- تشادويك Chadwick, *Christian Church in the Cold War* ، ص ٣٧.

١٠- بولتون Poulton, *Balkans* ، ص ٤٣.

١١- وعن جميع هذه التغييرات، انظر باليتش Balic, 'Der bosnisch- herzegowinische Islam'، صفحات ١٢٠ و ١٢٨-١٣٤، و ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*، صفحات ٣٤٧-٣٥٣.

١٢- ماكفرلين McFarlane, *Yugoslavia* ، ص ٧٩.

١٣- وقد بدأت الحركة بمؤتمر باندونج فى أندونيسيا فى ١٩٥٥؛ ووضع تيتو نفسه على رأس الحركة فى الأمم المتحدة فى ١٩٦٠، وأعلن أن مبادئها هى سياسة يوغوسلافية فى ١٩٦١. والطبيعة الحقيقية للحركة كانت واضحة لأغلب المراقبين حتى قبل أن يصبح فيدل كاسترو رئيسها فى ١٩٧٩. انظر بافلوويتش Pavlowitch, *Tito*، صفحات ٦١-٦٥؛ ميليفوييفيتش Milivojevic, *Descent into Chaos*، صفحات ٢٠-٢١؛ إيانوفيتش Ivanovic, 'Reforma vanjske politike'.

١٤- إروين Irwin, 'Islamic Revival'، صفحات ٤٤١-٤٤٢؛ ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*، صفحات ٣٥٣-٣٥٤.

١٥- باليتش Balic, 'Der bosnisch-herzegowinische Islam' ، ص ١٢٥.

١٦- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime' ، ص ١٩٤.

١٧- المرجع السابق، ص ١٩٥؛ وقد استخدمت التقسيم التفصيلى لأرقام ١٩٤٨ الموجود فى بيوريفاترا Purivatra, *Nacionalni i politicki razvitak*، صفحات ٣٢-٣٣؛ ويذكر هوبكن رقماً إجمالياً للمسلمين "الصرب" و"الكروات" (١٧٠٠٠٠)، وهو رقم غير صحيح؛ ومن الممكن أن يكون خطأ مطبعياً للعدد الإجمالى لمثل هؤلاء المسلمين فكل أرجاء يوغوسلافيا (١٩٠٠٠٠).

١٨- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime'، صفحات ١٩٩-٢٠١. ويعتبر س. راميت سقوط رانكوفيتش على أنه حاسم: S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، صفحات ١٧٨-١٧٩. وعن هيمنة الصرب فى البوسنة فى الفترة ١٩٤٥-١٩٦٥، انظر بيروش Perochc, *Histoire de la Croatie* ، ص ٣٦٧.

١٩- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime'، صفحات ١٩٦-١٩٧؛ إروين Irwin, 'Islamic Revival' ، ص ٤٤٣.

٢٠- باليتش Balic, 'Der bosnisch-herzegowinische Islam'، ص ١٢٤.

٢١- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime'، صفحات ١٩٨-٢٠٠؛ إروين Irwin, 'Islamic Revival' ، ص ٤٤٤.

٢٢- هوبكن Hopken, 'Die Kommunisten und die Muslime'، ص ٢٠٠.

٢٣- عن الخلاف الطويل مع مقدونيا حول هذه المسألة، انظر س. راميت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، صفحات ١٨٢-١٨٤.

٢٤- هاجياهيتش Hadzijahic, *Od tradicije do identiteta* صفحات ٦٧-٦٨.

٢٥- عن هذه النقطة، انظر ا. بوبوفيتش A. Popovic, 'Islamische Bewegungen'، ص ٢٨١، وإروين Irwin, 'Islamic Revival'، صفحات ٤٤٥-٤٤٦.

٢٦- وقد بدأ عزت بيجوفيتش إعداده فى ١٩٦٦-١٩٦٧، وانتهى من كتابته فى النصف الأول من ١٩٧٠ (ذوالفقار باشيتش Zulfikarpasic, ed., *Sarajevski proces*، ص ٢٣٩).

٢٧- ب. رامت P. Ramet, 'Die Muslime Bosniens'، ص ١١١؛ ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*، ص ٣٥١؛ معلومات من مايو توبولوفاك Majo Topolovac.

٢٨- روسينوف Rusinow, *Yugoslav Expriment*، ص ١٠٠.

٢٩- المرجع السابق، صفحات ٩٩-١١٠ و ١١٩؛ س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، صفحات ١٣٨-١٤٤.

٣٠- وكل هذه الإحصائيات (المستقاة بصفة رئيسية من إحصاء ١٩٧١) توجد فى بريزنيك Breznik, ed., *Population of Yugoslavia*. وكانت فويفودينا أكثر منطقة تدفق إليها السكان: فقد كانت السياسة ليس فقط الإحلال محل ٣٠٠٠٠٠ من عرقية ألمانية الذين قتلوا أو طردوا، بل ضمان أغلبية صربية مطلقة.

٣١- س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، ص ١٤٤.

٣٢- المرجع السابق، صفحات ٩٨-١١٥.

٣٣- المرجع السابق، ص ١٢٤.

٣٤- المرجع السابق، صفحات ١٠٥ و ١٢٥.

٣٥- انظر ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، صفحات ٣٧ و ٤٧. والادعاء بأن "أكثر من مئة ألف" صربى غادروا كوسوفو فى المدة ١٩٦٨-١٩٧٨ (بيلوف Beloff, *Titos Flawed Legacy* ص ٢١٢) لهو ادعاء باطل. فقد سجلت الإحصاءات ٢٢٧٠١٦ صربياً فى كوسوفو فى ١٩٦١ و ٢٢٨٢٦١ فى ١٩٧١ و ٢٠٩٤٩٧ فى ١٩٨١ (إسلامى Islami, *Fshati i Kosoves*، ص ١٧٦).

٣٦- توماشيفيتش Tomashevich, 'The Serbian Question'، ص ٣٩.

٣٧- سيرك Sirc, 'The National Question'، ص ٨٨.

٣٨- ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، ص ٥٠.

٣٩- جرمك Grmek *et al.*, eds., *Le Nettoyage ethnique*، صفحات ٢٣٦-٢٦٩؛ واقتباسات من صفحات ٢٥٦ و ٢٦٥.

٤٠- ا. بوبوفيتش A. Popovic, *L'Islam balkanique*، ص ٣٥٥؛ إروين Irwin, 'Islamic Revival'، صفحات ٤٤٨-٤٥١.

٤١- ذوالفقار باشيتش Zulfikarpasic, *Sarajevski proces*، وخاصة صفحات ٢٤٠-٢٤١ و ٢٤٩؛ بولتون Poulton, *Balkans*، صفحات ٤٢-٤٣.

٤٢- وأحسن شرح لهذه المسألة، وهو الذى استخدمته هنا، هو ليدال Lydall, *Yugoslavia in Crisis*، صفحات ١٦٨-١٧١ (اقتباس فى ص ١٧١)؛ وانظر أيضاً ماكفرلين McFarlane, *Yugoslavia*، صفحات ١٧١-١٧٢، وماجاش Magas, Destruction of Yugoslavia، ص ١١١-١١٢.

٤٣- ليدال Lydall, *Yugoslavia in Crisis*، صفحات ٨٥-٨٦.

٤٤- المرجـــع الســـابق، صفحـــات ٩١-٩٢ و ٢٢٠-٢٢٢؛ ميليفويفيتـــش Milivojevic, *Descent into Chaos*، صفحات ١١-١٢.

٤٥- ليدال Lydall, *Yugoslavia* in *Crisis*، ص ٢١٧.

٤٦- ميليفويفيتش Milivojevic, *Descent into Chaos*، ص ١٠؛ س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، صفحـات ٢٢٦-٢٣٤؛ طومســون Thompson, *Paper House*، صفحات ١٦٣-١٦٥؛ ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، صفحات ١٩٧-٢١٣ و ٢٢٧-٢٣٤.

الفصل الخامس عشر: البوسنة ومنية يوغوسلافيا ١٩٨٨-١٩٩٢

١ - وقد ذكرت وسائل الإعلام الرسمية، على نحو مناف للعقل، أن ثلاثة ملايين شــخص كانوا حاضرين. وقد حضرت الاجتماع الحاشد، وقدرت عدد الحاضرين بأنهم ما بين ثلاثمئة ألف و خمسمئة ألف.

٢- جليني Glenny, *Fall of Yugoslavia* ، ص ٣٥.

٣- ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، ص ٢٤١. وحسبما أوضحت برانكا ماجاش، فإن عائلة رانشان في الحقيقة أعدمها الأوستاشا خلال الحرب.

٤- س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، ص ٢٤٤.

٥- المرجع السابق، ص ٢٤٠-٢٤٢؛ ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، صفحات ٢٢٤-٢٢٦؛ جاو Gow, *Legitimacy and the Military* ، صفحـات ٧٨-٩٤.

٦- عن جميع هذه الأحداث، انظر بولتون Poulton, *Balkans*، صفحـات ٢٤-٢٧؛ ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، صفحــات ٢٩٣ و ٣١٣؛ جليني Glenny, *Fall of Yugoslavia*، صفحات ١٣-١٩.

٧- إروين Irwin, 'Fate of Islam in the Balkans'، ص ٣٩٢.

٨- س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، صفحات ٢٣٣ و ٢٤٣.

٩- طومسون Thompson, *Paper House*، ص ٩٩.

١٠- عزت بيجوفيتش Izetbegovic, *Islamska deklaracija*، ص ٣٧.

١١- المرجع السابق، ص ٢٢.

١٢- المرجع السابق، صفحات ٣٧-٣٨.

١٣- المرجع السابق، صفحات ٢١-٢٤ و ٣٠.

١٤- وعن تحليل واضح لأحد العلماء البارزين، انظر إسبوزيتو Esposito, *Islam and Politics*، وبخاصة صفحات ٢٦٩-٣٠١.

١٥- عزت بيجوفيتش Izetbegovic, *Islamska deklaracija*، صفحات ٣٤-٤٢.

١٦- المرجع السابق، ص ٧.

١٧- المرجع السابق، ص ٣١.

١٨- عزت بيجوفيتش Izetbegovic, Islam izmedju Istoka i Zapada، صفحات ١٠٧-١٠٩ و ١٣٢ و ٢٥١-٢٦٤.
١٩- حسين 'Hussein, 'Communist Yugoslavia's Fear of Islam، ص ٣٤.
٢٠- بولتون Poulton, *Balkans*، ص ٤٣.
٢١- سورابى Sorabji, *Bosnia's Muslims*، صفحات ٥-٦.
٢٢- بولتون Poulton, *Balkans*، ص ٤٤.
٢٣- المرجع السابق، صفحات ٣٧-٣٨.
٢٤- ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، صفحات ٢٧٦ و ٢٨٣-٢٩٣ (اقتباس من ص ٢٩٣). وتعطى برانكا ماجاش شرحاً شديد الوضوح لهذه الأحداث.
٢٥- س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، ص ٢٥٩.
٢٦- مازور Mazower, *War in Bosnia*، ص ٤.
٢٧- فراى 'Frei, 'Bully of the Balkans، ص ١٢.
٢٨- ألموند Almond, *Blundering in the Balkans*، صفحات ٤ و ٢١, وقد أعلن أحد مندوبى المجموعة الاقتصادية الأوروبية، بعد إعلان الاستقلال، أن المجموعة الاقتصادية الأوروبية سوف " ترفض الاتصالات على المستوى العالى" مع الجمهوريتين. وحسبما يوضحه مارك ألموند، فإن المجموعة الاقتصادية الأوروبية كانت ستخسر أكثر من مجرد المبادئ : فإنها قد منحت الحكومة الفيدرالية فى بلجراد قروضاً قيمتها ٧٣٠ مليون ايكو (صفحات ٢٠-٢١).
٢٩- وأحسن ملخص وتحليل لهذه الأحداث فى جاو 'Gow, 'One Year of War، صفحات ١-٧.
٣٠- مور 'Moore, 'Question of all Questions، ص ٣٨.
٣١- مازور Mazower, *War in Bosnia*، صفحات ٥-٦.
٣٢- سيرك 'Sirc, 'National Question، صفحات ٨٨-٨٩.
٣٣- تقرير داسكو دودر Report by Dusko Doder, *European* ٧ يناير ١٩٩٣.
٣٤- جرمك Grmek *et al.*, *Le Nettoyage ethnique*، صفحات ٣٠٤-٣٠٥.
٣٥- س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، ص ٢٦٠.
٣٦- جاو 'Gow, 'One Year of War، صفحات ٧-٨.
٣٧- المرجع السابق، ص ٨؛ س. رامت S. Ramet, *Nationalism and Federalism*، ص ٢٦١.
٣٨- مالكوم 'Malcolm, 'Waiting for a War، صفحات ١٥-١٦.
٣٩- ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslavia*، ص xv.
٤٠- مالكوم 'Malcolm, 'Waiting for a War، ص ١٦. وقد نقلت الاقتباس من حديث ماركوفيتش من تقارير فى *Borba* و *Politika*.
٤١- انظر مثلاً التقرير الذى أعده روجر بويز عن الاعتراضات السلوفينية والكرواتية على خطة كارينجتون فى جريدة التايمز بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩٩١. وقد خلص بويز إلى أنه "توجد شروخ فى أساس الخطة".

٤٢- جاو Gow, 'One Year of War'، ص ٨. وقد أوحى (وهذا غير حقيقى) أن وزير الداخلية البوسنى على ديليمصطفيتش كان يعمل فى ذلك الوقت مع إدارة المخابرات العسكرية الفيدرالية.

٤٣- مازور Mazower, *War in Bosnia*، ص ٤٧ ماجاش Magas, *Destruction of Yugoslaivia*، ص xviii.

٤٤- وأوضح شرح لهذه الحادثة فى روجو Rojo, *Holocausto en los Balcanes*، صفحات ١٤٥-١٤٦.

٤٥- *Mina informativini bilten* ، ٤ نوفمبر ١٩٩١.

٤٦- هايدن Hayden, 'Partition of Bosnia' ، صفحات ٢-٤.

٤٧- وقد أجريت الحديث بنفسى فى سراييفو فى ١١ أكتوبر ١٩٩١.

٤٨- تقرير جودى ديمبسى فى *Financial Times* فى ٨ يوليو ١٩٩٢.

٤٩- جاو Gow, 'One Year of War' ، صفحات ٨-٩.

٥٠- هايدن Hayden, 'Partition of Bosnia'، صفحات ٤-٦.

٥١- تقرير مايكل مونتجومرى Michael Montgomery فى *Daily Telegraph* فى ٢٩ فبراير ١٩٩٢.

٥٢- تقرير جون بالمر فى صحيفة الجارديان فى ١٠ مارس ١٩٩٢.

٥٣- هايدن Hayden, 'Partition of Bosnia' ، ص ٧.

الفصل السادس عشر: تدمير البوسنة ١٩٩٢-١٩٩٣

١- تقرير مايكل مونتجومرى فى *Daily Telegraph* فى ٧ أبريل ١٩٩٢.

٢- تقارير بيجال تشازان فى الجارديان فى ٢٧ مارس ١٩٩٢ وتيم جوداه وديسا تريفيزان فى التايمز فى ٤ أبريل ١٩٩٢.

٣- تقرير مراسل الديلى تلجراف فى ٣٠ مارس ١٩٩٢.

٤- Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، ص١٤٩. وفريق Helsinki Watch الذى قابل هؤلاء القناصة فيما بعد، وجد قائد UNPROFOR المحلى فى فندق البوسنة: وقد قال أنه لم يكن على علم بأن المدينة قد تم تحويطها بالمتاريس، وأنه شيئ ليس من اختصاصه على أى حال.

٥- تقرير تيم جوداه وديسا تريفيزان فى التايمز فى ٤ أبريل ١٩٩٢.

٦- تقرير آن ماكلفوى فى التايمز فى ٢٠ أبريل ١٩٩٢.

٧- انظر التحليل فى مازور Mazower, *War in Bosnia*، صفحات ١٠-١١.

٨- المرجع السابق، ص ١٣.

٩- مقتبس فى جلينى Glenny, *Fall of Yugoslavia*، ص ١٦٦.

١٠- تقرير فيليب شيرويل فى الديلى تلجراف فى ١٦ أبريل ١٩٩٢.

١١- جاو Gow, 'One Year of War' ، ص ٨.

١٢- انظر مثلاً تقارير إيان ترينور فى الجارديان فى ١٧ أبريل ١٩٩٢، وآن ماكلفوى فى التايمز فى ٢٠ أبريل ١٩٩٢.
١٣- تقرير فيليب شيرويل فى الديلى تلجراف فى ١٦ أبريل ١٩٩٢.
١٤- مازور *Mazower, War in Bosnia*، ص ١٥.
١٥- انظر ما اقتبسته من هذا التقرير فى *The Spectator* فى ٢ مايو ١٩٩٢.
١٦- عن جميع التفاصيل السابق ذكرها عن القوات العسكرية، انظر جاو Gow, 'One Year of War'، صفحات ٨-٩؛ وعن اتفاقية ١٦ يونيو، انظر المجلد الذى ينشره دانيال بيتلهم Daniel Bethlehem ومارك ولر Marc Weller, *The 'Yugoslav' Crisis in Intenlational Law* (Cambridge, 1993 or 1994).
١٧- عن التفاصيل السابق ذكرها، انظر Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، صفحات ٤٣-٤٥، والبيان المطبوع على الآلة الكاتبة المعنون "لماذا أنشئ المجتمع الكرواتى فى الهرسك؟"، الذى أصدره فلادو بوجارتشيتش Vlado Pogarcic مستشار الشئون الخارجية لماتى بوبان، فى يونيو أو يوليو ١٩٩٣.
١٨- Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، صفحات ١٥٠-١٥٣.
١٩- انظر تقريرى فى *The Spectator* فى ٢ مايو ١٩٩٢.
٢٠- Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، ص ١٥٩.
٢١- US Congressional Record فى ٣٠ سبتمبر ١٩٩٢.
٢٢- جاو Gow, 'One Year of War'، صفحات ٢-٣.
٢٣- وبالطبع، فإنه مع تطور الحرب، كانت هناك حالات كثيرة لمسلمين وكروات يهاجمون منازل الصرب؛ ولكن بقى الاختلال فى التوازن فى الاستراتيجيات والتكتيكات كما هو.
٢٤- Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، صفحات١٦٨-١٦٩؛ ISHR (القسم البريطانى)، *Human Rights and Serbia* ، (تقرير منسوخ على الآلة الكاتبة ١٩٩٢).
٢٥- Bosnian Government Information Centre، "قائمة بمعسكرات الاعتقال والسجون فى أراضى جمهورية البوسنة والهرسك" (منسوخ على الآلة الكاتبة).
٢٦- Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia*، صفحات ٥٠-٥٥؛ وهنا صفحات ٥٢-٥٣. وأصبح الآن مصطلح "التشيتنيك" يستخدم كمصطلح عام يطلق على جميع القوات الصربية غير النظامية.
٢٧- انظر تقارير تاديوس مازوفيسكى Tadeusz Mazowiecki, Medecins sans frontieres and Amnesty International التى جمعها بوشيه فى *Le Livre noir* .Bouchet, ed.; وعن الشهادة التفصيلية المروعة التى قدمتها امرأة احتجزت فى معسكر للاغتصاب فى فوتشا، انظر تقرير فيكتوريا كلارك فى الأوبزيرفر فى ٢١ فبراير ١٩٩٣. ويرى بعض المعقبون أن مسألة الاغتصاب المنظم مثيرة للنزاع. وقد جمعت الحكومة البوسنية تفاصيل ١٣٠٠٠ حالة؛ وذكرت بعثة المجموعة الاقتصادية الأوربية الرقم التقديرى بأنه ٢٠٠٠٠ حالة فى يناير ١٩٩٣ (المرجع السابق، ص

٤٦٠). ومن الواضح أن الاغتصاب كان يستخدم في أماكن كثيرة كجزء من سياسة عامة للصرب ضد السكان المدنيين، ولم يكن مجرد تصرفات فردية لجنود مخلين بالنظام.

٢٨- مقالة دوجلاس هيرد في *Mail on Sunday* في ٩ أغسطس ١٩٩٢.

٢٩- "تقرير توماس أوبريان لوكالة المعونة الأمريكية في يناير ١٩٩٣ لاحظ أن ... القادة العسكريين الصربيين قد خصص لهم ٢٣ ٪ من المعونة المخصصة للمدن المحاصرة" (شارب Sharp, *Bankrupt in the Balkans*، ص ١٤).

٣٠- تم الاتفاق من ناحية المبدأ على المنطقة المحظور الطيران فوقها في أغسطس ١٩٩٢ ، وأعلنتها الأمم المتحدة في أكتوبر؛ وتم أخيراً في أبريل ١٩٩٣ توفير الوسائل لوضعها موضع التنفيذ، ولكن الانتهاكات لها بصورة روتينية دأبت على الحدوث بعد ذلك.

٣١- شارب Sharp, *Bankrupt in the Balkans*، صفحات ١٦-١٧؛ هايدن Hayden, 'Partition of Bosnia'، صفحات ٩-١٠.

٣٢- المقالات ١ و ٢ (منسوختين على الآلة الكاتبة) من International Conference on the Former Yugoslavia, 'Agreement for Peace in Bosnia and Hercegovina'.

٣٣- تقرير في *East European Reporter*، المجلد الخامس، العدد السادس (نوفمبر- ديسمبر ١٩٩٢)، ص ٦٤.

٣٤- تقرير روبرت فوكس في الديلي تلجراف في ٢ مايو ١٩٩٣.

٣٥- مور Moore, 'Endgame in Bosnia?'، ص ٢٠.

٣٦- تقرير مايكل بنيون في التايمز في ٢٠ مايو ١٩٩٣.

٣٧- تقرير تيم جوداه في التايمز في ٧ يناير ١٩٩٣.

٣٨- تقرير جويل براند في التايمز في ١١ مايو ١٩٩٣.

٣٩- تقرير روبن جيدى في الديلي تلجراف في ١٨ فبراير ١٩٩٣: "قال المستر هيرد أنه أوضح أنه لا بد من إقامة توازن بين وجهة النظر الألمانية بأن مدداً من الأسلحة يرسل للمسلمين كان الطريقة العادلة الوحيدة للسماح لهم بالدفاع عن أنفسهم، وبين خطر تصعيد القتال". ولم يوضح المستر هيرد لماذا يمكن أن يوصف إقناع ألمانيا بالتمشي مع الثاني من هذين التأويلين المتناقضينبأنه ضرب ميزان بينهما.

٤٠- أرجو أن يغفر لي القارئ إيرادي هذا الاقتباس من مقال نشرته بصحيفة الديلي تلجراف (في ٢ إبريل ١٩٩٣). وأجاب عنه وزير الخارجية بخطاب نشر في نفس الصحيفة بتاريخ ٥ إبريل، سبك فيه مصطلح " تسوية حقل القتل"، وصفا لعواقب رفع حظر السلاح. والواقع أن عبارة "حقل القتل" قد اخترعت لوصف موقف سياسة يماثل ذلك الذي كان آنفا بين أيدينا، وذلك بفضل السياسة التي كان يساندها المستر هيرد، بمناطق كثيرة من البوسنة.

٤١- تقرير تيم جوداه في التايمز في ٣ مايو ١٩٩٣.

٤٢- وقد أكد هذه النقطة لي كمال كورسباهيتش رئيس تحرير جريدة *Oslobodjenje* أثناء محادثة معه.

٤٣- تقرير مايكل مونتجومرى فى الديلى تلجراف فى ٨ مايو ١٩٩٣.

٤٤- Foreign Office News Department, communique.

٤٥- Bosnian Government Information Centre, statement.

٤٦- تقرير فى نيو يوركر فى ١٥ مايو ١٩٩٣.

٤٧- ريتشارد بايبس Richard Pipes ، مقتبس فى ليفن *Nicholas II* ،Lieven ، ص ٢٤٦.

ثبت المراجع

يقتصر هذا الثبت على سرد الأعمال الواردة فى متن هذا الكتاب أو هوامشه (بغض النظر عن تقارير الأخبار والبيانات أو البلاغات التى أعطيت عنها مراجع كاملة فى الهوامش). والترتيب الأبجدى إنجليزى وليس صربوكرواتيا.

Abteilung für Kriegsgeschichte des k. k. Kriegs-Archivs, ***Die Occupation Bosniens und der Hercegovina durch k. k. Truppen im Jahre 1878*** **(Vienna, 1879)**

Der Aufstand in der Hercegovina, Süd-Bosnien und Süd-Dalmatien 1881–1882 **(Vienna, 1883)**

Akademia e shkencave e R.P.S. të Shqiperisë: Instituti i gjuhësisë dhe i letërsisë, ***Fjalor i gjuhës së sotme Shqipe*** **(Tirana, 1980)**

Alföldy, G., ***Bevölkerung und Gesellschaft der römischen Provinz Dalmatien*** **(Budapest, 1965)**

Algar, H., 'Some Notes on the Naqshbandi Tariqat in Bosnia', ***Studies in Comparative Religion***, **vol. 9 (1975), pp. 69–96**

Almond, M., ***Blundering in the Balkans: the European Community and the Yugoslav Crisis*** **(Oxford, 1991)**

Amantos, K., ***Scheseis Ellênôn kai Tourkôn apo tou endekatou aiônos mechri tou 1821*** **(Athens, 1955)**

Anderson, D., ***Miss Irby and Her Friends*** **(London, 1966)**

Andjelić, P., 'Periodi u kulturnoj historiji Bosne i Hercegovine u srednjem vijeku', ***Glasnik zemaljskog muzeja Bosne i Hercegovine u Sarajevu***, n.s., **vol. 25 (1970), pp. 119–212**

'Barones Regni i državno vijeće srednjovjekovne Bosne', ***Prilozi za istoriju***, **vols. 11–12 (1975–6), pp. 29–48**

Andrić, I., ***The Development of Spiritual Life in Bosnia under the Influence of Turkish Rule*** **(Durham, North Carolina, 1990)**

Angelov, D., ***Bogomilstvoto v B'lgariya*** **(Sofia, 1969)**

von Asbóth, J., ***Bosnien und die Hercegowina: Reisebilder und Studien*** **(Vienna, 1888)**

Avakumović, I., ***Mihailović prema nemačkim dokumentima*** **(London, 1969)**

Baernreither, J. M., ***Bosnische Eindrücke*** **(Vienna, 1908)**

Balagija, A., *Les Musulmans yougoslaves (étude sociologique)* (Algiers, 1940)

Balić, S., 'Der bosnisch-herzegowinische Islam', *Der Islam*, vol. 44 (1968), pp. 115–37

Das unbekannte Bosnien: Europas Brücke zur islamischen Welt (Cologne, 1992)

Banac, I., *The National Question in Yugoslavia: Origins, History, Politics* (Ithaca, New York, 1984)

Barić, H., *Lingvističke studije*, Naučno društvo n.r. Bosne i Hercegovine, djela, vol. 1 (Sarajevo, 1954)

Barkan, Ö. L., 'Les déportations comme méthode de peuplement et de colonisation dans l'Empire ottoman', *Revue de la faculté des sciences économiques de l'Université d'Istanbul*, vol. 11 (1949–50), pp. 67–131

Bartusis, M. C., *The Late Byzantine Army: Arms and Society, 1204–1453* (Philadelphia, 1992)

Batinić, M. V., *Djelovanje franjevaca u Bosni i Hercegovini sa prvih šest viekova njihova boravka*, 3 vols. (Zagreb, 1881–7)

Beldiceanu, N., 'Sur les valaques des balkans slaves à l'époque ottomane (1450–1550)', *Revue des études islamiques*, vol. 34 (1966), pp. 83–132

'Les Valaques de Bosnie à la fin du XVe siècle et leurs institutions', *Turcica*, vol. 7 (1975), pp. 122–34

and I. Beldiceanu-Steinherr, 'Quatre actes de Mehmed II concernant les valaques des balkans slaves', *Südostforschungen*, vol. 24 (1965), pp. 103–18

Beloff, N., *Tito's Flawed Legacy: Yugoslavia and the West, 1939 to 1984* (London, 1985)

Benac, A., Čović, B., *et al*, *Kulturna istorija Bosne i Hercegovine od najstarijih vremena do početka turske vladavine* (Sarajevo, 1966)

Birge, J. K., *The Bektashi Order of Dervishes* (London, 1937)

Blau, O., *Reisen in Bosnien und der Herzegowina: topographische und pflanzengeographische Aufzeichnungen* (Berlin, 1877)

Bogićević, V., 'Emigracije muslimana Bosne i Hercegovine u Tursku u doba Austro-Ugarske vladavine 1878–1918 godine', *Historijski zbornik*, vol. 3 (1950), pp. 175–88

Bordeaux, A., *La Bosnie populaire: paysages, moeurs et coutumes, légendes, chants populaires, mines* (Paris, 1904)

Borst, A., *Die Katharer* (Stuttgart, 1953)

Bouchet, P., ed., *Le Livre noir de l'ex-Yougoslavie: purification ethnique et crimes de guerre* (Paris, 1993)

Boué, A., *La Turquie d'Europe*, 4 vols. (Paris, 1840)

Bowen, H., 'Ayan', in *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd edn., ed. H. A. R.

Gibbs, J. H. Kramers, E. Lévi-Provençal and J. Schacht, 6 vols. (Leiden, 1960–), vol. 1, p. 778

Braude, B., 'Foundation Myths of the *Millet* System', in B. Braude and B. Lewis, eds., *Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Functioning of a Plural Society*, 2 vols. (New York, 1982), vol. 1, pp. 69–88

Braudel, F., *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, tr. S. Reynolds, 2 vols. (London, 1972)

Breznik, D., ed., *The Population of Yugoslavia*, publication of the Demographic Research Centre, Institute of Social Sciences (Belgrade, 1974)

Burián, S., *Austria in Dissolution*, tr. B. Lunn (London, 1925)

Byrnes, R., ed., *Communal Families in the Balkans: The Zadruga: Essays by Philip Mosely and Essays in his Honor* (Notre Dame, 1976)

Çabej, E., 'The Problem of the Place of Formation of the Albanian Language', in A. Buda, E. Çabej, *et al*, *The Albanians and their Territories* (Tirana, 1985), pp. 63–99

Carnegie Endowment for International Peace, *Report of the International Commission to Inquire into the Causes and Conduct of the Balkan Wars* (Washington, DC, 1914)

Čelebi, Evlija, *see* Evlija

Chadwick, O., *The Christian Church in the Cold War* (London, 1992)

Chaumette-des-Fossés, A., *Voyage en Bosnie dans les années 1807 et 1808* (Berlin, 1812)

Chopin, J., and A. Urbicini, *Provinces danubiennes et roumaines* (Paris, 1856)

Cinnamus, *Epitome rerum ab Ioanne et Alexio Comnenis gestarum*, ed. A. Meinecke (Bonn, 1836)

Ćirković, S. M., 'Die bosnische Kirche', in *L'Oriente cristiano nella storia della civiltà*, Accademia nazionale dei Lincei, quaderno 62 (Rome, 1964), pp. 547–75

Herceg Stefan Vukčić-Kosača i njegovo doba, Srpska akademija nauka i umetnosti, posebna izdanja, vol. 376 (Belgrade, 1964)

Istorija srednjovekovne bosanske države (Belgrade, 1964)

Clissold, S., ed., *A Short History of Yugoslavia from Early Times to 1966* (Cambridge, 1968)

Constantine Porphyrogenitus, *De administrando imperio*, ed. G. Moravscik, tr. R. J. H. Jenkins (Washington, DC, 1967)

Coquelle, P., *Histoire du Monténégro et de la Bosnie depuis les origines* (Paris, 1895)

Ćorović, V., *Historija Bosne*, Srpska kraljevska akademija, posebna izdanja, vol. 129 (Belgrade, 1940)

Croix, Sieur de la, *Mémoires* (Paris, 1684)

Čubrilović, V., 'Poreklo muslimanskog plemstva u Bosni i Hercegovini', *Jugoslovenski istoriski časopis*, vol. 1 (1935), pp. 368–403
Bosanski ustanak 1875–1878, Srpska kraljeva akademija, posebna izdanja, vol. 83 (Belgrade, 1936)
Čuprić-Amrein, M. M., *Die Opposition gegen die österreichisch-ungarische Herrschaft in Bosnien-Hercegovina (1878–1914)* (Bern, 1987)
Curtis, W. E., *The Turk and his Lost Provinces* (Chicago, 1903)
Dawkins, R. M., 'The Crypto-Christians of Turkey', *Byzantion*, vol. 8 (1933), pp. 247–75
Deakin, F. W. D., *The Embattled Mountain* (London, 1971)
Dedijer, V., *The Road to Sarajevo* (London, 1966)
Dedijer, V., and A. Miletić, *Genocid nad Muslimana, 1941–1945: zbornik dokumenata i svjedočenja* (Sarajevo, 1990)
Dedijer, V., Božić, I., Ćirković, S., and M. Ekmečić, *History of Yugoslavia* (New York, 1974)
Deroc, M., *British Special Operations Explored: Yugoslavia in Turmoil, 1941–1943, and the British Response* (Boulder, Colorado, 1988)
Desboeufs, Capitaine, *Souvenirs*, ed. C. Desboeufs (Paris, 1901)
Dinić, M. J., *Za istoriju rudarstva u srednjevekovnoj Srbiji i Bosni*, Srpska akademija nauka, posrebna izdanja, vol. 240 (Belgrade, 1955)
Djilas, M., *Wartime*, tr. M. B. Petrovich (London, 1977)
Djordjević, D., 'The Yugoslav Phenomenon', in J. Held, ed., *The Columbia History of Eastern Europe in the Twentieth Century* (New York, 1992), pp. 306–44
Djurdjev, B., 'Bosna', in *The Encyclopaedia of Islam*, 2nd edn., ed. H. A. R. Gibbs, J. H. Kramers, E. Lévi-Provençal and J. Schacht, 6 vols. (Leiden, 1960–), vol. 1, p. 1261–75
Donia, R. J., *Islam under the Double Eagle: The Muslims of Bosnia and Hercegovina 1878–1914* (Boulder, Colorado, 1981)
Draganović, K, 'Izvješće apostolskog vizitatora Petra Masarechija o prilikama katoličkog naroda u Bugarskoj, Srbiji, Srijemu, Slavoniji i Bosni g. 1623 i 1624', *Starine jugoslavenske adademije znanosti i umjetnosti*, vol. 39 (1938), pp. 1–48.
Dragnich, A. N., *The First Yugoslavia: The Search for a Viable Political System* (Stanford, California, 1983)
Dragojlović, D., *Krstjani i jeretička crkva bosanska*, Srpska akademija nauka i umetnosti: balkanološki institut, posebna izdanja, vol. 30 (Belgrade, 1987)
Dragomir, S., *Vlahii şi Morlacii: studiu din istoria românismului balcanic* (Cluj, 1924)
Vlahii din nordul peninsulei balcanice în evul mediu (Bucharest, 1959)

Država komisija za utvrdjivanje zločina okupatora i njihovih pomagača, *Dokumenti o izdajstvu Draže Mihailovića*, vol. 1 (Belgrade, 1945)

Du Nay, A., [pseudonym] *The Early History of the Rumanian Language*, Edward Sapir monograph series in Language, Culture and Cognition, vol. 3 (supplement to *Forum Linguisticum*, vol. 2, no. 1, August 1977) (Lake Bluff, Illinois, 1977)

Durham, M. E., *Twenty Years of Balkan Tangle* (London, 1920)

Some Tribal Origins, Laws, and Customs of the Balkans (London, 1928)

Duvernoy, J., *Le Catharisme*, 2 vols. (Toulouse, 1976–9)

Dvornik, F., *Byzantine Missions among the Slavs* (New Brunswick, New Jersey, 1970)

Džaja, S., *Die 'bosnische Kirche' und das Islamisierungsproblem Bosniens und der Herzegowina in den Forschungen nach dem zweiten Weltkrieg* (Munich, 1978)

'Fineova interpretacija bosanske srednjovjekovne konfesionalne poviesti', in J. Turčinović, ed., *Povijesno-teološko simpozij u povodu 500. obljetnice smrti bosanske kraljice Katarine* (Sarajevo, 1979), pp. 52–9

Konfessionalität und Nationalität Bosniens und der Hercegowina: voremanzipatorische Phase 1463–1804, Südosteuropäische Arbeiten, vol. 80 (Munich, 1984)

Emmert, T. A., 'The Battle of Kosovo: Early Reports of Victory and Defeat', in W. S. Vucinich and T. A. Emmert, eds., *Kosovo: Legacy of a Medieval Battle* (Minneapolis, Minnesota, 1991), pp. 19–40

Érignac, L., *La Révolte des Croates de Villefranche-de-Rouergue* (Villefranche-de-Rouergue, 1980)

Esposito, J. L., *Islam and Politics*, 3rd edn. (New York, 1984)

Evans, A. J., *Through Bosnia and the Herzegovina on Foot during the Insurrection, August and September 1875*, 2nd edn. (London, 1877)

Illyrian Letters: A Revised Selection of Correspondence from the Illyrian Provinces of Bosnia, Herzegovina, Montenegro, Albania, Dalmatia, Croatia, and Slavonia, addressed to the 'Manchester Guardian' during the Year 1877 (London, 1878)

Evlija Čelebi, *Putopis odlomci o jugoslovenskim zemljama*, ed. and tr. H. Šabanović (Sarajevo, 1973)

Fermendžin, E., ed., *Acta Bosnae potissimum ecclesiastica cum insertis editorum documentorum regestis ab anno 925 usque ad annum 1752*, Monumenta spectantia historiam slavorum meridionalium, vol. 23 (Zagreb, 1892)

Filipescu, T., *Coloniile române din Bosnia: studiu etnografic şi antropogeografic* (Bucharest, 1906)

Filipović, M., 'Struktura i organizacija srednjovekovnog katuna', in Filipović, M., ed., *Simpozijum o srednjovjekovnom katunu održan 24 i 25 novembra 1961 g.* (Sarajevo, 1963), pp. 45–108

Filipović, N., 'Napomene o islamizaciju u Bosni i Hercegovini u 15. vijeku', *Godišnjak akademije nauka i umjetnosti Bosne i Hercegovine* vol. 7 (= Centar za balkanološka ispitivanja, vol. 5) (1970), pp. 141–67

Fine, J. V. A., 'Aristodios and Rastudije – A Re-examination of the Question', *Godišnjak društva istoričara Bosne i Hercegovine*, vol. 16 (1965), pp. 223–9

'Was the Bosnian Banate Subjected to Hungary in the Second Half of the Thirteenth Century?', *East European Quarterly*, vol. 3 (1969), pp. 167–77

The Bosnian Church: A New Interpretation. A Study of the Bosnian Church and its Place in State and Society from the Thirteenth to the Fifteenth Centuries (Boulder, Colorado, 1975)

The Early Medieval Balkans: A Critical Survey from the Sixth to the Late Twelfth Century (Ann Arbor, Michigan, 1983)

The Late Medieval Balkans: A Critical Survey from the Late Twelfth Century to the Ottoman Conquest (Ann Arbor, Michigan, 1987)

Fortis, A., *Travels into Dalmatia* (London, 1778)

Fraser., A., *The Gypsies* (London, 1992)

Frei, M., 'The Bully of the Balkans', *The Spectator*, 17 August 1991, pp. 11–13

Freidenreich, H. P., *The Jews of Yugoslavia: A Quest for Community* (Philadelphia, 1979)

Gavranović, B., *Bosna i Hercegovina od 1853–1870 godine* (Sarajevo, 1956)

Gazić, L., 'Les Collections des manuscrits orientaux à Sarajevo', *Prilozi za orijentalnu filologiju*, vol. 30 (1980), pp. 153–7

Gibbons, J., *London to Sarajevo* (London, 1930)

Gilliat-Smith, B., 'The Dialect of the Gypsies of Serbo-Croatia', *Journal of the Gypsy Lore Society*, 3rd series, vol. 27 (1948), pp. 139–44

Gimbutas, M., *The Slavs* (London, 1971)

Glenny, M., *The Fall of Yugoslavia: The Third Balkan War* (London, 1992)

Glück, L., 'Zur physischen Anthropologie der Zigeuner in Bosnien und der Hercegovina', *Wissenschaftliche Mittheilungen aus Bosnien und der Herzegowina*, vol. 5 (1897), pp. 403–33

Glušac, V., 'Srednjovekovna "bosanska crkva"', *Prilozi za književnost, jezik, istoriju i folklor*, vol. 4 (1924), pp. 1–55

Goldstein, S., ed., *Jews in Yugoslavia* (Zagreb, 1989)

Gow, J., *Legitimacy and the Military: The Yugoslav Crisis* (London, 1992)
'One Year of War in Bosnia and Herzegovina', *Radio Free Europe/Radio Liberty Research Report*, vol. 2, no. 23 (4 June 1993), pp. 1–13

Grmek, M., Gjidara, M., and N. Simac, eds., *Le Nettoyage ethnique: documents historiques sur une idéologie serbe* (Paris, 1993)

Guldescu, S., 'Political History to 1526', in F. M. Eterovich and C. Spalatin, eds., *Croatia: Land, People, Culture*, 2 vols. (Toronto, 1964), vol. 1, pp. 76–130

Gušić, B., 'Wer sind die Morlachen im adriatischen Raum?', *Balcanica*, vol. 4 (1973), pp. 453–64

Gyóni, M., 'La Transhumance des Vlaques balkaniques au moyen age', *Byzantinoslavica*, vol. 12 (1951), pp. 29–42

Haarmann, H., *Der lateinische Lehnwortschatz im Albanischen*, Hamburger philologische Studien, vol. 19 (Hamburg, 1972)

Hadžibegić, H., 'Džizja ili harač', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovanskih naroda pod turskom vladavinom*, part 1: vols. 3–4 (1952–3), pp. 55–135; part 2: vol. 5 (1954–5), pp. 43–102

Hadžijahić, M., 'Uz prilog profesora Vojislava Bogićevića', *Historijski zbornik*, vol. 3 (1950), pp. 189–92
'Udio Hamzevija u atentatu na Mehmed-pašu Sokolovića', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovanskih naroda pod turskom vladavinom*, vol. 5 (1954–5), pp. 325–30
'Die priviligierten Städte zur Zeit des osmanischen Feudalismus', *Südostforschungen*, vol. 20 (1961), pp. 130–58
'Die Anfänge der nationalen Entwicklung in Bosnien und in der Herzegowina', *Südostforschungen*, vol. 21 (1962), pp. 168–92
'Die Kämpfe der Ajane in Mostar bis zum Jahre 1833', *Südostforschungen*, vol. 28 (1969), pp. 123–81
Od tradicije do identiteta: geneza nacionalnog pitanja bosanskih muslimana (Sarajevo, 1974)
'Sinkretistički elementi u Islamu u Bosni i Hercegovini', *Prilozi za orijentalnu filologiju*, vols. 28–9 (1978–9), pp. 301–28
Porijeklo bosanskih Muslimana (Sarajevo, 1990)

Handžić, A., 'Bosanski namjesnik Hekim-oglu Ali-paša', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovanskih naroda pod turskom vladavinom*, vol. 5 (1954–5), pp. 135–80
Tuzla i njena okolina u 16. vijeku (Sarajevo, 1975)
'O gradskom stanovništvu u Bosni u XVI stoljeću', *Prilozi za orijentalnu filologiju*, vols. 28–9 (1978–9), pp. 247–56
'U ulozi derviša u formiranju gradskih naselja u Bosni u XV stoljeću',

Prilozi za orijentalnu filologiju, vol. 31 (1981), pp. 169–78
Hangi, A., *Die Moslim's in Bosnien-Herzegowina: ihre Lebensweise, Sitten und Gebräuche* (Sarajevo, 1907)
Hasluck, F. W., *Christianity and Islam under the Sultans*, ed. M. M. Hasluck, 2 vols. (Oxford, 1929)
Hasluck, M. M., 'Firman of A.H. 1013–14 (A.D. 1604–5) Regarding Gypsies in the Western Balkans', *Journal of the Gypsy Lore Society*, 3rd series, vol. 27 (1948), pp. 1–12
Hauptmann, F., *Borba muslimana Bosne i Hercegovine za vjersku vakufsko-mearifsku autonomiju* (Sarajevo, 1967)
Hawkesworth, C., *Ivo Andrić: Bridge between East and West* (London, 1984)
Hayden, R. M., 'The Partition of Bosnia and Herzegovina, 1990–1993', *Radio Free Europe/Radio Liberty Research Report*, vol. 2, no. 22 (28 May 1993), pp. 1–14
Helsinki Watch, *War Crimes in Bosnia-Hercegovina* (New York, 1992)
Hinsley, F. W., *et al.*, *British Intelligence in the Second World War*, 5 vols. (London, 1979–90)
Höpken, W., 'Die jugoslawischen Kommunisten und die bosnischen Muslime', in A. Kappeler, G. Simon and G. Brunner, eds., *Die Muslime in der Sowjetunion und in Jugoslawien: Identität, Politik, Widerstand* (Cologne, 1989), pp. 181–210
Hoptner, J. B., *Yugoslavia in Crisis, 1934–1941* (New York, 1962)
Hornby, L. G., *Balkan Sketches: An Artist's Wanderings in the Kingdom of the Serbs* (Boston, 1927)
Hory, L. and M. Broszat, *Der kroatische Ustascha-Staat* (Stuttgart, 1964)
Hottinger, J. H., *Historia orientalis* (Zurich, 1660)
Höttl, W., *The Secret Front* (London, 1953)
Hrabak, B., 'Izvoz plemenih metala iz Bosne u Dubrovnik u vreme osmanlijske vlasti', *Godišnjak društva istoričara Bosne i Hercegovine*, vols. 28–30 (1977–9), pp. 75–85
Hukić, A., ed., *Islam i muslimani u Bosni i Hercegovini* (Sarajevo, 1977)
Huković, M., *Alhamadio književnost i njeni stvaraoci* (Sarajevo, 1986)
Huld, M. E., *Basic Albanian Etymologies* (Columbus, Ohio, 1983)
Hussein, A., 'Communist Yugoslavia's Fear of Islam', *Issues in the Islamic Movement*, vol. 4 (1983–4), pp. 34–5
Illyés, E., *Ethnic Continuity in the Carpatho-Danubian Area* (Boulder, Colorado, 1988)
Imamović, M., 'O historiji bošnjačkog pokušaja', in A. Purivatra, M. Imamović and R. Mahmutćehajić, *Muslimani i Bošnjaštvo* (Sarajevo, 1991), pp. 31–70

Irwin, Z. T., 'The Islamic Revival and the Muslims of Bosnia-Hercegovina', *East European Quarterly*, vol. 17 (1984), pp. 437–58

'The Fate of Islam in the Balkans: A Comparison of Four State Policies', in P. Ramet, ed., *Religion and Nationalism in Soviet and East European Politics*, revised edn. (Durham, North Carolina, 1989), pp. 378–407

Islami, H., *Fshati i Kosovës: kontribut për studimin sociologjiko-demografik të evolucionit rural* (Priština, 1985)

Ivanović, V., 'Reforma vanjske politike', in V. Ivanović and A. Djilas, eds., *Demokratske reforme* (London, 1982), pp. 40–50

Izetbegović, A., *Islam izmedju Istoka i Zapada* (Sarajevo, 1988)

Islamska deklaracija (Sarajevo, 1990)

Jelavich, B., *History of the Balkans*, 2 vols. (Cambridge, 1983)

and C. Jelavich, *The Establishment of the Balkan National States, 1804–1920*, A History of East Central Europe, ed. P. F. Sugar and D. Treadgold, vol. 8 (Seattle, Washington, 1977)

Jireček, K., *Die Handelsstrassen und Bergwerke von Serbien und Bosnien während des Mittelalters: historisch-geographische Studien* (Prague, 1879)

'Die Romanen in den Städten Dalmatiens während des Mittelalters', *Denkschriften der kaiserlichen Akademie der Wissenschaften: philosophisch-historische Classe*; part 1: vol. 48, no. 3 (1902); parts 2 and 3: vol. 49, nos. 1 and 2 (1904)

Istorija Srba, 4 vols. (Belgrade, 1922–3)

Jukić, I. F. ('Slavoljub Bošnjak'), *Zemljopis i poviestnica Bosne* (Zagreb, 1851)

Kapidžić, H., 'Austro-ugarska politika u Bosni i Hercegovini i jugoslovensko pitanje za vrijeme prvog svjetskog rata', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 9 (1957), pp. 7–53

Hercegovački ustanak 1882 godine (Sarajevo, 1958)

'Pokret za iseliavanje srpskog seljaštva iz Hercegovine u Srbiju 1902 godine', *Godišnjak društva istoričara Bosne i Hercegovine*, vol. 11 (1960), pp. 23–54

Karapandzich, *The Bloodiest Yugoslav Spring, 1945 – Tito's Katyns and Gulags* (New York, 1980)

Karchmar, L., *Draža Mihailović and the Rise of the Četnik Movement, 1941–1942*, 2 vols. (New York, 1987)

Kaulfuss, R. S., *Die Slawen in den ältesten Zeiten bis Samo (623)* (Berlin, 1842)

Klaić, V., *Geschichte Bosniens von den ältesten Zeiten bis zum Verfalle des Königreiches*, tr. I. von Bojničić (Leipzig, 1885)

Klen, D., 'Pokrštavanje "Turske" djece u Rijeci u XVI i XVII stoljeću', *Historijski zbornik – Šidakov zbornik*, vols. 29–30 (1976–7), pp. 203–7

Kniewald, D., 'Vjerodostojnost latinskih izvora o bosanskim krstjanima', *Rad jugoslavenske akademije znanosti i umjetnosti*, vol. 270 (1949), pp. 115–276

'Hierarchie und Kultus bosnischer Christen', in *L'Oriente cristiano nella storia della civiltà*, Accademia nazionale dei Lincei, quaderno 62 (Rome, 1964), pp. 579–605

Kočović, B., *Žrtve drugog svetskog rata u Jugoslaviji* (London, 1985)

Koetschet, J., *Aus Bosniens letzter Türkenzeit*, ed. G. Grassl (Vienna, 1905)

Osman Pascha, der letzte grosse Wesier Bosniens, und seine Nachfolger, ed. G. Grassl (Sarajevo, 1909)

Koštunica, V., and K. Čavoški, *Party Pluralism or Monism: Social Movements and the Political System in Yugoslavia, 1944–1949* (Boulder, Colorado, 1985)

Kovačević, J., *Istorija Crne Gore* (Titograd, 1967)

Kreševljaković, H., *Kapetanije u Bosni i Hercegovini*, Naučno društvo n.r. Bosne i Hercegovine, djela vol. 5 (Sarajevo, 1954)

Esnafi i obrti u Bosni i Hercegovini, Naučno društvo n.r. Bosne i Hercegovine, djela vol. 17 (Sarajevo, 1961)

Kriss, R., and H. Kriss-Heinrich, *Volksglaube im Bereich des Islam*, 2 vols. (Wiesbaden, 1960–2)

Krizman, B., *Hrvatska u prvom svjetskom ratu i hrvatsko-srpski politički odnosi* (Zagreb, 1989)

Kulišić, Š., 'Razmatranja o porijeklu Muslimana u Bosni i Hercegovini', *Glasnik zemaljskog muzeja u Sarajevu*, n.s., vol. 8 (1953), pp. 145–58

Kunt, I. M., 'Transformation of *Zimmi* into *Askerî*', in B. Braude and B. Lewis, eds., *Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Functioning of a Plural Society*, 2 vols. (New York, 1982), vol. 1, pp. 55–67

The Sultan's Servants: The Transformation of Ottoman Provincial Government, 1550–1650 (New York, 1983)

Kuripešić, B., *Itinerarium der Botschaftsreise des Josef von Lamberg und Niclas Jurischitz durch Bosnien, Serbien, Bulgarien nach Konstantinopel 1530*, ed. E. Lamberg-Schwarzenberg (Innsbruck, 1910)

Lachmann, R., ed. and tr., *Memoiren eines Janitscharen oder Türkische Chronik*, Slavische Geschichtsschreiber, vol. 8 (Graz, 1975)

Lambert, M. D., *Medieval Heresy: Popular Movements from Bogomil to Hus* (1st edn., London, 1977; 2nd edn., London, 1992)

Lapenna, I., 'Suverenitet i federalizam u ustavu Jugoslavije', in V. Ivanović and A. Djilas, eds., *Demokratske reforme* (London, 1982), pp. 9–30

Lasić, D., *De vita et operibus S. Iacobi de Marchia: studium et recensio quorundam textuum* (Ancona, 1974)

Laštrić, F. ['Philippus ab Occhievia'], *Epitome vetustatum bosnensis provinciae* (Venice, 1765)

Le Bouvier, G., *Le Livre de la description des pays* (Paris, 1908)

Lees, M., *The Rape of Serbia: The British Role in Tito's Grab for Power 1943–1944* (San Diego, California, 1990)

Lehfeldt, W., *Das serbokroatische Aljamiado-Schrifttum der bosnisch-hercegovinischen Muslime: Transkriptionsprobleme*, Beiträge zur Kenntnis Südosteuropas und des Nahen Orients, vol. 9 (Munich, 1969)

Levntal, Z., ed., *Zločini fašističkih okupatora i njihovih pomogača protiv jevreja u Jugoslaviji* (Belgrade, 1952)

Levy, M., *Die Sephardim in Bosnien: ein Beitrag zur Geschichte der Juden auf der Balkan-Halbinsel* (Sarajevo, 1911)

Lewis, B., *The Emergence of Modern Turkey*, 2nd edn. (Oxford, 1968)

Lieu, S. N. C., *Manichaeism in the Later Roman Empire and Medieval China: A Historical Survey* (Manchester, 1985)

Lieven, D., *Nicholas II: Emperor of All the Russias* (London, 1993)

Lilek, E., 'Vjerske starine iz Bosne i Hercegovine', *Glasnik zemaljskog muzeja*, vol. 6 (1894), pp. 141–66, 259–81, 365–88, 631–74

Lockwood, W. G., *European Muslims: Economy and Ethnicity in Western Bosnia* (New York, 1975)

Loos, M., *Dualist Heresy in the Middle Ages* (Prague, 1974)

'Les Derniers Cathares de l'occident et leurs relations avec l'église patarine de Bosnie', *Historijski zbornik – Šidakov zbornik*, vols. 29–30 (1976–7), pp. 113–26

Lord, A. B., 'The Battle of Kosovo in Albanian and Serbocroatian Oral Epic Songs', in A. Pipa and S. Repishti, eds., *Studies on Kosova* (Boulder, Colorado, 1984), pp. 65–83

Lovrich, G., *Osservazioni sopra diversi pezzi del viaggio in Dalmazia del signor Alberto Fortis* (Venice, 1776)

Lydall, H., *Yugoslavia in Crisis* (Oxford, 1989)

Maček, V., *In the Struggle for Freedom*, tr. E. and S. Gazi (London, 1957)

McFarlane, B., *Yugoslavia: Politics, Economics and Society* (London, 1988)

McGowan, B., 'Food Supply and Taxation on the Middle Danube (1568–1579)', *Archivum Ottomanicum*, vol. 1 (1969), pp. 138–96

Economic Life in Ottoman Europe: Taxation, Trade and the Struggle for Land, 1600–1800 (Cambridge, 1981)

MacKenzie, D., *The Serbs and Russian Pan-Slavism 1875–1878* (Ithaca, New York, 1967)

Magaš, B., *The Destruction of Yugoslavia: Tracking the Break-up, 1980–1992* (London, 1993)

Maier, H., *Die deutschen Siedlungen in Bosnien* (Stuttgart, 1924)

Malcolm, N. R., 'Waiting for a War', *The Spectator*, 19 October 1991, pp. 14–15

Malingoudis, F., *Slavoi stê mesaiônikê Ellada* (Salonica, 1991)

Mandić, D., *Postanak Vlaha prema novim poviesnim iztraživanjima* (Buenos Aires, 1956)

'The Ethnic and Religious History of Bosnia and Hercegovina', in F. M. Eterovich and C. Spalatin, eds., *Croatia: Land, People, Culture*, 2 vols. (Toronto, 1964), vol. 2, pp. 362–93

Etnička povijest Bosne i Hercegovine (Rome, 1967)

Franjevačka Bosna: razvoj i uprava bosanske vikarije i provincije 1340–1735 (Rome, 1968)

Mandić, M., *Povijest okupacije Bosne i Hercegovine (1878)* (Zagreb, 1910)

Marienescu, A. M., 'Ilirii, macedo-românii şi albanesii: dissertaţiune istorică', *Analele Academiei române*, series 2, vol. 26 (1903–4), pp. 117–69

Markotić, V., 'Archaeology', in F. M. Eterovich and C. Spalatin, eds., *Croatia: Land, People, Culture*, 2 vols. (Toronto, 1964), vol. 1, pp. 20–75

Martin, D., *The Web of Disinformation: Churchill's Yugoslav Blunder* (San Diego, California, 1990)

Masleša, V., *Mlada Bosna* (Belgrade, 1945)

Matasović, J., 'Tri humanista o patarenima', *Godišnjak Skopskog filozofskog fakulteta*, vol. 1 (1930), pp. 235–51

Maurer, F., *Eine Reise durch Bosnien, die Saveländer und Ungarn* (Berlin, 1870)

Mazower, M., *The War in Bosnia: An Analysis* (London, 1992)

Mažuranić, V., *Südslaven im Dienste des Islams (vom X. bis XVI. Jahrhundert): ein Forschungsbericht*, ed. and tr. C. Lucerna (Zagreb, 1928)

Migne, J.-P., ed., *Patrologiae cursus completus*, series latina prima, 221 vols. (Paris, 1844–64)

Milazzo, M. J., *The Chetnik Movement and the Yugoslav Resistance* (Baltimore, 1975)

Miletić, M., *I 'Krstjani' di Bosnia alla luce dei loro monumenti di pietra*, Orientalia christiana analecta, vol. 149 (Rome, 1957)

Milivojević, M., *Descent into Chaos: Yugoslavia's Worsening Crisis* (London, 1989)

Miller, W., *Travels and Politics in the Near East* (London, 1898)

Essays on the Latin Orient (Cambridge, 1921)

Mirmiroglou, V., *Oi Dervissai* (Athens, 1940)

Moore, P., 'The "Question of all Questions": Internal Borders', *Radio Free*

Europe/Radio Liberty Report on Eastern Europe, vol. 2, no. 38 (20 September 1991), pp. 34–9

'Endgame in Bosnia and Herzegovina?', *Radio Free Europe/Radio Liberty Report on Eastern Europe*, vol. 2, no. 32 (13 August 1993), pp. 17–23

Mraz, G., *Prinz Eugen: sein Leben, sein Wirken, seine Zeit* (Vienna, 1985)

Muir Mackenzie, G., and A. P. Irby, *Travels in the Slavonic Provinces of Europe*, 3rd edn., 2 vols. (London, 1877)

Mujić, M., 'Položaj cigana u jugoslovenskim zemjlama pod osmanskom vlašću', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovenskih naroda pod turskom vladavinom*, vols. 3–4 (1952–3), pp. 137–91

'Prilog proučavanju uživanja alkoholni pića u Bosni i Hercegovini pod osmanskom vlašću', *Prilozi za orijentalnu filologiju i istoriju jugoslovanskih naroda pod turskom vladavinom*, vol. 5 (1954–5), pp. 286–98

Mutafchieva, V., 'K'm v'prosa za chiflitsite v osmanskata imperiya prez XIV–XVII v.', *Istoricheski pregled*, vol. 14 (1958), pp. 34–57

Nagata, Y., *Materials on the Bosnian Notables*, Studia culturae islamicae, no. 11 (Tokyo, 1979)

Nandriş, J. G., 'The Aromâni: Approaches to the Evidence', in R. Rohr, ed., *Die Aromunen: Sprache–Geschichte–Geographie* (Hamburg, 1987), pp. 15–71

Năsturel, P. Ş., 'Les Valaques balcaniques aux Xe–XIIe siècles (mouvements de population et colonisation dans la Romanie grecque et latine)', *Byzantinische Forschungen*, vol. 7 (1979), pp. 89–112

ed., *Bibliografie macedo-română* (Freiburg, 1984)

Naumov, E., 'Balkanskiye vlakhi i formirovanye drevneserbskoi narodnosti', in Ivanov, V. V., Korolyuk, V. D., and E. P. Naumov, eds., *Etnicheskaya istoriya vostochnikh romantsev: drevnost'i sredniye vyeka* (Moscow, 1979), pp. 18–61

Naval Intelligence Division, British Admiralty, *Jugoslavia*, Geographical Handbook series, B.R. 393, 3 vols. (London, 1944)

Neubacher, H., *Sonderauftrag Südost 1940–1945*, 2nd edn. (Göttingen, 1957)

Niger, D. M., *Geographiae commentariorum libri XI (Basel, 1557)*

Novaković, S., *Selo* (Belgrade, 1965)

Obolensky, D., *The Bogomils: A Study in Balkan Neo-Manichaeism* (Cambridge, 1948)

The Byzantine Commonwealth: Eastern Europe, 500–1453 (London, 1974)

d'Ohsson, M., *Tableau général de l'Empire othoman*, 7 vols., Paris, 1788–1824

Okiç, T., 'Les Kristians (Bogomiles Parfaits) de Bosnie d'après des documents turcs inédits', *Südostforschungen*, vol. 19 (1960), pp. 108–33

Orbini, M., *Il Regno de gli slavi hoggi corrottamente detti Schiavoni* (Pesaro, 1601)

Papoulia, B. D., *Ursprung und Wesen der 'Knabenlese' im osmanischen Reich*, Südosteuropäische Arbeiten, vol. 59 (Munich, 1963)

Pašalić, E., and R. Mišević, eds., *Sarajevo* (Sarajevo, 1954)

Paskaleva, V., 'Osmanlı balkan eyâletlerinin avrupalı devletlerle ticaretleri tarihine katki (1700–1850)', *Istanbul üniversitesi iktisat fakültesi mecmuası*, vol. 27 (1967–8), pp. 37–74

Pavlovich, P., *The Serbians: The Story of a People* (Toronto, 1983)

Pavlowitch, S. K., 'Society in Serbia, 1791–1830', in R. Clogg, ed., *Balkan Society in the Age of Greek Independence* (London, 1981), pp. 137–56

Tito, Yugoslavia's Great Dictator: A Reassessment (London, 1992)

Peledija, E., *Bosanski ejalet od karlovačkog do požarevačkog mira 1699–1718* (Sarajevo, 1989)

Pelletier, R., *Sarajevo et sa région: chez les Yougoslaves de la Save à l'Adriatique* (Paris, 1934)

Peroche, G., *Histoire de la Croatie et des nations slaves du sud, 395–1992* (Paris, 1992)

Pertusier, C., *La Bosnie considérée dans ses rapports avec l'Empire Ottoman* (Paris, 1822)

Petranović, B., *Bogomili, crkva bosanska i krstjani* (Zadar, 1867)

Petrović, L., *Kršćani bosanske crkve* (Sarajevo, 1953)

Pisarev, Y. A., and M. Ekmečić, *Osvoboditelnaya borba narodov Bosnii i Gertsegovini i Rossiya*, 2 vols. (Moscow, 1985–8)

Popović, A., *L'Islam balkanique: les musulmans du sud-est européen dans la période post-ottomane*, Osteuropa-Institut an der freien Universität Berlin: balkanologische Veröffentlichungen, vol. 11 (Berlin, 1986)

'Islamische Bewegungen in Jugoslawien', in A. Kappeler, G. Simon and G. Brunner, eds., *Die Muslime in der Sowjetunion und in Jugoslavien: Identität, Politik, Widerstand* (Cologne, 1989), pp. 273–86

Popović, I., 'Valacho-serbica: der rumänische Spracheinfluss auf das Serbokroatische und dessen Geographie', *Südostforschungen*, vol. 21 (1962), pp. 370–93

Porphyrogenitus: *see* Constantine Porphyrogenitus

Porter, Sir James, *Observations on the Religion, Law, Government, and Manners, of the Turks* (London, 1768)

Poulton, H., *The Balkans: Minorities and States in Conflict* (London, 1991)

Puech, H. C., 'Catharisme médiévale et Bogomilisme', in *Oriente ed occidente nel medio evo* (Rome, 1957), pp. 84–104

Purivatra, A., *Nacionalni i politički razvitak muslimana* (Sarajevo, 1972)

Quiclet, Monsieur, *Les Voyages de M. Quiclet à Constantinople par Terre* (Paris, 1664)

Rački, F., *Bogomili i patareni*, Srpska kraljeva akademija, posebna izdanja, vol. 87 (Belgrade, 1931)

Radojčić, N., *Srpska istorija Mavra Orbinija*, Srpska akademija nauka, posebna izdanje, vol. 152 (Belgrade, 1950)

Radojčić, S., 'Reljefi bosanskih i hercegovačkih stećaka', *Letopis Matice Srpske*, year 137, vol. 287 (1961), pp. 1–15

Radojičić, D., '"Bulgaralbanitoblahos" et "Serbalbanitobulgaroblahos" – deux caractéristiques ethniques du sud-est européen des XIVe et XVe siècles. Nicodim de Tismana et Grégoire Camblak', *Romanoslavica*, vol. 13 (1966), pp. 77–9

Ramet, P., 'Die Muslime Bosniens als Nation', in A. Kappeler, G. Simon and G. Brunner, eds., *Die Muslime in der Sowjetunion und in Jugoslavien: Identität, Politik, Widerstand* (Cologne, 1989), pp. 107–14

Ramet, S. P., *Nationalism and Federalism in Yugoslavia, 1962–1991*, 2nd edn. (Bloomington, Indiana, 1992)

Redžić, E., *Muslimansko autonomaštvo i 13. SS divizija: autonomija Bosne i Hercegovine i Hitlerov treći rajh* (Sarajevo, 1987)

Rivet, C., *Chez les slaves libérés: en Yougoslavie* (Paris, 1919)

Roberts, W. R., *Tito, Mihailović and the Allies, 1941–1945*, 2nd edn. (Durham, North Carolina, 1987)

Rojo, A., *Yugoslavia, Holocausto en los Balcanes: la agonia de un estado y por qué se matan entre si sus habitantes* (Barcelona, 1992)

Rośkiewicz, J., *Studien über Bosnien und die Herzegowina* (Leipzig, 1868)

Rostovtseff, M., *Iranians and Greeks in Southern Russia* (Oxford, 1922)

Roth, C., ed., *The Sarajevo Haggadah* (London, 1963)

Rothenberg, *The Austrian Military Border in Croatia, 1522–1747*, Illinois Studies in the Social Sciences, vol. 48 (Urbana, Illinois, 1960)

The Military Border in Croatia 1740–1881 (Chicago, 1966)

Runciman, S., *The Medieval Manichee: A Study of the Christian Dualist Heresy* (Cambridge, 1947)

Rusinow, D., *The Yugoslav Experiment, 1948–1974* (Berkeley, California, 1978)

Russu, I. I., *Illirii: istoria, limba şi onomastica, romanizarea* (Bucharest, 1969)

Rycaut, P., *The Present State of the Ottoman Empire* (London, 1668)

Šabanović, H., 'Pitanje turske vlasti u Bosni do pohoda Mehmeda II 1463 godine', *Godišnjak društva istoričara Bosne i Hercegovine*, vol. 7 (1955), pp. 37–51

'Bosansko krajište 1448–1463', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 9 (1957), pp. 177–219

Bosanski pašaluk: postanak i upravna podjela, Naučno društvo n.r. Bosne i Hercegovine, djela, vol. 14 (Sarajevo, 1959)

'Vojno uredjenje Bosne od 1463. g. do kraja XVI stoljeća', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 11 (1960), pp. 173–223

Šamić, M., *Les Voyageurs français en Bosnie à la fin du XVIIIe siècle et au début du XIXe et le pays tel qu'ils l'ont vu* (Paris, 1960)

Schmid, F., *Bosnien und die Herzegovina unter der Verwaltung Österreich-Ungarns* (Leipzig, 1914)

Schmitt, B., *The Annexation of Bosnia 1908–1909* (Cambridge, 1937)

Scholem, G., *Major Trends in Jewish Mysticism* (London, 1955)

Sabbatai Ṣevi: The Mystical Messiah, 1626–1676 (London, 1973)

von Schwandner, J. G., ed., *Scriptores rerum hungaricarum, dalmaticarum, croaticarum, et sclavonicarum veteres ac genuini*, 3 vols. (Vienna, 1746–8)

Seton Watson, R. W., *The Role of Bosnia in International Politics (1875–1914)* (London, 1933)

Sharp, J. M. O., *Bankrupt in the Balkans: British Policy in Bosnia* (London, 1993)

Shaw, S. J., 'The Ottoman View of the Balkans', in C. Jelavich and B. Jelavich, eds., *The Balkans in Transition: Essays on the Development of Balkan Life and Politics since the Eighteenth Century* (Berkeley, California, 1963)

History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, 2 vols. (Cambridge, 1976–7)

The Jews of the Ottoman Empire and the Turkish Republic (London, 1991)

Sicard, E., *La Zadruga sud-slave dans l'évolution du groupe domestique* (Paris, 1943)

Šidak, J., 'Problem "bosanske crkve" u našoj historiografiji od Petranovića do Glušca', *Rad jugoslavenske akademije znanosti i umjetnosti*, vol. 259 (1937), pp. 147–67

Studije o 'crkvu bosanskoj' i bogomilstvu (Zagreb, 1975)

Sikirić, S., 'Derviskolostorok és szent sírok Boszniában', *Túrán*, nos. 9–10 (November–December 1918), pp. 574–607

Sirc, L., 'The National Question in Yugoslavia', *The South Slav Journal*, vol. 9, nos. 1–2 (1986), pp. 80–93

Šišić, F., ed. and tr., *Letopis popa Dukljanina* (Belgrade, 1928)

Bosna i Hercegovina za vezirovanja Omer-paše Latasa (1850–1852) (Subotica, 1938)

Skarić, V., *Srpski pravoslavni narod i crkva u Sarajevu u 17. i 18. vijeku* (Sarajevo, 1928)

'Popis bosanskih spahija iz 1123 (1711) godine', *Glasnik zemaljskog muzeja*, vol. 42 (1930), pp. 1–99

Sarajevo i njegova okolina od najstarijih vremena do austro-ugarske okupacije (Sarajevo, 1937)

Skarić, V., Nuri-Hadžić, O., and N. Stojanović, *Bosna i Hercegovina pod austro-ugarskom upravom* (Belgrade, *c.* 1918)

Slijepčević, D., *Pitanje Bosne i Hercegovine u XIX veku* (Cologne, 1981)

Šljivo, G., *Omer-Paša Latas u Bosni i Hercegovini 1850–1852* (Sarajevo, 1977)

Smailović, I., *Muslimanska imena orijentalnog porijekla u Bosni i Hercegovini* (Sarajevo, 1977)

Solovjev, A., 'La Messe cathare', *Cahiers d'études cathares*, vol. 3, no. 12 (1951–2), pp. 199–206

'Le Témoignage de Paul Rycaut sur les restes des Bogomiles en Bosnie', *Byzantion*, vol. 23 (1953), pp. 73–86

'Svedočanstva pravoslavnih izvora o bogomilstvu na Balkani', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 5 (1953), pp. 1–103

'Le Symbolisme des monuments funéraires bogomiles', *Cahiers d'études cathares*, vol. 5, no. 18 (1954), pp. 92–114

'Le Tatouage symbolique en Bosnie', *Cahiers d'études cathares*, vol. 5, no. 19 (1954), pp. 157–62

'Simbolika srednjovekovnih spomenika u Bosni i Hercegovini', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 8 (1956), pp. 5–65

'Bogumilentum und Bogumilengräber in den südslawischen Ländern', in W. Gülich, ed., *Völker und Kulturen Südosteuropas* (Munich, 1959), pp. 182–6

Sorabji, C., *Bosnia's Muslims: Challenging Past and Present Misconceptions* (London, 1992)

Soulis, G. C., 'The Gypsies in the Byzantine Empire and the Balkans in the late Middle Ages', *Dumbarton Oaks Papers*, no. 15 (1961), pp. 142–65

Stadtmüller, G., *Geschichte Südosteuropas* (Munich, 1950)

Forschungen zur albanischen Frühgeschichte, 2nd edn. (Wiesbaden, 1966)

Stanojević, G., 'Jedan pomen o kristjanima u Dalmaciji iz 1692 godine', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 11 (1960), pp. 273–4

Start, L. E., and M. E. Durham, *The Durham Collection of Garments and Embroideries from Albania and Yugoslavia* (Halifax, 1939)

'Statuto della comunità musulmana della ex Jugoslavia (24 ottobre 1936)', *Oriente moderno*, vol. 22 (1936), pp. 44–54

Sterneck, H., *Geografische Verhältnisse, Communicationen und das Reisen in Bosnien, der Herzegovina und Nord-Montenegro* (Vienna, 1877)

Stipčević, A., *The Illyrians*, tr. S. Čulić Burton (Park Ridge, New Jersey, 1977)

Stojadinović, M., *Ni rat ni pakt: Jugoslavija izmedju dva rata* (Buenos Aires, 1963)

Stone, N., *Europe Transformed: 1878–1919* (London, 1983)

Sućeska, A., 'Bedeutung und Entwicklung des Begriffes A'yân im Osmanischen Reich', *Südostforschungen*, vol. 25 (1966), pp. 3–26

'Osmanlı imparatorluğunda Bosna', *Prilozi za orijentalnu filologiju*, vol. 30 (1980), pp. 431–47

Sugar, P. F., *The Industrialization of Bosnia-Hercegovina 1878–1918* (Seattle, Washington, 1963)

Southeastern Europe under Ottoman Rule, 1354–1804, A History of East Central Europe, ed. P. F. Sugar and D. W. Treadgold, vol. 5 (Seattle, Washington, 1977)

Sundhaussen, H., 'Zur Geschichte der Waffen-SS in Kroatien 1941–1945', *Südostforschungen*, vol. 30 (1971), pp. 176–96

Takács, M., 'Sächsische Bergleute im mittelalterlichen Serbien und die "sächsische Kirche" von Novo Brdo', *Südostforschungen*, vol. 50 (1991), pp. 31–60

Tandarić, J., 'Glagoljska pismenost u srednjevjekovnoj Bosni', in J. Turčinović, ed., *Povijesno-teološko simpozij u povodu 500. obljetnice smrti bosanske kraljice Katarine* (Sarajevo, 1979), pp. 47–51

Thallóczy, L., *Studien zur Geschichte Bosniens und Serbiens im Mittelalter*, tr. F. Eckhart (Munich, 1914)

Thoemmel, G., *Geschichtliche, politische und topographisch-statistische Beschreibung des Vilayet Bosnien das ist das eigentliche Bosnien, nebst türkisch Croatien, der Hercegovina und Rascien* (Vienna, 1867)

Thompson, M., *A Paper House: The Ending of Yugoslavia* (London, 1992)

Thomson, H. E., *The Outgoing Turk: Impressions of a Journey through the Western Balkans* (London, 1897)

Thouzellier, C., *Hérésie et hérétiques: Vaudois, Cathares, Patarins, Albigeois*, Storia e letteratura: raccolta di studi e testi, vol. 116 (Rome, 1969)

Tomasevich, J., *Peasants, Politics, and Economic Change in Yugoslavia* (Stanford, California, 1955)

The Chetniks: War and Revolution in Yugoslavia, 1941–1945 (Stanford, California, 1975)

Tomashevich, G. V., 'The Serbian Question in Current Yugoslav Press

and Literature', *The South Slav Journal*, vol. 8, nos. 3–4 (1985), pp. 32–41

de Torquemada, J., *Symbolum pro informatione manichaeorum (El Bogomilismo en Bosnia)*, ed. N. López Martínez and V. Proaño Gil, Publicaciones del seminario metropolitana de Burgos, series B, vol. 3 (Burgos, 1958)

Trifunovski, J., 'Geografske karakteristike srednjovekovnih katuna', in Filipovic, M., ed., *Simpozijum o srednjovjekovnom katunu održan 24 i 25 novembra 1961 g.* (Sarajevo, 1963), pp. 19–38

Trimingham, J. S., *The Sufi Orders in Islam* (Oxford, 1971)

Truhelka, Ć., 'Bosančica', *Glasnik zemaljskog muzeja*, vol. 1 (1889), pp. 65–83

'Die Tatowirung bei der Katholiken Bosniens und der Hercegovina', *Wissenschaftliche Mittheilungen aus Bosnien und der Herzegowina*, vol. 4 (1896), pp. 493–508

'Das mittelalterliche Staats- und Gerichtswesen in Bosnien', *Wissenschaftliche Mittheilungen aus Bosnien und der Herzegowina*, vol. 10 (1907), pp. 71–155

Turčinović, J., ed., *Povijesno-teološko simpozij u povodu 500. obljetnice smrti bosanske kraljice Katarine* (Sarajevo, 1979)

Uhlik, R., 'Serbo-Bosnian Gypsy Folk-Tales, no. 8', tr. F. G. Ackerley, *Journal of the Gypsy Lore Society*, 3rd series, vol. 25 (1946), pp. 92–104

'Serbo-Bosnian Gypsy Folk-Tales, no. 9', tr. D. E. Yates, *Journal of the Gypsy Lore Society*, 3rd series, vol. 26 (1947), pp. 116–27

Vacalopoulos, C., 'Tendances caractéristiques du commerce de la Bosnie et le rôle économique des commerçants grecs au début du XIXe siècle', *Balkan Studies*, vol. 20 (1979), pp. 91–110

Valentini, G., 'L'elemento *vlah* nella zona scutarina nel secolo XV', in P. Bartl and H. Glassl, eds., *Südosteuropa unter dem Halbmond: Untersuchungen über Geschichte und Kultur der Südosteuropäischen Völker während der Türkenzeit*, Beiträge zur Kenntnis Südosteuropas und des Nahen Orients, vol. 16 (Munich, 1975), pp. 269–74

Vasić, M., 'Etnička kretanja u bosanskoj krajini u XVI vijeku', *Godišnjak istoriskog društva Bosne i Hercegovine*, vol. 11 (1960), pp. 233–49

Verlinden, C., 'Patarins ou Bogomiles réduits en esclavage', in *Studi in onore di Alberto Pincherle*, Studi e materiali di storia delle religioni, vol. 38 (Rome, 1967), pp. 683–700

Vukanović, T. P., 'Le Firman du sultan Sélim II relatif aux tsiganes, ouvriers dans les mines de Bosnie (1574)', *Études tsiganes*, vol. 15, no. 3 (1969), pp. 8–10

Wace, A., and M. A. Thompson, *The Nomads of the Balkans: An Account of Life and Customs among the Vlachs of Northern Pindus* (London, 1914)

Wakefield, W. L., and A. P. Evans, eds., *Heresies of the High Middle Ages* (New York, 1969)

Weigand, G., *Die Aromunen: ethnographisch-philologisch-historische Untersuchungen über das Volk der sogenannten Makedo-Romänen oder Zinzaren*, 2 vols., Leipzig, 1894–5

'Rumänen und Aromunen in Bosnien', *Jahresbericht des Instituts für rumänische Sprache (rumänisches Seminar) zu Leipzig*, vol. 14 (1908), pp. 171–97

Wenzel, G., ed., *Marino Sanuto világkrónikájának Magyarországot illető tudósításai*, Magyar történelmi tár, vols. 14 (1869), 24 (1877), 25 (1878)

Wenzel, M., 'A Medieval Mystery Cult in Bosnia and Herzegovina', *Journal of the Warburg and Courtauld Institutes*, vol. 24 (1961), pp. 89–107

'Bosnian Tombstones – who made them and why', *Südostforschungen*, vol. 21 (1962), pp. 102–43

Ukrasni motivi na stećcima (Sarajevo, 1965)

Wheler, G., *A Journey into Greece* (London, 1682)

Wilkes, J., *Dalmatia (History of the Roman Provinces)* (London, 1969)

The Illyrians (Oxford, 1992)

Wilson, D., *The Life and Times of Vuk Stefanović Karadžić, 1787–1864: Literacy, Literature, and National Independence in Serbia* (Oxford, 1970)

Winnifrith, T. J., *The Vlachs: The History of a Balkan People* (London, 1987)

Yelavitch, L., 'Les Musulmans de Bosnie-Herzégovine', *Revue du monde musulman*, vol. 39 (1920), pp. 119–33

Zbornik dokumenata i podataka o narodnooslobodilačkom ratu jugoslavenskih naroda, 14 vols. (Belgrade, 1950–60)

Zimmermann, *Reformation und Gegenreformation bei den Kroaten im österreichisch-ungarischen Grenzraum* (Eisenstadt, 1950)

Zlatar, B., 'O nekim muslimanskim feudalnim porodicama u Bosni', *Prilozi Instituta za istoriju*, vols. 14–15 (1978), pp. 81–139

'Une ville typiquement levantine: Sarajevo au XVIe siècle', in V. Han and M. Adamović, eds., *La Culture urbaine des Balkans (XVe–XIXe siècles): la ville dans les Balkans depuis la fin du moyen age jusqu'au début du XXe siècle. Recueil d'études* (Belgrade, 1991), pp. 95–9

Zlatar, Z., *Our Kingdom Come: The Counter-Reformation, the Republic of Dubrovnik, and the Liberation of the Balkan Slavs* (Boulder, Colorado, 1992)

Zulfikarpašić, A., *Bosanski Muslimani: čimbenik mira izmedju Srba i Hrvata* (Zurich, 1986)

Sarajevski proces: sudjenje muslimanskim intelektualcima 1983 godine (Zurich, 1987)

اقرأ فى هــذه السـلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند راســل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطـة مقـابل نقطـة	الدس هكســلى
الجغرافيـا فى مائة عام	ت · و · فريمــان
الثقــافة والمجتمــع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر · ج · فوربس
الأرض الغــامضة	ليســتردبل راى
الرواية الانجليــزية	والتــرآلن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهــة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشــاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولــكف
الهوية القومية فى السينما العـربية	هاشــم النحــاس
مجمــوعات النقــود	ديفيــد وليــام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عــزيز الشــوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموســوى
ديــلان توماس	اشراف س · بى · كوكس
الانســان ذلك الكائن الفــريد	جــون لويس
الرواية الحــديثة	جـــول ويست
المسرح المصرى المعــاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمــود طــه	انــور المعــداوى
القــوة النفســية للأهــرام	بيــل شــول وادبنيت
فن الترجمــة	د· صــفاء خلوصى
تولســتوى	رالف ئى ماتلــو
ســتندال	فيكتــور برومبير

افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفله
الفلسفة الجوهرية	سونداري
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج ٠ برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج ٠ كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة (٢ ج)	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف ٠ م ٠ بوجز
خفايا نظام النجم الامريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج)	جورج ستاينر
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ ٠ ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب ٠ ناش
انواع الفيلم الاميركى	ستالين جين ٠ سولومون
رحلة الأمير رودلف ٣ج ٠	عبد الرحمن الشيخ
رحلات ماركوبولو ٣ ج	عبد العزيز جاويه
الفيلم التسجيلى	محمود سامى عطا الله
الرومانتيكية والواقعية	بالكو لافرين
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف ليدهام
الحب	د٠ ليوبوسكاليا
كنوز الفراعنة	ت٠ج٠هـ٠ جيمز
اطلالات على الزمن الآتى	د٠ السيد نصر الدين
الرواية اليوم	مالكولم براد برى
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسف شرارة

السينما العربية	اعداد / مونى براح وآخرون
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن اوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى اوربا	بول كولز
صناع الخلود	موريس بيير برايز
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفريد ج ٠ بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ ج) .	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار/ د٠ رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السلطة والفرد	برتراند راسل
الأزهر فى الف عام	بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ ج)	أحمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو توده
حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتار	د٠ ايراز كريم الله
ماستريخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)	هـ ٠ ج ٠ ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٣ ج)	ريتشارد ف ٠ بيرتون

الحضــــارة الاسلامية	آدمــز متــز
الطفــــل (٢ ج)	ارنولــد جـــزل
رسائل واحاديث من المنفى	نيكتــور هــوجو
الجــزء والكل (محــاورات فى مضــمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبــرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	ســدنى هــوك
فن الأدب الروائى عنــد تولستوى	ف ٠ ع ادنيــكوف
ادب الأطفـــال	هادى نعمـــان الهيتى
احمــد حســن الزيات	د٠ نعمــة رحيم العــزاوى
اعــلام العــرب فى الكيمياء	د٠ فاضل احمــد الطــائى
فكرة المسرح	جـــلال العشرى
الجحيــم	هنــرى باربوس
صــنع القــرار الســياسى	الســيد عليــوة
التطــور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د٠ روجــر ســتروجان
تربيـــة الدواجن	كــاتى ثيــو
الموتى وعالمهم فى مصر القــديمة	ا ٠ ســـبنسر
النحــل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهمـــوس
سياسة الولايات المتحــدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى الســـنة	د٠ جـــون شـــندلر
الصـــــحافة	بييـــر البيـــر
اثر الكوميـــديا الالهية لدانتى فى الفــن التشـــكيلى	د٠ غبــريال وهبــة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعــدها	د٠ رمسيس عــوض
حركة عدم الانحياز فى عــالم متغير	د٠ محمد نعمان جــلال
الفكر الاوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل ٠ باومــر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شـــوكت الربيعى

التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د· محيى الدين احمد حسين
صـــور افريقيـــة	دوركاس ماكلينتوك
المخـدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتـــر لـورى
وظائف الاعضاء من الألف الى اليـــاء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثيـــة	ويليـــام بينـــز
تربيـة اسـماك الزينـة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جـون ر · بورر وميلتون جـولد ينجـــر
الفكر التاريخى عنـد الاغريق	ارنولد توينبى
قضـايا وسلامح الفن التشـكيلى	د· صـــالح رضـــا
التغذية فى البلدان النامية	م·هـ· كنج وآخــرون
بـداية بلا نهـــاية	جـورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د· السيد طه ابو سـديرة
حــوار حـول النظـامين الرئيسـيين للـــكون	جاليـــليو جاليليـــه
الارهـــاب	اريك موريس وآلان هـــو
اخنـــاتون	ســـيريل الدريد
القبيـلة الثـالثة عشرة	آرثر كيســـتلر
التـــوافق النفسى	توماس ا · هـــاريس
الدليـل الببليـــوجرافى	مجمـــوعة من البـاحثين
لغـة الصـــورة	روى ارمـــز
الثورة الاصـــلاحية فى اليابان	ناجـاى متشـيو
العـــالم الثـالث غـــدا	بـــول هاريســـون
الانقراض الكبير	ميخائيل البى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقـــود	فيكتـــور مورجـــان
التحليل والتوزيع الأوركســـترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشـــاهنامة (٢ ج)	الفـــردوسى الطـــوسى
الحيـــاة الكريمة (٢ ج)	بيـــرنون بورتر
كتـابة التـاريخ فى مصر	جـــاك كرابس جونيـــور

عن النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد ميـــرى
تراتيم زرادشـــت	اختيار / د. فيليب عطيـــة
نظـريات الفيلم الكبرى	ج. دادلي انـــدرو
مختارات من الأدب القصصي	جـــوزيف كونراد
الحياة في الكون كيف نشأت واين توجد	د. جوهان دورشنر
حـــرب الفضـــاء	طائفـــة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د. الســـيد عليـــوة
الميـــكروكمبيـــوتر	د. مصـــطفى عنـــانى
مختارات من الأدب الياباني	صـــبرى الفضـــل
الفكر الأوربي الحديث ٤ ج	فرانكلين ل . باومر
تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة	جـــابريل بايـــر
اعلام الفلسفة السياسية المعـــاصرة	انطـــونى دى كرســـبني
كتـــابة الســـيناريو للســـينما	دوايت ســـوين
الزمن وقياســـه	زافيلســـكى ف . س
اجهـــزة تكييف الهـــواء	ابراهيم القرضـــاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي	بيتـــر رداى
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى	جـــوزيف داهموس
التجـــربة اليـــونانية	س . م بـــورا
مراكز الصناعة في مصر الاسلامية	د. عاصم محمـــد رزق
العـــلم والطـــلاب والمـــدارس	رونالد د. سمبســـون
الشارع المصرى والفـــكر	د. أنور عبـــد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روســـتو
تبسيط الكيميـــاء	فـــريد س هيس
العـــادات والتقاليد المصرية	جـــون بوركهـــارت
التـــذوق الســـينمائى	آلان كاســـبيار
التخطيط السياحي	ســـامى عبـــد المعطى
البـــذور الكونيـــة	فـــريد هـــويل
دراما الشاشة (٢ ج)	شـــاندرا ويكـــراما ماســـينج حســـين حلمى المهندس

المـــرأة الفـــرعونية	كريســـتيان دديروش
نظـــرية التصـــوير	ليوناردو دافنشى
التربيـة عن طـــريق الفـــن	هربرت ريـــد
معجـم التكنـولوجيا الحيـــوية	وليـــم بينـــز
البرمجـــة بلغــــة السى	روبرت لافـــو
الكيميـــاء فى خدمة الانســـان	رولاند جاكســـون
مجمـــل تاريخ الأدب المعـــاصر	ايفـــور ايفـــانس
نظـــرية الأدب المعـــاصر	ديفيـد بوشنبدر
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسـف شـــــرارة
كنـــوز الفـــراعنة	ت ٠ جـ ٠ هـ ٠ جميـــن
البرنامج النـــووى الاسرائيـلى	د ٠ ممـــدوح حـــامد عطيـة
بحثـــا عن عـــالم افضـل	كارل بـــوبر
العـلم وآفاق المسـتقبل	اســـحق عظيمـــوف
كونتـــنا المتمـــدد	ايفـــورى شـــاتزمان
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا	نومان كـــلارك

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥١٣٥ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5179 - 3

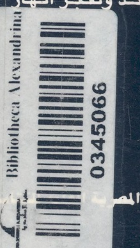
تهدف الهيئة المصرية العامة للكتاب من مشروع الألف كتاب الثانى أن تواصل مسيرة المشروع الأول لتكوين مكتبة متكاملة للقارئ العربى فى شتى جوانب المعرفة عن طريق الترجمة والتاليف فضلاً عن إعادة طبع أهم الأعمال الفكرية والعلمية والأدبية التى أسهمت فى تكوين الثقافة المصرية والعربية فى العصر الحديث والتى بات الاطلاع عليها اليوم متعذرًا لشباب هذا الجيل لقدم طبعاتها.

وفى هذا الإطار يسعى المشروع إلى إلقاء الضوء على اهم قضايا العصر الحديث.
ومن اهم الكتب التى صدرت فى هذا الميدان:

ما بعد الحداثة
مشكلات القرن ٢١
تحول السلطة
إنهم يصنعون البشر
إنهم يقتلون البيئة
بحثا عن عالم افضل
إطلالات على الزمن الآتى

(انظر قائمة الإصدارات فى آخر الكتاب)

وهذا الكتاب الذى بين يدى القارئ هو أول كتاب شامل باللغة العربية يعالج بصورة موضوعية محايدة ازمة البوسنة والهرسك فى منظورها التاريخى وإطارها الحديث وتداعياتها فى عالم ما بعد الحرب الباردة الذى سيشهد فيما يقدر المراقبون سلسلة من الأزمات العرقية الخطيرة فى شتى أرجاء العالم لا سيما عالمنا الثالث، وهو يوضح كيف للانتهازية السياسية أن تزيف أحداث التاريخ وأن تخلط الحق بالباطل، وأن تخلق أساطير وأوهام لتفرق بين أبناء الوطن الواحد وتفجر أنهار الدماء من أجل مصالح شخصية دنيئة.



٧٥٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب